سلسلة شروحات ومؤلفات معالي الشيخ صالح الفوزان (٤٥)

تعليقات على

إغاثة اللهفان

من مصايد الشيطان

تأليف

الإمام محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد

شمس الدين ابن قيم الجوزية

(٦٩١ - ٧٥١هـ)

الشرح

لفضيلة الشيخ العلامة

الدكتور صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

اعتنى به وأشرف على طبعه

د. سلمان جابر عثمان المجلهم السويلم

غفر الله له ولوالديه ولأهل بيته ولمشايخه

الجزء الثاني

التراث الذهبي
الرياض

مكتبة الإمام الذهبي
الكويت

إغاثة اللهفان

تعليقات على

إغاثة اللهفان

من مصايد الشيطان

ⓒ دار التراث الذهبي للنشر والتوزيع، ١٤٤٣ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الفوزان، صالح بن فوزان بن عبدالله

تعليقات على إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان / صالح بن فوزان بن عبدالله الفوزان؛ سلمان جابر المجلهم، - الرياض، ١٤٤٣ هـ

٤ مج، ١٧ x ٢٤ سم

ردمك: ٢-٠-٩١٦٨١-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

ردمك: ٦-٢-٩١٦٨١-٦٠٣-٩٧٨ (ج٢)

١- الوعظ والإرشاد أ. المجلهم، سلمان جابر (محقق) ب. العنوان

ديوي ٢١٣ ١٤٤٣/٦١٤

رقم الإيداع: ١٤٤٣/٦١٤

ردمك: ٢-٠-٩١٦٨١-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

ردمك: ٦-٢-٩١٦٨١-٦٠٣-٩٧٨ (ج٢)

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

(١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م)

الإمام الذهبي

مكتبة الإمام الذهبي للنشر والتوزيع

* **الفرع الرئيسي : حولي - شارع المثنى - مجمع البدري**
ت: ٢٢٦٥٧٨٠٦ فاكس: ٢٢٦١٢٠٠٤
* **فرع المصاحف : حولي - مجمع البدري ت ٢٢٦١٥٠٤٦**
* **فرع الفحيحيل : البرج الأخضر - شارع الدبوس ت ٢٥٤٥٦٠٦٩ - ٩٥٥٥٨٦٠٧**
* **فرع الجهراء : الناصر مول - ت ٩٥٥٥٨٦٠٨**
* **فرع الرياض : المملكة العربية السعودية - التراث الذهبي: ٠٠٩٦٦ ٥٥٧٧٦٥١٣٨**

ص.ب: ١٠٧٥٠ الرمز البريدي ٣٢٠١١ الكويت

الساخن: ت: ٠٠٩٦٥ ٩٤٤٠٥٥٥٩

E-mail: z.zahby74@yahoo.com imamzahby

تعليقات على

إغاثة اللهفان

من مصايد الشيطان

تأليف

الإمام محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد

شمس الدين ابن قيم الجوزية

(٦٩١ - ٧٥١ هـ)

الشرح

لفضيلة الشيخ العلامة

الدكتور صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

اعتنى به وأشرف على طبعه

د. سلمان جابر عثمان المجلهم السويلم

غفر الله له ولوالديه ولأهل بيته ولمشايخه

الجزء الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

البَابُ الثَّالِثَ عَشَرَ

في مكايد الشيطان التي يكيد بها ابن آدم

قال تعالى إخبارًا عن عدوِّه إبليس، لمَّا سأله عن امتناعه عن السجود لآدم، واحتجاجه بأنَّه خيرٌ منه، وإخراجه من الجنة، أنه سأله أن يُنْظِره، فأنظَره.

ثم قال عدو الله: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف:١٦-١٧].

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (الباب الثالث عشر: في مكايد الشيطان التي يكيد بها ابن آدم)، الآن دخل في موضوع العنوان: «إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان».

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ثم قال عدو الله: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف:١٦])، انظر! الخبيث يحتج بالقضاء والقدر.

قال: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ ولم يقل: «غويتُ، أستغفرك وأتوب إليك»، بل يقول: أنت الذي أغويتني.

هذا هو مذهب الجبرية[1] الذين يحتجون بالقضاء والقدر على فعل الكبائر والمعاصي، ويَعذرون أنفسهم؛ يقولون: نحن مقدَّرٌ علينا هذا!

---

(١) **الجبر هو**: نفي الفعل حقيقة عن العبد، وإضافته إلى الرب تعالى، والجبرية أصناف: =

مقدَّر عليكم، لكن ما السبب؟

السبب من عندكم: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [آل عمران:١٦٥]. ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى:٣٠]، فإبليس لم يعترف بالذنب، بل قال: (أَغْوَيْتَنِي).

أما آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ فاعترف بذنبه هو وزوجُه: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾[الأعراف:٢٣]. فتاب الله عليه، ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:٣٧].

❖ ❖ ❖

=فالجبرية الخالصة هي: التي لا تثبت للعبد فعلًا ولا قدرة على الفعل أصلًا، والجبرية المتوسطة هي: التي تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة أصلًا. انظر: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (ص٦٨)، والملل والنحل (١/ ٨٥)، والتعريفات (ص١٠١).

قال جمهور المفسِّرين والنحاة: حذف «على» فانتصب الفعل؛ والتقدير: لأقعدنّ لهم على صراطك[١].

والظاهر: أن الفعل مضمر؛ فإن القاعد على الشيء ملازم له، فكأنه قال: لألزمنّه، ولأرصُدنَّه، ولأُحْوِجنَّه، ونحو ذلك.

قال ابن عباس: «دينك الواضح»[٢]. وقال ابن مسعود: «هو كتاب الله»[٣]. وقال جابر: «هو الإسلام»[٤]. وقال مجاهد: «هو الحق»[٥].

الجميع عبارات عن معنى واحد، وهو الطريق الموصل إلي الله.

وقد تقدم حديث سَبْرة بن أبي الفاكه: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ...» الحديث[٦]؛ فما من طريق خير إلا والشيطان قاعد عليه، يقطعه على السالك.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قال جمهور المفسِّرين والنحاة؛ حذف (على) فانتصب الفعل؛ والتقدير: لأقعدنّ لهم على صراطك)، ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ﴾ [الأعراف:١٦] الأصل: لأقعدن لهم على صراطك، فحذف حرف الجر ونُصِبَ

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٠/ ٩٥، ٩٥)، تفسير الماوردي (٢/ ٢٠٦).

(٢) أورده الواحدي في التفسير البسيط (٩/ ٥١).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ١٧٣)، وأورده الواحدي في التفسير البسيط (٩/ ٥١).

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ١٧٣)، وأورده الواحدي في التفسير البسيط (٩/ ٥٢).

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره (١٠/ ٩٤، ٩٥).

(٦) سبق تخريجه (١/ ٨٠٢).

الاسم بعده، نُصِبَ وكان في موضع جر، لكن لما حذف الخافض نصبه، وهذا يسمونه: النصب بنزع الخافض، إذا حُذِفَ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**والتقدير: لأقعدنّ لهم على صراطك**)، الصراط الموصل إلى الله عَزَّوَجَلَّ يقعد عليه إبليس؛ يريد أن يصدهم عنه، وقَلَّ مَن يسلم إلا مَن سلمه الله.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**الجميع عبارات عن معنى واحد**)، صراط الله يُفسَّر بأنه الإسلام، ويفسر بأنه الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والكل حق؛ لأن اختلاف التفسير من اختلاف التنوُّع، وليس من اختلاف التضادِّ، تكون الآية تحتمل عدة معانٍ، فكل مفسِّر يأخذ بمعنًى من هذه المعاني[1].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**قال ابن عباس: «دينك الواضح»**)، يعني: الإسلام، فالصراط المستقيم: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة:٦] يعني ثلاثة أقوال: قيل: الإسلام. وقيل: الرسول. وقيل: القرآن، والكل حق؛ لأنها كلها تحتمل هذه المعاني.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وقال مجاهد: «هو الحق»**)، والحق: هو الإسلام.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**فما من طريق خير إلا والشيطان قاعد عليه، يقطعه على السالك**)؛ ولهذا قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿**وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ**﴾ [الأنعام:١٥٣].

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١/ ٧١ - ٧٤، ١٧٢-١٧٥، ٨/ ٨٨-٨٩)، وتفسير القرطبي (١/ ١٤٧، ٧/ ١٣٧)، وتفسير ابن كثير (١/ ١٣٧-١٣٨)، وتفسير ابن رجب (١/ ٧٥)، وفتح القدير للشوكاني (١/ ٢٣)، وانظر: مجموع الفتاوى (٤/ ٣٩).

فالسُّبُل متعددة؛ لأن الضلال والكفر متعدد، أما الصراط المستقيم فهو واحد، وهو دين الله عَزَّوَجَلَّ، وكتابه، وسُنة نبيه، الصراط واحد ليس به انقسام، وليس فيه متاهة، وليس فيه مضيعة.

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ [الأعراف:١٧].

قال ابن عباس في رواية عطية عنه: «مِنْ قِبَل الدنيا»(١). وفي رواية عليٍّ عنه: «أُشكِّكهم في آخرتهم»(٢). وكذلك قال الحسن: «من قِبَلِ الآخرة؛ تكذيبًا بالبعث والجنة والنار»(٣). وقال مجاهد: «من بين أيديهم: من حيث يبصرون»(٤).

الشَّرْح

قول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ [الأعراف:١٧])، لما حصل لإبليس- لعنه الله- من الطرد والإبعاد(٥)؛ بسبب استكباره على أمر الله، وحسده لآدم على ما أتاه الله من فضله فإنه حينئذٍ طلب مِن ربه أن ينظره إلى يوم البعث؛ لأجل أن ينتقم من بني آدم، ويتشفى منهم.

وهذا لا شك أنه بقضاء الله وقدره، وهو ابتلاء وامتحان؛ ليتميز الصادق في إيمانه من الكاذب، يتميز المؤمن من الكافر.

فالله جَلَّ وَعَلَا أجاب إبليس في طلبه، قال: ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴾ [الحجر:٣٧]، ولكن لم يجبه إلى قوله: ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴾ [الحجر:٣٦]. بل قال الله: ﴿ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴾ [الحجر:٣٨].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٤٤٤) من طريق عطية عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا، وأخرجه الطبري في تفسيره (١٠/ ٩٧)، من طريق عليِّ بن أبي طلحة عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا.
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٠/ ٩٦)، و ابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٤٤٤).
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٤٤٤).
(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (١٠/ ١٠٠)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٤٤٤).
(٥) انظر معنى اللعن في: النهاية في غريب الأثر (٤/ ٢٥٥)، ومقاييس اللغة (٥/ ٢٥٢).

فعند ذلك صرَّح عن قصده بأنه سيتفرغ لبني آدم انتقامًا منهم مما أصابه بسبب أبيهم؛ ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف:١٧].

﴿ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ ﴾: تفسير هذه الكلمة: ﴿ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ ﴾: يعني من جهة دنياهم وإشغالهم بها، أو أنه يشككهم فيما أمامهم من البعث والنشور إلى آخر ما ذكر.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال مجاهد: «من بين أيديهم: من حيث يبصرون»)**، من حيث يبصرون أمامهم، فأنا آتيهم وأشككهم فيما يبصرون.

﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾: [الأعراف:١٧]. قال ابن عباس: «أرغِّبهم في دنياهم»(١). وقال الحسن: «مِن قِبَل دنياهم، أزيِّنها لهم وأُشهّيها إليهم»(٢). وعن ابن عباس رواية أخرى: «من قِبَل الآخرة»(٣). وقال أبو صالح: «أُشككهم في الآخرة، وأباعدها عليهم»(٤). وقال مجاهد أيضًا: «من حيث لا يبصرون»(٥).

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ [الأعراف:١٧])، إذًا -والله أعلم- اتضح المعنى أنه: ﴿مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾: يعني في دنياهم؛ يغريهم بها، ويزينها لهم، ويشغلهم بها.

﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾: يعني في آخرتهم؛ يعوقهم عن الاستعداد لها، وعن الإيمان بها.

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٠/ ٩٦).
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٤٤٤).
(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (١٠/ ٩٧)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٤٤٤).
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٤٤٥).
(٥) أخرجه الطبري في تفسيره (١٠/ ١٠٠)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٤٤٥).

﴿وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ﴾: قال ابن عباس: «أُشَبِّه عليهم أمر دينهم»(١). وقال أبو صالح: «الحقّ أُشكِّكهم فيه»(٢). وعن ابن عباس أيضًا: «من قِبَل حسناتهم»(٣).

وقال الحسن: «من قِبَل الحسنات أثبِّطهم عنها»(٤). وقال أبو صالح أيضًا: «من بين أيديهم، ومن خلفهم، وعن أيمانهم، وعن شمائلهم: الباطل أُنفِّقه عليهم وأُرغِّبهم فيه»(٥).

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ﴾: قال ابن عباس: «أُشَبِّه عليهم أمر دينهم»)، يعني يلقي عليهم الشبهات في أمر دينهم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال أبو صالح: «الحقّ أُشكِّكهم فيه»)، مثل الأول.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال أبو صالح أيضًا: «من بين أيديهم، ومن خلفهم، وعن أيمانهم، وعن شمائلهم: الباطل أُنفِّقه عليهم وأُرغِّبهم فيه»)، يأتيهم من جميع هذه الجهات، أرغبهم في الباطل، ويزينه.

ينفِّقه: يحسنه لهم ويزينه لهم.

الأقوال متقاربة، والآية تحتمل؛ ولذلك اختلاف المفسرين -كما يقولون- اختلاف تنوع، ليس اختلاف تضاد؛ فالآية تحتمل كل هذه الأقوال.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٠/ ٩٦)، و ابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٤٤٥).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٤٤٥).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (١٠/ ٩٧)، و ابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٤٤٥).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٤٤٥).

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٤٤٦).

وقال الحسن: «﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمۡ﴾: السيئات يأمرهم بها، ويحثهم عليها، ويُزيِّنها في أعينهم»[١]. وصح عن ابن عباس أنه قال: «ولم يقل: من فوقهم؛ لأنه عَلِم أن الله من فوقهم»[٢]. وقال الشعبي: «الله عَزَّوَجَلَّ أنزل الرحمة عليهم من فوقهم»[٣]. وقال قتادة: «أتاك الشيطان يا ابن آدم من كل وجه، غير أنه لم يأتك من فوقك؛ لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله»[٤].

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال الحسن: «﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمۡ﴾: السيئات يأمرهم بها، ويحثهم عليها، ويُزيِّنها في أعينهم»)، ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمۡ﴾: يزين لهم المكروه والباطل والسيئات حتى يوقعهم فيها.

﴿وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾: يعني يثبطهم عن الحسنات والأعمال الصالحة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وصح عن ابن عباس أنه قال: «ولم يقل: من فوقهم»)، لماذا لم يقل: من فوقهم؟ لأنه لا يقدر أن يمنع ما ينزل مِن الله عليهم من الخير والنصر والتأييد والزرق والهداية؛ ولأن الله جَلَّوَعَلَا فوق المخلوقات؛ فهذه الجهة محمية منه مِن قِبَلِ الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، لا يقدر أن يتعرض لها.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٤٤٦).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٠/ ١٠١)، بلفظ: (ولم يقل: (من فوقهم)؛ لأن الرحمة تنزل من فوقهم). وأورده السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٤٢٧) باللفظ المذكور، وزاد عزوه لعبد بن حميد، واللالكائي في السنة.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٤٤٦).

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (١٠/ ٩٧).

قال الواحدي(١): وقول من قال: الأيمان كناية عن الحسنات، والشمائل كناية عن السيئات، حسنٌ؛ لأن العرب تقول: اجعلني في يمينك، ولا تجعلني في شمالك، تريد: اجعلني من المقدَّمين عندك، ولا تجعلني من المؤخَّرين.

وأنشد لابن الدُّمَيْنة(٢):

أَبيني أفي يُمْنى يَديْكِ جَعَلْتِني فَأَفْرَحَ أمْ صَيَّرْتِني في شِمالِكِ؟(٣)

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قال الواحدي: وقول من قال: الأيمان كناية عن الحسنات، والشمائل كناية عن السيئات، حسنٌ)، هذا الواحدي المفسر المشهور، وقد طُبع له تفسيرٌ جيد وواسع، اسمه: «البسيط في التفسير».

يحسن القول بأن المراد ﴿وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ﴾: جهة الحسنات، ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾: جهة السيئات.

وأنشد ابن الدُّمَيْنة -من اللُّغويين-، شاهدًا.

أَبيني أفي يُمْنى يَديْكِ جَعَلْتِني فَأَفْرَحَ أمْ صَيَّرْتِني في شِمالِكِ؟

يخاطب معشوقته ومحبوبته، يقول: مِن أي الجهات جعلتيني: من جهة اليمين أو من جهة الشمال؟

---

(١) في التفسير البسيط (٩/ ٥٤)، ونقله عن أبي بكر بن الأنباري.

(٢) ابن الدُّمَيْنَة: هو عبد الله بن عبيد الله بن أحمد الخَثْعَميُّ، أبو السَّرِيِّ، والدمينة أمُّه، شاعر بدوي، من أرق الناس شعرًا، قَلَّ أن يُرى مادحًا أو هاجيًا. أكثر شعره الغزل والنسيب والفخر. تُوُفِّي نحو سنة ١٣٠ هـ.
انظر: الشعر والشعراء (٢/ ٧٢١)، و الأغاني (١٧/ ٦٤)، والأعلام (٤/ ١٠٢).

(٣) البيت في ديوانه (ص١٧)، وكذا هو في أمالي الزجاجي (ص١٦٨)، والأغاني (١٧/ ٦٣).

وروى أبو عُبَيد عن الأصمعي: هو عندنا باليمين، أي: بمنزلةٍ حسنة[١]، وبضد ذلك: هو عندنا بالشمال، وأنشد:

رَأَيتُ بَنِي العَلَّاتِ لمّا تَظافَروا ... يَحُوزُونَ سَهْمي عِنْدَهُمْ في الشَّمائِلِ[٢]

أي: يُنزِلونني بالمنزلة السيئة.

وحكى الأزهري عن بعضهم في هذه الآية: لأغوينَّهم حتى يكذِّبوا بما تقدم من أمور الأمم السالفة، ومن خلفهم بأمر البعث، وعن أيمانهم وعن شمائلهم؛ أي: لأضلّنهم فيما يعملون؛ لأن الكسب يقال فيه: ذلك بما كسبت يداك، وإن كانت اليدان لم تَجنِيا شيئًا؛ لأنهما الأصل في التصرف، فجُعلتا مثلًا لجميع ما يُعمل بغيرهما[٣].

وقال آخرون - منهم أبو إسحاق، والزمخشري، واللفظ لأبي إسحاق -: ذكر هذه الوجوه للمبالغة في التوكيد؛ أي: لآتينَّهم من جميع الجهات، والحقيقة -والله أعلم-: أتصرف لهم في الإضلال من جميع جهاتهم[٤].

---

(١) نقله الواحدي في التفسير البسيط (٩/ ٥٥)، وابن منظور في لسان العرب (١٣/ ٤٦١).

(٢) البيت لأبي خراش الهذلي من قصيدة يرثي بها أخاه، ومن قتلته ثمالة وكنانة من أهله، وهي في ديوان الهذليين (٢/ ١٢٥)، والأغاني (٢١/ ١٤٥).

(٣) تهذيب اللغة (١٥/ ٣٧٦)، ونقله عن الأزهريِّ: الواحديُّ في التفسير البسيط (٩/ ٥٦)، وعنه نقل المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٤) انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٣٢٤)، التفسير البسيط (٩/ ٥٦)، تفسير الزمخشري (٢/ ٩٣).

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وروى أبو عبيد عن الأصمعي: هو عندنا باليمين، أي: بمنزلةٍ حسنة، وبضد ذلك: هو عندنا بالشمال)**، وهذا حتى عند العوام؛ إذا جاءهم الشيء يقولون: اجعله عن يمينك، هذا شيء طيب، وهذا شخص طيب، اجعله عن يمينك، وإذا صار الشخص سيئًا، قالوا: اجعله عن يسارك فقط.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وحكى الأزهري عن بعضهم في هذه الآية: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ حتى يكذِّبوا بما تقدم من أمور الأمم السالفة، ومن خلفهم بأمر البعث، وعن أيمانهم وعن شمائلهم؛ أي: لأضلّنهم فيما يعملون)**، كل هذه الأقوال متقاربة، وكلها تحتملها الآية الكريمة.

وقال الزمخشري: (ثم لآتينَّهم من الجهات الأربع التي يأتي منها العدو في الغالب، وهذا مَثَلٌ لوسوسته إليهم، وتسويله ما أمكنه وقدر عليه.

كقوله: ﴿ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ [الإسراء:٦٤])[١]. وهذا يوافق ما حكيناه عن قتادة: «أتاك من كل وجه، غير أنه لم يأتك من فوقك»[٢].

وهذا القول أعمُّ فائدةً، ولا يناقض ما قاله السلف؛ فإن ذلك على جهة التمثيل لا التعيين.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال الزمخشري: ﴿ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم ﴾ من الجهات الأربع التي يأتي منها العدوفي الغالب، وهذا مَثَلٌ لوسوسته إليهم، وتسويله ما أمكنه وقدر عليه)، فهذا يحذرنا من الشيطان، وأنه يترصد لنا من كل وجه.

فيجب علينا أن نستعيذ بالله من شره ووسواسه، وأن نتوكل على الله، ونعتمد على الله عَزَّوَجَلَّ، ولا يضرنا إذا توكلنا على الله واستعذنا بالله من هذا العدو، فإن الله يحمينا منه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وهذا يوافق ما حكيناه عن قتادة: «أتاك من كل وجه، غير أنه لم يأتك من فوقك». وهذا القول أعمُّ فائدةً)، هذا ترجيح الشيخ ابن

(١) تفسير الزمخشري (٢/ ٩٣).

(٢) تقدم تخريجه، وأورده الواحدي في التفسير البسيط (٩/ ٥٤).

القيم، هذا القول -قول قتادة بن دعامة-: أنه يأتيهم من كل جهة إلا الجهة العليا، هذا هو أرجح الأقوال.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولا يناقض ما قاله السلف؛ فإن ذلك على جهة التمثيل لا التعيين)**، ما قالوه كل متقارب، وهو تمثيل لكيد الشيطان، وكله محتمل، وكله صحيح.

قال شقيق: «ما من صباحٍ إلا قعد لي الشيطان على أربعة مراصد: من بين يديَّ، ومن خلفي، وعن يميني، وعن شمالي. فيقول: لا تخف فإن الله غفور رحيم، فاقرأ: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ [طه:٨٢].

وأما من خلفي فيُخوِّفني الضيْعة على من أُخلّفه، فأقرأ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود:٦]. ومن قِبَل يميني، يأتيني من قِبَل الثّناء، فأقرأ: ﴿ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف:١٢٨]. ومن قبل من لي، فيأتيني من قبل الشهوات، فأقرأ: ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ [سبأ:٥٤]»(١).

قلت: السُّبُل التي يسلكها الإنسان أربعة لا غير: فإنه تارة يأخذ على جهة يمينه، وتارة على شماله، وتارة أمامه، وتارة يرجع خلفه، فأيَّ سبيل سلكها من هذه وجد الشيطان عليها رصدًا له. فإن سلكها في طاعة وجده عليها يُثبّطه عنها ويقطعه، أو يُعوِّقه ويُبطِّئه، وإن سلكها لمعصية وجده عليها حاملًا له، وحاديًا، ومعينًا، ومُمَنِّيًا، ولو اتفق له الهبوط إلى أسفل لأتاه من هناك.

الشَّرح

قول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فيقول: لا تخف، فإن الله غفور رحيم)، يعني يقول له الشيطان: افعل ما تشاء من المعاصي والسيئات والشهوات، والله غفور رحيم.

(١) أورده الثعلبي في تفسيره (٤/ ٢٢٢).

وهذا هو مذهب المرجئة[١] الذين يقولون: الأعمال لا تدخل في مسمَّى الإيمان، ويعتمدون على آيات الرجاء وآيات الوعد، فيتركون الأعمال ويتكاسلون عنها.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فاقرأ: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ [طه:٨٢])، ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ ﴾: كثير المغفرة، لكن لمَن؟

﴿لِّمَن تَابَ ﴾؛ ليس غفارًا لمَن أصر على الذنوب والسيئات وتساهل فيها، فمن تاب من السيئات فإن الله تعالى يغفر له؛ ﴿لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾: إلى الحق.

فلا تأخذ أول الآية: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ ﴾، وتقول: الله غفار، الله غفور رحيم.

نعم، هو كذلك، لكن الله جَلَّوَعَلَا شديد العقاب، لا تنسَ هذا، لا تنسَ أن الله غفار، وأنه شديد العقاب، فخذ الطرفين.

خف من الله، لكن لا تقنط وتيأس من رحمة الله، ولا ترجو فقط وتنس أن الله شديد العقاب؛ فخذ الطرفين وسر بينهما، بين الخوف والرجاء.

هذا مذهب أهل السنة والجماعة: أن المسلم يكون بين الخوف والرجاء؛ فلا يرجو فقط حتى يأمن من مكر الله، ولا يخاف فقط حتى ييأس من رحمة الله، بل يكون بينهما خائفًا راجيًا.

---

(١) **المرجئة**: قيل: مِن الإرجاء، أي: من التأخير؛ لأنهم أخَّروا العمل عن مسمى الإيمان، وقيل: مِن الرجاء؛ لأنهم يقولون لا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة! وهم فرق شتى. انظر: (مقالات الإسلاميين) (ص١٣٢)، و(الفرق بين الفِرق) (ص١٩٠).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وأما من خلفي فيُخوِّفني الضيْعة على من أُخلّفه، فأقرأ:** ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود:٦])؛ ولذلك تقول الملائكة للمحتضر إذا جاءت لقبض رُوحه: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [فصلت:٣٠]، ملائكة الموت، ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟﴾ [فصلت:٣٠]، على ما أنتم قادمون عليه؛ فإن أمامَكم الجنة والرحمة، ﴿وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ [فصلت:٣٠]، على ما تركتم من الأموال والأولاد، لا تحزنوا عليها.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومن قِبَل يميني، يأتيني من قِبَل الثَّناء، فأقرأ:** ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف:١٢٨])، يأتيه من قِبَل الثناء، وهذا جانب الرجاء فقط.

لكن ادفعه بقوله: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [طه:١٣٢]، فالله جَلَّ وَعَلَا قيَّد هذا للمتقين والتقوى.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومن قبل من لي، فيأتيني من قبل الشهوات، فأقرأ:** ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ:٥٤])، هذا إذا قُبضت أرواح الكفار يوم القيامة حيل بينهم وبين ما يشتهون، انتهى وبقي العذاب، وبقي الحساب.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قلت: السُّبُل التي يسلكها الإنسان أربعة لا غير: فإنه تارة يأخذ على جهة يمينه، وتارة على شماله، وتارة أمامه، وتارة يرجع خلفه، فأيَّ سبيل سلكها من هذه وجد الشيطان عليها رصدًا له)**، الإنسان لا يخرج عن هذه السبل يمشي فيها: إما أن يمشي امامه أو خلفه يرجع، أو عن يمينه أو عن يساره؛ كل واحد منا إذا خرج من بيته لا بد أنه يسلك أحد هذه السبل.

الشيطان يترصد لك أينما توجهت؛ فخذ حذرك منه، واعتصم بالله؛ فإن الله يطرده عنك، ويعصمك منه.

ولهذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**وَاللهِ مَا سَلَكْتَ فَجًّا، إِلَّا سَلَكَ الشَّيْطَانُ فَجًّا غَيْرَ فَجِّكَ**»[1]. لا يقابل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لأنه يحرقه نور عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وإيمان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فهو يذهب ولا يقف له في طريق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وإن سلكها لمعصية وجده عليها حاملًا له، وحاديًا، ومعينًا، ومُمَنِّيًا)** يرغبه في المعصية، والمضي في طريقه إليها، يسهلها عليه.

(١) أخرجه البخاري (٣٢٩٤)، ومسلم (٢٣٩٦) من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومما يشهد لصحة أقوال السلف؛ قوله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فصلت:٢٥]. قال الكلبي: «ألزمناهم قرناء من الشياطين»(١). وقال مقاتل: «هيأنا لهم قرناء من الشياطين»(٢). وقال ابن عباس: «ما بين أيديهم: من أمر الدنيا، وما خلفهم: من أمر الآخرة»(٣).

والمعنى: زيَّنوا لهم الدنيا حتى آثروها، ودعوْهم إلى التكذيب بالآخرة والإعراض عنها(٤).

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ومما يشهد لصحة أقوال السلف قوله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فصلت:٢٥])، مما يؤيد هذه الأقوال: أن الشيطان يترصد لابن آدم من كل طريق: هذه الآية، هي قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ﴾)، قرناء من الشياطين، ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ﴾: يعني من الشياطين، شياطين الإنس والجن.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فصلت:٢٥])، ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾: يعني العذاب.

---

(١) انظر: التفسير البسيط (١٩/ ٤٥٠).

(٢) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان (٣/ ٧٤٠، ٧٤١).

(٣) عزاه الماوردي في تفسيره (٥/ ١٧٨) للسُّدِّي ومجاهد. وانظر: التفسير البسيط (٤/ ٣٥٠).

(٤) انظر: التفسير البسيط (١٩/ ٤٥٠).

وقال الكلبي: «زينوا لهم ما بين أيديهم من أمر الآخرة: أنه لا جنة، ولا نار، ولا بعث؛ وما خلفهم من أمر الدنيا: ما هم عليه من الضلالة»[١]. وهذا اختيار الفرّاء[٢]. وقال ابن زيد: «زيَّنوا لهم ما مضى من خبيث أعمالهم، وما يستقبلون منها»[٣].

والمعنى على هذا: زيَّنوا لهم ما عملوه، فلم يتوبوا منه، وما يعزمون عليه، فلا ينوون تركه. فقول عدو الله: ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ ﴾ يتناول الدنيا والآخرة، وقوله: ﴿ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡ ﴾ [الأعراف:١٧]، فإن كاتب الحسنات عن اليمين يَستحِثُّ صاحبه على فعل الخير، فيأتيه الشيطان من هذه الجهة يُثبِّطه عنه، وكاتب السيئات عن الشمال ينهاه عنها، فيأتيه الشيطان من تلك الجهة يُحرِّضه عليها؛ وهذا تفصيل ما أجمله في قوله: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾ [ص:٨٢].

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والمعنى على هذا: زيَّنوا لهم ما عملوه، فلم يتوبوا منه، وما يعزمون عليه، فلا ينوون تركه)، فعليك بالحذر من القرناء والجلساء، لا تقارن ولا تجالس إلا الصالحين والمؤمنين والمتقين.

إذا صحبت قومًا فاصحب خيارهم
ولا تصحب الأردى فتردى مع الردي[٤]

---

(١) انظر: تفسير الماوردي (٥/ ١٧٨)، والتفسير البسيط (١٩/ ٤٥١).
(٢) معاني القرآن للفراء (٣/ ١٧)، والتفسير البسيط (١٩/ ٤٥١).
(٣) التفسير البسيط (١٩/ ٤٥١).
(٤) هو منسوب لطرفة أو عدي بن زيد في شرح مقامات الحريري (١/ ٤٤٧)، وجزم بنسبته =

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقوله: ﴿وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾** [الأعراف:١٧]**، فإن كاتب الحسنات عن اليمين يَستحِثُّ صاحبه على فعل الخير، فيأتيه الشيطان من هذه الجهة يُثبّطه عنه، وكاتب السيئات عن الشمال ينهاه عنها، فيأتيه الشيطان من تلك الجهة يُحرّضه عليها)**، كل إنسان معه قرينان: واحد طيب يحثه على الخير والعمل الصالح، وآخر يحثه على الشر والخبائث، فأيهما استجاب له ذهب معه.

وهذا من الابتلاء والامتحان، لكن مَن توكل على الله؛ فمَن اعتمد على الله وفقه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويسر له.

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٢-٣]، أي: كافيه، فيكون العبد مع الله، يعصمه من عدوه وأعدائه، والأخطار المحدقة به.

=لطرفة صاحبُ الدر الفريد (٣/ ١٠٩)، ونسبه لعدي بن زيد صاحبُ غرر الخصائص الواضحة (ص٥٣٧).

وقال تعالى: ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [النساء:١١٧-١٢٠].

قال الضحاك: «مفروضًا أي: معلومًا»(١). وقال الزجاج: «أي: نصيبًا أفترِضُه على نفسي»(٢). قال الفراء: «يعني ما جُعل له عليه السبيلُ من الناس فهو كالمفروض»(٣).

قلت: حقيقة الفَرض هو التقدير، والمعنى: أن من أتَّبع الشيطانَ وأطاعه فهو من نصيبه المفروض، وحظه المقسوم، فكل من أطاع عدو الله فهو من مفروضه، فالناس قسمان: نصيب الشيطان ومفروضه، وأولياء الله وحزبه وخاصته.

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال تعالى: ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴾)، ﴿ إِن يَدْعُونَ ﴾: (إن) نافية بمعنى (ما)، يعني ما يدعون.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٧/ ٤٩١، ٤٩٢)، وأورده الواحدي في التفسير البسيط (٧/ ١٠٠).

(٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ١٠٩)، ونقله الواحدي في التفسير البسيط (٧/ ١٠٠).

(٣) معاني القرآن للفراء (١/ ٢٨٩)، ونقله الواحدي في التفسير البسيط (٧/ ١٠٠).

﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾: يعني من دون الله.

﴿إِلَّآ إِنَٰثًا﴾: هي أشياء مؤنثة، مثل: اللات، والعزى، ومناة.

﴿وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنًا مَّرِيدًا﴾: متمردًا عن طاعة الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفۡرُوضًا﴾)، لما لعنه الله بسبب آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، توعد ذريته لينتقم منهم ثارًا لنفسه، ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفۡرُوضًا﴾ [النساء:١١٨]: أضلهم، وأغويهم وأصرفهم عن الحق.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾)، ﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾: الأنعام التي يتركونها للأصنام يقطعون آذانها علامة على أنها للأصنام فلا يتعرض لها أحد.

هذا البَتْكُ: يعني يقطعون آذانها ويخرقونها.

والسائبة والوصيلة والحامي، هذه كلها أنواع من بهيمة الأنعام يتركونها للأصنام، يتقربون بها إليهم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِ﴾)، يعني ﴿فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِ﴾ فيهم.

فمثلًا: الإنسان خلقه الله في أحسن تقويم، ثم يأتيه الشيطان ويأمره الشيطان بحلق لحيته وتوفير شاربه.

ويأمر المرأة بالعبث بحواجبها والنمص؛ هذا تغيير لخلق الله عَزَّوَجَلَّ، وكذا ما يسمونه بالتجميل المحرم، يسمونه: تجميلًا، وهو تقبيح وتشويه!

بخلاف إذا كان في الإنسان عيب ويعالجه، ويزيل العيب الذي فيه؛ فلا بأس في هذا؛ لأنه علاج، فليس من تغيير خلق الله، هذا من تغيير العيب الذي فيه.

أما أنه يأتي على الأشياء الجميلة فيه، ويغيرها طاعة للشيطان؛ فهذا يغير خلق الله، وهو ملعون على ذلك.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾)، هذه الخاتمة، ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾: يتولى أموره ويدبر له، ويوجهه، ويترك توجيه الله، والتوجه إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإن الله يسلطه عليه جزاءً له وعقوبة له.

﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾: يعني غير الله.

﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾: خسر خسرانًا لا جبر له ولا عوض له؛ فلا خير في الشيطان، ولا في طاعته، ولا في قربه.

ولا تظنون أن هذا الشيطان خاص بالجن، شياطين الإنس أيضًا، ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام:١١٢].

ثم قال: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام:١١٣].

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام:١٤]: يتخذ الشيطان ويترك ربه عَزَّوَجَلَّ؟! هذا إنكار.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قال الضحاك: «مفروضًا أي: معلومًا»)**، ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا﴾ [النساء:١١٨].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال الزجاج)**، من أئمة اللغة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قال الفراء)**، من أئمة اللغة أيضًا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والمعنى: أن من اتَّبع الشيطانَ وأطاعه فهو من نصيبه المفروض)**، نصيب الشيطان المفروض يعني المقطوع.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فكل من أطاع عدو الله فهو من مفروضه)**، يكون من نصيبه، من نصيب الشيطان.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فالناس قسمان: نصيب الشيطان ومفروضه، وأولياء الله وحزبه وخاصته)**، الناس قسمان: قسم مع الشيطان، وقسم مع الرحمن، فالذين مع الشيطان هم أولياء الشيطان، والذين مع الرحمن هو أولياء الرحمن.

وقوله: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾، يعني: عن الحق، ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾؛ قال ابن عباس: «يريد: تسويف التوبة وتأخيرها»[١]. وقال الكلبي: «أُمنّيهم أنه لا جنة، ولا نار، ولا بعث»[٢]. وقال الزجاج: «أَجمع لهم مع الإضلال أن أُوهِمَهم أنهم ينالون مع ذلك حظّهم من الآخرة»[٣].

وقيل: لأمنّينهم ركوب الأهواء الداعية إلى العصيان والبدع[٤].

وقيل: أمنّيهم طولَ البقاء في نعيم الدنيا، فأُطِيل لهم الأمل فيها؛ ليُؤْثِرُوها على الآخرة[٥].

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾؛ قال ابن عباس: «يريد: تسويف التوبة وتأخيرها»)، ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾: يشغلهم بالأماني، يعني يتوب فيما بعد، يتوب بعد سنة، يعطي نفسه ما تشتهي، لا يحرمها، ثم فيما بعد يتوب.

ما الذي يدريك أنك ستدرك الوقت الذي تريد أن تتوب فيه؟!

أنت لا تدري متى تصعد نفسك ولا ترجع؟!

قد تموت بغتة، تموت على فراشك، تموت على سيارة، تموت على الأكل، لا تدري؛ فلا تؤجل وتمهل نفسك، هذا من أماني الشيطان.

---

(١) التفسير البسيط (٧/ ١٠١).

(٢) التفسير البسيط (٧/ ١٠١).

(٣) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ١٠٩)، ونقله عنه الواحدي في البسيط (٧/ ١٠١).

(٤) ذكره الواحدي في البسيط (٧/ ١٠١).

(٥) انظر: تفسير الماوردي (١/ ٥٣٠)، والتفسير البسيط (٧/ ١٠١).

يقول له: خذ راحتك، وخذ حظك من هذه الدنيا، متع نفسك يا أخي، لا تعذب نفسك، يقولون هكذا الآن، لا تتشاءم، كن متفائلًا، لا، خذ حذرك ولا تنخدع بهذه الأقوال؛ الموت يأتي لك بغتة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال الكلبي: أُمنيّهم أنه لا جنة، ولا نار، ولا بعث)**، أُمنّيهم في المستقبل، ليس هناك خطر، وليس أمامكم شيء، هذه ارجافات، هذه شائعات، لا تلتفتون إلى هذا الوعيد، ليس أمامكم إلا الخير، وأمامكم السلامة، حتى يخدعهم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال الزجاج: أَجمع لهم مع الإضلال أن أُوهِمَهم أنهم ينالون مع ذلك حظّهم من الآخرة)**، ﴿وَلَبِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف:٣٦]. ما الذي يضمن لك هذا؟! هذا غرور، والعياذ بالله.

يقول: ما دام أن الله أعطاني في الدنيا هذه الجنة وهذا البستان، فإن الذي عند الله؛ ﴿إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت:٥٠]، سأجد في الآخرة أحسن من هذه، ومن غير عمل، ومن غير تقوى، ومن غير طاعة! هذا يتمنى على الله الأماني.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقيل: لأمنّينهم ركوب الأهواء الداعية إلى العصيان والبدع)**، كل الأقوال متقاربة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقيل: أمنّيهم طولَ البقاء في نعيم الدنيا، فأُطِيل لهم الأمل فيها؛ ليُؤْثِرُوها على الآخرة)**، هذا ما قلناه: يقول: متع نفسك، رفه

عن نفسك، لا تضيق على نفسك، وأمامك فسحة، تتوب إلى الله فيما بعد، ما الذي يضمن أنك تبقى إلى هذا الوقت الذي آملته؟!

وأيضًا: لو بقيت إليه، ما الذي يضمن لك أن تتوب؟! هذا بتوفيق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقوله: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، البَتْك: القطع؛ وهو في هذا الموضع: قطع آذان البَحِيرة؛ عند جميع المفسرين(١).

ومِن هاهنا كرِه جمهور أهل العلم تثقيب أذني الطفل بالحَلَق.

ورخَّص بعضهم في ذلك للأنثى دون الذكر؛ لحاجتها إلى الحلية، واحتجوا بحديث أمّ زرعٍ، وفيه: «أَنَاسَ مِنْ حُلِيٍّ أُذُنَيَّ»، وقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كنتُ لك كأبي زَرْعٍ لأمّ زَرْع»(٢).

ونصَّ أحمدُ على جواز ذلك في حق البنت؛ وكراهته في حق الصبي(٣).

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (البَتْك: القطع؛ وهو في هذا الموضع: قطع آذان البَحِيرة؛ عند جميع المفسرين)، البحيرة والسائبة والوصيلة: أنواع من بهيمة الأنعام يتقربون بها إلى الأصنام، يتركونها للأصنام، تسمى البحيرة.

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ [المائدة:١٠٣].

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (ومِن هاهنا كرِه جمهور أهل العلم تثقيب أذني الطفل بالحَلَقِ)، بالحَلَق؛ لأن هذا مثل تخريق آذان الأنعام، وفيه تغيير لخلق الله أيضًا.

---

(١) ذكر ذلك الواحدي في التفسير البسيط (٧/ ١٠٢).

(٢) أخرجه البخاري (٥١٨٩)، ومسلم (٢٤٤٨) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) انظر: تحفة المودود بأحكام المولود (ص٢٠٩)، و الجامع لعلوم الإمام أحمد - الفقه (٨/ ٣٦٩).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ورخّص بعضهم في ذلك للأنثى دون الذكر؛ لحاجتها إلى «الحلية»)**، الأنثى لا بأس أن تخرق أذنها لتعليق الحلي فيها؛ لأنها بحاجة إلى الزينة، أما الذكر فلا يجوز خرق أذنه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(واحتجوا بحديث أمّ زَرعٍ، وفيه: «أَنَاسَ مِنْ حُلِيٍّ أُذُنَيَّ»)**، حُلِيٍّ أُذُنَيَّ: يعني أنها تعلق في أذنها حلي، وهذا موجود الآن في الفتيات.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ونصَّ أحمد على جواز ذلك في حق البنت؛ وكراهته في حق الصبي)**، لحاجتها إلى الحلي، أما الذَّكَر فليس بحاجة إلى الحلي.

الذكر جعله الله ذكرًا؛ فهو ليس بحاجةٍ إلى أن يتزين، والمرأة ناقصة، والحلي يكملها؛ يكمل النقص الذي فيها، الحلي يكملها، والذكر بالرجولة لا يحتاج إلى حلي، حلي الرجل: الأخلاق الطيبة، الشجاعة، الكرم.

وقوله: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾: قال ابن عباس: «يريد: دين الله»(١). وهو قول إبراهيمَ، ومجاهدٍ، والحسن، والضحاك وقتادة، والسُّدِّيِّ، وسعيد بن المسيّب، وسعيد بن جُبَير(٢).

ومعنى ذلك: هو أن الله تعالى فَطَر عباده على الفِطْرة المستقيمة، وهي ملَّة الإسلام، كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٠ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ﴾ [الروم:٣٠-٣١].

الشـَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وهو قول إبراهيم) يعني: إبراهيم النخَعي.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ومعنى ذلك: هو أن الله تعالى فطَر عباده على الفِطْرة المستقيمة، وهي ملَّة الإسلام)، يريد بهذا: ﴿فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾: تغيير الفطرة؛ لأن الله فطر العباد على الدين، ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم:٣٠].

فالأصل في الإنسان: الدين، لكن شياطين الإنس والجن يغيرون فطرته؛ ولهذا قال: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ»(٣).

---

(١) أخرجه الطبري في التفسير (٧/ ٤٩٧).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٧/ ٤٩٧-٥٠٠)، وتفسير الماوردي (١/ ٥٣٠)، والتفسير البسيط (٧/ ١٠٢).

(٣) أخرجه البخاري (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

يربونه على اليهودية أو على المجوسية أو على النصرانية، فالانحراف هو بسبب سوء التربية، أما الاستقامة فبسبب المحافظة على الفطرة التي فطره الله عليها.

ومن هنا يجب العناية بتربية الأولاد الصغار على طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، ولهذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ لِسَبْعٍ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا لِعَشْرٍ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ**»[1]. يربّون على الخير، وعلى العفة، وعلى الطاعة.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾)، ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾: ليس هناك أحد يقدر أن يوجد مولود على غير فطرة الإسلام، يولد على دين المجوس أو على دين النصارى أو اليهود، لا أحد يغير هذا.

﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾: لكن التبديل يكون للمخلوق، هو التبديل؛ «فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ». التبديل هو للمخلوق لا للخالق.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ﴾)، ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم:٣١-٣٢]. هذه المشكلة، إذا صاروا يفرحون بتفرقهم، وكل واحد عنده كتاب يقدسه، ومنهج يسير عليه، أو زُين له إمامه أو قائده.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٥)، وأحمد (١١/ ٢٨٤)، والحاكم (١/ ٣١١)، والدارقطني (١/ ٤٣٠) من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فيترك الكتاب والسنة، ويفرح بضدهما، يفرح بالمنهج الذي هو عليه، أما لو كان لم يفرح به، وعنده فيه شك، فيمكن أن يتحول، ويمكن أن يتوب، لكن المشكلة أنه صار فرحًا بما هو عليه ومستقرًّا على ما هو عليه، وهذا صعب؛ لأن الشيطان يزين له هذا.

ولذلك بعضهم لا يرجع إلى الحق، إذا تبيَّن له لا يرجع؛ يبقى على منهجه وعلى مذهبه وعلى ما يرسمه له الذين يتبعهم ويسير معهم، ويبايعون على مناهجهم.

ولهذا قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، وَيُنَصِّرَانِهِ، وَيُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ حَتَّى تَكُونُوا أَنْتُمْ تَجْدَعُونَهَا؟!. ثم قرأ أبو هريرة: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ الآيةَ [الروم: ٣٠]»، متفق عليه[(١)].

فجمع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين الأمرين: تغيير الفطرة بالتهويد والتنصير، وتغيير الخِلقة بالجدْع، وهما الأمران اللذان أخبر إبليس أنه لا بد أن يُغيّرهما؛ فغيَّر فطرة الله بالكفر، وهو تغيير الخلقة التي خُلِقُوا عليها، وغيَّر الصورة بالجَدع والبَتْك، فغيَّر الفطرة إلى الشرك، والخِلقة إلى البتك والقطع، فهذا تغيير خلقة الروح، وهذا تغيير خلقة الصورة.

ثم قال: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ﴾؛ فوَعْدُه ما يصل إلى قلب الإنسان، نحو: سيطول عمرُك، وتنال من الدنيا لذّتك، وستعلو على أقرانك، وتظفر بأعدائك، والدنيا دُوَلٌ، ستكون لك كما كانت لغيرك، ويُطوِّل أملَه، ويَعِدُه بالحُسْنى على شِركه ومعاصيه، ويُمنّيه الأمانيَّ الكاذبة على اختلاف وجوهها.

والفرق بين وعده وتمنيته: أن الوعد في الخبر، والتمنية في الطلب والإرادة؛ فيعده الباطل الذي لا حقيقة له وهو الغرور ويُمنَيه المحال الذي لا حاصل له.

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٥٨، ٦٥٩٩)، ومسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولهذا قال** صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، وَيُنَصِّرَانِهِ، وَيُمَجِّسَانِهِ»)**، ولم يقل: ويسلمانه، يعني: يجعلانه مسلمًا؛ لأن الأصل فيه الإسلام.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(«كَمَا تُنْتَجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ حَتَّى تَكُونُوا أَنْتُمْ تَجْدَعُونَهَا؟!»)**، البهيمة أول ما تولد تكون كاملة الخلقة؛ آذانها وقرونها، فالذي يحدث لآذانها تخرق وتقطع، هذا من بني آدم، أنتم تجدعونها، هذا مثل الفطرة تمامًا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهما الأمران اللذان أخبر إبليس أنه لا بد أن يُغيّرهما)**، ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ [النساء:١١٩].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ثم قال: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ﴾)**، الشيطان؛ ﴿يَعِدُهُمْ﴾: بني آدم، يعدهم بالتقدم والرقي والحضارة والأزدهار.

﴿وَيُمَنِّيهِمْ﴾: أنهم يدركون هذه الأمور.

ومن تأمَّل أحوال أكثر الناس وجدهم متعلّقين بوعده وتمنيته وهم لا يشعرون؛ يَعِدُ الباطل، ويمنّي المحال، والنفس المهينة التي لا قَدْر لها تغتذي بوعده وتمنيته، كما قال القائل[1]:

مُنًى إنْ تكُنْ حَقًّا تَكُنْ أحْسَنَ المُنَى ... وَإلَّا فَقدْ عِشْنَا بِهَا زَمَنًا رَغْدَا

فالنفس المبطلة الخسيسة تلتذ بالأمانيّ الباطلة والوعود الكاذبة، وتفرح بها كما يفرح بها النساء والصبيان ويتحركون لها.

فالأقوال الباطلة مصدرها وعد الشيطان وتمنيته؛ فإنه يُمنِّي أصحابها الظَّفر بالحق وإدراكه، ويَعدُهم الوصول إليه من غير طريقه، فكل مُبطِلٍ فله نصيبٌ من قوله: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠].

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ومن تأمَّل أحوال أكثر الناس وجدهم متعلّقين بوعده وتمنيته وهم لا يشعرون؛ يَعِدُ الباطل، ويمنّي المحال)؛ ولهذا بعضهم يجمع ويتعب ويقول: (أنا أؤمن مستقبلي)، لا بأس، أمِّنْ مستقبلك، وادخر ما يغنيك عن الناس، لكن لماذا لا تؤمِّنُ مستقبلك الحقيقي وهو الآخرة؟! هل مستقبلك في الدنيا فقط؟! أمِّنْ مستقبلك في الآخرة أول شيء.

(١) يُنسب البيت للرماح بن ميادة، أو رجل من بني الحارث. يُنظر: شعر ابن ميادة (ص٢٥٥)، وهو منسوب في شرح حماسة أبي تمام للفارسي (٣/ ١٦٤) لرجل من بني الحارث، ونسبه ابن قتيبة في عيون الأخبار (١/ ٣٧١) لبعض الأعراب.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(مُنًى إنْ تكُنْ حَقًّا تَكُنْ أحْسَنَ المُنَى* وَإلّا فَقَدْ عِشْنَا بِهَا زَمَنًا رَغْدَا)**، يقول: هذه التمنيات هذه طيبة؛ إن أدركناها نتمتع بها، وإن لم ندركها على الأقل نمتع بها أنفسنا وقتنا.

يقول: سيحصل لنا كذا، وسيتم لنا كذا، ونريد أن نلحق بكذا، ونتشجع في حياتنا بالوعود الكاذبة والأماني الباطلة.

الأماني إن تكن حقًّا تكن أطيب المنى، وإلا تكن حقًّا ولم ندركها فقد عشنا زمنًا رغدًا. يعيش على أمانٍ باطلة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فالأقوال الباطلة مصدرها وعد الشيطان وتمنيته)**، هذا كل الكلام، هذه هي مصائد الشيطان التي جعلها الشيخ عنوانًا لهذا الكتاب.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ﴾ [البقرة:٢٦٨]. قيل: ﴿يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ﴾، يخوّفكم به، يقول: إن أنفقتم أموالكم افتقرتم(١).

﴿وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾، قالوا: هي البخل في هذا الموضع خاصة.

ويُذكر عن مقاتل والكلبي: (كل فحشاء في القرآن فهي الزنا إلا في هذا الموضع؛ فإنها البخل)(٢).

والصواب أن الفحشاء على بابها، وهي كل فاحشة، فهي صفة لموصوف محذوفٍ، فحذف موصوفها إرادةً للعموم؛ أي بالفَعْلة الفحشاء، والخُلّة الفحشاء، ومن جملتها البخل.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (قيل: ﴿يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ﴾، يخوّفكم به، يقول: إن أنفقتم أموالكم افتقرتم)، يعني إن أخرجتم الزكاة، وإن تصدقتم؛ فإن هذا يؤذي، وتنفد به أموالكم، ولا تبقى لكم أموال، وفِّروها، لا تضيعوها بالصدقات والزكوات! ولا يدري أن الزكاة تنمي المال وتباركه بإذن الله.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (﴿وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾، قالوا: هي البخل في هذا الموضع خاصة)، الفحشاء: هي البخل.

---

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج (١/ ٣٥١)، وتفسير الثعلبي (٢/ ٢٧٠)، وزاد المسير في علم التفسير (١/ ٢٤٢).

(٢) انظر: تفسير الثعلبي (٢/ ٢٧٠)، والتفسير البسيط (٤/ ٤٢٩).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ويُذكر عن مقاتل والكلبي: «كل فحشاء في القرآن فهي الزنا إلا في هذا الموضع؛ فإنها البخل»)**، ﴿وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾، يأمركم بالزنا، ويأمركم بالبخل.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والصواب أن الفحشاء على بابها، وهي كل فاحشة)**، كل ما قبح فعله فهو فاحشة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهي كل فاحشة، فهي صفة لموصوف محذوفٍ، فحذف موصوفها إرادةً للعموم)**، ما تناهى قبحه، فهو الفحشاء.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والخُلّة الفحشاء، ومن جملتها البخل)** الخَلّة يعني: الصفة.

فذكر سبحانه وعد الشيطان وأمره، يأمر بالشر، ويُخَوِّف من فعل الخير، وهذان الأمران هما جماع ما يطلبه الشيطان من الإنسان؛ فإنه إذا خوّفه من فعل الخير تركه، وإذا أمره بالفحشاء وزيّنها له ارتكبها. وسمَّى سبحانه تخويفه وَعْدًا؛ لانتظار الذي خوَّفه إياه كما ينتظر الموعود ما وُعد به. ثم ذكر سبحانه وعده على طاعته، وامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وهي المغفرة والفضل، فالمغفرة: وقاية الشر، والفضل: إعطاء الخير.

وفي الحديث المشهور: «إن للملَك بقلب ابن آدم لَمَّةً، وللشيطان لَمَّةً؛ فلَمَّةُ الملك: إيعاد بالخير، وتصديق بالوعد، ولَمَّةُ الشيطان: إيعاد بالشر، وتكذيبٌ بالوعد، ثم قرأ: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ﴾ الآيةَ»[1].

فالملك والشيطان يتعاقبان على القلب تعاقب الليل والنهار، فمن الناس من يكون ليله أطول من نهاره، وآخر بضده، ومنهم من يكون زمنه نهارًا كله، وآخر بضده.

الشَّرح

قول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وهذان الأمران هما جماع ما يطلبه الشيطان من الإنسان؛ فإنه إذا خوّفه من فعل الخير تركه، وإذا أمره بالفحشاء وزيّنها له ارتكبها)، ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةً مِّنۡهُ

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٩٨٨)، والنسائي في الكبرى (١٠/ ٣٧)، وابن حبان (٣/ ٢٧٨) والبيهقي في الدعوات الكبير (٢/ ٢٥٩)، وفي شعب الإيمان (٦/ ٢٨٤) من حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴾ [البقرة:٢٦٨]. لاحظ الفرق بين وعد الله ووعد الشيطان.

كلام نفيس، ومفيد منه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

فصل

ومن كيده للإنسان: أنه يُورِده المواردَ التي يُخيَّل إليه أن فيها منفعته، ثم يُصْدِرُهُ المصادر التي فيها عطبه، ويتخلّى عنه ويُسلِمه ويقف يشمتُ به، ويضحك منه، فيأمره بالسرقة والزنا والقتل، ويدل عليه ويفضحه.

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**ومن كيده للإنسان: أنه يُورِده المواردَ التي يُخيَّل إليه أن فيها منفعته، ثم يُصْدِرُهُ المصادر التي فيها عطبه، ويتخلّى عنه ويُسلِمه ويقف يشمتُ به، ويضحك منه**)، ومِن كيد الشيطان -لعنه الله- لبني آدم: أنه من الطاعة يوقعه في المهالك من الذنوب والمعاصي، والمخالفات يزينها له، ويحسنها له.

ثم إذا أحس ابن آدم أنه ضل الطريق، وأنه أخطأ فإن الشيطان يسخر منه، ويضحك عليه ويتبرأ منه؛ كما حصل منه مع المشركين في وقعة بدر: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ ﴾: فئة المسلمين وفئة الكفار.

التقى الجمعان، ورأى الملائكة تنزل على صحابة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تؤيدهم؛ فر هاربًا: ﴿ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ ﴾، يعني: يرى الملائكة. ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾

[الأنفال:٤٨].

﴿فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ﴾: هذه نهاية الشيطان مع ابن آدم دائمًا وأبدًا.

فعلى المسلم أن يحذر منه، ومن تزيينه للأمور التي عاقبتها سيئة فيتجنبها ويقطع عليه الطريق، فلا يعطيه طريقًا إلى نفسه يوقعه في المهالك، ويزين له المكاره، ثم يتبرأ منه في النهاية.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(ومن كيده للإنسان: أنه يُورِده الموارِدَ التي يُخيِّل إليه أن فيها منفعته، ثم يُصْدِرُهُ المصادر التي فيها عطبه)**، مثلما فعل مع أبينا آدم لما نهاه الله عَزَّوَجَلَّ أن يأكل من شجرة معينة في الجنة، جاءه الشيطان وقال: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا﴾: حلف لهما. ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف:٢٠-٢٢].

﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾: وأكلا من الشجرة.

﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف:٢٢]. فتاب آدم وزوجه، ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف:٢٣]، فهو هكذا مع بني آدم يوردهم الموارد، ثم يضحك عليهم ويتبرأ منهم في النهاية؛ ليزيدهم بذلك ندامة وحسرة.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(ومن كيده للإنسان: أنه يُورِده الموارِدَ التي يُخيِّل إليه أن فيها منفعته)**، ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ [طه:١٢٠]، يقول لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، يزين له الأكل من هذه الشجرة التي نهاه الله عن الأكل منها.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ثم يُصْدِرُهُ المصادر التي فيها عطبه، ويتخلّى عنه ويُسلِمه ويقف يشمتُ به، ويضحك منه)**، ولكن آدم تاب إلى الله، قطع الطريق على الشيطان، وتاب الله عليه، فلم يحصل الشيطان منه على مقصوده.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فيأمره بالسرقة والزنا والقتل، ويدل عليه ويفضحه)**، يأمره بالزنا والسرقة والقتل، قتل النفوس بغير حق، فإذا واقعه دل عليه، وأخبر عنه؛ لأجل أن يهلكه بذلك.

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأنفال:٤٨]، فإنه تراءى للمشركين عند خروجهم إلى بدرٍ في صورة سُراقة بن مالك، وقال: إني جارٌ لكم من بني كِنانة أن يقصدوا أهلكم وذراريكم بسوء. فلما رأى عدوُّ الله جنودَ الله من الملائكة نزلت لنصر رسوله فرَّ عنهم وأسلمهم[1]، كما قال حسان[2]:

دَلَّاهُــمُ بِـغُــرُورٍ ثُــمَّ أَسْـلَـمَـهُـمْ ... إِنَّ الخـبِـيـثَ لِـمَـنْ وَالَاهُ غَــرَّارُ

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قال تعالى: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ)، هذا في بدر؛ ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾: تمثل بصورة سراقة بن مالك الجعشمي، كان زعيمًا مشهورًا في قومه.

قال: ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾: لا تخافوا، أنا وقومي سنكون معكم نمنعكم من محمد وأصحابه.

قول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (كما قال حسان: دَلَّاهُمُ بِغُرُورٍ ثُمَّ أَسْلَمَهُمْ * إِنَّ الخَبِيثَ

(١) أسلمهم أي: خذلهم. انظر: الصحاح (٥/ ١٩٥٢).
(٢) البيت من قصيدة لحسان بن ثابت، في سيرة ابن هشام (١/ ٦٦٤).

لمنْ وَالاهُ غرّارُ)، حسان بن ثابت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ شاعر الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال قصيدة في هذه الغزوة ونهايتها، ومنها هذا البيت:

دَلّاهُـــمُ بِـغُـرُورٍ ثُـمَّ أَسْـلَـمَـهُـمْ   إِنَّ الخَـبِـيثَ لِمَـنْ وَالاهُ غَـرّارُ

وكذلك فعل بالراهب الذي قتل المرأة وولدها، أمره بالزنا بها ثم بقتلها، ثم دلّ أهلها عليه، وكشف أمره لهم، ثم أمره بالسجود له، فلما فعل فرَّ عنه وتركه. وفيه أنزل الله سبحانه: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحشر:١٦][(١)].

وهذا السياق لا يختص بالذي ذُكرت عنه هذه القصة، بل هو عامٌ في كل من أطاع الشيطان في أمره له بالكفر، لينصره ويقضي حاجته؛ فإنه يتبرأ منه ويُسْلمه كما يتبرأ من أوليائه جملةً في النار، ويقول لهم: ﴿إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ [إبراهيم:٢٢]، فأوردهم شرَّ الموارد، وتبرأ منهم كلَّ البراءة.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وكذلك فعل بالراهب الذي قتل المرأة وولدها، أمره بالزنا بها ثم بقتلها، ثم دلّ أهلها عليه، وكشف أمره لهم، ثم أمره بالسجود له، فلما فعل فرَّ عنه وتركه)، أوقع هذا الإنسان بالزنا من المرأة، ولما زنى بها، قال له: ستفضحك هذه المرأة وستخبر قومها، فقتلها، بعد الزنا بها قتلها.

ثم ذهب إلى قومها وأخبرهم بخبر الذي قتلها من هو، فجاؤوا وأمسكوه، فجاءه الشيطان وقال: أخلصك، أنا أخصلك بشرط أن تسجد لي، فسجد له؛ يريد الخلاص، فلما سجد له فرَّ وتركه فقتلوه.

(١) انظر: تفسير عبد الرزاق (٣/ ٢٩٩، ٣٠٠)، وتفسير الطبري (٢٢/ ٥٤١-٥٤٤)، وتفسير الثعلبي (٩/ ٢٨٤-٢٨٦)، وتفسير الماوردي (٥/ ٥٠٩، ٥١٠)، والتفسير البسيط (٢١/ ٣٩٠)، وزاد المسير (٤/ ٢٦١-٢٦٣).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فلما فعل فرَّ عنه وتركه)**، فلما فعل، يعني: لما سجد للشيطان.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وفيه أنزل الله سبحانه:** ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الحشر:١٦])، في سورة الحشر: أنه زين له الزنا أولًا، ثم زين له قتل النفس، ثم تبرأ منه.

﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ﴾: يعني: مثل هؤلاء المنافقين الذين غروا المشركين حتى وقعوا في المحظور ثم تبرؤوا منهم.

﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ﴾: يعني سجد لإبليس، والسجود لغير الله كفر

﴿فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الحشر:١٦]. ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ﴾: الإنسان الذي قتل وسجد للشيطان وإبليس أيضًا؛ ﴿أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الحشر:١٧].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وفيه أنزل الله سبحانه:** ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ﴾)، ﴿ٱكۡفُرۡ﴾: يعني ليس قتل النفس، قتل النفس ليس كفرًا، إنما سجوده له هذا كفر.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الحشر:١٦])، ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الحشر:١٧].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهذا السياق لا يختص بالذي ذُكرت عنه هذه القصة، بل هو عامّ في كل من أطاع الشيطان في أمره له بالكفر، لينصره ويقضي حاجته)**، فمثلًا: هو يغرر بالقبوريين الآن، يقول لهم: عليكم بالقبر الفلاني؛ تقضى حاجاتكم، وتحصلون على المطلوب، فإذا أوقعهم في الشرك تبرأ منهم، وضحك عليهم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإنه يتبرأ منه ويُسْلمه كما يتبرأ من أوليائه جملةً في النار)**، يُسْلمه: يعني يتركهم ينتقمون منه، يترك خصومه ينتقمون منه، ولا ينصره كما وعد، يعجز أن ينصره.

في النهاية يقول لأهل النار، إذا دخلوا النار وهو معهم، فيخطب في النار- والعياذ بالله- ويقول: ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ﴾: يعني بمغيثكم.

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ﴾: بمغيثي مما أنا فيه.

﴿إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ [إبراهيم:٢٢]. فهذه نهاية الشيطان مع بني آدم.

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ أنا لم أجبركم.

﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم:٢٢]: هذا موقفه من بني آدم في النهاية، وهم في النار.

وتكلَّم الناس في قول عدو الله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾: فقال قتادة وابن إسحاقَ: صدق عدو الله في قوله: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ﴾، وكذب في قوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾، والله ما به مخافة الله، ولكن علم أنه لا قوَّةَ له ولا مَنَعَة، فأوردهم وأسلمهم، وكذلك عادة عدو الله بمن أطاعه[(١)].

وقالت طائفة: إنما خاف بَطْشة الله به في الدنيا، كما يخاف الكافر والفاجر أن يُقتل أو يُؤخذ بجرمه، لا أنه خاف عقابه في الآخرة.

وهذا أصحُّ، وهذا الخوف لا يستلزم إيمانًا ولا نجاةً.

قال الكلبي: «خاف أن يأخذه جبريل، فيُعرِّفهم حاله، فلا يطيعونه»[(٢)].

وهذا فاسد؛ فإنه إنما قال لهم ذلك بعد أن فرّ ونكصَ على عقبيه؛ إلا أن يريد أنه إذا عرف المشركون أن الذي أجارهم وأوردهم إبليس لم يطيعوه فيما بعد ذلك، وقد أبعد النُّجْعَة إن أراد ذلك، وتكلّف غير المراد.

وقال عطاء: «إني أخاف الله أن يُهلكني فيمن يهُلك»[(٣)]. وهذا خوف هلاك الدنيا، فلا ينفعه. وقال الزجَّاج، وابن الأنباري: «ظن أن الوقت الذي أُنظر إليه قد حضر»[(٤)]. زاد ابن الأنباري، قال: «أخاف أن يكون الوقت

---

(١) أخرجه الطبري في التفسير (١١/ ٢٢٣) عن قتادة، وأخرجه في (١١/ ٢٢٢) عن ابن إسحاق، وهو في سيرة ابن هشام (١/ ٦٦٣).

(٢) ذكره الثعلبي في تفسيره (٤/٣٦٦)، والواحدي في التفسير البسيط (١٠/ ١٩١، ١٩٢).

(٣) تفسير الثعلبي (٤/ ٣٦٦)، والتفسير البسيط (١٠/ ١٩٢).

(٤) انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٤٢١).

المعلوم الذي يزول معه إنظاري قد حضر؛ فيقع بي العذاب، فإنه لما عاين الملائكة خاف أن يكون وقت الإنظار قد انقضى، فقال ما قال إشفاقًا على نفسه»(١).

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فقال قتادة وابن إسحاق: صدق عدو الله في قوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾، وكذب في قوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾)**، يعني صدق في قوله لأهل بدر: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ [الأنفال:٤٨]. يعني: يرى الملائكة، وهو لا يجتمع مع الملائكة أبدًا، ولا يلتقي مع الملائكة.

وكذب في قوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال:٤٨]. نعم، الله شديد العقاب، لكن هو كذب في قوله: إنه يخاف الله.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والله ما به مخافة الله، ولكن علم أنه لا قوة له ولا مَنَعَة، فأوردهم وأسلمهم، وكذلك عادة عدو الله بمن أطاعه)**، دلاهم بغرور ثم أوردهم، كما يقول حسان(٢):

.... إِنَّ الخَبِيثَ لِمَنْ وَالاهُ غَرَّارُ

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقالت طائفة: إنما خاف بَطْشة الله به في الدنيا)**، يخاف الله، يعني ليس خوفًا مطلقًا، وإنما خاف العقوبة في الدنيا.

---

(١) انظر: التفسير البسيط (١٠/ ١٩٢)، وزاد المسير في علم التفسير (٢/ ٢١٦).
(٢) تقدم تخريجه (ص٥٠).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهذا أصحُّ، وهذا الخوف لا يستلزم إيمانًا ولا نجاةً)**، هو خوف صحيح أنه يخاف الله، لكنه خوف مؤقت مثل خوف الإنسان المجرم إذا قُبِضَ عليه، يخاف من العقوبة فقط.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقد أبعد النُّجْعَة إن أراد ذلك، وتكلّف غير المراد)**، يعني الكلبي تفسيره غير صحيح.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال عطاء: إني أخاف الله أن يُهلكني فيمن يهُلك)**، أي خوفه خوف جزئي، ليس خوفًا كاملًا، خوفٌ جزئي من العقوبة في الدنيا فقط.

فصـل

ومن كيد عدو الله: أنه يخوِّف المؤمنين من جنده وأوليائه، فلا يجاهدونهم، ولا يأمرونهم بالمعروف، ولا ينهونهم عن المنكر؛ وهذا من أعظم كيده بأهل الإيمان. وقد أخبرنا الله سبحانه عنه بهذا؛ فقال: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٧٥]. المعنى عند جميع المفسرين: يُخوِّفكم بأوليائه[1].

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ومن كيد عدو الله: أنه يُخوِّف المؤمنين من جنده وأوليائه، فلا يجاهدونهم)، من مكره ببني آدم: أنه يخوف المؤمنين من جنده، يعني من جند الشيطان، يقول: هم أقوى منهم، معهم سلاح، ومعهم قوة وأنتم لا طاقة لكم بهم.

فضعاف الإيمان يخافون عند ذلك ويتركون القتال؛ كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ ﴾ [آل عمران:١٧٥]، أي: يخوفكم بأوليائه؛ ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٧٥].

بعد وقعة أُحد وما حصل للمسلمين من النكبة بسبب المعصية التي حصلت مِن بعضهم وهم الرماة الذين نزلوا عن الجبل ليجمعوا الغنائم مع

---

(١) انظر: تفسير مجاهد (ص٢٦٢)، ومعاني القرآن للفراء (١/ ٢٤٨)، وتفسير الطبري (٦/ ٢٥٥، ٢٥٦)، وتفسير الثعلبي (٣/ ٢١٤، ٢١٥)، والتفسير البسيط (٦/ ١٨٦) و(١٢/ ١٢٣)، وزاد المسير (١/ ٣٥٠).

المجاهدين، والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لهم: «**إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخْطَفُنَا الطَّيْرُ فَلاَ تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ، هَذَا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا هَزَمْنَا الْقَوْمَ وَأَوْطَأْنَاهُمْ، فَلاَ تَبْرَحُوا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ**»(١) لكنهم ظنوا أن المعركة قد انتهت، ولم يبقَ إلا جمع الغنائم، والنفس مولعة بالمال فنزلوا، فلما رأى خالد بن الوليد وكان قائدًا في ذاك الوقت من قواد المشركين، وكان قائدًا محنكًا دار على الجبل، فلما رأى أنه فرغ من الرماة انقض على المسلمين مِن خلفهم، فوقع المسلمون في الفك؛ بين المشركين من هنا ومن هنا، فحصلت النكبة بسبب المعصية(٢).

لما حصل هذا، ورجع المسلمون إلى المدينة بعد ما دفنوا الشهداء ومعهم الجرحى، وهم في حالة ضعف وتعب، أرسل أبو سفيان قائد المشركين إليهم يقول: إنا سنعود إليكم ونستأصل بقيتكم، يهددهم.

لأنهم تلاوموا لما ذهبوا إلى مكة، لما انتهوا من المعركة، وقفلوا راجعين تلاوموا قالوا: كيف تركنا بقيتهم؟ فهموا أن يرجعوا على المسلمين، فأرسل أبو سفيان من يخبر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمؤمنين: بأنا راجعون إليكم لنستأصل بقيتكم. النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر مَن حضر الغزوة وهم جرحى بالخروج في الحال على ما بهم، فخرجوا؛ ﴿ **ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ١٧٢ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ** ﴾ [آل عمران:١٧٢-١٧٣] وهو مندوب أبي سفيان.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٣٩، ٤٠٤٣) عن البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر أخبار غزوة أحد في: سيرة ابن إسحاق (ص٣٢٢)، وسيرة ابن هشام (٢/ ٦٠)، ودلائل النبوة للبيهقي (٣/ ٢٠١)، والروض الأُنُف (٥/ ٢٩٦)، والبداية والنهاية (٥/ ٣٣٧)، والسيرة النبوية لابن كثير (٣/ ١٨).

﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ﴾: يكفينا الله سبحانه، لا نخاف منهم، ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ [آل عمران:١٧٣].

خرجوا ونزلوا بحمراء الأسد- موضع قريب من المدينة- على طريق المشركين يترقبون رجوعهم، فلما علم المشركون أن الرسول وأصحابه خرجوا. قالوا: لم يخرجوا إلا وفيهم قوة وفيهم بأس، فأصابهم الذل فرجعوا إلى مكة وسلَّم الله المسلمين من شرهم؛ بسبب الإيمان.

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ﴾ [آل عمران:١٧٣]: يعني أهل مكة.

﴿فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾، انظر: ﴿فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾.

﴿وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ﴾: الله يكفينا، توكلنا على الله عَزَّوَجَلَّ؛ أنتم توكلتم على قوتكم ونحن نتوكل على الله أقوى، ﴿وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ [آل عمران:١٧٣].

فكانت النتيجة: ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران:١٧٤].

ثم قال: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾: يخوفكم بأوليائه من المشركين؛ ﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥][(١)].

---

(١) انظر في ذكر غزوة حمراء الأسد: سيرة ابن هشام (٢/ ١٢١)، وطبقات ابن سعد (٢/ ٣٧)، والروض الأُنف (٦/ ٣١).

قال قتادة: «يُعظِمهم في صدوركم»[1]؛ ولهذا قال: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾. فكلما قوي إيمان العبد زال من قلبه خوف أولياء الشيطان، وكلما ضعف إيمان قوي خوفه منهم.

ومن مكايده: أنه يسحر العقل دائمًا حتى يكيده، ولا يَسْلَم من سحره إلا من شاء الله، فيزيّن له الفعل الذي يضره، حتى يُخيَّل إليه أنه من أنفع الأشياء له، ويُنفّره من الفعل الذي هو أنفع الأشياء له، حتى يُخيَّل له أنه يضره.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فكلما قوي إيمان العبد زال من قلبه خوف أولياء الشيطان، وكلما ضعف إيمان قوي خوفه منهم)، تألبت القبائل على رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المدينة؛ يريدون إطفاء نور الله عَزَّوَجَلَّ، ويريدون قتل الرسول وأصحابه.

كم مرة جاؤوا في أُحُد، جاؤوا بعد أُحُد في غزوة الخندق وحاصروا المدينة، وهكذا كانوا يكيدون للمسلمين في كل مكان[2]، لكن الرسول وأصحابه ثبتوا، ماذا كانت النتيجة؟ أن الله أظهر دينه ونصر رسوله، وانتشر الإسلام رغم أنوفهم في المشارق والمغارب نتيجة الإيمان بالله، نتيجة الإيمان بالله، والتوكل على الله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) أخرج الطبري (٦/ ٢٥٦) نحوه عن السُّدِّي، وذكره عنه الثعلبي (٣/ ٢١٤).

(٢) انظر غزوة الخندق في: سيرة بن هشام (٢/ ٢١٤)، والروض الأنف (٦/ ١٩٥)، والسيرة النبوية لابن كثير (٣/ ١٧٨).

تألبت الأرض كلها على رسول الله ﷺ، ولم يثنهِ ذلك عن الدعوة والجهاد في سبيل الله.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومن مكايده: أنه يسحر العقل دائمًا حتى يكيده، ولا يَسْلَم من سحره إلا من شاء الله، فيزيّن له الفعل الذي يضره، حتى يخيَّل إليه أنه من أنفع الأشياء له)**، يزين له الفعل الذي يضره، يزين له المعاصي وإن كان فيها ضرر على ابن آدم، لكن يقلبها ويجعلها روضة، يجعلها زهور ويزينها له ليوقعه فيها، ثم بعد ذلك يتبرأ منه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ويُنفّره من الفعل الذي هو أنفع الأشياء له، حتى يخيَّل له أنه يضره)**، يزين المعاصي، ويكره الطاعات لابن آدم.

فلا إله إلا الله! كم فُتن بهذا السحر من إنسان! وكم حال به بين القلب وبين الإسلام والإيمان والإحسان! وكم جمَّل الباطل وأبرزه في صورة مستحسنة، وبشّع الحق وأخرجه في صورة مستهجنة! وكم بَهْرَج من الزُّيوف على الناقدين، وكم روّج من الزَّغل على العارفين!

فهو الذي سحر العقول حتى ألقى أربابها في الأهواء المختلفة والآراء المتشعّبة؛ وسلك بهم من سبل الضلال كل مسلك، وألقاهم من المهالك في مهلك بعد مهلك، وزيَّن لهم من عبادة الأصنام، وقطيعة الأرحام، ووأد البنات، ونكاح الأمهات.

ووعدهم الفوز بالجِنَان مع الكفر والفسوق والعصيان، وأبرز لهم الشرك في صورة التعظيم، والكفر بصفات الرب تعالى وعلوّه على عرشه وتكلمه بكتبه في قالب التنزيه.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(كم فُتن بهذا السحر من إنسان!)**، السحر: هو قلب الحقائق عن حقيقتها، هذا هو السحر[1].

فالشيطان ساحر بهذا المعنى؛ لأنه يزين المكروه ويجعله طيبًا، ويزين المعاصي ويجعلها مفيدة، ويثقل عن الطاعات ويقول: هل تريد تصلي كل الليل، هل تريد أن تصوم، تريد تجاهد في سبيل الله، هذا شاق عليك.

---

(١) انظر: مادة (سحر) في: تهذيب اللغة (٤/ ١٧٠)، ومقاييس اللغة (٣/ ١٣٨)، ولسان العرب (٤/ ٣٤٨)، والتعاريف (ص١٩١).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(كم فُتن بهذا السحر من إنسان!)**، سحر معنوي.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وكم بَهْرَج من الزُّيوف على الناقدين، وكم روّج من الزَّغل على العارفين!)**، ومعه جنود، معه من شياطين الإنس أيضًا من يساعده على هذا، تساعد الشيطان على هذا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وزيَّن لهم من عبادة الأصنام، وقطيعة الأرحام، ووأد البنات، ونكاح الأمهات)**، زين لهم جرائم الجاهلية أشدها وأقبحها: عبادة الأصنام، يتركون عبادة الله الذي خلقهم ورزقهم ويعبدون الأصنام التي لا تنفع ولا تضر ولا تسمع ولا تبصر ولا تتكلم، يعبدونها من دون الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن الشيطان زين ذلك لهم، ويزين لهم عبادة القبور الأموات الهامدين، يقول: هذا ينفع ويضر، هذا ولي من أولياء الله.

إذا كان عندك رغبة في الخير عليك بالحي الذي لا يموت وهو الله، اترك الميت، الميت عاجز مرتهن في عمله لا يقدر على شيء، ويذهب إليه ويعبده من دون الله؛ يذبح له ويتقرب إليه ويطوف بقبره ويتبرك به، هذا كله من الشيطان، وإلا كيف أن الصنم يُنزل مع الله؟ كيف أن الميت يُنزل مع الله -جل الله وتعالى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كيف يعدل بالله عَزَّوَجَلَّ؟! لكن العقول يسحرها الشيطان.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وأبـرز لهم الشرك في صورة التعظيم)**، ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف:٣٩].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والكفر بصفات الرب تعالى)**، يزين لهم هذا، يزين لهم الباطل حتى إنه يزين لهم نفي الصفات لله عَزَّوَجَلَّ ويزينها لهم، ينفون الأسماء والصفات مثل الجهمية(١)، أو الصفات دون الأسماء وهم المعتزلة(٢)، أو يزين لهم جحد بعض الصفات مثل الأشاعرة(٣)، والماتريدية(٤)، يزين هذا لهم؛ هذا كله من الشيطان.

يقول لهم: القرآن هذا ليس كلام الله، هذا كلام محمد أو هذا كلام البشر ليس كلام الله، وهذا قول الجهمية: إن الله لم يتكلم بالقرآن؛ إنما تكلم به محمد أو جبريل، ولم يتكلم الله به، وليس بين يدي المسلمين كتاب منزل من الله، إنما هو قول البشر! تعالى الله عما يقولون.

يقولون: السنة النبوية فيها الأسانيد، وهي رواية عن أموات، ويدخلها الضعيف، ويدخلها الموضوع، ويدخلها الآحاد -كما يقولون-؛ فكيف يعتمد عليها؟

---

(١) تقدم التعريف بهم في المجلد الأول (ص١١٥).
(٢) تقدم التعريف بهم في المجلد الأول (ص١١٥).
(٣) تقدم التعريف بهم في المجلد الأول (ص١١٥).
(٤) هم أصحاب محمد بن محمد بن محمود، أبي منصور الماتريدي، المتكلم، وماتريد قرية من قرى سمرقند، له كتاب التوحيد، وكتاب المقالات، وكتاب تأويلات القرآن، تُوُفِّي سنة ثلاث وثلاثين وثلاث مئة بسمرقند. ومن المسائل التي اشتهر الماتريدية بالخلاف فيها: مسألة الاستثناء في الإيمان، والاستثناء في الكفر، ومسألة القرآن: هل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يتكلم بمشيئته وقدرته، أم القرآن لازم لذاته؟ وغير ذلك من مسائل الصفات. انظر: مجموع الفتاوى (٧/ ٤٣١ - ٤٣٤)، وفتح الباري (١٣/ ٤٥٥)، والجواهر المضية في طبقات الحنفية (٣/ ٣٦٠)، ومجموع الفتاوى (٧/ ٤٣١ - ٤٣٤)، ومنهاج السنة (٢/ ٣٦٢). وانظر: رسالة الماتريدية للشيخ شمس الدين الأفغاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

يعتمدون على أدلة العقل والمنطق وعلم الكلام العقلي، يقولون: براهين عقلية يقينية، أما أدلة القرآن والسنة فهي ظنية، وأيضًا يعتريها بأسانيدها ما يعتريها! هذا كله من الشيطان -قبَّحه الله-.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وعلوّه على عرشه وتكلمه بكتبه في قالب التنزيه)**، يجحدون علو الله على عرشه فيقولون: إن الله في كل مكان -تعالى الله عن ذلك- وليس هو في السماوات ولا مستويًا على العرش، إنما هو مختلط بالخلق وهو في كل مكان -تعالى الله عن ذلك-!

وينكرون كلام الله، يقولون: ليس بين أيدينا كلام لله أبدًا، هذا كلام البشر؛ ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [المدثر:٢٥].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وتكلمه بكتبه في قالب التنزيه)**، في قالب التنزيه لله، يقولون: لو أثبتنا هذه الصفات وأن الله يتكلم، وأنه يسمع ويبصر شبهناه ببني آدم؛ لأن بني آدم فيهم سمع، وفيهم بصر، وفيهم كلام!

فالغر والجاهل ينخدع بهذا، أما أهل العلم فلا ينخدعون؛ يقولون: صفات الله ليست كصفات المخلوقين، لا تشبه هذه هذه، صفات الله خاصة ولائقة به، وصفات المخلوقين خاصة ولائقة بهم، فليس السمع كالسمع، ولا البصر كالبصر، ولا الكلام كالكلام.

وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في قالب التودّد إلى الناس، وحسن الخلق معهم، والعمل بقوله: ﴿عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾ [المائدة:١٠٥].

والإعراض عما جاء به الرسول ﷺ في قالب التقليد، والاكتفاء بقول من هو أعلم منهم، والنفاق والإدْهان في دين الله في قالب العقل المعيشيّ الذي يندرج به العبد بين الناس.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، يقولون: أنتم متشددون، اتركوا للناس حرية، هذه حرية الرأي، اتركوا لهم حريتهم هذا كبت، هذا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كبت للحريات وتدخل في أمور الناس، هكذا يقول شياطين الإنس الذين يتبعون شياطين الجن!

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في قالب التودّد إلى الناس)، طلب التودد إلى الناس، يقولون: إذا أمرت ونهيت يبغضك الناس ويعادونك، ويصفونك بالأوصاف الذميمة؛ فاترك هذا الشيء.

سالِمِ الناس لكي تعيش معهم وتسلك معهم، يقول له شيطان الإنس وشيطان الجن هكذا.

وأنتم تسمعون ما يقال الآن عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مع أن الدين لا يقوم إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وحسن الخلق معهم)**، ابق سلوكي لا تنكر على أحد، اترك الناس بهواهم، أنت عليك نفسك فقط، أو يقولون: ابق مع الناس افعل ما يفعلون واندرج معهم لا تخالفهم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والعمل بقوله: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾** [المائدة:١٠٥])، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ﴾ [المائدة:١٠٥].

يأخذون هذه الآية على غير مدلولها، ويقولون: هذه فيها أن الإنسان لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر عليه من نفسه فقط.

إذًا، وتلغى الآيات والأحاديث التي فيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟! هذا من العمل بالمتشابه وترك المحكم.

فهذه الآية تحمل على الآيات الأخرى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة:٧١].

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١١٠]. يتركون هذا.

يتركون قول الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»**(١). يتركون هذه الأدلة ويأخذون بالمتشابه.

هذه الآية: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة:١٠٥]. هل الذي يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مهتدٍ؟!

---

(١) أخرجه مسلم (٧٨) (٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ليس مهتديًا، بل هو ضالٌّ، الله قال: ﴿إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾، ومن الهداية أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، ليس معنى الآية أنك تترك الأمر بالمعروف.

لكن إذا رأيت الناس انحرفوا وضلوا، ولم يقبلوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلا تنحرف معهم.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِذَا رَأَيْتُمْ شُحًّا مُطَاعًا، وَهَوًى مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ؛ فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ، وَدَعْ عَنْكَ الْعَوَامَّ**»(١).

لا يقول الإنسان: ليس هناك فائدة أريد أصير مثلهم، لا، الزم نفسك ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾: الزموها.

﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة:١٠٥]. لا يقول: أنا مع الناس.

وأبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «إنكم تأولون هذه الآية على غير تأويلها، وإني سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدَيِ السَّفِيهِ، وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا**»(٢).

فالرسول أمر بهذا، يعني نلغي أوامر الله ورسوله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونقول الله يقول: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾؟!

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٤١)، والترمذي (٣٠٥٨)، وابن ماجه (٤٠١٤)، والطبراني في الكبير (٢٢/ ٢٢٠)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١٥٧) من حديث أبي ثعلبة الخُشَني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٣٣٦)، والترمذي (٣٠٤٨)، وابن ماجه (٤٠٠٦) من حديث عبد الله ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أنت لم تفهم الآية وما معنى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ ومتى يكون هذا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والإعراض عما جاء به الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قالب التقليد)، ويزين للناس الإعراض عن الاستدلال بالكتاب والسنة إلى التقليد الأعمى، تقليد الأقوال، أخذ الأقوال التي لا دليل عليها، الاجتهادات التي لا مستند لها يأخذون بهذا.

وإذا قلت لهم شيء قالوا: المسألة فيها خلاف، صلاة الجمعة فيها خلاف، الحجاب فيه خلاف، هل كل شيء فيه خلاف؟! الأمر يؤخذ بما تشتهيه الأنفس.

الله لم يتعبدنا بالخلاف، الله تعبدنا بالكتاب والسنة؛ فما وافق الكتاب والسنة من الأقوال والاجتهادات أخذنا بها، وما خالف تركناه.

النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**إِذَا اجْتَهَدَ الْحَاكِمُ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ وَاحِدٌ**»(١).

يترك الخطأ، يقولون: لا، المسألة فيها خلاف، إذا قلت لهم شيء، طيب ومَن معه دليل؟ ليس علينا من الدليل، علينا أن المسألة فيها خلاف.

إذًا هذا مثل الذين ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [التوبة:٣١].

هذا من شرك الطاعة -والعياذ بالله-، ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:١٢١].

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦) من حديث عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والاكتفاء بقول من هو أعلم منهم)**، يقولون: أنت أعلم من فلان، فلان يقول كذا وكذا أنت أعلم منه؟!

ليس لي شأنٌ بعلمه، أنا لي شأن بالدليل، العالم يزلُّ ويخطئ، وإن كان عالمًا جليلًا، ليس معصومًا، المعصوم هو رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، العلماء يخطئون ويصيبون، يقول: لا، لستَ أعلى من فلان!

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والنفاق والإدْهان في دين الله في قالب العقل المعيشيّ الذي يندرج به العبد بين الناس)**، يزين النفاق للناس؛ يقول: ابقوا مع الناس، سايروا الناس على ما هم عليه؛ لأجل أن تسلكوا معهم وتمشوا! هذا عمل المنافقين؛ ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ [النساء:١٤٣].

إن كان مع المسلمين شيءٌ من المرغبات صاروا معهم، وإن صار مع المشركين شيء من المرغبات صاروا مع المشركين!

ليس عندهم دين ولا عندهم إيمان -والعياذ بالله- هذا عمل المنافقين؛ ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ [النساء:١٤٣].

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ﴾ [النساء:١٤١]: يقولون للمسلمين كذا.

﴿ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ ﴾: يعني أديلوا على المسلمين؛ ابتلاءً وامتحانًا.

﴿ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النساء:١٤١]: نحن معكم، فهذا شر المنافقين -والعياذ بالله-، يسمونه العقل المعيشي!

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(في قالب العقل المعيشيّ الذي يندرج به العبد بين الناس)**، يندرج مع الناس يعني: يسلك مع كلٍّ؛ مع الصالحين، ومع المسيئين.

فهو صاحب الأبوين حين أخرجهما من الجنة، وصاحب قابيل حين قتل أخاه، وصاحب قوم نوح حين أُغرِقوا، وقومِ عاد حين أُهلِكوا بالريح العقيم، وصاحب قوم صالح حين أُهلكوا بالصيحة، وصاحب الأُمّة اللوطية حين خُسِفَ بهم وأُتبعوا بالرجم بالحجارة، وصاحب فرعون وقومه حين أُخذوا الأخذَة الرّابية، وصاحب عُبّاد العجل حين جرى عليهم ما جرى، وصاحب قريش حين دعوا يوم بدر، وصاحب كل هالك ومفتون.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فهو صاحب الأبوين حين أخرجهما من الجنة)**، فإبليس صاحب الأبوين حينما أخرجهما من الجنة؛ بسبب أنه زين لهما الأكل من الشجرة، ومدحها لهم وأغراهم بها.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وصاحب قابيل حين قتل أخاه)**، بسبب الحسد.

هابيل وقابيل ابنا آدم لما تُقبل مِن أحدهما قربانه، ولم يتقبل من الآخر حسده، ﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة:٢٧-٢٨].

فقتل أخاه حسدًا؛ فلما قتل أخاه حسدًا دخل النار، وصار إمامًا لكل مَن يقتل الناس بغير حق، كما في الحديث: «**مَا قُتِلَتْ نَفْسٌ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا؛ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ**»[1].

(١) أخرجه البخاري (٣٣٣٥)، ومسلم (١٦٧٧) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وصاحب قوم نوح حين أُغرِقوا)**، الذي أهلك قوم نوح هو الشيطان، والسبب: أنهم كانوا صالحين، وفيهم علماء وعلى التوحيد، وكان فيهم رجال صالحون وعباد، ماتوا في عام واحد، فحزنوا عليهم وفقدوهم.

فجاء الشيطان فقال لهم: صوروا صورهم، وانصبوها على مجالسهم؛ من أجل أن تتذكروا أحوالهم فتقتدوا بهم، ففعلوا هذا ولم تعبد؛ لأن هذا الجيل فيه علماء.

فلما جاء الجيل المتأخر ومات العلماء أتاهم وقال لهم: إن آباءكم لم ينصبوا هذه الصور إلا ليعبدوها وبها يُسقون المطر، فعبدوها، وحدث الشرك في قوم نوح بسبب الشيطان[1]؛ هو الذي زين لهم الشرك بهذه الطريقة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقومِ عاد حين أُهلِكوا بالريح العقيم)**، في كل الأمم الكافرة التي هلكت كلها بسبب الشيطان.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وصاحب عُبّاد العجل حين جرى عليهم ما جرى)**، أصحاب العجل هم بنو إسرائيل.

---

(١) أخرج البخاري (٤٩٢٠) عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قال: «صَارَتِ الأَوْثَانُ الَّتِي كَانَتْ فِي قَوْمِ نُوحٍ فِي العَرَبِ بَعْدُ؛ أَمَّا (وَدٌّ) كَانَتْ لِكَلْبٍ بِدَوْمَةِ الجَنْدَلِ، وَأَمَّا (سُوَاعٌ) كَانَتْ لِهُذَيْلٍ، وَأَمَّا (يَغُوثُ) فَكَانَتْ لِمُرَادٍ، ثُمَّ لِبَنِي غُطَيْفٍ بِالجَوْفِ، عِنْدَ سَبَإٍ، وَأَمَّا (يَعُوقُ) فَكَانَتْ لِهَمْدَانَ، وَأَمَّا (نَسْرٌ) فَكَانَتْ لِحِمْيَرَ لِآلِ ذِي الكَلَاعِ؛ أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ: أَنِ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، فَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ العِلْمُ عُبِدَتْ».

لما ذهب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى ميقات ربه ليعطيه التوراة، يعطيه ألواح التوراة المكتوبة فيها، وكان فيهم شقي يُقال له: «السامري»، وكان مع بني إسرائيل ذهب أخذوه من آل فرعون لما خرجوا من مصر استعاروه منهم عارية، حملوه معهم، وضاقت حيلتهم بهذا الذهب ماذا يفعلون فيه؟

السامري جمعه وأوقد عليه النار حتى صور منه صورة عجل له خوار، يدخل الهواء من جانب ويخرج من جانب، ويصير له خوار كخوار الثور.

فقال: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ [طه:٨٨]. موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ نسي، ذهب إلى ميقات ربه وهذا هو، فنسي -والعياذ بالله-.

فعبدوا العجل؛ ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ [الأعراف:١٤٨].

فحصل ما حصل من موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لما جاء ووجدهم على هذه الحال؛ غضب غضبًا شديدًا، وألقى الألواح من الغضب فتكسرت، وأخذ برأس أخيه هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ يجره إليه: لماذا لم تنكر عليهم؟ فعند ذلك انتهت المسألة إلى أن الله تعالى انتقم منهم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وصاحب قريش حين دعوا يوم بدر)**، صاحب قريش؛ ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ﴾ [الأنفال:٤٨]. قال للمشركين هذه المقالة.

فصل

وأول كيده ومكره: أنه كاد الأبوين بالأيمان الكاذبة أنه ناصح لهما، وأنه إنما يريد خلودهما في الجنة.

قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف:٢٠-٢٢].

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فصل: وأول كيده ومكره: أنه كاد الأبوين بالأيمان الكاذبة أنه ناصح لهما، وأنه إنما يريد خلودهما في الجنة)**، هذا الكتاب هو إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان؛ لأن الشيطان عدو للإنسان منذ أن خلقه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهو يكيد للإنسان، وأول ما كاد الأبوين: آدم وحواء- عليهما الصلاة والسلام.

الله جَلَّ وَعَلَا قال لآدم: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف:١٩].

حرم عليهما شجرة واحدة؛ لحكمة منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ ابتلاءً وامتحانًا، والشيطان دائمًا يغري الإنسان بالمحرمات ويزينها له.

ولما حرَّم الله على الأبوين -عليهما الصلاة والسلام -هذه الشجرة، واستثناها مما أباحه لهما تسلط الشيطان عليهما؛ ليوقعهما في مخالفة النهي عن هذه الشجرة؛ لأنه عدو لهما، ولكنه جاءهما في صورة صديق ومناصح، قال: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ [الأعراف:٢٠].

وقال: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه:١٢٠]، فزين لآدم وحواء الأكل من هذه الشجرة، وأنها شجرة طيبة، وأنها فيها أسرار عظيمة.

ثم لم يكتفِ بالتزيين، بل أقسم، حلف، ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾: أي حلف لهما.

﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف:٢١]: هذا من زيادة التلبيس على الأبوين، والأبوان يعظمان الله جَلَّ وَعَلَا، يعظمان اليمين بالله عَزَّ وَجَلَّ.

﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف:٢١-٢٢]: يعني أنهما أراد الأكل من هذه الشجرة، ﴿فَدَلَّىٰهُمَا﴾: إليها.

﴿بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ [الأعراف:٢٢]: عوراتهما، كانت من قبل مستورة لا يريانها، فلما أكلا منها انكشف ما عليهما من الستر، وبدت سوآتهما، وهذا ما يريده الشيطان.

ولهذا الشيطان الآن يغري النساء بكشف العورات، يغريهن بخلع الحجاب، يغريهن بالملابس الفاتنة والضيقة والقصيرة والشفافة، هذا كله من كيد الشيطان كما كاد للأبوين.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآ﴾ [الأعراف:٢٧]. فهو أوقعهما، وبدت لهما سوآتهما، وتبين لهما غرور الشيطان وكيد الشيطان.

﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف:٢٢-٢٣]: فتابا إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وتاب الله عليهما، تاب الله عليهما.

ولكن هذا يبين لنا مقت الشيطان، وكيده لهذا الإنسان ابتداءً بالأبوين؛ فهذا أول كيد الشيطان لهذا الإنسان مع الأبوين عليهما الصلاة والسلام.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(أنه كاد الأبوين بالأيمان الكاذبة أنه ناصح لهما)**، ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف:٢١].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وأنه إنما يريد خلودهما في الجنة)**، وأنه يريد لهما الخلود؛ لأن هذه شجرة الخلد؛ يقول: ﴿هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ﴾ [طه:١٢٠]: من أكل منها فإنه يخلد.

فالوسوسة: حديث النّفس والصوت الخفي، وبه سُمِّي صوت الحُليِّ وسواسًا، ورجل موسوِس بكسر الواو، ولا يفتح؛ فإنه لحن. وإنما قيل له: مُوَسوسٌ؛ لأن نفسه تُوسوِس إليه، قال تعالى: ﴿وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥ﴾ [ق:١٦][١].

وعلم عدوُّ الله أنهما إذا أكلا من الشجرة بدت لهما عوراتهما؛ فإنها معصية، والمعصية تهتِكُ ستر ما بين الله وبين العبد، فلما عصيا انْهتَك ذلك الستر، فبدت لهما سوآتهما. فالمعصية تُبدي السوأة الباطنة والظاهرة؛ ولهذا رأى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ في رؤياه الزناة والزواني عراةً باديةً سوآتُهم[٢].

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فالوسوسة: حديث النّفس والصوت الخفي، وبه سُمِّي صوت الحُليِّ وسواسًا)، الوَسْواسُ: هو الشيطان، وأما الوِسْوَاس بالكسر: فهي الوسوسة، وهي الصوت الخفي، فالصوت الخفي يقال له: وسوسة.

(١) انظر: العين (٧/ ٣٣٥)، وتهذيب اللغة (١٣/ ٩٢، ٩٣)، والصحاح (٣/ ٩٨٨)، ومقاييس اللغة (٦/ ٧٦).

(٢) أخرج البخاري (٧٠٤٧) عن سَمُرةَ بنِ جُندب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ في حديث الرؤيا الطويل: «...فَانْطَلَقْنَا، فَأَتَيْنَا عَلَى مِثْلِ التَّنُّورِ، فَإِذَا فِيهِ لَغَطٌ وَأَصْوَاتٌ، فَاطَّلَعْنَا فِيهِ، فَإِذَا فِيهِ رِجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاةٌ، وَإِذَا هُمْ يَأْتِيهِمْ لَهَبٌ مِنْ أَسْفَلَ مِنْهُمْ، فَإِذَا أَتَاهُمْ ذَلِكَ اللَّهَبُ ضَوْضَوْا». ثم قال في تفسيرها: «وَأَمَّا الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ العُرَاةُ الَّذِينَ فِي مِثْلِ بِنَاءِ التَّنُّورِ، فَإِنَّهُمُ الزُّنَاةُ وَالزَّوَانِي».

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وعلم عدوُّ الله أنهما إذا أكلا من الشجرة بدت لهما عوراتهما؛ فإنها معصية)**؛ لأن كشف العورة معصية، وهو يريد أن يحملهما على هذه المعصية، وهي كشف العورة المستورة.

ولهذا زين للمشركين أن يطوفوا بالبيت عراة، قال لهم: لا تطوفوا بثيابٍ عصيتم الله فيها[1]، فكانوا يتعرون عند الطواف، وهذا من أمور الجاهلية، وهو مِن كيد الشيطان.

ولهذا لما فتح النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة لم يبادر بالحج، وإنما أرسل أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحج بالناس، ولم يحج صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا في السنة العاشرة، وأرسل علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع أبي بكر ينادي على رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَلَا لَا يَحُجُّ بَعْدَ هَذَا الْعَامِ مُشْرِكٌ، وَلَا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ»[2].

فمنع المشركين من الطواف؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا﴾ [التوبة:٢٨]؛ عام الفتح.

وأرسل عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ألا يحج مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان؛ ليتهيأ البيت للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلما خلا من المشركين ومن العراة حج الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حجة الوداع في السنة العاشرة.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(والمعصية تهتِكُ ستر ما بين الله وبين العبد، فلما عصيا انْهتَك ذلك الستر، فبدت لهما سوآتهما)**، الستر على قسمين:

---

(١) انظر: صحيح مسلم (١٢١٩) و(٣٠٢٨)، وتفسير الطبري (١٠/ ١٢٠، ١٢١) (١٠/ ١٤٩ - ١٥٥)، وتفسير ابن كثير (٣/ ٤٠٢).

(٢) سبق تخريجه في المجلد الأول (ص٥٠١).

القسم الأول: ستر بين الله وبين عباده، وهذا ينكشف بالمعصية ومخالفة أوامر الله جَلَّوَعَلَا.

والقسم الثاني: ستر العورة بالثياب والملابس.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فالمعصية تُبدي السوأة الباطنة والظاهرة)**، السوأة الباطنة: هي المعصية، والظاهرة: هي كشف العورة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولهذا رأى النبي** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **في رؤياه الزناة والزواني عراةً باديةً سوآتُهم)**، النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث المنام الطويل الذي صحب فيه جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وأطلعه على أشياء، منها: أنه رأى عراة في تنور من نار يرفعهم اللهب ويخفضهم، رجال ونساء في هذا التنور؛ يخفضهم اللهب ويرفعهم، والعياذ بالله. فقال: **ما هذا يا جبريل؟** قال: «**وَأَمَّا الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ العُرَاةُ الَّذِينَ فِي مِثْلِ بِنَاءِ التَّنُّورِ، فَإِنَّهُمُ الزُّنَاةُ وَالزَّوَانِي**»، عراة يعني كما تعروا وعصوا الله، فالله جَلَّوَعَلَا فضحهم وعذبهم بذلك.

وهكذا إذا رُئِيَ الرجل أو المرأة في منامه مكشوف السوأة، فإنه يدل على فساد دينه. قال الشاعر[(١)]:

إِنِّـي كَـأَنِّـي أَرَى مَـنْ لَا حَـيَـاءَ لَـهُ ... وَلَا أَمَـانَـةَ وَسْـطَ الـنَّـاسِ عُـرْيَـانَـا

فإن الله سبحانه أنزل لباسين: لباسًا ظاهرًا يواري العورة ويسترها، ولباسًا باطنًا من التقوى، يُجَمِّلُ العبد ويستره.

فإذا زال عنه هذا اللباس انكشفت عورته الباطنة، كما تنكشف عورته الظاهرة بنزع ما يسترها.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وهكذا إذا رُئِيَ الرجل أو المرأة في منامه مكشوف السوأة، فإنه يدل على فساد دينه)، الرؤيا التي يرى الإنسان أو يُرى إنسان كاشفًا لعورته؛ فهذا يؤول ويفسَّر بأنه خلل في الدين، خلل في دين العبد.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

إِنِّـي كَـأَنِّـي أَرَى مَـنْ لَا حَـيَـاءَ لَـهُ ... وَلَا أَمَـانَـةَ وَسْـطَ الـنَّـاسِ عُـرْيَـانَـا

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَلْبَسْ ثِيَابًا مِنَ التُّقَى ... تَقَلَّبَ عُرْيَانًا وَإِنْ كَانَ كَاسِيًا[(٢)]

ولهذا قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف:٢٦].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فإن الله سبحانه أنزل لباسين: لباسًا ظاهرًا يواري العورة ويسترها، ولباسًا باطنًا من التقوى، يُجَمِّلُ العبد ويستره)، ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ

---

(١) البيت لسوار بن المضرب السعدي، كما في شرح حماسة أبي تمام للفارسي (٣/ ١٤٠).

(٢) البيت لأبي العتاهية، انظر: ديوانه (ص٤٨٢).

أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ ﴾: وهو اللباس المعروف الذي يلبس ويستر العورة.

﴿ وَرِيشًا ﴾: يعني زينة، فاللباس على قسمين: قسم يستر العورة، وقسم يتجمل به، هذا هو الريش، ﴿ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ﴾.

ثم قال: ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ [الأعراف:٢٦]: هذا النوع الثاني من اللباس، وهو لباس التقوى.

ثم قال: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ أي: إلا كراهة أن تكونا ملكين، وكراهة أن تخلدا في الجنة، ومن هاهنا دخل عليهما؛ لما عرف أنهما يريدان الخلود فيها. وهذا باب كيدِه الأعظم الذي يدخل منه على ابن آدم؛ فإنه يجري منه مجرى الدم، حتى يصادق نفسه ويخالطها، ويسألها عما تحبه وتُؤْثِرُه، فإذا عرَفه استعان بها على العبد، ودخل عليه من هذا الباب.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ثم قال: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ أي: إلا كراهة أن تكونا ملكين)، يعني الله أراد أن يحرمكما من هذا أن تكونا ملكين؛ ولذلك حرم عليكما هذه الشجرةَ!

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وهذا باب كيدِه الأعظم الذي يدخل منه على ابن آدم؛ فإنه يجري منه مجرى الدم)، الشيطان- والعياذ بالله- يجري من ابن آدمَ مجرى الدم، ويوسوس له، ويزين له؛ ابتلاءً وامتحانًا من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (حتى يصادق نفسه ويخالطها، ويسألها عما تحبه وتُؤْثِرُه، فإذا عرفه استعان بها على العبد، ودخل عليه من هذا الباب)، هو دائمًا يزين المعاصي والشهوات المحرمة والمنهيات لبني آدمَ.

وكذلك علَّم إخوانه وأولياءه من الإنس إذا أرادوا أغراضهم الفاسدة من بعضهم بعضًا؛ أن يدخلوا عليهم من الباب الذي يحبونه ويهوَونه، فإنه باب لا يُخْذَلُ عن حاجته من دخل منه، ومن رام الدخول من غيره فالباب عليه مسدودٌ، وهو عن طريق مقصده مصدود.

فشامّ عدوُّ الله الأبوين، فأحسَّ منهما إيناسًا وركونًا إلى الخلد في تلك الدار في النعيم المقيم، فعلم أنه لا يدخل عليهما من غير هذا الباب، فقاسمهما بالله إنه لهما لمن الناصحين، وقال: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فشامّ عدوُّ الله الأبوين، فأحسّ منهما إيناسًا وركونًا إلى الخلد في تلك الدار في النعيم المقيم)، لما دخلا الجنة وأباح الله لهما الأكل من حيث شاءا إلا أنه حرم عليهما شجرة واحدة؛ ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [الأعراف:١٩]، فالشيطان زيَّن لهما هذه الشجرة، وقال: إن فيها خُلدًا، إذا أكلتها فإنك تخلد ولا تموت، وآدم وحواء يريدان البقاء في هذه الجنة، فانطلى عليهما كلام الشيطان، فأكلا من الشجرة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾)، إلا منعًا لكما أن تكونا مَلَكَين، أو تكونا من الخالدين الباقين.

وكان عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يقرؤها: (مَلِكَيْن) بكسر اللام، ويقول: «لم يطمعا أن يكونا من الملائكة، ولكن استشرفا أن يكونا ملِكين، فأتاهما من جهة المُلْك»[(١)]. ويدل على هذه القراءة قوله في الآية الأُخرى: ﴿قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾.

وأما على القراءة المشهورة فيقال: كيف أطمع عدوُّ الله آدم أن يكون بأكله من الشجرة من الملائكة، وهو يرى الملائكة لا تأكل ولا تشرب، وكان آدم أعلم بالله وبنفسه وبالملائكة من أن يطمع أن يكون منهم بأكله، ولاسيّما مما نهاه الله عنه؟

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وكان عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يقرؤها «مَلِكَيْن» بكسر اللام)، ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلِكَيْنِ﴾: من الملوك يعني.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ويدل على هذه القراءة قوله في الآية الأُخرى: ﴿قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾)، ﴿وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾: هذا يؤيد قراءة ﴿مَلِكَيْنِ﴾.

---

(١) أورده الواحدي في التفسير البسيط (٩/ ٦٤).

فالجواب: أن آدم وحواء لم يطمعا في ذلك أصلًا، وإنما كذبهما عدو الله، وغرّهما، وخدعهما؛ بأن سمّى تلك الشجرة شجرة الخلد، فهذا أول المكر والكيد.

ومنه: وَرِثَ أتباعه تسمية الأمور المحرمة بالأسماء التي تحبُّ النفوسُ مسمَّياتها، فسمَّوا الخمر أمَّ الأفراح، وسمَّوا أخاها بلُقَيْمة الراحة، وسمَّوا الربا بالمعاملة، وسمَّوا المُكُوسَ بالحقوق السلطانية، وسمَّوا أقبح الظلم وأفحشه شرع الديوان، وسمَّوا أبلغ الكفر -وهو جحد صفات الرب- تنزيهًا، وسمَّوا مجالس الفسوق مجالس الطَّيبة!

فلما سمَّاها شجرة الخلد قال: ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا كراهة أن تأكلا منها فتخلدا في الجنة ولا تموتا؛ فتكونان مثل الملائكة الذين لا يموتون. ولم يكن آدم قد علم أنه يموت بعد، واشتهى الخلود في الجنة، وحصلت الشُّبهة من قول العدو وإقسامه بالله جهد أيمانه أنه ناصح لهما، فاجتمعت الشبهة والشهوة.

وساعد القدر لما قد فرغ الله سبحانه مِن تقديره، فأخذتهما سِنةُ الغَفْلة، واستيقظ لهما العدو، كما قيل(١):

وَاسْتَيْقَظُوا وَأَرَادَ اللهُ غَفْلَتَهُمْ ... لِيَنْفُذَ القَدَرُ المَحْتُومُ فِي الأزَلِ

---

(١) البيت لعبد الله بن أسعد بن علي بن عيسى بن عليٍّ، أبي الفرج المَوْصلي، الفقيه الشافعي، المعروف بابن الدهان، أورده له من جملة أبيات: ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٧/ ٨٢)، وكذلك أوردها أبو شامة في «الروضتين في أخبار الدولتين: النورية والصلاحية» (١/ ٣٩٩، ٤٠٠)، وابن واصل الحموي في «مفرج الكروب في أخبار بني أيوب» (١/ ١٣٦).

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومنه: وَرِثَ أتباعه تسمية الأمور المحرمة بالأسماء التي تحبُّ النفوسُ مسمَّياتها، فسمَّوا الخمر أمَّ الأفراح...)**، يعني سموها بأسماء مرغبة، المحرمات سموها بأسماء مرغبة فيها؛ لأجل الخداع وقلب الحقائق.

وهكذا شياطين الإنس والجن يزينون المحرمات والفواحش بأسماء خلابة براقة تغر بالناس.

إلا أن هذا الجواب يَعترض عليه قولُهُ: ﴿أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ﴾.

فيقال: الماكر المخادع لابد أن يكون فيما يمكر به ويكيد من التناقض والباطل ما يدل على مكره وكيده.

ولا حاجة بنا إلى تصحيح كلام عدوِّ الله، والاعتذار عنه، وإنما نعتذر عن الأب في كون ذلك رَاجَ عليه وولج سمعه، فهو لم يجزم لهما بأنهما إن أكلا منها صارا مَلَكين. وإنما ردّد الأمر بين أمرين: أحدهما ممتنع، والآخر ممكن، وهذا من أبلغ أنواع الكيد والمكر. ولهذا لما أطمعه في الأمر الممكن جزم له به ولم يُردِّده، فقال: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٍ لَّا يَبۡلَىٰ﴾، فلم يُدْخِل أداة الشك هاهنا كما أدخلها في قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ﴾، فتأمله.

ثم قال تعالى: ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾، فتضمن هذا الخبر أنواعًا من التأكيد:

أحدهما: تأكيده بالقسم.

الثاني: تأكيده بـ (إنّ).

الثالث: تقديم المعمول على العامل إيذانًا بالاختصاص، أي: نصيحتي مختصة بكما، وفائدتها إليكما لا إليّ.

الرابع: إتيانه باسم الفاعل الدّال على الثبوت واللزوم، دون الفعل الدال على التجدد، أي: النصح صفتي وسجيّتي، ليس أمرًا عارضًا لي.

الخامس: إتيانه بلام التأكيد في جواب القسم.

السادس: أنه صوّر نفسه لهما ناصحًا من جملة الناصحين، وكأنّه قال لهما: الناصحون لكما في ذلك كثير، وأنا واحد منهم.

كما تقول لمن تأمره بشيء: كلُّ أحد معي على هذا، وأنا من جملة من يشير عليك به.

سَعَى نَحْوَها حَتَّى تجَاوَزَ حَدَّهُ وَكَثَّرَ فَارْتَابَتْ وَلَوْ شَاءَ قَلَّلا[1]

وورّث عدوُّ الله هذا المكرَ لأوليائه وحزبه عند خداعهم للمؤمنين، كما كان المنافقون يقولون لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا جاءوه: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ [المنافقون:١]. فأكدوا خبرهم بالشهادة وبـ (إنَّ) وبلام التأكيد.

وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ [التوبة:٥٦].

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (الرابع: إتيانه باسم الفاعل الدّال على الثبوت واللزوم، دون الفعل الدال على التجدد، أي: النصح صفتي وسجيّتي، ليس أمرًا عارضًا لي)، لم يقل: إني أنصح لكما، قال: ﴿لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾: أتى باسم الفاعل الدال على الاستمرار والثبوت، وأما الفعل فهو يدل على التجدد والحدوث بعد أن لم يكن.

(١) البيت منسوب لمهيار الديلمي في: الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور (ص١٩١)، و المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (٣/ ١٠٧)، و خزانة الأدب وغاية الأرب (١/ ٣١).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(الخامس: إتيانه بلام التأكيد في جواب القسم)**، ﴿لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾: اللام هذه لام التأكيد.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(كما كان المنافقون يقولون لرسول الله** صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **إذا جاءوه:** ﴿نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون:١]. **فأكدوا خبرهم بالشهادة وبـ (إنَّ) وبلام التأكيد)**، المنافقون يقولون للرسول: ﴿نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون:١]؛ وهم كاذبون، لا يعترفون برسالته صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لكن أرادوا الخداع في هذا؛ جاؤوا بالمؤكِّدات.

والإنسان إذا جاء بالمؤكدات الكثيرة هذا دليل على اهتزازه، وأنه عنده خوف من أنه لا يُصَدَّقُ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وكذلك قوله سبحانه:** ﴿وَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمۡ لَمِنكُمۡ وَمَا هُم مِّنكُمۡ﴾ [التوبة:٥٦])، المنافقون يحلفون بالله أنهم لمنكم.

ليس هناك حاجة أن يحلفوا؛ إذا كانوا من المؤمنين يكونون مع المؤمنين ويصدقون، ولا حاجة على الحلف، ولكن هذا يدل على عدم ثقة من أنفسهم.

﴿وَلَٰكِنَّهُمۡ قَوۡمٞ يَفۡرَقُونَ﴾ [التوبة:٥٦]: يعني يخافون؛ فهم يريدون أن يستأمنوا لأنفسهم بهذا الكلام الذي ظاهره أنهم من المسلمين.

ثم قال تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف:٢٢]. قال أبو عبيدة: خذلهما وخلّاهما، من تَدْلِيةِ الدلو، وهو إرسالها في البئر[١].

وذكر الأزهري[٢] لهذه اللفظة أصلين:

أحدهما؛ قال: أصله الرجل العطشان يتدلى في البئر ليروَى من الماء، فلا يجد فيها ماءً، فيكون قد تدلى فيها بالغرور، فوُضِعَت التدلية موضع الإطماع فيما لا يُجدي نفعًا، فيقال: دَلّاه، إذا أطمعه، ومنه قول أبي جُندب الهُذَلي[٣]:

أَحُـصُّ فَـلَا أُجِـيرُ وَمَـنْ أُجِـرْهُ ... فَلَيْسَ كَمَنْ تَـدَلَّى بِالْغُرُورِ[٤]

أحُصُّ أي: أقطع.

الثاني: فدلَّاهما بغرور؛ أي: جرّأهما على أكل الشجرة، وأصله: دلَّلهما من الدلال والدالَّة، وهي الجراءة.

قال شَمِرٌ: يقال: ما دلَّك عليَّ، أي: ما جرّأك علي. وأنشد لقيس بن زهير:

أَظُـن الحِـلْـمَ دَلَّ عَـلَـيَّ قَـوْمِـي ... وَقَدْ يُسْتَجْهَلُ الرَّجُلُ الحَلِيمُ[٥]

الشَّرح

قلت: أصل التدلية في اللغة: الإرسال والتعليق، يقال: دلَّى الشيء في

---

(١) أورده الثعلبي في تفسيره (٤/ ٢٢٤)، والواحدي في التفسير البسيط (٩/ ٦٦).

(٢) في تهذيب اللغة (١٤/ ١٢١، ١٢٢).

(٣) ترجمته في الشعر والشعراء (٢/ ٦٥٢)، والأغاني (٢١/ ١٤٢-١٤٩).

(٤) البيت في ديوان الهذليين (٣/ ٩١)، وتهذيب اللغة (١٤/ ١٢١).

(٥) البيت في الأغاني (١٧/ ١٣٤)، وتهذيب اللغة (١٤/ ٤٧)، شرح حماسة أبي تمام للفارسي (٢/ ٢٤٣).

مهْوَاة؛ إذا أرسله بتعليق، وتدلَّى الشيء بنفْسه. ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾ [يوسف:١٩]. قال عامة أهل اللغة: يقال: أدلى دلوه؛ إذا أرسلها في البئر، ودَلَاها بالتخفيف: إذا نزعها من البئر، فأدلى دلوه يُدلِيه إدلاءً: إذا أرسلها، ودَلاها يَدْلوها دلوًا: إذا نزعها وأخرجها، ومنه الإدلاء، وهو التوصل إلى الرجل برحمٍ منه.

ويشاركه في الاشتقاق الأكبر: الدلالة، وهي التوصل إلى الشيء بإبانته وكشفه، ومنه الدَّلُّ، وهو ما يدل على العبد من أفعاله.

وكان عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُشبَّه بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هَديه ودَلِّه وسَمْتِه(١).

فالهدي: الطريقة التي عليها العبد من أخلاقه وأقواله وأعماله.

والدلّ: ما يدل من ظاهره على باطنه. والسّمت: هيأته ووقاره ورزانته.

والمقصود ذكر كيد عدوّ الله ومكره بالأبوين.

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٣٦١) من طريق الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، قال: «كَانَ عَبْدُ اللهِ يُشَبَّهُ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي هَدْيِهِ وَدَلِّهِ وَسَمْتِهِ». قَالَ إِبْرَاهِيمُ: «وَكَانَ عَلْقَمَةُ يُشَبَّهُ بِعَبْدِ اللهِ». قال الحاكم: (هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه).

قال مُطرِّف بن عبد الله: «قال لهما: إني خُلِقتُ قبلكما، وأنا أعلم منكما، فاتَّبعاني أُرشدكما، وحلف لهما، وإنما يُخدَع المؤمن بالله»(١).

قال قتادة: «وكان بعض أهل العلم يقول: من خادَعَنا بالله خُدِعْنا»(٢)، فالمؤمن غِرٌّ كريم، والفاجر خِبٌّ لئيم.

وفي «الصحيح»: «أَنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَأَى رَجُلًا يَسْرِقُ، فَقَالَ: سَرَقْتَ؟ فَقَالَ: لَا وَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ! فَقَالَ الْمَسِيحُ: آمَنْتُ بِاللهِ، وَكَذَّبْتُ بَصَرِي»(٣). وقد تأوَّله بعضهم على أنه لما حلف له جَوَّز أن يكون قد أخذ ماله، فظنه المسيح سرقه.

وهذا تكلُّفٌ، وإنما كان الله سبحانه في قلب المسيح أجَلَّ وأعظم من أن يحلف به أحد كاذبًا، فلما حلف له السارق دار الأمر بين تهمته وتهمة بصره، فردّ التهمة إلى بصره لمّا اجتهد له في اليمين بالله، كما ظنَّ آدم صدقَ إبليس لما حلف له بالله، وقال: ما ظننت أحدًا يحلف بالله كاذبًا.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (قال قتادة: «وكان بعض أهل العلم يقول: من خادَعَنا بالله خُدِعْنا»)، المؤمن عنده ثقة بالله، فإذا وُصِلَ الأمر على الله، المؤمن يقتنع بهذا.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير (٥/ ١٤٥١)، وأخرج الطبري (١٠/ ١٠٩) نحوه عن قتادة.

(٢) أخرجه الطبري (١٠/ ١٠٩)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٤٥١).

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٤٤)، ومسلم (٢٣٦٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وفي «الصحيح»: «أَنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ **رَأَى رَجُلًا يَسْرِقُ، فَقَالَ: سَرَقْتَ؟ فَقَالَ: لَا وَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ! فَقَالَ الْمَسِيحُ: آمَنْتُ بِاللهِ، وَكَذَّبْتُ بَصَرِي»**)، المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ رأى رجلًا يسرق، فقال له: سرقت؟ -يسأله-. قال: لا، ثم حلف بالله، فالمسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وثق بالله، وقال: «آمَنْتُ بِاللهِ، وَكَذَّبْتُ بَصَرِي».

فصــل

ومن كيده العجيب: أنه يُشامُّ النفس، حتى يعلم أي القوتين تغلب عليها: قوة الإقدام والشجاعة، أم قوة الانكفاف والإحجام والمهانة؟

فإنْ رأى الغالبَ على النفس المهانةَ والإحجام؛ أخذ في تثبيطه وإضعاف همته وإرادته عن المأمور به، وثقّله عليه، وهوّن عليه تركه، حتى يتركه جملة، أو يُقصِّر فيه ويتهاون به. وإن رأى الغالبَ عليه قوةَ الإقدام وعلوّ الهمة؛ أخذ يُقلّل، عنده المأمور به، ويُوهِمه أنه لا يكفيه، وأنه يحتاج معه إلى مبالغة وزيادة.

فيقصِّر بالأول ويتجاوز بالثاني، كما قال بعض السلف: «ما أمر الله سبحانه بأمر إلا وللشّيطان فيه نزعتان: إما إلى تفريط وتقصير، وإما إلى مجاوزة وغلو، ولا يبالي بأيهما ظفر»(١).

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ومن كيده العجيب: أنه يُشامُّ النفس، حتى يعلم أي القوتين تغلب عليها: قوة الإقدام والشجاعة، أم قوة الانكفاف والإحجام والمهانة؟)، الشيطان مع ابن آدم إن رأى محبة منه للكسل والشهوات أغراه بذلك؛ حتى يخرجه من دائرة الطاعة والعبادة إلى المعصية.

(١) أخرجه الخطابي في العزلة (ص٩٧) عن ابن عائشة، قال: «مَا أَمَرَ اللهُ تَعَالَى عِبَادَهُ بِأَمْرٍ إِلَّا وَلِلشَّيْطَانِ فِيهِ نَزْعَتَانِ: فَإِمَّا إِلَى غُلُوٍّ، وَإِمَّا إِلَى تَقْصِيرٍ، فَبِأَيِّهِمَا ظَفِرَ قَنِعَ».

وإن رأى منه رغبة في الطاعة وقوة في العزيمة فإنه يحاول معه الغلو؛ يقول: هذه الأوامر لا تكفي، تزود، يزود من الطاعات فيعبد الله بشيء لم يشرعه ولم يأمر به، وهذا هو الغلو.

فهو يأتي ابن آدم: إما من التساهل، وإما من الغلو؛ ليخرجه عن الاعتدال، يخرج ابن آدم على الاعتدال؛ إما إلى الغلو وإما على التساهل، هذا شأن الشيطان مع ابن آدم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومن كيده العجيب: أنه يُشامُّ النفس، حتى يعلم أي القوتين تغلب عليها)**، من كيد الشيطان: أنه ينظر في الإنسان وميوله؛ فإن كان يميل إلى الخير ويرغب في الخير حثه على الغلو والتطرف والزيادة؛ ليخرجه عن الاعتدال.

وإن رأي منه ميلًا إلى الشهوات وإلى التساهل والتكاسل حثه على ذلك؛ على التساهل في الدين، وعلى التكاسل عن العبادات، وزيَّن له الشهوات وأغفله عن ذكر الله؛ لأن مهمته أن يخرج هذا الإنسان عن الاعتدال؛ إما إلى الغلو والتطرف، وإما إلى التساهل والانحلال من الدين، لا يريد له أن يكون معتدلًا في دينه، هذا كيد الشيطان لابن آدم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فيقصِّر بالأول ويتجاوز بالثاني)**، هو مهمته: أن يخرج الإنسان عن الاعتدال في دينه؛ إما إلى الغلو، وإما إلى التساهل، هذه مهمة الشيطان. فعلى المسلم أن يحذر من كيده، يحذر من الغلو والزيادة في الدين، ويحذر من التساهل والإهمال فيكون معتدلًا.

فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاء بالاعتدال والاستقامة، وأنكر على الذين يتشددون في العبادة، ويشقون على أنفسهم كما أنكر على المتساهلين وأمر بالاعتدال كما في سورة الفاتحة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة:٦-٧]: وهم أهل الاعتدال.

﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾: وهم أهل الإهمال والتساهل، وهم اليهود ومن سار في طريقهم.

﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾: وهم الغلاة الذين يعبدون الله على جهل وضلال، ويتركون ما جاءت به الأدلة، ويظنون أنها قليلة، يريدون زيادة على هذا.

ولما بلغ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن قوم أن أحدهم قال: أنا أصوم ولا أفطر، والآخر قال: أنا أصلي ولا أنام، والآخر قال: أنا لا أتزوج النساء؛ أنكر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليهم، وقال: «**أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟ أَمَا إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلهِ** عَزَّ وَجَلَّ، **وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي، فَلَيْسَ مِنِّي**»(١).

«**مَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي**»: إلى الغلو أو إلى التساهل.

«**فَلَيْسَ مِنِّي**»: تبرأ منه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فالاعتدال في كل شيء هو المطلوب، والاعتدال أيضًا يتسبب عنه الاستمرار في العبادة، أما الغلو فإنه يتسبب عنه ترك العبادة، يمل الإنسان، ويترك العبادة.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الْمُنْبَتَّ لَا أَرْضًا قَطَعَ، وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى»[(١)]، فشبَّهه بالذي يسير في الطريق؛ إن حمل على راحلته وأتعبها كلت وانقطع في الطريق، فلا ظهرًا أبقى ولا بلغ الغاية التي يريدها.

كـ«الْمُنْبَتِّ؛ لَا أَرْضًا قَطَعَ، وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى»، فالاعتدال سبب للاستمرار على العبادة، وكان يحث صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الاعتدال، فلا غلو ولا تساهل؛ هذا هو الطريق الصحيح.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (كما قال بعض السلف: »ما أمر الله سبحانه بأمر إلا وللشّيطان فيه نزعتان)، إما نزعة غلو، وإما نزعة تساهل.

الشيطان يريد أن يخرج الإنسان عن الامتثال لأمر الله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ إما إلى الغلو والزيادة، وإما إلى التساهل؛ فليحذر الإنسان من كيد الشيطان.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (إما إلى تفريط وتقصير، وإما إلى مجاوزة وغلو، ولا يبالي بأيهما ظفر»)، كلاهما عنده سواء، لا الذي يتساهل ولا الذي يغلو ويزيد، كلاهما خرج عن الجادة، وخرج عن المأمور، هذا ما يفرح الشيطان على ابن آدم؛ فإنما يهمه ويغيظه المعتدل، هذا هو الذي يغيظ الشيطان.

---

(١) أخرجه البيهقي في شُعَب الإيمان (٣/ ٤٠٤)، وابن المبارك في الزهد والرقائق (١/ ٤١٥)، ووكيع في الزهد (١/ ٤٨٩) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وقد اقتطع أكثرُ الناس إلا أقلَّ القليل في هذين الواديين: وادي التقصير، ووادي المجاوزة والتعدي، والقليل منهم جدًّا الثابتُ على الصراط الذي كان عليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه.

فقوم قصّر بهم عن الإتيان بواجبات الطهارة، وقوم تجاوز بهم إلى مجاوزة الحدّ بالوسواس، وقوم قصّر بهم عن إخراج الواجب منٍ المال، وقوم تجاوز بهم حتى أخرجوا جميع ما في أيديهم، وقعدوا كَلًّا على الناس، مستشرفين إلى ما بأيديهم، وقوم قصّر بهم عن تناول ما يحتاجون إليه من الطعام والشراب واللباس، حتى أضرُّوا بأبدانهم وقلوبهم، وقوم تجاوز بهم حتى أخذوا فوق الحاجة، فأضروا بقلوبهم وأبدانهم، وكذلك قصّر بقوم في حق الأنبياء وورثتهم حتى قتلوهم، وتجاوز بآخرين حتى عبدوهم، وقصّر بقوم في خُلطة الناس حتى اعتزلوهم في الطاعات، كالجمعة والجماعات والجهاد وتعلُّم العلم، وتجاوز بقوم حتى خالطوهم في الظلم والمعاصي والآثام.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقد اقتطع أكثرُ الناس إلا أقلَّ القليل في هذين الواديين: وادي التقصير، ووادي المجاوزة والتعدي)، اقتطع بنو آدم لهذين الأمرين: إما غلو وتشدد، وإما تقصير وتساهل.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (والقليل منهم جدًّا الثابتُ على الصراط الذي كان عليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **وأصحابه)**، وهو الاعتدال، الاعتدال بين الغلو والتساهل، هذا هو طريق الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فلا رهبانية وهي التشدد، تشدد النصارى، ولا تساهل وهو تفريط اليهود وتساهل اليهود في دينهم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فقوم قصّر بهم عن الإتيان بواجبات الطهارة، وقوم تجاوز بهم إلى مجاوزة الحدّ بالوسواس)**، مثلًا: الطهارة، الطهارة من النجاسة، ومن الحدث.

الشيطان يأتي بني آدم إما بالوساوس وأن الماء لا يطهرهم؛ ولذلك يكثرون صب الماء ويكثرون الغسيل، ويرون أنهم لم يطهروا.

وإما التساهل، وهو عدم المبالاة بالنجاسة وملامستها، فهذا طريق الشيطان مع بني آدم.

اليهود- مثلًا- يتشددون في الطهارة فإنهم لا يغسلون الثوب إذا أصابته نجاسة، وإنما يقطعون طرف الثوب إذا أصابته نجاسة، وهذا غلو.

والنصارى تساهلوا وتعبدوا بالنجاسة؛ يرون أن هذا من العبادة، وأن يلبسوا النجاسات والعياذ بالله! فهم على طرفي نقيض.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقوم قصّر بهم عن إخراج الواجب من المال، وقوم تجاوز بهم حتى أخرجوا جميع ما في أيديهم، وقعدوا كَلًّا على الناس، مستشرفين إلى ما بأيديهم)**، الله جَلَّوَعَلَا أمر بالإنفاق في سبيل الله، أمر بالصدقات ومساعدة المحتاجين، لكن باعتدال، ونهى عن البخل.

فالإنسان يعتدل فيه؛ ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ ﴾ [الفرقان:٦٧].

الإقتار هو البخل، والإسراف هو الزيادة، فيعتدلون في الإنفاق في الصدقات، في التبرعات، ويمسكون أموالهم التي أعطاهم الله لا يضيعونها.

نهى ﷺ عن إضاعة المال، والله جلّ وعلا قال: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ [النساء:٥].

الله أمر بإمساك المال والمحافظة عليه؛ لأنه يغني الإنسان عن الناس، ولأنه ينتفع به، أما إذا أخرجه وأسرف فيه صار عالة على الناس.

النبي ﷺ لما سأله سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عن الوصية، هل يخرج ماله، هل يخرج شطر ماله؟ قال: «**لَا، الثُّلُثُ، وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ، إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ**»[1].

فالاعتدال في الإنفاق بين الإقتار وبين الإسراف، ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف:٣١].

فلا يحرم الإنسان نفسه من الانتفاع بالمال والأكل والشرب بحدود ما أحل الله، ولا يسرف في الأكل والشرب وإعطاء نفسه ما تشتهي، بل يعتدل في هذا، الاعتدال في كل شيء مطلوب.

قوله رحمه الله: **(وقوم قصّر بهم عن تناول ما يحتاجون إليه من الطعام والشراب واللباس، حتى أضرُّوا بأبدانهم وقلوبهم)**، قوم أطلقوا لأنفسهم العنان في الإنفاق وأسرفوا.

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٩٥)، ومسلم (١٦٢٨) من حديث سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه.

وقوم على العكس؛ حرموا أنفسهم وحرموا أولادهم ومن تحت أيديهم، قتروا عليهم، وهذا من كيد الشيطان بابن آدم، والمطلوب الاعتدال في الإنفاق من غير إسراف وتبذير، ومن غير تقتير وبخل.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وكذلك قصّر بقوم في حق الأنبياء وورثتهم حتى قتلوهم، وتجاوز بآخرين حتى عبدوهم)**، في حق الأنبياء والصالحين. فاليهود يقتلون الأنبياء، والنصارى يغلون في الأنبياء، ولذلك قالوا: المسيح ابن الله، أو هو ثالث ثلاثة، أو هو الله، مقالات لهم في المسيح عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، هذا غلو، هذا غلو.

مثل ذلك: من يغلون في محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويخرجونه من دائرة البشرية ويقولون: إنه فوق البشرية ويعتقدون فيه أنه يعطي وأنه يرزق ويخلق، وأنه... وأنه؛ هذا غلو في حق الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهناك مَن فرَّطوا في حق الرسول، وتساهلوا في ذلك، على طرفي نقيض، والاعتدال هو المطلوب.

فالشيطان حمل قوم على الجفاء في حقهم، في حق الأنبياء وحق الصالحين، فاحتقروهم وقللوا من شأنهم، بل قتلوهم.

اليهود قتلوا بعض الأنبياء قتلوا زكريا، قتلوا يحيي، هموا بقتل المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ ورفعه الله من بين أيديهم، هموا بقتل محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقتلون الأنبياء كما ذكر الله عنهم.

وقوم -وهم النصارى- غلوا في المسيح؛ قالوا: هو ابن الله، أو هو الله، أو ثالث ثلاثة مع أن المسيح عبد الله ورسوله.

وكذلك غلوا في الصالحين، بعضهم غلا في الصالحين وعبدهم من دون الله، تبرك بهم وغلا بهم.

وقوم فرَّطوا في حق الصالحين واحتقروهم وازدروهم، فالشيطان دائمًا يخرج بني آدم عن الاعتدال في كل شيء.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقصّر بقوم في خُلطة الناس حتى اعتزلوهم في الطاعات، كالجمعة والجماعات والجهاد وتعلُّم العلم، وتجاوز بقوم حتى خالطوهم في الظلم والمعاصي والآثام)**، فهو يحاول إخراج العباد عن الاعتدال في كل شيء؛ إما الغلو وإما التساهل.

هذا شأنه مع بني آدم إلا مَن رحم الله ولزم الاعتدال والاقتداء بالرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بلا غلو ولا تساهل، لا إفراط ولا تفريط.

الاختلاط بالناس إذا كان لمصلحة، لدعوى، لأمر بالمعروف ونهي عن منكر، لتعليم العلم هذا مطلوب.

وكذلك المؤانسة، تختلط بهم للمؤانسة فيما أحل الله، والمعاشرة، هذا شيء طيب.

فقوم قصر بهم عن مخالطة الناس حتى اعتزلوا، حتى لا يحضروا الجمعة والجماعة، اعتزلوا في بيوتهم أو في محلات عبادتهم؛ يخافون من الشيطان يوسوس لهم أنهم إذا اختلطوا بالناس أنهم يصيبهم شيء من الكسل، من معاصي الناس، يتأثرون بهم، حتى اعتزلوا الجمعة والجماعة -والعياذ بالله-، وضلوا عن سبيل الله بحجة أن الاختلاط بالناس فيه ضرر!

وقوم خالطوا أهل المعاصي؛ أسرفوا في المخالطة حتى خالطوا أهل المعاصي وأهل التساهل ولم ينكروا المنكر، لا يأمرون بمعروف ولا ينهون عن منكر، يخالطون الناس ولا يتعرضون لما هم عليه من التقصير أو من الخلل، هذا فعل الشيطان في الخلطة.

الخلطة ليست بممنوعة مطلقًا وليست بمباحة مطلقًا، بل هي على حسب المصلحة، الإنسان لا يستغني عن الناس ومخالطتهم يحتاج إلى الناس، الإنسان -كما يقولون- مدني بالطبع طبيعته هكذا لا يعيش وحده، فلابد من الخلطة المعتدلة التي لا انهماك فيها، ولا الاعتزال الذي فيه خلوة تنقطع عن الناس ويكون الإنسان كأنه وحش لا يخالط الناس.

وقصر بقوم حتى امتنعوا من ذبح عصفورٍ أو شاةٍ ليأكله، وتجاوز بآخرين حتى جرّأهم على الدماء المعصومة، وكذلك قصّر بقوم حتى منعهم من الاشتغال بالعلم الذي ينفعهم، وتجاوز بآخرين حتى جعلوا العلم وحده هو غايتهم، دون العمل به، وقصّر بقوم حتى أطعمهم من العشب ونبات البرية دون غذاء بني آدم، وتجاوز بآخرين حتى أطعمهم الحرام الخالص، وقصّر بقوم حتى زيّن لهم ترك سنة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من النكاح، فرغبوا عنه بالكُلِّيّة، وتجاوز بآخرين حتى ارتكبوا ما وصلوا إليه من الحرام.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقصر بقوم حتى امتنعوا من ذبح عصفورٍ أو شاةٍ ليأكله، وتجاوز بآخرين حتى جرّأهم على الدماء المعصومة)، هناك من يعظم القتل في كل شيء حتى ما أباح الله ذبحه من البهائم ومن الطيور، رحمة، يرحم الطيور ويرحم الأغنام ولا يذبحها، ومنهم من يسفك دماء المسلمين، فهم على طرفي النقيض في هذا.

الشيطان -أيضًا- حمل قومًا على الرحمة بالحيوانات، الرحمة الشديدة بالحيوانات؛ لا يذبحون ولا العصفور ولا الشاة رحمة بها بزعمهم! وحمل قومًا على سفك الدماء، سفك الدماء المحرمة، هذا هو الشيطان، الله أباح لنا ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [المائدة:١].

أباح لنا بهيمة الأنعام أن نذبح ونـأكل وننتفع بها، وليس ذبحها للمصلحة يكون فيه قسوة، بل هو مما أباحه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لمصالح الناس، الله خلقها لهذا، لكن ترفق بها وترحمها.

«**إِنَّ اللهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ، عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا ذَبَحْتُمْ**» يعني: ذبحتم مَن يستحق، ذبحتم للأكل «**فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ. وَإِذَا قَتَلْتُمْ**» مَن يستحق القتل مِن بني آدم «**فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ**»[(١)] . هذا هو دين الإسلام، دين الاعتدال، دين الرحمة، فحمل قومًا على الزهد الذي هو الغلو في الزهد حتى تركوا أكل الحيوانات ولا يذبحونها؛ رحمة بها -بزعمهم-!

وحمل قومًا على قتل الناس، بدل الحيوانات، تعدوا هذا، وصاروا يقتلون النفس البريئة -والعياذ بالله- ويسفكون الدماء؛ فهذا كيد الشيطان ببني آدم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وكذلك قصّر بقوم حتى منعهم من الاشتغال بالعلم الذي ينفعهم، وتجاوز بآخرين حتى جعلوا العلم وحده هو غايتهم، دون العمل به)**، غلا بطلبة العلم، بعضهم قصر في طلب العلم، وترك التعلم واعتزل العلماء، فهذا أُتي من ناحية التهاون والتساهل في حق العلم، وغلا بقوم حتى تعلموا وتركوا العمل، فهم على طرفي نقيض.

أناس أخذوا العمل وتركوا العلم؛ مثل: الصوفية والنصارى، يقولون: اعملوا؛ حتى ينهوا عن التعلم!

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٥٥) من حديث شداد بن أوس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الآن هناك صوفية ينهون عن التعلم، يقولون: التعلم يشغلكم عن العبادة، اشتغلوا بالعبادة والذكر، واتركوا طلب العلم.

وقوم أخذوا العلم وتركوا العمل، أخذوا العلم وتركوا العمل مثل اليهود أخذوا العلم وتركوا العمل.

ولذلك في آخر سورة الفاتحة: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة:٦]: وهم الذين أخذوا العلم والعمل.

﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾: وهم الذين أخذوا العلم وتركوا العمل.

﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة:٧]: وهم الذين أخذوا العمل وتركوا العلم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وكذلك قصّر بقوم حتى منعهم من الاشتغال بالعلم الذي ينفعهم، وتجاوز بآخرين حتى جعلوا العلم وحده هو غايتهم، دون العمل به)**، من ناحية العلم: قصر بقوم عن طلب العلم وزهدهم في طلب العلم، وهؤلاء مثل الصوفية.

الصوفية يقولون: المطلوب هو العمل، أما العلم فهو يشغلك عن العمل وذكر الله، فاشتغل بالعبادة وذكر الله واترك طلب العلم؛ لأنه يشغلك عن ذلك، وهذا موجود الآن، فمن الصوفية الآن مَن يزهِّد في طلب العلم، بل يَنهى عنه، ويقول: إنه يشغلك عن العمل!

وحمل قومًا على العلم بدون عمل، تحصيل العلم وعدم العمل به كما هي طريقة اليهود.

لابد من التعلم، لابد من تعلم العلم النافع، ولا يستقيم العمل ولا ينفع إلا إذا كان مبنيًّا على العلم والدليل، علم بلا عمل كشجرٍ بلا ثمر، وعمل بلا علم ضلال، يعبدون الله على جهل وضلال.

وهذه طريقة يجب على المسلم أنه يحذر منها أيضًا، طريقة اليهود الذين يأخذون العلم ويتركون العمل، وطريقة النصارى والصوفية الذين يأخذون العمل ويتركون العلم وينهون عنه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقصّر بقوم حتى أطعمهم من العشب ونبات البرية دون غذاء بني آدم، وتجاوز بآخرين حتى أطعمهم الحرام الخالص)**، الآن جاءت الأطعمة.

أيضًا قصر بقوم حتى تركوا ما أحل الله من الأطعمة وصاروا يأكلون العشب ويأكلون الأشياء الضارة، ويتركون ما أحل الله من باب الزهد والورع. في الأطعمة بعض الناس يترك الأطعمة ويتزهد ويأكل من العشب ومن الأشياء التي لا نفع فيها، بل هي ضرر، كما أنه غلا في أخرين حتى أكلوا الحرام وأكلوا الربا.

كما أنه أطلق لقوم العنان حتى استحلوا الحرام والشهوات، فالإسلام كله اعتدال ووسطية بين الغالي والجافي في كل شيء.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقصّر بقوم حتى زيّن لهم ترك سنة رسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **من النكاح، فرغبوا عنه بالكُلِّيّة، وتجاوز بآخرين حتى ارتكبوا ما وصلوا إليه**

من الحرام)، من جهة الزواج والاستمتاع بالنساء، الله جَلَّوَعَلَا أمر بالزواج وأمر بالاستمتاع المباح، ونهى عن الزنا وعن الفواحش.

لكن الشيطان حمل قوم على ترك التزوج وتبتلوا ولم يتزوجوا من باب العبادة يقولون، وجرأ قومًا على السفاح والفحش والزنا - والعياذ بالله - طرفي نقيض.

الاعتدال والزواج المباح والاستمتاع المباح وفيه محاصل، فيه: أن الرجل يصون المرأة ويكفلها ويحميها، وفيه الذرية والإنجاب الصالح، وفيه قضاء الشهوة عن الحرام ويعف الإنسان، يعف الرجل ويعف المرأة، فيه إعفاف عن الزنا.

الشيطان لا يحاول أن يقطع هذا السبيل فيحرم الحلال ويحل الحرام - والعياذ بالله -، قوم حملهم على التبتل وعدم التزوج من باب العبادة، وقوم أغراهم بالفحش والفواحش ووقعوا فيما حرم الله عَزَّوَجَلَّ.

طرفي نقيض، هو دائمًا يحاول إخراج بني آدم عن الاعتدال؛ إما إلى الغلو والتطرف، وإما إلى التساهل، والذي يسمونه التسامح، والتساهل في العبادة وأمور الدين، ويسمون التمسك بكتاب الله وسنة رسوله تمسكًا وتشددًا! هذا متساهل يسمي التمسك تشددًا، وقوم لا يكفيهم التمسك، بل يزيدون في الغلو.

ولهذا لما جاء ثلاثة نفر إلى بيوت النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسألون عن عبادة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأجل أن يقتدوا به، فلما أُخبِروا بعبادة الرسول

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كأنهم تقالُّوها، وقالوا: أين نحن من رسول الله، وقد غُفِرَ ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟ فظنوا أن الرسول ليس بحاجة إلى العمل؛ لأنه مغفور له؛ ولذلك استقلوا عبادته لله عَزَّوَجَلَّ، «أَمَّا أَنَا فَأُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ الآخَرُ: إِنِّي أَصُومُ الدَّهْرَ فَلاَ أُفْطِرُ، وَقَالَ الآخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ وَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا»، تبتل، فلما علم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مقالتهم غضِب، وخطب عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وقال: «**وَاللهِ إِنِّي لأَتْقَاكُمْ للهِ عَزَّوَجَلَّ، وَأَعْلَمُكُمْ بِهِ، وَإِنِّي أُصَلِّي وَأَنَامُ، وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**»[(١)].

❖ ❖ ❖

(١) سبق تخريجه (ص٩٧).

وقصّر بقوم حتى جَفَوا الشيوخَ من أهل الدين والصلاح، وأعرضوا عنهم، ولم يقوموا بحقهم، وتجاوز بآخرين حتى عبدوهم مع الله، وكذلك قصّر بقوم حتى منعهم قَبولَ أقوالِ أهل العلم والالتفات إليها بالكلية، وتجاوز بآخرين حتى جعلوا الحلال ما حلّلوه والحرام ما حرّموه، وقدموا أقوالهم على سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصحيحة الصريحة.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وقصّر بقوم حتى جَفَوا الشيوخَ من أهل الدين والصلاح، وأعرضوا عنهم، ولم يقوموا بحقهم، وتجاوز بآخرين حتى عبدوهم مع الله)**، قصر بقوم حتى احتقروا العلماء وازدروهم وابتعدوا عنهم، وصاروا يلقبونهم بالألقاب الشنيعة: أذناب السلاطين، عُبَّاد الدرهم والدينار إلى آخره، يزهدونهم في العلماء.

وحمل أخرين على النقيض فغلوا في المشايخ حتى عبدوهم من دون الله، وزعموا أنهم أولياء، وأنهم يملكون النفع والضر، وغير ذلك، فهو مع هؤلاء بين طرفي نقيض؛ إما غلو وإما جفاء. هم في العلماء على طرفي نقيض، فالناس إذًا ثلاثة: طرفان ووسط:

- طرف الجفاء مع العلماء واحتقار العلماء وازدراؤهم.
- أو الغلو فيهم وعبادتهم من دون الله كحالة الغلاة؛ الذين يغلون في الشخص ويرفعونه فوق منزلته.

- والاعتدال: محبة العلماء المستقيمين والاستفادة منهم، والاقتداء بهم من غير غلو ومن غير جفاء، وهذا موجود في الناس الآن مع العلماء كما تعلمون.

هناك أناس ليس لهم هَمٌّ إلا تجريح العلماء وإسقاط العلماء والكلام فيهم، وهناك أناس على النقيض: الغلو في العلماء وأنهم ينفعون ويضرون من دون الله، وأن فيهم بركة، إلى آخره.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وكذلك قصّر بقوم حتى منعهم قَبولَ أقـوالِ أهل العلم والالتفات إليها بالكلية، وتجاوز بآخرين حتى جعلوا الحلال ما حلّلوه والحرام ما حرّموه، وقدموا أقوالهم على سنة رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **الصحيحة الصريحة)**، وهذا موجود ومشاهد الآن؛ هناك مَن يزهد في الفقه والعلم، ويقول: هذه أقوال رجال، وهذه ليس لها دليل، يريد أن يمحص ويفكر ويعرض هذه الأقوال على الأدلة؛ يقول: ليس عندهم أدلة، إذًا ليس عندهم علم، ليس عندهم كذا وكذا.

والطرف الثاني: من غلا في أقوال أهل العلم حتى اعتبرها تشريعًا من الله عَزَّوَجَلَّ دون أن يعرف دليلها ومستندها.

وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [التوبة:٣١].

فالذي يطيع الناس في تحليل الحرام وتحريم الحلال هذا اتخذه ربًّا؛ لأن التحليل والتحريم حق لله عَزَّوَجَلَّ، لا يشاركه فيه أحد.

فهم مع أقوال أهل العلم على طرفي نقيض؛ منهم مَن غلا فيها واعتبرها وكأنها وحي من الله، وهو يعلم أنهم خالفوا الدليل.

يقول: هم أفقه وأعلم منا، هم أفقه منا وأعلم منا، ثم فيما بعد تعرف أن هذا مخالف للدليل فلا يجوز لك أن تأخذ به وأنت تعرف أنه مخالف للدليل.

يقولون: لا، هم أعلم منا، ولو ظهر لنا أنهم مخالفون للدليل، هذا لا يجوز، هذا غلو.

في حين أنه زهد أناس في العلم وأقوال أهل العلم حتى انسلخوا من العلم نهائيًّا، واحتقروه وازدروه.

كذلك مع أقوال العلماء والفقهاء، الشيطان حرَّم قومًا منها، وقال: هذه أقوال رجال، وحرمهم منها، ولم يستفيدوا من كلام أهل العلم بهذه الحجة: أقوال رجال.

هي أقوال رجال، لكنها مأخوذة من الكتاب والسنة، فقه في دين الله، فأقوال العلماء ينظر فيها ما كان يتمشى على الدليل يؤخذ وينتفع به ويدرس، وما كان مخالفًا للدليل فإنه يترك.

قوم حملهم الشيطان على هجر كلام العلماء، هجر الفقه نهائيًّا، يقول: هذه أقوال رجال، بل يُذكر عن بعضهم أنه لما رأى متن الزاد في سيارة قال: ماذا تريدون بهذه الجيفة تحملونها معكم؟! اطرحوها -والعياذ بالله-.

وقوم غلوا في أقوال أهل العلم حتى قالوا: إن أقوال أهل العلم حجة مطلقة، وأخذوا بها إذا وافقت هواهم، ولو كانت ليس عليها دليل، ولو كانت خطأ!

كما قال الله جَلَّوَعَلَا في النصارى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:٣١]؛ لأنهم يأخذون أقوالهم قضية مطلقة إذا وافقت أهواءهم، وما خالف أهواءهم ولو كان حقًّا من أقوال العلماء رفضوه؛ لأنهم يتبعون أهواءهم.

فلا نأخذ طريقة النصارى ونتخذ أقوال العلماء حجة مطلقة؛ ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:٣١]. أحلوا لهم الحرام فاستحلوه وحرموا عليهم الحلال فحرموه، هذه طريقة النصارى.

فأقوال العلماء لا ترفض مطلقًا ولا تقبل مطلقًا، بل تعرض على الكتاب والسنة؛ فما كان له دليل من الكتاب والسنة فهو حق يؤخذ به، وما كان مخالفًا للدليل يترك، صاحبه إن كان مجتهدًا وأخطأ فهو مأجور، وإن كان متعمدًا للخطأ والمخالفة فهو آثم.

والآن نسمع كثيرًا من أصحاب الأهواء، يقولون: المسألة فيها خلاف، الحجاب فيه خلاف، كذا فيه خلاف.

ليس الكلام على الخلاف، الكلام على الدليل، والخلاف موجود والأقوال موجودة، لكن الكلام على ما يوافق الدليل، نحن لا نأخذ ما يوافق أهواءنا فقط، ولكن نأخذ ما يوافق الدليل، هذا هو المطلوب.

فأقوال العلماء لا تلغى وتطرح مرة، ولا يؤخذ بها مرة، بل تعرض على الدليل، وهي ثروة علمية، فقه في دين الله.

وقصّر بقوم حتى قالوا: إن الله سبحانه لا يقدر على أفعال عباده ولا شاءها منهم، ولكنهم يعملونها بدون مشيئته وقدرته، وتجاوز بآخرين حتى قالوا: إنهم لا يفعلون شيئًا البتة، وإنما الله سبحانه هو فاعل تلك الأفعال حقيقة، فهي نفس فعله لا أفعالهم، والعبيد ليس لهم قدرة ولا فعلٌ البتةَ.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقصّر بقوم حتى قالوا: إن الله سبحانه لا يقدر على أفعال عباده ولا شاءها منهم، ولكنهم يعملونها بدون مشيئته وقدرته)، هؤلاء هم القدرية المعتزلة[١] الذين يقولون: إن الإنسان يخلق فعل نفسه؛ ولذلك سُمُّوا مجوس هذه الأمَّة[٢]؛ لأنهم أثبتوا خالقين مع الله عَزَّوَجَلَّ، الإنسان -عندهم- يخلق فعل نفسه، لا أن الله هو الذي خلقه وقدره.

(١) القدرية هم نفاة القدر، القائلون بأن العبد يخلق فعل نفسه، وليس لله فيه إرادةٌ ولا خَلْقٌ ولا مشيئة، فأنكروا عموم المشيئة والخلق! قال ابن أبي العز في شرح الطحاوية (ص٤٩٣): (والقدرية نفاةُ القدر جعلوا خالقين مع الله تعالى؛ ولهذا كانوا مجوسَ هذه الأمة، بل أردأ من المجوس...) اهـ. ويُطلق اسم القدرية على الغلاة في القدر. انظر: الفَرْق بين الفِرَق (ص١١٢، ٢٤١)، ومجموع الفتاوى (٨/ ٧ - ٥٨)، والصفدية (١/ ٥٠)، ودرء التعارض (١/ ٣٧١ - ٣٧٤).

(٢) ورد هذا في عدة أحاديثَ بألفاظ متقاربة عن جمع من الصحابة؛ منهم: ابنُ عمر، وحذيفة، وجابر، وأنس، وأبو هريرة، وابن عباس، وسهل بن سعد، وعائشة، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ. أخرجه أبو داود (٤٦٩١، ٤٦٩٢)، وابن ماجه (٩٢)، وأحمد في المسند (٩/ ٤١٥، ١٠/ ٢٥٢)، والبزار في مسنده (٧/ ٣٣٨)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٤٩)، وابن المُسْتفاضِ الفِرْيابي في القدر (ص١٧٣ - ١٩١)، والطبراني في الأوسط (٣/ ٦٥)، والصغير (١/ ٣٦٨، ٢/ ٧١)، والحاكم في المستدرك (١/ ١٥٩)، والبيهقي في الكبرى =

لم يقدِّر الله المعاصي والكفر والفسوق والعصيان، يقولون هذا لم يقدره الله، ولكن العبد هو الذي فعله وأوجده دون أن يسبق أن الله قدر هذا في كتابه واللوح المحفوظ، فأنكروا القدر! هؤلاء يقال لهم: القدرية.

وقوم غلوا في إثبات القدر حتى سلبوا مشيئة العبد واختيار العبد، وقالوا: العبد مجبور، يُحرّك، وليس له اختيار، هؤلاء يقال لهم: الجبرية، وهم الجهمية ومَن مشى على طريقهم.

يقولون: العبد مجبور مسير لا مخير، المعتزلة يقولون: العبد حر هو الذي يخلق فعل نفسه، وليس لله قدر في ذلك، ويخالفون قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات:٩٦].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وتجاوز بآخرين حتى قالوا: إنهم لا يفعلون شيئًا البتة، وإنما الله سبحانه هو فاعل تلك الأفعال حقيقة، فهي نفس فعله لا أفعالهم، والعبيد ليس لهم قدرة ولا فعلٌ البتةَ)**، هذا هو الجبر، مذهب الجبرية.

(فهي نفس فعله لا أفعالهم، والعبيد ليس لهم قدرة ولا فعلٌ البتةَ)، والله يعذبهم على شيء لم يفعلوه، وإنما هو الذي فعله، هذا وصف لله بالظلم -والعياذ بالله-.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقصّر بقوم حتى قالوا: إن الله سبحانه لا يقدر على أفعال عباده ولا شاءها منهم، ولكنهم يعملونها بدون مشيئته وقدرته)**، هذه طريقة الجبرية والقدرية.

=(١٠/ ٣٤٢) عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، قَالَ: «**الْقَدَرِيَّةُ مَجُوسُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، إِنْ مَرِضُوا فَلَا تَعُودُوهُمْ، وَإِنْ مَاتُوا فَلَا تَشْهَدُوهُمْ**».

القدرية يقولون: إن الله لم يشأ أفعال العباد ولم يخلقها، إنما هم خلقوها، الإنسان يخلق فعل نفسه، هذا عند المعتزلة.

الجبرية على العكس من الجهمية وغيرهم، يقولون: الإنسان مجبور مثل الميت بالغاسل يحركه من غير إرادة منه، مثل الريشة في الهواء تحركها من غير إرادة منها، الإنسان مجبور على أفعاله، وهذا غلو وجفاء، لابد من الوسطية.

أهل السنة والجماعة قالوا: العبد له اختيار وله مشيئة وله قدرة عكس الجبرية، ولكنه لا يستقل عن إرادة الله ومشيئة الله خلافًا للمعتزلة.

وقصّر بقوم حتى قالوا: إن رب العالمين ليس داخلًا في خلقه ولا بائنًا عنهم، ولا هو فوقهم ولا تحتهم، ولا خلفهم ولا أمامهم، ولا عن أيمانهم ولا عن شمائلهم، وتجاوز بآخرين حتى قالوا: هو في كل مكان بذاته، كالهواء الذي هو داخل في كل مكان.

الشـرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقصّر بقوم حتى قالوا: إن رب العالمين ليس داخلًا في خلقه ولا بائنًا عنهم، ولا هو فوقهم ولا تحتهم، ولا خلفهم ولا أمامهم، ولا عن أيمانهم ولا عن شمائلهم)**، هؤلاء يقولون: إن الله ليس في جهة، فلا هو فوق ولا تحت، ولا يمنة ولا يسرة، ولا داخل العالم ولا خارج العالم.

إذًا هو معدوم، يلزم من هذا أن الله معدوم، الله له جهة وهي العلو فوق عباده؛ ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٨]. ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤]. ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة:٢٥٥]. فوق مخلوقاته.

فيقال: الله له جهة، جهة العلو وليست جهة مخلوقة، وإنما هي جهة العلو فوق مخلوقاته سبحانه، وفوق الخلق ليس داخلًا فيهم.

فهم غلوا في هذا، ويسمون هذا تنزيهًا لله عَزَّوَجَلَّ، وهو تعطيل في حقيقته، ونفي لما وصف الله به نفسه، ووصفته به رسله عليهم الصلاة والسلام، ويقولون هذا من باب التنزيه لله عَزَّوَجَلَّ، وهذا كذب وتعطيل، وليس تنزيهًا.

على طرفي نقيض في حق الله جَلَّوَعَلَا.

قوم يقولون: الله ليس داخل العالم ولا خارج العالم، ولا فوق ولا تحت! إذًا أين يصير؟!

قوم يقولون: لا، الله مختلط بالعباد وفي كل مكان، وهم الحلولية والأولون هم الجهمية، والمعتزلة، وحتى الأشاعرة أيضًا على هذا، ينفون علو الله على عرشه، وينفون علوه على خلقه، ويقولون الله في كل مكان ليس له مكان خاص تعالى الله عما يقولون.

أهل السنة والجماعة يقولون: الله فوق عباده؛ ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٨].

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤]. فهو في جهة، لكنها جهة العلو في جهة العلو.

هم يقولون: لا، ليس في جهة، أهل الضلال يقولون: الله ليس في جهة؛ أهل الحق يقولون: الله في جهة هي جهة العلو، له العلو المطلق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٨]؛ ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الشورى:٤].

فهم على طرفي نقيض: من يقول: إنه ليس له مكان وليس داخل العالم ولا خارجه، ولا يمنة ولا يسرة، ولا... ولا... إذًا يكون معدومًا، وقوم يقولون: لا، الله في كل مكان، مختلط في كل مكان! وهم الحلولية(١).

---

(١) **الحلولية**: هم الذين يعتقدون أن الله تعالى بذاته حل في مخلوقاته كما يحل الماء في الإناء، وأنه تعالى بذاته في كل مكان! تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا. وأما الاتحاد: فهو القول بأن الله تعالى متحد بمخلوقاته وممتزج بها كما يمتزج الماء بالطين، وأن وجود الخالق هو عين وجود المخلوقات، أي أن الوجود واحد. والقول بالحلول والاتحاد مآلهما واحد، وهذه عقيدة غلاة الصوفية والفلاسفة، كابن عربي، وابن سبعين، والحلاج، والتلمساني، وغيرهم. انظر: مجموع الفتاوى (٢/ ١١١ - ٤٨٠).

أهل السنة والجماعة يقولون: الله في جهة العلو فوق عباده، مستوٍ على عرشه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ليس هو مع خلقه مختلطًا بهم وليس له مكان كما يقوله الغلاة، بل هو في مكان وهو جهة العلو، جهة العلو.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وتجاوز بآخرين حتى قالوا: هو في كل مكان بذاته، كالهواء الذي هو داخل في كل مكان)**، الحلولية على العكس من هؤلاء؛ يقولون: الله حالٌّ في كل مكان، وهؤلاء يسمون بالحلولية، نسأل الله العافية، فهم على طرفي نقيض.

هؤلاء ينفون أن الله جَلَّ وَعَلَا لا داخل ولا خارج، ولا فوق ولا تحت، ولا يمنة ولا يسرة، وليس له جهة، وقوم يقولون: لا، الله معنا ومختلط بالخلق، وحال في الخلق، في كل مكان ولا يخلو منه مكان -تعالى الله عما يقولون- حتى القاذورات، المحلات القذرة والحمامات لا ينزهون الله عنها، حال في كل مكان، تعالى الله عما يقولون، هذا إفراط وتفريط، غلو وتطرف.

أما أنه في داخل كل مكان بعلمه فنعم، الله في كل مكان بعلمه؛ ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [المائدة:٩٧]، ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [البقرة:٢٥٥]. ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤]: يعني بعلمه، معية بالعلم لا معية بالاختلاط كما يظنه هؤلاء، فالمعية يراد به هنا: معية العلم والإحاطة؛ فالله عالم بكل شيء، محيط بكل شيء.

ثم استوى فوق خلقه على عرشه، ولم يخلو من علمه في الأرض موضع، سبحانه علمه في السماوات وما في الأرض.

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤]: وهو الله في السماوات وفي الأرض.

﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام:٣]. فالله فوق مخلوقاته مستو على عرشه، وعلمه في كل مكان لا يخلو منه مكان، ليس هناك مكان لا يعلمه الله ويعلم ما فيه، وما يحصل فيه.

وقصّر بقوم حتى قالوا: لم يتكلم الرب سبحانه بكلمة واحدة البتة،

وتجاوز بآخرين حتى قالوا: لم يزل أزلًا وأبدًا يقول: ﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص:٧٥]. ويقول لموسى: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ﴾ [النازعات:١٧]؛ فلا يزال هذا الخطاب قائمًا به ومسموعًا منه، كقيام صفة الحياة به.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقصّر بقوم حتى قالوا: لم يتكلم الرب سبحانه بكلمة واحدة البتة)**، قوم نفوا كلام الله وقالوا: القرآن مخلوق وليس كلام الله، وليس لله كلام، والله لا يتكلم، هذا قول الجهمية ومَن سار في طريقهم.

والمعتزلة يقولون: كلام الله مخلوق؛ خلقه في جبريل أو خلقه في محمد أو خلقه في اللوح المحفوظ، لا يتكلم، وإنما هذا الكلام مخلوق -تعالى الله عن ذلك-، ووصفوا الله بأنه أصم أبكم لا يتكلم! هذا نقص في حق الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

وقوم قالوا: كل الكلام هو كلام الله، حتى نباح الكلاب واللغو والرفث، كل الكلام هو كلام الله عَزَّوَجَلَّ! تعالى الله عما يقولون.

وَكُلُّ كَلَامٍ فِي الْوُجُودِ كَلَامُهُ سَوَاءٌ عَلَيْنَا نَثْرُهُ وَنِظَامُهُ

كله كلام الله، الشعر والهجاء والمدح والذم والكذب كله كلام الله -تعالى الله عما يقولون- هذا غلو، غلو في الإثبات، إثبات الكلام لله، وهذا غلو في التنزيه الذين نزهوا الله حتى قالوا: إنه لا يتكلم؛ لأنه لو قلنا إنه يتكلم شبهناه بالمخلوق!

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقصّر بقوم حتى قالوا: لم يتكلم الرب سبحانه بكلمة واحدة البتة)**، قوم نفوا الكلام عن الله مثل الجهمية والأشاعرة وأتباعهم، نفوا الكلام عن الله.

وقالوا: إن الله لا يتكلم، وإنما خلق الكلام في جبريل أو في محمد أو في اللوح المحفوظ، وأما الله فإنه لا يتكلم، تعالى الله عن ذلك، هذا نقص في حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ووصف له بالخرس.

﴿أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾ [الأعراف:١٤٨]، لما اتخذوا العجل أنكر الله عليهم. ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ [الأعراف:١٤٨]. الذي لا يتكلم هذا لا يكون إلهًا، الله يتكلم ويأمر وينهى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وينزل الكتب، كلامه ينزل به الملك إلى الرسول، والرسول يبلغه للخلق، فهو كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ القرآن كلام الله، التوراة كلام الله، الإنجيل كلام الله يوحيه إلى رسله بواسطة الملك جبريل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

هؤلاء ينكرون أن يكون الله يتكلم، وإنما هذا كلام الملك، الرسول الملكي أو كلام الرسول البشري وهو محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو إخوانه من الأنبياء والمرسلين، هذا طرف.

الطرف الثاني: كل كلام في الوجود فهو كلام الله، حتى نباح الكلاب ونهيق الحمار كله كلام الله! هؤلاء غلوا في الإثبات وهؤلاء غلوا في النفي؛ بين طرفي نقيض.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وتجاوز بآخرين حتى قالوا: لم يزل أزلًا وأبدًا يقول:** ﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥])، الذين يقولون: إن الله دائمًا يتكلم، ولا يسكت، هذا غلو.

الله يتكلم إذا شاء- سبحانه- بما شاء، يتكلم إذا شاء فيما شاء سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ويقول لموسى:** ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ﴾ [النازعات:١٧]؛ **فلا يزال هذا الخطاب قائمًا به ومسموعًا منه، كقيام صفة الحياة به)**، كلام الله عَزَّ وَجَلَّ من أفعاله، وأفعاله توجد متى شاء الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، أفعاله متعلقة بالمشيئة ليس دائمًا يتكلم، يتكلم إذا شاء، ويتكلم بما شاء سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فلا يزال هذا الخطاب قائمًا به ومسموعًا منه، كقيام صفة الحياة به)**، هؤلاء الغلاة في الإثبات الذين أثبتوا الكلام لله.

وقـصّر بقـوم حتى قالوا: إن الله سـبحانه لا يُشَـفِّع أحـدًا في أحد البتة، ولا يرحم أحدًا بشفاعة أحدٍ، وتجاوز بآخرين حتى زعموا أن المخلوق يشفع عنده بغير إذنه، كما يشفع ذو الجاه عند الملوك ونحوهم.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقصّر بقوم حتى قالوا: إن الله سبحانه لا يُشَفِّع أحدًا في أحد البتة، ولا يرحم أحدًا بشفاعة أحدٍ، وتجاوز بآخرين حتى زعموا أن المخلوق يشفع عنده بغير إذنه)**، قوم غلوا في الشفاعة حتى أثبتوها لكل إنسان أنه يشفع وأنه ينفع ويضر، ويتعلقون بالمخلوقين ورجاء الشفاعة، فغلوا في إثبات الشفاعة.

وقوم غلوا في نفي الشفاعة حتى قالوا: لا شفاعة أبدًا، ليس هناك أحد يشفع.

وأهل السنة والجماعة يقولون: الشفاعة ثابتة، لكنها بشرطين: إذن الله للشافع أن يشفع، ورضاه عن المشفوع فيه. كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥]. قال تعالى: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم﴾ [الأنبياء:٢٨]: يعني: الملائكة.

﴿وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾ [الأنبياء:٢٨]. والشفاعة حق ولكنها لأهل الإيمان، أما أهل الكفر فالله قال: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر:٤٨].

﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ﴾ [غافر:١٨]. فالكفرة لا شفاعة فيهم، أما أهل الإيمان -وإن كانوا قد عصوا الله وقصروا-، لكن

يرجون الشفاعة من الرسول ﷺ، يرجون الشفاعة ممن يشفعهم الله فيه ويطلبونها من الله لا يطلبونها من الناس، اللهم شفع في نبيك، اللهم شفع في ملائكتك وعبادك الصالحين. يطلبونها من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (كما يشفع ذو الجاه عند الملوك ونحوهم)، كما يشفع الإنسان عند الملوك، الملوك يمكن يشفع عندهم الشافع ولو لم يرضوا، ولو لم يأذنوا ويقبلها، يقبل الشفاعة؛ لأنه محتاج إلى الأعوان وإلى الوزراء فيقبل شفاعتهم، وإن كان لا يرضى بها ولا يأذن بها.

أما الله فلا أحد يشفع عنده إلا بإذنه، ولا يقبل الشفاعة إلا في المؤمن، وأما الكافر فلا يقبل فيه شفاعة أبدًا.

قصَّر بقوم حتى قالوا: إيمان أفسق الناس وأظلمهم كإيمان جبريلَ وميكائيل، فضلًا عن أبي بكر وعمر!، وتجاوز بآخرين حتى أخرجوا من الإسلام بالكبيرة الواحدة.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقصّر بقوم حتى قالوا: إيمان أفسق الناس وأظلمهم كإيمان جبريل وميكائيل، فضلًا عن أبي بكر وعمر، وتجاوز بآخرين حتى أخرجوا من الإسلام بالكبيرة الواحدة)**، هذا من جهة كبائر الذنوب.

قوم كفروا بكبائر الذنوب التي دون الشرك وهم الخوارج[1]، يكفرون بكبائر الذنوب التي دون الشرك؛ فمن زنى، من سرق، من أكل الربا يقولون: كافر -والعياذ بالله- فيكفرون بالكبائر، هذه طريقة الخوارج.

وقوم على العكس؛ يتجاوزون في حق المعاصي حتى يرضوا عن كل عاصٍ وكل مشرك، ولا يفرقون بين الصالح والطالح.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقصّر بقوم حتى قالوا: إيمان أفسق الناس وأظلمهم)**، كذلك الإيمان يزيد وينقص كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

ويقول قوم: لا، الإيمان شيء واحد لا يزيد ولا ينقص.

وهذا مخالف لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال:٢].

---

(١) تقدم التعريف بهم في المجلد الأول (ص١١٦).

وقوله: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ﴾ يعني: أهل الإيمان.

﴿أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٤-١٢٥]، وهؤلاء هم المنافقون.

فالإيمان يزيد وينقص؛ يزيد بالطاعة وينقص بالمعاصي، ليس هو شيئًا واحدًا لا يزيد ولا ينقص.

والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ**»(١)؛ فدل على أن الإيمان يضعف ويقوى، ويزيد وينقص، ليس إيمان الناس واحدًا.

وفي رواية: «**وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ**»(٢)؛ دل على أنه ينقص حتى يكون في مقدار حبة خردل.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (**وقصَّر بقوم حتى قالوا: إيمان أفسق الناس وأظلمهم كإيمان جبريل وميكائيل، فضلًا عن أبي بكر وعمر**)، هؤلاء الذين يقولون: إن الإيمان لا ينقص، لا يزيد ولا ينقص.

---

(١) أخرجه مسلم (٤٩) من حديث أبي سعيد الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٥٠) عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ وَأَصْحَابٌ، يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ، وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ، يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ**».

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وتجاوز بآخرين حتى أخرجوا من الإسلام بالكبيرة الواحدة)**، وهم الخوارج، يقولون: الإيمان ينقص، بل إن الإيمان يزول بالمعاصي، هذا مذهب الخوارج.

وقصّر بقوم حتى نَفَوا حقائق أسماء الرب تعالى وصفاته وعطّلوه منها، وتجاوز بآخرين حتى شبَّهوه بخلقه ومَثّلوه بهم.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقصّر بقوم حتى نَفَوا حقائق أسماء الرب تعالى وصفاته وعطّلوه منها، وتجاوز بآخرين حتى شبَّهوه بخلقه ومَثّلوه بهم)**، المشبِّهة، والمعطلة.

المشبهة(١): الذين غلوا في إثبات الصفات وشبهوها بصفات المخلوقين، ولم ينزهوا الله عن مشابهة المخلوقين.

وقوم غلوا في التنزيه حتى نفوا أسماء الله وصفاته؛ لئلا يتشبه أو يشابه المخلوقين، هذا غلو في التنزيه، وهذا غلو في الإثبات، والوسط هو الاعتدال.

الله جَلَّوَعَلَا له أسماء وله صفات لا تشبه صفات المخلوقين؛ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

انظر، آية واحدة فيها الرد على الطائفتين؛ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾: هذا رد على المشبهة.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾: رد على المعطلة، آية واحدة.

---

(١) قال ابن أبي العز في شرح الطحاوية (ص٥٣٧): (المشبِّهة: هم الذين شبهوا الله سبحانه بالخلق في صفاته، وقولهم عكس قول النصارى؛ شبهوا المخلوق -وهو عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- بالخالق، وجعلوه إلهًا، وهؤلاء شبَّهوا الخالق بالمخلوق؛ كداود الجواربي وأشباهه).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وتجاوز بآخرين حتى شبَّهوه بخلقه ومَثّلوه بهم)**، هذه طريقة الغلو في الإثبات حتى شبهوه بخلقه، طريقة الغلو في التنزيه حتى نفوا عنه أسماءه وصفاته -تعالى الله عن قول الطائفتين-.

الحاصل: أن هذا الشيطان يتلاعب ببني آدم، وقصده أنه يخرجهم عن الحق إلى الباطل، وعن الاعتدال إلى ضده.

وقصّر بقوم حتى عادَوا أهل بيت رسول الله ﷺ، وقاتلوهم، واستحلُّوا من حرمتهم، وتجاوز بقوم حتى ادَّعَوا فيهم خصائص النبوة من العصمة وغيرها، وربما ادعوا فيهم الإلهية.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**وقصّر بقوم حتى عادَوا أهل بيت رسول الله ﷺ، وقاتلوهم، واستحلُّوا من حرمتهم**)، الشيطان -لعنه الله- يكيد لبني آدم ويحاول إخراجهم عن الاعتدال في كل شيء إلى الإفراط والغلو، أو التفريط والإهمال.

ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ فيما سبق مسائل من هذا الباب، ووقف عند هذه المسألة: أن الشيطان غلا في قوم في حق أهل بيت رسول الله ﷺ حتى ادعوا لهم منزلة ليست لهم من أنهم ينفعون ويضرون، وأن الخلافة لهم بعد رسول الله.

وهذا قول الشيعة[١]، الخلافة لهم بعد رسول الله، وأبو بكر وعمر والخلفاء الراشدون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مغتصبون وظالمون لهم، هكذا يقول الشيعة -قبحهم الله- يغلون في أهل بيت رسول الله ﷺ؛ يريدون قرابة الرسول.

---

(١) هم الذين شايعوا عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على الخصوص، وقالوا بإمامته وخلافته نصًّا ووصية؛ إما جليًّا وإما خفيًّا، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده، وإن خرجت فبظلم يكون من غيره أو بتَقيَّة من عنده، وهم ثلاث طوائفَ: الغالية، والروافض، والزيدية.
انظر: مقالات الإسلاميين (ص٥ وما بعدها)، والملل والنحل (ص١٤٦)، والتعريفات (ص١٧١).

ويقصرون في حق بعضهم؛ فعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا من أهل بيت الرسول، من آل بيت الرسول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ومع هذا يشتمونها ويسبونها، ويتكلمون فيها، هذا يعتبر ردة -والعياذ بالله-، فهم بين طرفي نقيض في أصحاب رسول الله وأهل بيته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

قابلهم قوم يقال لهم الناصبة[١]؛ يعادون آل بيت الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويتنقصونهم ويتكلمون فيهم، ناصبوهم العداوة، يسمون الناصبة؛ لأنهم ناصبوا آل بيت الرسول العداوة، فهم على طرفي نقيض مع الرافضة[٢].

---

(١) **النواصب عند أهل السنة**: هم المتدينون بِبُغض عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لأنهم نصبوا له، أي: عادوه.
قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة في بيان عقيدة أهل السنة والجماعة: (ويحبون أهل بيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويتولونهم، ويحفظون فيهم وصية رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ...، ويتبرؤون من طريقة الروافض الذين يبغضون الصحابة ويسبونهم، ومن طريقة النواصب الذين يؤذون أهل البيت بقول أو عمل، ويمسكون عما شجر بين الصحابة). انظر: مجموع الفتاوى (٣/ ١٥٤).
فالنواصب هم الذين عادوا أهل البيت، لاسيما عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ فمنهم مَن يسبُّه، ومنهم من يفسِّقه، ومنهم من يكفره؛ كما أشار لذلك شيخ الإسلام. انظر: منهاج السنة (٧/ ٣٣٩).
قال العلَّامة الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: (النواصب هم الذين ينصبون العداء لآل البيت، ويقدحون فيهم، ويسبونهم؛ فهم على النقيض من الروافض). انظر: شرح الواسطية (٢/ ٢٨٣). والنواصب عند الشيعة: هي صفة لكل مسلم سني.

(٢) هي فرقة من فِرَق الشيعة الضالَّة، سُمُّوا (رافضةً)؛ لرفضهم إمامة أبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ويقال: سموا بالروافض؛ لأن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ خرج على هشام بن عبد الملك، فطعن عسكره على أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فمنعهم من ذلك، فرفضوه، فقال لهم زيد بن عليٍّ: رفضتموني؟ قالوا: نعم، فبقي عليهم هذا الاسم. وهم يُدعون الإمامية؛ لقولهم بالنص على إمامة عليٍّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. انظر: مقالات الإسلاميين (ص١٦ وما بعدها)، والفَرْق بين الفِرَق (ص١٥)، واعتقادات فرق المسلمين والمشركين (ص٥٢).

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وقصّر بقوم حتى عادَوا أهل بيت رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **وقاتلوهم، واستحلُّوا من حرمتهم)**، الصنف الأول: هم الناصبة، والصنف الثاني هم الرافضة.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وتجاوز بقوم حتى ادَّعَوا فيهم خصائص النبوة من العصمة وغيرها)**، يقولون: الأئمة معصومون، العصمة إنما هي للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أما آل البيت فإنهم مثل غيرهم يخطئون ويصيبون.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وربما ادعوا فيهم الإلهية)**، ربما ادعوا فيهم الإلهية؛ قالوا: إنهم ينفعون ويضرون؛ ولذلك هذا ظاهر في مذهب الشيعة أنهم يغلون في آل بيت الرسول ويدعونهم من دون الله، ويبنون لهم الأضرحة والمراقد، يسمونها: مراقد آل البيت، وهذا مِن الغلو في حق آل بيت الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والواجب: الاعتدال في حقهم بمحبتهم وموالاتهم وإكرامهم، ولكن لا يغلى فيهم، ويُدَّعى لهم العصمةُ، وأنهم ينسخون من الشريعة ما يريدون، وأنهم... وأنهم...!

حتى ادعوا لهم الإلهية، حتى قال إمامهم المعاصر: (إن لأئمتنا -يعني: آل بيت الرسول- من المنزلة ما لم يبلغها ملَك مقرَّب، ولا نبي مرسل)[1]! نسأل الله العافية.

(١) هذا كلام الخميني زعيم شيعة إيران، انظر: التصوف - المنشأ والمصادر (ص١٦١، ١٦٢).

وكذا قصّر باليهود في المسيح حتى كذَّبوه، ورمَوه وأمَّه بها برأهما الله منه، وتجاوز بالنصارى حتى جعلوه ابن الله، وجعلوه إلهًا يُعبَد مع الله.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(كذا قصّر باليهود في المسيح حتى كذَّبوه، ورمَوه وأمَّه بها برأهما الله منه)**، فهم كذلك في المسيح عيسى ابن مريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قصر بقوم وهم اليهود حتى كفروا به، وتنقصوه، وقالوا -والعياذ بالله-: إنه ولد بغي؛ لأنه ليس له أب.

نعم، ليس له أب، الله خلقه، الله قادر على كل شيء، ﴿قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران:٥٩]، كما خلق آدم بلا أب وبلا أم.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران:٥٩]، فالأمر بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

في مقابلهم النصارى غلوا في عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حتى ادعوا أنه ابن الله، أو أنه هو الله ثالث ثلاثة -كما يقولون قبحهم الله- هذا غلو.

اليهود جفوا في حق عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، والنصارى غلوا في حق عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، والمؤمنون توسطوا، وقالوا: عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هو عبدُ الله ورسوله، كلمته ألقاها إلى مريم كما قال الله جَلَّ وَعَلَا فيه.

عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عبدُ الله خلافًا للنصارى: الذين يقولون إنه ابن الله، ورسوله: خلافًا لليهود الذين ينكرون نبوءته، عبدُ الله ورسوله.

وكلمته: يعني أنه وُجِدَ بسبب كلمة، قوله: ﴿كُن﴾، بكلمة ﴿كُن﴾، فهو كلمة.

﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ [النساء:١٧١]: بواسطة الملك.

﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾: روح، يعني من الروح المخلوقة، فأرسل الله بالروح إلى مريم فنفخ الملك في فرجها، ﴿أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم:١٢]: بواسطة الملك، الروح المخلوقة، هذا هو موقف المسلمين.

ولهذا في الحديث الصحيح: **«مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَالجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ؛ أَدْخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ»**[1].

لماذا خص عيسى؟ لأن فيه الخلاف بين اليهود والنصارى، المسلمون يقولون فيه ما قال الله فيه من الحق: «عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ».

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وتجاوز بالنصارى حتى جعلوه ابن الله، وجعلوه إلهًا يُعبد مع الله)**، يقولون: الرب.

أنت تسمع في إذاعاتهم والصوت الذي يسمونه صوت الإنجيل، وهو صوت إبليس ليس صوت الإنجيل، يقولون: قال الرب كذا وكذا -يعنون: عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ-!

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٣٥)، ومسلم (٢٨) من حديث عُبادةَ بن الصامت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وقصّر بقوم حتى نَفَوا الأسباب والقُوى والطبائع والغرائز، وتجاوز بآخرين حتى جعلوها أمرًا لازمًا لا يمكن تغييره ولا تبديله، وربما جعلها بعضهم مستقلة بالتأثير.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وقصّر بقوم حتى نَفَوا الأسباب والقُوى والطبائع والغرائز، وتجاوز بآخرين حتى جعلوها أمرًا لازمًا لا يمكن تغييره ولا تبديله، وربما جعلها بعضهم مستقلة بالتأثير**)، الله جَلَّ وَعَلَا جعل الأسباب وأمر باتخاذ الأسباب، ولكن لا يعتمد عليها، تتخذ ويتوكل على الله لحصول المطلوب، يعني خذ السبب وتوكل على الله في حصول مطلوبك.

هناك طائفة غلوا في السبب، وقالوا: إن السبب إنه يوجد النتيجة، السبب هو الذي يوجد النتيجة، يكفي السبب، غلوا في السبب.

وقوم ألغوا السبب وغلوا في التوكل، وقالوا: ليس هناك أسباب، التوكل يكفي.

والحق: هو الجمع بين اتخاذ الأسباب والتوكل على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو سيد المتوكلين وأعظم الناس توكلًا على الله، ومع هذا يأخذ بالأسباب النافعة، ويستشير أصحابه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، ويلبس الدروع والمغفر على رأسه، يأخذ بالسلاح؛ لأن هذه أسباب لم يهملها الرسول

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع أنه أعظم المتوكلين، فلابد من اتخاذ الأسباب التي أمر الله باتخاذها، ومع التوكل على الله.

قوم أخذوا بالتوكل وألغوا السبب، وقوم أخذوا بالسبب وألغوا التوكل، والوسط: هو الجمع بين الاثنين: الأخذ بالسبب النافع مع التوكل على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقصّر بقوم حتى تعبَّدوا بالنجاسات، وهم النصارى وأشباهُهم، وتجاوز بقوم حتى أفضى بهم الوسواس إلى الآصار والأغلال، وهم أشباه اليهود.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقصّر بقوم حتى تعبَّدوا بالنجاسات، وهم النصارى وأشباهُهم، وتجاوز بقوم حتى أفضى بهم الوسواس إلى الآصار والأغلال، وهم أشباه اليهود)**، هناك ناس يزعمون التواضع ولا يتطهرون من النجاسات؛ لأن هذا عندهم من باب التواضع، وهذا تشبه بالنصارى؛ لأنهم لا يتطهرون من النجاسات، بزعم أن هذا من التواضع.

وغلا بقوم في النجاسات حتى حذروا منها حتى رُموا بالوسواس، اليهود يغلون في الطهارة حتى إنهم يشقون الثوب الذي فيه نجاسة، لا يغسلونه يشقونها من الثوب، هذا غلو، والعياذ بالله، فلاحظ الفرق بين اليهود والنصارى في النجاسة.

ويشبههم ناس من هذه الأمة من الصوفية وغيرهم، بعضهم يغلو في التعبد بالنجاسة ولا يتجنبها، وبعضهم يوسوس ويتشدد في أمر النجاسة.

والوسط هو الاعتدال والخير، والنجاسة تغسل، ويطهر الثوب، بعد أن كان نجسًا ولا يجوز أن تصلي بثوب نجس، وأنت تقدر على تطهيره، ولا أن تصلي في بقعة نجسة وأنت تقدر على تطهيرها أو الافتراش عليها، فلا يجوز التساهل في أمور النجاسة.

ولا يجوز الغلو فيها بحيث يصاب الإنسان بالوسواس؛ كل شيء ينجس، كل شيء لا يطهر، هذا وسواس من الشيطان.

وقصّر بقوم حتى تزيّنوا للناس وأظهروا لهم من الأعمال والعبادات ما يحمدونهم عليه، وتجاوز بقوم حتى أظهروا لهم من القبائح ومن الأعمال السيئة ما يُسقطون به جاهَهم عندهم، وسَمَّوْا أنفسهم الملامتية(١).

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقصّر بقوم حتى تزيّنوا للناس وأظهروا لهم من الأعمال والعبادات ما يحمدونهم عليه، وتجاوز بقوم حتى أظهروا لهم من القبائح ومن الأعمال السيئة ما يُسقطون به جاهَهم عندهم، وسَمَّوْا أنفسهم الملامتية)**، كذلك الشيطان تلاعب بطوائف من الناس؛ فغلا في قوم في أمر تجنب المنهيات، لم يكتفوا بما شرعه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فغلوا في المنهيات، كل شيء عندهم حرام، كل شيء عندهم لا يجوز، هذا غلو في الأحكام الشرعية.

وقوم أوقعوا أنفسهم في المعاصي؛ يقولون: هذا من باب نخاف على أنفسنا من الرياء، فيباشرون المعاصي، يتظاهرون بها؛ حتى لا يصابوا بالرياء بزعمهم.

ويسمون الملامتية: يعني يعملون ما يلامون عليه من المعاصي والمخالفات؛ لئلا يصابوا بالرياء بزعمهم، والعياذ بالله.

(١) **الطائفة الملامتية**: هم الذين يظهرون ما لا يُمدحون عليه، ويسرون ما يحمدهم الله عليه، عكس المرائين المنافقين، وهؤلاء طائفة معروفة، لهم طريقة معروفة، تسمى طريقة أهل الملامة، وهم الطائفة الملامتية، يزعمون أنهم يحتملون ملام الناس لهم على ما يظهرونه من الأعمال؛ ليخلص لهم ما يبطنونه من الأحوال. انظر: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٣/ ١٦٨، ١٦٩).

وقصّر بقوم حتى أهملوا أعمال القلوب ولم يلتفتوا إليها، وعدُّوها فضلًا أو فضولًا، وتجاوز بآخرين حتى قَصَرُوا نظرهم وعملهم عليها، ولم يلتفتوا إلى كثير من أعمال الجوارح، وقالوا: العارف لا يُسْقِطُ وَارِدَهُ لِوِرْدِهِ.

وهذا بابٌ واسعٌ جدًّا، لو تتبعناه لبلغ مبلغًا كثيرًا، وإنما أشرنا إليه أدنى إشارة.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقصّر بقوم حتى أهملوا أعمال القلوب ولم يلتفتوا إليها، وعدُّوها فضلًا أو فضولًا، وتجاوز بآخرين حتى قَصَرُوا نظرهم وعملهم عليها، ولم يلتفتوا إلى كثير من أعمال الجوارح، وقالوا: العارف لا يُسْقِطُ وَارِدَهُ لِوِرْدِهِ)، غلا بقوم من الناس في هذه المسألة، وهي أن قومًا يقولون: تكفي النية، والدين في القلب، والدين في القلوب ليس في المظاهر والعبادات، يتركون العبادات، ويقولون: الدين في القلب ليس بالأعمال.

وغلا بقوم في حق الأعمال، وأسقطوا ما في القلوب والنيات، وهذان فريقان من الصوفية.

هذان فريقان من الصوفية؛ فقوم منهم يقولون: الأولياء ليس عليهم لو تركوا الطاعات والعبادات؛ لأن هذا ليس شرطًا، هؤلاء عارفون بالله وليس بهم حاجة إلى الأعمال؛ لأنهم وصلوا إلى الله، وعرَفوا الله، فليسوا بحاجة إلى الأعمال، يكفي ما في القلوب -يقولون-، ويلغون الأعمال!

وقوم غلوا في الأعمال وألغوا عمل القلوب، واقتصروا على المظاهر وتركوا عمل القلوب والنيات والمقاصد.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهذا بابٌ واسعٌ جدًّا)**، هذا الباب الذي اتخذه الشيطان لإضلال بني آدم بين الغلو والإفراط وبين التساهل والتفريط باب واسع، لكنه ذكر نماذج منه، ذكر منه نماذج فقط، وإلا فالباب واسع في هذا، تلاعب الشيطان ببني آدم بين الغلو والتساهل، بين الإفراط والتفريط؛ ليخرجهم من الوسطية.

فصـل

ومـن جملـة مكايـده: الـكلام الباطـل، والآراء المتهافتـة، والخيـالات المتناقضـة، التي هي زبالة الأذهـان، ونُحاتة الأفكار، والزَّبَـدُ الذي تقذف به القلوب المظلمة المتحيرة، التي تَعدِل الحق بالباطل، والخطأ بالصواب.

قد تقاذفت بها أمواج الشبهات، ورانَتْ عليها غيومُ الخيالات، فمركبها القِيل والقال، والشك والتشكيك وكثرة الجدال.

ليس لها حاصل من اليقين يُعوَّل عليه، ولا معتقد مطابق للحق يُرجع إليه؛ ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام:١١٢]، فقد اتخذوا لأجل ذلك القرآن مهجورًا، وقالوا من عند أنفسهم فقالوا مُنكرًا من القول وزورًا.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**ومن جملة مكايده: الكلام الباطل، والآراء المتهافتة، والخيالات المتناقضة**)، من مكائد الشيطان ببني آدم: أنه شغلهم بالكلام.

شغلهم بالكلام والقيل والقال، والكلام من بعض لبعض حتى يشغلهم في أنفسهم، وهذا واقع وكثير اليوم، فتنبهوا له؛ كثير خصوصًا في الشباب، وخصوصًا بعد ما جاءت وسائل التوتيرات وأشباهها، فصار همهم الكلام في الناس؛ فلان كذا وفلان كذا، واحد يمدح وواحد يذم، واحد يرد وواحد يدفع، فهذا شغل، هذا من الشيطان كله.

والإنسان يعتدل في كلامه؛ لأنه مسئول عن كلامه، مسئول عن كلامه وعن لسانه وما يقول، والناس لهم حرمة، المقالات العلمية والأحكام الشرعية لها حرمة لا يتساهل فيها وتنتهك بالكلام والتحليل والتحريم من غير علم.

فيجب على طلبة العلم أن يترفعوا عن هذه الأمور، يتأدبوا بأدب العلماء، وطلبة العلم يزينون أنفسهم. الآن هم منشغلون بالقيل والقال فيما بينهم، وفي مدح فلان وذم فلان، لا تذهبوا إلى فلان، لا تجلسوا في حلقة فلان، وهكذا، وناس يحثون على فلان، فهم طرفي نقيض.

والواجب: الاعتدال في هذه الأمور، كف اللسان عن القيل والقال، والتحريش، وهذه الأمور كلها من الشيطان.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومن جملة مكايده: الكلام الباطل، والآراء المتهافتة، والخيالات المتناقضة، التي هي زبالة الأذهان، ونُحاتة الأفكار، والزَّبَدُ الذي تقذف به القلوب المظلمة المتحيرة، التي تَعدِل الحق بالباطل، والخطأ بالصواب)**، مِن هذا أيضًا: علم الكلام، وعلم الجدل وعلم المنطق، والإعراض عن كتاب الله وسنة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والاعتماد على الأدلة العقلية (التي يسمونها: عقلية)، وترك الأدلة الشرعية المذكورة في الوحي من كلام الله وكلام الرسول، ويقولون: هذه تفيد الظن، أدلة السمع يعني الوحي تفيد الظن، وأما أدلة العقل فهي تفيد اليقين، هكذا يقولون.

قواعد المنطق، وعلم الكلام مع أنهم زبالة الأذهان ونحاتة الأفكار، وأنه كلام بشر خطؤه أكثر من صوابه.

وأما كلام الله وكلام رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهما الحق، وهما معصومان من الخطأ، وهما يفيدان اليقين، إذا صح الحديث أو وردت الآية فإنها تفيد اليقين، ولا يشك فيها -يشك في معناها، ويشك في مدلولها- إلا من عنده ضلال.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(ليس لها حاصل من اليقين يُعوَّل عليه، ولا معتقد مطابق للحق يُرجع إليه؛ ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾** [الأنعام:١١٢])، **﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾**: أي: علماؤهم يُوحُون إلى طلابهم.

﴿زُخْرُفَ الْقَوْلِ﴾: الكلام المدبَّج الذي يظن سامعه أنه حق وهو باطل، الحق في كتاب الله وفي سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وأما كلام الناس فأكثره باطل، والحق منه ما وافق الكتابَ والسنة، ما وافق الكتاب والسنة من كلام الناس فهو حق، وما خالف الكتاب والسنة وهو كثير فهو باطل؛ فالعمدة على الكتاب والسنة.

لو أن العقول تكفي لم نكن بحاجة إلى الرسل ولا إلى الكتب، الله يعلم أنها لا تكفي؛ ولذلك أرسل الله الرسل، وأنزل الكتب لتعليم الناس وهدايتهم، ولم يَكِلْهُم إلى عقولهم.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(فقد اتخذوا لأجل ذلك القرآن مهجورًا، وقالوا من عند أنفسهم فقالوا مُنكرًا من القول وزورًا)**، يقولون: إن أدلة الوحي لا تدل على اليقين، ولا تفيد العلم، إنما تفيد الظن، وأما أدلة العقل فهي التي تفيد اليقين وتدل على العلم! هكذا يقولون، مع أن الواجب العكس؛ فأدلة الشرع هي التي تفيد العلم واليقين، وأدلة العقل كثير منها تخرُّصٌ وضلال، وقليل منها صحيح، وهو ما وافق النقل، ووافق الكتاب والسنة.

فهم في شكّهِم يَعْمَهُون، وفى حَيْرتِهِم يتردَّدون، نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون، واتبعوا ما تَلَتْه الشياطين على ألسنة أسلافهم من أهل الضلال، فهم إليه يتحاكمون، وبه يتخاصمون، فارقوا الدليل، واتبعوا ﴿أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة:٧٧].

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فهم في شكّهِم يَعْمَهُون، وفى حَيْرتِهِم يتردَّدون، نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون، واتبعوا ما تَلَتْه الشياطين على ألسنة أسلافهم من أهل الضلال، فهم إليه يتحاكمون، وبه يتخاصمون، فارقوا الدليل)**، وطائفة لا يعتمدون على العقل ولا على النقل، إنما يعتمدون على الحكايات والقصص والأحاديث الموضوعة والمكذوبة، وقول فلان وعلان من أئمتهم، وهم عباد القبور والأضرحة.

لا يعتمدون على علم ولا على عقل ولا نقل، وإنما يعتمدون على ما يروونه من حكايات، قال فلان كذا، ورأى فلان بالمنام كذا، فهذا عمدتهم، وهذه أدلتهم، يبنون دينهم على هذا.

فصل

ومن كيده بهم وتحيُّله على إخراجهم من العلم والدين: أن ألقى على ألسنتهم أن كلام الله ورسوله ظواهر لفظية لا تفيد اليقين.

وأوحى إليهم أن القواطع العقلية والبراهين اليقينية في المناهج الفلسفية والطرق الكلامية، فحال بينهم وبين اقتباس الهدى واليقين من مِشْكاة القرآن، وأحالهم على منطق اليونان، وعلى ما عندهم من الدعاوى الكاذبة العَرِيَّة عن البرهان.

وقال لهم: تلك علوم قديمة صَقَلتها العقول والأذهان، ومَرّتْ عليها القرون والأزمان.

فانظر كيف تلطَّف بكيده ومكره حتى أخرجهم من الإيمان والدين، كإخراج الشعرة من العجين!

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومن كيده بهم وتحيُّله على إخراجهم من العلم والدين: أن ألقى على ألسنتهم أن كلام الله ورسوله ظواهر لفظية لا تفيد اليقين، وأوحى إليهم أن القواطع العقلية والبراهين اليقينية في المناهج الفلسفية والطرق الكلامية)**، هذا -كما ذكرنا- أن منهم مَن يعتمد على علم المنطق وعلم الكلام، ويقولون تفيد العلم والقين، وأما الكتاب والسنة هي ظواهر لا تفيد اليقين؛ لأنها ظواهر.

وأما علم المنطق وعلم الكلام والقواعد المنطقية هي التي تفيد اليقين، فقدموها على كتاب الله وعلى سنة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا شيء واقع في كتبهم وفي مقالاتهم وفيما يروى عنهم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فحال بينهم وبين اقتباس الهدى واليقين من مِشْكاة القرآن، وأحالهم على منطق اليونان)**، علم المنطق أصله مورث عن اليونان، المنطق اليوناني، علم الكلام مأخوذ من اليونان، وأما القرآن والسنة فهما عن الله وعن رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فيفرق بين مصدر هذا ومصدر هذا، هذا مصدره رب العالمين ورسوله، وهذا مصدره كفرة اليونان والفلاسفة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال لهم: تلك علوم قديمة صَقَلتها العقول والأذهان، ومَرّتْ عليها القرون والأزمان، فانظر كيف تلطَّف بكيده ومكره حتى أخرجهم من الإيمان والدين، كإخراج الشعرة من العجين!)**، الشيطان -لعنه الله- أغراهم بعلوم الكفرة وعلوم أهل المنطق وعلم الكلام فاعتمدوا عليه، وقالوا: هذا مجرب وهذا قديم، وتوالى عليه أمم.

نعم، هو قديم، لكن هو باطل، ولو كان قديمًا.

وقالوا: القرآن والسنة ظواهر، ظواهر لا تفيد اليقين، تفيد الظن عندهم، والذي يفيد اليقن مقدم على الذي يفيد الظن، هكذا يقولون.

فصل

ومن كيده: ما ألقاه إلى جُهَّال المتصوفة من الشَّطح والطامَّات، وأبرزه لهم في قالب الكشف من الخيالات، فأوقعهم في أنواع الأباطيل والتُّرَّهات، وفتح لهم أبواب الدعاوى الهائلات، وأوحى إليهم أن وراء العلم طريقًا إن سلكوه أفضى بهم إلى كشف العِيان، وأغناهم عن التقيُّد بالسنة والقرآن.

فحسَّن لهم رياضة النفوس وتهذيبها، وتصفية الأخلاق، والتجافي عما عليه أهل الدنيا، وأهل الرياسة والفقهاء، وأرباب العلوم، والعمل على تفريغ القلب وخُلُوِّه من كل شيء، حتى ينتقش فيه الحق بلا واسطة تعلَّم.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ومن كيده: ما ألقاه إلى جُهَّال المتصوفة من الشَّطح والطامَّات، وأبرزه لهم في قالب الكشف من الخيالات، فأوقعهم في أنواع الأباطيل والتُّرَّهات، وفتح لهم أبواب الدعاوى الهائلات، وأوحى إليهم أن وراء العلم طريقًا إن سلكوه أفضى بهم إلى كشف العِيان، وأغناهم عن التقيُّد بالسنة والقرآن)، هذا تلاعب الشيطان بالصوفية.

والصوفية يعتمدون على ما يحكونه عن أئمتهم ومشايخهم، ولا يعتمدون على كتاب الله وسنة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ويعتمدون على الزهد، الذي بالغوا فيه حتى خرجوا به عن الصراط المستقيم، الزهد مطلوب، لكن الزهد له حد؛ تزهد في المال، تزهد في الأولاد، هذا ليس زهدًا، هذا تحريم لما أحل الله.

فالصوفية غلا بهم الشيطان وتلاعب بهم، ألغوا الكتاب والسنة واتباع الرسول، واتبعوا مشايخهم وقادتهم.

وقالوا: صفوا نفوسكم بالرياضات وبالزهد، وترك الملذات حتى تصفوَ، ولا تحتاجون بعد ذلك إلى الكتاب والسنة، هذا مذهب الصوفية، هم على هذا لا على كتاب ولا على سنة، وإنما هم على ما تخيلوه من الزهد المكذوب، ومن دعاوى مشايخهم أن عندهم كشف، وعندهم علوم يدرون عن شيء لا ندري عنه، وهكذا حتى أسقطوا الأعمال، وقالوا: لا حاجة إليها، الكلام على القلوب، الكلام على القلوب ولا حاجة إلى الأعمال، هذا عند الصوفية.

تدرج بهم الحال إلى أن وصلوا إلى ما وصلوا إليه من ضلال مبين، ولا يزالون على هذا إلا مَن يرجع منهم إلى كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(والتجافي عما عليه أهل الدنيا، وأهل الرياسة والفقهاء، وأرباب العلوم)**، هذا الزهد المكذوب.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(والعمل على تفريغ القلب وخُلُوِّه من كل شيء، حتى ينتقش فيه الحق بلا واسطة تعلُّم)**، يقولون: لا تتعلم العلم؛ لأنه يشغلك عن

العمل، روض نفسك، عليك برياضة نفسك حتى تصفو وترى بها الحق من الباطل.

إذا صفت النفس هي لا تحتاج إلى كتاب ولا إلى سنة، هي تعرف الحق وتعرف الباطل، هكذا يقولون، فاعمل على تصفية نفسك من الشهوات ومن الرئاسات ومن الأموال، هذا كله من الكذب، والعياذ بالله.

والصوفية يحاربون العلم، وهذا شيء معروف عنهم، ظهر حتى على مَن يدعون العبادة والدعوة، وهم جماعة التبليغ؛ ينهون عن التعلم وعن العلم، يقولون: يشغلكم عن ذكر الله، ويشغلكم عن العمل.

المطلوب: العمل، وليس المطلوب العلم، فعليكم بالعمل، هكذا يقولون!
عليكم بالترويض والخروج، يسمونه الجهاد، الخروج أربعين يومًا كذا وكذا، يروضون أنفسهم بزعمهم، ويسمونه الجهاد، وهو ليس جهادًا.

الجهاد: هو قتال الكفار لإعلاء كلمة الله، هذا الجهاد، وليس الجهاد هو الخروج أربعين يومًا أو لا أدري كم إلى آخره، كل هذه ترهات وأباطيل زينها الشيطان لهم ليخرجهم من الطريق الصحيح.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(حتى ينتقش فيه الحق بلا واسطة تعلَّم)**، بلا واسطة تعلم، يقولون: ليس هناك حاجة إلى أن تتعلم، يأتي لك العلم بالرياضة وصفاء النفس، تعرف الحق من الباطل إذا صفت نفسك بالرياضة والخروج مع الصوفية، تكتسب منهم، تصفو نفسك، ولا تحتاج إلى تعلم ولا إلى علم، هكذا يقولون!

فلما خلا من صورة العلم الذي جاء به الرسول نَقَش فيه الشيطان بحسب ما هو مستعدٌّ له من أنواع الباطل، وخَيّله للنفس حتى جعله كالمشاهَد كشفًا وعيانًا.

فإذا أنكره عليهم ورثة الرسل قالوا: لكم العلم الظاهر ولنا الكشف الباطن، ولكم ظاهر الشريعة وعندنا باطن الحقيقة، ولكم القشور ولنا اللباب.

فلما تمكّن هذا من قلوبهم سلَخَها من الكتاب والسنة والآثار، كما يُسلَخ الليل من النهار، ثم أحالهم في سلوكهم على تلك الخيالات، وأوهمهم أنها من الآيات البينات، وأنها من قِبَل الله سبحانه إلهامات وتعريفات، فلا تُعْرَضُ على السنة والقرآن، ولا تُعامَل إلا بالقبول والإذعان.

فلغير الله -لا له- سبحانه ما يفتحه عليهم الشيطان: من الخيالات والشطحات وأنواع الهذيان!

وكلما ازدادوا بُعْدًا وإعراضًا عن القرآن وما جاء به الرسول كان هذا الفتح على قلوبهم أعظم.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فإذا أنكره عليهم ورثة الرسل قالوا: لكم العلم الظاهر ولنا الكشف الباطن، ولكم ظاهر الشريعة وعندنا باطن الحقيقة، ولكم القشور ولنا اللباب)، يقولون: أنتم تأخذون علمكم عن الأموات، عن

فلان عن فلان، ونحن نأخذ علمنا عن الله، عن الحي الذي لا يموت؛ لأننا وصلنا بمعرفته وأنهم ليسوا بحاجة للرسل.

الرسل للعوام -يقولون- أما الخواص فهم وصلوا إلى الله، وليسوا بحاجة إلى الرسل ولا إلى العلماء، ولا... ولا...، نسأل الله العافية، ضلال في صورة أنه عبادة، وأنه زهد.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فلما تمكّن هذا من قلوبهم سلَخَها من الكتاب والسنة والآثار)**، ولذلك أعدى شيء عندهم هي العلوم الشرعية.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ثم أحالهم في سلوكهم على تلك الخيالات، وأوهمهم أنها من الآيات البينات، وأنها من قِبَل الله سبحانه إلهامات وتعريفات)**، إلهامات من الله، يقولون: وصلنا من الله إلى الله، ونتلقى عن الله الإلهام والأشياء هذه، لسنا بحاجة إلى الوحي والرسل، هذه للعوام الذين لم يدخلوا في هذا الباب ولم يصلوا إلى الله، تعالى الله عما يقولون.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فلا تُعْرَضُ على السنة والقرآن، ولا تُعامَل إلا بالقبول والإذعان)**، هي مقدمة لا تعرض على الكتاب والسنة ليرى منها ما هو الصحيح من غير الصحيح، بل إنهم يعرضون الكتاب والسنة عليها، العكس، هذا من كيد الشيطان لبني آدم.

فالتصوف من كيد الشيطان لبني آدم، يخرجهم من السنة إلى البدعة.

يقولون للعصاة: اصحبونا ثم تتركون المعاصي، لا يدْعونهم بأن يأمروا بالمعروف، ويَنهوا عن المنكر، لا، بل يقولون: اصحبونا، ثم فيما بعد إذا صحبتمونا عرَفتم الحق تلقائيًّا -كما يقولون-.

الخروج، اخرج معنا، اخرج كذا! هذا كله من الباطل والتلاعب، وصد الناس عن دين الله الحق، وعن كتابه، وسنة رسوله ﷺ، ويقولون: نحن نجعل الناس تتوب.

إذًا المعصية أخف من البدعة، أنت تخرجهم وتدخلهم في بدعة، والبدعة شر من المعصية، هم لو بقوا على المعصية يُرجى لهم المغفرة والتوبة، لكن أنت أدخلتهم في البدعة، والمبتدع لا يرجع ولا يتوب إلا أن يشاء الله.

فصـل

ومن أنواع مكايده ومكره: أنه يدعو العبد -بحسن خلقه وطلاقته وبِشْره- إلى أنواع من الآثام والفجور، فيلقاه مَنْ لا يُخَلِّصُه من شره إلا تجهُّمُه والتعبيس في وجهه والإعراض عنه، فيحسِّن له العدوُّ أن يلقاه ببِشْره، وطلاقة وجهه، وحسن كلامه، فيتعلق به، فيروم التخلص منه فيعجِز، فلا يزال العدو يسعى بينهما حتى يصيب حاجته، فيدخل على العبد بكيده من باب حسن الخلق وطلاقة الوجه.

ومن هاهنا وصّى أطباء القلوب بالإعراض عن أهل البدع، وأن لا يسلِّم عليهم، ولا يُرِيهَم طلاقةَ وجهه، ولا يلقاهم إلا بالعبوس والإعراض.

وكذلك أوصَوْا عند لقاء من يخاف الفتنة بلقائه من النساء والمردان، وقالوا: متى كَشفتَ للمرأة أو الصبي بياض أسنانك كشفا لك عما هنالك، ومتى لقيتهما بوجه عابسٍ وُقِيتَ شرَّهما.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ومن أنواع مكايده ومكره: أنه يدعو العبد -بحسن خلقه وطلاقته وبِشْره- إلى أنواع من الآثام والفجور، فيلقاه مَنْ لا يُخَلِّصُه من شره إلا تجهُّمُه والتعبيس في وجهه والإعراض عنه)، من مكائد الشيطان- لعنه الله- لابن آدم: أنه يرغبه بطلاقة الوجه والبشاشة، وحسن الاستقبال مع كل أحد من غير فرق، ويعتبر هذا من حسن الخلق.

فلا ينكر على المبتدعة وعلى المخالفين بحجة حسن الخلق، وهذا لا شك أنه غرور من الشيطان، كل شيء له موضع، حسن الخلق له موضع، والإعراض له موضع؛ فأهل البدع والمنكرات يستقبلهم بإنكار وعدم الارتياح لهم، وأهل الخير يستقبلهم بطلاقة الوجه وحسن.

﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۖ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [الأنعام:٥٤].

فيستقبل أهل الخير بالبشاشة والراغبين في الخير، وأما أهل الشر فيستقبلهم بالجفاء حتى يتوبوا إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا من إنكار المنكر، وهذا من الولاء والبراء؛ تولي أهل الخير ويتبرأ من أهل الشر.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وكذلك أوصَوْا عند لقاء من يخاف الفتنة بلقائه من النساء والمردان، وقالوا: متى كَشفتَ للمرأة أو الصبي بياض أسنانك كشفا لك عما هنالك، ومتى لقيتهما بوجه عابسٍ وُقِيتَ شرَّهما)**، وكذلك مقابلة مَن في مقابلتهم فتنة شهوانية لا ينبغي للمسلم أن يقابلهم بارتياح وفتح مجال لهم.

فالمرأة التي ليست من محارمه لا يتوسع معها في الكلام والممازحة، ويتساهل معها في عدم الحجاب، ويقول هذا من حسن الخلق، هذا ليس من حسن الخلق.

حسن الخلق مع أهل البر والإحسان وأهل المعروف، وأما مَن فيهم فتنة فإنه لا يرتاح لهم، ولا يفتح لهم المجال والمجالسة؛ لئلا يفتتن بهم،

لا سيما إذا كانوا يتحدثون بحديث سيئ، يتكلمون في أهل الخير ويصفونهم بالتشدد والغلو وما أشبه ذلك، فلا يجلس معهم.

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام:٦٨].

هكذا يعامل كل صنف بما يليق به فيضع حسن الخلق في أهل الخير وأهل الصلاح، ويضع الإعراض في أهل الشر، فيعرض عنهم ولا يستقبلهم بالبشاشة، ويقول إن هذا من حسن الخلق؛ لأنهم يتجرؤون على ما هم عليه إذا لم يغير من ملاقاته معهم يتجرؤون، يقولون: نحن ليس فينا خلاف، وفلان يستقبلنا، لا، لا يجوز.

وكذلك الناس إذا رأوه يستقبلهم ارتاحوا لهم واحتجوا به، فيجب أن يتعامل مع الناس كل بما يليق به، كل بما يليق به.

ومـن مكايده: أنه يأمرك أن تلقى المساكين وذوي الحاجات بوجه عبوس، ولا تُرِيهم بِشرًا ولا طلاقة، فيطمعوا فيك، ويتجرأوا عليك، وتسقط هيبتك من قلوبهم، فيحرمك صالح أدعيتهم، وميل قلوبهم إليك، ومحبتهم لك؛ فيأمرك بسوء الخلق، ومنع البِشر والطلاقة مع هؤلاء، وبحسن الخلق والبِشْر مع أولئك، ليفتح لك باب الشر، ويغلق عنك باب الخير.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**ومن مكايده: أنه يأمرك أن تلقى المساكين وذوي الحاجات بوجه عبوس، ولا تُرِيهم بشرًا ولا طلاقة، فيطمعوا فيك**)، هذا من تمام الذي قبله، وهو أنه يتنازل مع الفقراء ومع المساكين ويجالسهم ويأنس بهم ويجبر خواطرهم، ولا يرتاح مع أهل الشر.

الله جَلَّ وَعَلَا قال لرسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قصة ابن أم مكتوم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ الأعمى جاء ليسأل الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن أمور دينه، يتعلم من الرسول، فصادف أن عنده جماعة من المشركين كان جالسًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معهم ليدعوهم إلى الله ويستميلهم إلى الإسلام، فلما لم يقبل على ابن أم مكتوم، ولم يلتفت إليه واستمر مع هؤلاء. فعاتبه الله عَزَّ وَجَلَّ بقوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾: يستقبلهم.

﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ [عبس:١-١٠]. عاتبه الله في ذلك[1]، الراغب في الخير ليس بمثل المدبر عن الخير؛ لأن المدبر عن الخير لا يريد الخير، والله جَلَّ وَعَلَا يحرمه من الخير، إذا أعرض أعرض الله عنه، وإذا أقبل أقبل الله عليه.

كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جالسًا في أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يحدثهم، فجاء ثلاثة، فلما رأوا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جالسًا مع أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يحدثهم، واحد من الثلاثة جاء وجلس مع الجالسين واستمع للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والثاني: أراد أن ينصرف، لكن استحيا فجاء وجلس أيضًا، والثالث: أعرض وذهب. النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أَمَّا أَحَدُهُمْ فَأَوَى، فَآوَاهُ اللهُ، وَأَمَّا الثَّانِي فَاسْتَحْيَا، فَاسْتَحْيَا اللهُ مِنْهُ، وَأَمَّا الثَّالِثُ أَعْرَضَ، فَأَعْرَضَ اللهُ عَنْهُ**»[2].

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٩/ ٢٥٨-٢٦٣)، وزاد المسير (٢/ ٣١)، والقرطبي (٦/ ٤٣١-٤٣٣)، وابن كثير (٣/ ٢٦٠).

(٢) أخرجه البخاري (٦٦، ٤٧٤)، ومسلم (٢١٧٦) من حديث أبي واقد الليثي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فصل

ومن مكايده: أنه يأمرك بإعزاز نفسك وصَوْنها حيث يكون رضا الرب تعالى في إذلالها وابتذالها، كجهاد الكفار والمنافقين، وأمر الفجار والظلمة بالمعروف ونهيهم عن المنكر.

فيخيِّل إليك أن ذلك تعريض لنفسك إلى مواطن الذل، وتسليط الأعداء، وطعنهم فيك، فيزول جاهك؛ فلا يُقبل منك بعد ذلك ولا يُسمَع منك.

ويأمرك بإذلالها وامتهانها حيث يكون الخير في إعزازها وصيانتها، كما يأمرك بالتبذل لذوي الرياسات، وإهانة نفسك لهم، ويخيِّل إليك أنك تُعِزُّها بهم، وترفع قدرها بالذل لهم، ويُذكِّرك قولَ الشاعر[1]:

أُهِـينُ لَهُـمْ نَفْسِـي لِأَرْفَعـهَـا بهِمْ ... وَلَنْ تُكْرَمَ النَّفْسُ الَّتي لا تُهِينُهَا

وغَلِط هذا القائلُ؛ فإن ذلك لا يصلح إلا لله وحده؛ فإنه كلما أهان العبد نفسه له أكرمه وأعزَّه، بخلاف المخلوق، فإنك كلما أهنت نفسك له ذَلَلْتَ عند الله وعند أوليائه، وهُنْتَ عليه.

---

(١) البيت منسوب لأعرابي في البيان والتبيين (٢/ ١٣١)، وعيون الأخبار (١/ ١٦٥)، بلفظ:

أهين لهم نفسي لأكرمها بهم ... ولا يكرم النفس الذي لا يهينها

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومن مكايده: أنه يأمرك بإعزاز نفسك وصَوْنها حيث يكون رضا الرب تعالى في إذلالها وابتذالها، كجهاد الكفار والمنافقين، وأمر الفجار والظلمة بالمعروف ونهيهم عن المنكر)**، الله جَلَّ وَعَلَا قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [التوبة:٧٣].

الكفار يجاهدون بالسلاح، والمنافقون يجاهدون بالحجة واللسان، كل هذا من الجهاد، وهذا ما أمر الله به رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو أمرٌ للمسلمين.

يأتي الشيطان إلى العبد فيقول: الجهاد هذا فيه جفوة وفيه قسوة، والداعية إلى الله يجب أن يكون ليناً وأن يكون متسامحاً، التسامح هذا هو الذي أهلك الدنيا والدين، تسامح في غير محله، وهذا هو الذي يسعى إليه الشيطان.

يقولون الآن: الإسلام جاء بالقتال والقتل والقسوة، هكذا يصورونه، مع أن هذا شيء لابد منه، لابد من العلاج.

كل شيء له علاج، كل شيء له دواء؛ فدواء الكفار المعاندين: جهادهم بالسلاح، وجهاد المنافقين: الرد على شبهاتهم وعلى كلامهم السيئ في المسلمين، يتكلمون في المسلمين، يثلبون في المسلمين.

ولا يجوز للإنسان أن يتسامح معهم، ولا يجوز للمسلمين أن يتركوا الجهاد في سبيل الله وهم يقدرون عليه، والجهاد قائم له قادة من المسلمين وولاة أمور.

فلا يقال: هذا من القسوة، بل هذا من إنقاذ البشرية، وليس هو من القسوة، إذا كان هناك مَن يصد عن سبيل الله من الكفار، وينشر الكفر ويدعو إليه، هذا يقاتل.

أما الكافر الذي يكون شره قاصرًا على نفسه، ويكون كفره قاصرًا على نفسه، مثل: المرأة، والراهب في صومعته، والذي لا يصد عن سبيل الله، هو كافر، لكنه مقتصر على نفسه لا يصد عن سبل الله ولا يقاتل المسلمين؛ فهذا يكف عنه.

ولا يُقاتَل إلا مَن يعترض على دين الله ويصد عن سبيل الله، ويدعو الناس إلى الردة عن الدين، يصد مَن يريد الإسلام، ويحاول أن يخرج من آمن بالردة.

﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ [البقرة:٢١٧]. ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ [النساء:٨٩]. ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾: هذا شأن الكفار، هل هؤلاء يتناسب أنهم يتركون؟

لابد من علاج، والله لم ينزل داء إلا وأنزل له دواء، فدواء هذا هو الجهاد في سبيل الله، لولا أن المسلمين قاموا بالجهاد لم ينتشر هذا الدين في المشارق والمغارب، ولكنه انتشر بالدعوة والجهاد.

لو أنهم سالموا الناس، وقالوا: والله إنا لا نريد القسوة لما انتشر هذا الدين، والقسوة في محلها هنا، مع الكافر المعاند القسوة في محلها.

فيجب التفطن لهذا ومكائد الشيطان- لعنه الله- والرد على من يعترض على الجهاد في الإسلام، ويعترض على الحدود التي تقام على المجرمين؛ لأن هذا معناه أنه يريد أن يستمر الشر، ويريد أن يتمدد الشر في الناس، لا يريد أن يعالج، هل يعتدي على حرمات الله وعلى حقوق الله ويترك؟! لا يترك هذا.

فصــل

ومن كيده وخداعه: أنه يأمر الرجل بانقطاعه في مسجد، أو رباط، أو زاوية، أو تربة، ويحبسه هناك، وينهاه عن الخروج، ويقول له: متى خرجتَ تبذّلت للناس، وسقطت من أعينهم، وذهبتْ هيبتُك من قلوبهم، وربما ترى في طريقك منكرًا.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**ومن كيده وخداعه: أنه يأمر الرجل بانقطاعه في مسجد، أو رباط، أو زاوية، أو تربة، ويحبسه هناك، وينهاه عن الخروج**)، من مكائده: أنه يحث على العزلة، يقول: ليس لك شأن إلا بنفسك، اعتزل بالمسجد، اعتزل في زاوية من زوايا الصوفية، اعتزل في رباط من الربط التي تعد لإيواء وإسكان الغرباء، ليس لك شان بالناس، هذا من كيد الشيطان.

الله أمر بالاختلاط بالناس، ودعوتهم إلى الله، تعليم الناس العلم النافع، لو أن العلماء انعزلوا في زوايا أو في مساجد وتركوا الدعوة إلى الله ونشر العلم لم ينتشر الخير، فهذا من مكائد الشيطان.

القدرة على مجادلة المبطلين ويبطل حججهم هذا أحسن له أن يعتزل، وأما العالم والمتبصر بدين الله هذا لا يجوز له أن يعتزل، يدخل في المجتمعات.

الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كان يغشى تجمعات الكفار في مِنًى وقت الحج وقت الموسم، يدعوهم إلى الله، لم يقل: هؤلاء كفار، لن أذهب إليهم أو أخالطهم،

يسلم من يسلم! ومنهم الأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذهب إلى منزلهم في مِنًى، ودعاهم إلى الله، وأسمعهم القرآن فأسلموا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وبايعوا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على النصرة إذا هاجر إليهم، وكان من نصرة الإسلام ما حصل ولله الحمد.

لو أن الرسول اعتزل وجلس في المسجد الحرام، وقال: أنا ليس لي شأن بالناس لما انتشر الإسلام.

كذلك الدعاة إلى الله عَزَّوَجَلَّ لو أنهم انعزلوا وكفوا عن الناس لانتشر الكفر وانقبض الإسلام، وحصل الشيطان على مراده.

كيف عن دعاة الضلال ينتشرون بين الناس ويدعون، وأهل العلم وأهل الخير ينقبضون؟! هذا لا يصح، لا يصح أبدًا.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(ويقول له: متى خرجتَ تبذّلت للناس، وسقطت من أعينهم، وذهبتْ هيبتُك من قلوبهم)**، يقول له: أنت إذا ذهبت إلى الناس واختلطت معهم وجلست معهم تسقط هيبتك، أما إذا انعزلت وصرت في مكانٍ، صار لك هيبة.

المسألة ملغمة، هذه ملغمة من الشيطان، لا يذهب إلى الناس قصده إعزاز نفسه، يذهب إلى الناس لأجل إنقاذ الناس من الظلمات إلى النور، ومن الباطل إلى الحق، فهو يجاهد في سبيل الله.

الجهاد يكون بالحجة واللسان ويكون بالسنان والسيف، فيجاهد، هذا من الجهاد في سبيل الله: نشر العلم، الدعوة إلى الله، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هذا من الجهاد في سبيل الله.

لو أن الناس انعزلوا وقالوا: ليس لنا شأن بالآخرين، نحن ننعزل ونشتغل بديننا، وليس لنا شأن لما انتشر هذا الدين، ولا زال الجهل الذي في الناس الذي يزيد بالجهل مع هذا، وهذا ما يريده شياطين الجن والإنس الذين يدعون إلى مثل هذه العزلة السيئة.

هذا عزل للدين، هذا عزل للعلم، عزل للدعوة، عزل للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأجل أن يكون المجتمع فريسة لشياطين الجن والإنس

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ويقول له: متى خرجتَ تبذّلت للناس)**، متى خرجت تبذلت للناس يعني تهاونوا بك، وذهبت شخصيتك، ذابت شخصيتك.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وربما ترى في طريقك منكرًا)**، يقول له: لو خرجت سترى منكرات، أحسن لك أنك لا تخرج ولا تدري عن شيء هذا أحسن لك، يا سبحان الله!

اخرج وانظر المنكرات وعالجها، وأْمُرْ بالمعروف وانْهَ عن المنكر، سترى المنكرات بكل تأكيد، لكن لابد من السعي في إصلاحها وإزالتها، هذا لا يحصل بالانعزال والعزلة.

وللعدو في ذلك مقاصد خفية يريدها منه، منها: الكبر، واحتقار الناس، وحفظ الناموس، وقيام الرياسة. ومخالطةُ الناس تُذهِب ذلك، وهو يريد أن يُزار ولا يزور، ويقصده الناس ولا يقصدهم، ويفرح بمجيء الأمراء إليه، واجتماع الناس عنده، وتقبيل يده، فيترك من الواجبات والمستحبات والقُرُبات ما يُقرِّبه إلى الله، ويتعوّض عنه بما يُقرِّب الناسَ إليه.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وللعدو في ذلك مقاصد خفية يريدها منه، منها: الكبر، واحتقار الناس، وحفظ الناموس، وقيام الرياسة)**، هذه العزلة تحدث العكس، ويقول: لا تذهب شخصيتك ولا هيبتك إذا خرجت، بالعكس، هي لا تذهب إلا بالعزلة، بالعزلة تذهب شخصيتك وهيبتك ولا يصير لك أثر في الناس.

وأيضًا يورث على صاحب العزلة: الكبر لا يختلط الناس، لا يكلمهم لا يتفقد أحوالهم، هذا كبر.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومخالطةُ الناس تُذهِب ذلك)**، يقول له: مخالطة الناس تذهب هذه الأشياء: شخصيتك ومكانك عند الناس تنقص مكانتك عند الناس، تنزل من أعينهم، لكن لو ترفعت وجلست في مكان وانعزلت صار لك هيبة عند الناس، هكذا يزين له الشيطان.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهو يريد أن يُزار ولا يزور)**، هذا المنعزل يريد أن يزار ولا يزور الناس، هذا هو الكِبْر.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ويقصده الناس ولا يقصدهم)**، يقصده الناس في مكانه وانعزاله، ولا يقصدهم للإصلاح والدعوة إلى الله، والسلام عليهم وتفقدهم أحوالهم.

وقد كان رسول الله ﷺ يخرج إلى السوق.

قال بعض الحفَّاظ: «وكان يشتري حاجته ويحملها بنفسه»، ذكره أبو الفرج ابن الجوزي وغيره(١).

وكان أبو بكر يخرج إلى السوق يحمل الثياب، فيبيع ويشتري(٢). ومرَّ عبد الله بن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعلى رأسه حُزْمة حطب، فقيل له: «ما يحملك على هذا وقد أغناك الله؟ فقال: أردت أن أدفع به الكِبْرَ. فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَبْدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ»(٣).

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقد كان رسول الله ﷺ يخرج إلى السوق)، يخرج لحوائجه، يشتري حوائجه لا مانع.

يقول: لا، إذا خرجت لشراء حوائجي نقص قدري عند الناس وذهبت منزلتي عند الناس، وخروجه لقضاء حوائجه واختلاطه بالناس، هذا يفيده، عكس ما يصور له الشيطان من العزلة، العزلة هي التي فيها التكبر.

يريد الناس يأتون إليه والأمراء والزوار، يتعاظم، يتعاظم في نفسه، ولا يخرج هو ويزور الفقراء والمساكين، وعلى الأقل يأخذ حوائجه، أو

---

(١) تلبيس إبليس (ص١٣٩).

(٢) تلبيس إبليس (ص١٣٩).

(٣) أورده ابن الجوزي في تلبيس إبليس (ص١٣٩). وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٣/ ١٤٧)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٩٩): «إسناده حسن».

لا يكلف واحدًا يأتي له بها، يذهب ليأخذها، ليس في هذا شيء، الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يشتري حوائجه، عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وكان أبو بكر يخرج إلى السوق يحمل الثياب، فيبيع ويشتري)**، أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يبيع ويشتري في السوق؛ يحمل الثياب ويبيعها ويشتري، وهو أفضل الأمة بعد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

لم ينقص ذلك من شخصيته ولا من مكانته عند الله وعند خلقه، هذا الشيء بالقلب إذا كان التواضع في القلب نعم، أما التواضع الذي هو الانعزال عن الناس وعدم الخروج فهذا ليس من المصلحة له، هذا يزيده تكبرًا على الناس، وأما خروجه وتبذله مع الناس فهذا يفيده مكانة ورفعة عند الناس.

ما ضر ذلك أبا بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ما ضر عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ما ضر الزبير بن العوام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ما ضر عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من أثرياء الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الذين يبيعون ويشترون، ما ضرهم هذا، وهم من العشرة المبشرين بالجنة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ما ضرهم أنهم يخرجون ويبيعون ويشترون، ويداينون الناس ويستدينون من الناس.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(ومرَّ عبد الله بن سلام** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **وعلى رأسه حُزْمة حطب، فقيل له: ما يحملك على هذا وقد أغناك الله؟ فقال: أردت أن أدفع به الكِبْرَ)** عبد الله بن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من أحبار اليهود وعلمائهم الكبار، ولما هاجر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة ذهب إليه ورآه، فلما رأى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحبه

غاية الحب، وأسلم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وحسن إسلامه، وصار من أفاضل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

كما ذكر، كان يذهب إلى السوق ويشترى حاجته ويحملها على رأسه، قالوا له: الله لم يحوجك إلى هذا، لما لم تجعل خادمًا أو أحدًا يحمل بدلًا منك، قال: أريد أن أعالج الكبر! يعالج الكبر.

وكان سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أميرًا على المدائن، ذهب إلى السوق فرأى رجلًا اشترى حزمة من العلف، فأراد أن يجبر بعض الفقراء على حملها، فحملها سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو الأمير، حملها على رأسه وأوصلها إلى بيت هذا الرجل، سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أمير المدائن[1].

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبير (٤/ ٨٢)، وأورده الذهبي في سير أعلام النبلاء (١/ ٥٤٦).

كان أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحمل الحطب وغيره من حوائجه بنفسه وهو أمير على المدينة، ويقول: «افسحوا لأميركم، افسحوا لأميركم»(١).

وخرج عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يومًا وهو خليفة في حاجة له ماشيًا، فأعيا، فرأى غلامًا على حمار له، فقال: «يا غلام، احملني فقد أعييتُ. فنزل الغلام عن الدابة، وقال: اركب يا أمير المؤمنين. فقال: لا، اركب أنت وأنا خلفك، فركب خلف الغلام، حتى دخل المدينة والناس يرونه(٢).

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**كان أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحمل الحطب وغيره من حوائجه بنفسه**)، أبو هريرة راوية الإسلام أكثر الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ رواية للحديث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يحمل حوائجه على رأسه، لم يضره هذا، ما ضر هذا أبا هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**وهو أمير على المدينة**)، وهو أمير على المدينة في وقت مروان بن الحكم، يأمره على المدينة إذا غاب.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**فنزل الغلام عن الدابة، وقال: اركب يا أمير المؤمنين! فقال: لا، اركب أنت وأنا خلفك، فركب خلف الغلام، حتى دخل المدينة والناس يرونه**)، ولم يضر عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه ركب مع هذا الشاب على حمار، ونزل من قدره وقيمته.

---

(١) ذكره الغزالي في إحياء علوم الدين (٢/ ٢٤١).
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (ص١٣٠).

الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يركب على حمار، معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى حِمَارٍ»[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٥٦)، ومسلم (٣٠) من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه البخاري (١٢٨)، ومسلم (٣٢) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فصل

ومن كيده: أنه يُغرِي الناس بتقبيل يده، والتمسُّح به، والثناء عليه، وسؤاله الدعاء، ونحو ذلك، حتى يرى نفسه، ويعجبه شأنُها.

فلو قيل له: إنك من أوتاد الأرض، وبك يُدفَع البلاءُ عن الخلق ظن ذلك حقًّا، وربما قيل له: إنه يُتوَسَّل به إلى الله، ويُسأل الله تعالى به وبحرمته، فيقضي حاجتهم، فيقع ذلك في قلبه، ويفرح به، ويظنه حقًّا.

وذلك كلُّ الهلاك، فإذا رأى من أحد من الناس تجافيًا عنه، أو قلة خضوع له، تذمّر لذلك ووجد في باطنه، وهذا شرٌّ من أرباب الكبائر المصرِّين عليها، وهم أقرب إلى السلامة منه.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومن كيده: أنه يُغرِي الناس بتقبيل يده، والتمسُّح به، والثناء عليه، وسؤاله الدعاء، ونحو ذلك، حتى يرى نفسه، ويعجبه شأنُها)**، هذا يحصل من بعض المنتسبين إلى العلم أو المنتسبين إلى قرابة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الناس يزدحمون عليهم لتقبيل أيديهم والتمسح بهم، ولا ينكرون عليهم ولا يمنعونهم من هذا، يعتبرون هذا من الشخصية ومن المنزلة عند الناس، وهو من الإهانة له.

تقبيل اليد لا يجوز إلا في ثلاثة: تقبيل يد الوالد؛ قبل يد والدك لا بأس، قبل يد الأمير لا بأس، قبل يد العالم لا بأس، ثلاثة فقط، ما عدا ذلك لا تقبل الأيدي.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وربما قيل له: إنه يُتوَسَّل به إلى الله)**، وهذه مصيبة؛ يقولون: نحن نتوسل بهذا رجل صالح، وربما يكون من آل البيت فيتوسلون به إلى الله، يتوسلون بشخصه ليس بدعائه، التوسل بالدعاء لا بأس، لكن التوسل بالشخص لا يجوز هذا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ويُسأل الله تعالى به وبحرمته)**، يتوسل به، ويسأل الله بحرمة هذا الشخص ومكانته، وهذا من الغرور للسائل والمسئول.

فلا يتوسل بالمخلوق إلى الله جَلَّوَعَلَا، لا يتوسل بالمخلوق إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وإنما يتوسل إلى الله بالأعمال الصالحة، الأعمال الصالحة هي الوسيلة.

﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ [المائدة:٣٥]: يعني الأعمال الصالحة التي تقربكم إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

وليس كما يقوله الخرافيون: ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ [المائدة:٣٥]: اجعلوا بينكم وبينه وسائط من الناس، هذا كذب على الله عَزَّوَجَلَّ، افتراء، حمل للقرآن على غير محمله.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فيقضي حاجتهم، فيقع ذلك في قلبه، ويفرح به، ويظنه حقًّا)**، هذه ذلة للسائل وهو أيضًا غرور بالمسئول الذي يتوسلون به ويقبلون يديه، ويعظمونه ويتمسحون به، هذا فيه ذلة لمن يفعل هذا، وفيه أيضًا ذلة لمن يفعل معه هذا الشيء؛ لأنه يعجب بنفسه ويرى أن له مكانة بسبب هذا العمل من الناس، فهذه يحذر منها.

لما مشى الناس خلف ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو ذاهب إلى المسجد، قال: «ارجعوا؛ فإنه مذلة للتابع، وفتنة للمتبوع»[١]، فأرجعهم، لم يجعلهم يمشون وراءه، وهو ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لأنه يدرس لهم ويعلمهم الخير.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(فإذا رأى من أحد من الناس تجافيًا عنه، أو قلة خضوع له، تذمّر لذلك ووجد في باطنه)**، إذا رأى أحدًا لا يعمل هذا العمل معه -لا يقبل يده، لا يمشي وراءه-؛ يعتبر أن هذا الشخص مستهين به، لماذا لا يمشي مثل الناس ورائي؟! لماذا لا يقبل يدي؟! لماذا ولماذا؟! هذا مستهين بحقي!

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وهذا شرٌّ من أرباب الكبائر المصرِّين عليها)**، وهذا الذي يقر الناس على تعظيمه شر من الذين يفعلون الكبائر ويصرون عليها، شر منهم.

هم عصاة، وقد يكونون عارفين خطأهم، لكن هذا لم يعرف خطأه؛ رفع نفسه فوق منزلته، واغتر بحالة الناس حوله، هذا أشد!

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وهم أقرب إلى السلامة منه)**؛ لأن العاصي يعرف أنه عاصٍ وذليل، ويستحيي من الله، لكن هذا يترفع بسبب أن الناس يمشون وراءه، وأن الناس يعظمونه ويقبلون يده، يترفع، وأما العاصي فذليل يخشى من العقوبة، وأيضًا يتوارى عن الناس؛ يستحيي.

❖ ❖ ❖

---

(١) أخرج ابن الدنيا نحوه عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في التواضع والخمول (ص٧٦، ٧٧).

فصــل

ومن كيده: أنه يُحسِّن إلى أرباب التخليّ والزهد والرياضة العملَ بهاجِسهم وواقعهم، دون تحكيم أمر الشارع، ويقولون: القلب إذا كان محفوظًا مع الله كانت هواجسه وخواطره معصومة من الخطأ!

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(ومن كيده: أنه يُحسِّن إلى أرباب التخليّ والزهد والرياضة العملَ بهاجِسهم وواقعهم، دون تحكيم أمر الشارع)**، من مكائد الشيطان: أنه غر الصوفية الذين يعظمون ساداتهم ومشايخهم، حتى إن بعضهم يعتقد لهم العصمة؛ أنه معصوم، ويأخذ عنه ولا يأخذ من القرآن والسنة؛ لأن هذا الشيخ يتلقى عن الله -يقولون-! يتلقى عن الله؛ لأنه وصل إلى الله، وهو من العارفين... إلى آخره! فهذا ما يريده الشيطان من بني آدم، يريد أن يهلكهم بهذه الطريقة.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(ويقولون: القلب إذا كان محفوظًا مع الله كانت هواجسه وخواطره معصومة من الخطأ!)**، عصمة، يدعون العصمة، لا أحد معصوم إلا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الإنسان يعتبر نفسه عرضة للخطأ دائمًا وأبدًا، ولا يعتقد أنه معصوم لأنه عرَف الله ووصل إلى درجة من درجات الصوفية، ارتفع بها عن الناس.

حتى إن بعضهم يقول: ليس عليه حرج أنه يقع في المعاصي، لا تضره المعاصي؛ لأنه ولي، يترك الواجبات، ليس له حاجة لفعل الواجبات؛ لأنه وساطة، ولي، عارف بالله عَزَّوَجَلَّ.

وهذا من أبلغ كيد العدو فيهم، فإن الخواطر والهواجس ثلاثة أنواع: رحمانية، وشيطانية، ونفسانية، كالرؤيا، فلو بلغ العبد من الزهد والعبادة ما بلغ فمعه شيطانه ونفسه، لا يفارقانه إلى الموت، والشيطان يجري منه مجرى الدم، والعصمة إنما هي للرسل صلوات الله وسلامه عليهم، الذين هم وسائط بين الله عَزَّوَجَلَّ وبين خلقه في تبليغ أمره ونهيه ووعده ووعيده، ومن عداهم يصيب ويخطئ، وليس بحجة على الخلق.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والعصمة إنما هي للرسل صلوات الله وسلامه عليهم، الذين هم وسائط بين الله** عَزَّوَجَلَّ **وبين خلقه في تبليغ أمره ونهيه ووعده ووعيده)**، ليس هناك أحدٌ معصوم إلا الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عصمه الله عَزَّوَجَلَّ، وأما غير الرسول فإنه عرضة للخطأ.

وهذا فيه رد على الشيعة الذين يعتقدون العصمة لأئمتهم، وفيه رد على الصوفية الذين يعتقدون العصمة لمشايخهم، فما بلغ الإنسان من العلم ومن التقوى ومن الورع فإنه غير معصوم، يقع منه الخطأ، والشيطان يتسلط عليه أكثر، الشيطان يتسلط على مثل هذا أكثر، فهو بحاجة دائمًا إلى اللجوء إلى الله وذكر الله عَزَّوَجَلَّ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والعصمة إنما هي للرسل صلوات الله وسلامه عليهم، الذين هم وسائط بين الله** عَزَّوَجَلَّ **وبين خلقه في تبليغ أمره ونهيه ووعده ووعيده)**، الرسل معصومون، الله عصمهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ من أجل أن يقوموا

بتبليغ رسالاته إلى الناس، فهم معصومون من الكبائر، ومعصومون من الاستمرار على الصغائر لو وقعت منهم، فهم معصومون من البقاء عليها، لابد أن يتوبوا.

لم يذكر الله في حق نبي أنه أخطأ إلا وذكر أنه تاب إلى الله عَزَّوَجَلَّ من الأمور الصغائر، أما الكبائر، وأما التبليغ عن الله، فهم معصومون- عليهم الصلاة والسلام-.

وأما أنه قد يقع من بعضهم خطيئة خطأ من الصغائر يقع هذا، لكنه لا يستمر، معصوم من الاستمرار عليه والبقاء عليه، يتوب إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فالعصمة للرسل تكون من البداية وتكون في النهاية أيضًا، فهم معصومون عليهم الصلاة والسلام.

لم يذكر الله عن نبي أنه حصل منه خطأ إلا ذكر أنه تاب إلى الله عَزَّوَجَلَّ، تتبع هذا في القرآن.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومن عداهم يصيب ويخطئ، وليس بحجة على الخلق)**، يصيب ويخطئ، العلماء يصيبون ويخطئون: «**إِذَا اجْتَهَدَ الْحَاكِمُ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ وَاحِدٌ**»[1]. خطؤه مغفور؛ لأنه لم يقصد الخطأ، لكن وقعوا فيه، الله يغفر لهم.

❁ ❁ ❁

(١) تقدم تخريجه (ص٧٠).

وقد كان سيِّد المحدَّثين المُلهَمِين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول الشيء، فيردُّه عليه من هو دونه، فيتبين له الخطأ، فيرجع إليه.

وكان يَعرِض هواجسَه وخواطره على الكتاب والسنة، ولا يلتفت إليها، ولا يحكم بها، ولا يعمل بها.

وهؤلاء الجُهَّال يرى أحدهم أدنى شيء، فيُحكِّم هواجسه وخواطره على الكتاب والسنة، ولا يلتفت إليهما، ويقول: حدَّثني قلبي عن ربي، ونحن أخذنا عن الحي الذي لا يموت، وأنتم أخذتم عن الوسائط، ونحن أخذنا بالحقائق، وأنتم أخذتم الرسوم، وأمثال ذلك من الكلام الذي هو كفر وإلحاد.

وغاية صاحبه أن يكون جاهلًا يُعذَر بجهله، حتى قيل لبعض هؤلاء: ألا تذهب فتسمع الحديث من عبد الرَّزَّاق؟ فقال: ما يَصْنَع بالسماع من عبد الرزاق مَنْ يسمع من الملك الخلَّاق؟!

وهذا غاية الجهل؛ فإن الذي سمع من الملك الخلاق موسى بن عمران كليم الرحمن، وأما هذا وأمثاله فلم يحصل لهم السماع من بعض ورثة الرسول، وهو يدعي أنه يسمع الخطاب من مُرْسله، فيستغني به عن ظاهر العلم، ولعل الذي يخاطبه هو الشيطان، أو نفسه الجاهلة، أو هما مجتمعين ومنفردين.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقد كان سيِّد المحدَّثين المُلهَمِين عمر بن الخطاب)، المحدَّثين: يعني المُلهَمِين، إلهام.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(يقول الشيء، فيردُّه عليه من هو دونه، فيتبين له الخطأ، فيرجع إليه)**، عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ كان من المحَدَّثِينَ كما أخبر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عنه[١]، فهو من المحدَّثِيَن الملهَمين، ومع هذا على جلالته ينبهه مَن هو دونه على بعض الأخطاء فيرجع عنها رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وكان يَعرِض هواجسَه وخواطره على الكتاب والسنة)**، إذا حصل في نفسه شيء وآتاه هاجس في شيء لا يقدم عليه مباشرة، بل يعرضه على الكتاب والسنة؛ فإن وافق مضى فيه ونفذه، وإن كان يخالف الكتاب والسنة تراجع عنه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهؤلاء الجُهَّال يرى أحدهم أدنى شيء، فيُحكّم هواجسه وخواطره على الكتاب والسنة، ولا يلتفت إليهما، ويقول: حدَّثني قلبي عن ربي، ونحن أخذنا عن الحي الذي لا يموت، وأنتم أخذتم عن الوسائط، ونحن أخذنا بالحقائق، وأنتم أخذتم الرسوم)**، هؤلاء غلاة الصوفية الذين يقولون: لسنا بحاجة إلى الرسول، الرسول للعوام، أما نحن خواص أو خواص الخواص نأخذ عن الله، قلوبنا تأخذ عن الله.

يقول: حدثني قلبي عن ربي، وأنت تقول حدثني فلان عن الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عن الله، تأخذ دينك عن أموات، ونحن نأخذ ديننا عن الحي الذي لا يموت، هكذا يقول الصوفية قبحهم الله.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٦٩، ٣٦٨٩)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**لَقَدْ كَانَ فِيمَا قَبْلَكُمْ مِنَ الأُمَمِ مُحَدَّثُونَ، فَإِنْ يَكُ فِي أُمَّتِي أَحَدٌ، فَإِنَّهُ عُمَرُ**»، ومسلم (٢٣) (٢٣٩٨) من حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا.

ولا أقصد الصوفية كلهم، لكن غلاتهم على هذا الأمر الذين يسمون الخاصة أو خاصة الخاصة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وأمثال ذلك من الكلام الذي هو كفر وإلحاد)**، لا شك أن الذي يقول: أنا آخذ عن الله ولست بحاجة إلى الرسول لا شك بكفره.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وغاية صاحبه أن يكون جاهلًا يُعذَر بجهله)**، إذا كان جاهلًا، أما إذا لم يكن جاهلًا، ولكن يعجب بعلمه هذا مشكلة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(حتى قيل لبعض هؤلاء: ألا تذهب فتسمع الحديث من عبد الرزاق؟ فقال: ما يَصْنَع بالسماع من عبد الرزاق مَنْ يسمع من الملك الخلّاق؟!)**، عبد الرزاق الصنعاني الإمام الجليل، محدث باليمن، كان العلماء يذهبون إليه -منهم الإمام أحمد- ذهبوا إليه وأخذوا عنه العلم.

قالوا لهذا المغرور الصوفي: لماذا لا تذهب إلى الإمام عبد الرزاق لتروي عنه؟ قال: أنا أروي عن رب عبد الرزاق، لا أروي عن عبد الرزاق.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فقال: ما يَصْنَع بالسماع من عبد الرزاق مَنْ يسمع من الملك الخلّاق؟!)**، أنا أسمع من الله، يقول: ربي يحدثني بواسطة قلبي، لست بحاجة إلى عبد الرزاق!

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهذا غاية الجهل؛ فإن الذي سمع من الملك الخلاق موسى بن عمران كليم الرحمن)**، لم يسمع من الله بدون وساطة إلا موسى ابن عمران عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ كلمه الله وسمع كلام ربه.

وأما مَن عداه بالوحي، بواسطة الوحي، بواسطة الملك؛ يأتي إلى الرسول أو النبي فيوحي إليه بأمر الله يبلغه ما حمله الله ولا أحد يستغني عن الواسطة إلا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأن الله خصه بذلك.

﴿إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف:١٤٤].

﴿وَبِكَلَٰمِي﴾: أن الله يكلمه، ويسمع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كلام الله، وهو يكلم الله عَزَّ وَجَلَّ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولعل الذي يخاطبه هو الشيطان)**، ليس هناك شك أن الذي أملى عليه هذا أنه ليس بحاجة أنه يروي عن العلماء وعن المحدثين، الذي قال له هذا هو الشيطان بلا شك.

قال له: أنت لست بحاجة، وأنت وصلت إلى الله، وأنت تأخذ عن الله مباشرة، أنت لست بحاجة حتى إلى الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الرسول للعوام، يقولون، نحن وصلنا ولسنا بحاجة، هذا الغرور، مَن الذي قال لهم هذا؟ هو الشيطان لعنه الله.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولعل الذي يخاطبه هو الشيطان، أو نفسه الجاهلة، أو هما مجتمعين ومنفردين)**، النفس والشيطان هما اللذان يخاطبانه، وليس الله هو الذي يخاطبه، الله لم يخاطب إلا موسى بن عمران عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وإنما جميع الأنبياء يوحي إليهم بواسطة الملك.

❖ ❖ ❖

ومن ظن أنه يستغنى عما جاء به الرسول، بما يُلْقَى في قلبه من الخواطر والهواجس؛ فهو من أعظم الناس كفرًا، وكذلك إن ظن أنه يكتفي بهذا تارة وبهذا تارة.

فما يُلقى في القلوب لا عبرة به ولا التفات إليه؛ إن لم يُعرض على ما جاء به الرسول ويشهد له بالموافقة؛ وإلا فهو من إلقاء النفس والشيطان.

وقد سُئل عبد الله بن مسعود عن مسألة المُفَوَّضة شهرًا، فقال بعد الشهر: «أقول فيها برأي؛ فإن يكن صوابًا فمن الله، وإن يكن خطأً فمني ومن الشيطان، والله بريء منه ورسوله»[1].

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ومن ظن أنه يستغنى عما جاء به الرسول، بما يُلْقَى في قلبه من الخواطر والهواجس؛ فهو من أعظم الناس كفرًا)، مَن ظن أنه يستغنى عن الرسول فهو من أعظم الناس كفرًا -والعياذ بالله-؛ لأن الرسول هو الواسطة بيننا وبين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠]. ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ [آل عمران:١٣٢]. ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠]. ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [آل عمران:١٣٢]. ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر:٧].

(١) أخرجه أحمد (٧/ ٣٠٨)، وأبو داود (٢١١٦)، والنسائي (٣٣٥٤ - ٣٣٥٨)، والحاكم في المستدرك (٢/ ١٩٦)، وقال: (هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه).

يقولون: لا، نحن لسنا بحاجة إلى الرسول، نحن نأخذ عن الله مباشرة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وكذلك إن ظن أنه يكتفي بهذا تارة وبهذا تارة)**، وكذلك إذا قال: أنا أستغني عن الرسول نهائيًّا ولا أحتاج إليه، هذا أعظم الناس كفرًا.

إذا قال: أنا آخذ عن الرسول تارة وآخذ عن الله تارة، هذا أيضًا كافر، لكنه أخف كفرًا مِن الذي يقول: أنا لا أحتاج إلى الرسول أبدًا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فما يُلقى في القلوب لا عبرة به ولا التفات إليه)**، القلوب يلقى إليها الحق والباطل، الهواجس والظنون.

الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، فيلقي في القلوب الكذب، والكفر، والشرك، يلقيه في القلوب الشيطان.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(إن لم يُعرض على ما جاء به الرسول ويشهد له بالموافقة)**، الذي يزعم أنه يأخذ عن الله مباشرة هذا من أعظم الناس إلحادًا وكفرًا.

لابد من الرجوع إلى الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه هو الواسطة بيننا وبين الله عَزَّ وَجَلَّ، لا طريق إلى الله إلا عن طريق الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا أحد يصل إلى الله إلا عن طريق الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

يقولون: لا، الأولياء ليسوا بحاجة إلى الرسول، هؤلاء أولياء يأخذون عن الله.

هؤلاء أولياء، لكن أولياء للشيطان؛ لأنه هناك أولياء للشيطان، وأولياء للرحمن، فهؤلاء من أولياء الشيطان.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(إن لم يُعرض على ما جاء به الرسول ويشهد له بالموافقة؛ وإلا فهو من إلقاء النفس والشيطان)**، لا طريق إلى الله عَزَّوَجَلَّ إلا عن طريق الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا أحد يستغني عن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبدًا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قد سُئل عبد الله بن مسعود عن مسألة المُفَوّضة شهرًا)**، المفوضة التي ليس لها مهر.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فقال بعد الشهر: «أقول فيها برأي؛ فإن يكن صوابًا فمن الله، وإن يكن خطًأ فمني ومن الشيطان، والله بريء منه ورسوله»)**، ولم يدَّعِ العصمة لقوله، وهو ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عالم الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ لم يدعِ العصمة، «وإن كان خطأ فمني ومن الشيطان، وإن كان صوابًا فهو من الله عَزَّوَجَلَّ»، فإذا لم يكن هناك نص فإنه يجتهد، العالم يصيب ويخطئ، هو ليس بمعصوم.

وكتب كاتب لعمر بين يديه: «هذا ما أرى اللهُ عمرَ، فقال: لا، امْحُه واكتب: هذا ما رأى عمر»(١). وقال عمر أيضًا: «أيها الناس، اتهموا الرأي على الدِّين؛ فلقد رأيتُني يوم أبي جَنْدَل ولو أستطيع أن أردَّ أمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لرددته»(٢).

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فقال: لا، امْحُه)، قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذلك لكاتبه.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وكتب كاتب لعمر بين يديه: «هذا ما أرى اللهُ عمرَ، فقال: لا، امْحُه واكتب: هذا ما رأى عمر»)، يعني أن هذا كان اجتهادًا منه، لا تقول: ما أرى الله عمر، قل: هذا ما رأى عمر في رأيه.

وقصة أبي جندل: هو أنه في صلح الحُدَيْبِيَةِ كان مِن بنود الصلح أن مَن جاء مسلمًا إلى المسلمين فإن المسلمين يردونه على المشركين، ومن جاء من قريش مسلمًا يريد أن يبقى مع المسلمين يردونه إلى المشركين، ومن ذهب من المسلمين إلى الكفار لا يردونه! فعظم ذلك على الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، قالوا: كيف؟ فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ ذَهَبَ إِلَيْهِمْ فَلَا رَدَّهُ اللهُ»؛ ليس فيه خير، «وَمَنْ

(١) أخرجه الطحاوي في شرح المشكل (٩/ ٢١٤، ٢١٥)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ١٩٧، ١٩٨)، وصحح إسناده ابن حجر في التلخيص الحبير (٤/ ٣٥٨).

(٢) أخرجه البزار في المسند (١/ ٢٥٣)، والطبراني في المعجم الكبير (١/ ٧٢)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١٧٩): «رواه أبو يعلى، ورجاله موثقون، وإن كان فيهم مبارك بن فضالة».

جَاءَنَا مُسْلِمًا فَإِنَّ اللهَ سَيَجْعَلُ لَهُ فَرَجًا وَمَخْرَجًا»[١]، يرده بموجَب العهد، ويجعل الله له فرَجًا ومخرجًا.

وأبو جندل هذا مسلم جاء من الكفار وقت كتابة الوثيقة، لكن لم يأتِ إلا لما انتهت، فقال سُهَيل بن عمرو -هو والد أبي جندل- قال سهيل بن عمرو الذي كتب مع الرسول الوثيقة وهو مندوب المشركين حينذاك، قال: هذا أول ما أقاضيك عليه -يعني: رُدَّه معي-، قال: «نَعَمْ، خُذْهُ مَعَكَ»، فأخذه يضربه وذهب به.

فالمسلمون شق عليهم ذلك، يقول عمر: ولقد رأيتني يوم أبي جندل -هذه القصة يعني- على أن أرد رأي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأجتهد ولا أبه.

لأنه أخذته الغيرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كيف مسلم جاء ويرده الرسول إلى المشركين؟! الرسول يقول: «**سَيَجْعَلُ اللهُ لَهُ فَرَجًا وَمَخْرَجًا**».

لم يلبث أبو جندل أن جاء، انفلت من المشركين وجاء إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، جعل الله له فرجًا ومخرجًا، الرسول لا يُعترض عليه أبدًا؛ لأنه معصوم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

(١) أخرجه مسلم (١٧٨٤) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرج حديث صلح الحديبية بطوله البخاري (٢٧٣١).

واتهام الصحابة لآرائهم كثير مشهور، وهم أَبَرُّ الأُمَّة قلوبًا، وأعمقها علمًا[١]، وأبعدها من الشيطان، فكانوا أتبع الأُمَّة للسُّنة، وأشدهم اتهامًا لآرائهم، وهؤلاء ضد ذلك.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(واتهام الصحابة لآرائهم كثير مشهور، وهم أبَرّ الأمة قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأبعدها من الشيطان، فكانوا أتبع الأمة للسنة، وأشدهم اتهامًا لآرائهم، وهؤلاء ضد ذلك)**، لا شك أن صحابة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هم أفضل الأمة علمًا وعملًا وفي جميع الفضائل؛ لأن الله اختارهم لصحبة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

تلقوا عنه العلم، اقتدوا به؛ فهم أفضل الأمة، فيهم الخلفاء الراشدون رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، فيهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، فيهم

(١) أخرج ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٩٤٧) عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: «مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُتَأَسِّيًا فَلْيَتَأَسَّ بِأَصْحَابِ مُحَمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فَإِنَّهُمْ كَانُوا أَبَرَّ هَذِهِ الْأُمَّةِ قُلُوبًا، وَأَعْمَقَهَا عِلْمًا، وَأَقَلَّهَا تَكَلُّفًا، وَأَقْوَمَهَا هَدْيًا، وَأَحْسَنَهَا حَالًا، قَوْمًا اخْتَارَهُمُ اللهُ تَعَالَى لِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَاعْرِفُوا لَهُمْ فَضْلَهُمْ، وَاتَّبِعُوهُمْ فِي آثَارِهِمْ؛ فَإِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْهُدَى الْمُسْتَقِيمِ». وأخرج أبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ٣٠٥) عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قال: «مَنْ كَانَ مُسْتَنًّا فَلْيَسْتَنَّ بِمَنْ قَدْ مَاتَ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانُوا خَيْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ، أَبَرَّهَا قُلُوبًا، وَأَعْمَقَهَا عِلْمًا، وَأَقَلَّهَا تَكَلُّفًا، قَوْمٌ اخْتَارَهُمُ اللهُ لِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَنَقْلِ دِينِهِ، فَتَشَبَّهُوا بِأَخْلَاقِهِمْ وَطَرَائِقِهِمْ؛ فَهُمْ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَانُوا عَلَى الْهُدَى الْمُسْتَقِيمِ». وأخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٩٤٦) عن الحسن.

أصحاب بدر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فيم أصحاب بيعة الرِّضوان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فضائلهم كثيرة، وهم أغزر الأمة علومًا، وأطيبهم كلامًا، يكفيك أنهم تلاميذ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ومع هذا لم يسلموا من الخلوف الذين جاؤوا بعد القرون المفضلة، لم يسلموا من تنقص المنافقين، وفِرَق الضلال: كالجهمية، والمعتزلة، والشيعة، لكن هذا لا ينقص من قدرهم، ولا يقلل من شأنهم عند الأمَّة، فهم عند الأمة أفضل القرون؛ كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**خَيْرُكُمْ قَرْنِي**»(١)، وهم قرن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الذين عاصروا الرسول وجاهدوا معه، ولازموه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ونصروه.

الله جَلَّ وَعَلَا قال: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]. هذا الذي يجب نحو الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: الترضي عنهم، والاقتداء بهم، والدعاء لهم، احترامهم أفرادًا وجماعات.

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ، وَلَا نَصِيفَهُ**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٥١، ٦٤٢٨، ٦٦٩٥)، ومسلم (٢٥٣٥) من حديث عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١) من حديث أبي سعيد الخُدْري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأخرجه مسلم (٢٥٤٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فمن الذي يتجرأ على صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟! ما يتجرأ على ذلك إلا منافق أو من الفرق الضالة المنحرفة.

فهذه عقيدة يعتقدها المسلمون في صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا يشكون في فضلهم ومكانتهم؛ لأن الكلام فيهم معصية للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الرسول، قال: «**لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي**». من يتكلم فيهم عصى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولكنه لا يضر إلا نفسه، الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لا يتضررون بهذا أبدًا، إنما يضر نفسه، ويدل على سفاهته ونقص دينه؛ لأن انتقاص الأفاضل دليل على السفاهة.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**واتهام الصحابة لآرائهم كثير مشهور**)، في آرائهم، في فقههم، في أحكامهم.

نعم الأفراد منهم قد يخطئون، ولكنَّ خطأهم مغفور، ولهم من الفضائل ما يغمر ما عند أفرادهم من النقص، أما إجماعهم -إذا أجمعوا- فمعصوم؛ لا شك أن إجماع الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ معصوم.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**وهم أبرُّ الأمَّة قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأبعدها من الشيطان**)، بلا شك فضائلهم كثيرة رضي الله عنهم وأرضاهم، فضائلهم كثيرة.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**فكانوا أتبع الأمة للسنة**)، بلا شك أن الصحابة هم أتبع الأمة لسنة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وأشدهم اتهامًا لآرائهم، وهؤلاء ضد ذلك)**، وهم أشد الناس ورعًا، ولا يكملون أنفسهم، ولا يزكون أنفسهم.

وهذا من فضلهم أن الإنسان كان لا يكمل نفسه، ويتهم نفسه دائمًا، يحاسبها هذا دليل على فضله، بخلاف الذي يكمل نفسه، ويمدح نفسه؛ الله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم:٣٢].

وأهل الاستقامة منهم سلكوا على الجادة، ولم يلتفتوا إلى شيء من الخواطر والهواجس والإلهامات، حتى يقوم عليها شاهدان. قال الجُنَيْد بن محمد[١]: قال أبو سليمان الدَّارانيُّ[٢]: «ربما يقع في قلبي النُّكتة من نكت القوم أيامًا، فلا أقبلها إلا بشاهدين عدلين من الكتاب والسنة»[٣]. وقال أبو يزيد: «لو نظرتم إلى رجل أُعطِي من الكرامات حتى يترفَّع في الهواء، فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود؟»[٤]. وقال أيضًا: «من ترك قراءة القرآن، ولزوم الجماعات، وحضور الجنائز، وعيادة المرضى، وادَّعى بهذا الشأن؛ فهو مُدَّعٍ»[٥].

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وأهل الاستقامة منهم سلكوا على الجادة، ولم يلتفتوا إلى شيء من الخواطر والهواجس والإلهامات، حتى يقوم عليها شاهدان)،

---

(١) انظر ترجمته في: حلية الأولياء (١٠/ ٢٥٥)، والكامل في التاريخ (٦/ ٦١١)، ووَفَيات الأعيان (١/ ٣٧٣)، وسير أعلام النبلاء (١٤/ ٦٦).
(٢) انظر ترجمته في: حلية الأولياء (٩/ ٢٥٤)، ووَفَيات الأعيان (٢/ ١٣١)، وسير أعلام النبلاء (١٠/ ١٨٢).
(٣) أخرجه السلمي في طبقات الصوفية (ص٧٦)، وعنه القُشَيري في الرسالة (١/ ٦١). وأورده ابن الجوزي في تلبيس إبليس (ص١٥١).
(٤) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٠/ ٤٠)، والبيهقي في شُعَب الإيمان (٣/ ٣٠٤)، والقشيري في الرسالة (١/ ٥٨). وأورده ابن الجوزي في تلبيس إبليس (ص١٥١).
(٥) أخرجه البيهقي في شُعَب الإيمان (٣/ ٣٠٥)، وأورده ابن الجوزي في تلبيس إبليس (ص١٥١).

الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لا يكملون أنفسهم، ولا يدَّعون لأنفسهم العصمة مثلما يدعيها المغرورون من بعدهم.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(قال الجُنيد بن محمد)**، الجنيد هذا من أئمة الصوفية، ولكنه من الصوفية الأوائل المعتدلين الذين لم يحصل منهم مخالفة للسنة، لكن عندهم عبادة واجتهاد، واتباع للسنة، ومنهم الجنيد.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(قال أبو سليمان الدَّارانيُّ: «ربما يقع في قلبي النُّكتة من نكت القوم أيامًا؛ فلا أقبلها إلا بشاهدين عدلين من الكتاب والسنة»)**، الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كانوا لا يأخذون بآرائهم مجردة، إنما يأخذون بها إذا دل عليها دليل من الكتاب والسنة.

إذا شهد لها دليل من الكتاب والسنة أخذوا بها، وإذا لم يكن لها دليل تركوها، وهكذا ينبغي للمسلم.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وقال أبو يزيد)**، أبو يزيد البسطامي كذلك هو من قدماء الصوفية.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وقال أبو يزيد: «لو نظرتم إلى رجل أُعطي من الكرامات حتى يترفّع في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود؟»)**، لا تغتروا بالخوارق التي تجري على يد بعض العباد، الخوارق التي تجري على يد بعض العباد لا ينظر إليها ولا تعتبر إلا إذا كانت موافقة للكتاب والسنة.

إذا كان صاحبها- صاحب الخارقة- مستقيمًا على الكتاب والسنة فهي كرامة، هذه من كرامات الأولياء، أما إذا كان صاحبها غير مستقيم على الكتاب والسنة فهي ليست كرامة، وإنما هي خوارق شيطانية تجري على يد الزائغين.

الخوارق على قسمين: خوارق على يد المستقيمين على الكتاب والسنة وهذه كرامات، كرامات الأولياء.

خوارق تجري على يد أولياء الشيطان، هذه ليست خوارق، إنما هي أمور شيطانية لا يغتر بها.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال أبو يزيد: لو نظرتم إلى رجل أُعطي من الكرامات حتى يترفّع في الهواء، فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود؟)**، يقول: لو طار في الهواء، أو مشى على البحر، لا تغتروا به حتى تنظروا إلى سلوكه مع الكتاب والسُّنَّة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال أيضًا: «من ترك قراءة القرآن، ولزوم الجماعات، وحضور الجنائز، وعيادة المرضى، وادّعى بهذا الشأن؛ فهو مُدّعٍ»)**، بعضهم يترفَّع عن المسلمين، ويعتبر نفسه يستعمل الخلوات، حتى صلاة الجماعة لا يحضرها، صلاة الجمعة لا يحضرها، يدَّعي لنفسه أنه يخلو خلوات الصوفية! هذه كلها أعمال شيطانية.

لزوم الجماعة والصلاة مع المسلمين وحضور مجالسهم، هذا علامة السعادة والاستقامة.

أما مَن يعتزل المسلمين ومجالسهم، وعن حضور صلاة الجماعة والجمعة، ويدَّعي أنه ليس بحاجة إلى هذا؛ فهذا من أولياء الشيطان.

وابن تيميَّةَ له كتاب اسمه: «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان»(١)، فصَّل فيه هذا تفصيلاً جيدًا.

---

(١) كتاب «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» لشيخ الإسلام ابن تيميَّة، مطبوع ولله الحمد بشرح شيخنا العلَّامة صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان -حفظه الله- في مجلدين، مكتبة الإمام الذهبي بالكويت.

وقال سَرِيٌّ السَّقطيُّ[(١)]: «من ادعى باطن علمٍ ينقضه ظاهرُ حكمٍ فهو غالط»[(٢)]. وقال الجنيد[(٣)]: «مذهبنا هذا مقيَّد بالأصول؛ بالكتاب والسنة، فمن لم يحفظ الكتاب ويكتب الحديث ويتفقه لا يُقتدى به»[(٤)].

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال سَرِيٌّ السَّقطيُّ: «من ادعى باطن علمٍ ينقضه ظاهرُ حكمٍ فهو غالط»)**، يقولون: نحن عندنا علوم باطنية وإن خالفت الكتاب والسنة؛ لأن عندنا علومَ باطنية، كرامات! كل هذا من الشيطان.

الذي لا يوافق الكتاب والسنة ويوافق الظاهر، إذا كان الإنسان لا يوافق باطنه ظاهره فهذا من أولياء الشيطان.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال الجنيد: «مذهبنا هذا مقيَّد بالأصول: بالكتاب والسنة»)**، هذا قول قدمائهم، من قدماء الصوفية المعتدلين الذين تصوفهم إنما هو في العبادة، يعني يتفرغون للعبادة والزهد وتهذيب النفوس.

---

(١) انظر ترجمته في: حلية الأولياء (١٠/ ١١٦)، ووَفَيات الأعيان (٢/ ٣٥٧)، وسير أعلام النبلاء (١٢/ ١٨٥).

(٢) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٠/ ١٢١)، وأورده ابن الجوزي في تلبيس إبليس (ص١٥١).

(٣) تقدم ذكره (ص١٩٤).

(٤) أخرجه القشيري في الرسالة (١/ ٧٩)، بلفظ: «مذهبنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة»، وعند أبي نعيم في الحلية (١٠/ ٢٥٥): «علمنا مضبوط الكتاب والسنة، من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث ولم يتفقه لا يُقتدى به».

هذه مبادئ الصوفية، لا بأس بها، مع أن الأسلم أن يلزم الإنسان الكتاب والسنة، لكن إذا كانت خالية من المخالفات فهي مقبولة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فمن لم يحفظ الكتاب ويكتب الحديث ويتفقه لا يُقتدى به)**، هم يقولون: أنه تأتيهم علوم تلقائية، العلم اللدني، تلقائي، يُلقى إليهم، يصفو ذهنه وتزكو نفسه بالعبادة فتأتيه أشياءُ وخواطرُ تلقائيةٌ!

نقول: هذا من الشيطان، وليس من الرحمن، هذا لا يأخذ علمه من الكتاب والسنة، من لم يأخذ عمله وسلوكه من الكتاب والسنة فإنه من أولياء الشيطان، وهذه ليست كرامات، وإنما هذه خوارق شيطانية ليغر بها أصحابه.

الصوفية لا يرجعون للكتاب، ولا يتعلمون الكتاب والسنة، وإلى الآن الصوفية يحذرون من تعلم العلم، والاشتغال بالعلم، يقولون: اشتغلوا بالعبادة والذكر، أما طلب العلم فإنه يشغلكم عن العبادة والذكر! لا يزالون الآن يقولون هذا، وهذا ضلال.

ليس هناك عبادة إلا بموجَب الكتاب والسنة، ليس هناك ذكرٌ لله إلا من الكتاب والسنة، الأذكار الشرعية الواردة عن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الأذكار المذكورة في القرآن الكريم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فمن لم يحفظ الكتاب ويكتب الحديث ويتفقه لا يُقتدى به)**، لا يقتدى به؛ لأنه من أهل الضلال.

من أين يأخذ الفقه، من أين يأخذ العلم إذا أعرض عن الكتاب والسنة وزعم أنه مستغنٍ عنهما، وأنه يأتيه العلم تلقائيًّا؟!

وقال أبو بكر الدَّقاق: «من ضيَّع حدود الأمر والنهي في الظاهر؛ حُرِم مشاهدةَ القلب في الباطن»[(١)]. وقال أبو الحسين النوري[(٢)]: «من رأيتَهُ يدّعي مع الله حالةً تُخرجه عن حد العلم الشرعي فلا تَقْرَبْه، ومن رأيته يَدّعي حالة لا يشهد لها حفظُ ظاهر فاتهِمْه على دينه»[(٣)].

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال أبو بكر الدّقاق: «من ضيّع حدود الأمر والنهي في الظاهر حُرِم مشاهدةَ القلب في الباطن»)، ليس هناك طريق إلا طريق الكتاب والسنة، فمن حُرِمَ من الأخذ بهما فإنه يُحرَم العلم، ويحرم الوصول إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ليس هناك وصول إلى الله إلا عن طريق الكتاب والسنة والعمل بهما واعتقادهما.

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾: عن القرآن والسنة.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه:١٢٣-١٢٦].

﴿أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا﴾: القرآن والسنة.

(١) أورده ابن الجوزي في تلبيس إبليس (ص١٥١).
(٢) انظر ترجمته في: حلية الأولياء (١٠/ ٢٤٩).
(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٢٥٢)، وأورده ابن الجوزي في تلبيس إبليس (ص١٥١).

كل هذه أقوال متقدميهم، هو يحتج عليهم بأقوال متقدميهم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال أبو الحسين النوري: «من رأيتهُ يدّعي مع الله حالةً تُخرجه عن حد العلم الشرعي فلا تَقْرَبْه، ومن رأيته يَدّعي حالة لا يشهد لها حفظُ ظاهر فاتهِمْه على دينه»)**، ليس هناك طريق إلا الكتاب والسنة ظاهرًا وباطنًا، فالذي يدعي أنه يستغني عن الكتاب والسنة، وإنما الكتاب والسنة للعوام، وأما أهل الباطن وأهل المعرفة عندهم فلا حاجة، لا يحتاجون، يسمونه العارف بالله فلان.

وقال أبو سعيد الخراز[(١)]: «كل باطن يخالفه ظاهر فهو باطل»[(٢)].

وقال الجريري: «أمرنا هذا كله مجموع على فَصْل واحد: أن تُلزم قلبك المراقبة، ويكون العلم على ظاهرك قائمًا»[(٣)].

وقال أبو حفص الكبير الشأن[(٤)]: «من لم يَزِنْ أفعاله وأحواله بالكتاب والسنة، ولم يَتّهم خواطره؛ فلا تَعُدّوه في ديوان الرجال»[(٥)].

وما أحسنَ ما قال أبو أحمد الشيرازي: «كان الصوفية يَسْخَرون من الشيطان، والآن الشيطان يسخر منهم»[(٦)].

ونظير هذا ما قاله بعض أهل العلم: «كان الشيطان فيما مضى ينهب من الناس، واليوم الرجل الذي ينهب من الشيطان».

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقال أبو سعيد الخراز: «كل باطن يخالفه ظاهر فهو باطل»)،

---

(١) انظر ترجمته في: طبقات الصوفية (ص١٨٣)، وحلية الأولياء (١٠/ ٢٤٦)، والرسالة القشيرية (١/ ٩٨)، وسير أعلام النبلاء (١٣/ ٤١٩).

(٢) أخرجه السلمي في الطبقات (ص١٨٥)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (١٠/ ٢٤٧).

(٣) أخرجه القشيري في الرسالة (١/ ٣٣١)، وأورده ابن الجوزي في تلبيس إبليس (ص١٥١).

(٤) انظر ترجمته في: حلية الأولياء (١٠/ ٢٢٩)، والرسالة القشيرية (١/ ٩٨).

(٥) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٠/ ٢٣٠)، والبيهقي في شُعَب الإيمان (٣/ ٣٠٦)، والقشيري في الرسالة (١/ ٦٩). وأورده ابن الجوزي في تلبيس إبليس (ص١٥١).

(٦) أخرجه القشيري في الرسالة (١/ ١٤٠)، وأورده ابن الجوزي في تلبيس إبليس (ص١٥٦).

كل باطن يخالفه ظاهرًا فهو باطل، الظاهر: هو الاستقامة على الدين واتباع الكتاب والسنة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وقال الجريري**)، من أئمتهم القدامى.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وقال أبو حفص الكبير الشأن: «من لم يَزِنْ أفعاله وأحواله بالكتاب والسنة، ولم يَتّهم خواطره؛ فلا تَعُدّوه في ديوان الرجال»**)، كل هذه شهادات من قدمائهم؛ أن مَن خالف الكتاب والسنة، فليس مِن أهل الحق، وإنما هو من أهل الضلال.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وما أحسنَ ما قال أبو أحمد الشيرازي: «كان الصوفية يَسْخَرون من الشيطان، والآن الشيطان يسخر منهم»**)، كان الصوفية في الأول يسخرون من الشيطان ويستعيذون منه، ولكن تغير بهم الحال حتى صار الشيطان يسخر منهم ومن طريقتهم.

يقول ابن عربي[(١)]:

وكُنْتُ امْـرَأً مِـنْ جُنْدِ إِبْلِيسَ فارْتَقَى

بِي الحَالُ حَتَّى صارَ إِبْلِيسُ مِنْ جُنْدِي!

نسأل الله العافية.

---

(١) هو محمد بن علي بن محمد بن عربي، أبو عبد الله الطائي الأندلسي، المعروف بمحيي الدين بن عربي، طاف البلاد، وأقام بمكةَ مدةً، وصنف فيها كتابه المسمى بـ«الفتوحات المكية» في نحو عشرين مجلدًا، فيها ما يعقل وما لا يعقل، وله الكتاب المسمى بـ«فصوص الحكم» قال عنه الذهبي: (ومن أردأِ تواليفه كتاب «الفصوص»، فإن كان لا كفرَ فيه فما في الدنيا كفرٌ!). وقال العز بن عبد السلام: (شيخ سوء كذاب، يقول بقِدَم العالم، ولا يحرِّم فرجًا). تُوُفِّيَ سنة ثمان وثلاثين وست مئة. انظر: البداية والنهاية (١٣/ ١٥٦)، وميزان الاعتدال (٦/ ٢٦٩)، وسير أعلام النبلاء (٢٣/ ٤٨).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ونظير هذا ما قاله بعض أهل العلم: «كان الشيطان فيما مضى ينهب من الناس، واليوم الرجل الذي ينهب من الشيطان»)، يعني** زادوا على الشيطان الضلال والانحراف.

فصـــل

ومن كيده: أمرُهم بلزوم زيٍّ واحد، ولِبْسَة واحدة، وهيئة ومِشْية معيّنة، وشيخ معينٍ، وطريقة مخترعة، ويفرض عليهم لزوم ذلك؛ بحيث يلزمونه كلزوم الفرائض، فلا يخرجون عنه، ويقدحون فيمن خرج عنه ويذمُّونه، وربما يلزم أحدهم موضعًا مُعَيَّنًا للصلاة لا يصلي إلا فيه.

وقد نهى رسولُ الله ﷺ: أَنْ يُوَطِّنَ الرَّجُلُ المَكَانَ لِلصَّلَاةِ كَمَا يُوَطِّنُ البَعِيرُ[1].

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ومن كيده: أمرُهم بلزوم زيٍّ واحد، ولِبْسَة واحدة)، يعني الصوفية من كيد الشيطان بهم: أنه يأمرهم بمظهر واحد، بزي واحد، فيُعرَفون به، وهذا ليس من هدي الإسلام.

هدى الإسلام الأمر واسع في هذا؛ تلبس ما تيسر من الملابس، وليس من الضروري يوحد الزي بين الناس، كل يلبس ما تيسر له مما يوافق اللباس الشرعي، وليس من الضروري توحدون زيهم.

قولـه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وشـيخ معـينٍ)، شـيخ معـين لا يأخـذون إلا عنـه، لا يأخذون عن علماء الحديث، علماء التفسير والحديث، يأخذون عن شيخ

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤/ ٢٩٢)، وأبو داود (٨٦٢)، والنسائي (١١١٢)، وابن ماجه (١٤٢٩)، وابن حبان (٦/ ٥٣)، من حديث عبد الرحمن بن شبل الأنصاري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

واحد يسمونه شيخهم، وهم يسمون بالمريدين، تلاميذه يسمون المريدين؛ فيمشون على خطته لا يحيدون عنها، هو الذي يرسم لهم الخطة.

ونحن ليس لنا خطة إلا ما وافق الكتاب والسنة، وما عليه سلف الأمة؛ هذه خطة أهل السنة والجماعة.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وطريقة مخترعة)**، طرق الصوفية كثيرة، كل شيخ له طريق، طرق الصوفية الآن كثيرة، كل شيخ له طريقة يمشي عليها أتباعه ومريدوه؛ كطريقة الشاذلي، وطريقة فلان، وطريقة فلان.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(ويفرض عليهم لزوم ذلك؛ بحيث يلزمونه كلزوم الفرائض، فلا يخرجون عنه)**، يقولون: إن المريد مع شيخه كالميت بين يدي غاسله يقلبه كيف يشاء، فليس له اختيار مع شيخه، ما يؤمر به يلزمه الأخذ به.

بل يبايعونه، يبايعون أصحاب الطرق عليها بيعة مثلما يبايعون إمام المسلمين أنهم لا يخرجون عنها.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(فلا يخرجون عنه)**، كيف يخرجون عليه وهم قد بايعوه؟! مَن يخرج يخشى أنه يصاب إذا خرج عنها؛ لأنه نقض البيعة التي بينه وبين شيخ الطريقة.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وربما يلزم أحدهم موضعًا مُعَيَّنًا للصلاة لا يصلي إلا فيه، وقد نهى رسولُ الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **أَنْ يُوَطِّنَ الرَّجُلُ المَكَانَ لِلصَّلَاةِ كَمَا يُوَطِّنُ البَعِيرُ)**، الصلاة في المسجد، لا يَلزم الإنسان مكانًا واحدًا.

نهى الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ذلك، عن إِيطَانِ كإِيطَانِ البعير، بل يغير المكان، يصلي هنا، ويصلي هنا، في المسجد، كله سواء، كله بيت الله عَزَّ وَجَلَّ.

وفي الحديث: «**جُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا**»(١)، فمَن أدركته الصلاة يصلي في أي مكان، هذا من تيسير الله عَزَّ وَجَلَّ.

وأما الصوفية فلا يصلون إلا في مكان معين وزاوية، زوايا الصوفية وهي موطن عبادتهم، وملتقى المشايخ مع المريدين، لا يسمونهم التلاميذ، يسمونهم المريدين؛ لأنهم يتلقون عنهم طريقة.

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥، ٤٣٨)، ومسلم (٥٢١) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

وكذلك ترى أحدَهم لا يصلي إلا على سجادة. ولم يُصَلِّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على سجادة قطُّ، ولا كانت السجادة تُفرش بين يديه، بل كان يصلي على الأرض، وربما سجد في الطين، وكان يصلي على الحصير، فيصلي على ما اتفق بَسْطُهُ، فإن لم يكن ثمة شيء صلى على الأرض.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وكذلك ترى أحدَهم لا يصلي إلا على سجادة)**، لزوم السجادة، لزوم السجادة هذا من مظاهر الصوفية، ولذا تراهم دائمًا يحملون السجادة.

والمسلم يصلي على ما تيسر، النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يصلي على ما تيسر؛ أحيانًا يصلي على حصير، أحيانًا يصلي على الأرض، يصلي على ما تيسر عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ليس من الضروري سجادة واحدة.

أيضًا السبحة، السبحة يعتقدون فيها، ولذلك يجعلونها على أعناقهم ويحملونها دائمًا، هذه من مظاهر الصوفية، من مظاهر الصوفية: السبحة والسجادة، كل هذه من الأغلال والآصار.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(ولم يُصَلِّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على سجادة قطُّ)**، لم يصلِّ على سجادة، وإنما يصلي على ما تيسر؛ أحيانًا يصلي على حصير ولو كان باليًا[1]، أحيانًا يصلي على الأرض حتى إنه كان إذا صارت الأرض فيها بلل

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٨٠، ٨٦٠)، ومسلم (٦٥٨)، عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ جَدَّتَهُ مُلَيْكَةَ دَعَتْ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِطَعَامٍ صَنَعَتْهُ، فَأَكَلَ مِنْهُ، =

من السيل يسجد عليها ويظهر أثر الماء والطين على جبهته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(١)].

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(بل كان يصلي على الأرض، وربما سجد في الطين)**، ربما سجد في الطين كما حصل في مسجده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما جاء مطر، وكان المسجد سقفه من الجريد ومن سعف النخل، فلما جاء المطر نزل المطر إلى الأرض داخل المسجد، وتبللت الأرض حتى مصلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصابه أثر الماء والطين، فسجد عليه حتى إنه علق بجبهته الشريفة شيء من الماء والطين.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(فيصلي على ما اتفق بَسْطُهُ)**، لا يتكلف شيء، إنما يصلي على ما اتفق له من الفرش الطاهرة أو على الأرض، لا يتكلف شيء ولا يلزم شيء عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

=ثُمَّ قَالَ: «**قُومُوا فَأُصَلِّيَ لَكُمْ**»، قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ: فَقُمْتُ إِلَى حَصِيرٍ لَنَا قَدِ اسْوَدَّ مِنْ طُولِ مَا لُبِسَ، فَنَضَحْتُهُ بِمَاءٍ، فَقَامَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَصَفَفْتُ أَنَا وَالْيَتِيمُ وَرَاءَهُ، وَالْعَجُوزُ مِنْ وَرَائِنَا، فَصَلَّى لَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ انْصَرَفَ».

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٢٠١٨)، ومسلم (١١٦٧) عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُجَاوِرُ فِي الْعَشْرِ الَّتِي فِي وَسَطِ الشَّهْرِ، فَإِذَا كَانَ مِنْ حِينِ تَمْضِي عِشْرُونَ لَيْلَةً، وَيَسْتَقْبِلُ إِحْدَى وَعِشْرِينَ يَرْجِعُ إِلَى مَسْكَنِهِ، وَرَجَعَ مَنْ كَانَ يُجَاوِرُ مَعَهُ، ثُمَّ إِنَّهُ أَقَامَ فِي شَهْرٍ، جَاوَرَ فِيهِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ الَّتِي كَانَ يَرْجِعُ فِيهَا، فَخَطَبَ النَّاسَ، فَأَمَرَهُمْ بِمَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ قَالَ: «**إِنِّي كُنْتُ أُجَاوِرُ هَذِهِ الْعَشْرَ، ثُمَّ بَدَا لِي أَنْ أُجَاوِرَ هَذِهِ الْعَشْرَ الْأَوَاخِرَ، فَمَنْ كَانَ اعْتَكَفَ مَعِي فَلْيَبِتْ فِي مُعْتَكَفِهِ، وَقَدْ رَأَيْتُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ فَأُنْسِيتُهَا، فَالْتَمِسُوهَا فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ، فِي كُلِّ وِتْرٍ، وَقَدْ رَأَيْتُنِي أَسْجُدُ فِي مَاءٍ وَطِينٍ**». قَالَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ: مُطِرْنَا لَيْلَةَ إِحْدَى وَعِشْرِينَ، فَوَكَفَ الْمَسْجِدُ فِي مُصَلَّى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ وَقَدِ انْصَرَفَ مِنْ صَلَاةِ الصُّبْحِ، وَوَجْهُهُ مُبْتَلٌّ طِينًا وَمَاءً».

وهؤلاء اشتغلوا بحفظ الرسوم عن الشريعة والحقيقة، فصاروا واقفين مع الرسوم المبتدعة، ليسوا مع أهل الفقه، ولا مع أهل الحقائق.

فصاحب الحقيقة أشد شيء عليه التقيُّدُ بالرسوم الوضعية، وهي من أعظم الحُجُب بين قلبه وبين الله، فمتى تقيَّد بها حبس بها قلبه عن سيره، وكان أحسن أحواله الوقوف معها، ولا وقوف في السير، بل إما تقدُّمٌ وإما تأخُّرٌ.

كما قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر:٣٧]، فلا وقوف في الطريق؛ إنما هو ذهاب وتقدم، أو رجوع وتأخر.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وهؤلاء اشتغلوا بحفظ الرسوم عن الشريعة والحقيقة، فصاروا واقفين مع الرسوم المبتدعة)، لا يتعدون رسوم الصوفية، لا يتعدون رسوم الصوفية في الملابس، في المصليات، وهذا غلط، هذا غلط.

ليس على هذا دليل من الكتاب والسنة، الدين يسر - ولله الحمد- ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾ [الحج:٧٨].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وهؤلاء اشتغلوا بحفظ الرسوم عن الشريعة والحقيقة)، رسوم الصوفية يعني، رسوم الصوفية: خطط الصوفية.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فصاروا واقفين مع الرسوم المبتدعة، ليسوا مع أهل الفقه، ولا مع أهل الحقائق)، لا يتفقهون في الدين.

كما سبق: أنهم يدعون أنهم يأتيهم العلم تلقائيًا، يأتيهم العلم تلقائيًّا ولا يطلبون العلم، اشتغل بالعبادة وسيأتيك العلم تلقائيًّا، هذا غرور، والعياذ بالله.

العلم لا يحصل إلا بالتعلم على أهل العلم، لا يحصل إلا بمعرفة فقه الكتاب والسنة، لا يأتي تلقائيًا وإلهام.

ولذلك ما أشد زهدهم في طلب العلم! يقولون: هذا يشغلك عن العبادة، والمقصود: بالعبادة، عبادة على ضلال! لا تصلح.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهي من أعظم الحُجُب بين قلبه وبين الله)**، هذه الرسوم المبتدعة التي يلتزمها تحجبه عن الله، يزعم أنها توصله إلى الله، وهي تحجبه عن الله عَزَّوَجَلَّ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وكان أحسن أحواله الوقوف معها، ولا وُقوف في السير، بل إما تقدُّمٌ وإما تأخُّرٌ، كما قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر:٣٧]، فلا وقوف في الطريق؛ إنما هو ذهاب وتقدم، أو رجوع وتأخر)**، ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر:٣٧]: في العمل يعني، رده على مشيئة الإنسان، الإنسان له مشيئة؛ قد يشاء التأخر والكسل، وقد يشاء التقدم والعمل.

ومن تأمّل هدي رسول الله ﷺ وسيرته وجده مناقضًا لهدي هؤلاء؛ فإنه ﷺ كان يلبس القميص تارة، والقَباء تارة، والجُبَّة تارة، والإزار والرداء تارة. ويركب البعير وحده، ومُرْدفًا لغيره، ويركب الفرس مُسْرَجًا وعُرْيانًا، ويركب الحمار، ويأكل ما حضر، ويجلس على الأرض تارة، وعلى الحصير تارة، وعلى البساط تارة، ويمشي وحده تارة، ومع أصحابه تارة. وهَدْيه عدمُ التكلّفِ وعدمُ التقيد بغير ما أمره به ربه، فبين هديه وهدي هؤلاء بَوْن بعيد.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومن تأمّل هدي رسول الله ﷺ وسيرته وجده مناقضًا لهدي هؤلاء)**، بلا شك، أن هدي الرسول، سنة الرسول، سيرة الرسول مخالفة لهدي هؤلاء؛ فهم يأخذونها عن أشياخهم، مشايخ الطرق ولا يأخذون عباداتهم من سنة الرسول ﷺ، وهذا الذي أضلهم وحجبهم عن الله عَزَّوَجَلَّ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإنه ﷺ كان يلبس القميص تارة، والقَباء تارة، والجُبَّة تارة، والإزار والرداء تارة)**، يلبس ما تيسر له ﷺ، ليس من الضروري أنه يلبس لباسًا خاصًّا يعرف به، إنما يلبس ما تيسر له عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من الملابس.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ويركب البعير وحده، ومُرْدفًا لغيره، ويركب الفرس مُسْرَجًا وعُرْيانًا، ويركب الحمار)**، كان يركب عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ما تيسر له من

المراكب؛ تارةً يركب البعير، تارة يركب الفَرَس، تارة يركب الحمار، ما تيسر له، وكان يردف معه أيضًا من أصحابه على الحمار، على البعير.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ويأكل ما حضر)**، كان يأكل ما حضر، ليس له طعامٌ خاصٌّ، إنما يأكل ما حضر، وأحيانًا لا يجد في بيته شيئًا فيبقى بدون أكل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وربما ربط على بطنه الحجر من الجوع عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ[1].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ويجلس على الأرض تارة، وعلى الحصير تارة، وعلى البساط تارة)**، لا يلزم مجلسًا خاصًّا، وفراشًا خاصًّا، إنما يجلس على ما تيسر؛ أحيانًا على فراش، أحيانًا على الأرض.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ويمشي وحده تارة، ومع أصحابه تارة)**، ليس على هدي مثل هؤلاء، يمشون جميعًا، ويجلسون جميعًا ويبيتون جميعًا!

الرسول تارة يمشي وحْدَه، وتارة يمشي معه أبو بكر الصِّدِّيقُ، وأحيانًا يمشي معه أبو بكر وعمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، وأحيانًا يمشي معه مَن صادف مِن

---

(١) ورد ذلك في عدة أحاديثَ؛ منها الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٠٤٠) عن أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: «جِئْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يَوْمًا فَوَجَدْتُهُ جَالِسًا مَعَ أَصْحَابِهِ يُحَدِّثُهُمْ، وَقَدْ عَصَّبَ بَطْنَهُ بِعِصَابَةٍ عَلَى حَجَرٍ، فَقُلْتُ لِبَعْضِ أَصْحَابِهِ: لِمَ عَصَّبَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بَطْنَهُ؟ فَقَالُوا: مِنَ الجُوعِ...» الحديثَ. ومنها ما أخرجه البخاري (٤١٠١) عن جابر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: «إِنَّا يَوْمَ الخَنْدَقِ نَحْفِرُ، فَعَرَضَتْ كُدْيَةٌ شَدِيدَةٌ، فَجَاؤُوا النَّبِيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فَقَالُوا: هَذِهِ كُدْيَةٌ عَرَضَتْ فِي الخَنْدَقِ، فَقَالَ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أَنَا نَازِلٌ**». ثُمَّ قَامَ وَبَطْنُهُ مَعْصُوبٌ بِحَجَرٍ، وَلَبِثْنَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ لَا نَذُوقُ ذَوَاقًا...».

الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، لا يتخذ أصحابًا وأشخاصًا بعينهم مثل الصوفية، أو مريدًا لا يمشي إلا معهم.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**وعدمُ التقيد بغير ما أمره به ربه**)، لا يتقيد بشيء إن لم يأمر الله بالتقيد به.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**فبين هديه وهدي هؤلاء بَوْن بعيد**)، هؤلاء يلزمون رسومًا خاصة، وقيودًا خاصة يرسمها لهم شيوخهم، وهذا خلاف ما عليه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فصـــل

ومن كيده الذي بلغ به من الجهَّال ما بلغ: الوسواس الذي كادهم به في أمر الطهارة والصلاة عند عقد النية، حتى ألقاهم في الآصار والأغلال.

وأخرجهم عن اتباع سنة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وخَيّل إلى أحدهم أن ما جاءت به السنة لا يكفي، حتى يضم إليه غيره، فجمع لهم بين هذا الظن الفاسد، والتعب الحاضر، وبطلان الأجر أو تنقيصه.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ومن كيده الذي بلغ به من الجهَّال ما بلغ: الوسواس)، هذه المصيبة، الوسواس.

الوسواس هو الآفة، ولهذا أمرنا الله بالاستعاذة منه، من الوسواس؛ ﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ﴾[الناس:٤]: وهو الشيطان: الْوَسوَاس، أما الوِسواس: فهو حديث النفس، بكسر الواو: حديث النفس، هواجس النفس[1].

أما الْوَسْوَاسِ: فهو الشيطان؛ ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾: يعني إذا غفل الإنسان وسوس له، وإذا ذكر الإنسان ربه انخنس الشيطان وابتعد عنه، فهو وسواس خناس، أمرنا الله بالاستعاذة منه.

---

(١) انظر: العين (٧/ ٣٣٥)، وتهذيب اللغة (١٣/ ٩٢، ٩٣)، والصحاح (٣/ ٩٨٨)، ومقاييس اللغة (٦/ ٧٦).

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**ومن كيده الذي بلغ به من الجهَّال ما بلغ: الوسواس الذي كادهم به في أمر الطهارة والصلاة عند عقد النية**)، الوسواس عند الطهارة، تجده يتوضأ ثم يقول له: ما أكملت الوضوء ثم يرجع في الوضوء مرة ثانية، إلى أن يخرج وقت الصلاة وهو يتوضأ، وتفوته صلاة الجماعة أحيانًا، وأحيانًا تطلع الشمس وهو لم يصلِّ الفجر، وهو في الوضوء، هذا من الشيطان هو الذي كبَّله بذلك.

الصلاة أحيانًا يصلي، ثم أنه يقول: صلاتي ليست بصحيحة، ثم يعيدها، ويعيدها، ويعيدها، هذا من الشيطان، يقول له: صلاتك ليست بصحيحة، حصل منك كذا وكذا، أعدها، وهكذا، حصل منك نقض وضوء.

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حسم هذا، فقال: «**لَا يَنْصَرِفْ حَتَّى يَسْمَعَ صَوْتًا، أَوْ يَجِدَ رِيحًا**»(١).

إذا خيل له أنه أحدث لا ينصرف إلا إذا تيقن؛ لأن اليقين لا يزول بالشك حتى يسمع صوتًا من الحدث أو يجد ريحه، أما مجرد الوسواس وهو لا يجد شيء من هذا فلا يلتفت إليه.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**ومن كيده الذي بلغ به من الجهَّال ما بلغ: الوسواس الذي كادهم به في أمر الطهارة والصلاة عند عقد النية**)، والنية أيضًا محلها القلب، والتلفظ بها بدعة، اللهم إني نويت أن أصلي الظهر أربعًا خلف هذا الإمام؛ هذا بدعة ليس له أصل.

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٧)، ومسلم (٣٦١).

عند الوضوء أيضًا ينوي أن يتوضأ لصلاة كذا وكذا، اللهم إني نويت الوضوء، كل العبادات لم يأتِ فيها أنه يتلفظ بالنية، كل العبادات، التلفظ بها بدعة النية محلها القلب.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وخيّل إلى أحدهم أن ما جاءت به السنة لا يكفي، حتى يضم إليه غيره)**، بعضهم يقول: إن ما جاء في القرآن والسنة لا يكفي، أنا بحاجة إلى زيادة! هذا هو الغلو -والعياذ بالله- الغلو في العبادة، والزيادة في العبادة.

النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**وَإِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ**»(١).

﴿لَا تَغْلُوا۟﴾، الله جَلَّ وَعَلَا قال: ﴿لَا تَغْلُوا۟﴾، ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة:٧٧].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وخيّل إلى أحدهم أن ما جاءت به السنة لا يكفي، حتى يضم إليه غيره)**، يظنون أن ما جاءت به السنة لا يكفي، مثل الثلاثة الذين جاءوا يسألون عن عبادة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلما أخبروا بها كأنهم تقالُّوها، قالوا: نحن لا يكفينا هذا، نحن عندنا ذنوب، والرسول غُفِرَ ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وقال واحد منهم: أنا أصلي ولا أنام، قال الثاني: أنا أصوم ولا أفطر، قال الثالث: أنا لا أتزوج النساء! فلما بلغ ذلك رسولَ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غضِب، وقال: «**أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلهِ**

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ٣٥٠)، والنسائي (٤٠٤٩)، وابن ماجه (٣٠٢٩)، وابن خزيمة في صحيحه (٢/ ٢٧٤) من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

وَأَتْقَاكُمْ لِلهِ، وَإِنِّي أُصَلِّي وَأَنَامُ، وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»[(١)].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فجمع لهم بين هذا الظن الفاسد، والتعب الحاضر، وبطلان الأجر أو تنقيصه)**، جمع لهم أتعابًا كثيرة؛ أنهم أتعبوا أنفسهم، ولم يقتصدوا، المطلوب الاقتصاد في العبادة؛ **«سَدِّدُوا وَقَارِبُوا»**، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«اسْتَقِيمُوا، وَلَنْ تُحْصُوا»**[(٢)]: يعني ليس هناك أحد يكمل الاستقامة ويحصيها، **«اسْتَقِيمُوا، وَلَنْ تُحْصُوا»**، **«وَلَكِنْ سَدِّدُوا وَقَارِبُوا»**[(٣)]: يعني مَن لم يستطع التسديد والإصابة، فيكفي أنه يقارب من الشيء، التيسير من الله عَزَّوَجَلَّ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فجمع لهم بين هذا الظن الفاسد، والتعب الحاضر، وبطلان الأجر أو تنقيصه)**، هم خالفوا الرسول وصار عملهم فاسدًا، وحُرموا من الأجر، وتعبوا، كل هذه اجتمعت عليهم بمخالفة هدي الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

❖ ❖ ❖

---

(١) سبق تخريجه (ص٩٧).

(٢) أخرجه أحمد (٣٧/ ٦٠، ١١٠)، وابن ماجه (٢٧٧) من حديث ثوبان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: **«اسْتَقِيمُوا، وَلَنْ تُحْصُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ خَيْرَ أَعْمَالِكُمُ الصَّلَاةَ، وَلَا يُحَافِظُ عَلَى الْوُضُوءِ إِلَّا مُؤْمِنٌ»**.

(٣) أخرجه البخاري (٣٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا، بلفظ: **«إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ، وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ»**.

ولا ريب أن الشيطان هو الداعي إلى الوسواس، فأهله قد أطاعوا الشيطان، ولبَّوا دعوته، واتبعوا أمره، ورغبوا عن اتباع سنة رسول الله ﷺ وطريقته، حتى إن أحدهم ليرى أنه إذا توضأ وضوء رسول الله ﷺ، أو اغتسل كاغتساله؛ لم يطهُر ولم يرتفع حَدَثه. ولولا العذر بالجهل لكان هذا مشاقَّةً للرسول؛ فقد كان رسول الله ﷺ يتوضأ بالمُدّ، وهو قريب من ثُلثِ رطل بالدّمَشْقي، ويغتسل بالصّاع، وهو نحو رطل وثلث.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ولا ريب أن الشيطان هو الداعي إلى الوسواس)، بلا شك الوسواس هو الداعي.

ولذلك شرع الله لنا الاستعاذة من الشيطان، وأن نذكر الله عند الأكل والشرب، وأن نستعيذ بالله من الشيطان عند الصلاة في الاستفتاح: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم؛ لأجل أن يبتعد عنك. ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت:٣٦].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فأهله قد أطاعوا الشيطان)، أهل الوسواس الذين أخذوا بالوسواس أطاعوا الشيطان وعصوا الله عَزَّوَجَلَّ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ورغبوا عن اتباع سنة رسول الله ﷺ وطريقته، حتى إن أحدهم ليرى أنه إذا توضأ وضوء رسول الله ﷺ، أو اغتسل كاغتساله؛ لم يطهُر ولم يرتفع حَدَثه)، نسأل الله العافية.

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يتوضأ بالمُدِّ -ربع الصاع-، ويغتسل بالصاع[1]، يغتسل بالصاع ويتوضأ بالمد.

بعضهم لا يكفيه ولا البرميل الممتلئ! لا يكفيه هذا، من الوسواس -والعياذ بالله-، يستعمل الماء الكثير ومع هذا لا يرى أنه تطهر؛ لأنه لا يتقن العبادة، والوضوء والطهارة، لا يتعلمها.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(ولولا العذر بالجهل؛ لكان هذا مشاقَّةً للرسول)**، هذا جاهل، يعذره الله بجهله، وأما لو تعمد يكون مشاقًّا للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومَن شاق الرسول فقد شاق الله عَزَّ وَجَلَّ.

أحيانًا: ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ﴾ [الحشر:٤]. وفي الآية الأخرى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأنفال:١٣]، هذا مُشاقٌّ؛ لأنه يكون في شق، والله ورسوله يكونا في شقٍّ آخَرَ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(فقد كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتوضأ بالمُدِّ، وهو قريب من ثُلثِ رطل بالدّمَشْقي)**، المد: هو ربع الصاع.

والمد هو الحفنة، الحفنة من يدين مجموعتين ممدودتين من معتدل الخلقة، هذا هو المد.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(ويغتسل بالصّاع، وهو نحو رطل وثلث)**، الصاع: أربعة أمداد، أربع حفنات، هذا هو الصاع.

---

(١) أخرجه مسلم (٣٢٥) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والموسوس يرى أن ذلك القدر لا يكفيه لغسل يديه.

وصَحَّ عنه: أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَوَضَّأَ مَرَّةً مَرَّةً[(١)]، ولم يَزِدْ على ثلاث، بل أخبر أن «مَنْ زَادَ عَلَيْهَا، فَقَدْ أَسَاءَ وَتَعَدَّى وَظَلَمَ»[(٢)]. فالموسوس مسيء مُتَعدٍّ ظالم بشهادة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكيف يتقرب إلى الله بما هو مسيء به، متعدٍّ فيه لحدوده؟

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (والموسوس يرى أن ذلك القدر لا يكفيه لغسل يديه)، لا يكفيه ولا غسل كفيه فقط، كيف بالوضوء كله؟!

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وصحَ عنه: أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ توضأ مرة مرة، ولم يزد على ثلاث)، الرسول كان وضوؤه تارة مرة مرة؛ يتمضمض مرة، ويستنشق مرة، ويغسل وجهه مرة، ويديه مرة مرة، ورجليه مرة مرة.

وتارة ثلاث مرات؛ يتمضمض ثلاث مرات، يستنشق ثلاث مرات، يغسل وجهه ثلاث مرات، يغسل يديه ثلاث مرات، يغسل رجليه ثلاث مرات، هكذا كان وضوء الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري (١٥٧) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: «تَوَضَّأَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّةً مَرَّةً». ثم روى البخاري (١٥٨) عن عبد الله بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَوَضَّأَ مَرَّتَيْنِ مَرَّتَيْنِ».

(٢) أخرجه أحمد (١١/ ٢٧٧)، وأبو داود (١٣٥)، والنسائي (١٤٠)، وابن ماجه (٤٢٢)، وابن خزيمة (١/ ٨٩)، من حديث عمرو بن شُعَيب، عن أبيه، عن جده رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (١٥٩)، ومسلم (٢٢٦) «أن عثمان بن عفان =

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(بل أخبر أن «من زاد عليها فقد أساء وتعدى وظلم»)**، الذي يزيد عن ثلاث غرفات أو ثلاث غسلات للأعضاء؛ فقد أساء وتعدى وظلم كما في الحديث.

=رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: دَعَا بِوَضُوءٍ، فَتَوَضَّأَ، فَغَسَلَ كَفَّيْهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ مَضْمَضَ وَاسْتَنْثَرَ، ثُمَّ غَسَلَ وَجْهَهُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ غَسَلَ يَدَهُ الْيُمْنَى إِلَى الْمِرْفَقِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ غَسَلَ يَدَهُ الْيُسْرَى مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ مَسَحَ رَأْسَهُ، ثُمَّ غَسَلَ رِجْلَهُ الْيُمْنَى إِلَى الْكَعْبَيْنِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ غَسَلَ الْيُسْرَى مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَوَضَّأَ نَحْوَ وُضُوئِي هَذَا، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَنْ تَوَضَّأَ نَحْوَ وُضُوئِي، هَذَا ثُمَّ قَامَ فَرَكَعَ رَكْعَتَيْنِ لَا يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ؛ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»**. قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: «وَكَانَ عُلَمَاؤُنَا يَقُولُونَ: هَذَا الْوُضُوءُ أَسْبَغُ مَا يَتَوَضَّأُ بِهِ أَحَدٌ لِلصَّلَاةِ».

وصحّ عنه أنه كان يغتسل هو وعائشة من قصعة بينهما، فيها أثر العجين[(١)]. ولو رأى الموسوس من يفعل هذا لأنكر عليه غاية الإنكار، وقال: ما يكفي هذا القدر لغسل اثنين، كيف والعجين يحلّله الماء فيغيره؟

هذا والرشاش ينزل في الماء فينجسه عند بعضهم، ويفسده عند آخرين، فلا تصح به الطهارة. وكان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يفعل ذلك مع غير عائشة، مثل ميمونة وأم سلمة. وهذا كله في «الصحيح»[(٢)]. وثبت أيضًا في «الصحيح: عن ابن عمر، أنه قال: «كان الرجال والنساء على عهد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتوضؤون من إناء واحد»[(٣)].

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وصحّ عنه أنه كان يغتسل هو وعائشة من قصعة بينهما، فيها أثر العجين)**، كان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يغتسل هو وعائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا من إناء واحد تختلق أيديهما فيه، وفيه أحيانًا أثر العجين، هذا الرجل مع زوجته يغتسلون جميعًا، لا بأس.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولو رأى الموسوس من يفعل هذا لأنكر عليه غاية**

---

(١) أخرجه عن ميمونة لا عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: أحمد (٤٤/ ٤٦٥)، والنسائي (٢٤٠)، وابن ماجه (٣٧٨)، وابن خزيمة (١/ ١١٩)، وابن حبان (٤/ ٥٢) عن أم هانئ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، قالت: «اغْتَسَلَ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَيْمُونَةُ مِنْ إِنَاءٍ وَاحِدٍ، قَصْعَةٍ فِيهَا أَثَرُ الْعَجِينِ».

(٢) انظر: صحيح البخاري (٢٥٠، ٢٥٣)، وصحيح مسلم (٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٤).

(٣) أخرجه البخاري (١٩٣)، عن ابن عُمرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قال: «كَانَ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ يَتَوَضَّؤُونَ فِي زَمَانِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَمِيعًا».

الإنكار)، لو رأى رجلًا يغتسل هو وامرأته لأنكر عليهما غاية الإنكار مع أن هذا من سنة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وقال: ما يكفي هذا القدر لغسل اثنين، كيف والعجين يحلِّلُه الماء فيغيره؟)**، يقول: يغتسلان من إناء واحد، ويكفيهما، الموسوس يقول: لا، لا يكفي الواحد، كيف يكفي الاثنان؟!

ويقول: العجين هذا يتحلل بالماء ويغيره فيسلبه الطهورية.

نقول: العجين طاهر لا يضر، العجين لا يغير الطهورية، الماء الطهور إذا اختلط بالطاهر هذا لا يضره، إنما إذا اختلط بنجاسة، إذا اختلط بنجاسة تنجس، أما إذا اختلط بشيء طاهر فهذا لا يضره.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(هذا والرشاش ينزل في الماء فينجسه عند بعضهم، ويفسده عند آخرين، فلا تصح به الطهارة)**، بعضهم -الذي يتساقط من الأعضاء عند الوضوء- يقول: هذا نجس لو أصاب ثوبه يذهب يغسله، وهذا طاهر، الماء المستعمل طاهر ليس بنجس.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يفعل ذلك مع غير عائشة، مثل ميمونة وأم سلمة. وهذا كله في «الصحيح»)**، هذا من تيسير الله عَزَّ وَجَلَّ، ومن إبطال الوسواس والتشدد.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وثبت أيضًا في «الصحيح» عن ابن عمر، أنه قال: «كان الرجال والنساء على عهد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتوضأون من إناء واحد»)**، إذا كانوا محارم يتوضؤون من ماءٍ واحدٍ، وهذا فيه اقتصاد للماء، والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى عن الإسراف في الماء.

والآنية التي كان رسول الله ﷺ وأزواجه وأصحابه ونساؤهم يغتسلون منها لم تكن من كبار الآنية، ولا كانت لها مادة تمدُّها، كأنبوب الحمام ونحوه، ولم يكونوا يراعون فيضانها حتى يجري الماء من حافاتها، كما يراعيه جهال الناس ممن بُلي بالوسواس في جُرْن الحمام.

فهدي رسول الله ﷺ الذي من رغب عنه فقد رغب عن سنته: جواز الاغتسال من الحياض والآنية، وإن كانت ناقصة غير فائضة.

ومن انتظر الحوض حتى يفيض ثم استعمله وحده، ولم يُمكِّن أحدًا أن يشاركه في استعماله، فهو مبتدع مخالف للشريعة.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والآنية التي كان رسول الله ﷺ وأزواجه وأصحابه ونساؤهم يغتسلون منها لم تكن من كبار الآنية)، كانت الآنية متوسطة ليست بصغيرة ولا كبيرة، متوسطة، الآن هي التي تستعمل في البيوت، عادية.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ولا كانت لها مادة تمدُّها، كأنبوب الحمام ونحوه)، والآن نحن نفتح صنبور المياه نجعله يصب أكثر مما نستعمل، يذهب هدر، يذهب الماء هدرًا، هذا لا يجوز، هذا إسراف.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ولم يكونوا يراعون فيضانها)، فيضان الآنية.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(كما يراعيه جهال الناس ممن بُلي بالوسواس في جُرْن الحمام)**، ولو لم تمتلئ، الموسوسون يقولون: لا، لابد من أن تمتلئ، ولابد أن يفيض الماء من هنا ومن هنا، احتياطًا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فهدي رسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **الذي من رغب عنه فقد رغب عن سنته: جواز الاغتسال من الحياض والآنية، وإن كانت ناقصة غير فائضة)**، الإسراف، سرف للماء، العبادة لا تقبل الإسراف، العبادة تقبل الاعتدال وموافقة السنة، ولا تقبل الإسراف وكثرة صب الماء.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومن انتظر الحوض حتى يفيض ثم استعمله وحده، ولم يُمكِّن أحدًا أن يشاركه في استعماله، فهو مبتدع مخالف للشريعة)**، الحوض يكفي فئامًا من الناس، الحوض الواحد يكفي فئامًا من الناس، الإناء المتوسط يكفي الرجل وامرأته كما كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يفعل.

قال شيخُنا: ويستحق التعزير البليغ، الذي يزجره وأمثالَه عن أن يشرعوا في الدين ما لم يأذن به الله، ويعبدوا الله بالبدع لا بالاتباع. ودلَّت هذه السنن الصحيحة على أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه لم يكونوا يُكثِرون صبّ الماء، ومضى على هذا التابعون لهم بإحسان. قال سعيد بن المسيّب[(١)]: «إني لأستنجي من كوز الحُبِّ، وأتوضأ، وأُفْضِلُ منه لأهلي»[(٢)].

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(قال شيخُنا)**، قال شيخُنا: شيخ الإسلام ابن تيميَّة.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(ويستحق التعزير البليغ)**، من أسرف في الماء فإنه يستحق التعزير البليغ؛ لمخالفته للسُّنَّة.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(ودلَّت هذه السنن الصحيحة على أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه لم يكونوا يُكثِرون صبّ الماء)**، دلت هذه السنة الصحيحة في صفة وضوء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومقدار الماء الذي يتوضأ به، والماء الذي يغتسل به.

دلت هذه السنن على أنهم ما كانوا يكثرون صب الماء، وإنما كانوا يقتصدون فيه، وهذه هي السنة.

---

(١) سعيد بن المسيب بن حَزْنٍ، تابعيٌّ ثقة مشهور، تُوُفِّيَ سنة ٩٤هـ، انظر ترجمته في: طبقات ابن سعد (٥/ ١٣٢)، وحلية الأولياء (٢/ ١٦١)، وصفة الصفوة (٢/ ٧٩)، وسير أعلام النبلاء (٤/ ٢١٧).

(٢) انظر: الطهور لأبي عُبيد القاسم بن سلام (ص١٨٩)، والتمهيد لابن عبد البر (٨/ ١٠٦).

وليست السنة أن يكثر صب الماء؛ يفتح صنبور الماء وجعله يصب، هذا ليس من السنة، كل شيء بقدر، تقتصد في الماء مهما استطعت من الاقتصاد، هذه هي السنة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومضى على هذا التابعون لهم بإحسان)**، مضى على هذا التابعون للصحابة بإحسان يعني بعلم ومعرفة، ليس بانتساب فقط.

فكثير مِمَن ينتسبون إلى السلف يقولون: نحن سلفيون، لكن لا يعرفون منهج السلف، وينسبون إليهم شيئًا ليس من مذهبهم.

والله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ [التوبة:١٠٠]: يعني بإتقان.

ليس مجرد انتساب فقط، لكن لابد أن يتعلموا منهج السلف وأن ينفذوه كما جاء، هذا هو الإحسان.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قال سعيد بن المسيّب: «إني لأستنجي من كوز الحِبِّ)**، من الكوز الواحد يستنجي منه ويتوضأ ويبقى منه بقية لأهله، فهذا مذهب السلف أنهم يقتصدون في الماء ولا يكثرون صبه.

سعيد بن المسيب هذا إمام التابعين، وأحد الفقهاء السبعة الذين انتهى إليهم العلم والفتوى في وقتهم.

وقال الإمام أحمد: «مِنْ فقهِ الرجل قِلَّة وَلُوعِهِ بالماء». وقال المرُّوذي: «وضّأْتُ أبا عبد الله بالعسكر، فسترته من الناس، لئلا يقولوا: إنه لا يحسن الوضوء؛ لقلة صَبّه الماء». وكان أحمد يتوضأ فلا يكاد يَبُلُّ الثَّرى.

وثبت عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **في «الصحيح»: أنه توضأ من إناء، فأدخل يده فيه، ثم تمضمض واستنشق، وكذلك كان** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **في غُسْلِه يُدْخِلُ يده في الإناء، ويتناول الماء منه.**

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وقال الإمام أحمد: «مِنْ فقهِ الرجل قِلَّة وَلُوعِهِ بالماء»)**، أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: «مِن فقه الرجل -يعني فهمه- قلة ولوعه بالماء»، بل يأخذ من الماء قدر الحاجة، ولا يبالغ بصب الماء، قد يصب الماء الكثير ولا يتطهر.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وقال المرُّوذي)**، المروذي هذا من تلاميذ الإمام أحمد ومن أصحابه.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وقال المرُّوذي: «وضّأْتُ أبا عبد الله بالعسكر، فسترته من الناس، لئلا يقولوا: إنه لا يحسن الوضوء؛ لقلة صَبّه الماء»)**، الإمام أحمد كان من أقل الناس صبًّا للماء، حتى إن صاحبه كان يستره عن الناس؛ لئلا يقولوا عنه: لا يحسن الوضوء، وهو إمام أهل السنة.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وكان أحمد يتوضأ فلا يكاد يَبُلّ الثَّرى)**، الذي يتساقط منه لا يكاد يبل الثرى، الآن الذي يتساقط يتكون منه بركة كبيرة، مستنقع كبير.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وثبت عنه** صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **في «الصحيح»: أنه توضأ من إناء، فأدخل يده فيه، ثم تمضمض واستنشق)**، توضـأ من إناء وأدخل يديه فيه يغترف منه، تمضمض واستنشق قبل الأعضاء؛ لأن المضمضة والاستنشاق داخلان في غسل الوجه؛ لأنهما في حكم الظاهر.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وكذلك كان** صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **في غُسْلِه يُدْخِلُ يده في الإناء، ويتناول الماء منه)**، يغترف منه ويرش على جسمه للاغتسال أو يسيله على عضوه في الوضوء.

والموسوس لا يُجوِّز ذلك، ولعله أن يحكم بنجاسة الماء، أو يَسْلُبَهُ طَهوريَّته بذلك. وبالجملة فلا تطاوعه نفسه اتباع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن يأتي بمثل ما أتى به أبدًا. وكيف يطاوع الموسوس نفسه أن يغتسل هو وامرأته من إناء واحد قدر الفَرَق، قريبًا من خمسة أرطال بالدمشقيّ، يَغمِسان أيديَهما فيه، ويُفرِغان عليهما؟ فالمُوَسْوِسُ يشمئزّ من ذلك كما يشمئز المشرك إذا ذُكِر الله وحده.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (والموسوس لا يُجوِّز ذلك، ولعله أن يحكم بنجاسة الماء، أو يَسْلُبَهُ طَهوريَّته بذلك)، الموسوس الذي أصيب بالوسواس لا تقنعه السنة، بل إنه يرى أنه لا يكفي ما جاء في السنة بسبب الوسواس الذي أصابه.

نعم، كلما أسرف الإنسان في صب الماء في الوضوء فإنه يصاب بالوسوسة، بل يصاب بأكثر من ذلك؛ يرى أن الماء ينجس، إذا بدأ يستعمله ويدخل يده فيه ليغترف منه يرى أنه ينجس! من الوسوسة.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وبالجملة فلا تطاوعه نفسه اتباع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن يأتي بمثل ما أتى به أبدًا)، لا يقنع بما جاء عن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويرى أنه لا يكفيه، وهذه مصيبة، إذا رأى أن طهور الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يكفي هذه مصيبة، لا يكتفي بسنة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وكيف يطاوع الموسوس نفسه أن يغتسل هو وامرأته من إناء واحد قدر الفَرَق، قريبًا من خمسة أرطال بالدمشقيّ)، يعني لا يقتنع

بمقدار الماء الذي يغتسل منه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! بل اغتسل هو وزوجته من فَرَق: إناء يسمى الفَرَق، وهو قليل، ولم يمنع زوجته، وقال: هذا لا يكفي! كانت تغتسل معه، يكفيهما الفَرَق.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(يَغمِسان أيديَهما فيه)**، كما فعل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(فالمُوَسْوِسُ يشمئزّ من ذلك كما يشمئز المشرك إذا ذُكِر الله وحده)**، يعني يشمئز من السُّنة، ويرى أن هذا لا يكفي بسبب الوسواس، كما يشمئز المشرك إذا ذُكِرَ اللهُ وحْدَه.

﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الزمر:٤٥]. كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الزمر:٤٥]، إذا ذُكِرَت آلهتهم من دون الله استبشروا بذلك.

مثلهم الموسوس؛ إذا سمِع السُّنة لا يقتنع بها، ويرى أنها لا تكفي، تنقبض نفسه من ذلك، ولا تطيب نفسه إلا بمخالفة السنة! هذه مصيبة، مصيبة الوسواس.

والوسواس يجب الاستعاذةُ منه؛ ﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ﴾ [الناس:٤]: الوَسواس بالفتح: الشيطان، والوِسواس بالكسر: هو ما يصيب الإنسان في نفسه من الوساوس والأفكار المقلقة.

والوسواس من الشيطان، وهناك شيطان يقال له: الولهان، يحضر عند الوضوء فيوسوس للمسلم.

قال أصحاب الوسواس: إنما حملنا على ذلك الاحتياط لديننا، والعمل بقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ»(١). وقوله: «مَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ»(٢). وقوله: «الْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي الصَّدْرِ»(٣). وقال بعض السلف: «الإثم حَوَازُّ القلوب»(٤).

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (قال أصحاب الوسواس: إنما حملنا على ذلك الاحتياط لديننا)، يسمون هذا من باب الاحتياط، يعني هم على احتياط اهتدوا إليه، ولم يهتدِ إليه الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ!

الاحتياط هو في سنة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وليس الاحتياط في الخروج من سنة الرسول، هذا إسراف.

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٢٤٩)، والترمذي (٢٥١٨)، والنسائي (٥٧١١)، من حديث الحسن ابن علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وقال الترمذي: (هذا حديث صحيح).

(٢) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٥٣) عن النَّوَّاس بن سمعان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٩/ ١٤٩) من كلام عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١٧٦): (رواه الطبراني بأسانيدَ رجالُها ثقاتٌ).

قال ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ٣٧٧): (حَدِيثُ ابْنِ مَسْعُودٍ: (الإثم حَوَازُّ الْقُلُوبِ) هِيَ الْأُمُورُ الَّتِي تَحُزُّ فِيهَا؛ أَيْ: تؤثِّر كَمَا يُؤَثِّرُ الحَزُّ فِي الشَّيْءِ، وَهُوَ مَا يَخْطر فِيهَا مِنْ أَنْ تَكُونَ مَعاصي لفَقْد الطُّمَأْنِينة إِلَيْهَا، وَهِيَ بِتَشْدِيدِ الزَّاي: جَمْعُ حَازٍّ. يُقَالُ إِذَا أَصَابَ مِرْفقُ الْبَعِيرِ طرفَ كِرْكِرَتِهِ فَقَطَعَهُ وأدْماه: قِيلَ بِهِ حَازٌّ. ورواهُ شَمِرٌ: (الإِثْمُ حَوَّازُ الْقُلُوبِ) بِتَشْدِيدِ الْوَاوِ؛ أَيْ: يَحُوزُها ويتملَّكُها ويَغْلب عَلَيْهَا. ويُرْوَى: (الْإِثْمُ حَزَّازُ الْقُلُوبِ) بِزَايَيْنِ الْأُولَى مُشَدَّدَةٌ، وَهِيَ فَعَّالٌ مِنَ الحَزِّ).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والعمل بقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ**»)، ليس هذا عملًا بالحديث، الوسواس ليس بعمل للحديث.

«**دَعْ مَا يَرِيبُكَ**» أي: ما تشك فيه.

«**إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ**»: أي إلى ما تطمئن إليه، وهذا ليس في مخالفة السنة، لم تتعارض السنة مع الحديث أبدًا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقوله: «**مَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ**»)، «**مَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ**»: هذه ليست بشبهة، هذا وسواس.

الشبهة هي في الأشياء التي لا يُدرَى: هل هي من الحلال أو الحرام؛ فيتجنبها الإنسان احتياطًا.

قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ، وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ**»: يعني تجنَّبها وتركها؛ «**فَقَدْ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ، وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى، يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللهِ مَحَارِمُهُ**». الحديث في الصحيح[1]. فاتقاء الشبهات هو في الحلال والحرام، في المآكل والمشارب.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقوله: «**الْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي الصَّدْرِ**»)، يقول الموسوسون: نحن نعمل بإذهاب ما يحيك في الصدر، وهو لا يذهب، بل يزيد، المشكلة أنه يزيد كلما تماشوا معه زاد عليهم، ولا ينقطع الوسواس.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

وقد وَجدَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تمرةً، فقال: «لَوْلَا أَنِّي أَخْشَى أَنْ تَكُونَ مِنَ الصَّدَقَةِ لَأَكَلْتُهَا»[1]، أفلا تَرى أنه ترك أكلها احتياطًا؟

وقد أفتى مالك من طلق امرأته وشَك هل هي واحدة أم ثلاث: بأنها ثلاث؛ احتياطًا للفروج.

وأفتى من حلف بالطلاق أن في هذه اللوزة حبَّتين، وهو لا يعلم ذلك، فبان الأمر كما حلف عليه: أنه حانث؛ لأنه حلف على ما لا يعلم.

وقال فيمن طلَّق واحدة من نسائه ثم أُنسيَها: تُطلَّق عليه جميع نسائه احتياطًا، وقطعًا للشك.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**وقد وَجدَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تمرةً، فقال: «لَوْلَا أَنِّي أَخْشَى أَنْ تَكُونَ مِنَ الصَّدَقَةِ لَأَكَلْتُهَا»، أفلا تَرى أنه ترك أكلها احتياطًا؟**)، هذا اتقاء الشبهات، إذا اشتبه الحلال بالحرام، ولا تدري عن هذا الشيء أهو من الحلال أو من الحرام؟ اتركه.

كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يمشي في الطريق ورأى تمرة ساقطة فأخذها، هذا فيه أن النعمة ترفع ولا تمتهن ولا تداس. رفعها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال: «**لَوْلَا أَنِّي أَخْشَى أَنْ تَكُونَ مِنَ الصَّدَقَةِ لَأَكَلْتُهَا**»؛ لأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حرمت عليه الصدقة، الزكاة؛ لأنها أوساخ أموال الناس، كان يقبل الهدية ولا يأخذ الصدقة عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٥٥)، ومسلم (١٠٧١) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه التمرة يمكن أنها من الزكاة وهي حرام على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فتركها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ احتياطًا؛ هذا هو الاحتياط، ليس الاحتياط ما عليه الموسوسون، الشيء الحلال يشكون فيه، الذي ليس فيه اشتباه لا يشكون فيه، السنة لا تقنعهم، يقولون: هذه قليلة، ولا تقنعهم حتى يزيدوا عليها.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وقد أفتى مالك من طلق امرأته وشَك هل هي واحدة أم ثلاث: بأنها ثلاث؛ احتياطًا للفروج)**، إذا شك في عدد الطلاق، هو تيقن أنه طلق، لكن شك في عدد الطلاق: هل هو رجعي أم بائن؟ يجعله بائنًا احتياطًا، احتياطًا للفروج، هذا مذهب الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وأفتى من حلف بالطلاق أن في هذه اللوزة حبَّتين)**، أفتى الإمام مالك لمن حلف بالطلاق، قال: عليه الطلاق إن كان في هذه اللوزة حبة واحدة!

إن كان في هذه اللوزة حبتين، هذا حلف بالطلاق.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وهو لا يعلم ذلك، فبان الأمر كما حلف عليه: أنه حانث؛ لأنه حلف على ما لا يعلم)**، حتى ولو تبين أن اللوزة فيها حبتان فإنه يحنث في يمينه؛ لأنه حلف وهو لا يعلم، مجهول، فكيف يطلق على شيء يجهله؟!

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وقال فيمن طلَّق واحدة من نسائه ثم أُنسيَها: تُطلَّق عليه جميع نسائه احتياطًا، وقطعًا للشك)**، هذا رأي الإمام مالك أنه إذا طلق واحدة، له زوجات وطلق واحدة، ونسي من هي.

يقول: تطلق كل زوجاته؛ لأن كل واحدة يحتمل أنها هي، تجنبًا للشبهة، يطلقن جميعًا من باب الاحتياط.

والذي عند غيره أن هذا بالقرعة، أنها تخرج المطلقة بالقرعة، فمن وقعت عليها القرعة فإنها تطلق.

وقال أصحاب مالك فيمن حلف بيمين ثم نسيها: إنه يلزمه جميع ما يُحلَف به عادة، فيلزمه الطلاق، والعتاق، والصدقة بثلث المال، وكفارة الظهار، وكفارة اليمين بالله، والحج ماشيًا، ويقع الطلاق في جميع نسائه، ويعتق عليه جميع عبيده وإمائه، وهذا أحد القولين عندهم.

ومذهب مالك أيضًا: أنه إذا حلف ليفعلنّ كذا، أنه على حنث حتى يفعله، فيحال بينه وبين امرأته إذا كان حالفًا بالطلاق حتى يفعل، فإذا فعل خُلِّيَ بينه وبين امرأته.

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وقال أصحاب مالك فيمن حلف بيمين ثم نسيها: إنه يلزمه جميع ما يُحلَف به عادة، فيلزمه الطلاق، والعتاق، والصدقة بثلث المال، وكفارة الظهار، وكفارة اليمين بالله، والحج ماشيًا، ويقع الطلاق في جميع نسائه، ويعتق عليه جميع عبيده وإمائه، وهذا أحد القولين عندهم**)، عند المالكية يعني، فدل على أنهم يحتاطون عندهم احتياطًا كبيرًا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**ومذهب مالك أيضًا: أنه إذا حلف ليفعلنّ كذا، أنه على حنث حتى يفعله، فيحال بينه وبين امرأته إذا كان حالفًا بالطلاق حتى يفعل، فإذا فعل خُلِّيَ بينه وبين امرأته**)، إذا حلف ليفعلن، يعني يلزم نفسه ليفعلن كذا، حلف بالله أو حلف بالطلاق فإنه يلزمه الطلاق، يلزمه أن يفعل الشيء؛ لأنه لو تركه تطلق امرأته.

وغير الإمام مالك يرون أن يكفِّر كفارة يمين.

ومذهبه أيضًا: إذا قال: إذا جاء رأس الحَوْل فأنت طالق ثلاثًا: أنها تُطلَّق في الحال. وهذا كله احتياط.

قال الفقهاء: من خفي عليه موضع النجاسة من الثوب وجب عليه غسله كله. وقالوا: إذا كان معه ثياب طاهرة وتنجّس منها ثياب، وشكَّ فيها، صلى في ثوب بعد ثوب بعدد النجس، وزاد صلاة ليتيقَّن براءة ذمته. وقالوا: إذا اشتبهت الأواني الطاهرة بالنجسة أراق الجميع وتيمم.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومذهبه أيضًا: إذا قال: إذا جاء رأس الحَوْل فأنت طالق ثلاثًا: أنها تُطلَّق في الحال. وهذا كله احتياط)**، كله احتياط؛ لأن قوله إذا جاء راس الحول فأنت طالق ثلاثًا، هذا معلق على رأس الحول.

فهو يقول: تطلق في الحال ولا ينتظر لرأس الحوال؛ احتياطًا للفروج.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قال الفقهاء: من خفي عليه موضع النجاسة من الثوب وجب عليه غسله كله)**، مَن خفي عليه موضع نجاسة مِن الثوب ومِن الفراش، هو متيقن أن هذا فيه نجاسة، الثوب أو الفراش، لكن لا يدري في أي موضع منه هذا، يغسل الثوب كله احتياطًا.

إذا غسل الثوب كله فقد غسل النجاسة بيقين، أما لو اقتصر على موضع معين فإنه لا يلزم أنه أصاب النجاسة، ولهذا يقولون: مَن خفي عليه موضع النجاسة غسله؛ حتى يجزم بزوالها.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقالوا: إذا كان معه ثياب طاهرة وتنجّس منها ثياب، وشكَّ فيها، صلى في ثوب بعد ثوب بعدد النجس، وزاد صلاة ليتيقَّن براءة ذمته)**، هذا حتى عند الحنابلة في متن الزاد -أيضًا- أنه إذا كان عنده ثياب، ومنها واحد نجس، وشك أي هذه الثياب، فإنه يصلي بها كلها في كل ثوب صلاة، ويزيد صلاة واحدة على عدد الثياب ليتقين أنه صلى بيقين[1].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقالوا: إذا اشتبهت الأواني الطاهرة بالنجسة أراق الجميع وتيمم)**، إذا اشتبه ماء طهور بماء نجس ماذا يعمل؟

يريق الجميع: يعني يريق الجميع من الأواني ويتيمم؛ حتى يقال إنه عدم الماء، يريقها لأجل ينطبق عليه، ومن عدم الماء يتيمم، ﴿فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟﴾ [النساء:٤٣]. هذا من باب الاحتياط.

❖ ❖ ❖

(١) انظر: زاد المستقنع (ص٢٦).

وكذلك إذا اشتبهت عليه القبلة، فلا يدري في أي جهة، فإنه يصلي أربع صلوات عند بعض الأئمة؛ لتبرأ ذمته بيقين. وقالوا: من ترك صلاة من يوم ثم نسيها وجب عليه أن يصلي خمس صلوات. وقد أمر النبي ﷺ من شك في صلاته أن يبني على اليقين[1].

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وكذلك إذا اشتبهت عليه القبلة، فلا يدري في أي جهة، فإنه يصلي أربع صلوات عند بعض الأئمة؛ لتبرأ ذمته بيقين)، إذا اشتبهت عليه القبلة فلا يدري في أي جهة ولا يمكن عنده أحد يعلمه أين القبلة وليس هناك علامات فإنه يصلي إلى كل الجهات: الغربية والشرقية والجنوبية والشمالية ليخرج من الواجب بيقين.

لكن القول الثاني: أنه يجتهد، وما توصل إليه اجتهاده يصلي إليه وصلاته صحيحة، ولو تبين أنه أخطأ.

لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١١٥]. قالوا في هذه الآية: إنها نزلت فيمن اشتبهت عليه القبلة فإنه يجتهد، ما ترجح عنده أنها قبلة يصلي إليها وصلاته صحيحة؛ لأن هذه استطاعته.

---

(١) أخرج مسلم (٥٧١) عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: **«إِذَا شَكَّ أَحَدُكُمْ فِي صَلَاتِهِ، فَلَمْ يَدْرِ كَمْ صَلَّى: ثَلَاثًا أَمْ أَرْبَعًا، فَلْيَطْرَحِ الشَّكَّ، وَلْيَبْنِ عَلَى مَا اسْتَيْقَنَ، ثُمَّ يَسْجُدُ سَجْدَتَيْنِ قَبْلَ أَنْ يُسَلِّمَ؛ فَإِنْ كَانَ صَلَّى خَمْسًا شَفَعْنَ لَهُ صَلَاتَهُ، وَإِنْ كَانَ صَلَّى إِتْمَامًا لِأَرْبَعٍ كَانَتَا تَرْغِيمًا لِلشَّيْطَانِ»**.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وقالوا: من ترك صلاة من يوم ثم نسيها وجب عليه أن يصلي خمس صلوات**)؛ لأن كل واحدة يحتمل أنها هي التي نسيها، فلا تبرأ ذمته بيقين إلا إذا صلى الخمس؛ لأن كل يوم فيه خمس صلوات.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وقد أمر النبي** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **من شك في صلاته أن يبني على اليقين**)، من شك في صلاته، شك هل صلى أربعًا أو ثلاثًا؟ يبني على اليقين على الأقل؛ فيجعلها ثلاثًا، ويأتي بالرابعة، ويسجد للسهو.

وحرَّم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكل الصيد إذا شك صاحبه: هل مات بسهمه أو بغيره، كما إذا وقع في الماء، وحرَّم أكله إذا خالط كلبُه كلبًا آخَرَ(١)؛ للشك في تسمية صاحبه عليه. وهذا باب يطول تتبُّعُه. فالاحتياط والأخذ باليقين غير مُستنكَر في الشرع، وإن سمَّيتموه وسواسًا.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وحرَّم أكل الصيد إذا شك صاحبه: هل مات بسهمه أو بغيره)**، إذا أرسل سهمه وأصاب الصيد، ولكن وجد فيه أثرًا لسهم غيره فإنه لا يدري في أيهما مات، فيتجنب هذا الصيد.

وإذا أرسل كلبه، وهناك من أرسل كلبه -أيضًا- وكلاهما اصطادا هذا الصيد فإنه يتجنب لاحتمال أنه صاده كلب الآخر.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(كما إذا وقع في الماء)**، كما إذا وقع في الماء لا يدرى؛ هل مات بسبب وقوع السهم أو مات بسبب الغرق، محتمل، فيتجنبه احتياطًا.

---

(١) كما في حديث عَدِيِّ بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال لي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِذَا أَرْسَلْتَ كَلْبَكَ فَاذْكُرِ اسْمَ اللهِ، فَإِنْ أَمْسَكَ عَلَيْكَ فَأَدْرَكْتَهُ حَيًّا فَاذْبَحْهُ، وَإِنْ أَدْرَكْتَهُ قَدْ قَتَلَ، وَلَمْ يَأْكُلْ مِنْهُ فَكُلْهُ، وَإِنْ وَجَدْتَ مَعَ كَلْبِكَ كَلْبًا غَيْرَهُ، وَقَدْ قَتَلَ فَلَا تَأْكُلْ؛ فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَيُّهُمَا قَتَلَهُ، وَإِنْ رَمَيْتَ سَهْمَكَ، فَاذْكُرِ اسْمَ اللهِ، فَإِنْ غَابَ عَنْكَ يَوْمًا فَلَمْ تَجِدْ فِيهِ إِلَّا أَثَرَ سَهْمِكَ، فَكُلْ إِنْ شِئْتَ، وَإِنْ وَجَدْتَهُ غَرِيقًا فِي المَاءِ فَلَا تَأْكُلْ**». وفي رواية: «**إِذَا رَمَيْتَ سَهْمَكَ فَاذْكُرِ اسْمَ اللهِ، فَإِنْ وَجَدْتَهُ قَدْ قَتَلَ فَكُلْ، إِلَّا أَنْ تَجِدَهُ قَدْ وَقَعَ فِي مَاءٍ؛ فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي المَاءُ قَتَلَهُ أَوْ سَهْمُكَ**». انظر: صحيح البخاري (١٧٥)، وصحيح مسلم (١٩٢٩).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وحرَّم أكله إذا خالط كلبه كلبًا آخر؛ للشك في تسمية صاحبه عليه)**، حرم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصيد إذا اجتمع في صيده كلبان واحد له وواحد لغيره فإنه لا يدري عن غيره؛ هل سمى على إرسال الكلب، هل سمى عند إرسال الكلب أو لا، هل سمى فيحل الصيد أو لم يسم؟

النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**إِذَا أَرْسَلْتَ كَلْبَكَ الْمُعَلَّمَ، وَذَكَرْتَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ، فَكُلْ**»(١)، لكن إذا وجد مع كلبه كلبًا آخر لا يدري أيهما أصاب هذا الصيد، ولا يدري أن صاحب الكلب الآخر سمى عليه فهو مشتبه بين الحلال والحرام فيتركه، «**وَإِنْ وَجَدْتَ مَعَ كَلْبِكَ كَلْبًا آخَرَ فَلَا تَأْكُلْ**»(٢).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهذا باب يطول تتبُّعه)**، باب في الاحتياطات الشرعية، هي ليست احتياطات الوسواس، لا، باب في الاحتياطات الشرعية.

❖ ❖ ❖

(١) تقدم تخريجه (ص٢٤٣).
(٢) تقدم تخريجه (ص٢٤٣).

وقد كان عبد الله بن عمر يغسل داخل عينيه في الطهارة حتى عمي(١).

وكان أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا توضأ أشرع في العَضُد، وإذا غسل رجليه أشرع في الساقين(٢).

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقد كان عبد الله بن عمر يغسل داخل عينيه في الطهارة حتى عمي)، هذا من اجتهاد ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه إذا توضأ يدخل الماء في

---

(١) الثابت أنه كان ينضح الماء في عينيه فحسبُ؛ فقد أخرج الإمام مالك في الموطأ (١/ ٤٥) عن نافع: «أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كَانَ إِذَا اغْتَسَلَ مِنَ الجَنَابَةِ، بَدَأَ فَأَفْرَغَ عَلَى يَدِهِ الْيُمْنَى فَغَسَلَهَا، ثُمَّ غَسَلَ فَرْجَهُ، ثُمَّ مَضْمَضَ وَاسْتَنْثَرَ، ثُمَّ غَسَلَ وَجْهَهُ، وَنَضَحَ فِي عَيْنَيْهِ، ثُمَّ غَسَلَ يَدَهُ الْيُمْنَى، ثُمَّ الْيُسْرَى، ثُمَّ غَسَلَ رَأْسَهُ، ثُمَّ اغْتَسَلَ وَأَفَاضَ عَلَيْهِ المَاءَ». وفي مصنف عبد الرزاق (١/ ٢٥٩) عن عبد الله بن عمر، عن نافع، عن ابن عمر، قال: «كان إذا اغتسل من الجنابة نضح الماء في عينيه، وخلل لحيته». قال: قال عبد الله: «ولا أعلم أحدًا نضح الماء في عينيه إلا ابن عمر».

(٢) أخرج مسلم (٢٤٦) عَنْ نُعَيْمِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْمُجْمِرِ، قَالَ: «رَأَيْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَتَوَضَّأُ، فَغَسَلَ وَجْهَهُ فَأَسْبَغَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ غَسَلَ يَدَهُ الْيُمْنَى حَتَّى أَشْرَعَ فِي الْعَضُدِ، ثُمَّ يَدَهُ الْيُسْرَى حَتَّى أَشْرَعَ فِي الْعَضُدِ، ثُمَّ مَسَحَ رَأْسَهُ، ثُمَّ غَسَلَ رِجْلَهُ الْيُمْنَى حَتَّى أَشْرَعَ فِي السَّاقِ، ثُمَّ غَسَلَ رِجْلَهُ الْيُسْرَى حَتَّى أَشْرَعَ فِي السَّاقِ، ثُمَّ قَالَ: «هَكَذَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَوَضَّأُ». وَقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَنْتُمُ الْغُرُّ الْمُحَجَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ إِسْبَاغِ الْوُضُوءِ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ فَلْيُطِلْ غُرَّتَهُ وَتَحْجِيلَهُ**». وأخرجه البخاري (١٣٦) عَنْ نُعَيْمٍ الْمُجْمِرِ، قَالَ: «رَقِيتُ مَعَ أَبِي هُرَيْرَةَ عَلَى ظَهْرِ الْمَسْجِدِ، فَتَوَضَّأَ، فَقَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**إِنَّ أُمَّتِي يُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يُطِيلَ غُرَّتَهُ فَلْيَفْعَلْ**».

عينيه؛ لأنهما من الوجه، يرى أنهما من الوجه فيدخل الماء في عينيه حتى تأثرت عيناه بالماء، وعمي في آخر حياته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لأن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عمي في آخر حياته؛ بسبب أنه زاد في الاجتهاد حتى يدخل الماء في عينيه احتياطًا، وهذا مما لا يوافقه عليه العلماء، لكن حمله على ذلك الاحتياط رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وكان أبو هريرة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **إذا توضأ أشرع في العَضُد، وإذا غسل رجليه أشرع في الساقين)**، أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان إذا توضأ زاد عن حد الكعب، وأخذ من الساق، وإذا غسل يديه يأخذ من العضد.

ويقول إن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**إِنَّ أُمَّتِي يُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ**»(١). هذا صحيح عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ أُمَّتِي يُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ**». قال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**فَلْيُطِلْ غُرَّتَهُ**»، أطيلوا الغرة؛ بأن يغسل من رأسه يتعدى حدود وجهه، ويغسل من رأسه، وأيضًا يتعدى في غسل اليدين، فيشرع في العضد، ويتعدى في غسل الساقين.

«**فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يُطِيلَ غُرَّتَهُ فَلْيَفْعَلْ**». قالوا: هذا الكلام من عند أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وليس من كلام الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكنه فعله من باب الاحتياط.

---

(١) تقدم تخريجه في الحاشية السابقة.

فنحن إذا احتطنا لأنفسنا وأخذنا باليقين، وتركنا ما يَريب إلى ما لا يريب، وتركنا المشكوك فيه للمتيقَّن المعلوم، وتجنبنا محلّ الاشتباه، لم نكن بذلك عن الشريعة خارجين، ولا في البدعة والجِينَ.

وهل هذا إلا خير من التسهيل والاسترسال؟ حتى لا يبالي العبد بدينه، ولا يحتاط له، بل يُسهِّل الأشياء ويُمَشّي حالها، ولا يبالي كيف توضأ؟ ولا بأيّ ماءٍ توضأ؟ ولا بأيّ مكان صلى؟ ولا يبالي ما أصاب ذيله وثوبه، ولا يسأل عما عهد، بل يتغافل، ويحسّن ظنه، فهو مهمل لدينه لا يبالي ما شك فيه؛ ويحمل الأمور على الطهارة، وربما كانت أفحش النجاسة، ويدخل بالشك ويخرج بالشك.

فأين هذا ممن استقصى في فعل ما أُمر به، واجتهد فيه، حتى لا يُخِلّ بشيء منه، وإن زاد على المأمور فإنما قصده بالزيادة تكميل المأمور، وأن لا ينقص منه شيئًا!

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (حتى لا يبالي العبد بدينه، ولا يحتاط له، بل يُسهِّل الأشياء ويُمَشّي حالها، ولا يبالي كيف توضأ؟ ولا بأيّ ماءٍ توضأ؟ ولا بأيّ مكان صلى؟ ولا يبالي ما أصاب ذيله وثوبه)، هناك فرق بين الاحتياط المشروع، والتساهل المشروع.

هناك ناس يميلون مع التساهل ولو خرجوا عن الحد المشروع، وهناك أناس يحتاطون حتى يخرجوا عن الحد المشروع، والحق هو الوسط.

الاحتياط مطلوب، ولكن في حدود الشرع، والتيسير مطلوب، لكن في حدود الشرع لا يخرج عن حدود الشرع، التسهيل هو فيما شرعه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج:٧٨]، فرفع الحرج هو فيما شرعه الله لا فيما يرى الناس أنه حرج، ثم يتساهلون في أمور دينهم، فالإنسان يمشي مع الطريق الصحيح بالاحتياط، ويمشي مع الطريق الصحيح في التسامح، لا يخرج عن المشروع في كلا الأمرين.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهل هذا إلا خير من التسهيل والاسترسال؟ حتى لا يبالي العبد بدينه، ولا يحتاط له، بل يُسهِّل الأشياء ويُمَشّي حالها)**، بعضهم يستخدم التيسير حتى يخرج عن الحد المشروع، وييسر بترك أشياء مشروعة، ويقول: هذا من باب التيسير، ورفع الحرج! هذا لا يجوز.

التيسير في حدود الشرع، والاحتياط في حدود الشرع، إذا الشيء خرج عن حدود الشرع؛ فإنه لا يجوز.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولا يبالي كيف توضأ؟ ولا بأيّ ماءٍ توضأ؟)**، من باب التساهل يقول: هذا من التسهيل، فيتساهل في الوضوء، وقد يترك بعض أعضاءه لا يغسلها من باب التساهل، ولا يتعاهد أعضاءه ويتيقن غسلها، ويقول: هذا حرج وهذا تشدد! والدين بين طرفي نقيض، بين الغلاة وبين المتساهلين، الدين وسط -ولله الحمد- معتدل بين هذا وهذا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولا يبالي ما أصاب ذيله وثوبه)**، يتساهل في النجاسات، قد يصيب ثوبه شيء من النجاسة، ويقول: لا يخالف، لستُ متشددًا، ويتركه ويصلي بثوب نجس؛ لأن هذا عنده من باب التسامح، هذا لا يجوز، لا يجوز التساهل في هذا الذي يخرج عن الحد المشروع.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فهو مهمل لدينه لا يبالي ما شك فيه)**، هذه المبالغة في التسهيل تخرج عن الدين أحيانًا من التفريط.

والمبالغة في التشدد تخرج -أيضًا- من الدين إلى الغلو عن الحد المشروع، فكلاهما يخرج عن الدين، لا الغلو ولا التساهل، وخير الأمور الوسط والاعتدال.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ويحمل الأمور على الطهارة، وربما كانت أفحش النجاسة، ويدخل بالشك ويخرج بالشك)**، الشيء الذي لا يعلم أنه نجس، يبني على اليقين، أنه طاهر حتى تُعلم نجاسته.

لا يكفيهم هذا، يقولون: لا، لا تشدِّد على نفسك ولا تبحث، صلِّ بأي ثوب، لا يصلح هذا، الثوب الذي فيه نجاسة لا تصلح الصلاة فيه، ويقال: هذا من باب التساهل والمسامحة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فأين هذا ممن استقصى في فعل ما أُمر به، واجتهد فيه، حتى لا يُخِلّ بشيء منه، وإن زاد على المأمور فإنما قصده بالزيادة تكميل المأمور، وأن لا ينقص منه شيئًا!)**، مَن لم يتعمد الزيادة، لا يؤاخذ؛ لأنه لم يتعمد الزيادة، أما لو تعمد الزيادة؛ فهذا غلو.

قالوا: وجِماعُ ما تنكرونه علينا: احتياط في فعل مأمور، أو احتياط في تجنب محظور، وذلك خير وأحسن عاقبةً من التهاون بهذين؛ فإنه يُفضِي غالبًا إلى النقص من الواجب، والدخول في المحرَّم.

وإذا وازنّا بين هذه المفسدة ومفسدة الوسواس كانت مفسدة الوسواس أخفّ، هذا إن ساعدناكم على تسميته وسواسًا، وإنما نسميه احتياطًا واستظهارًا، فلستم بأسعد منا بالسنة، ونحن حَولها نُدَنْدِن، وتكميلها نريد.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(قالوا: وجِماعُ ما تنكرونه علينا)**، الموسوسون.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(احتياط في فعل مأمور، أو احتياط في تجنب محظور)**، يسمون الوسوسة: احتياطًا، وهي ليست احتياطًا، الوسوسة ليست احتياطًا.

الاحتياط: هو الاحتياط المشروع، **«دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ»**[1].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ فَقَدْ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ»**[2]، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«الْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ»**[3]؛ كن مع حدود الشرع.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(احتياط في فعل مأمور)**، هذا ليس احتياطًا، هذا وسواس.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٢٣٣).

(٢) تقدم تخريجه (ص٢٣٣).

(٣) تقدم تخريجه (ص٢٣٣).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وذلك خير وأحسن عاقبةً)**، ليس خيرًا، هذا شر، وليس بأحسن عاقبة، بل أسوأ عاقبة، الذي يخرج عن الشرع ليس خيرًا، وعاقبته سيئة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وذلك خير وأحسن عاقبةً من التهاون بهذين)**، هذا ليس تهاونًا، هذا تمسُّك بالمشروع، وقناعة بالمشروع، نحن لسنا مثلكم نتشدد ونزيد عن المشروع، ونقول: هذا خير! لا، ليس هذا خيرًا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإنه يُفضِي غالبًا إلى النقص من الواجب، والدخول في المحرَّم)**، فالموسوسون والمتساهلون على طرفي نقيض كلاهما خارج عن المشروع.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وإذا وازنّا بين هذه المفسدة ومفسدة الوسواس كانت مفسدة الوسواس أخفّ)**، بل هي أغلظ، مسألة الوسواس أغلظ من الاحتياط المشروع.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فلستم بأسعد منا بالسنة)**، لستم على السنة أصلًا، فالوسواس ليس على السنة أبدًا، الزيادة عما شرع الله ليس هذا من السنة، بل هذا من الغلو، الوسواس يؤول إلى الغلو.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ونحن حَولها نُدَنْدِن، وتكميلها نريد)**، إذا أصبحتم تدندنون حولها، فتمسكوا بما جاء عن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا تزيدوا عليه.

قال أهلُ الاقتصاد والاتباع: قال الله سبحانه: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ﴾ [الأحزاب:٢١]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران:٣١]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف:١٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام:١٥٣].

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قال أهلُ الاقتصاد والاتباع)، يردون عليهم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قال الله سبحانه: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ﴾ [الأحزاب:٢١])، ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾: يعني قدوة، فاقتدوا بالرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهو أخوفنا لله وأعظمنا محبةً للاحتياط، فنحن نقتدي به صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما يقول وفيما يفعل، ولا نقتدي بغيره من الموسوسين.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران:٣١])، ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾؛ لأن اليهود يدعون أنهم أحباب الله، النصارى يدعون ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾ [المائدة:١٨]. تحداهم الله بهذه الآية، هم يزعمون أنهم يحبون الله، لكن لا يتبعون رسوله، تحداهم بهذه الآية: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ

﴿لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:٣١-٣٢]. فلا محبة لله إلا بإتباع رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا تحصل المحبة من الله إلى عبده إلا إذا اتبع الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف:١٥٨])، قال الله جَلَّ وَعَلَا موصيًا بالرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، فاتباعه سبب للهداية، وترك اتباعه سبب للغواية.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:١٥٣])، صراط الله المستقيم: هو المعتدل الذي لا اعوجاج فيه ولا متاهات، وإلى جنبتيه سبل كثيرة، على كل سبيل منها شيطان يدعو الناس إليه؛ ليخرجهم من صراط الله المستقيم(١).

فليس هناك سُبُلٌ، إنما هو سبيل واحد وصراط واحد؛ من خرج عنه يمنة ويسرة للوسواس، لاتباع الضالين والمخالفين؛ هلك.

---

(١) أخرج الإمام أحمد في المسند (٢٩/ ١٨١، ١٨٢) عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سِمْعَانَ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَى جَنْبَتَيِ الصِّرَاطِ سُورَانِ، فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ، وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: أَيُّهَا النَّاسُ، ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا، وَلَا تَتَعَرَّجُوا. وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ، فَإِذَا أَرَادَ يَفْتَحُ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ، قَالَ: وَيْحَكَ! لَا تَفْتَحْهُ؛ فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ. وَالصِّرَاطُ: الْإِسْلَامُ، وَالسُّورَانِ: حُدُودُ اللهِ، وَالْأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ: مَحَارِمُ اللهِ، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ: كِتَابُ اللهِ، وَالدَّاعِي مِنْ فَوْقَ الصِّرَاطِ: وَاعِظُ اللهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ».

وهذا الصراط المستقيم الذي وصّانا باتباعه: هو الصراط الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، وهو قَصْد السبيل، وما خرج عنه فهو من السُّبُل الجائرة، قاله من قاله.

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهذا الصراط المستقيم الذي وصّانا باتباعه: هو الصراط الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه)**، ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء:٦٩]. هؤلاء الذين معك في الطريق، إذا سرت على الصراط المستقيم صار رفقاؤك هم هؤلاء خير الخلق.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(هو الصراط الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، وهو قَصْد السبيل)**، بلا شك أن الصراط المستقيم ما عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، وما خرج عن ذلك فإنه من السبل المهلكة، والرسول وأصحابه ليس عندهم وسواس مثل هؤلاء.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وما خرج عنه فهو من السُّبُل الجائرة)**، ومن ذلك: الوسوسة فإنها ليست من صراط الله المستقيم، خارجة عنه.

(وما خرج عنه فهو من السُّبُل الجائرة)، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النحل:٩]. انظر! ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞ﴾ [النحل:٩].

السبل كثيرة، لكن منها سبيل واحد القاصد الذي يصل إلى الله، ومنها جائر يهلك أصحابه ويضيعهم.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النحل:٩]. فالموصل إلى الله هو السبيل القاصد المعتدل، وما عداها فهو جائر يهلك أصحابه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قاله من قاله)**، وإن قاله من قاله من العباد والموسوسين والصوفية وإلى آخره فهو جائر.

كل ما خالف الصراط المستقيم من الطرق فهو جائر يهلك أصحابه ولا يصلون إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

لكن الجَوْر قد يكون جَوْرًا عظيمًا عن الصراط، وقد يكون يسيرًا، وبين ذلك مراتب لا يحصيها إلا الله.

وهذا كالطريق الحسيّ، فإن السالك قد يعدل عنه ويجور جورًا فاحشًا، وقد يجور دون ذلك، فالميزان الذي يُعرف به الاستقامة على الطريق والجور عنه: هو ما كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه عليه.

والجائر عنهُ إما مُفرط ظالم، أو مجتهد متأوّل، أو مقلد جاهل، فمنهم المستحق للعقوبة، ومنهم المغفور له، ومنهم المأجور أجرًا واحدًا، بحسب نيَّاتهم ومقاصدهم، واجتهادهم في طاعة الله ورسوله، أو تفريطهم.

ونحن نسوق من هَدْي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهدي أصحابه ما يبين أيّ الفريقين أولى باتباعه، ثم نجيب عما احتجوا به، بعون الله وتوفيقه.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (لكن الجَوْر قد يكون جَوْرًا عظيمًا عن الصراط، وقد يكون يسيرًا، وبين ذلك مراتب لا يحصيها إلا الله)، مخالفة الصراط المستقيم تختلف، منها: مخالفة كفرية ومخالفة ضلال ومخالفة معصية، تختلف.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وهذا كالطريق الحسيّ، فإن السالك قد يعدل عنه ويجور جورًا فاحشًا، وقد يجور دون ذلك)، الطرق المعروفة في البر أنت إذا صرت مع جادة ويمشون عليها الناس، جادة واضحة ثم تترك وتذهب مع طرق متفرقة

تضيع، لكن لو التزمت هذه الجادة، فإنك تستريح وتصل إلى مقصودك، هذا في الأمور المحسوسة، وهو في الأمور المعنوية والدينية أشد.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فالميزان الذي يُعرف به الاستقامة على الطريق والجور عنه: هو ما كان رسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **وأصحابه عليه)**، هذا هو الميزان؛ لأن كل واحد يدعي من أصحاب هذه الطرق أنه هو الذي على الحق، وأن طريقه هو الصحيح، وأن غيره ضالون ليسوا على شيء.

الميزان الذي يضبط لنا الصراط المستقيم فهو ما عليه الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ هذا هو الصراط المستقيم، لا ما عليه أهل الضلال وأهل الجهل وأدعياء العلم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والجائر عنهُ إما مُفرط ظالم، أو مجتهد متأوّل، أو مقلد جاهل)**، على أي حال هو خارج عن الطريق الصحيح وخروجه يختلف، يختلف بعضه أشد من بعض.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فمنهم المستحق للعقوبة، ومنهم المغفور له، ومنهم المأجور أجرًا واحدًا)**، «**إِذَا اجْتَهَدَ الْحَاكِمُ فَأَصَابَ**»: يعني أصاب الحق والصراط المستقيم.

«**فَلَهُ أَجْرَانِ**»: أجر الاجتهاد وأجر الإصابة. «**وَإِنَّ اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ وَاحِدٌ**»[(١)]؛ أجر الاجتهاد فقط، وخطؤه مغفور؛ لأنه لم يتعمد، هو يريد الحق لكن لم يُصِبْهُ، فهو لا يأثم، وخطؤه مغفور.

---

(١) سبق تخريجه (ص٧٠).

هذا في الذي عنده أهلية الاجتهاد، الذي عنده أهلية الاجتهاد وشروط الاجتهاد، ليس كلٌّ يجتهد، هذا لأهل الاجتهاد الذين تتوفر فيهم شروط الاجتهاد.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(بحسب نيَّاتهم ومقاصدهم، واجتهادهم في طاعة الله ورسوله، أو تفريطهم)**، فالجاهل لا يجتهد، الجاهل والمتعالم لا يجتهد، عليه أن يقلد أهل الخير ويقلد أهل العلم والصلاح.

أنت إذا صرت تمشي على طريق، ولا تدري هل أنت مع جادة أو لا؛ عليك مع الناس، انظر الناس الذين يمشون، ابقَ معهم.

ونحن نسوق من هَدْي رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهدي أصحابه ما يبين أيّ الفريقين أولى باتباعه، ثم نجيب عما احتجوا به، بعون الله وتوفيقه. ونقدِّم قبل ذلك ذكر النهى عن الغلوّ، وتعدِّي الحدود، والإسراف، وأن الاقتصاد والاعتصام بالسنة عليهما مدار الدين.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**ونحن نسوق من هَدْي رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهدي أصحابه ما يبين أيّ الفريقين أولى باتباعه، ثم نجيب عما احتجوا به، بعون الله وتوفيقه**)، هذا الكتاب إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان للإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الشيطان يكيد لبني آدم؛ يريد أن يضلهم عن سبيل الله عَزَّ وَجَلَّ، والله جَلَّ وَعَلَا خلقه لحكمة.

وأيضًا مكنه من هذا العمل لحكمة؛ لأجل أن يتميز الصادق في إيمانه من ضعيف الإيمان أو من المنافق الذي ينخدع بوساوس الشيطان، فلله الحكمة في ذلك.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**ونقدِّم قبل ذلك ذكر النهى عن الغلوّ، وتعدِّي الحدود، والإسراف**)، من أعظم ما يوقع الناس: الانحراف والغلو في الدين.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾ [المائدة:٧٧].

والغلو: هو التشدد؛ لأن الشيطان ينظر إلى ابن آدم ويختبره؛ فإن وجد فيه رغبة في الخير حثه على الغلو والزيادة ليخرجه عن الطريق السليم.

وإن وجد فيه رغبة في الشهوات والانحراف أغراه بذلك؛ لأن همه أن يخرج ابن آدم عن طريق الاعتدال.

الاعتدال بين الغالي والجافي، الغالي هو المتشدد، والجافي هو المتساهل في دينه، وليس هناك أشد على الشيطان من الإنسان المعتدل، هذا أشد ما يكون على الشيطان: الإنسان المعتدل بين الغالي والجافي، ودين الله جَلَّ وَعَلَا وسط بين الغالي والجافي.

فعلى المسلم أن يحرص على هذا الطريق، الطريق المعتدل، ولن يصل إليه إلا إذا استعان بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وأقبل على تعلم العلم النافع؛ لأن العلم النافع هو الذي يدلك على الاعتدال.

ومن العلم النافع: معرفة ما عليه السلف من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، والتابعين والأئمة المقتدى بهم في الدين حتى تسير على طريقهم ومنهجهم.

الله جَلَّ وَعَلَا قال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣]. صراط الله واحد مستقيم، وأما الطرق الأخرى فهي كثيرة؛ كل شيطان من بني آدم أو الجن له طرق، ولذلك من خرج عن هذا الصراط المستقيم وقع في هذه الطرق وتحير بينها؛ كل يدعوه إلى طريقه ويحرفه عن الصراط المستقيم، دعاة الضلال من شياطين الإنس والجن كل يدعوه إلى أن يتبعه فيضيع بين هذه الطرق.

أما من كان على الصراط المستقيم فإنه لا يضل حتى يصل إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:١٥٣].

وهذا الصراط المستقيم عليه خيرة الخلق؛ ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾ [النساء:٦٩].

وهذا الصراط المستقيم هو الذي ذكره الله في آخر سورة الفاتحة، وأمرنا أن نسأله أن يهدينا إليه، أن يهدينا إليه، أن يدلنا عليه وأن يثبتنا عليه؛ ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة:٦].

صراط من؟ ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ [الفاتحة:٧].

قد بينهم الله بقوله: ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾ [النساء:٦٩]. هؤلاء هم رفقاؤك على هذا الطريق، فلا تستوحش أبدًا.

أما من حاد عن هذا الصراط المستقيم تلقفته شياطين الإنس والجن، فضاع بينها، ومآله إلى الخسار -ولا حول ولا قوة إلا بالله- ولا يصل إلى نتيجة، بل يصل إلى الخيبة والخسار.

ولهذا فرض الله علينا قراءة سورة الفاتحة، وسورة الفاتحة كلها دعاء أولها وآخرها، أولها: دعاء عبادة، ثناء على الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وآخرها دعاء مسألة، تسأل الله أن يهديك الصراط المستقيم.

هذا أمر مهم جدًّا، ولا سيما في آخر الزمان، إذا عظمت الفتن، ونشط دعاة الضلال، واستجدت وسائل الإغواء، فوسائل للإغواء دقيقة، ومصائد يهلك فيها كثير من الناس في هذه المخترعات، في هذه التوتيرات، في هذه

الأمور التي تعرفونها -أنتم- وما يعرض فيها من الأفكار الهدامة، والتي يزينها شياطين الإنس والجن.

فالمسلم لا يلتفت إليها، وإنما يلزم الصراط المستقيم، يكون مع كتاب الله ومع سنة رسول الله، ومع السلف الصالح، ومع الصالحين.

ولا يكون مذبذبًا تارة كذا، وتارة كذا، خصوصًا أنه الآن وجدت وسائل الإضلال الكثيرة لا تخفاكم، تتصيد الناس ولا سيما الشباب، وتعرض عليهم الفتن تغريهم بها، ضل بها كثيرٌ مِن الناس إلا مَن رحم الله.

فليس هناك طريق نجاة إلا الصراط المستقيم الذي أضافه الله إلى نفسه، وقال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام:١٥٣].

وقد بيَّن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا بأن خط خطًّا معتدلًا على الأرض، وخط على جنبتيه خطوطًا كثيرة، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للخط المعتدل: «**هَذَا صِرَاطُ اللهِ**»، وقال للخطوط الأخرى: «**وَهَذِهِ سُبُلٌ، عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُوا إِلَيْهِ**»(١).

فعليك أن تحذر من ذلك، ولن تتخلص إلا بالعلم النافع، وملازمة أهل العلم، أما أن تذهب مع الأفكار ومع التويترات ومع ما يعرض في هذه الوسائل؛ فإنك على خطر عظيم إلا أن تتدارك نفسك.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٧/ ٢٠٧) عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطًّا، ثُمَّ قَالَ: «**هَذَا سَبِيلُ اللهِ**»، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**هَذِهِ سُبُلٌ، عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ**»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣]».

فالأمر خطير جدًّا الآن، ولا يتخلص إلا بالعلم النافع؛ لأنهم يزينون هذه الأشياء ويحسنونها ويغرون بها، فلا خلاص منها إلا بالعلم النافع الموروث من كتاب الله وسنة رسوله وهدي السلف الصالح، وما عليه أهل العلم.

فعليكم بملازمة أهل العلم، وطلب العلم على العلماء المعروفين، لا المتعالمين، ولا العلماء الضالين، الأمر خطير جدًّا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ونقدِّم قبل ذلك ذكر النهى عن الغلوّ، وتعدِّي الحدود، والإسراف)**، أخطر شيء على الناس: الغلو، وهو التشدد في الدين.

وهذا طريق الخوارج الذين وصفهم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «**يَقْتُلُونَ أَهْلَ الْإِيمَانِ، وَيَدَعُونَ أَهْلَ الْأَوْثَانِ**»، فالخوارج إنما يقاتلون المسلمين، لم يعرف عنهم أنهم قاتلوا الكفار أبدًا، وإنما يقاتلون المسلمين؛ لأنهم يرون أن المسلمين كفار -والعياذ بالله- فيقاتلونهم، يقول الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَقْتُلُونَ أَهْلَ الْإِيمَانِ وَيَدَعُونَ أَهْلَ الْأَوْثَانِ، لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ**»[1].

ولذلك يجب قتال الخوارج؛ للقضاء على فتنتهم، وشرهم، وقبل ذلك التحذير منهم، وبيان ضلالهم، فهم أخطر على الأمة من غيرهم؛ لأنهم يدَّعون الدين، ويدعون الإيمان، ويصومون ويصلون.

بل ربما أكثر صلاة وتلاوة للقرآن من أهل السنة، حتى إنهم ظهر هذا عليهم، على جباههم وعلى سماتهم أنهم أهل قرآن، وأهل صلاة، وأهل صلاة بالليل، وأهل صيام، لكنهم على غير طريق صحيح، نسأل الله العافية.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٤، ٧٤٣٢)، ومسلم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخُدْري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

يقابلهم أهل التساهل والانحلال والانفلات.

فلا نجاة إلا من الطريق الوسط المعتدل، وهذا يحتاج إلى نية صالحة، ويحتاج إلى علم نافع، ويحتاج إلى ملازمة للعقيدة الصحيحة، دراستها دراسة على العلماء.

وأقرب شيء عقيدة شيخ الإسلام ابن تيمية التي بين أيدينا التي هي مقرَّرة في المدارس في الثانوي وفي المتوسط، هي مختصرة، وأيضًا هي شاملة لمعتقد أهل السنة والجماعة؛ فعلينا أن نعتني بها، وأن نفهمها، وأن نحرص على نشرها؛ لكي تقضي على هذه الفتن والشرور.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وأن الاقتصاد والاعتصام بالسنة عليهما مدار الدين)**، الاقتصاد: هو الاعتدال فلا غلو ولا جفاء، لا غلو مع الخوارج، ولا جفاء مع المنحرفين، هذا التوسط.

هذا هو طريق النجاة الذي عليه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وعليه علماء الأمَّة المعتدلون، هذا يحتاج إلى عناية ودراسة وفَهمٍ.

فالعقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيميَّةَ عقيدة مختصرة وشاملة لكل مطلوب في الاعتقاد؛ فعلينا أن نعتني بها، وأن ندرسها على العلماء.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ [النساء:١٧١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [الأنعام:١٤١].

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**قال تعالى**: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ [النساء:١٧١])، ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: يعني النصارى هم أهل الغلو؛ غلوا في المسيح عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، رسول الله غلوا فيه؛ فمنهم مَن يعتقد أنه الله.

العقيدة الواسطية هي عقيدة مختصرة وشاملة لأبواب الاعتقاد، إذا فهِمتَها ودرستها ففيها خيرٌ كثير.

فالطريق واضح -ولله الحمد- لِمَن يريده، فتترك طريق الخوارج والغلاة، وتترك طريق المنحلين والمتساهلين، وتلزم الوسط، هذا هو طريق النجاة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**قال تعالى**: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ [النساء:١٧١])، ﴿لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾؛ لأنهم غلوا في المسيح حتى قالوا: إنه الله، أو هو ابن الله، أو ثالث ثلاثة -والعياذ بالله-!

غلَوْا في المسيح، والمسيح؛ ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُ﴾ [النساء:١٧١]، ﴿لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡ﴾ [النساء:١٧١]. هذا الذي وجَّهه الله لغلاة أهل الكتاب، وهم النصارى.

النصارى غالون، واليهود متساهلون في دينهم، هم أهل كتاب، لكن لم يتمسكوا بكتاب ربهم، هؤلاء جفوا وتساهلوا، وهؤلاء غلوا وتشددوا، فالطريق الصحيح هو الطريق الوسط المعتدل الذي بين الغالي والجافي.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وقال تعالى**: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام:١٤١])، ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾.

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾: يعني عند كل صلاة.

والمراد ستر العورات، ستر العورة في الصلاة شرطٌ من شروط صحة الصلاة، ستر العورة؛ لأنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة في الجاهلية، ويقولون: هذا دين، لا نطوف في ثياب عصينا الله فيها، فيخلعون ثيابهم! نسأل الله العافية.

يطوفون بالبيت عراة(١)، قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ﴾ أي: استروا عورتكم.

﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾: عند الصلاة.

﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ﴾: ﴿لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ﴾ [المائدة:٨٧]: لا تعتدوا ولا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم، لا تتشددوا ولا تتعدوا الحلال إلى الحرام، بل الزموا الطريق الصحيح.

﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾: لا تسرف في الأكل والشرب، الإسراف محرَّم، اعتدل في أكلك وشربك، طريق الاعتدال هو الطريق الصحيح، فلا بخل ولا إسراف.

---

(١) سبق تخريجه في المجلد الأول (ص٥٠١).

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾: هذا هو البخل.

﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ [الإسراء:٢٩]: هذا هو الإسراف، توسط في الإنفاق.

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾: هذه صفة عباد الرحمن أنهم لا يسرفون ولا يبخلون، بل يتوسطون؛ ﴿إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ ﴾: يعني لم يبخلوا.

﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان:٦٧]: طريق الاعتدال في كل شيء، هذا هو الطريق الصحيح.

وقال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة:٢٢٩]، وقال تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف:٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة:١٩٠].

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة:٢٢٩])، ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾: الحلال، إذا جاء الحلال قال: لا تعتدوه، وإذا جاء الحرام قال: لا تقربوه؛ ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة:١٨٧]: هذه المحرمات لا تقربها، أما الحلال فلا تتعداه، كف عند حده.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف:٥٥])، المعتدين: يعني في الدعاء الذين يدعون على الناس من غير حق؛ يدعو على الناس من غير حق، يعتدي في دعائه هذا لا يجوز.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة١٩٠])، ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟﴾: في أي شيء، الاعتداء في كل شيء ومنه الدعاء، لا تعتدي في دعائك؛ تدعو على أحد لا يستحق أن تدعو عليه، تظلمه بذلك.

وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: غَدَاةَ الْعَقَبَةِ وَهُوَ عَلَى نَاقَتِهِ: الْقُطْ لِي حَصًى، فَلَقَطْتُ لَهُ سَبْعَ حَصَيَاتٍ من حَصَى الْخَذْفِ، فَجَعَلَ ينفُضُهُنّ فِي كَفِّهِ وَيَقُولُ: أَمْثَالَ هَؤُلَاءِ فَارْمُوا. ثُمَّ قَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ؛ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمُ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ»، رواه الإمام أحمد، والنسائي[1].

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**وقال ابن عباس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: **قال رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **غَدَاة العَقَبَة وهو على ناقته: الْقُطْ لي حَصًى، فلقطتُ له سبع حصياتٍ**)، الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما حج، ودفع من المزدلفة إلى منى بعد طلوع الشمس.

وفي الطريق أمر الفضل بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وكان رديفه على الراحلة، قال له: «**الْقُطْ لِي حَصًى**»، حَصَى الجمرة، فلقط له سبع حصيات، فأخذها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجعل ينفخ فيها ويقول: «**أَمْثَالَ هَـؤُلَاءِ، فَارْمُوا، وَإِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ؛ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ**».

بأمثال هؤلاء الحصيات، حصيات صغيرة، حصى الخذف، لا تلتقط حصى كبيرة وتقول هذا أبلغ في الطاعة وهذا أحسن من الصغير، الصغير هذا لا يفعل شيئًا، هذا لا يجوز، هذا غلو، عليك بالقصد والسنة ففيها الخير، وفيها الهداية، إياك والغلو، وإياك والتساهل.

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٥٠، ٣٥١) و(٥/ ٢٩٨)، والنسائي (٣٠٥٧، ٣٠٥٩)، وابن ماجه (٣٠٢٩)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال ابن عباس)**، ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا يعني الفضل ليس عبد الله، الفضل بن العباس كان رديفه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولهذا العباس يكنى بأبي الفضل هو أكبر أولاده.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(لقطتُ له سبع حصياتٍ من حصى الخَذْف)**، حصى الخذف الذي يخذف على الأصابع.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ثم قال: «أيها الناس! إياكم والغلوَّ في الدين؛ فإنما أهلك الذين من قبلكم الغلوُّ في الدين»)**، ومن ذلك: الغلو في حصى الجمرات، الذي يقول: هؤلاء لا يفعلون شيئًا، هؤلاء صغار، ويحضر حصى كبار، هذا غلو -والعياذ بالله-.

وقال أنس: قال رسول الله ﷺ: «لَا تُشَدِّدُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَيُشَدِّدَ اللهُ عَلَيْكُمْ؛ فَإِنَّ قَوْمًا شَدَّدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ فَشَدَّدَ اللهُ عَلَيْهِمْ، فَتِلْكَ بَقَايَاهُمْ فِي الصَّوَامِعِ وَالدِّيَارِ، ﴿وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ﴾»[1].

فنهى ﷺ عن التشدُّد في الدين، وذلك بالزيادة على المشروع، وأخبر أن تشديد العبد على نفسه هو السبب لتشديد الله عليه؛ إما بالقَدَر، وإما بالشرع.

فالتشديد بالشرع: كما يشدد على نفسه بالنذر الثقيل، فيلزمه الوفاء به.

وبالقَدر: كفعل أهل الوسواس، فإنهم شددوا على أنفسهم؛ فشدد عليهم القَدر، حتى استحكم ذلك، وصار صفة لازمة لهم.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال أنس: قال رسول الله ﷺ: «لا تُشدّدوا على أنفسكم فيشدِّد الله عليكم؛ فإن قومًا شددوا على أنفسهم؛ فشدد الله عليهم، فتلك بقاياهم في الصوامع والديار، ﴿وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ﴾»)، هؤلاء النصارى تشددوا وأحدثوا الرهبانية.

﴿وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا﴾ [الحديد:٢٧]: ابتدعوها من عندهم.

﴿مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ﴾ لم يفرضها الله عليهم، لكن هم فعلوها ﴿ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ﴾، نيتهم صالحة، لكن لا تكفي النية، لابد من اتباع الطريق الصحيح.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٠٤) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد:٢٧]. هذه العادة أن الإنسان إذا تشدد أنه ينحل ولا يصبر، لكن المعتدل هو الذي يصبر ويثبت، أما المتشدد فهو قريب مِن الانحراف ويمل من التشدد وينحرف -والعياذ بالله-.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وأخبر أن تشديد العبد على نفسه هو السبب لتشديد الله عليه)**، يعاقبه الله فيشدد عليه، فبنو إسرائيل لما أمرهم الله بذبح البقرة لو أنهم جاءوا ببقرة وذبحوها كفت، لكنهم صاروا يسألون: ما هي؟ ما لونها؟ ما كذا وكذا؟ تشددوا فشدد الله عليهم، ولولا أنهم قالوا: ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة:٧٠]. لم يهتدوا أبدًا -والعياذ بالله-، ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [البقرة:٧١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةً﴾ [البقرة:٦٧]؛ لأنهم قتلوا قتيلًا، ولا يدرى مَن قتله، لا يدرى مَن قاتل هذا القتيل، فالله جَلَّوَعَلَا أمرهم أن يذبحوا بقرة وأن يضربوه ببعضها، يأخذوا جزءًا منها ويضربوا به القتيل فيخبرهم مَن الذي قتله، معجزة من معجزات الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ [البقرة:٧٣]. فلما ضربوه أحياه الله، وقال: قتلني فلان.

﴿فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة:٧٣]، فهم شددوا في البقرة، ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ [البقرة:٦٨]. ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَا﴾ [البقرة:٦٩].

﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا﴾ [البقرة:٧٠].

فلو أنهم ذبحوها من أول ما أمرهم الله اذبحوا بقرة أجزأتهم، لكن شددوا، فشدد الله عليهم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وأخبر أن تشديد العبد على نفسه هو السبب لتشديد الله عليه؛ إما بالقَدَر، وإما بالشرع)**، إما بالقدر؛ بأن يقدر الله عليه أمرًا شديدًا.

وإما بالشرع؛ بأن يأمره بأمر لا يستطيعه أو يشق عليه، يشرع له شيئًا شاقًّا عليه عقوبةً له، مثلما شدد الله على بني إسرائيل في اللحوم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فالتشديد بالشرع: كما يشدد على نفسه بالنذر الثقيل، فيلزمه الوفاء به)**، مثلما لو ينذر، مثل يصوم الدهر يعني السنة كلها، أو يصوم أشهر فهذا شدد على نفسه، وشدد الله عليه بأن ألزمه بالنذر.

«**مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ**»(١): ولو كان النذر ثقيلاً؛ لأنه هو الذي ألزم نفسه به، فشدد الله عليه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وبالقَدر: كفعل أهل الوسواس، فإنهم شددوا على أنفسهم؛ فشدد عليهم القَدر، حتى استحكم ذلك، وصار صفة لازمة لهم)**، ولذلك الموسوس تجده يتكلف، يتكلف في الطهارة، يتكلف في العبادة؛ لأنه يرى أنها غير مجزئة، فيشدد الله عليه عقوبة له.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٩٦) من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

قال البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وكره أهل العلم الإسراف فيه -يعني: الوضوءَ- وأن يجاوزوا فعل النبي** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»(١).

وقال ابن عمر: «إسباغ الوضوء: الإنقاء»(٢)، فالفقه كلُّ الفقه: الاقتصاد في الدين، والاعتصام بالسّنّة.

قال أُبَيُّ بن كَعْب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**عليكم بالسبيل والسنة؛ فإنه ما من عبد على السبيل والسنة، ذكر الله فاقشعرَّ جلدُه من خشية الله؛ إلا تحاتَّتْ عنه خطاياه كما يَتحاتُ عن الشجرة اليابسة وَرَقُها، وإنَّ اقتصادًا في سبيلٍ وسنةٍ، خيرٌ من اجتهادٍ في خلاف سبيل وسنة، فاحرصوا إذا كانت أعمالكم اقتصادًا أن تكون على منهاج الأنبياء وسنتهم**»(٣).

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**قال البخاري** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وكره أهل العلم الإسراف فيه -يعني: الوضوءَ-، وأن يجاوزوا فعل النبي** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»)، كره النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الإسراف في الوضوء.

توضأ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأرانا كيفية الوضوء، فيجب أن نقف عند ذلك: المضمضة، والاستنشاق، وغسل الوجه، وغسل اليدين مع المرفقين،

---

(١) انظر: صحيح البخاري (١/ ٣٩).

(٢) ذكره البخاري في صحيحه (١/ ٤٠) تعليقًا.

(٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق (٢/ ٢١، ٢٢)، ومن طريقه أبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ٢٥٢، ٢٥٣).

وغسل الرجلين مرة مرة[١]، أو اثنتين اثنتين[٢]، أو ثلاثًا ثلاثًا[٣]، ولا يزاد على ثلاث، الزيادة على الثلاث بدعة أما الثلاث فهي فضيلة وسنة، وأما الواحدة فهي مجزئة، الغسلة الواحدة مجزئة كافية، لكن إذا كان يزيد إلى ثلاث فقط لا يزيد عليها.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال ابن عمر: «إسباغ الوضوء: الإنقاء»)**، الإنقاء، إسباغ الضوء: إنقاء الوضوء، يعني تعميمه بالغسل، تعميم العضو بالغسل بحيث لا يبقى منه شيء، لا يجري عليه الماء، الواجب مرة واحدة، والسنة من اثنتين إلى ثلاث ولا يزيد الرابعة، الرابعة بدعة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فالفقه كلُّ الفقه: الاقتصاد في الدين، والاعتصام بالسّنّة)**، الفقه كل الفقه: يعني الفهم الصحيح هو الاقتصاد في الدين، فالاقتصاد: عدم الغلو، وعدم التشدد.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(الاقتصاد في الدين)**، الاقتصاد في الدين، يعني عدم الغلو، والعمل بالسنة الواردة عن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا هو الطريق الصحيح.

أما الاجتهادات والتشددات؛ فهذه لم يأمر الله بها ولا يرضاها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقد يعاقب مَن يفعلها بأن يشدد الله عليه، من شدد شدد الله عليه قدرًا أو شرعًا.

---

(١) سبق تخريجه (ص٢٢١).

(٢) سبق تخريجه (ص٢٢١).

(٣) سبق تخريجه (ص٢٢١).

قوله: (وإنَّ اقتصادًا في سبيلٍ وسنةٍ خيرٌ من اجتهادٍ في خلاف سبيل وسنة)، هذه حكمة: اقتصاد في سنة، خير من اجتهاد في بدعة.

انظر! اقتصاد في سنة يعني الاعتدال وعدم الإسراف، خير من اجتهاد في بدعة؛ لأن كل بدعة ضلالة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فاحرصوا إذا كانت أعمالكم اقتصادًا أن تكون على منهاج الأنبياء وسنتهم)**، فيها الخير، الاقتداء بالأنبياء هو الخير والصلاح، ولا تقول: هذا قليل.

قال الشيخ أبو محمد المقدسي في كتابه «ذم الوسواس»[(١)]: الحمد لله الذي هدانا بنعمته، وشرَّفنا بمحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبرسالته، ووفَّقنا للاقتداء به والتمسك بسنَّته، ومَنَّ علينا باتِّباعه الذي جعله عَلَمًا على محبته ومغفرته، وسببًا لكتابة رحمته وحصول هدايته، فقال سبحانه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران:٣١]، وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، إلى قوله: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾.

ثم قال: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف:١٥٨].

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (قال الشيخ أبو محمد المقدسي)، الموفق ابن قدامة، أبو محمد هو الموفق ابن قدامة صاحب المغني.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (في كتابه «ذم الوسواس»)، كتاب «ذم الوسواس» لابن قدامة، مطبوع وموجود.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فقال سبحانه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران:٣١])، ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾: يقول الله جَلَّ وَعَلَا لنبيه محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قل يا محمد! ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ

---

(١) طبع الكتاب أكثر من مرة، وقد نقل المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ أكثره، من هنا حتى (ص٦٢١)، وعلق تعليقات يسيرة في تضاعيف نقله، صدرها بقوله: (قلت).

وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران:٣١-٣٢]. فالذي يحب الله يقتدي برسوله ﷺ ويتبع الرسول ﷺ.

أما الذي يقول: أنا أحب الله، ولكن يتبع الشيخ الفلاني رئيس الطريقة الفلانية، هذا من أهل الضلال ليس من أهل السنة.

السنة أن يكون قدوتك رسول الله ﷺ، ولا يكون قدوتك الشيخ الفلاني أو العالم الفلاني.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (ثم قال: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف:١٥٨])، ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف:١٥٨]. فالذي يريد الهداية يتبع هذا الرسول ﷺ ويقتدي به؛ لأن الله بعثه للناس كافة.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف:١٥٨].

وفي الآية الأخرى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف:٢٠٤].

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾: فالذي يريد الرحمة ويريد الاهتداء يتبع هذا الرسول ﷺ ولا يتبع فلانًا وعلانًا.

نعم، من اتبع الرسول من العلماء فإنه يقتدى به، أما من خالف الرسول فلا يقتدى به ولو أظهر أنه من أهل الصلاح، وأنه من أهل الدين، المخالف للرسول لا ينظر إليه أبدًا ولا يعتبر.

أما بعدُ، فإن الله سبحانه جعل الشيطان عدوًّا للإنسان، يقعد له الصراط المستقيم، ويأتيه من كل جهة وسبيل. كما أخبر الله تعالى عنه أنه قال: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف:١٦، ١٧].

وحذَّرنا الله تعالى من متابعته، وأمرنا بمعاداته ومخالفته، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر:٦]، وقال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف:٢٧].

وأخبرنا بما صنع بأبوينا تحذيرًا لنا من طاعته، وقطعًا للعذر في متابعته، وأمرنا الله باتباع صراطه المستقيم، ونهانا عن اتباع السُّبل، فقال سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام:١٥٣].

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(أما بعد)**، يقول ابن قدامة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(أما بعد، فإن الله سبحانه جعل الشيطان عدوًّا للإنسان، يقعد له الصراط المستقيم، ويأتيه من كل جهة وسبيل)، ﴿لَأَقْعُدَنَّ﴾** [الأعراف:١٦].

هو قال: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف:١٦-١٧].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(كما أخبر الله تعالى عنه أنه قال:** ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾**)**، ليقعدن صراطه المستقيم ليصرفهم عنه، ليصرفهم عن صراط الله المستقيم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال تعالى:** ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف:٢٧]**)**، أخرج آدم وحواء من الجنة لما زين لهما الأكل من الشجرة فأكلا منها والله نهاهما عن ذلك؛ ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الأعراف:١٩-٢٠].

وزين لهما الشجرة، ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ﴾ [الأعراف:٢٠-٢١]، حلف لهما.

﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف:٢١-٢٢]. دلاهما على الشجرة وأكلا منها بغرور - والعياذ بالله - غرهم الشيطان، فكانت النتيجة أن الله أخرج آدم وحواء وأهبطهما إلى الأرض.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وأخبرنا بما صنع بأبوينا تحذيرًا لنا من طاعته)**، ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف:٢٧]: احذروا منه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فقال سبحانه:** ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣]**)**، انظر! السبل كثيرة ليس لها حصر، وأما صراط الله فهو واحد.

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام:١٥٣].

وهي الطرق الكثيرة على كل طريق منها شيطان يدعو إليه، فمن خرج عن الصراط المستقيم وقع في الطرق المنحرفة.

وسبيل الله وصراطه المستقيم: هو الذي كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته، بدليل قوله عَزَّوَجَلَّ: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يس:١-٤]، وقال: ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج:٦٧]، وقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:٥٢]، فمن اتَّبع رسول الله ﷺ في قوله وفعله فهو على صراط الله المستقيم، وهو ممن يحبه الله ويغفر له ذنوبه، ومن خالفه في قوله أو فعله فهو مبتدع، متبع لسبيل الشيطان، غير داخل فيمن وعد الله بالمحبة والمغفرة والإحسان.

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**بدليل قوله** عَزَّوَجَلَّ: **بسم الله الرحمن الرحيم**: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يس:١-٤])، الرسول على صراط مستقيم، وهو صراط الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

أقسم الله سبحانه أن الرسول على صراط مستقيم، وعلى طريق واضح، وهو أصدق القائلين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وقال**: ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج:٦٧])، ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج:٦٧]. هدى: يعني: طريق صحيح.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وقال**: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:٥٢])، ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:٥٢]. تهدي: يعني تدل، هداية الدلالة، أما هداية التوفيق فلا يقدر عليها إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لكن

هداية الدلالة والتعليم يقدر عليها الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويقدر عليها أتباع الرسول.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فمن اتَّبع رسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **في قوله وفعله فهو على صراط الله المستقيم، وهو ممن يحبه الله ويغفر له ذنوبه)،** ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران:٣١].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومن خالفه في قوله أو فعله فهو مبتدع، متبع لسبيل الشيطان)،** من خالف الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهو مبتدع، مخالف لهدي الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(غير داخل فيمن وعد الله بالمحبة والمغفرة والإحسان)،** الله وعد من اتبع الرسول بأن يحبه الله، فمن خالف الرسول، فإنه غير موعود بمحبة الله، بل ببغض الله له.

فصل

ثم إن طائفة الموسوسين قد تحقق منهم طاعة الشيطان، حتى اتصفوا بوسوسته، وقبلوا قوله وأطاعوه، ورغبوا عن اتباع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **وصحابته.**

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: **(ثم إن طائفة الموسوسين قد تحقق منهم طاعة الشيطان، حتى اتصفوا بوسوسته، وقبلوا قوله وأطاعوه)**، الوسوسة من كيد الشيطان ببني آدم، فيوسوس لهم أشياء ليصدهم عن العمل بالسنة؛ ولهذا سماه الله بالوسواس، وشرع الاستعاذة منه، وأنزل في ذلك سورة في آخر القرآن، وهي قوله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ﴾: الذي هو الشيطان.

﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾: يوسوس إذا غفل المسلم عن ذكر الله، وينخس ويتأخر إذا ذكر المسلم ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس:١-٦]: يوسوس للمسلمين سواء كانوا من الجن أو من بني آدم، هذه مهمته.

فإذا استعاذ المسلم بالله عَزَّ وَجَلَّ أعاذه منه وطرده عنه، ولهذا شرع سبحانه الاستعاذة به عند تلاوة القرآن.

قال جَلَّوَعَلَا: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾: يعني إذا أردت قراءته.

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [النحل:٩٨]؛ لأنه يحضر عندما يريد المسلم أن يقرأ القرآن ليشوش عليه قراءته، وليحول بينه وبين التدبر، فإذا استعاذ بالله عند بداية القراءة، فإن الشيطان يتأخر، ويسلم المسلم من شره.

كذلك في الاستفتاح في الصلاة، من الاستفتاح وقبل القراءة: الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم؛ لئلا يوسوس له في صلاته ويشغله عنها.

فالاستعاذة بالله حصن حصين يلجأ إليه المسلم من هذا العدو، ويتحصن به من كيد هذا الشيطان.

وإذا غضب المسلم فإنه يستعيذ من الشيطان، فيذهب عنه، ويذهب عنه الغضب؛ رأى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجلًا قد غضِب حتى احمر وجهه، وانتفخت أوداجه من شدة الغضب، بسبب ملاحاة بينه وبين أخيه، فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**»[1]، فذهبوا إلى ذلك الرجل وأخبروه بقول الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**»، فذهب عنه الغضب.

❖ ❖ ❖

(١) أخرجه البخاري (٣٢٨٢)، ومسلم (٢٦١٠) من حديث سليمان بن صُرَد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

حتى إن أحدهم ليرى أنه إذا توضأ وضوء رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو صلى كصلاته، فوضوؤه باطل، وصلاته غير صحيحة. ويرى أنه إذا فعل مثل فعل رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مؤاكلة الصبيان، وأكل طعام عامة المسلمين: أنه قد صار نجسًا، يجب عليه تسبيع يده وفيه، كما لو ولَغ فيهما كلب، أو بال عليهما هِرّ.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(حتى إن أحدهم ليرى أنه إذا توضأ وضوء رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو صلى كصلاته، فوضوؤه باطل، وصلاته غير صحيحة)**، يزهد في السنة واتباع الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويرى أنه لو توضأ وضوء الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يجزه، ويسرف في الوضوء.

الرسول اقتصد في الوضوء، وحث على الاقتصاد في الوضوء، ونهى عن الإسراف في الماء؛ لأن الإسراف من الشيطان، فالشيطان يزين له أن وضوء الرسول لا يكفي، وأنه هذا لا يطهر الإنسان، فيذهب ويصب الماء بكثرة ولا يكتفي بالماء القليل، هذا عند الموسوسين يسرفون مياهًا كثيرة؛ بسبب وسوسة الشيطان، نسأل الله العافية.

الصلاة: يزهدهم في صلاة الرسول، ويقول: إنها لا تجزئ ويحثهم على صلاة يخترعها لهم، ويزينها لهم، ويقول هذه هي الصلاة، وهكذا الموسوسون في كل زمان ومكان.

الوسوسة مرض خطير، ولا يشفي منه إلا الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم عند بداية الأمور.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ويرى أنه إذا فعل مثل فعل رسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **في مؤاكلة الصبيان، وأكل طعام عامة المسلمين: أنه قد صار نجسًا، يجب عليه تسبيع يده وفمه)**، النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يأكل مع الصبيان، فكان الصبي يأكل مع الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويقول له: «**يا غُلَامُ، سَمِّ اللهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ**»(١). يعلم الصبيان؛ كابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا وغيره.

الشيطان يرى أن هذا يحط من قدر الإنسان، الإنسان إذا صار مع الصبيان ويأكل معهم، فإن ذلك يحط من قدره وترفعه، فيزين له هذا العمل الذي هو الترفع والتكبر عن الصبيان.

❖ ❖ ❖

(١) أخرجه البخاري (٥٣٧٦)، ومسلم (٢٠٢٢) من حديث عُمرَ بن أبي سلَمةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ثم إنه بلغ من استيلاء إبليس عليهم أنهم أجابوه إلى ما يشبه الجنون، ويقارب مذهب السوفسطائية الذين ينكرون حقائق الموجودات، والأمور المحسوسات، وعلم الإنسان بحال نفسه من الأمور الضروريات اليقينيات، وهؤلاء يغسل أحدهم عضوه غَسْلًا يشاهده ببصره، ويكبِّر ويقرأ بلسانه، بحيث تسمعه أذناه ويعلمه بقلبه، بل يعلمه غيره منه ويتيقنه، ثم يشك هل فعل ذلك أم لا؟

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ثم إنه بلغ من استيلاء إبليس عليهم أنهم أجابوه إلى ما يشبه الجنون)**، من استيلاء إبليس على الموسوسين: أنهم أجابوه في أمور تشبه الجنون، لكنه يحسنها لهم، ويزينها لهم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ويقارب مذهب السوفسطائية)**، السوفسطائية: هؤلاء جماعة من الفلاسفة ليسوا على مذهب الأنبياء ولا مذهب المسلمين، بل هم يأخذون الفلسفة طريقًا لهم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ويقارب مذهب السوفسطائية الذين ينكرون حقائق الموجودات والأمور المحسوسات)**، يقولون: إنه ليس هناك شيء حقيقي، الناس هؤلاء ليسوا بحقيقيين، والسموات هذه ليست بحقيقة! ليس عندهم شيء حقيقي، يزين لهم الشيطان هذه الأمور.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهؤلاء يغسل أحدهم عضوه غَسْلًا يشاهده ببصره)**، وهؤلاء: الموسوسين يعني.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهؤلاء يغسل أحدهم عضوه غَسْلًا يشاهده ببصره، ويكبِّر ويقرأ بلسانه، بحيث تسمعه أذناه ويعلمه بقلبه، بل يعلمه غيره منه ويتيقنه، ثم يشك هل فعل ذلك أم لا؟)**، بعد أن يفرغ من العمل يشك في عمله: هل فعله أو لا؟ ويشك هل هو عمل صحيح أو غير صحيح؟ هو دائمًا يتخبط؛ يتوضأ ثم يرجع يتوضأ، يصلي، ثم يرجع يصلي، وهكذا الشيطان يتلاعب به.

وكذلك يشككه الشيطان في نيته وقصده التي يعلمها من نفسه يقينًا، بل يعلمها غيره منه بقرائن أحواله، ومع هذا يقبل قول إبليس في أنه ما نوى الصلاة ولا أرادها؛ مكابرةً منه لعِيانها، وجحدًا ليقين نفسه، حتى تراه متلدِّدًا متحيرًا؛ كأنه يعالج شيئًا يجتذبه، أو يجد شيئًا في باطنه يستخرجه.

كل ذلك مبالغة في طاعة إبليس، وقبول من وسوسته، ومن انتهت طاعته لإبليس إلى هذا الحد فقد بلغ النهاية في طاعته.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وكذلك يشككه الشيطان في نيته وقصده)**، النية أيضًا، النية: هي القصد، والأعمال بالنيات كما قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فإذا أردت العمل تنوي العمل بقلبك، النية محلها القلب، والتلفظ بها بدعة؛ تنوي بقلبك: الصلاة، الوضوء، أي عمل تنويه، أي عبادة تنويها بقلبك، هذا ما جاء به الشرع المطهر.

يشكك في النية، يأتيه الشيطان ويشككه في النية؛ بعد أن يكبر ويصلي، يوسوس له: أنت لم تَنْوِ، فيرجع ويكبر ثانيًا، وهكذا! إذا صلى يوسوس له قائلًا: أنت لم تُصَلِّ، صلاتك ليست بصحيحة، ثم يرجع فيصلي! إذا توضأ يوسوس له قائلًا: أنت لم تتوضأ، فيرجع يتوضأ! وهكذا، يتلاعب الشيطان به.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وكذلك يشككه الشيطان في نيته وقصده التي يعلمها من نفسه يقينًا، بل يعلمها غيره منه بقرائن أحواله)**، النية: هي القصد، وهي

عمل قلبي لا يعلمها الناس، عمل قلبي لا يعلم النيات إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لا يعلم المقاصد إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فالإنسان إذا قام يتوضأ فقد نوى، لو لم ينوِ لم يقم ليتوضأ، إذا جاء إلى الصلاة فقد نوى الصلاة، يقول له: لا، أنت لم تنوِ، ولابد أن تقول هكذا، ولابد أن تفعل هكذا.

مجيئك للصلاة ووقوفك أمام الله هذه نية الصلاة، نويت الصلاة، يقول: لا، لم تَنْوِ، ثم يوسوس له وينقض عمله، ويعيده من جديد، نسأل الله العافية.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومع هذا يقبل قول إبليس في أنه ما نوى الصلاة ولا أرادها؛ مكابرةً منه لعِيانها، وجحدًا ليقين نفسه)**، ثم الإنسان يصدق إبليس في أنه لم يَنوِ الصلاة، بعد ما دخل الصلاة، يقول له: أنت لم تنوِ، لم تكبِّر تكبيرة الإحرام مع أنه قد كبَّر بالفعل، أنت لم تفعل هذا، وهكذا يتخبط به، نسأل الله العافية.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومن انتهت طاعته لإبليس إلى هذا الحد فقد بلغ النهاية في طاعته)**، مَن انتهى به الأمر إلى هذا الحد، وأنه يشك في أعماله وفي عباداته فقد بلغ مبلغًا من الوسوسة، وخطرًا لا يخرج منه إلا إذا استعاذ بالله من الشيطان، وترك الوساوس، وعزم على الطاعة واستمر.

ثم إنه يقبل قوله في تعذيب نفسه، ويطيعه في الإضرار بجسده، تارة بالغوص في الماء البارد، وتارة بكثرة استعماله وإطالة العَرْك، وربما فتح عينيه في الماء البارد، وغسل داخلهما حتى يضر ببصره. وربما أفضى إلى كشف عورته للناس، وربما صار إلى حال تسخر منه الصبيان، ويستهزئ به من يراه.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وربما فتح عينيه في الماء البارد، وغسل داخلهما حتى يضر ببصره)، حتى العينين؛ يقول له: أنت لم تغسلهما، فيدخل الماء في عيونه حتى يصاب، ربما يصاب بالعمى بسبب الوسوسة.

كذلك الماء، يقول له: الماء الساخن هذا لا يصلح، ويقول له: البارد هو الذي يصلح للعبادة، فيعذبه بالماء البارد، والعياذ بالله.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وربما أفضى إلى كشف عورته للناس)، ربما أنه يلقي ثيابه، ويشك في ثيابه وأنها نجسة، وأنها كذا فيتعرى عند الناس.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وربما صار إلى حال تسخر منه الصبيان، ويستهزئ به من يراه)، نسأل الله العافية، إذا استرسل مع الشيطان وصل إلى هذا الحد، لو استعاذ بالله من الشيطان لكفاه الله واستراح.

قلت: وذكر أبو الفرج ابن الجوزي عن أبى الوفاء ابن عَقِيل أن رجلًا قال له: أَنغَمِسُ في الماء مرارًا كثيرة، وأشكّ هل صح لي الغسل أم لا؟ فما ترى في ذلك؟ فقال له الشيخ: اذهب؛ فقد سقطت عنك الصلاة، قال: وكيف؟ قال: لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «رُفِعَ القَلَمُ عَنْ ثَلاثَةٍ: المَجْنُونِ حَتَّى يُفِيقَ، وَالنَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَالصَّبِيِّ حَتَّى يَبْلُغَ»[(١)]. ومن ينغمس في الماء مرارًا ويشك هل أصابه الماء أم لا؟ فهو مجنون[(٢)].

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قلت: وذكر أبو الفرج ابن الجوزي)**، قلت: يعني ابن القيم يقول: (قلت)، يعني: نفسه، ينقل عن ابن الجوزي.

ابن الجوزي: إمام جليل، من أئمة الحنابلة في التفسير وفي الحديث وفي الفقه، له مؤلفات كثيرة وعظيمة، هذا ابن الجوزي.

وابن القيم: قَيِّم الجَوزية، الجوزية: مدرسة أسسها سِبط ابن الجوزي، نُسبت إليه، يقال: المدرسة الجوزية.

وأبو الشيخ ابن القيم هو قيِّم هذه المدرسة، هو الوكيل عليها مديرها مثلًا، سُمِّيَ قَيِّمَ الجوزية، المدرسة الجوزية.

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٥٤)، وأبو داود (٤٤٠٢)، والترمذي (١٤٢٣)، وابن ماجه (٢٠٤٢)، من حديث عليٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وعلَّقه البخاري في صحيحه (٧/ ٤٦) عن عليٍّ قوله موقوفًا. وأخرجه أحمد (٤١/ ٢٢٤)، وأبو داود (٤٣٩٨)، والنسائي (٣٤٣٢)، وابن ماجه (٢٠٤١)، من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

(٢) انظر: تلبيس إبليس (ص١٢٤).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(عن أبى الوفاء ابن عقيل)**، أبو الوفاء ابن عقيل: من كبار أئمة الحنابلة رَحِمَهُ ٱللَّهُ له كتاب «الفصول»، كتاب في الفقه(١).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(عن أبى الوفاء ابن عقيل أن رجلًا قال له: أَنغَمِسُ في الماء مرارًا كثيرة، وأشكّ هل صح لي الغسل أم لا؟)**، يقول لأبي الوفاء ابن عقيل، هذا الموسوس يقول: إني أنغمس في الماء عدة مرات، وأرى أني لم أطهر.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فقال له الشيخ: اذهب؛ فقد سقطت عنك الصلاة)**؛ لأنه سقطت عنه الصلاة بسبب أنه ليس عنده عقل، ينغمس في الماء عدة مرات، ويقول: لم أطهر، أين العقل إذًا؟!

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قال: لأن النبي** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قال: «رُفِعَ القَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ: المَجْنُونِ حَتَّى يُفِيقَ، وَالنَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَالصَّبِيِّ حَتَّى يَبْلُغَ»)**، يا له من جواب حاسم رَحِمَهُ ٱللَّهُ! يقول: سقطت عنك لماذا؟ صرت مجنونًا، المجنون ليس عليه تكليف.

---

(١) انظر ترجمة ابن عقيل في: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (١٧/ ١٧٩)، وسير أعلام النبلاء (١٩/ ٤٤٣)، والأعلام للزركلي (٤/ ٣١٣).

قال: وربما شغله بوسواسه حتى تفوته الجماعة، وربما فاته الوقت، ويشغله بوسوسته في النية حتى تفوته التكبيرة الأولى، وربما فَوَّت عليه ركعة أو أكثر، ومنهم من يحلف أنه لا يزيد على هذا، ثم يكذب.

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قال: وربما شغله بوسواسه حتى تفوته الجماعة)**، هذه المشكلة، ربما يشغل الإنسان عن الذهاب لصلاة الجماعة حتى تفوته الصلاة، وهو يقصد هذا، يقصد أن يفوت عليه صلاة الجماعة، وهو ينشغل بالطهارة، وبالأمور التي يرى أنه لم يفعلها وهو قد فعلها، لكن يوسوس له الشيطان.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وربما فاته الوقت)**، بل ربما يشغله عن الصلاة حتى يخرج الوقت، يخرج وقت الصلاة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ويشغله بوسوسته في النية حتى تفوته التكبيرة الأولى)**، أشد ما تكون الوسوسة في النية، والشيطان يقول له: أنت لم تنو، نيتك غير صحيحة، ثم يرجع، ثم يأتيه ويقول له لم تنو، وهكذا حتى يشغله بذلك.

النية: إذا قمت إلى العمل وتهيئت له فقد نويت، النية ليست بشيء قصد العمل والدخول فيه، هذه النية؛ من دخل في الصلاة فقد نوى، من توضأ فقد نوى الوضوء وهكذا، من اغتسل فقد نوى الاغتسال، يقول له: لا، لم تَنوِ، ثم يرجع من جديد.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وربما فوَّت عليه ركعة أو أكثر)**، إما أن يفوت عليه إدراك تكبيرة الإحرام أو إدراك الصلاة من أولها، أو يفوت عليه صلاة الجماعة كلها، أو ربما يفوت عليه الوقت بسبب الوسواس.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومنهم من يحلف أنه لا يزيد على هذا، ثم يكذب)**، يعني يكذب في يمينه، يخالف هذا.

يعني: إذا شق عليه الوسواس يحلف أنه لا يعيد الصلاة، أنه لا يعيد الوضوء، ثم يأتيه الشيطان ويخلف يمينه أيضًا، يحنث في يمينه.

قلت: وحكى لي من أثق به عن موسوس عظيم: رأيته -أنا يكرر عقد النية مرارًا عديدة، فيشق على المأمومين مشقة كبيرة. فعرض له أن حلف بالطلاق أنه لا يزيد على تلك المرة، فلم يدعه إبليس حتى زاد، ففرق بينه وبين امرأته، فأصابه لذلك غمّ شديد، وأقاما متفرقين دهرًا طويلًا، حتى تزوجت تلك المرأة برجل آخر، وجاءه منها ولد، ثم إنه حنث في يمين حلفها، ففُرِقَ بينهما، ورُدَّتْ إلى الأول بعد أن كاد يَتْلَف لمفارقتها.

وبلغني عن آخر: أَنَّه كان شديد التنطع في التلفظ بالنية، والتقعُّر في ذلك، فاشتد به التنطع والتقعر يومًا إلى أن قال: أصلي، أصلي -مرارًا- صلاة كذا وكذا. وأراد أن يقول: أداء، فأعجم الدال، وقال: أذاءً لله، فقطع الصلاة رجل إلى جانبه، فقال: ولرسوله وملائكته وجماعة المصلين.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قلت: وحكى لي من أثق به عن موسوس عظيم: رأيته -أنا يكرر عقد النية مرارًا عديدة، فيشق على المأمومين مشقة كبيرة، فعرض له أن حلف بالطلاق أنه لا يزيد على تلك المرة، فلم يدعه إبليس حتى زاد، ففرق بينه وبين امرأته)، وهذا تلاعب الشيطان ببني آدم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وبلغني عن آخر: أَنَّه كان شديد التنطع في التلفظ بالنية، والتقعُّر في ذلك، فاشتد به التنطع والتقعر يومًا إلى أن قال: أصلي، أصلي -مرارًا- صلاة كذا وكذا)، إذا أراد واحد من الموسوسين أن يصلي يقول:

اللهم إني نويت أن أصلي صلاة الظهر أربع ركعات أداءً خلف هذا الإمام، يخرج عنه الوقت، لو أنه من الأول كبر ودخل في الصلاة لاستراح.

لكن الشيطان، وهذا يوجد كثيرًا في متأخري بعض أصحاب المذاهب: نويت أن أصلي الظهر أربع ركعات أداءً لله خلف هذا الإمام!

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فقطع الصلاة رجل إلى جانبه، فقال: ولرسوله وملائكته وجماعة المصلين)**، يعني أداءً لله وأداء لرسوله ولجماعة المسلمين، ينكر عليه هذا الشيخ.

قال: ومنهم من يتوسوس في إخراج الحرف، حتى يكرره مرارًا.

قال: فرأيت منهم من يقول: الله أكككبر.

قال: وقال لي إنسان منهم: قد عجزتُ عن قول: «السلام عليكم»، فقلت له: قل مثل ما قد قلت الآن، وقد استرحتَ.

وقد بلغ الشيطان منهم أنْ عَذَّبهم في الدنيا والآخرة، وأخرجهم عن اتباع الرسول، وأدخلهم في جملة أهل التنطع والغلو، وهم يحسبون أنهم يُحسِنون صنعًا.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قال: ومنهم من يتوسوس في إخراج الحرف، حتى يكرره مرارًا)، يعني يتنطعون في مخارج الحروف: من الخيشوم، من الشفتين.

يا أخي! اقرأ ويكفي، لماذا تذهب إلى مخارج الحروف، وهذا من كذا، وذاك من كذا، هذا كله من التنطع.

المبالغة في أحكام التجويد من التنطع، القرآن ميسر، الله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر:١٧]. لماذا هذا التنطع في القراءات، وفي مخارج الحروف، وفي الغنة، وفي كذا وفي كذا؟!

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قال: فرأيت منهم من يقول: الله أكككبر)، لا يكمل (أكبر) لا يكملها من الوسواس.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قال: وقال لي إنسان منهم: قد عجزتُ عن قول: «السلام عليكم»، فقلت له: قل مثل ما قد قلت الآن، وقد استرحتَ)، يقول: إنه يشق

عليه أن يقول: السلام عليكم، قال له: قل مثل هذا الكلام ويكفي، إذا قلتها هكذا، هذا هو المطلوب.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقد بلغ الشيطان منهم أنْ عَذَّبهم في الدنيا والآخرة، وأخرجهم عن اتباع الرسول، وأدخلهم في جملة أهل التنطع والغلو، وهم يحسبون أنهم يحُسِنون صنعًا)**، الشيطان -لعنه الله- لا ينتهي عند حدٍّ مع ابن آدم، لا ينتهي عند حدٍّ، بل يتدرج به في الشكوك والوساوس والأوهام ليشغله عن طاعة الله.

والذي يعصمه من ذلك: هو الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، فإذا استعاذ بالله من الشيطان الرجيم بحضور قلب، أعاذه الله عَزَّوَجَلَّ.

فمن أراد التخلص من هذه البلية فليستشعر أن الحق في اتباع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوله وفعله. وليعزِمْ على سلوك طريقته عزيمة من لا يشك أنه على الصراط المستقيم، وأن ما خالفه من تسويل إبليس ووسوسته، ويوقن أنه عدوّ له لا يدعوه إلى خير: ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر:٦]. **وليترك التعريج على كل ما خالف طريقة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كائنًا ما كان؛ فإنه لا يُشَكّ أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان على الصراط المستقيم، ومن شك في هذا فليس بمسلم.**

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: **(فمن أراد التخلص من هذه البلية فليستشعر أن الحق في اتباع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوله وفعله)**، أن لا نجاة من هذه الوساوس وهذه الأوهام إلا باتباع الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالعمل بالسنة النبوية، بهذا يسلم من الشيطان؛ لأنها الطريق الصحيح.

سنة الرسول هي الطريق الصحيح؛ **﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾** [آل عمران:٣١].

﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى﴾: اتباع الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يكفي للإنسان أنه تابع للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لن يصير أحسن من الرسول مهما بلغ.

الرسول هو أكمل الخلق عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فإذا اقتديت به فقد صرت على الطريق الصحيح، بعضهم لا تقنعه السنة، بعض الموسوسين لا تقنعه السنة، يقول: إن فيها تساهل، وإنها، وإنها...

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وليعزِمْ على سلوك طريقته عزيمة من لا يشك أنه على الصراط المستقيم، وأن ما خالفه من تسويل إبليس ووسوسته)**، كل ما خالف سنة الرسول، فهو من تسويل الشيطان ووسوسته، فليتركه ويستعيذ بالله منه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ويوقن أنه عدوّ له لا يدعوه إلى خير: ﴿إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر:٦])**، ﴿إِنَّمَا﴾: الشيطان؛ ﴿يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ﴾: أي أتباعه؛ لأي شيء؟ ﴿لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر:٦]. يوردهم النار- والعياذ بالله-، لا يريد لهم الخير، بل يريد أنهم يدخلون النار.

الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ يدعوهم إلى الخير ويدعوهم إلى الجنة؛ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٢١].

والدين يُسرٌ ولله الحمد، ميسر، ليس فيه إحراج، ليس فيه حرج؛ ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الحج:٧٨]: الملة السمحة الحنيفية.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وليترك التعريج على كل ما خالف طريقة رسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ **كائنًا ما كان)**، عليه أن ينبذ كل الهواجس والأشياء والطرائق المستحدثة، ويسلك طريق الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ.

لكن لابد أن يتعلم سنة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، لابد أن يعرفها حتى يمشي عليها، أما من يدعي أنه على سنة الرسول، وهو لا يعرفها لا يمكن هذا، يأتيه الشيطان ويقول له: هذه سنة الرسول.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإنه لا يُشَكّ أن رسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **كان على الصراط المستقيم، ومن شك في هذا فليس بمسلم)**، لا شك أن الرسول هو أكمل الخلق في كل عمل، وفي كل طاعة، وأنه لم يترك شيئًا يقرب الناس إلى ربهم إلا بيَّنه لهم، ولم يترك شيئًا يبعدهم عن الله إلا بيَّنه لهم.

كما قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ**»(١).

فسنة الرسول كافية فيها الخير، فيها البركة، فيها الطمأنينة، فيها اللذة، وأما من يذهب مع الوساوس ومع التشديدات، فإنه لا ينتهي إلى شيء إلا إلى الهلاك؛ لأنه خرج عن السنة، ومن خرج عن السنة فمآله إلى الهلاك.

مثل الذي يمشي على طريق واحد ثم يخرج عنه ويقع في طرق كثيرة لا يدري أيها الصواب، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:١٥٣]. وصراط الله هو الذي عليه الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هو صراط الله.

(١) أخرجه مسلم (١٨٤٤) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

ومَنْ عَلِمَهُ قال: فإلى أين العدول عن سنته؟ وأيّ شيء ينبغي للعبد غير طريقته؟ ويقول لنفسه: ألستِ تعلمين أن طريقة رسول الله ﷺ هي الصراط المستقيم؟ فإذا قالت له: بلى؛ قال لها: فهل كان يفعل هذا؟ فستقول: لا، فقل لها: فماذا بعد الحق إلا الضلال؟ وهل بعد طريق الجنة إلا طريق النار؟ وهل بعد سبيل الله وسبيل رسوله ﷺ إلا سبيل الشيطان؟

قال: فإن اتبعتِ سبيله كنت قرينه، وستقولين: ﴿يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ﴾ [الزخرف:٣٨].

ولينظر أحوال السلف في متابعتهم لرسول الله ﷺ، فليقْتَدِ بهم، وليتخذِ طريقتهم؛ فقد رُوِّينا عن بعضهم أنه قال: «لقد تقدمني قوم؛ لو لم يتجاوزوا بالوضوء الظفر ما تجاوزته». قلت: هو إبراهيم النَّخَعيُّ(١).

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (قال: فإن اتبعتِ سبيله كنت قرينه، وستقولين: ﴿يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ﴾ [الزخرف:٣٨])، يخاطب نفسه.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (قال لها: فهل كان يفعل هذا؟ فتقول: لا، فقل لها: فماذا بعد الحق إلا الضلال؟)، شيء لم يفعله الرسول ﷺ فإنه مبتدع: قال ﷺ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»(٢)، وقال

---

(١) أخرجه الدارمي (١/ ٢٩٧) بلفظ: «لَقَدْ أَدْرَكْتُ أَقْوَامًا لَوْ لَمْ يُجَاوِزْ أَحَدُهُمْ ظُفْرًا لَمَا جَاوَزْتُهُ، كَفَى إِزْرَاءً عَلَى قَوْمٍ أَنْ تُخَالِفَ أَفْعَالَهُمْ».

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧) (١٧١٨) من حديث أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا، فَهُوَ رَدٌّ**»(١)، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»(٢).

فالذي يسلك سُنة الرسول سلك طريق النجاة، والذي لا ترضيه سُنةُ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهذا سلك طريق الهلاك، ليس هناك إلا طريق النجاة، وطريق الهلاك، فليس هناك إلا طريقان: إما طريق الجنة، وإما طريق النار.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**قال: فإن اتبعتِ سبيله كنت قرينه**)، فإن اتبعتِ سبيل الشيطان كنت قرينَ الشيطان.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**وستقولين**: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ [الزخرف:٣٨])، يعني يوم القيامة يتبرأ الذين اتُّبِعُوا من الذين اتَّبَعُوا يعني في الضلال، ويقول: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾: مشرق الشمس، ومشرق القمر.

﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾: أنت! يقول هكذا للشيطان.

---

(١) أخرجه مسلم (١٨) (١٧١٨) من حديث أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢، ٤٣، ٤٤)، وأحمد (٢٨/ ٣٧٣)، والدارمي (٩٦)، والطبراني في الكبير (١٨/ ٢٤٥)، وابن حبان (١/ ١٧٨)، والحاكم في المستدرك (١/ ١٧٤)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١٩٥)، من حديث العِرْباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قال: فإن اتبعتِ سبيله كنت قرينه)**، سبيله: يعني سبيل الشيطان.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فقد رُوِّينا عن بعضهم أنه قال: «لقد تقدمني قوم؛ لو لم يتجاوزوا بالوضوء الظفر ما تجاوزته»)**، يعني: الاتِّبَاع.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قلت: هو إبراهيم النَّخَعيُّ)**، يعني القائل هذا هو إبراهيم النخَعي.

وقال زين العابدين يومًا لابنه: «يا بني، اتخذ لي ثوبًا ألبسه عند قضاء الحاجة؛ فإني رأيت الذباب يسقط على الشيء، ثم يقع على الثوب، ثم انتبه فقال: «ما كان للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه إلا ثوب واحد». فتركه[1].

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقال زين العابدين يومًا لابنه)، زين العابدين: علي بن الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، علي بن الحسين: هذا زين العابدين.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (يا بني! اتخذ لي ثوبًا ألبسه عند قضاء الحاجة)؛ لأن الذباب يقع على الشيء ثم يقع على الثوب، ثم ترجع، وقال: الرسول لم يفعل هذا، لم يجعل ثوبين.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فإني رأيت الذباب يسقط على الشيء)، على الشيء: يعني على النجاسة.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (ثم انتبه فقال: «ما كان للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه إلا ثوب واحد». فتركه)، زين العابدين ترك هذا إلى سنة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

يقع الذباب على الرسول، وعلى الملوك، وعلى كل أحد، الذباب لا يبالي بأحد، يقع على أنف الملك، وعلى أنف أي أحد من الناس بدون إرادته.

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٣/ ١٣٣)، ومن طريقه ابن الجوزي في تلبيس إبليس (ص١٨٤).

وكان عمر - رضي الله تعالى عنه - يَهُمّ بالأمر ويَعزِم عليه، فإذا قيل له: لم يفعله رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ انتهى، حتى إنه قال: «لقد هممتُ أن أنهى عن لبس هذه الثياب؛ فإنه بلغني أنها تُصبَغ ببول العجائز. فقال له أُبيٌّ: ما لك أن تنهى؛ فإن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد لبسها، ولُبِستْ في زمانه، ولو علم الله أن لبسها حرام لبيَّنه لرسوله. فقال عمر: «صدقت»[1].

ثم ليُعْلَم أن الصحابة ما كان فيهم موسوس، ولو كانت الوسوسة فضيلة لما ادّخرها الله عن رسوله وصحابته، وهم خير الخلق وأفضلهم.

ولو أدرك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الموسوسين لمقتهم، ولو أدركهم عمر - رضي الله تعالى عنه - لضربهم وأدبهم، ولو أدركهم الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لبدَّعوهم.

وها أنا أذكرُ[2] ما جاء في خلافِ مذهبهم؛ على ما يسرَّه الله تعالى مُفصَّلًا:

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وكان عمر - رضي الله تعالى عنه - يَهُمّ بالأمر ويَعزِم عليه، فإذا قيل له: لم يفعله رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. انتهى)، تركه، عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يريد

(١) ما زال الكلام لابن قدامة رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب «ذم الموسوسين» الذي ينقل عنه ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ.
(٢) أخرجه الإمام أحمد (٣٥/ ٢٠٦)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (١/ ٢٨٥): (رواه أحمد، والحسن لم يسمع من عمر ولا من أُبيٍّ)، وقال في (٥/ ١٢٨): (رجاله رجال الصحيح، إلا أن الحسن لم يسمع من عمر).

أن يعمل شيئًا، ثم إذا قيل له: هذا لم يعمله الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تركه؛ لاتِّباعه، من شدة اتباعه للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(فقال له أُبيٌّ: «ما لك أن تنهى؛ فإن رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قد لبسها، ولُبِستْ في زمانه، ولو علم الله أن لبسها حرام لبينه لرسوله»)**، يعني: لا تسأل وتقول: بماذا صبغت هذه الثياب؟ لم يكلفك الله بهذا، لا تتقعر، الْبَسْها، والحمد لله.

الفصل الأول

في النية في الطهارة والصلاة

النية: هي القصد والعزم على فعل الشيء، ومحلُّها القلب، لا تعلُّق لها باللسان أصلًا. ولذلك لم ينقل عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا عن أصحابه في النية لفظ بحال، ولا سمعنا عنهم ذكر ذلك. هذه العبارات التي أُحدِثتْ عند افتتاح الطهارة والصلاة قد جعلها الشيطان معتركًا لأهل الوسواس، يحبسهم عندها، ويعذِّبهم فيها، ويوقعهم في طلب تصحيحها؛ فترى أحدهم يكررها ويجهد نفسه في التلفظ بها، وليست من الصلاة في شيء.

وإنما النية قصد فعل الشيء، فكل عازم على فعل فهو ناويه، لا يُتصور انفكاك ذلك عن النية؛ فإنه حقيقتها، فلا يمكن عدمها في حال وجودها، ومن قعد ليتوضأ فقد نوى الوضوء، ومن قام ليصلي فقد نوى الصلاة، ولا يكاد العاقل يفعل شيئًا من العبادات ولا غيرها بغير نية.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(النية: هي القصد والعزم على فعل الشيء)**، هذا تعريفها.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(ومحلُّها القلب)**، محلها القلب، ليست هي باللسان، إنما محلها القلب لا يعلمها إلا الله عَزَّوَجَلَّ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(لا تعلُّق لها باللسان أصلًا)**، هي ليست باللسان، لا يقول: اللهم إني نويت أن أصلي، نويت أن أتوضأ؛ ﴿أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات:١٦].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولذلك لم ينقل عن النبي** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **ولا عن أصحابه في النية لفظ بحال، ولا سمعنا عنهم ذكر ذلك)**، النية محلها القلب ولا يُتلفظ بها، والتلفظ بها بدعة.

قالوا: إلا عند الإحرام بالنسك يقول: اللهم إني أريد الإحرام بكذا وكذا، يذكِّر نفسه بذلك: أريد الإحرام بالتمتع، بالقران، بالإحرام بالعمرة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وإنما النية قصد فعل الشيء، فكل عازم على فعل فهو ناويه، لا يُتصور انفكاك ذلك عن النية)**، إذا قمت للصلاة فمعناه: أنك نويت الصلاة، إذا قربت الماء للوضوء معناه أنك نويت الوضوء، ليس هناك حاجة أن تتلفظ: أنوي الوضوء، أنوي الصلاة!

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومن قعد ليتوضأ فقد نوى الوضوء)**، من قعد ليتوضأ فقد نوى الوضوء، ولماذا قعد إلا لأنه ناو.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولا يكاد العاقل يفعل شيئًا من العبادات ولا غيرها بغير نية)**، لا أحد يعمل شيء إلا وقد نواه، إلا المجانين الذين ليس لهم عقول، أما العاقل لا يفعل شيء إلا وقد نواه.

❁ ❁ ❁

فالنية أمر لازم لأفعال الإنسان المقصودة، لا يحتاج إلى تعب ولا تحصيل، ولو أراد إخلاء أفعاله الاختيارية عن نية لعجز عن ذلك.

ولو كلَّفه الله عَزَّوَجَلَّ الصلاة والوضوء بغير نية لكلَّفه ما لا يطيق، ولا يدخل تحت وسعه، وما كان هكذا فما وجه التعب في تحصيله؟

وإن شك في حصول نيّته فهو نوع جنون، فإن عِلْمَ الإنسان بحال نفسه أمر يقيني، فكيف يشك فيه عاقل من نفسه؟

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولو أراد إخلاء أفعاله الاختيارية عن نية لعجز عن ذلك)**، لا يمكن انفكاك النية عن العمل أبدًا.

لو حاول الإنسان ويقول: عملت عمل وأنا لم أنوه، لا يمكن أبدًا، لا يمكن أنك تعمل عملًا وأنت لم تنوه، لا تنفك النية عن العمل.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولو كلَّفه الله** عَزَّوَجَلَّ **الصلاة والوضوء بغير نية لكلَّفه ما لا يطيق)**، لأنه لا يمكن أن يصلي وهو لم ينوِ الصلاة، لا يمكن أن يتوضأ وهو لم ينوِ الوضوء، لا تنفك النية عن العمل.

ومن قام ليصلي صلاة الظهر خلف الإمام فكيف يشك في ذلك؟ ولو دعاه داعٍ إلى شغل في تلك الحال لقال: إني مشتغل أريد صلاة الظهر.

ولو قال له قائل في وقت خروجه إلى الصلاة: أين تمضي؟ لقال: أريد أصلي صلاة الظهر مع الإمام، كيف يشك عاقل في هذا من نفسه وهو يعلمه يقينًا؟

بل أعجب من هذا كله: أن غيْرَه يعلم بنيته بقرائن الأحوال؛ فإنه إذا رأى إنسانًا جالسًا في الصف في وقت الصلاة عند اجتماع الناس علم أنه ينتظر الصلاة.

وإذا رآه قد قام عند إقامتها ونهوض الناس إليها علم أنه إنما قام ليصلي، فإن تقدم بين يدي المأمومين علم أنه يريد إمامتهم، فإن رآه في الصف علم أنه يريد الائتمام. فإذا كان غيره يعلم نيته الباطنة بما ظهر من قرائن الأحوال، فكيف يجهلها من نفسه مع اطّلاعه هو على باطنه؟

فقَبوله من الشيطان أنه ما نوى: تصديقٌ له في جحد العِيان، وإنكار الحقائق المعلومة يقينًا، ومخالفة للشرع، ورغبة عن السنة وعن طريق الصحابة.

ثم إن النية الحاصلة لا يمكن تحصيلها، والموجودة لا يمكن إيجادها؛ لأن من شرط إيجاد الشيء كونه معدومًا، فإن إيجاد الموجود محال، وإذا كان كذلك فما يحصل له بوقوفه شيءٌ، ولو وقف ألف عام.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإنه إذا رأى إنسانًا جالسًا في الصف في وقت الصلاة عند اجتماع الناس علم أنه ينتظر الصلاة)**، الفعل يدل على النية، فمن جلس في الصف يتحرى إقامة الصلاة، فقد نوى الصلاة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإذا كان غيره يعلم نيته الباطنة بما ظهر من قرائن الأحوال، فكيف يجهلها من نفسه مع اطّلاعه هو على باطنه؟)**، النية هذه سهلة تتبع العمل والحركة.

قال: ومن العجب أنه يتوسوس حالَ قيامه حتى يركع الإمام، فإذا خشي فوات الركوع كبر سريعًا وأدركه.

فمن لم يُحصل النيةَ في الوقوف الطويل حال فراغ باله، كيف يُحصِّلها في الوقت الضيق مع شغل باله بفوات الركعة؟

ثم ما يطلبه: إما أن يكون سهلًا أو عسيرًا، فإن كان سهلًا فكيف يُعسِّره؟ وإن كان عسيرًا فكيف تيسّر عند ركوع الإمام سواءً؟

وكيف خفي ذلك على النبي ﷺ وصحابته من أولهم إلى آخرهم، والتابعين ومن بعدهم؟

وكيف لم ينتبه له سوى من استحوذ عليه الشيطان؟ أفيظن بجهله أن الشيطان ناصح له؟ أما علم أنه لا يدعو إلى هدى، ولا يهدي إلي خير؟

وكيف يقول في صلاة رسول الله ﷺ وسائر المسلمين الذين لم يفعلوا فعل هذا الموسوس: أهي ناقصة عنده مفضولة، أم هي التامة الفاضلة؟ فما دعاه إلى مخالفتهم والرغبة عن طريقهم؟

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قال: ومن العجب أنه يتوسوس حالَ قيامه حتى يركع الإمام)، حتى يركع الإمام، وهو في معالجة مع نفسه: هل نوى أم لم ينو؟! إلى آخره.

فإن قال: هذا مرض بُلِيتُ به، قلنا: نعم؛ سببه قبولك من الشيطان، ولم يَعْذِر اللهُ تعالى أحدًا بذلك.

ألا ترى أن آدم وحواء لما وسوس لهما الشيطان فقبلا منه أُخرجا من الجنة، ونودي عليهما بما سمعت؟ وهما أقرب إلى العذر؛ لأنهما لم يتقدم قبلهما من يَعتبرانِ به.

وأنت فقد سمعت، وحذَّرك الله من فتنته، وبيَّن لك عداوته، وأوضح لك الطريق، فمالك عذر ولا حجة في ترك السنة، والقبول من الشيطان.

قلت: قال شيخنا: ومن هؤلاء من يأتي بِعَشْر بدع لم يفعل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا أحد من أصحابه واحدةً منها.

فيقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، نويت أصلي صلاة الظهر فريضةَ الوقت، أداءً لله تعالى، إمامًا أو مأمومًا، أربعَ ركعات، مستقبل القبلة، ثم يُزعج أعضاءه، ويحني جبهته، ويقيم عروق عنقه ويصرخ بالتكبير كأنه يكبِّر على العدو..

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فإن قال: هذا مرض بُلِيتُ به، قلنا: نعم؛ سببه قبولك من الشيطان، ولم يَعْذِر اللهُ تعالى أحدًا بذلك)، أنت الذي فتحت على نفسك باب الوسوسة.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فيقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، نويت أصلي صلاة الظهر فريضةَ الوقت، أداءً لله تعالى، إمامًا أو مأمومًا، أربعَ ركعات،

مستقبل القبلة)، هذه المسألة في معرض وسوسة الشيطان في بعض بني آدم في النية، فيأتي بألفاظ غير مشروعة، ويعمل أعمالًا أو حركات غير مشروعة؛ تحقيقًا للنية بزعمه، وهذا من الشيطان.

النية لا تحتاج إلى هذا، إذا قمت إلى الصلاة فقد نويت، إذا كنت في الصف خلف إمام من المسلمين فقد نويت الائتمام، ولا حاجة للكلام، هذا كله من الشيطان؛ ليشغل به هؤلاء الموسوسين، وأشد ما يوسوس الشيطان لهم في النية، أشد ما يتخذه الشيطان معهم الوسوسة في النية.

أصلي صلاة الظهر أداءً خلف هذا الإمام، أربع ركعات، هذا كله تحصيل حاصل، معروف أن صلاة الظهر أربع ركعات، وأنت لم تقف خلف هذا الإمام إلا وقد نويت الائتمام به، وأن صلاتك أداء، وليست قضاءً، فلا داعي إلى هذا التكلف في أمور النية.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ويصرخ بالتكبير كأنه يكبِّر على العدو)**، وأيضًا يصرخ بالتكبير، يقول: أخاف أني لم أكبر! فيصرخ من أجل أن يسمع الحاضرين، ويسمع نفسه أنه كبر، هذا من الشيطان أيضًا.

ولو مكث أحدهم عُمُرَ نوح يُفتِّش: هل فعل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو أحدٌ من أصحابه شيئًا من ذلك لما ظفر به؛ إلا أن يجاهر بالكذب البحت!

فلو كان في هذا خير لسبقونا إليه، ولدلُّونا عليه فإن كان هذا هُدًى فقد ضلوا عنه، وإن كان الذي كانوا عليه هو الهدى والحق فماذا بعد الحق إلا الضلال؟

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**ولو مكث أحدهم عُمُرَ نوح يُفتِّش: هل فعل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو أحدٌ من أصحابه شيئًا من ذلك لما ظفر به؛ إلا أن يجاهر بالكذب البحت!**)، لو أنه حاول أن يسند هذا إلى الرسول لم يجد ما يؤيده لا من كلام الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا من أفعاله، ولا من تقريره، ليس في سنة الرسول هذا العمل، وما لم يكن في سنة الرسول فهو ضلال وبدعة.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا، فَأَمْرُهُ رَدٌّ**»(١)، «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**»(٢): أي مردود عليه لا يقبل؛ لأن الله لم يشرعه، وما لم يشرعه الله فإنه لا يقبله، الله لا يقبل إلا ما شرع.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**فلو كان في هذا خير لسبقونا إليه**)، نحن قدوتنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، والسلف الصالح، هم قدوتنا في هذا.

قال جَلَّ وَعَلَا لَمَّا ذكر المهاجرين والأنصار: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحشر: ١٠].

---

(١) تقدم تخريجه (ص٣٠٦).

(٢) تقدم تخريجه (ص٣٠٥).

فنحن نتبع السلف الصالح؛ لأنهم أقرب إلى ما جاء به الرسول ﷺ، فالصحابة رضي الله عنهم تتلمذوا عليه وأخذوا عنه، والتابعون تتلمذوا على الصحابة رضي الله عنهم الذين تتلمذوا على رسول الله ﷺ وهكذا توارثوا السُّنة جيلًا بعد جيل، وما لم يفعله السلف الصالح، فليس بمشروع، بل هو مُحْدَثٌ مردود على قائله أو فاعله.

قوله رحمه الله: **(فإن كان هذا هُدًى فقد ضلوا عنه)**، إن كان هذا الذي عليه هؤلاء المبتدعة هدى فقد ضل عنه السلف بما فيهم رسول الله ﷺ وأصحابه! وهذا اتهام للسلف، فالله جل وعلا قال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:٣]: هذا في يوم عرفة، حجة الوداع. ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾: هذه نزلت على الرسول ﷺ وهو واقف بعرفة في حجة الوداع [1]، فلما أكمل الله به الدين توفي ﷺ، لحق بربه.

قوله رحمه الله: **(وإن كان الذي كانوا عليه هو الهدى والحق فماذا بعد الحق إلا الضلال؟)**، لا يخلو الأمر: إما أن يكون ما جاء به هؤلاء المتأخرون هو الحق، فيكون السابقون ضلوا عنه، أو يكون ما جاء به السابقون وفعلوه هو الحق، فيكون ما جاء به المتأخرون ضلال، لا يخلو عن هذا.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٠٧)، ومسلم (٣) (٣٠١٧) عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ، «أَنَّ أُنَاسًا، مِنَ الْيَهُودِ قَالُوا: لَوْ نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِينَا لاتَّخَذْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا، فَقَالَ عُمَرُ: أَيَّةُ آيَةٍ؟ فَقَالُوا: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]. فَقَالَ عُمَرُ: إِنِّي لَأَعْلَمُ أَيَّ مَكَانٍ أُنْزِلَتْ أُنْزِلَتْ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ وَاقِفٌ بِعَرَفَةَ».

قال: ومن أصناف الوسواس ما يفسد الصلاة، مثل تكرير بعض الكلمة، كقوله في التحيات: أت أت، التحيّ التحيّ، وفى السلام: أَسْ أَسْ، وقوله في التكبير: أككككبر... ونحو ذلك.

فهذا؛ الظاهر بطلان الصلاة به، وربما كان إمامًا فأفسد صلاة المأمومين، وصارت الصلاة التي هي من أكبر الطاعات أعظمَ إبعادًا له عن الله من الكبائر، وما لم يُبطل الصلاة من ذلك فمكروه وعدول عن السنة، ورغبة عن طريقة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهديِه، وما كان عليه أصحابه.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (قال: ومن أصناف الوسواس ما يفسد الصلاة، مثل تكرير بعض الكلمة، كقوله في التحيات: أت أت، التحيّ التحيّ، وفى السلام: أَسْ أَسْ، وقوله في التكبير: أككككبر... ونحو ذلك)، لا يستطيع النطق بها؛ لأن الشيطان يجتمع على لسانه، لا يستطيع النطق بالتحيات، ولا بالتكبير إلا بالتكرار غير المشروع، فهذه نتيجة الوسوسة.

لما كانوا يقولون: الله الله، الله الله، يقولون: هذا هو الذكر: الله الله، يكررون.

هذا ليس بذكر، الاسم المفرد لا يكون ذكرًا، الذكر لا يكون إلا من جملة مفيدة من مبتدأ وخبر، الاسم المفرد لا يفيد شيئًا، الله الله.

قيل لبعضهم: لماذا تقول هذا؟ قال: أخاف أموت قبل أكمل لا إله إلا الله، أخاف أني أموت قبل أن أكمل، أنا أنطق بالجلالة حتى إذا مت أكون قد نطقت بها! انظر الشيطان ماذا يعمل به، إذا مت فأنت معذور.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**فهذا؛ الظاهر بطلان الصلاة به**)، هذا تكرار الحروف، الظاهر -يقول الشيخ- بطلان الصلاة به؛ لأنه أتى بأقوال غير مشروعة، وهذا يبطل الصلاة: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا، فَهُوَ رَدٌّ**»[1]، أي: باطل، مردود.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وربما كان إمامًا فأفسد صلاة المأمومين**)، وربما كان هذا المبتدع الذي يكرر أكككبر، أنه إمام فتبطل صلاته، وتبطل صلاة من خلفه؛ لأنها إذا بطلت صلاة الإمام، بطلت صلاة من خلفه، خلاف العكس، إذا بطلت صلاة المأموم، فلا تبطل صلاة الإمام.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وصارت الصلاة التي هي من أكبر الطاعات أعظمَ إبعادًا له عن الله من الكبائر**)، إذا بطلت صلاته التي هي الركن الثاني من أركان الإسلام وهي عمود الإسلام، إذا بطلت لم يبقَ له إسلام، فالصلاة تبطلها البدعة، والأقوال والأفعال غير المشروعة تبطلها.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وما لم يُبطل الصلاة من ذلك فمكروه وعدول عن السنة**)، هذا أقل شيء، أقل شيء أنه مكروه؛ لأنه مخالف للسنة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**ورغبة عن طريقة رسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **وهديِه، وما كان عليه أصحابه**)، الله سبحانه قد يسر لنا وسهل علينا.

فهذه التكلفات ليست من شرع الله عَزَّوَجَلَّ، وما لم يكن من شرع الله، فإن الله لا يقبله؛ ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [الشورى:٢١].

---

(١) تقدم تخريجه (ص٣٠٦).

وربما رفع صوته بذلك؛ فآذى سامعيه، وأغرى الناسَ بذمِّه والوقيعة فيه، فجمع على نفسه طاعة إبليس، ومخالفة السنة، وارتكاب شر الأمور ومحدثاتها، وتعذيب نفسه، وإضاعة الوقت، والاشتغال بما ينقص أجره، وفوات ما هو أنفع له، وتعريض نفسه لطعن الناس فيه، وتغرير الجاهل بالاقتداء به، فإنه يقول: لو لا أن ذلك أفضل لما اختاره لنفسه، وأساء الظن بما جاءت به السنة، وأنه لا يكفي وحده، وانفعال النفس وضعفها للشيطان حتى يشتدَّ طمعُه فيه، وتعريضُه نفسه للتشديد عليه بالقَدَر عقوبةً له، وإقامته على الجهل، ورضاه بالخَبَل في العقل.

كما قال أبو حامد الغزّالي وغيره: الوسوسة سببها إما جهل بالشرع، وإما خَبَلٌ في العقل، وكلاهما من أعظم النقائص والعيوب[1].

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وربما رفع صوته بذلك؛ فآذى سامعيه)**، ربما أنه يرفع صوته بذلك وهو في الصف، أو عنده ناس يصلون أو يقرؤون القرآن فيؤثر عليهم ويوشوش عليهم.

الحمد لله الدين يسر، يعني بقدر ما تسمع نفسك، تقرأ القرآن بقدر ما تسمع نفسك، تكبر بقدر ما تسمع نفسك، ولا ترفع صوتك تكلفًا، وهذا يؤذي من حولك.

(١) إحياء علوم الدين (١/ ١٩٠).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وأغرى الناسَ بذمِّه والوقيعة فيه)**، وأيضًا جر على نفسه الذم والسب؛ لأن الناس لا يسكتون عنه؛ سيلومونه وسيسبونه فهو الذي سبب لنفسه ذلك.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فجمع على نفسه طاعة إبليس، ومخالفة السنة، وارتكاب شر الأمور ومحدثاتها، وتعذيب نفسه، وإضاعة الوقت)**، كل هذه مفاسد تنشأ من الوسواس في التكبير، في القراءة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والاشتغال بما ينقص أجره، وفوات ما هو أنفع له، وتعريض نفسه لطعن الناس فيه، وتغرير الجاهل بالاقتداء به)**، كل هذه محاذير من عمل الموسوسين، محاذير شديدة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإنه يقول: لولا أن ذلك أفضل لما اختاره لنفسه، وأساء الظن بما جاءت به السنة، وأنه لا يكفي وحده)**، يحتقر السنة، يقول: السنة لاتكفي، فيزيد عليها ويخالفها ويرى أن هذا هو الصحيح، وهو الذي فيه الأجر؛ لأن الشيطان يزين له ذلك، وهناك شياطين من الإنس يزينون له هذه الأشياء ويحسنونها له، فالشيطان وأعوانه من الإنس يروجون هذه البدع والمحدثات وهذه الوساوس.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وانفعال النفس وضعفها للشيطان حتى يشتدَّ طمعُه فيه)**، لأنه فتح على نفسه للشيطان طريقًا إليه بالوسوسة والتضليل، فهو الذي فتح على نفسه هذا الشيء، والوسواس كله من الشيطان؛ ولهذا نزلت سورة للاستعاذة به: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ [الناس:١-٤]: وهو الشيطان.

﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾ [الناس:٤]: يوسوس إذا غفل الإنسان عن ذكر الله وينخس ويبتعد إذا ذكر المسلم ربه عَزَّوَجَلَّ.

﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس:٥]: هذه مهمته.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وتعريضُه نفسه للتشديد عليه بالقَدَر عقوبةً له)**، يشدد على نفسه، الدين يسر ليس فيه تشدد -والحمد لله- ميسر وسهل، هو يشدد على نفسه في القراءة، في التكبير، في أفعال الصلاة، فيأتي بشيء لم يشرعه الله وهو التكلف والتشدد.

والشيطان يمشي مع ابن آدم إذا رأى منه رغبة في الخير، فإنه يحثه على التشدد، وإن رأى منه عدم رغبة في الخير، فإنه يحثه على الانفلات من الأوامر والنواهي؛ لأن مهمة الشيطان أن يخرج الإنسان عن الطريق المعتدل: إما إلى التشدد، وإما إلى التساهل، هذه مهمة الشيطان.

فلنحذر من هذا الشيطان، ولا يمكن هذا إلا بتعلم السنة، لا يمكن هذا إلا بتعلم السنة والعلم النافع.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وتعريضُه نفسه للتشديد عليه بالقَدَر)**، بالقدر: الله يقدر عليه عقوبةً له.

يقول: إن هذا ليس فيه شك أنه جرى عليه بقدر الله، فكيف يلام وهو بقدر الله؟ نقول: نعم، يلام؛ لأن الله قدر عليه هذا عقوبة له على فعله.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(كما قال أبو حامد الغزالي وغيره: الوسوسة سببها إما جهل بالشرع، وإما خَبَلٌ في العقل، وكلاهما من أعظم النقائص والعيوب)**،

أبو حامد الغزالي له كتاب «إحياء علوم الدين» فيه فوائد وفيه ملاحظات، فهو يقول هذه الكلمة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(الوسوسة سببها إما جهل بالشرع، وإما خَبَلٌ في العقل، وكلاهما من أعظم النقائص والعيوب)**، كلاهما: الجهل والخبل في العقل، كلاهما آفة خطيرة، وسببها الوسواس -الشيطان-.

فهذه نحو خمسَ عشرةَ مفسدةً في الوسواس، ومفاسده أضعاف ذلك بكثير.

وقد روى مسلم في «صحيحه» من حديث عثمان بن أبي العاص، قال: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ حَالَ بَيْنِي وَبَيْنَ صَلَاتِي؛ يَلْبِسُهَا عَلَيَّ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **ذَاكَ شَيْطَانٌ يُقَالُ لَهُ خِنْزَبٌ، فَإِذَا أَحْسَسْتَهُ فَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنْهُ، وَاتْفِلْ عَنْ يَسَارِكَ ثَلَاثًا»، فَفَعَلْتُ ذَلِكَ، فَأَذْهَبَهُ اللهُ عَنِّي**[1].

فأهل الوسواس قُرّةُ عين خِنزب وأصحابه، نعوذ بالله منه.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(فهذه نحو خمسَ عشرةَ مفسدةً في الوسواس، ومفاسده أضعاف ذلك بكثير)**، لو أنه ليس هناك إلا مفسدة واحدة تكفي، كيف إذا تعددت المفاسد؟!

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وقد روى مسلم في «صحيحه» من حديث عثمان بن أبي العاص، قال: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ حَالَ بَيْنِي وَبَيْنَ صَلَاتِي)**، عثمان بن أبي العاص الثقفي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من أهل الطائف، صحابي جليل، شكا إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما يفعله الشيطان معه إذا أراد الصلاة؛ يُدخل عليه الوساوس، ويدخل عليه التفكير.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(فَقَالَ رَسُولُ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«ذَاكَ شَيْطَانٌ يُقَالُ لَهُ خِنْزَبٌ، فَإِذَا أَحْسَسْتَهُ فَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنْهُ، وَاتْفِلْ عَنْ يَسَارِكَ ثَلَاثًا، فَفَعَلْتُ ذَلِكَ،**

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٠٣).

فَأَذْهَبَهُ اللهُ عَنِّي»)، إذا أحسست بوسوسة من الشيطان فاستعذ بالله، ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ [الأعراف:٢٠٠].

وانفث على يسارك ثلاثًا على الشيطان، النفث هذا يكون على الشيطان؛ ردعًا له، وإبعادًا له عنك.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فأهل الوسواس قُرَّةُ عين خِنزب وأصحابه، نعوذ بالله منه)**، أهل الوسواس قرة عين هذا الشيطان، خنزب وأصحابه من الشياطين تقر أعينهم بهم؛ لأنهم أصبحوا ضحايا لهم.

فصــل

ومن ذلك: الإسراف في ماء الوضوء والغُسل.

وقد روى أحمد في «مسنده « من حديث عبد الله بن عَمرو: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِسَعْدٍ وَهُوَ يَتَوَضَّأُ، فَقَالَ: لَا تُسْرِفْ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفِي المَاءِ إِسْرَافٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَإِنْ كُنْتَ عَلَى نَهْرٍ جَارٍ»[١].

وفى «جامع الترمذي» من حديث أُبَيِّ بن كعب، أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لِلْوُضُوءِ شَيْطَانٌ، يُقَالُ لَهُ: الوَلَهَانُ؛ فَاتَّقُوا وَسْوَاسَ المَاءِ»[٢].

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (ومن ذلك: الإسراف في ماء الوضوء والغُسل)، من ذلك: يعني من الوسواس.

الإسراف في ماء الوضوء والغسل؛ هو يظن أنه لا يطهره، مهما أكثرت من الماء يكثر عليك الوسواس وقد تخرج وأنت لم تتطهر؛ لأنك لا تحسن الوضوء ولا الاغتسال.

---

(١) أخرجه أحمد (١١/ ٦٣٧)، وابن ماجه (٤٢٥).

(٢) أخرجه أحمد (٣٥/ ١٦٠)، والترمذي (٥٧)، وابن ماجه (٤٢١)، وقال الترمذي (١/ ٨٥، ٨٦): (حديث أُبَيِّ بن كعب حديث غريب، وليس إسناده بالقوي والصحيح عند أهل الحديث؛ لأنَّا لا نعلم أحدًا أسنده غير خارجة، وقد روي هذا الحديث من غير وجه عن الحسن قولَه، ولا يصح في هذا الباب عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شيء، وخارجة ليس بالقوي عند أصحابنا، وضعَّفه ابن المبارك).

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يتوضأ بالمُدِّ، مد: ربع الصاع، وكان يغتسل بالصاع[1]، يعني أربعة أمداد، هذا مقدار الماء الذي يتطهر به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الحدثين الأكبر والأصغر. صاع للاغتسال أربعة أمداد؛ يعني ملء اليدين الممدودتين أربع مرات. هذا مد، المد: ملء اليدين ممدودتين هذا يسمى مدًّا، الصاع أربعة أمداد مِن هذا المقدار.

أين هذه العين التي تصبون الصنابير على أنفسهم ويسرفون ويصرف ماءً كثيرًا، وقد لا يتطهر؟! المسلم يقتصد.

قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لسعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إِيَّاكَ وَالْإِسْرَافَ فِي المَاءِ**، قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفِي المَاءِ إِسْرَافٌ؟ قَالَ: **نَعَمْ، وَإِنْ كُنْتَ عَلَى نَهْرٍ جَارٍ**».

لا تقُلْ: هذا الماء كثير، وليس لنا خسارة، ويصب الماء! لا، الماء وإن كان كثيرًا، فالطاعة لا يُسرَفُ فيها.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**أَنَّ رَسُولَ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **مَرَّ بِسَعْدٍ وَهُوَ يَتَوَضَّأُ**)، سعد ابن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفِي المَاءِ إِسْرَافٌ؟ قَالَ: «نَعَمْ، وَإِنْ كُنْتَ عَلَى نَهْرٍ جَارٍ»**)، لا تقل: الماء كثير، وليس هناك خسارة.

هذه عبادة لا يزاد فيها عن حدها لا بنقص ولا بزيادة، عليك بترسم الشرع، وخطى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٢٢٠).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وفي «جامع الترمذي» من حديث أُبَيِّ بن كعب، أن النبي** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قال: لِلْوُضُوءِ شَيْطَانٌ، يُقَالُ لَهُ: الوَلَهَانُ؛ فَاتَّقُوا وَسْوَاسَ المَاءِ**)، الوضوء يحضر عنده شيطان موكل بالوضوء؛ ليفسد على الناس وضوئهم وتطهرهم؛ فاحذر منه، احذر منه.

وفي «المسند» و«السنن» من حديث عَمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، قال: «جاء أعرابي إلي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسأله عن الوضوء؟ فأراه ثلاثًا ثلاثًا، وقال: هَذَا الوُضُوءُ، فَمَنْ زَادَ عَلَى هَذَا؛ فَقَدْ أَسَاءَ وَتَعَدَّى وَظَلَمَ»(١).

وفي كتاب «الشافي» لأبي بكر عبد العزيز، من حديث أم سعد، قالت: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُجْزِئُ مِنَ الوضُوءِ مُدٌّ، وَالغُسْلِ صَاعٌ، وَسَيَأْتِي قَوْمٌ يَسْتَقِلُّونَ ذَلِكَ، فَأُولَئِكَ خِلَافُ أَهْلِ سُنَّتِي، وَالْآخِذُ بِسُنَّتِي فِي حَظِيرَةِ القُدُسِ مُتَنَزَّهِ أَهْلِ الجَنَّةِ»(٢).

---

(١) تقدم تخريجه (ص٢٢١).

(٢) قال ابن الملقن في البدر المنير (٢/ ٥٩٨، ٥٩٩): (هذا الحديث غريب، لا أعلم من خرجه من أصحاب الكتب المعتمدة ولا غيرها، ورأيته في كتاب «الانتصار لأصحاب الحديث» للحافظ أبي المظفر منصور بن محمد بن عبد الرحمن السمعاني في أثناء الجزء الثاني منه من حديث عنبسة بن عبد الرحمن القرشي، عن محمد بن زاذان، عن أم سعد، رفَعَتْهُ: «الوضوء والغسل صاع، وسيأتي أقوام من بعدي يستقلون ذلك، أولئك خلاف أهل سنتي، والآخذ بسنتي معي في حظيرة القدس»، وهو في بعض الأجزاء الحديثية بلفظ: «الوضوء مد، والغسل صاع»، وفي آخره: «في حظيرة القدس، وهو مصير أهل الجنة»، وعنبسة هذا متهم متروك، ومحمد قال البخاري: لا يكتب حديثه. ويغني عنه في الدلالة حديث صحيح، رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه والحاكم وابن حبان والبيهقي، من حديث عبد الله بن مغفل، أنه سمع ابنه يقول: «اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذ دخلتها، فقال: يا بني، سل الله الجنة، وتعوذ به من النار؛ فإني سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**إنه سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الطهور والدعاء**». قال الحاكم: إسناده صحيح. وقال أبو حاتم ابن حبان: محفوظ من طريقيه). وانظر التلخيص الحبير (١/ ٢٥٤).

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال: «هَذَا الوُضُوءُ، فَمَنْ زَادَ عَلَى هَذَا؛ فَقَدْ أَسَاءَ وَتَعَدَّى وَظَلَمَ»)**، من تعدى الثلاث فقد أساء وتعدى وظلم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وفي كتاب «الشافي» لأبي بكر عبد العزيز)**، من أصحاب الإمام أحمد.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(من حديث أم سعد، قالت: قال رسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«يُجْزِئُ مِنَ الوضُوءِ مُدٌّ، وَالغُسْلِ صَاعٌ»)**، هذا حدد لنا كمية الماء للوضوء: المد: ربع الصاع، وللاغتسال: الصاع، وهو أربعة أمداد سواء كنت على إناءٍ، أو على نهرٍ، أو على صنابير تصب، لا تسرف في صب الماء.

وفي «سنن الأثرم» من حديث سالم بن أبي الجَعْد، عن جابر بن عبد الله قال: «يُجزِئ من الوضوء المُدُّ، ومن الغسل من الجنابة الصاعُ، فقال رجل: ما يكفيني! فغضِب جابر حتى تربّد وجهه، ثم قال: قَدْ كَفَى مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْكَ وَأَكْثَرُ شَعْرًا»(١).

وقد رواه الإمام أحمد في «مسنده» مرفوعًا، ولفظه: عن جابر قال: قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «يُجْزِئُ مِنَ الغُسْلِ الصَّاعُ، وَمِنَ الوُضُوءِ المُدُّ»(٢).

الشَّرح

قوله رَحِمَهُٱللَّهُ: (وفي «سنن الأثرم»)، الأثرم: من أصحاب الإمام أحمد أيضًا.

قوله رَحِمَهُٱللَّهُ: (عن جابر بن عبد الله قال: «يُجزِئ من الوضوء المُدُّ، ومن الغسل من الجنابة الصاعُ، فقال رجل: ما يكفيني! فغضِب جابر حتى تربّد وجهه، ثم قال: قد كفى من هو خير منك»)، لما قال هذا الأعرابي: لا يكفيني المد للوضوء، ولا الصاع للاغتسال، غضب جابر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ راوي الحديث، وقال: «قَدْ كَفَى مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْكَ» يعني: رسولَ الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

قوله رَحِمَهُٱللَّهُ: («وأكثر شعرًا»)، يعني: شعر الرأس.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥٢) عن أبي إسحاقَ، قال: حَدَّثَنَا أَبُو جَعْفَرٍ، أَنَّهُ كَانَ عِنْدَ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ هُوَ وَأَبُوهُ وَعِنْدَهُ قَوْمٌ، فَسَأَلُوهُ عَنِ الغُسْلِ، فَقَالَ: «يَكْفِيكَ صَاعٌ»، فَقَالَ رَجُلٌ: مَا يَكْفِينِي، فَقَالَ جَابِرٌ: كَانَ يَكْفِي مَنْ هُوَ أَوْفَى مِنْكَ شَعَرًا، وَخَيْرٌ مِنْكَ، ثُمَّ أَمَّنَا فِي ثَوْبٍ».

(٢) أخرجه أحمد في (٢٣/ ٢٢٧).

وفي «صحيح مسلم» عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «أنها كانت تغتسل هي والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من إناء واحد، يسع ثلاثة أمداد، أو قريبًا من ذلك»(١).

وفي «سنن النسائي» عن عُبيد بن عُمير: أن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: «لَقَدْ رَأَيْتُنِي أَغْتَسِلُ أَنَا وَرَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ هَذَا -فَإِذَا تَوْرٌ مَوْضُوعٌ مِثْلُ الصَّاعِ أَوْ دُونَهُ- نَشْرَعُ فِيهِ جَمِيعًا، فَأُفِيضُ بِيَدَيَّ عَلَى رَأْسِي ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَمَا أَنْقُضُ لِي شَعَرًا»(٢).

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وفي «صحيح مسلم» عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «أنها كانت تغتسل هي والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من إناء واحد، يسع ثلاثة أمداد، أو قريبًا من ذلك»)، كانت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا والرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يغتسلان من إناء واحد.

فهذا فيه أنه لا بأس على الزوج وزوجه أن يغتسلا، وأن ينزعا ثيابهما بعضهما مع بعض، لا بأس بذلك، هذه واحدة.

الثانية: فيه أن الصاع يكفي الاثنين، والمد يكفي الاثنين في الوضوء.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وفي «صحيح مسلم» عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «أنها كانت تغتسل هي والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من إناء واحد، يسع ثلاثة أمداد، أو قريبًا من ذلك»)، ثلاثة أمداد: هذا أقل من الصاع، فالرسول وزوجته يغتسلان به ويكفيهما.

---

(١) أخرجه مسلم (٤٤) (٣٢١).

(٢) أخرجه النسائي (٤١٦)، وأصله عند مسلم برقم (٣٣١).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وفي «سنن النسائي» عن عُبيد بن عُمير: أن عائشة** رَضِيَٱللَّهُعَنهَا **قالت: «لَقَدْ رَأَيْتُنِي أَغْتَسِلُ أَنَا وَرَسُولُ اللهِ** صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ **مِنْ هَذَا -فَإِذَا تَوْرٌ مَوْضُوعٌ مِثْلُ الصَّاعِ أَوْ دُونَهُ- نَشْرَعُ فِيهِ جَمِيعًا، فَأُفِيضُ بِيَدَيَّ عَلَى رَأْسِي ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَمَا أَنْقُضُ لِي شَعَرًا»)**، المرأة لا تنقض شعرها للجنابة، تغسله وهو موفور، وأما للحيض أو النفاس، فإنها تنقضه؛ لأن نقضه للجنابة يشق، وأما الحيض والنفاس؛ فهذا لا يتكرر، ولا يشق.

وفي «سنن أبي داود» و«النسائي» عن عَبَّاد بن تميم، عن أم عُمارة بنت كعب «أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ توضأ، فأُتي بماء في إناء قَدْرَ ثُلُثي المد»(١).

وقال عبد الرحمن بن عطاء: سمعت سعيد بن المسيب يقول: «إن لي رِكوةً أو قدحًا ما يسع إلا نصف المد أو نحوه، أبول ثم أتوضأ منه، وأُفْضِل منه فضلًا»، قال عبد الرحمن: فذكرت ذلك لسليمانَ بن يَسار فقال: وأنا يكفيني مثل ذلك». قال عبد الرحمن: فذكرت ذلك لأبى عبيدة بن محمد بن عمّار بن ياسر، فقال: وهكذا سمِعنا من أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. رواه الأثرم في «سننه»(٢).

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وفي «سنن أبي داود» و«النسائي» عن عَبَّاد بن تميم، عن أم عُمارة بنت كعب «أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ توضأ، فأُتي بماء في إناء قَدْرَ ثُلُثي المد»)، هذا أقل ما توضأ به النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ثلثي المد، وأكثر ما يتوضأ بالمد.

(١) أخرجه أبو داود (٩٤)، والنسائي (٧٤).

(٢) أخرجه من طريق الأثرم: ابنُ عبد البر في التمهيد (٨/ ١٠٦). وأخرجه من طريق أخرى أبو عُبَيد القاسم بن سلام في الطهور (ص١٨٩).

وقال إبراهيم النخَعي: «كانوا أشدَّ استيفاءً للماءِ منكم، وكانوا يرون أن ربع المد يجزئ من الوضوء»(١).

وهذا مبالغة عظيمة؛ فإن ربع المد لا يبلغ أوقية ونصفًا بالدمشقي.

وفي «الصحيحين» عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَوَضَّأُ بِالْمُدِّ، وَيَغْتَسِلُ بِالصَّاعِ إِلَى خَمْسَةِ أَمْدَادٍ»(٢).

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقال إبراهيم النخَعي: «كانوا أشدَّ استيفاءً للماءِ منكم، وكانوا يرون أن ربع المد يجزئ من الوضوء»)، ربع المد هذا أقل شيء.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وهذا مبالغة عظيمة؛ فإن ربع المد لا يبلغ أوقية ونصفًا بالدمشقي)، لكن يقتصدون في صرف الماء.

المهم أنه يبلغ العضو لا يبقي منه شيء لا يصل إليه الماء، هذا هو المهم، وأما كثرة الماء فلا داعي لها.

أنت عوِّدْ نفسك على هذا، عود نفسك على الاقتصاد في الماء، عود نفسك على هذا، تعتاد، حاول تطبيق السنة؛ فيها البركة، فيها الخير.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وفي «الصحيحين» عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَوَضَّأُ بِالْمُدِّ، وَيَغْتَسِلُ بِالصَّاعِ إِلَى خَمْسَةِ أَمْدَادٍ»)، هذا غالب أحواله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتوضأ بالمد، ويغتسل بالصاع، هذا غالب أحواله، ويروى أقل من ذلك كما ذكر.

---

(١) عزاه المتقي الهندي في كنز العمال (٩/ ٤٧٣) لسعيد بن منصور في سننه.

(٢) أخرجه البخاري (٢٠١)، ومسلم (٣٢٥).

وفي «صحيح مسلم» عن سَفِينَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يُغَسِّلُهُ الصَّاعُ مِنَ المَاءِ مِنَ الجَنَابَةِ، وَيُوَضِّئُهُ المُدُّ»(١). وقال إبراهيم النخعي: «إني لأتوضأ من كوز الحُبِّ مرتين»(٢). وتوضأ القاسم بن محمد بن أبي بكر الصِّدِّيق بقدر نصف المد، أو أزيد بقليل(٣). وقال محمد بن عجلان: «الفقه في دين الله: إسباغ الوضوء، وقلة إهراق الماء»(٤). وقال الإمام أحمد: «كان يقال: من قلة فقه الرجل وَلَعُهُ بالماء»(٥).

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُٱللَّهُ: **(وفي «صحيح مسلم» عن سَفِينة)**، سَفِينة: مولى رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

قوله رَحِمَهُٱللَّهُ: **(وفي «صحيح مسلم» عن سَفِينَةَ** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ **قال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **يُغَسِّلُهُ الصَّاعُ مِنَ المَاءِ مِنَ الجَنَابَةِ، وَيُوَضِّئُهُ المُدُّ»)**، هذا تواتر عن الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: الصاع للغسل، والمد للوضوء.

قوله رَحِمَهُٱللَّهُ: **(وقال إبراهيم النخَعي)**، إبراهيم النخعي من التابعين، من كبار التابعين، الأسود النخعي، وإبراهيم النخعي يقال لهم: النخَعيون، من تلاميذ ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

---

(١) أخرجه مسلم (٣٢٦).
(٢) أخرجه أبو عبيد في الطهور (ص١٩٢)، وابن أبي شيبة في المصنف (١/ ٦٧).
(٣) أورده ابن عبد البر في التمهيد (٨/ ١٠٧) من طريق الأثرم.
(٤) أخرجه ابن مَنْدَه في مسند إبراهيم بن أدهم الزاهد (ص٤٤).
(٥) أورد ابن قدامة في المغني (١/ ١٦٥) بلا نسبة.

(إني لأتوضأ من كوز الحبِّ مرتين) الحب: هو الإناء.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وتوضأ القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق بقدر نصف المد، أو أزيد بقليل)**، القاسم بن محمد بن أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال محمد بن عجلان: «الفقه في دين الله: إسباغ الوضوء، وقلة إهراق الماء»)**، إذا اجتمع الوصفان: إسباغ الوضوء وقلة الماء فهذه هي السنة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال الإمام أحمد: «كان يقال: من قلة فقه الرجل وَلَعُهُ بالماء»)**، كثرة صب الماء هذا من قلة فقه الرجل، وعدم معرفته بالسنة، وعدم معرفته بالطهارة، يظن أن كثرة الماء أفضل!

وقال الميموني: «كنت أتوضأ بماء كثير، فقال لي أحمد: يا أبا الحسن، أترضى أن تكون كذا؟ فتركته». وقال عبد الله بن أحمد: «قلت لأبي: إني لأُكثر الوضوء، فنهاني عن ذلك، وقال: يا بُنَيَّ، يقال: إن للوضوء شيطانًا يقال له الولَهان، قال لي ذلك في غير مرةٍ، ينهاني عن كثرة صبِّ الماء، وقال لي: أَقْلِلْ من هذا الماء يا بُنَيَّ. وقال إسحاق بن منصور: »قلت لأحمَدَ: نزيد على ثلاث في الوضوء؟ فقال: لا والله، إلا رجلًا مُبْتَلًى».

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال الميموني)، من تلاميذ الإمام أحمد.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال الميموني: «كنت أتوضأ بماء كثير، فقال لي أحمد: يا أبا الحسن، أترضى أن تكون كذا؟ فتركته»)، يعني ترك الماء الكثير، ترك خلاف السنة، فانزجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ وتركه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال إسحاق بن منصور: «قلت لأحمَدَ: نزيد على ثلاث في الوضوء؟ فقال: لا والله، إلا رجلًا مُبْتَلًى»)، هذا ابتداع في الدين، الزيادة على ثلاث بدعة.

وقال أسود بن سالم -الرجل الصالح شيخ الإمام أحمد-: «كنت مبتلًى بالوضوء، فنزلتُ دِجْلَة أتوضأ، فسمعت هاتفًا يقول: يا أسود، يحيى، عن سعيد: «الوضوء ثلاث، ما كان أكثر لم يُرْفع»، فالتفتُّ فلم أر أحدًا»(١).

وقد روى أبو داود في «سننه» من حديث عبد الله بن المُغَفَّل، قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «سَيَكُونُ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الطُّهُورِ وَالدُّعَاءِ»(٢). فإذا قرنت هذا الحديث بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة:٨٧]، وعلمت أن الله يحب عبادته، أنتج لك من هذا أن وضوء الموسوس ليس بعبادة يقبلها الله، وإن أسقطت الفرض عنه؛ فلا تُفتح أبواب الجنة الثمانية لوضوئه يدخل من أيها شاء.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال أسود بن سالم -الرجل الصالح شيخ الإمام أحمد-: «كنت مبتلًى بالوضوء، فنزلتُ دِجْلَة أتوضأ، فسمعت هاتفًا يقول: يا أسود! يحيى، عن سعيد: «الوضوء ثلاث، ما كان أكثر لم يُرْفَع، فالتفتُّ فلم أر أحدًا»)، ملكٌ والله أعلم، ناداه ملك، ونهاه عن الزيادة عن ثلاث، وهو على نهر دجلة.

---

(١) أخرجه القصة الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (٧/ ٣٩)، ومن طريقه ابن الجوزي في المنتظم (١٠/ ٢٥٢)، وأوردها في تلبيس إبليس (ص١٢٣).

(٢) أخرجه أحمد (٢٧/ ٣٥٦)، وأبو داود (٩٦)، وابن ماجه (٣٨٦٤)، وابن حبان (١٥/ ١٦٦، ١٦٧)، والحاكم في المستدرك على الصحيحين (١/ ٢٦٧)و (١/ ٧٢٤) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه»، وقال النووي في المجموع (٢/ ١٩٠): «رواه أبو داود بإسناد صحيح»، وصحَّح الحديثَ كذلك: ابنُ الملقن في البدر المنير (٢/ ٥٩٨، ٥٩٩)، وابن حجر في التلخيص الحبير (١/ ٢٥٤).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقد روى أبو داود في «سننه» من حديث عبد الله بن المُغَفَّل، قال: سمعت رسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **يقول: «سَيَكُونُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الطُّهُورِ وَالدُّعَاءِ»)**، الدعاء، لا يجوز هذا الأمر، لا الاعتداء في الوضوء ولا الزيادة عن الحد المشروع.

ولا الاعتداء في الدعاء؛ بأن تدعو بدعاء غير مشروع، تدعو بدعاء غير مشروع، أو تدعو على أحد لا يستحق أن تدعو عليه، هذا اعتداء في الدعاء.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإذا قرنت هذا الحديث بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾** [المائدة:٨٧]**، وعلمت أن الله يحب عبادته، أنتج لك من هذا أن وضوء الموسوس ليس بعبادة يقبلها الله، وإن أسقطت الفرض عنه؛ فلا تُفتح أبواب الجنة الثمانية لوضوئه يدخل من أيها شاء)**، ثبت في الصحيح: أن المسلم إذا توضأ وأحسن الوضوء، وقال: «**أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ، وَاجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ**»(١)؛ أنها تفتح له أبواب السماء، يدخل من أيها شاء.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٤) من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، مرفوعًا بلفظ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيُبْلِغُ -أَوْ فَيُسْبِغُ- الْوُضُوءَ، ثُمَّ يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ؛ إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةُ، يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ**». وزيادة: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ، وَاجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ**» هي عند الترمذي برقم (٥٥)، ولفظه: «**مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ، وَاجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ؛ فُتِحَتْ لَهُ ثَمَانِيَةُ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ**».

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(فإذا قرنت هذا الحديث بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾** [المائدة:٨٧]**، وعلمت أن الله يحب عبادته، أنتج لك من هذا أن وضوء الموسوس ليس بعبادة يقبلها الله)**، هو إذا توضأ وأسرف، وصلى تصح صلاته، لكن يأثم على الإسراف.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وإن أسقطت الفرض عنه؛ فلا تُفتح أبواب الجنة الثمانية)**، أبواب الجنة الثمانية، فهذا فيه أن أبواب الجنة ثمانية، أما النار فلها سبعة أبواب، والعياذ بالله.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(فلا تُفتح أبواب الجنة الثمانية لوضوئه يدخل من أيها شاء!)**، كما جاء في الحديث[١].

(١) تقدم تخريجه في الحاشية السابقة.

ومن مفاسد الوسواس: أنه يَشغلُ ذمته بالزائد على حاجته، إذا كان الماء مملوكًا لغيره كماء الحَمَّام، فيخرج منه وهو مرتهن الذمة بما زاد على حاجته، ويتطاول عليه الدَّين، حتى يرتهن من ذلك بشيء كثير جدًا، يتضرّر به في البرزخ ويوم القيامة.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومن مفاسد الوسواس: أنه يَشغلُ ذمته بالزائد على حاجته، إذا كان الماء مملوكًا لغيره كماء الحَمَّام)**، من وساوس الشيطان في الطهارة من وضوء أو اغتسال: أن الشيطان يوسوس له، ويقول له: هذا الماء قليل، وبقي شيء من أعضاءك أو من جلدك لم يصل إليه الماء، ويشككه، فلا يزال يشك في طهارته، وربما يستنفذ ماء كثيرًا ولا يطهر.

وربما يكون هذا الماء لغيره؛ يأخذ منه بالثمن كأن يكون في الحمامات يعني حمامات غير الحمامات التي تسمَّى الآن، الحمامات التي تكون لأجل الاستحمام بها والاستشفاء، يدخلها الناس بالأجرة، وهذا معروف، فيأخذ أكثر من حاجته فيكون ظالمًا لصاحب الحمام؛ حيث أخذ ماءً زائدًا عن حاجته، هذا من مفاسد الوسوسة.

فصــل

ومن ذلك: الوسواس في انتقاض الطهارة؛ لا يُلتفتُ إليه.

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا وَجَدَ أَحَدُكُمْ فِي بَطْنِهِ شَيْئًا، فَأَشْكَلَ عَلَيْهِ: أَخَرَجَ مِنْهُ شَيْءٌ أَمْ لَا؟ فَلَا يَخْرُجْ مِنَ الْمَسْجِدِ حَتَّى يَسْمَعَ صَوْتًا، أَوْ يَجِدَ رِيحًا»[(١)].

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(فصل: ومن ذلك: الوسواس في انتقاض الطهارة؛ لا يُلتفتُ إليه)**، قد يكون الإنسان متطهرًا بيقين، فيأتيه الشيطان يوسوس له، ويقول: إن وضوئك قد انتقض، ولذلك لا يلتفت إليه.

الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أرشد إلى ذلك، وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ للذي يشك بعد الطهارة هل انتقضت أو لا، يقول له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا يَنْصَرِفْ حَتَّى يَسْمَعَ صَوْتًا، أَوْ يَجِدَ رِيحًا**». تيقن أنه انتقض وضوئه بالحدث وخروج الريح، وأما مجرد الشك فلا يلتفت إليه، الأصل الطهارة، الأصل لمن توضأ: الطهارة، ولا يتنقض هذا الأصل إلا بيقين.

ولهذا قالوا: من تيقن الطهارة، وشك في الحدث، فلا يلتفت إلى الشك، فالأصل الطهارة -والحمد لله- ولم يثبت ما ينقضها.

---

(١) أخرجه مسلم (٣٦٢).

اليقين لا يزول بالشك هذه قاعدة مأخوذة من هذا الحديث: «**فَلَا يَنْصَرِفْ**»: يعني من صلاته. «**حَتَّى يَسْمَعَ صَوْتًا**» للحدث «**أَوْ يَجِدَ رِيحًا**».

وأما مجرد الشك من غير أثر، فإنه لا يلتفت إليه، ويستمر في صلاته، ويستمر في طهارته، وهذا من رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، اليقين لا يزول بالشك.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **قال: قال رسول الله** صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِذَا وَجَدَ أَحَدُكُمْ فِي بَطْنِهِ شَيْئًا، فَأَشْكَلَ عَلَيْهِ: أَخَرَجَ مِنْهُ شَيْءٌ أَمْ لَا؟ فَلَا يَخْرُجْ مِنَ الْمَسْجِدِ حَتَّى يَسْمَعَ صَوْتًا، أَوْ يَجِدَ رِيحًا**»)، الأصل: الطهارة، والشك لا يلتفت إليه، وإنما إذا تيقن انتقاض الطهارة بسماع صوت الحدث، أو وجود الرائحة.

وفي «الصحيحين» عن عبد الله بن زيد، قال: «شُكِيَ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرَّجُلُ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَجِدُ الشَّيْءَ فِي الصَّلَاةِ، قَالَ: لَا يَنْصَرِفُ حَتَّى يَسْمَعَ صَوْتًا، أَوْ يَجِدَ رِيحًا»(١).

وفي «المسند»، و«سنن أبي داود» عن أبي سعيد الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْتِي أَحَدَكُمْ وَهُوَ فِي الصَّلَاةِ، فَيَأْخُذُ شَعْرَةً مِنْ دُبُرِهِ، فَيَمُدُّهَا، فَيَرَى أَنَّهُ قَدْ أَحْدَثَ، فَلَا يَنْصَرِفْ حَتَّى يَسْمَعَ صَوْتًا، أَوْ يَجِدَ رِيحًا»(٢). ولفظُ أبي داودَ: «إِذَا أَتَى الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَقَالَ لَهُ: إِنَّكَ قَدْ أَحْدَثْتَ، فَلْيَقُلْ لَهُ: كَذَبْتَ، إِلَّا مَا وَجَدَ رِيحًا بِأَنْفِهِ، أَوْ سَمِعَ صَوْتًا بِأُذُنِهِ»(٣).

فأمر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتكذيب الشيطان فيما يحتمل صدقه فيه، فكيف إذا كان كذبه معلومًا متيقنًا، كقوله للموسوس: لم تفعل كذا، وقد فعله!

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وفي «الصحيحين» عن عبد الله بن زيد، قال: «شُكِيَ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرَّجُلُ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَجِدُ الشَّيْءَ فِي الصَّلَاةِ، قَالَ: لَا يَنْصَرِفُ حَتَّى يَسْمَعَ صَوْتًا، أَوْ يَجِدَ رِيحًا»)، لا ينصرف من صلاته، يستمر في صلاته، ولا يلتفت إلى الشك أنه انتقض وضوؤه.

(١) أخرجه البخاري (١٣٧)، ومسلم (٣٦١).
(٢) أخرجه أحمد في المسند (١٨/ ٤٠٦).
(٣) أخرجه أبو داود (١٠٢٩).

وجاء في الحديث: أن الشيطان ينفخ في مقعدته؛ لأجل أن يوشوش عليه بأن انتقض وضوؤه، فلا يلتفت إلى هذا والحمد لله، الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قطع الطريق على الشيطان، ورد على الموسوسين.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: **(عن أبي سعيد الخُدْريِّ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، **أن رسول الله** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قال: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْتِي أَحَدَكُمْ وَهُوَ فِي الصَّلَاةِ، فَيَأْخُذُ شَعْرَةً مِنْ دُبُرِهِ، فَيَمُدُّهَا، فَيَرَى أَنَّهُ قَدْ أَحْدَثَ، فَلَا يَنْصَرِفْ حَتَّى يَسْمَعَ صَوْتًا، أَوْ يَجِدَ رِيحًا»)**، يعني يخيل أنها تحرك الشعر التي في دبره بالريح، الحدث فلا يتلفت إلى هذا، لا يتلفت إلى وجود الحركة للشعر، وإنما يعتمد على صوت الحدث أو رائحته.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: **(ولفظُ أبي داودَ: «إِذَا أَتَى الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَقَالَ لَهُ: إِنَّكَ قَدْ أَحْدَثْتَ، فَلْيَقُلْ لَهُ: كَذَبْتَ، إِلَّا مَا وَجَدَ رِيحًا بِأَنْفِهِ، أَوْ سَمِعَ صَوْتًا بِأُذُنِهِ»)**، يأتيه وهو يصلي ويقول: انتقض وضوؤك، فيقول للشيطان: كذبت، ويستمر في صلاته.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: **(فأمر النبي** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **بتكذيب الشيطان فيما يحتمل صدقه فيه، فكيف إذا كان كذبه معلومًا متيقنًا، كقوله للموسوس: لم تفعل كذا، وقد فعله!)**، يشككه أنه لم يتوضأ، وقد توضأ، فلا يتلفت إلى هذا الوسواس.

قال الشيخ أبو محمد[(١)]: ويستحب للإنسان أن ينضح فرجه وسراويله بالماء إذا بال؛ ليدفع عن نفسه الوسوسة، فمتى وجد بللًا قال: هذا من الماء الذي نضحتُه؛ لِمَا روى أبو داود بإسناده عن سفيان بن الحَكَم الثَّقَفي -أو الحكم بن سفيان-، قال: «كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا بَالَ تَوَضَّأَ وَيَنْتَضِحُ»[(٢)]. وفي رواية: «رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَالَ، ثُمَّ نَضَحَ فَرْجَهُ»[(٣)]. وكان ابن عمر ينضح فرجه، حتى يَبُلَّ سراويله[(٤)].

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(قال الشيخ أبو محمد)**، أبو محمد: هو الإمام ابن قدامة شيخ المذهب، صاحب» المغني».

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(قال الشيخ أبو محمد: ويستحب للإنسان أن ينضح فرجه وسراويله بالماء إذا بال)**، لأجل إزالة الشك والوسواس ينضح سراويله بالماء بحيث لا يخيل إليه البلل، يعلم أن سراويله قد نضحها بالماء، وأن هذا من الماء الطهور، وليس من الحدث حتى يقطع على الشيطان الطريق.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وكان ابن عمر ينضح فرجه؛ حتى يَبُلَّ سراويله)**، ليقطع الشك.

(١) يعني ابن قدامة، الذي ينقل المصنف من كتابه في «ذم الوسواس».

(٢) أخرجه أبو داود (١٦٦).

(٣) أخرجه أبو داود (١٦٧).

(٤) انظر: مصنف عبد الرزاق الصنعاني (١/ ١٥٣)، ومصنف ابن أبي شيبة (١/ ١٥٤).

وشكا إلى الإمام أحمد بعض أصحابه أنه يجد البلل بعد الوضوء، فأمره أن ينضح فرجه إذا بال، قال: ولا تجعل ذلك من هِمَّتك، والْهُ عنه.

وسئل الحسن أو غيره عن مثل هذا، فقال: «الْهُ عنه؛ فأعاد عليه المسألة، فقال: أَتَسْتَدِرُّه لا أبا لك؟! الْهُ عنه»(١).

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وشكا إلى الإمام أحمد بعض أصحابه أنه يجد البلل بعد الوضوء، فأمره أن ينضح فرجه إذا بال، قال: ولا تجعل ذلك من هِمَّتك، والْهُ عنه)، لا تلتفت إلى وسوسة الشيطان، فإذا نضح سراويله ترطبت بالماء، فإنه يقول: هذا من الماء وليس من الحدث.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وسئل الحسن أو غيره عن مثل هذا، فقال: «الْهُ عنه؛ فأعاد عليه المسألة، فقال: أَتَسْتَدِرُّه لا أبا لك؟! الْهُ عنه»)، الحسن البصري إمام التابعين، يقول: الْهُ عن الوسواس، ولا تلتفت إليه.

❖ ❖ ❖

(١) ذكره عن الحسن: أبو عبيد القاسم بن سلام في غريب الحديث (٤/ ٣٠٣). وروى ابن ابي شيبة في المصنف (١/ ١٥٤) عن مولًى لابن أزهر، قال: «شَكَوْتُ إِلَى ابْنِ عُمَرَ الْبَوْلَ، فَقَالَ: إِذَا تَوَضَّأْتَ فَانْضَحْ، وَالْهُ عَنْهُ؛ فَإِنَّهُ مِنَ الشَّيْطَانِ». ثم روى عن ابن أبي ذئب، قال: أخبرني أخي، قال: «سَأَلْتُ الْقَاسِمَ عَنِ الْبِلَّةِ أَجِدُهَا فِي الصَّلَاةِ؟ فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي، انْضَحْهُ، وَالْهُ عَنْهُ؛ فَإِنَّمَا هُوَ مِنَ الشَّيْطَانِ. قَالَ: فَفَعَلْتُ، فَذَهَبَ عَنِّي».

فصل

ومن هذا: ما يفعله كثير من الموسوسين بعد البول؛ وهو عَشَرةُ أشياءَ: السَّلْت، والنَّتْر، والنحْنَحَة، والمشي، والقفز، والحَبْل، والتفقد، والوجور، والحشو، والعصابة، والدَّرجة.

أما السلت: فيسلُته من أصله إلى رأسه، على أنه قد رُويَ في ذلك حديث غريب لا يثبت. ففي «المسند» و«سنن ابن ماجه» عن عيسى بن يَزْداد، عن أبيه، قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا بَالَ أَحَدُكُمْ، فَلْيَمْسَحْ ذَكَرَهُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ»(١). وقال جابر بن زيد: «إذا بُلْتَ فامسح أسفل ذكرك؛ فإنه ينقطع». رواه سعيد عنه(٢).

قالوا: ولأنه بالسلت والنتر يُستخرج ما يُخشى عَوْدُه بعد الاستنجاء.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (ومن هذا: ما يفعله كثير من الموسوسين بعد البول؛ وهو عشرة أشياءَ: السَّلْت)، السلت: سلت الذكر يعني؛ يسلت ذكره؛ يقول: إنه خائف أن بقي شيء من البول في القصبة.

لم يكلفك الله بهذا، إن خرج شيء فتوضأ، وإن لم يخرج شيء، فلا تلتفت إلى الوساوس، هذا السلت.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (١/ ١٤٩)، وأحمد (٣١/ ٣٩٩)، وأبو داود في المراسيل (ص٧٣)، وابن ماجه (٣٢٦). قال البوصيري في مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه (١/ ٤٨): (يزداد لا تصح له صحبة، وزمعة ضعيف).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (١/ ١٤٩).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والنَّتْر)**، والنَّتْر: نتر الذكر يعني نفض الذكر؛ يقول: إن يبقى به شيء يخرج، هذا تكلف لم يأمر الله به.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والنحْنَحَة)**، بعضهم يتنحنح؛ لأجل أن يتحرك البول ويخرج؛ كل هذا من الوسواس، لا داعي لهذه الأمور.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والمشي)**، أو يمشي؛ لأجل أن يدر البول بعد ما يتبول يشرع في المشي من أجل أن يخرج بقية البول من القصبة، كل هذا من الشيطان، لم يكن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا أصحابه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، ولا السلف يفعلون هذه الأشياء.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والقفز)**، القفز: يعني يطيل الخطوة؛ كل هذا من التكلف.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والحَبْل، والتفقد)**، التفقد الكثير: ينظر في ثوبه، ينظر في سراويله ويتأكد، لا داعي لهذا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والوجور، والحشو)**، كل هذه من أنواع للوساوس.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(أما السلت: فيسلُته من أصله إلى رأسه)**، يسلت الذكر من أصله إلى رأسه؛ من أجل أن يخرج ما فيه من البول بزعمه.

ما دام أن البول استقر لا تحركه، ابقه مستقرًّا ولا يضرك، طالما لم يخرج لا يضرك، ومعلوم أن القصبة يبقى فيها شيء من البول.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال جابر بن زيد: «إذا بُلْتَ فامسح أسفل ذكرك؛ فإنه ينقطع». رواه سعيد عنه)**، وهذا الحديث غريب ولا يعمل به.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قالوا: ولأنه بالسلت والنتر يُستخرج ما يُخشى عَوْدُه بعد الاستنجاء)**، قالوا: يقصد الموسوسين.

قالوا: وإن احتاج إلى مشي خطوات لذلك ففعل فقد أحسن.

والنحنحة ليستخرج الفضلة.

وكذلك القفز؛ يرتفع عن الأرض شيئًا، ثم يجلس بسرعة.

والحبل: يتخذ بعضهم حبلًا يتعلق به، حتى يكاد يرتفع، ثم ينخرط فيه حتى يقعد.

والتفقد: يمسك الذكر ثم ينظر في المخرج: هل بقي فيه شيء أم لا؟

والوجور: يمسكه ثم يفتح الثقب، ويصب فيه الماء.

والحشو يكون معه مِيل وقطن يحشوه به؛ كما يحشو الدَّمَّل بعد فتحها.

والعصابة: يعصبه بخرقة. والدَّرَجةُ: يصعد في سُلَّم قليلًا، ثم ينزل بسرعة.

والمشيُ: يمشي خطوات، ثم يعيد الاستجمار.

قال شيخنا: وذلك كله وسواس وبدعة.

فراجعته في السلت والنتر؛ فلم يره، وقال: لم يصحَّ الحديث، قال: والبول كاللبن في الضَّرع، إن تركته قَرّ، وإن حلبته دَرّ.

قال: ومن اعتاد ذلك ابتُلي به بما عوفي منه مَن لها عنه.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قالوا: وإن احتاج إلى مشي خطوات لذلك ففعل فقد أحسن)، هذا عند الموسوسين، ولا يمشي ولا شيء.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وكذلك القفز؛ يرتفع عن الأرض شيئًا، ثم يجلس بسرعة)، هذا تكلف ما أنزل الله به من سلطان.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والحبل يتخذ بعضهم حبلًا يتعلق به)**، بهذا الحبل؛ يجعل حبل على شجرة، أو على خشبة، ويتعلق به من أجل أن يخرج بقية البول.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والتفقد: يمسك الذكر ثم ينظر في المخرج: هل بقي فيه شيء أم لا؟)**، نسأل الله العافية.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والوجور: يمسكه ثم يفتح الثقب، ويصب فيه الماء)**، يريد أن يغسل ما بداخل الذكر، هذا من الوسواس والتكلف.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والحشو يكون معه مِيل وقطن يحشوه به؛ كما يحشو الدَّمَّل بعد فتحها)**، لأجل أن يجفف ما بداخل الذكر بالقطن، كل هذا من التكلف ومن الوسواس.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والعصابة: يعصبه بخرقة)**، يعصب الذكر؛ من أجل ألا يخرج منه شيء بخرقة أو بخيط.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والدَّرَجةُ: يصعد في سُلَّم قليلًا، ثم ينزل بسرعة)**، وهذا ما أنزل الله به من سلطان.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قال شيخنا)**، شيخ الإسلام ابن تيمية، شيخ ابن القيم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وذلك كله وسواس وبدعة)**، وسواس: من ناحية أنه من الشيطان.

وبدعة: أنه لم يشرعه الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد قال: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا؛ فَهُوَ رَدٌّ**»[1].

---

(١) سبق تخريجه (ص٣٠٦).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فراجعته في السلت والنتر؛ فلم يره، وقال: لم يصحَّ الحديث)**، الحديث الذي مر لم يصح عن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قال: والبول كاللبن في الضَّرع، إن تركته قرّ، وإن حلبته درّ)**، إذا تركته ولم تعمل هذه الأشياء قرَّ ولم يخرج، وإن تكلفت هل خرج أو لم يخرج، يخرج مع الحركة، مع هذه الأشياء.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قال: ومن اعتاد ذلك ابتُلي به بما عوفي منه مَن لها عنه)**، إذا عمل هذه الأشياء يبتلى بخروج البول حقيقة، ويشق عليه ذلك، اترك الأمر.

طالما أنك لم ترَ شيئًا ظاهرًا، فاترك الأمر، ولا تشك وتعمل هذه الأشياء، لم يكلفك الله بهذه الأمور.

قال: ولو كان هذا سنة؛ لكان أولى الناس به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه؛ وقد قال اليهودي لسلمان: «لقد علَّمكم نبيُّكم كل شيء حتى الخِرَاءة، فقال: أجل»(١). فأين علَّمنا نبيُّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك أو شيئًا منه؟ بلى؛ علّم المستحاضة أن تتلجَّم(٢)، وعلى قياسها من به سَلَس البول؛ أن يتحفّظ، ويشدَّ عليه خِرقة.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (قال)، قال: يعني شيخ الإسلام.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (قال: ولو كان هذا سنة)، هذه الأمور التي ذكرها.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (لكان أولى الناس به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه)، لم يكونوا يعملون هذه الأشياء، وهم خير قدوة لنا.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقد قال اليهودي لسلمان: «لقد علَّمكم نبيُّكم كل شيء حتى الخِرَاءة، فقال: أجل». فأين علَّمنا نبيُّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك أو شيئًا منه؟)، طالما أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يترك شيء نحن بحاجة إليه إلا وبيَّنه لنا، فلماذا لم يبيِّن هذه الأشياء التي يقولها الموسوسون؟!

اليهودي يقول: «علمكم نبيكم كل شيء». هذا إقرار من اليهودي أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علم أمته ما تحتاج إليه.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢).

(٢) انظر سنن أبي داود (٢٨٧)، والترمذي (١٢٨)، وابن ماجه (٦٢٧).

يقول: «حتى الخِرَاءة»: يعني حتى الاستجمار بعد قضاء الحاجة، نعم علمنا الرسول ﷺ الاستجمار، كيف نستجمر.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فأين علَّمنا نبيُّنا ﷺ ذلك أو شيئًا منه؟)**، يقول الشيخ: أين تعليم الرسول لنا هذه الأشياء؟ ليس هناك شيء، ليس هناك دليل على هذا، وما سكت عنه الرسول نسكت عنه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(بلى؛ علَّم المستحاضة أن تتلجّم)**، الرسول ﷺ أمر المستحاضة التي يخرج منها الدم في غير وقته.

والاستحاضة: نزيف من عرق أدنى الرحم.

أمرها أن تتلجم: يعني تجعل في المخرج قطنًا؛ يمنع خروج الدم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وعلى قياسها من به سَلَس البول؛ أن يتحفّظ، ويشدَّ عليه خِرقة)**، هذا المبتلى بسلس البول: الذي يخرج منه بول حقيقة، لا يمسك بالبول، هذا الذي به سلس، حدثه دائم.

هذا يعمل أشياء احتياطية بعد أن يتبول ويستنجي ويعمل أشياء احتياطية؛ لأنه يخرج منه بول حقيقة بالسلس والمرض.

فصــل

ومن ذلك: أشياء سهَّل فيها المبعوثُ بالحنيفية السمحة؛ فشدّد فيها هؤلاء.

فمن ذلك: المشي حافيًا في الطرقات، ثم يصلي ولا يغسل رجليه؛ فقد روى أبو داود في «سننه»: عن امرأة من بني عبد الأشهل، قالت: « قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ لَنَا طَرِيقاً إِلى المَسْجِدِ مُنْتِنَةً، فَكَيْفَ نَفْعَلُ إِذَا تَطَهَّرْنَا؟ قَال: أَلَيْسَ بَعْدَهَا طَرِيقٌ أَطْيَبُ مِنْهَا؟ قَالَتْ: قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: فَهذِهِ بِهذِهِ»»[1].

وقال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كنا لا نتوضأ من مَوْطئ»[2]. وعن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أنه خاض في طين المطر، ثم دخل المسجد فصلى، ولم يغسل رجليه»[3].

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (ومن ذلك: أشياء سهَّل فيها المبعوثُ بالحنيفية السمحة)، وهو رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالحنيفية السمحة: ملة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ:

---

(١) أخرجه أحمد (٤٥/ ٤٤٣)، وأبو داود (٣٨٤)، وابن ماجه (٥٣٣).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٠٤)، وكذا أخرجه ابن ماجه (١٠٤١)، ولفظه: «أُمِرْنَا أَلَّا نَكُفَّ شَعَرًا وَلَا ثَوْبًا، وَلَا نَتَوَضَّأَ مِنْ مَوْطِئٍ».

(٣) أخرجه ابن المنذر في الأوسط في السنن والإجماع والاختلاف (٢/ ١٧١)، ونحوه عند ابن أبي شيبة في المصنف (١/ ١٧٧).

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج:٧٨]. السمحة، فالتكلف هذا ليس مما جاء به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(عن امرأة من بني عبد الأشهل، قالت: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ لَنَا طَرِيقاً إِلَى المَسْجِدِ مُنْتِنَةً، فَكَيْفَ نَفْعَلُ إِذَا تَطَهَّرْنَا؟ قَالَ: أَلَيْسَ بَعْدَهَا طَرِيقٌ أَطْيَبُ مِنْهَا؟ قَالَتْ: قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: فَهَذِهِ بِهَذِهِ»)**، إذا مررت بطريق فيه شيء من الملوثات، فستمر بعد ذلك بطريق نزيه ليس فيه شيء، هذا يطهر هذا، الطريق ليس كله ملوثًا، هكذا أرشد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وقال عبد الله بن مسعود** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **«كنا لا نتوضأ من مَوْطِئ»)**، موطئ: يعني إذا وطئ على الأرض لا يقول: الأرض نجسة، أو رطبة، أو ما أشبه ذلك، لم يكن يعمل هذا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مع أن الغالب أن الأراضي يكون فيها طين، فيها رطوبة، لم يكلِّفْنا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذا.

الشوارع ليس هناك شك أنها يكون فيها طين، وفيها أشياءُ لا ندري عنها شيئًا، لم يكلفنا الرسول بالبحث في هذا.

وَمَرَّ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَوْمًا، فَسَقَطَ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ مِيزَابٍ، وَمَعَهُ صَاحِبٌ لَهُ، فَقَالَ: يَا صَاحِبَ المِيزَابِ، مَاؤُكَ طَاهِرٌ أَوْ نَجِسٌ؟ فَقَالَ عُمَرُ: يَا صَاحِبَ المِيزَابِ، لَا تُخْبِرْنَا، وَمَضَى[1]. لم يكلِّفْنا الله بهذا، هل تسأل عن هذا الماء الذي نزل من الميزاب هل هو طاهر أو نجس؟ لم يكلفنا الله بهذا.

---

(١) سيأتي تخريجه (ص٤١٤).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وعن عليٍّ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**أنه خاض في طين المطر، ثم دخل المسجد فصلى، ولم يغسل رجليه**»)، كذلك إذا ترطبت الطرقات بالسيل أو بماءٍ ومررت بها فلا تغسل رجليك، هذا تكلُّف، ولا تخلو الطرقات من رطوبات، لم يكلِّفْكَ الله بهذا، والدين يُسْرٌ -ولله الحمد-.

وسئل ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن الرجل يطأ العَذِرةَ؟ قال: «إن كانت يابسة فليس بشيء، وإن كانت رطبة غسل ما أصابه»[1].

وقال حفص: «أقبلت مع عبد الله بن عمر عامدَينِ إلى المسجد، فلما انتهينا عدلتُ إلى المطهرة لأغسل قدمي من شيء أصابها، فقال عبد الله: لا تفعل؛ فإنك تطأ الموطأ الرديء، ثم تطأ بعده الموطئ الطيب -أو قال: النظيف- فيكون ذلك طهورًا. فدخلنا المسجد جميعًا فصلينا».

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وسئل ابن عباس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **عن الرجل يطأ العَذِرةَ، قال: «إن كانت يابسة فليس بشيء، وإن كانت رطبة غسل ما أصابه»)**، العذرة إن كانت رطبة ووطئها يتنجس، ليس هناك شك، لكن اليابسة لا يتنجس ولو وطئها؛ لأنها لا يعلق بالرجل منها شيءٌ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وقال حفص: «أقبلت مع عبد الله بن عمر عامدَينِ إلى المسجد، فلما انتهينا عدلتُ إلى المطهرة لأغسل قدمي من شيء أصابها، فقال عبد الله: لا تفعل؛ فإنك تطأ الموطأ الرديء، ثم تطأ بعده الموطئ الطيب -أو قال: النظيف- فيكون ذلك طهورًا. فدخلنا المسجد جميعًا فصلينا»)**، والحمد لله، الدين يُسْرٌ، وليس فيه تكلف. ولا شك أن الذي يمشي في الأسواق قد يمر على أشياءَ لا يدري عنها، فلا يسأل عنها؛ الأصل: الطهارة والسلامة، والحمد لله.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (١/ ٥٨).

وقال أبو الشَّعْثاء: «كان ابن عمر يمشي بمنًى في الفروث والدماء اليابسة حافيًا، ثم يدخل المسجد فيصلي فيه، ولا يغسل قدميه».

وقال عمران بن حُدير: «كنت أمشي مع أبي مِجْلز إلى الجمعة، وفي الطريق عَذِراتٌ يابسة، فجعل يتخطاهن ويقول: ما هذه إلا سَوْدات، ثم جاء حافيًا إلى المسجد؛ فصلى ولم يغسل قدميه».

وقال عاصم الأحول: «أتينا أبا العالية، فدعونا بوضوء فقال: ما لكم؟ ألستم متوضئين؟ قلنا: بلى، ولكن هذه الأقذار التي مررنا بها، قال: هل وطئتم على شيء رطْبٍ تعلّق بأرجلكم؟ قلنا: لا. فقال: فكيف بأشد من هذه الأقذار؛ تجفّ فينسفها الريح في رؤوسكم ولحاكم؟».

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال أبو الشّعْثاء: «كان ابن عمر يمشي بمنًى في الفروث والدماء اليابسة حافيًا، ثم يدخل المسجد فيصلي فيه، ولا يغسل قدميه»)، في منى، منى محل لذبح الهدي والأضاحي، فيكون فيها دماء، ويكون فيها آثار للذبح فلا يسأل عن هذا، يصلي ولا يغسل رجليه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال عمران بن حُدير: «كنت أمشي مع أبي مِجْلز إلى الجمعة، وفي الطريق عَذِراتٌ يابسة، فجعل يتخطاهن ويقول: ما هذه إلا سَوْدات، ثم جاء حافيًا إلى المسجد؛ فصلى ولم يغسل قدميه»)؛ لأن الأشياء اليابسة لا تؤثر ولا تعلق بالرجل، وإن كان أصلها نجسًا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال عاصم الأحول: «أتينا أبا العالية، فدعونا بوضوء فقال: ما لكم؟ ألستم متوضئين؟ قلنا: بلى، ولكن هذه الأقذار التي مررنا بها، قال: هل وطئتم على شيء رطْبٍ تعلّق بأرجلكم؟ قلنا: لا. فقال: فكيف بأشد من هذه الأقذار؛ تجفّ فينسفها الريح في رؤوسكم ولحاكم؟»)**، هذا تكلف لم نؤمر به، والأرض وإن أصابها شيء، فإنها تأتي عليها الريح، وتأتي عليها الشمس فيذهب ما عليها.

فصل

ومن ذلك: أن الخُفّ والحذاء إذا أصابت النجاسة أسفلَه أجزأ دَلْكُه بالأرض مطلقًا، وجازت الصلاة فيه بالسنة الثابتة.

نصَّ عليه أحمد، واختاره المحققون من أصحابه.

قال أبو البركات: ورواية إجزاء الدّلك مطلقًا هي الصحيحة عندي؛ لما روى أبو هريرة أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِذَا وَطِئَ أَحَدُكُمْ بِنَعْلِهِ الْأَذَى، فَإِنَّ التُّرَابَ لَهُ طَهُورٌ»(١). وفي لفظ: «إِذَا وَطِئَ أَحَدُكُمُ الْأَذَى بِخُفَّيْهِ، فَطَهُورُهُمَا التُّرَابُ». رواهما أبو داود(٢).

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ومن ذلك: أن الخُفّ والحذاء إذا أصابت النجاسة أسفلَه أجزأ دَلْكُه بالأرض مطلقًا، وجازت الصلاة فيه بالسنة الثابتة)، كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أراد أن يدخل المسجد نظر في حذائه، يعني في أسفله؛ فإن رأى فيه شيء دلكه بالأرض، ثم دخل به صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وصلى بحذائه، فالأرض تطهر ما يصيبها بالحذاء، وإذا أتى على أرض قاذورات، فسيأتي على أرض نقية، فهذا يذهب هذا.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ومن ذلك: أن الخُفّ والحذاء إذا أصابت النجاسة أسفلَه أجزأ دَلْكُه بالأرض مطلقًا)، ولا يحتاج إلى غسل، وهذا من تيسير الله؛ لأن

(١) أخرجه أبو داود (٣٨٥)، وصححه ابن حبان (٤/ ٢٤٩).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٨٦)، وصححه ابن خزيمة (١/ ١٤٨)، وابن حبان (٤/ ٢٥٠).

الحذاء لو غُسِلَ يتلف، وكذلك الخف إذا غُسِلَ وتكرر عليه الغسل يتلف، فيكفي أنه يدلك بالأرض الطيبة ويذهب ما فيه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قال أبو البركات)**، أبو البركات: المجد بن تيمية، جد شيخ الإسلام.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قال أبو البركات: ورواية إجزاء الدّلك مطلقًا هي الصحيحة عندي)**، أن الدلك يكفي عن الغسل، يقول: هذه الرواية عن أحمدَ هي الصحيحة عندي في المذهب.

وروى أبو سعيد الخُدْريُّ: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَّى، فَخَلَعَ نَعْلَيْهِ، فَخَلَعَ النَّاسُ نِعَالَهُمْ، فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ: لِمَ خَلَعْتُمْ؟، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، رَأَيْنَاكَ خَلَعْتَ فَخَلَعْنَا، فَقَالَ: إِنَّ جِبْرِيلَ أَتَانِي فَأَخْبَرَنِي أَنَّ بِهِمَا خَبَثًا، فَإِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَسْجِدَ فَلْيَقْلِبْ نَعْلَيْهِ، ثُمَّ لْيَنْظُرْ: فَإِنْ رَأَى خَبَثًا فَلْيَمْسَحْهُ بِالْأَرْضِ، ثُمَّ لِيُصَلِّ فِيهِمَا». رواه الإمام أحمد[1].

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فَقَالَ: إِنَّ جِبْرِيلَ أَتَانِي فَأَخْبَرَنِي أَنَّ بِهِمَا خَبَثًا، فَإِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَسْجِدَ فَلْيَقْلِبْ نَعْلَيْهِ، ثُمَّ لْيَنْظُرْ: فَإِنْ رَأَى خَبَثًا فَلْيَمْسَحْهُ بِالْأَرْضِ، ثُمَّ لِيُصَلِّ فِيهِمَا»)، هذا من التيسير ولله الحمد.

إذا رأى في خفيه شيئًا يدلكه في الأرض، ويكفي هذا، لا يذهب يغسله، هذا من التيسير على هذه الأمَّة، وإذا لم يَرَ شيئًا فالأصل الطهارة، الحمد لله.

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٢/ ١٨١)، وأحمد (١٧/ ٢٤٣)، وأبو داود (٦٥٠)، وصححه ابن خزيمة (٢/ ١٠٧)، وابن حبان (٥/ ٥٦٠).

وتأويل ذلك على ما يُستقذر من مُخاطٍ أو نحوه من الطاهرات؛ لا يصح لوجوه:

أحدها: أن ذلك لا يسمي خبثًا.

الثاني: أن ذلك لا يؤمر بمسحه عند الصلاة؛ فإنه لا يبطلها.

الثالث: أنه لا يخلع النعل لذلك في الصلاة؛ فإنه عملٌ لغير حاجة، فأقل أحواله الكراهة.

الرابع: أن الدارقطني روى في «سننه» في حديث الخَلع من رواية ابن عباس: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّ جِبْرِيلَ أَتَانِي، فَأَخْبَرَنِي أَنَّ فِيهِمَا دَمَ حَلَمَةٍ»(١). والحَلَمُ: كبار القُراد.

ولأنه محلٌّ يتكرر ملاقاته النجاسة غالبًا، فأجزأ مسحه بالجامد، كمحل الاستجمار، بل أولى؛ فإن محل الاستجمار يلاقي النجاسة في اليوم مرتين أو ثلاثًا.

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وتأويل ذلك على ما يُستقذر من مُخاطٍ أو نحوه من الطاهرات؛ لا يصح لوجوه)، يعني الذي يقول: الرسول يمسح الخف إذا أصابه شيء طاهر مثل النخامة، مثل الشيء الطاهر هذا التأويل، لا، الحديث يقصد إذا أصابه نجاسة فمسحه في الأرض يطهره.

---

(١) أخرجه الدارقطني (٢/ ٢٥٣، ٢٥٤). وضعَّف إسنادَه: ابنُ الملقن في البدر المنير (٤/ ١٣٧)، وابن حجر في التلخيص الحبير (١/ ٥٠٣).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(الثاني: أن ذلك لا يؤمر بمسحه عند الصلاة؛ فإنه لا يبطلها)**، لأنه ليس بنجاسة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(الثالث: أنه لا يخلع النعل لذلك في الصلاة؛ فإنه عملٌ لغير حاجة، فأقل أحواله الكراهة)**، وكون الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبره جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن في أسفل خفه نجاسة وهو يصلي، فخلعه أثناء الصلاة.

فهذا فيه دليل على أن الإنسان إذا كان يصلي في ثوب فيه نجاسة، ولكن نسيها ولم يغسلها، وفطن في أثناء الصلاة أنه يخلع الثوب الذي فيه النجاسة، ويصلي بالثوب الطاهر، ويستمر في صلاته.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(أن النبي** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قال: «إن جبريل أتاني، فأخبرني أن فيهما دَمَ حَلَمة»)**، يعني أن الرسول خلع خفه في أثناء الصلاة؛ لأن جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ جاء وأخبره أن في أسفله دمًا، فخلعه في أثناء الصلاة.

فهذا دليل على أن المصلي إذا خلع ما فيه النجاسة، واستمر في صلاته؛ فصلاته صحيحة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولأنه محلٌّ يتكرر ملاقاته النجاسة غالبًا)**، يعني الخف.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإن محل الاستجمار يلاقي النجاسة في اليوم مرتين أو ثلاثًا)**، كما أن الاستجمار يطهر المخرج، بعد ما يفرغ من حاجته يستجمر، ويكفي هذا، لا يحتاج إلى غسل واستنجاء، وكذلك مسح الخف يكفي ويطهر بذلك.

فصــل

وكذلك ذيل المرأة على الصحيح، وقالت امرأة لأم سلمة: «إني أطيل ذيلي وأمشي في المكان القذر؟ فقالت: قال رسول الله ﷺ: يُطَهِّرُهُ مَا بَعْدَهُ». رواه أحمد، وأبو داود(١).

وقد رخّص النبي ﷺ للمرأة أن تُرخِي ذيلها ذراعًا(٢)، ومعلوم أنه يصيب القذر، ولم يأمرها بغسل ذلك، بل أفتاهن بأنه تُطهِّره الأرض.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وكذلك ذيل المرأة على الصحيح)**، ذيل المرأة، المرأة أُمرت أن ترخي من ثوبها ما يستر عقبيها قدر ذراع، ولا يُعَدُّ هذا من الإسبال؛ لأن هذا يقصد به ستر عقبي المرأة.

ولا شك أن ذيلها يمر على أرض مختلفة، وقد يمر على نجاسة، ثم يمر على طهارة فتكون الطهارة مزيلة لما مرت عليه من النجاسة، وهذا من تيسير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

---

(١) أخرجه الإمام مالك في الموطأ (١/ ٢٤)، وأحمد (٤٤/ ٩٠)، وأبو داود (٣٨٣)، والترمذي (١٤٣)، وابن ماجه (٥٣١).

(٢) أخرجه الإمام مالك في الموطأ (٢/ ٩١٥)، وأبو داود (٤١١٧) والنسائي (٥٣٣٨): أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَتْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ حِينَ ذَكَرَ الْإِزَارَ: «فَالْمَرْأَةُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: **تُرْخِي شِبْرًا**، قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: إِذًا يَنْكَشِفُ عَنْهَا، قَالَ: **فَذِرَاعًا، لَا تَزِيدُ عَلَيْهِ**».

كذلك الذي يمشي لو وطئ نجاسة فستزيلها الأرض الطاهرة التي يطأ عليها.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقالت امرأة لأم سلمة: «إني أطيل ذيلي وأمشي في المكان القذر؟ فقالت: قال رسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **يُطهّره ما بعده»)**، يطهره ما بعده من الأرض الطاهرة إذا مرت عليها.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقد رخّص النبي** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **للمرأة أن تُرخِي ذيلها ذراعًا، ومعلوم أنه يصيب القذر ولم يأمرها بغسل ذلك، بل أفتاهن بأنه تُطهِّره الأرض)**؛ لأنه معلوم أن ذيل المرأة يمر على الأرض قد يصادف نجاسة، ولكنه بعد النجاسة يصادف أرضًا طاهرة، والطاهر يزيل النجس، والحمد لله.

فصل

ومما لا تَطيب به قلوبُ الموسوسين: الصلاة في النعال، وهي سُنة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، فعلًا منه وأمرًا، فروى أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يُصَلِّي فِي نَعْلَيْهِ». متفق عليه[1].

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: **(ومما لا تَطيب به قلوبُ الموسوسين: الصلاة في النعال)**، الصلاة في النعال، السنة أن يصلي في نعليه، أن يصلي في نعليه؛ لأن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يصلي في نعليه.

ولكن في وقتنا الحاضر -كما تعلمون- المساجد تغير وضعها عن ذي قبل، من قبل كانت المساجد ترابية ليس عليها فرش، وليس عليها شيء، فلا يضرها إذا وطئ بالنعل، وصلى بالنعل، لا يضرها ذلك.

لكن الآن المساجد المفروشة لو سُمِحَ للناس يدخلون بنعالهم ويصلون بها لتوسخت، وتغير الوضع الآن كل حالة لها حكمها.

ربما يقول واحد: أنا سأقتدي بالرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أدخل بنعالي وأصلي بنعالي، وفيها ما فيها من الأوساخ، نقول: لا، تغير وضع المساجد

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٦)، ومسلم (٥٥٥).

الآن، أصبحت مبلطة، أصبحت مفروشة، يؤثر فيها لو سُمِحَ للناس يدخلون بنعالهم؛ لتوسخت المساجد.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهي سنة رسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **وأصحابه، فعلًا منه وأمرًا)، فكان يصلي في نعاله، وأمر الصحابة** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ **أن يصلوا في نعالهم.**

وعن شَدَّاد بن أَوْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خَالِفُوا الْيَهُودَ؛ فَإِنَّهُمْ لَا يُصَلُّونَ فِي خِفَافِهِمْ، وَلَا نِعَالِهِمْ». رواه أبو داود(١).

وقيل للإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: أيصلي الرجل في نعليه؟ فقال: «إي والله».

وترى أهل الوسواس إذا بُلي أحدهم بصلاة الجنازة في نعليه، قام على عقبيهما كأنه واقف على الجمر، حتى لا يصلي فيهما.

وفي حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَسْجِدَ فَلْيَنْظُرْ: فَإِنْ رَأَى عَلَى نَعْلَيْهِ قَذَرًا فَلْيَمْسَحْهُ، وَلْيُصَلِّ فِيهِمَا»(٢).

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وعن شَدَّاد بن أَوْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خَالِفُوا الْيَهُودَ؛ فَإِنَّهُمْ لَا يُصَلُّونَ فِي خِفَافِهِمْ، وَلَا نِعَالِهِمْ». رواه أبو داود)، اليهود يأخذون هذا من قوله تعالى لموسى: ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه:١٢]، فيخلعون نعالهم.

المسلمون أمروا بمخالفتهم أن يصلوا في نعالهم، ولكن -كما سبق- هذا يوم أن كانت المساجد ترابية لا يؤثر فيها النعال والخفاف.

وأما الآن تغير الوضع، المساجد الآن مفروشة ومبلطة، فلو سُمِحَ للناس يدخلون بنعالهم وخفافهم ويصلون فيها بنعالهم تقذرت المساجد، فلا يسمح الآن بذلك.

---

(١) أخرجه أبو داود (٦٥٢)، وصحَّحه ابن حبان (٥/ ٥٦١).

(٢) تقدم تخريجه (ص٣٦٧).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وترى أهل الوسواس إذا بُلي أحدهم بصلاة الجنازة في نعليه، قام على عقبيهما كأنه واقف على الجمر، حتى لا يصلي فيهما)**؛ لأنهم لا يرون الصلاة بالنعال، مخالفين للسنة بسبب الوسواس.

فإذا ضاق الوقت ولم يتمكن من أن يخلع نعاله، حضرت جنازة، فإنه يقوم على عقبيه ولا يقوم على قدميه وعلى رجليه من الوسواس.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وفي حديث أبي سعيد الخدري** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: **«إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ المَسْجِدَ فَلْيَنْظُرْ: فَإِنْ رَأَى عَلَى نَعْلَيْهِ قَذَرًا فَلْيَمْسَحْهُ، وَلْيُصَلِّ فِيهِمَا»)**، هذا -كما ذكرنا- يوم أن كانت المساجد ترابية، أما الآن تغير الوضع.

فصــل

ومن ذلك: أن سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصلاة حيث كان، وفي أيّ مكان اتفق، سوى ما نهى عنه من المقبرة والحمّام وأعطان الإبل.

فصح عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «جُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا؛ فَحَيْثُما أَدْرَكَتْ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي الصَّلاَةُ فَلْيُصَلِّ»(١)، وكان يصلي في مرابض الغنم؛ وأمر بذلك(٢)، ولم يشترط حائلاً.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (ومن ذلك: أن سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصلاة حيث كان، وفي أيّ مكان اتفق)، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «جُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، أَيُّمَا رَجُلٍ أَدْرَكَتْهُ الصَّلاَةُ فَعِنْدَهُ مَسْجِدُهُ وَطَهُورُهُ» يعني: يتيمم ويصلي، هذا من تيسير الله على هذه الأمَّة.

كانت اليهود والنصارى لا يصلون إلا في كنائسهم، ولا تصح صلاتهم إلا في كنائسهم، أما هذه الأمة، فأباح لها الصلاة في كل أرض طاهرة.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥، ٤٣٨)، ومسلم (٥٢١) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه مسلم (٩٧) (٣٦٠) عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، «أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَأَتَوَضَّأُ مِنْ لُحُومِ الْغَنَمِ؟ قَالَ: «إِنْ شِئْتَ فَتَوَضَّأْ، وَإِنْ شِئْتَ فَلَا تَوَضَّأْ» قَالَ أَتَوَضَّأُ مِنْ لُحُومِ الْإِبِلِ؟ قَالَ: نَعَمْ فَتَوَضَّأْ مِنْ لُحُومِ الْإِبِلِ، قَالَ: أُصَلِّي فِي مَرَابِضِ الْغَنَمِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: أُصَلِّي فِي مَبَارِكِ الْإِبِلِ؟ قَالَ: لَا».

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(سوى ما نهى عنه من المقبرة والحمّام وأعطان الإبل)**، المواضع التي نهى الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الصلاة فيها: المقبرة، والحمام الذي يغتسل فيه الناس، وأعطان الإبل، وقارعة الطريق، هذا لا يصلى فيها، سبعة مواضع لا يصلى فيها(١)، وما عداها من الأرض فيصلي حيثما تيسر له ذلك.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وكان يصلي في مرابض الغنم)**، مرابض الغنم ليست مثل أعطان الإبل، لا بأس بالصلاة في مرابض الغنم، وأما أعطان الإبل فنهى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الصلاة فيها(٢)، فهي من المواضع المنهي عن الصلاة فيها، أعطان الإبل: وهي الأمكنة التي تأوي إليها الإبل، تتردد عليها.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولم يشترط حائلًا)**، يعني لم يشترط حائلًا دونها، يعني أن يفرشها، يعني مَبَارِك الغنم ومرابض الغنم لم يشترط أنها تفرش، يصلي فيها دون فراش.

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه ابن ماجه (٧٤٦): عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «نَهَى رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُصَلَّى فِي سَبْعِ مَوَاطِنَ: فِي الْمَزْبَلَةِ، وَالْمَجْزَرَةِ، وَالْمَقْبَرَةِ، وَقَارِعَةِ الطَّرِيقِ، وَالْحَمَّامِ، وَمَعَاطِنِ الْإِبِلِ، وَفَوْقَ الْكَعْبَةِ».

(٢) ستأتي الأحاديث في ذلك قريبًا.

قال ابن المنذر: أجمع كل من يُحفَظ عنه من أهل العلم على إباحة الصلاة في مرابض الغنم، إلا الشافعي؛ فإنه قال: أكره ذلك؛ إلا إذا كان سليمًا من أبعارها(١).

وقال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «صَلُّوا فِي مَرَابِضِ الغَنَمِ، وَلَا تُصَلُّوا فِي أَعْطَانِ الْإِبِلِ». رواه الترمذي، وقال: «حديث صحيح»(٢).

وروى الإمام أحمد من حديث عُقْبَةَ بنِ عامر، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «صَلُّوا فِي مَرَابِضِ الغَنَمِ، وَلَا تُصَلُّوا فِي أَعْطَانِ الْإِبِلِ -أَوْ: مَبَارِكِ الْإِبِلِ-»(٣).

وفي «المسند» أيضًا، من حديث عبد الله بن المغَفّل، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «صَلُّوا فِي مَرَابِضِ الغَنَمِ، وَلَا تُصَلُّوا فِي أَعْطَانِ الإِبِلِ؛ فَإِنَّهَا خُلِقَتْ مِنَ الشَّيَاطِينِ»(٤).

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (قال ابن المنذر: أجمع كل من يُحفَظ عنه من أهل العلم على إباحة الصلاة في مرابض الغنم؛ إلا الشافعي، فإنه قال: أكره ذلك؛ إلا إذا كان

(١) الأوسط في السنن والإجماع والاختلاف (٢/ ١٨٧).
(٢) أخرجه الترمذي (٣٤٨)، وابن ماجه (٧٦٨)، وصححه ابن خزيمة (٢/ ٨)، وابن حبان (٤/ ٢٢٥، ٦٠٠) و (٦/ ٨٨، ٨٩).
(٣) أخرجه أحمد في المسند (٢٨/ ٥٨٥)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/ ٢٦): (رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وأحمدُ، ورجالُ أحمدَ ثقاتٌ).
(٤) أخرجه أحمد في المسند (٢٧/ ٣٥٣)، وابن ماجه (٧٦٩)، وصحَّحه ابن حبان (٤/ ٦٠١).

سليمًا من أبعارها)، لكن سنة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هي الواجب اتباعها، أما أقوال المجتهدين فقد تكون صوابًا وقد تكون خطأً.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(من حديث عبد الله بن المغَفّل، قال: قال رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**صَلُّوا فِي مَرَابِضِ الغَنَمِ، وَلَا تُصَلُّوا فِي أَعْطَانِ الْإِبِلِ؛ فَإِنَّهَا خُلِقَتْ مِنَ الشَّيَاطِينِ**»)، الإبل يعني، الإبل فيها شيطنة؛ ولذلك رعاة الإبل يختلفون عن رعاة الغنم؛ رعاة الغنم عليهم سكينة، طمأنينة وهدوء، ورعاة الإبل غير ذلك؛ يكون عليهم شدة، ويكون فيهم قسوة، وما من نبي إلا رعى الغنم[1]؛ لأن الغنم فيها سكينة، فيها خير.

❖ ❖ ❖

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٢٢٦٢)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «**مَا بَعَثَ اللهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الغَنَمَ**»، فَقَالَ أَصْحَابُهُ: وَأَنْتَ؟ فَقَالَ: «**نَعَمْ، كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطَ لِأَهْلِ مَكَّةَ**».

وفي الباب عن جابر بن سَمُرَةَ، والبراء بن عازب، وأُسيد بن حُضير، وذي الغُرَّة، كلهم رَوَوْا عن النبي ﷺ: «صَلُّوا فِي مَرَابِضِ الغَنَمِ»(١).

وفي بعض ألفاظ الحديث: «صَلُّوا فِي مَرَابِضِ الغَنَمِ؛ فَإِنَّ فِيهَا بَرَكَةً»(٢).

وقال: «الأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدٌ، إِلَّا المَقْبَرَةَ وَالحَمَّامَ». رواه أهل «السنن» كلُّهم إلا النسائيَّ(٣).

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال: «الْأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدٌ، إِلَّا الْمَقْبَرَةَ وَالْحَمَّامَ»)، الأرض كلها مسجد؛ قال ﷺ: «وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا»(٤). فصل أينما صادفتك الصلاة، إذا كنت مسافرًا أو خارج البلد.

---

(١) أما حديث جابر بن سمرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: فأخرجه مسلم (٣٦٠).
وأما حديث البراء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: فأخرجه أحمد (٣٠/ ٥٠٩، ٥١٠)، وأبو داود (١٨٤، ٤٩٣)، وابن حبان (٣/ ٤١٠).
وأما حديث أسيد بن حضير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: فأخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١/ ٢٠٦) والمعجم الأوسط (٧/ ٢٤٨)، وقال الهيثمي في المجمع (٢/ ٢٧): (فيه الحجاج بن أرطاة، وفي الاحتجاج به اختلاف).
وأما حديث ذي الغرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: فأخرجه عبدالله بن أحمد في زوائد المسند (٢٧/ ١٨٥) و(٣٤/ ٥٥٧)، والطبراني في الكبير (٢٢/ ٢٧٦).

(٢) كما في حديث البراء بن عازب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عند أحمدَ (٣٠/ ٥٠٩، ٥١٠)، وأبي داودَ (١٨٤، ٤٩٣).

(٣) أخرجه أحمد (١٨/ ٣٠٨)، وأبو داود (٤٩٢)، والترمذي (٣١٧)، وابن ماجه (٧٤٥)، وابن حبان (٤/ ٥٩٨) و(٦/ ٨٩، ٩٢)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٤) تقدم تخريجه (ص٢٠٧).

إلا المواطن التي نهى الرسول ﷺ عنها، منها معاطن الإبل، منها قارعة الطريق، ومنها فوق سطح الكعبة، أو في داخل الكعبة، الفريضة لا تصلى داخل الكعبة.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**وقال: الْأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدٌ، إِلَّا الْمَقْبَرَةَ**)، المقبرة: لأنه منهى عن الصلاة عند القبور؛ لأن هذا يجر إلى العقيدة الفاسدة، والاعتقاد في القبور.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**وَالْحَمَّامَ**)، والحمام: المراد به محل الاغتسال والتنظف، وأما الحُشُوشَ التي تسمى حمامات الآن وفيها قضاء الحاجة هذه ليست حمامات، هذه حشوش.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**رواه أهل «السنن» كلهم**)، يعني السنن الأربع: سنن أبي داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، هذه السنن الأربع.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**إلا النسائيَّ**)، من أصحاب السنن.

فأين هذا الهدي من فِعْل مَنْ لا يصلي إلا على سجادة، تُفرش فوق البساط فوق الحصير، ويوضع عليها المنديل، ولا يمشي على الحصير، ولا على البساط، بل يمشي عليها قفزًا كالعصفور؟

فما أحقَّ هؤلاء بقول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لأنتم أهدى من أصحاب محمدٍ، أو أنتم على شعبةِ ضلالةٍ»[(١)].

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٣/ ٢٢١)، والدارمي (٢١٠)، وبحشل في تاريخ واسط (ص١٩٨، ١٩٩)، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (١٢/ ١٦٢). قَالَ الدَّارِمِيُّ: أَخْبَرَنَا الحَكَمُ بْنُ المُبَارَكِ، أَنبأَنَا عَمْرُو بْنُ يَحْيَى، قَالَ: سَمِعْتُ أَبِي، يُحَدِّثُ عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: «كُنَّا نَجْلِسُ عَلَى بَابِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَبْلَ صَلَاةِ الْغَدَاةِ، فَإِذَا خَرَجَ مَشَيْنَا مَعَهُ إِلَى المَسْجِدِ، فَجَاءَنَا أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ: أَخَرَجَ إِلَيْكُمْ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ بَعْدُ؟ قُلْنَا: لَا. فَجَلَسَ مَعَنَا حَتَّى خَرَجَ، فَلَمَّا خَرَجَ قُمْنَا إِلَيْهِ جَمِيعًا، فَقَالَ لَهُ أَبُو مُوسَى: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، إِنِّي رَأَيْتُ فِي المَسْجِدِ آنِفًا أَمْرًا أَنْكَرْتُهُ، وَلَمْ أَرَ -وَالحَمْدُ للهِ- إِلَّا خَيْرًا. قَالَ: فَمَا هُوَ؟ فَقَالَ: إِنْ عِشْتَ فَسَتَرَاهُ. قَالَ: رَأَيْتُ فِي المَسْجِدِ قَوْمًا حِلَقًا جُلُوسًا يَنْتَظِرُونَ الصَّلَاةَ، فِي كُلِّ حَلْقَةٍ رَجُلٌ، وَفِي أَيْدِيهِمْ حَصًى، فَيَقُولُ: كَبِّرُوا مِئَةً، فَيُكَبِّرُونَ مِئَةً، فَيَقُولُ: هَلِّلُوا مِئَةً، فَيُهَلِّلُونَ مِئَةً، فَيَقُولُ: سَبِّحُوا مِئَةً، فَيُسَبِّحُونَ مِئَةً، قَالَ: فَمَاذَا قُلْتَ لَهُمْ؟ قَالَ: مَا قُلْتُ لَهُمْ شَيْئًا انْتِظَارَ رَأْيِكَ أَوِ انْتِظَارَ أَمْرِكَ. قَالَ: أَفَلَا أَمَرْتَهُمْ أَنْ يَعُدُّوا سَيِّئَاتِهِمْ، وَضَمِنْتَ لَهُمْ أَلَّا يَضِيعَ مِنْ حَسَنَاتِهِمْ شَيْءٌ؟ ثُمَّ مَضَى وَمَضَيْنَا مَعَهُ، حَتَّى أَتَى حَلْقَةً مِنْ تِلْكَ الحِلَقِ، فَوَقَفَ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: مَا هَذَا الَّذِي أَرَاكُمْ تَصْنَعُونَ؟ قَالُوا: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، حَصًى نَعُدُّ بِهِ التَّكْبِيرَ وَالتَّهْلِيلَ وَالتَّسْبِيحَ. قَالَ: فَعُدُّوا سَيِّئَاتِكُمْ، فَأَنَا ضَامِنٌ أَلَّا يَضِيعَ مِنْ حَسَنَاتِكُمْ شَيْءٌ! وَيْحَكُمْ يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ! مَا أَسْرَعَ هَلَكَتَكُمْ! هَؤُلَاءِ صَحَابَةُ نَبِيِّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُتَوَافِرُونَ، وَهَذِهِ ثِيَابُهُ لَمْ تَبْلَ، وَآنِيَتُهُ لَمْ تُكْسَرْ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّكُمْ لَعَلَى مِلَّةٍ هِيَ أَهْدَى مِنْ مِلَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَوْ مُفْتَتِحُو بَابِ ضَلَالَةٍ. قَالُوا: وَاللهِ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، =

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فأين هذا الهدي من فِعْل مَنْ لا يصلي إلا على سجادة، تُفرش فوق البساط فوق الحصير، ويوضع عليها المنديل، ولا يمشي على الحصير، ولا على البساط، بل يمشي عليها قفزًا كالعصفور؟)**، هذا الموسوس.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فما أحقَّ هؤلاء بقول ابن مسعود** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: **«لأنتم أهدى من أصحاب محمدٍ، أو أنتم على شعبةِ ضلالةٍ»)**، لما كان قومٌ يجمعون حصى في المسجد، ويأتيهم واحد ويقول: سبِّحوا مئة مرة، ويعدون بالحصى.

جاءهم ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وأنكر عليهم، قال: هل أنتم أهدى من رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو أنتم مُحْدِثو ضلالةٍ؟! فزجرهم عن هذا؛ لأن هذا شيء لم يفعله الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ يأتون بالحصى ويعدون التسبيح والتهليل، سبِّح بدون حصى.

=مَا أَرَدْنَا إِلَّا الخَيْرَ. قَالَ: وَكَمْ مِنْ مُرِيدٍ لِلْخَيْرِ لَنْ يُصِيبَهُ، إِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَدَّثَنَا أَنَّ قَوْمًا يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، وَايْمُ اللهِ، مَا أَدْرِي، لَعَلَّ أَكْثَرَهُمْ مِنْكُمْ. ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ. فَقَالَ عَمْرُو بْنُ سَلِمَةَ: رَأَيْنَا عَامَّةَ أُولَئِكَ الحِلَقِ يُطَاعِنُونَنَا يَوْمَ النَّهْرَوَانِ مَعَ الخَوَارِجِ».

وقد صلى النبي ﷺ على حصير قد اسْوَدَّ من طول ما لُبِس، فنُضح له بالماء وصلَّى عليه(١)، ولم يُفْرَش له فوقه سجادة ولا منديل.

وكان ﷺ يسجد على التراب تارة، وعلى الحصى تارة، وفي الطين تارة، حتى يُرى أثره على جبهته وأنفه(٢).

وقال ابن عمر: «كانت الكلاب تُقبِلُ وتُدبِر وتبول في المسجد، ولم يكونوا يرشُّون شيئًا من ذلك». رواه البخاري(٣)، ولم يقل: «وتبول»، وهو عند أبي داود(٤) بإسناد صحيح بهذه الزيادة.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقد صلى النبي ﷺ على حصير قد اسْوَدّ من طول ما لُبِس)، يعني استعمل، من طول ما لُبِس يعني من طول ما استعمل، صلى عليه الرسول ﷺ، وقد اسْوَدّ.

فالرسول يصلي على كل طاهر كيفما اتفق: على أرض، على فراش، على

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٨٠، ٨٦٠)، ومسلم (٦٥٨)، عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ جَدَّتَهُ مُلَيْكَةَ دَعَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ لِطَعَامٍ صَنَعَتْهُ، فَأَكَلَ مِنْهُ، ثُمَّ قَالَ: قُومُوا فَأُصَلِّيَ لَكُمْ، قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ: فَقُمْتُ إِلَى حَصِيرٍ لَنَا قَدِ اسْوَدَّ مِنْ طُولِ مَا لُبِسَ، فَنَضَحْتُهُ بِمَاءٍ، فَقَامَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَصَفَفْتُ أَنَا وَالْيَتِيمُ وَرَاءَهُ، وَالْعَجُوزُ مِنْ وَرَائِنَا، فَصَلَّى لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ انْصَرَفَ».

(٢) تقدم تخريجه (ص٢٠٩).

(٣) أخرجه البخاري (١٧٤).

(٤) أخرجه أبو داود (٣٨٢)، وصححه ابن حبان (٤/ ٥٣٧).

حصير، لا يتكلف أنه لابد من سجادة معينة للصلاة، سجادة وسبحة، هذا عند الصوفية.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**فنُضح له بالماء وصلَّى عليه، ولم يُفْرَش له فوقه سجادة ولا منديل**)، بل كان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسجد على الأرض، يسجد على الأرض، وتارة يسجد على الماء والطين إذا نزل مطر، ويؤثر الماء والطين على جبهته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وكان** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **يسجد على التراب تارة، وعلى الحصى تارة، وفي الطين تارة، حتى يُرى أثره على جبهته وأنفه**)، لم يكن صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتكلف فراشًا للصلاة، إنما يصلي على ما تيسر من الأرض الطاهرة، أو الفراش الطاهر.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وقال ابن عمر: «كانت الكلاب تُقبلُ وتُدبِر وتبول في المسجد، ولم يكونوا يرشُّون شيئًا من ذلك»**)، كان مسجد الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليس عليه أبواب، كان مفتوحًا، وكان عريشًا على جذوع النخل، وسقفه سعف النخل.

وكان مفتوح الأبواب تدخله الكلاب في الليل ولا يمنعونها، ولا تؤثر في المسجد، كان يصلي في المسجد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مع أن الكلاب تدخل فيه، وتبول فيه أيضًا؛ لأن هذا من التكلف، لو أنهم لم يصلوا في المسجد الذي تدخله الكلاب هذا من التكلف.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(رواه البخاري، ولم يقل: «وتبول»، وهو عند أبي داود بإسناد صحيح بهذه الزيادة)**، يعني رواية:« وتبول» ليست عند البخاري، وإنما هي عند غيره.

المهم أنك لا تصلي على مكان البول، صلِّ على أرض غير مكان البول، وصلاتك صحيحة.

الأعرابي الذي بالَ في مسجد الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فنهروه، ثم نهاهم الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عن ذلك، وتركوه حتى أكمل بوله، فأمر صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بدلو من ماء، فصُبَّ على مكان البول[1]. هذا كله ردٌّ على الموسوسين.

❖ ❖ ❖

(١) أخرجه البخاري (٢١٩)، ومسلم (٢٨٤) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ:«جَاءَ أَعْرَابِيٌّ فَبَالَ فِي طَائِفَةِ المَسْجِدِ، فَزَجَرَهُ النَّاسُ، فَنَهَاهُمُ النَّبِيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فَلَمَّا قَضَى بَوْلَهُ أَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بِذَنُوبٍ مِنْ مَاءٍ؛ فَأُهْرِيقَ عَلَيْهِ».

فصــل

ومن ذلك: أن الناس في عصر الصحابة والتابعين ومَن بعدهم كانوا يأتون المساجد حُفاةً في الطين وغيره.

قال يحيى بن وَثّاب: قلت لابن عباس: الرجل يتوضأ، يخرج إلى المسجد حافيًا؟ قال: لا بأس به.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومن ذلك: أن الناس في عصر الصحابة والتابعين ومَن بعدهم كانوا يأتون المساجد حُفاةً في الطين وغيره)**، الموسوسون يظنون أن مَن مشى حافيًا تتنجس قدماه، ولابد من غسلهما.

ولكن السُّنَّة تبطل ذلك، الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ وهم أزكى الأمَّة، وأطهر الأمَّة، كانوا يمشون إلى المساجد غير منتعلين، يمشون حفاة ولا يغسلون أقدامهم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قال يحيى بن وَثّاب: قلت لابن عباس: الرجل يتوضأ، يخرج إلى المسجد حافيًا؟ قال: لا بأس به)**، لا بأس بذلك، هذا فعل الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ.

وقال كُمَيْلُ بن زياد: «رأيت عليًّا يخوض طين المطر، ثم دخل المسجد، فصلَّى ولم يغسل رجليه».

وقال إبراهيم النَّخَعي: «كانوا يخوضون الماء والطين إلى المسجد، فيصلون».

وقال يحيى بن وثَّاب: «كانوا يمشون في ماء المطر، وينتضح عليهم».

رواها سعيد بن منصور في «سننه».

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال كُمَيْلُ بن زياد: «رأيت عليًّا يخوض طين المطر، ثم دخل المسجد، فصلَّى ولم يغسل رجليه»)**، وهذا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ خاض في الوحل والطين في الشارع وصلى بالمسجد، ولم يغسل رجليه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال إبراهيم النخَعي: «كانوا يخوضون الماء والطين إلى المسجد، فيصلون»)**، قال إبراهيم النخعي: أحد كبار التابعين.

كانوا-يعني الصحابة- يخوضون في الشوارع ويصلون ولا يتوضؤون ولا يغسلون أقدامهم، وهذا من يسر هذه الشريعة وكمالها.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال يحيى بن وثَّاب: «كانوا يمشون في ماء المطر، وينتضح عليهم»)**، كانوا يمشون في المطر وفي الوحل إلى المساجد، ويصلون ولا يغسلون أقدامهم؛ لأن هذا من التشدد والوسواس الذي ما أنزل الله به من سلطان، والأصل أن الشوارع طاهرة، الأصل أن الشوارع طاهرة.

ولو قُدر أنه يطأ على أرض فيها نجاسة، فإنه يمر على أرض طاهرة -كما سبق-؛ فتَطهر قدماه بذلك.

وقال ابن المنذر: «وطئ ابن عمر بمنًى وهو حافٍ في ماء وطين، ثم صلَّى ولم يتوضأ»[١].

قال: «وممن رأى ذلك: علقمة، والأسود، وعبد الله بن مَعقِل، وسعيد ابن المسيب، والشعبي، والإمام أحمد، وأبو حنيفة، ومالك، وأحد الوجهين للشافعية».

قال: «وهو قول عامة أهل العلم، ولأن تنجيسها فيه مشقة عظيمة منتفية بالشرع، كما في أطعمة الكفار وثيابهم، وثياب الفسَّاق شَرَبة الخمر وغيرهم».

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال ابن المنذر: «وطئ ابن عمر بمنًى وهو حافٍ في ماء وطين، ثم صلى ولم يتوضأ»)، أي في منى وقت الحج، وهو حافٍ ليس عليه نعال، في ماء وطين، صلى ولم يغسل قدميه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قال: «وممن رأى ذلك: علقمة، والأسود، وعبد الله بن مَعقِل، وسعيد بن المسيب، والشعبي، والإمام أحمد، وأبو حنيفة، ومالك، وأحد الوجهين للشافعية»)، كل هؤلاء من الأئمة على هذا أنه يمشي في الشارع، وإن كان فيه وحل وطين ويصلي ولا يغسل قدميه.

---

(١) انظر: الأوسط في السنن والإجماع والاختلاف (٢/ ١٧١، ١٧٢). وانظر أيضًا: مصنف عبد الرزاق الصنعاني (١/ ٣١).

وعلقمة والأسود نخعيان، وإبراهيم النخعي هؤلاء تلاميذ ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(قال: «وهو قول عامة أهل العلم، ولأن تنجيسها فيه مشقة عظيمة منتفية بالشرع، كما في أطعمة الكفار وثيابهم، وثياب الفسَّاق شَرَبة الخمر وغيرهم»)**، كانوا يلبسون الثياب التي يأخذونها من الغنائم، ثياب الكفار ويلبسونها ويصلون فيها ولم يكونوا يغسلونها، وكانوا يستوردون الأقمشة من الكفار، والكفار لا شك أنهم باشروها ولمسوها، ولم يكونوا يغسلونها، فالأصل -والحمد لله- الطهارة ما لم تعلم نجاسة فتغسل.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(قال: «وهو قول عامة أهل العلم، ولأن تنجيسها فيه مشقة عظيمة منتفية بالشرع)**، تنجيسها: يعني لو حُكِمَ بنجاستها لصارت هناك مشقة على الناس، والدين جاء برفع الحرج، ورفع المشقة.

قال أبو البركات ابن تيميَّة: «وهذا كله يُقوِّي طهارة الأرض بالجفاف؛ لأن الإنسان في العادة لا يزال يشاهد النجاسات في بقعة بقعة من طرقاته، التي يكثر فيها تردده إلى سوقه ومسجده وغيرهما.

فلو لم تطهر إذا أذهب الجفاف أثرها، للزمه تجنب ما شاهده من بقاع النجاسة بعد ذهاب أثرها، ولَمَا جاز له التحفِّي بعد ذلك.

وقد عُلِمَ أن السلف الصالح لم يحترزوا من ذلك، ويَعضده أمرُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمسح النعلين بالأرض لمن أتى المسجد ورأى فيهما خَبَثًا[١].

ولو نجست الأرضُ بذلك نجاسةً لا تطهر بالجفاف لأمر بصيانة طريق المسجد عن ذلك؛ لأنه يسلكه الحافي وغيره».

قلت: وهذا اختيار شيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقال أبو قِلابةَ: «جفاف الأرض طهورها»[٢].

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (قال أبو البركات ابن تيميَّة)، جد شيخ الإسلام، صاحب المنتقى.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وهذا كله يُقوِّي طهارة الأرض بالجفاف)، طهارة الأرض بالجفاف: يعني أنها تطهرها الشمس والريح؛ إذا ضربتها الشمس والريح، فإنها تطهر بذلك

---

(١) سبق تخريجه (ص٣٦٧).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٣/ ١٥٨)، وابن أبي شيبة (١/ ٥٩).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقد عُلِمَ أن السلف الصالح لم يحترزوا من ذلك)**، هذا فيه رد على أهل الوسواس: أن هذا خلاف ما عليه السلف الصالح، وخلاف ما تدل عليه الشريعة من نفي الحرج.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ويَعضده أمرُه** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **بمسح النعلين بالأرض لمن أتى المسجد ورأى فيهما خَبَثًا)**، إذا كان على الإنسان نعلان، وأراد أن يدخل المسجد، فإنه ينظر في أسفلهما؛ فإن وجد فيه شيئًا، فإنه يحكه بالأرض ويكفي ولا يغسله، كما كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يفعل ذلك.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولو نجست الأرضُ بذلك نجاسةً لا تطهر بالجفاف لأمر بصيانة طريق المسجد عن ذلك؛ لأنه يسلكه الحافي وغيره)**، ولو كانت الأرض متنجسة لا تطهر بالجفاف يعني بالشمس والريح، لنُقِلَ ذلك عن السلف.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولو نجست الأرضُ بذلك نجاسةً لا تطهر بالجفاف لأمر بصيانة طريق المسجد عن ذلك؛ لأنه يسلكه الحافي وغيره)**، والرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يأمر بصيانة الطرقات إلى المسجد، بل هي كسائر الطرقات، وهذا من رفع الحرج.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قلت: وهذا اختيار شيخنا** رَحِمَهُ ٱللَّهُ**)**، شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ اختار: أن الأرض يطهرها الجفاف بالشمس والريح..

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال أبو قِلابة: «جفاف الأرض طهورها»)**، جفافها بالشمس والريح طهورها من النجاسة.

فصل

ومن ذلك: أن النبي ﷺ سئل عن المذي، فأمر بالوضوء منه، فقال: كيف ترى بما أصاب ثوبي منه؟ قال: «تأْخذ كفًّا من ماء فتنضحُ به حيث ترى أنه أصابه». رواه أحمد، والترمذي، والنسائي(١).

فجوّز نضح ما أصابه المذي، كما أمر بنضح بول الغلام(٢).

قال شيخنا: وهذا هو الصواب؛ لأن هذه نجاسة يشق الاحتراز منها؛ لكثرة ما تصيب ثياب العزَبَ، فهي أولى بالتخفيف من بول الغلام، ومن أسفل الخف والحذاء.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ومن ذلك: «أن النبي ﷺ سئل عن المذي، فأمر بالوضوء منه، فقال: كيف ترى بما أصاب ثوبي منه؟ قال: أْخذ كفًّا من ماء فتنضحُ به حيث ترى أنه أصابه»)، المذي هو الماء الذي يخرج من الذكر عند ملاعبة الزوجة، أو عند المثيرات التي تثير الشهوة.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٥/ ٣٤٥)، وأبو داود (٢١٠)، والترمذي (١١٥) وقال: (حديث حسن صحيح)، وابن خزيمة (١/ ١٤٧)، وابن حبان (٣/ ٣٨٨)، من حديث سهل بن حُنَيف رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرج أبو داود (٣٧٦)، والنسائي (٣٠٤)، وابن ماجه (٥٢٦) عن أبي السَّمْح رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: «كُنْتُ خَادِمَ النَّبِيِّ ﷺ، فَجِيءَ بِالحَسَنِ أَوِ الحُسَيْنِ، فَبَالَ عَلَى صَدْرِهِ، فَأَرَادُوا أَنْ يَغْسِلُوهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «رُشَّهُ؛ فَإِنَّهُ يُغْسَلُ بَوْلُ الجَارِيَةِ، وَيُرَشُّ مِنْ بَوْلِ الْغُلَامِ».

قد يخرج ماء من الذكر، وهذا يغسل، أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بنضحه، بنضحه بالماء، يكفي النضح؛ بأن يرش بالماء ويصلي الإنسان والحمد لله.

ويرش الثوب إذا أصابه أيضًا، مجرد رش لا غسل؛ لأنها نجاسة مخففة، هذا يسمونه: النجاسة المخففة.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(فجوّز نضح ما أصابه المذي، كما أمر بنضح بول الغلام)**، بول الغلام وهو الطفل الصغير الذي لم يأكل الطعام، يتغذى باللبن، فإذا بَالَ فإنه يرش بالماء ويكفي، نجاسة مخففة.

وكان بعض الغلمان يتبولون في حجر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان يرش ذلك بالماء ولا يغسله، وهذه ما تسمى بالنحاسة المخففة.

في الحديث: «**يُغْسَلُ مِنْ بَوْلُ الجَارِيَةِ، وَيُرشُّ مِنْ بَوْلِ الْغُلَامِ**». يعني: الذكر، فبول الغلام يكفي فيه الرش، وأما بول الجارية فإنه مثل الكبيرة؛ يجب غسله.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(قال شيخنا: وهذا هو الصواب؛ لأن هذه نجاسة يشق الاحتراز منها؛ لكثرة ما تصيب ثياب العزَبَ، فهي أولى بالتخفيف من بول الغلام، ومن أسفل الخف والحذاء)**، يعني أن المذي يرش بالماء وينضح بالماء ويكفي هذا؛ لإزالة المشقة، لكثرة المذي من الشباب ومن العزاب الذين لم يتزوجوا.

فيكفي أنه إذا أصاب المذي ثوبه أنه يرشه بالماء، مثل بول الغلام يرش بالماء ويكفي.

ومن ذلك: إجماع المسلمين على ما سنّه لهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من جواز الاستجمار بالأحجار في زمن الشتاء والصيف، مع أن المحلّ يعرَق، فينضح إلى الثوب، ولم يأمر بغسله.

ومن ذلك: أنه يُعفى عن يسير أرواث البغال والحمير والسباع، في إحدى الروايتين عن أحمد، اختارها شيخنا لمشقة الاحتراز.

قال الوليد بن مسلم: قلت للأوزاعي: «فأبوال الدواب مما لا يؤكل لحمه، كالبغل والحمار والفرس؟ فقال: قد كانوا يُبتلون بذلك في مغازيهم، فلا يغسلونه من جسد ولا ثوب».

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومن ذلك: إجماع المسلمين على ما سنّه لهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من جواز الاستجمار بالأحجار في زمن الشتاء والصيف، مع أن المحلّ يعرَق، فينضح إلى الثوب، ولم يأمر بغسله)**، إذا قضى حاجته من بول أو غائط، فإنه يستجمر بثلاثة أحجار يمسح بها المخرج حتى يجف، وهذا طهوره لا يحتاج إلى غسل.

وهذا بالإجماع أن الاستجمار يطهر المحل، وحتى لو بقيت آثار لا يزيلها إلا الماء، فلا حرج في ذلك.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومن ذلك: أنه يُعفى عن يسير أرواث البغال والحمير والسباع، في إحدى الروايتين عن أحمد، اختارها شيخنا لمشقة الاحتراز)**،

الذين يركبون الحمر ويحملون عليها لابد أن يصيبهم من عرقها ويصيبهم شيء من بولها، ولم يذكر أنهم أمروا بأن يغسلوا ثيابهم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قال الوليد بن مسلم: قلت للأوزاعي: «فأبوال الدواب مما لا يؤكل لحمه، كالبغل والحمار والفرس؟ فقال: قد كانوا يُبتلون بذلك في مغازيهم، فلا يغسلونه من جسد ولا ثوب»)**، أبوال الحيوانات على قسمين:

قسم يؤكل لحمه: فالذي يؤكل لحمه بوله ومنيه طاهر كالإبل والغنم، طاهر، بولها طاهر، ما يؤكل لحمه فإن بوله وريقه طاهر.

ولهذا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر الذين أصابتهم الحمى بشرب أبوال الإبل ولبنها، فلو كانت أبوال الإبل نجسة لما أمر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشربها[(١)].

قالوا: وهذا دليل على أن كل ما يؤكل لحمه فروثه وبوله ومنيه طاهر، وهذا من إزالة المشقة عن الناس.

❖ ❖ ❖

(١) كما في حديث أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، الذي أخرجه البخاري (١٥٠١، ٤١٩٢، ٤٦١٠، ٥٦٨٦)، ومسلم (١٦٧١).

ومن ذلك: نصُّ أحمدَ على أن الوَدْيَ يُعفى عن يسيره كالمذي، وكذلك يُعفى عن يسير القيء، نص عليه أحمد.

وقال شيخنا: لا يجب غسل الثوب ولا الجسد من المِدّة والقَيْح والصديد، قال: ولم يَقُمْ دليل على نجاسته.

وذهب بعض أهل العلم إلي أنه طاهر، حكاها أبو البركات.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (ومن ذلك: نصُّ أحمد على أن الوَدْيَ يُعفى عن يسيره كالمذي)، الوَدْي: هو ماء يخرج من الذكر بعد التبول غير المذي، وهذا نجاسته مخففة أيضًا مثل المذي يكفي نضحه.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وكذلك يُعفى عن يسير القيء، نص عليه أحمد)، وكذلك يسير القيء الذي يخرج من المعدة نجس، فالقيء نجس، ولكنه يعفى عن يسيره إذا أصاب الثوب أو أصاب البدن، يعفى عن يسيره.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقال شيخنا: لا يجب غسل الثوب ولا الجسد من المِدّة) الظاهر أنها المذي، من المذي يمكن.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (والقَيْح والصديد) والقيء، إذا تقيأ الإنسان وأصاب ثوبه شيء من القيء، هو نجس لكن يعفى عن يسيره.

والصديد الذي يكون من الدم، هذا أيضًا يعفى عن يسيره؛ لأن الدم نجس، وما يكون منه فهو نجس، لكن يعفى عن يسيره لعموم البلوى بذلك.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وذهب بعض أهل العلم إلي أنه طاهر، حكاها أبو البركات)**، حكاها رواية عن أحمد: أبو البركات ابن تيمية أنه طاهر، هذه الأشياء طاهرة، وعلى القول الأول: يعفى عن يسيرها وإن كانت نجسة.

وكان ابن عمر لا ينصرف منه في الصلاة، وينصرف من الدم[١]، وعن الحسن نحوه[٢].

وسئل أبو مِجْلَز عن القَيْح يصيب البدن والثوب؟ فقال: «ليس بشيء، إنما ذكر الله الدمَ، ولم يذكر القيح»[٣].

وقال إسحاق بن راهويه: «كل ما كان سوى الدم فهو عندي مثل العَرَق المنتن وشبهه، ولا يوجب وضوءًا».

وسئل أحمد: الدم والقيح عندك سواء؟ فقال: «لا، الدم لم يختلف الناس فيه، والقيح قد اختلف الناس فيه».

وقال مرةً: «القيح والصديد والمِدَّةُ عندي أسهل من الدم».

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وكان ابن عمر لا ينصرف منه في الصلاة)**، لا ينصرف من الرعاف في الصلاة أو من شيء من القيء، بل يكمل صلاته إذا أصابه

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وينصرف من الدم)**، أما الدم الكثير؛ فإنه ينقض الوضوء، وهو نجس إذا أصاب الثوب والبدن، فيغسل.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وسئل أبو مِجْلَز عن القَيْح يصيب البدن والثوب؟ فقال:**

---

(١) انظر: موطأ مالك (١/ ٣٨)، ومصنف عبد الرزاق (١/ ١٤٥، ٣٧٢) و(٢/ ٣٥٩)، ومصنف ابن أبي شيبة (١/ ١٢٨).

(٢) انظر: مصنف عبد الرزاق (١/ ١٤٤، ٣٧٦)، ومصنف ابن أبي شيبة (١/ ١١٠، ١٢٧).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (١/ ١١٠).

«ليس بشيء، إنما ذكر الله الدمَ، ولم يذكر القيح»)، القيح والصديد مشتقات الدم، ولم يذكر أنها نجسة، فهذه كلها لا يغسل منها.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال إسحاق بن راهويه: «كل ما كان سوى الدم فهو عندي مثل العَرَق المنتن وشبهه، ولا يوجب وضوءًا»)**، هذه الأشياء مثل العرق لا توجب وضوءًا ولا غسل ما أصابه منها؛ لأنها مما يبتلى بها الإنسان.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وسئل أحمد: الدم والقيح عندك سواء؟ فقال: «لا، الدم لم يختلف الناس فيه»)**، أنه نجس يعني، فالدم نجس بخلاف القيح والصديد، وما تولد من الدم؛ فهذا لا يسمى دمًا، ولا يأخذ حكم الدم.

ومن ذلك: ما قاله أبو حنيفة: أنه لو وقع بَعْرُ الفأر في حِنطة فطُحنت، أو في دُهن مائع؛ جاز أكله ما لم يتغير؛ لأنه لا يمكن صونه عنه، قال: فلو وقع في الماء نجَّسه.

وذهب بعض أصحاب الشافعي إلي جواز أكل الحنطة التي أصابها بول الحمير عند الدِّيَاس من غير غسل، قال: لأن السلف لم يحترزوا من ذلك.

وقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كنا نأكل اللحم، والدمُ خطوطٌ على القِدر».

وقد أباح الله سبحانه صيد الكلب وأطلق، ولم يأمر بغسل موضع فيه من الصيد ومَعَضّه ولا تقويره، ولا أمر به رسوله، ولا أفتى به أحدٌ من الصحابة.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وذهب بعض أصحاب الشافعي إلي جواز أكل الحنطة التي أصابها بول الحمير عند الدِّيَاس من غير غسل)، الدَّياس: كانوا يدرسون الزرع اليابس بالحمير، وكانت تبول، كانت الحمير تبول في الدياس، ولم يكونوا يغسلونها؛ لأن هذا فيه مشقة، فيعفى عن ذلك.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (قال: لأن السلف لم يحترزوا من ذلك)، لأنه يصعب الاحتراز من ذلك، الحمير إذا ديست على القصب لابد من أن تبول، فلو أُمِرَ بالغسل لشق ذلك على الناس.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كنا نأكل اللحم، والدمُ خطوطٌ على القِدر»)، الدم المسفوح هذا نجس وحرام.

﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا﴾ [الأنعام:١٤٥]، وهو الذي يخرج من الأوداج عند الذكاة، هذا نجس، وأما الدم المتبقي في اللحم، فهذا يؤكل مع اللحم ولا يضر، ولا يغسل اللحم منه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقد أباح الله سبحانه صيد الكلب وأطلق، ولم يأمر بغسل موضع فيه من الصيد ومَعَضّه ولا تقويره)**، الكلب المعلَّم يعني، كلب الصيد؛ ﴿فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾ [المائدة:٤].

فمع أن الكلب إذا أمسك الصيد بفمه فإن ريقه يصيب الصيد، ومع هذا لم يؤمر بغسل الصيد؛ ﴿فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾ [المائدة:٤].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولا أمر به رسوله، ولا أفتى به أحدٌ من الصحابة)**، لم يكونوا يغسلون صيد الكلب، وإن كان أصابه شيء من ريقه، وهذا من إزالة الحرج عن الأمة.

ومن ذلك: ما أفتى به عبد الله بن عمر، وعطاء بن أبي رباح، وسعيد بن المسيب، وطاووس، وسالم، ومجاهد، والشعبي، وإبراهيم النخعي، والزهري، ويحيى بن سعيد الأنصاري، والحكم، والأوزاعي، ومالك، وإسحاق بن راهويه، وأبو ثور، والإمام أحمد في أصح الروايتين، وغيرهم: أن الرجل إذا رأى على بدنه أو ثوبه نجاسة بعد الصلاة، لم يكن عالمًا بها، أو كان يعلمها لكنه نسيها، أو لم ينسها لكنه عجز عن إزالتها: أن صلاته صحيحة، ولا إعادة عليه.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (أن الرجل إذا رأى على بدنه أو ثوبه نجاسة بعد الصلاة، لم يكن عالمًا بها، أو كان يعلمها لكنه نسيها، أو لم ينسها لكنه عجز عن إزالتها: أن صلاته صحيحة، ولا إعادة عليه)، من رأى على ثوبه نجاسة فإنه يغسلها؛ لأنها لا تزول إلا بالغسل.

لكن لو نسيها وصلى في الثوب صلاته صحيحة ولا يعيدها، وكذلك لو لم يعلم بها إلا بعد الصلاة، فإنه لا يعيد الصلاة أيضًا.

ومن ذلك: «أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ كان يصلي وهو حامل أُمامةَ بنتَ ابنتِه زينبَ، فإذا ركع وضعها، وإذا قام حملها». متفق عليه(١).

ولأبي داود: «أن ذلك كان في إحدى صلاتي العَشِيِّ»(٢).

وهو دليلٌ على جواز الصلاة في ثياب المربِّية والمرضع والحائض والصبي، ما لم يتحقّق نجاستها.

وقال أبو هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: «كنا مع النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في صلاة العشاء؛ فلما سجد وثب الحسن والحسين على ظهره، فلما رفع رأسه أخذهما بيديه من خلفه أخذًا رفيقًا، ووضعهما على الأرض، فإذا عاد عادا، حتى قضى صلاته». رواه الإمام أحمد(٣).

الشَّرح

قوله رَحِمَهُٱللَّهُ: (ومن ذلك: أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ كان يصلي وهو حامل أمامة بنت ابنته زينب، فإذا ركع وضعها، وإذا قام حملها. متفق عليه)، كان صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يحمل الصبيان مع أن الصبيان يحصل منهم ما يحصل من التلويث، ولم يذكر أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لم يكن يتحرج مما أصاب ثوبه منهم من ريقهم، ومن بولهم إذا كان خفيفًا وما أشبه ذلك.

(١) أخرجه البخاري (٥١٦)، ومسلم (٥٤٣) من حديث أبي قتادةَ الأنصاري رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ.
(٢) أبو داود برقْم (٩٢٠).
(٣) أخرجه أحمد (١٦/ ٣٨٦)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ١٨١): «رواه أحمد، والبزار باختصار، ورجالُ أحمدَ ثقاتٌ».

ومن ذلك أنه كان يحمل أُمامةَ بنت ابنته زينب بنت العاصي بن الربيع، كان يحملها وهو يصلي، ولا يتحرج من ذلك، مع أنها قد يكون عليها نجاسة أو في مخرجها نجاسة، أو في دبرها نجاسة، لم يكن يتحرج من ذلك عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**ومن ذلك: أن النبي** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **كان يصلي وهو حامل أمامة بنت ابنته زينب، فإذا ركع وضعها، وإذا قام حملها**)، هذا فيه دليل على أن المصلي إذا حمل شيئًا وهو يصلي طفلًا أو غيره، فهذا لا يضر بصلاته.

والمسألة الثانية: ما أشار إليه أنه يعفى عما يحصل من الرطوبة منها، أو من الطفل، فيعفى عن ذلك.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**ولأبي داود: أن ذلك كان في إحدى صلاتي العَشِيّ**)، حمل الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأمامة في إحدى صلاة العشي، صلاة العشي: إما المغرب وإما العشاء، وحتى صلاة الظهر والعصر كلها من صلاة العشي.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وهو دليلٌ على جواز الصلاة في ثياب المربِّية والمرضع والحائض والصبي، ما لم يتحقّق نجاستها**)، كذلك الحامل والمرضع، المرضع بالذات تحمل طفلها وترضعه، ولم يذكر أنها تؤمر بغسل ثيابها، مع أن الرضيع قد يحصل منه بول، قد يحصل منه شيء من النجاسات، هذا من إزالة الحرج عن هذه الأمَّة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وقال أبو هريرة** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**كنا مع النبي** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **في صلاة العشاء؛ فلما سجد وثب الحسن والحسين على ظهره، فلما رفع رأسه**

أخذهما بيديه من خلفه أخذًا رفيقًا، ووضعهما على الأرض، فإذا عاد عادا، حتى قضى صلاته»)، كان ﷺ يصلي بأصحابه، فإذا سجد جاء الحسن والحسين رضي الله عنهما وهما طفلان صغيران فركبا على الرسول ﷺ وهو ساجد، بل رُوِيَ أنه كان يطيل السجود من أجل أن يرفق بهما، ولم يذكر أنه يغسل ثيابه بعدَهما.

وقال شداد بن الهاد، عن أبيه: «خرج علينا رسول الله ﷺ وهو حاملُ الحسن أو الحسين، فوضعه، ثم كبر للصلاة، فصلى، فسجد بين ظهرانَي صلاته سجدة أطالها، فلما قضى الصلاة قال: إن ابني ارتحلني؛ فكرهت أن أُعْجِله». رواه أحمد، والنسائي(١).

وقالت عائشة رضي الله عنها: «كان رسول الله ﷺ يصلي بالليل وأنا إلى جنبه، وأنا حائض، وعليَّ مِرْطٌ، وعليه بعضُه». رواه أبو داود(٢).

وقالت: «كنت أنا ورسول الله ﷺ نَبيتُ في الشّعار الواحد، وأنا طامِث حائض؛ فإن أصابه منِّي شيء غسل مكانه، ولم يَعْدُهُ، وصلى فيه». رواه أبو داود(٣).

الشَّرح

قوله رحمه الله: (وقال شداد بن الهاد، عن أبيه: «خرج علينا رسول الله ﷺ وهو حاملُ الحسن أو الحسين، فوضعه، ثم كبر للصلاة، فصلى، فسجد بين ظهراني صلاته سجدة أطالها، فلما قضى الصلاة قال: «إن ابني ارتحلني؛ فكرهت أن أُعْجِله»)، لأن الحسن والحسين ركبا على ظهره وهو ساجد فطال السجود؛ لأجل ألا يشق على هذا الطفل.

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ٣٨٠)، وأحمد (٢٥/ ٤٢٠) و(٤٥/ ٦١٣)، والنسائي في الصغرى (١١٤١)، وفي السنن الكبرى (١/ ٣٦٦).
(٢) أخرجه مسلم (٥١٤)، وأبو داود (٣٧٠).
(٣) أخرجه أبو داود (٢٦٩، ٢١٦٦)، والنسائي (٢٨٤، ٣٧٢، ٧٧٣).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقالت عائشة** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: **«كان رسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **يصلي بالليل؛ وأنا إلى جنبه، وأنا حائض»)**، كان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصلي من الليل، وعائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا معترضة أمامه مضطجعة أو على جنبها، فإذا أراد أن يسجد غمزها فكفت رجليها، فإذا قام مدت رجليها، وهي حائض، لم يكن يتحرج من وجودها أمامه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وعليّ مِرْط وعليه بعضه)**، وهو أيضًا ملتحف ببعض المِرْط الذي عليها وهو الجلال الكبير، مع أنها حائض مع ذلك يلتحف بلحافها.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقالت: «كنت أنا ورسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **نَبيتُ في الشّعار الواحد، وأنا طامِث حائض؛ فإن أصابه منّي شيء غسل مكانه، ولم يَعْدُهُ، وصلى فيه»)**، كانت تنام هي والرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تحت لحاف واحد، تحت لحاف واحد وهي حائض، فإذا أصابه شيء منها غسل مكانه فقط، غسل مكانه فقط، فدل هذا على التسامح في هذه الأمور، وهذا فيه رد على الموسوسين.

قصد الشيخ من هذه السياقات: الرد على الموسوسين وأن ديننا -ولله الحمد- دين السماحة ورفع الحرج.

ومن ذلك: أن النبي ﷺ كان يلبس الثياب التي نسجها المشركون، ويصلي فيها.

وتقدم قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه وَهَمُّه أن ينهى عن ثياب بلغه أنها تُصبغ بالبول، وقول أُبيٍّ له: «ما لك أن تنهى عنها؛ فإن رسول الله ﷺ لبسها، ولُبست في زمانه، ولو علم الله أنها حرام لبيّنه لرسوله. قال: صدقت»(١).

قلت: وعلى قياس ذلك: الجُوخ، بل أولى بعدم النجاسة من هذه الثياب، فتجنبه من باب الوسواس.

ولما قدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه الجابيةَ استعار ثوبًا من نصراني فلبسه، حتى خاطوا له قميصه وغسلوه(٢)، ....

---

(١) سبق تخريجه (ص٣٠٩).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في الزهد (ص٦٥، ٦٦)، عن أبي العالية الشامي، قال: «قَدِمَ عُمَرُ ابْنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه الجَابِيَةَ عَلَى جَمَلٍ أَوْرَقَ، تَلُوحُ صَلْعَتُهُ بِالشَّمْسِ، لَيْسَ عَلَيْهِ قَلَنْسُوَةٌ وَلَا عِمَامَةٌ، تَصْطَفِقُ رِجْلَاهُ بَيْنَ شُعْبَتَيْ رَحْلِهِ بِلَا رِكَابٍ، وِطَاؤُهُ كِسَاءٌ أَنْبِجَانِيٌّ صُوفٌ، هُوَ وِطَاؤُهُ إِذَا رَكِبَ، وَفِرَاشُهُ إِذَا نَزَلَ، حَقِيبَتُهُ نَمِرَةٌ أَوْ شَمْلَةٌ مَحْشُوَّةٌ لِيفًا، هِيَ حَقِيبَتُهُ إِذَا رَكِبَ، وَوِسَادَتُهُ إِذَا نَزَلَ، عَلَيْهِ قَمِيصٌ مِنْ كَرَابِيسَ، قَدْ دَسِمَ وَتَخَرَّقَ جَيْبُهُ، فَقَالَ: ادْعُوا لِي رَأْسَ الْقَرْيَةِ، فَدَعَوْا لَهُ الحَلُومَسَ، فَقَالَ: اغْسِلُوا قَمِيصِي وَخَيِّطُوهُ، وَأَعِيرُونِي قَمِيصًا أَوْ ثَوْبًا، فَأُتِيَ بِقَمِيصٍ كَتَّانٍ، فَقَالَ: مَا هَذَا؟ قَالُوا: كَتَّانٌ، قَالَ: وَمَا الْكَتَّانُ؟ فَأَخْبَرُوهُ، فَنَزَعَ قَمِيصَهُ فَغُسِلَ وَرُقِّعَ، وَأُتِيَ بِهِ، فَنَزَعَ قَمِيصَهُمْ وَلَبِسَ قَمِيصَهُ، فَقَالَ لَهُ الحَلُومَسُ: أَنْتَ مَلِكُ الْعَرَبِ، وَهَذِهِ بِلَادٌ لَا تَصْلُحُ لَهَا الْإِبِلُ، فَأُتِيَ بِبِرْذَوْنٍ فَطُرِحَ عَلَيْهِ قَطِيفَةٌ بِلَا سَرْجٍ وَلَا رَحْلٍ، فَرَكِبَهُ، فَقَالَ: احْبِسُوا احْبِسُوا، مَا كُنْتُ أَظُنُّ النَّاسَ يَرْكَبُونَ الشَّيْطَانَ قَبْلَ هَذَا، فَأُتِيَ بِجَمَلِهِ فَرَكِبَهُ».

وتوضأ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من جَرَّةِ نصرانية[١].

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (ومن ذلك: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يلبس الثياب التي نسجها المشركون ويصلي فيها)، وما زال المسلمون على ذلك يستوردون الأقمشة من الكفار ويلبسونها ولا يغسلونها، مع أن الكفار هم نسجوها، وهم الذين صبغوها، أو خاطوها أو ما أشبه ذلك، الأصل: الطهارة في هذا.

وكذلك كانوا في المغانم يصيبون ثياب الكفار فيلبسونها ويصلون فيها، وقد لبسها الكفار، لم يكونوا يغسلونها.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وتقدم قول عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهَمُّه أن ينهى عن ثياب بلغه أنها تُصبغ بالبول، وقول أُبيٍّ له: «ما لك أن تنهى عنها؛ فإن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لبسها، ولُبست في زمانه، ولو علم الله أنها حرام لبيّنه لرسوله»)، عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هَمَّ أن ينهى الناس عن لبس أقمشة بلغه أنهم يصبغونها من بول العجائز -كما سبق- بلغه أنهم يصبغونها من بول العجائز فهَمَّ أن يمنعها عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فقال له أُبيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ليس لك ذلك؛ فإن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يلبسها ولا يسأل، قال: صدقت».

---

(١) أخرجه الشافعي في الأم (١/ ٢١)، وعبد الرزاق في المصنف (١/ ٧٨)، والدارقطني (١/ ٣٩).

(وعلى قياس ذلك: الجُوخ) نوع من اللباس.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(بل أولى بعدم النجاسة من هذه الثياب، فتجنبه من باب الوسواس)**، لا بأس بلبس ما نسجه الكفار أو صبغوه أو لبسوه، لا بأس بذلك ما لم تشاهد نجاسة عليه فتغسل، وإلا فالأصل الطهارة، والحمد لله.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولما قدم عمر بن الخطاب** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **الجابيةَ)**، لما ذهب عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ من المدينة إلى الشام بعد فتحها على يد أبي عبيدة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ذهب إلى الشام ليستلم بيت المقدس من النصارى. والجابية بدمشق.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(استعار ثوبًا من نصراني فلبسه، حتى خاطوا له قميصه وغسلوه)**، مع أنه ثوب نصراني استعاره ولبسه مع أنه ثوب كافر نصراني، ولم يتحرج منه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وتوضأ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **من جَرَّة نصرانية)**، النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ توضأ هو وأصحابه من مزادة امرأة مشركة[1]، مع أن المشركة باشرتها وحقنت الماء فيها، ولم يتحرج الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ذلك.

❖ ❖ ❖

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤، ٣٥٧١)، ومسلم (٦٨٢) عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابَهُ تَوَضَّئُوا مِنْ مَزَادَةِ امْرَأَةٍ مُشْرِكَةٍ».

وصلّى سلمان وأبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في بيت نصرانية، فقال لها أبو الدرداء: «هل في بيتك مكان طاهر نصلِّي فيه؟ فقالت: طهِّرا قلوبكما، ثم صليا أين أحببتما. فقال له سلمان: خذها من غير فقيه».

ومن ذلك: أن الصحابة والتابعين كانوا يتوضؤون من الحياض والأواني المكشوفة، ولا يسألون: هل أصابتها نجاسة، أو وردَها كلب أو سبع؟

ففي «الموطأ» عن يحمى بن سعيد: «أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خرج في ركب فيهم عمرو بن العاص، حتى وردوا حوضًا، فقال عمرو: يا صاحب الحوض، هل تَرِدُ حوضك السباع؟ فقال عمر: لا تخبرنا؛ فإنا نَرِدُ على السباع، وتَرِدُ علينا»(١).

وفي «سنن ابن ماجه»: «أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سئل: أنتوضأ بما أفضلت الحُمُر؟ قال: «نَعَمْ، وَبِمَا أَفْضَلَتِ السِّبَاعُ»(٢).

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وصلّى سلمان وأبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في بيت نصرانية، فقال لها أبو الدرداء: هل في بيتك مكان طاهر نصلِّي فيه؟ فقالت: طهِّرا قلوبكما، ثم صليا أين أحببتما. فقال له سلمان: خذها من غير فقيه)، لا تسأل عن الشيء الذي لاتشاهد عليه شيئًا، فلا تسأل عنه؛ لأن الأصل الطهارة، والأصل رفع الحرج، والحمد لله.

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ (١/ ٢٣، ٢٤).

(٢) أخرجه الشافعي في الأم (١/ ٢٠)، وعبد الرزاق في المصنف (١/ ٧٧)، والدارقطني (١/ ١٠١)، والبيهقي في السنن الكبرى (١/ ٣٧٧-٣٧٩).

ولما كان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يمشي في أحد أسواق المدينة ومعه رجل، نزل ماء من الميزاب عليهما من أحد الميازيب، فقال الرجل الذي مع عمر: ما هذا يا صاحب الميزاب؟ فقال له عمر: لا تُخبِرْهُ عن ذلك»[١]، لم نؤمر أن نسأل عن هذه الأمور.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(ومن ذلك: أن الصحابة والتابعين كانوا يتوضؤون من الحياض والأواني المكشوفة، ولا يسألون: هل أصابتها نجاسة، أو وردَها كلب أو سبع؟)**، كانت المياه في غدران وفي الجوابي، وكانت تردها السباع والكلاب، وكانوا يتوضؤون منها، ولا يسألون عن ذلك، الدين فيه رفع الحرج، ولله الحمد، ولما سئل عن ذلك؛ قال: لها ما شربت ولنا ما بقي.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وفي «سنن ابن ماجه»: أن رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **سئل: أنتوضأ بما أفضلت الحُمُر؟ قال: «نعم، وبما أفضلت السباع»)**، يعني الذي يبقى بعد شربها منه يسمى السؤر، استعمل هذا ولا بأس، وإن كان الحمار أو الكلب قد أصاب ريقه هذا الماء فلا يُسأل عن ذلك.

(١) سيأتي تخريجه الصفحة القادمة.

ومن ذلك: أنه لو سقط عليه شيء من ميزاب، لا يدري: هل هو ماء أو بول؟ لم يجب عليه أن يسأل عنه، فلو سأل لم يجب على المسؤول أن يجيبه -ولو علم أنه نجس-، ولا يجب عليه غسل ذلك.

وَمَرَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَوْمًا، فَسَقَطَ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ مِيزَابٍ، وَمَعَهُ صَاحِبٌ لَهُ، فَقَالَ: يَا صَاحِبَ الْمِيزَابِ، مَاؤُكَ طَاهِرٌ أَوْ نَجِسٌ؟ فَقَالَ عُمَرُ: يَا صَاحِبَ الْمِيزَابِ، لَا تُخْبِرْنَا، وَمَضَى». ذكره أحمد(١).

قال شيخنا: وكذلك إذا أصاب رِجلَه أو ذيلَه بالليل شيءٌ رطبٌ لا يعلم ما هو، لم يجِبْ عليه أن يَشَمّه ويتعرف ما هو، واحتج بقصة عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الميزاب.

وهذا هو الفقه؛ فإن الأحكام إنما تترتب على المكلّف بعد علمه بأسبابها، وقبل ذلك هي على العفو، فما عفا الله عنه فلا ينبغي البحث عنه.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (ومن ذلك: أنه لو سقط عليه شيء من ميزاب، لا يدري: هل هو ماء أو بول؟ لم يجب عليه أن يسأل عنه، فلو سأل لم يجب على المسؤول أن يجيبه -ولو علم أنه نجس-، ولا يجب عليه غسل ذلك)، لأن هذا من التكلف، والدين جاء برفع الحرج.

---

(١) ذكر شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ أن هذا ثابت عن عُمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، انظر: مجموع الفتاوى (٢٢/ ١٨٤).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وَمَرَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **يَوْمًا، فَسَقَطَ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ مِيزَابٍ، وَمَعَهُ صَاحِبٌ لَهُ، فَقَالَ: يَا صَاحِبَ الْمِيزَابِ، مَاؤُكَ طَاهِرٌ أَوْ نَجِسٌ؟ فَقَالَ عُمَرُ: يَا صَاحِبَ الْمِيزَابِ، لَا تُخْبِرْنَا، وَمَضَى)**، هذا عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لم يسأل صاحب الميزاب عن هذا الماء: هل هو طاهر أو نجس؟

وقال: لا تخبرنا، لما سأله الرجل الذي مع عمر، قال: لا تخبرنا؛ لأن هذا من التكلف.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قال شيخنا: وكذلك إذا أصاب رِجلَه أو ذيلَه بالليل شيءٌ رطبٌ لا يعلم ما هو، لم يجِبْ عليه أن يَشَمّه ويتعرف ما هو، واحتج بقصة عمر** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **في الميزاب)**، لو أنه يمشي في الليل ووطئ على شيء رطب لايدري ماذا هو؟ ابقَ جاهلًا ماذا يكون، لا تسأل عنه، لا تشمه، هذا من الوسواس، ومن التكلف.

ومن ذلك: الصلاة مع يسير الدم، ولا يعيد.

قال البخاري: قال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَا زَالَ الْمُسْلِمُونَ يُصَلُّونَ فِي جِرَاحَاتِهِمْ»(١).

قال: «وعصَر ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا بَثرة، فخرج منها دم؛ فلم يتوضأ»(٢)، وبصق ابن أبي أوفى دمًا ومضى في صلاته(٣)، وصلى عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وجُرحه يَثْعَبُ دمًا(٤).

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ومن ذلك: الصلاة مع يسير الدم، ولا يعيد، قال البخاري: قال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَا زَالَ الْمُسْلِمُونَ يُصَلُّونَ فِي جِرَاحَاتِهِمْ»)، الدم إذا أصاب الثوب يصلي فيه.

والدليل على ذلك: أن الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ في المغازي كانت تصيبهم الجراحات، ويسيل منهم الدم، وكانوا يُصَلُّون ولا يغسلونها.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قال: «وعصَر ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا بَثرة، فخرج منها دم؛ فلم يتوضأ»)، مع أن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كان شديد التحري، عصَر بَثرة -يعني: حبة- في جسمه، فخرج منها دم، فصلى ولم يغسلها.

---

(١) رواه البخاري تعليقًا (١/ ٤٦)، وأخرجه ابن أبي شيبة موصولًا (١/ ٣٤٤) بلفظ: «مَا فِي نَضَحَاتٍ مِنْ دَمٍ مَا يُفْسِدُ عَلَى رَجُلٍ صَلَاتَهُ».

(٢) صحيح البخاري (١/ ٤٦).

(٣) صحيح البخاري (١/ ٤٦).

(٤) أخرجه مالك في الموطأ (١/ ٣٩)، وعبد الرزاق في المصنف (١/ ١٤٩، ١٥٠)، وابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ١٦٤)، والبيهقي في السنن الكبرى (١/ ٥٢٥).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وبصق ابن أبي أوفى دمًا، ومضى في صلاته)**، ولم يقل: إنه دم نجس، وبطلت الصلاة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وصلى عمر بن الخطاب** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **وجُرحه يَثْعَبُ دمًا)**، لما طُعِنَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أكمل صلاته، وجرحه يثعب دمًا، وبنى على أول صلاته، وأكمل الصلاة.

ومن ذلك: أن المراضع ما زلن من عهد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإلى الآن يُصلِّين في ثيابهن، والرُّضعاء يتقيؤون، ويسيل لعابهم على ثياب المرضعة وبدنها، فلا يغسلن شيئًا من ذلك؛ لأن ريق الرضيع مُطَهِّرٌ لفمه؛ لأجل الحاجة.

كما أن ريق الهر مُطهِّر لفمها؛ وقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّهَا لَيْسَتْ بِنَجَسٍ؛ إِنَّهَا مِنَ الطَّوَّافِينَ عَلَيْكُمْ وَالطَّوَّافَاتِ»(١).

وكان يصغي لها الإناء حتى تشرب، وكذلك فعل أبو قتادة؛ مع العلم اليقيني أنها تأكل الفأر والحشرات، والعلم القطعي أنه لم يكن بالمدينة حياض فوق القلتين تردُها السّنانير؛ وكلاهما معلوم قطعًا.

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ (١/ ٢٢)، وعبد الرزاق في المصنف (١/ ١٠٠)، وابن أبي شيبة في المصنف (١/ ٣٦) و(٧/ ٣٠٨)، وأحمد (٣٧/ ٣١٦)، وأبو داود (٧٥)، والترمذي (٩٢) وقال: (هذا حديث حسن صحيح)، والنسائي (٦٨، ٣٤٠)، وابن ماجه (٣٦٧)، وابن خزيمة (١/ ٥٥)، وابن حبان (٤/ ١١٥)، والحاكم في المستدرك على الصحيحين (١/ ٢٦٣)، عَنْ كَبْشَةَ بِنْتِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ -وَكَانَتْ تَحْتَ ابْنِ أَبِي قَتَادَةَ-، «أَنَّ أَبَا قَتَادَةَ دَخَلَ فَسَكَبَتْ لَهُ وَضُوءًا، فَجَاءَتْ هِرَّةٌ فَشَرِبَتْ مِنْهُ، فَأَصْغَى لَهَا الْإِنَاءَ حَتَّى شَرِبَتْ، قَالَتْ كَبْشَةُ: فَرَآنِي أَنْظُرُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: أَتَعْجَبِينَ يَا ابْنَةَ أَخِي؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ، فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّهَا لَيْسَتْ بِنَجَسٍ، إِنَّهَا مِنَ الطَّوَّافِينَ عَلَيْكُمْ وَالطَّوَّافَاتِ».

وأخرج أبو داود (٧٦) من طريق دَاوُدَ بْنِ صَالِحِ بْنِ دِينَارٍ التَّمَّارِ، عَنْ أُمِّهِ: «أَنَّ مَوْلَاتَهَا أَرْسَلَتْهَا بِهَرِيسَةٍ إِلَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَوَجَدَتْهَا تُصَلِّي، فَأَشَارَتْ إِلَيَّ أَنْ ضَعِيهَا، فَجَاءَتْ هِرَّةٌ، فَأَكَلَتْ مِنْهَا، فَلَمَّا انْصَرَفَتْ أَكَلَتْ مِنْ حَيْثُ أَكَلَتِ الْهِرَّةُ، فَقَالَتْ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّهَا لَيْسَتْ بِنَجَسٍ، إِنَّمَا هِيَ مِنَ الطَّوَّافِينَ عَلَيْكُمْ»، وَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَوَضَّأُ بِفَضْلِهَا».

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(كما أن ريق الهر مُطهِّر لفمها؛ وقد قال رسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إِنَّهَا لَيْسَتْ بِنَجَسٍ؛ إِنَّهَا مِنَ الطَّوَّافِينَ عَلَيْكُمْ وَالطَّوَّافَاتِ»)**، الهرة يقول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ليست بنجس؛ لأنها من الطوافين عليكم، تتردد عليكم.

فلو كان ريقها نجسًا لشق ذلك على الناس؛ لأنه لا يمكن التحرز من القطط، فدل على التسامح فهذا الأمر.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وكان يصغي لها الإناء حتى تشرب)**، وكان يصغي لها -الهرة- الإناء حتى تشرب، ويتوضأ منه.

ومن ذلك: أن الصحابة ومَن بعدهم كانوا يصلُّون وهم حاملو سيوفهم، وقد أصابها الدم، وكانوا يمسحونها، ويجتزئون بذلك.

وعلى قياس هذا: مسح المرآة الصَّقِيلة إذا أصابتها النجاسة؛ فإنه يُطهِّرها.

وقد نصَّ أحمد على طهارة سكين الجزّار بمسحها.

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ومن ذلك: أن الصحابة ومَن بعدهم كانوا يصلُّون وهم حاملو سيوفهم، وقد أصابها الدم، وكانوا يمسحونها، ويجتزئون بذلك)، ولم يكونوا يغسلونها، مع أنها يصيبها الدم من الكفار.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وعلى قياس هذا: مسح المرآة الصَّقِيلة إذا أصابتها النجاسة؛ فإنه يُطهِّرها)، المرآة إذا وقع عليها نجاسة فلا تحتاج غسل، تمسح حتى تزول النجاسة، وهذا يكفي.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وعلى قياس هذا: مسح المرآة الصَّقِيلة)، الصَّقِيلة: يعني الملساء.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقد نصَّ أحمد على طهارة سكين الجزّار بمسحها)، سكين الجزار يقطع بها الوَدَجَينِ، ويخرج الدم المسفوح، ولا يقال: إنه يغسل السكين بعد ذلك، لم يكونوا يأمرونه بغسلها.

ومن ذلك: أنه نصَّ على حَبْل الغسال أنه يُنشر عليه الثوب النجس، ثم تُجَفِّفه الشمس، فينشر عليه الثوب الطاهر، فقال: لا بأس به.

وهذا كقول أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن الأرض النجسة تُطهِّرها الريح والشمس، وهو وجه لأصحاب أحمد، حتى إنه يجوز التيمم بها.

وحديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا كالنص في ذلك، وهو قوله: «كانت الكلاب تُقبِل وتُدْبر وتبول في المسجد، ولم يكونوا يَرشّون شيئًا من ذلك»(١).

وهذا لا يتوجه إلا على القول بطهارة الأرض بالريح والشمس.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وهذا كقول أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن الأرض النجسة تُطهِّرها الريح والشمس، وهو وجه لأصحاب أحمد، حتى إنه يجوز التيمم بها)، فالأرض إذا أصابتها نجاسةٌ، وضربتها الشمس والريح، وجفت النجاسة؛ فإن هذا طهارتُها، ولا تحتاج إلى غسل.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وحديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا كالنص في ذلك،) وهو قوله: «كانت الكلاب تُقبِل وتُدْبر وتبول في المسجد، ولم يكونوا يَرشّون شيئًا من ذلك»)، مسجد الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يكن عليه أبواب، كانت الكلاب تدخله إذا خرج الناس منه، تدخله الكلاب وتقبل وتدبر فيه، تبول فيه، لم يكونوا يغسلون هذا؛ لأن هذا من إزالة الحرج.

---

(١) سبق تخريجه (ص٣٨٤).

ومن ذلك: أن الذي دلّت عليه سنة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وآثار أصحابه: أن الماء لا ينجُس إلا بالتغير، وإن كان يسيرًا.

وهذا قول أهل المدينة وجمهور السلف، وأكثر أهل الحديث، وبه أفتى عطاء بن أبي رباح، وسعيد بن المسيَّب، وجابر بن زيد، والأوزاعي، وسفيان الثوري، ومالك بن أنس، وعبد الرحمن بن مَهدي، واختاره ابن المنذر، وبه قال أهل الظاهر، ونص عليه أحمد في إحدى رواياته، واختاره جماعة من أصحابنا، منهم ابن عَقِيل في «مفرداته»، وشيخنا أبو العباس، وشيخه ابن أبي عمر.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومن ذلك: أن الذي دلّت عليه سنة رسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **وآثار أصحابه: أن الماء لا ينجُس إلا بالتغير، وإن كان يسيرًا)**، القول الصحيح أن الماء ينقسم إلى قسمين: طهور، ونجس.

الطهور: هو الباقي على خلقته.

وأما النجس: فهو ما تغيَّر لونُه أو طعمه أو ريحه بالنجاسة، هذا هو النجس، ولو سقطت نجاسة في ماء فلم يتغير لا لونه ولا طعمه ولا ريحه؛ فإنه طاهر.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وشيخه ابن أبي عمر)**، ابن أبي عمر المقدسي صاحب «الشرح الكبير على المقنع».

وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «المَاءُ لَا يُنَجِّسُهُ شَيْءٌ». رواه الإمام أحمد[1].

وفي «المسند» و«السنن» عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «قيل: يا رسول الله، أنتوضأ من بئر بُضاعةَ -وهي بئر يُلقى فيها الحِيَضُ ولُحوم الكلاب والنَّتْنُ-؟ فقال: المَاءُ طَهُورٌ، لَا يُنَجِّسُهُ شَيْءٌ»[2].

قال الترمذي: «هذا حديث حسن».

وقال الإمام أحمد: «حديث بئر بضاعة صحيح».

وفي لفظ للإمام أحمدَ: إنه يُسْتَقَى لك من بئر بُضاعة، وهي بئر يُطرح فيها محايض النساء، ولحم الكلاب، وعَذِر الناس، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ المَاءَ طَهُورٌ، لَا يُنَجِّسُهُ شَيْءٌ»[3].

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «المَاءُ لَا يُنَجِّسُهُ شَيْءٌ»**)، الماء لا ينجسه شيءٌ، هكذا.

ورواية ثانية: «إلا ما غلب على لونه أو طعمه أو ريحه بنجاسة تحدث فيه».

وعلى هذا، فالصحيح أن الماء ينقسم إلى طهور أو نجس، وليس هناك قسم يسمى الطاهر، الطاهر داخل في الطهور.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٣)، وصححه ابن حبان (٤/ ٤٧).

(٢) أخرجه أحمد (١٧/ ١٩٠)، وأبو داود (٦٦، ٦٧)، والترمذي (٦٦)، والنسائي (٣٢٦، ٣٢٧).

(٣) أخرجه أحمد (١٨/ ٣٣٤).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(عن أبي سعيد** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، **قال: قيل: يا رسول الله، أنتوضأ من بئر بُضاعةَ)**، الحِيَض: هو القطن الذي تجفف به المرأة فرجها بعد الحيض.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهي بئر يُلقى فيها الحِيَضُ ولُحوم الكلاب والنَّتْنُ؟ فقال: المَاءُ طَهُورٌ، لَا يُنَجِّسُهُ شَيْءٌ»)**، مع أن بئر بضاعة تُلقى فيها هذه الأشياء النجسة، ومع هذا يتطهرون منها وهي في المدينة.

وفي «سنن ابن ماجه» من حديث أبي أمامة مرفوعًا: «المَاءُ لا يُنَجِّسُهُ شَيْءٌ؛ إِلَّا مَا غَلَبَ عَلَى رِيحِهِ، وَطَعْمِهِ، وَلَوْنِهِ»(١).

وفيها: من حديث أبي سعيد: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ عَنِ الْحِيَاضِ الَّتِي بَيْنَ مَكَّةَ وَالمَدِينَةِ، تَرِدُهَا السِّبَاعُ وَالْكِلَابُ وَالْحُمُرُ، وَعَنِ الطَّهَارَةِ بِهَا؟ فَقَالَ: «لَهَا مَا حَمَلَتْ فِي بُطُونِهَا، وَلَنَا مَا غَبَرَ طَهُورٌ»(٢).

وإن كان في إسناد هذين الحديثين مقالٌ، فإنَّا ذكرناهما للاستشهاد، لا للاعتماد.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (في «سنن ابن ماجه» من حديث أبي أمامة مرفوعًا: «المَاءُ لَا يُنَجِّسُهُ شَيْءٌ؛ إِلَّا مَا غَلَبَ عَلَى رِيحِهِ، وَطَعْمِهِ، وَلَوْنِهِ»)، هذه تقيد الرواية المطلقة.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (من حديث أبي سعيد: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ عَنِ الْحِيَاضِ الَّتِي بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، تَرِدُهَا السِّبَاعُ وَالْكِلَابُ وَالْحُمُرُ، وَعَنِ

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٥٢١)، وقال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في المجموع شرح المهذب (١/ ١١٠): (اتفقوا على ضعفه، ونقل الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ تضعيفه عن أهل العلم بالحديث، وبيَّن البيهقي ضعفه، وهذا الضعف في آخره، وهو الاستثناء. وأما قوله: (المَاءُ طَهُورٌ لَا يُنَجِّسُهُ شَيْءٌ) فصحيح من رواية أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٥١٩)، وضعَّف إسناده البوصيري في مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه (١/ ٧٥).

الطَّهَارَةِ بِهَا؟ فَقَالَ: «لَهَا مَا حَمَلَتْ فِي بُطُونِهَا، وَلَنَا مَا غَبَرَ طَهُورٌ»)، الغدران ومناقع الماء، السيول هذه تردها السباع وتشرب منها، ومع هذا المسلمون يتوضؤون منها، ولا يقولون إنها اختلط بها ريق السباع والكلاب.

وقال البخاري: قال الزهري: «لا بأس بالماء؛ ما لم يتغير منه طعم أو ريح أو لون»(١). وقال الزهري أيضًا: «إذا ولغ الكلب في الإناء، ليس له وَضوء غيره؛ يتوضأ به ثم يتيمم»(٢). قال سفيان: «هذا الفقه بعينه، يقول الله تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا﴾ [المائدة:٦]، وهذا ماء، وفي النفس منه شيء؛ يتوضأ به ويتيمم»(٣).

ونصّ الإمام أحمد في حُبِّ زيت ولغ فيه كلب، فقال: «يؤكل».

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وقال الزهري أيضًا: «إذا ولغ الكلب في الإناء، ليس له وَضوء غيره؛ يتوضأ به ثم يتيمم»**)، إذًا هناك حديثان: إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبعًا وليعفره ثامنة، أو إحداهن بالتراب(٤).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**ثم يتيمم**)، يعني احتياطًا، يتيمم احتياطًا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**قال سفيان: «هذا الفقه بعينه»**)، أنه يتوضأ به هذا من الفقه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**يقول الله تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا﴾ [المائدة:٦]، وهذا ماء، وفي النفس منه شيء؛ يتوضأ به ويتيمم**)؛ احتياطًا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**ونصّ الإمام أحمد في حِبِّ زيت ولغ فيه كلب، فقال: «يؤكل»**). وإن كان الكلب ولغ فيه يؤكل.

---

(١) صحيح البخاري (١/ ٥٦).

(٢) صحيح البخاري (١/ ٤٥).

(٣) صحيح البخاري (١/ ٤٥).

(٤) كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عند البخاري (١٧٢)، ومسلم (٢٧٩)، وحديث عبد الله ابن مغفل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عند مسلم (٢٨٠). وانظر: البدر المنير (١/ ٥٤٤-٥٥١).

فصل

ومن ذلك: أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يجيب من دعاه، فيأكل من طعامه؛ وأضافه يهودي بخبز شعير وإهالة سَنِخَة(١).

وكان المسلمون يأكلون من أطعمة أهل الكتاب.

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**ومن ذلك: أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يجيب من دعاه، فيأكل من طعامه؛ وأضافه يهودي بخبز شعير وإهالة سَنِخَة**)، من أخلاق الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الكريمة: أنه كان يجيب دعوة من دعاه؛ تطييبًا لخاطره، وتأليفًا للناس على الإيمان، وعلى التآلف والتعارف؛ لأنه القدوة صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وكان يجيب دعوة أهل الكتاب من اليهود والنصارى؛ لأن الله أباح لنا طعامهم وذبائحهم، وما طبخوه أو لمسوه، فإن الله أباح لنا ذلك، وهذا من سماحة الإسلام، وعدم التكلف والتنطع والسؤال عن الأشياء.

الأصل- ولله الحمد-: الإباحة والطهارة، ولا نسأل ما لم يظهر لنا شيء واضح، وهذا هدي الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتى إنه أجاب دعوة هذا اليهودي، وأكل من طعامه وفيه ما فيه من الرائحة السَّنِخَة؛ يعني: فيها رائحة غير مرغوبة، ومع هذا أكل صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٠/ ٤٢٤) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وانظر: صحيح البخاري (٢٠٦٩، ٢٥٠٨).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وإهالة سَنِخَة)**، سَنِخَة، وفي رواية: (زَنِخَةً) يعني فيها رائحة، ومع هذا أكل النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فلم تمنعه رائحتها من الأكل منها.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وكان المسلمون يأكلون من أطعمة أهل الكتاب)**، كان المسلمون يقتدون بالنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ويأكلون من أطعمة أهل الكتاب ومن ذبائحهم.

قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمۡ﴾ [المائدة:٥]: **يعني** ذبائحهم، وغير هذا من باب أولى.

وشرط عمر عليهم ضيافة مَن يمرُّ بهم مِن المسلمين[(١)]، وقال: «أطعموهم مما تأكلون»[(٢)]، وقد أحلّ الله ذلك في كتابه.

ولما قدم عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الشام صنع له أهل الكتاب طعامًا، فدعوه، فقال: أين هو؟ قالوا: في الكنيسة، فكره دخولها. وقال لعليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: اذهب بالناس، فذهب عليّ بالمسلمين، فدخلوا وأكلوا، وجعل عليّ ينظر إلى الصُّوَرِ، وقال: ما على أمير المؤمنين لو دخل وأكل؟»[(٣)].

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وشرط عمر عليهم ضيافة من يمرُّ بهم من المسلمين)، شروط عمر على أهل الذمة كثيرة ذكرها ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في «أحكام أهل الذمة».

ومنها: أن عمر شرط على اليهود -وهم أهل ذمة- أن يضيفوا من يمر بهم من المسلمين.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقد أحلّ الله ذلك في كتابه)، أحلّ الله ذلك في كتابه في قوله: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ [المائدة:٥]: أي ذبائحهم، وإذا كانت ذبائحهم حلالًا لنا فالأطعمة التي ليست ذبائح من باب أولى.

---

(١) انظر: موطأ مالك (١/ ٢٧٩)، ومصنف عبد الرزاق (٦/ ٨٥، ٨٦) و(١٠/ ٣٣١، ٣٣٢).
(٢) انظر: مصنف عبد الرزاق (١٠/ ٣٢٩).
(٣) انظر: تاريخ دمشق لابن عساكر (٤٢/ ٦).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**ولما قدم عمر** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **الشام صنع له أهل الكتاب طعامًا، فدعوه، فقال: أين هو؟ قالوا: في الكنيسة، فكره دخولها، وقال لعلي** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: **اذهب بالناس، فذهب عليّ بالمسلمين، فدخلوا وأكلوا**)، ومن ذلك: لما زار عمر الشام في خلافته، ذهب إلى الشام، ودعاه أهل اليهود أن يأكل من طعامهم، عملوا له وليمة، فقال: أين هي؟ قالوا: في الكنيسة. كره رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن يدخل الكنيسة لأجل طعام، وأمر عليًّا أن ينوب عنه في ذلك، فناب عنه علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وأكل منها في الكنيسة.

فدل على أنه لا بأس بدخول الكنائس، كنائس اليهود، بيع اليهود، وكنائس النصارى لا بأس بذلك، كما أنهم لا يمنعون -أيضًا- من دخول المساجد، هذا فيه تسامح، فيه تسامح في هذا الدين.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وجعل عليّ ينظر إلى الصُّوَرِ**)، حتى ولو كان في الكنائس فيها صور كانوا يدخلونها، ويأكلون ما يقدم من طعام فيها، وإن كانوا لا يقرون الصور، ولكن عند اليهود يقرونها.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وقال: ما على أمير المؤمنين لو دخل وأكل؟**)، يعني ليس عليه لومٌ لو دخل وأكل، ولو فيها صور.

وكان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقبِّل ابنيْ ابنته في أفواههما(١)، ويشرب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من موضع فِي عائشة، ويتعرّق العَرْقَ، فيضع فاهُ على موضع فِيها، وهي حائض(٢).

وحمل أبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الحسن على عاتقه؛ ولعابُه يسيل عليه(٣).

وأُتي رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بصبي، فوضعه في حِجره، فبال عليه، فدعا بماء فنضحه، ولم يغسله(٤).

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وكان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقبِّل ابنيْ ابنته في أفواههما)، وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أخلاقه الكريمة أنه يتواضع للصبيان، ويقبل ابني ابنته: الحسن والحسين رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا على أفواههما، فيقبل أفواه الصبيان، ولا يترفع عن ذلك.

---

(١) انظر: مصنف ابن أبي شيبة (٦/ ٣٨٠)، والأدب المفرد (ص: ٤٦، ٩٦).

(٢) أخرجه مسلم (٣٠٠) عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قالت: «كُنْتُ أَشْرَبُ وَأَنَا حَائِضٌ، ثُمَّ أُنَاوِلُهُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَضَعُ فَاهُ عَلَى مَوْضِعِ فِيَّ، فَيَشْرَبُ، وَأَتَعَرَّقُ الْعَرْقَ وَأَنَا حَائِضٌ، ثُمَّ أُنَاوِلُهُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَضَعُ فَاهُ عَلَى مَوْضِعِ فِيَّ».

(٣) أخرجه البخاري (٣٥٤٢) و(٣٧٥٠) عن عُقْبَةَ بن الحارث، قال: «صَلَّى أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ العَصْرَ، ثُمَّ خَرَجَ يَمْشِي، فَرَأَى الحَسَنَ يَلْعَبُ مَعَ الصِّبْيَانِ، فَحَمَلَهُ عَلَى عَاتِقِهِ، وَقَالَ: بِأَبِي شَبِيهٌ بِالنَّبِيِّ، لاَ شَبِيهٌ بِعَلِيٍّ. وَعَلِيٌّ يَضْحَكُ».

(٤) أخرجه مسلم (٢٨٦) عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يُؤْتَى بِالصِّبْيَانِ فَيُبَرِّكُ عَلَيْهِمْ وَيُحَنِّكُهُمْ، فَأُتِيَ بِصَبِيٍّ فَبَالَ عَلَيْهِ، فَدَعَا بِمَاءٍ، فَأَتْبَعَهُ بَوْلَهُ، وَلَمْ يَغْسِلْهُ».

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ويشرب** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **من موضع فِي عائشة)**، يشرب هو وعائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا من إناء واحد، ويشرب من الجهة التي شربت منها عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، جهة الإناء الذي شربت منه عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ويتعرّق العَرْقَ، فيضع فاهُ على موضع فِيها، وهي حائض)**، ويتعرّق العَرْقَ: الذي هو العظم الذي عليه لحم، العظم الذي عليه لحم يقال له: العَرْق.

ويضع فمه على مكان فم عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا مع أنها قد تكون حائضًا، ولا بأس للحائض من ملامستها إلا أنه يتجنب موضع الحيض فقط، وما عدا ذلك زوجها يستمتع منها بما شاء من جسمها.

والله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿ **فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ** ﴾ [البقرة:٢٢٢]: يعني في مخرج الحيض فقط.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وحمل أبو بكر** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **الحسن على عاتقه؛ ولعابُه يسيل عليه)**، الخليفة أبو بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أول الخلفاء الراشدين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ حمل الحسن بن علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وهو طفل صغير على عاتقه؛ ولعابُ الحسن رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يسيل عليه؛ لأن لعاب الطفل طاهر، وهذا من التواضع والتعامل مع الصبيان بالملاطفة وحسن الخلق.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وأُتي رسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **بصبي، فوضعه في حِجره، فبال عليه؛ فدعا بماء، فنضحه ولم يغسله)**، من عادته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أنه كانوا يأتونه بالصبيان أول ما يولدون يحنكهم يعني: يمضغ تمرة عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ

ثم يخرجها من فيهِ، ويجعلها في فم الطفل، هذا يسمى التحنيك، كان يحنك الصبيان.

جاءوه بصبي صغير ليحنكَه، ووضعه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في حجْره، وبالَ الطفل في حجر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فرشَّه بالماء.

هذا دليل على أن نجاسة بول الغلام مخفَّفة، ليست كبَوْل الكبير، وأنها يكفي فيها النضح، يكفي فيها النضح والرش؛ قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**يُغْسَلُ مِنْ بَوْلُ الْجَارِيَةِ، وَيُرَشُّ مِنْ بَوْلِ الْغُلَامِ**»[1]. بول الغلام أخف من بول الجارية.

أما بول الجارية الصغيرة، فهو كبول المرأة الكبيرة لابد من غسله الغسل الكامل؛ لأن نجاستها مغلظة.

❖ ❖ ❖

(١) سبق تخريجه (ص٣٩٣).

وكان يؤتى بالصبيان، فيضعهم في حِجره يُبرِّك عليهم، ويدعو لهم[(١)].

وهذا الذي ذكرناه قليل من كثير من السنة، ومن له اطِّلاع على ما كان عليه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه لا تخفي عليه حقيقة الحال.

وقد روى الإمام أحمد في «مسنده» عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بُعِثْتُ بِالحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ»[(٢)]؛ فجمع بين كونها حنيفية، وكونِها سمحة؛ فهي حنيفية في التوحيد، سَمحة في العمل.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وكان يؤتى بالصبيان، فيضعهم في حِجره يُبرِّك عليهم، ويدعو لهم)، يُبرِّك عليهم: يعني يدعو لهم بالبركة، ويدعو لهم بالصلاح والهداية والسلامة، هذا من حسن أخلاقه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وهذا الذي ذكرناه قليل من كثير من السنة)، قليل من كثير من أخلاقه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتعامله مع الناس الكبار والصغار.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (ومن له اطِّلاع على ما كان عليه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه لا تخفي عليه حقيقة الحال)، من أراد المزيد من هذا، فليطالع سنة

---

(١) سبق تخريجه (ص٤٣٢).

(٢) أخرجه أحمد (٣٦/ ٦٢٤)، والطبراني في المعجم الكبير (٨/ ٢١٦، ٢٢٢) عن ابي أُمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/ ٢٦٠) و(٥/ ٢٧٩): (رواه أحمد، والطبراني، وفيه علي بن يزيد الألْهاني، وهو ضعيف). وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٨/ ١٧٠) من طريق أخرى عن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال الهيثمي في المجمع (٤/ ٣٠٢): (رواه الطبراني، وفيه عفير بن معدان، وهو ضعيف).

الرسول ﷺ في تعامله مع الناس، ويطالع أيضًا سنة الخلفاء الراشدين والصحابة رضي الله عنهم أيضًا الذين يقتدون بالرسول ﷺ.

قوله رحمه الله: **(وقد روى الإمام أحمد في «مسنده» عنه** ﷺ: **«بُعِثْتُ بِالحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ»)**، قال ﷺ: **«بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ»**: يعني الملة الحنيفية.

والحنيفية: مأخوذة من الحنف، وهو الإقبال على الله، والميل والإعراض عما سواه.

والحنيف: هو المقبل على الله، المعرض عما سواه، هذه من صفات الخليل إبراهيم عليه السلام؛ ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾ [النحل:١٢٠]: مسلمًا، والحنيفية ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

«السَّمْحَةِ»: حنيفية سَمحة ليس فيها حرج؛ ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج:٧٨].

وضد الأمرين: الشرك وتحريم الحلال، وهما اللَّذانِ ذكرهما النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **فيما يروي عن ربه** تَبَارَكَ وَتَعَالَى **أنه قال: «إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا»**(١).

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وضد الأمرين: الشرك وتحريم الحلال)**، ضد الأمرين، ضد الحنيفية: الشرك؛ لأن الحنيفية هي التوحيد.

وضد السماحة: التشدد وتحريم الحلال، هذا تشدد، ولا يجوز هذا.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وهما اللَّذانِ ذكرهما النبي** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **فيما يروي عن ربه** تَبَارَكَ وَتَعَالَى **أنه قال: «إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا»)**، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ**»: يعني بالدين، توحيد، الحنيفية: هي التوحيد، «**السَّمْحَةِ**»: في العمل. الحنيفية في التوحيد، والسماحة في العمل.

وفي الحديث القدسي الله جَلَّ وَعَلَا يقول: «**خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ**» يعني: على الفطرة، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ**»(٢): يعني

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٦٥) من حديث عِياض بن حمار المُجَاشِعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

على دين الإسلام، الفطرة هي دين الإسلام؛ ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم:٣٠]، فالله يخلقهم حنفاءَ.

ولكن الشياطين -شياطين الإنس والجن، دعاة الضلال- يغيِّرون فطرتهم، ويحرفونها إلى الشرك، وإلى التشدد وتحريم الحلال.

فالشرك وتحريم الحلال قرينان، وهما اللذان عابهما الله في كتابه على المشركين في سورة الأنعام[١] والأعراف[٢].

وقد ذم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المتنطِّعين في الدِّين، وأخبر بهلكَتهم حيث يقول: «أَلَا هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ، أَلَا هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ، أَلَا هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ»[٣].

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(فالشرك وتحريم الحلال قرينان. وهما اللذان عابهما الله في كتابه على المشركين في سورة الأنعام والأعراف)**، الشرك وتحريم الحلال قرينان، والله جَلَّ وَعَلَا ذكر في سورة الأنعام وفي سورة الأعراف هذا الشيء، ذكر التوحيد وذكر الشرك، وذكر الحلال وذكر الحرام، وفصّل هذا في سورة الأنعام تفصيلًا، ولكن الشياطين حرمت عليهم أشياء فأطاعوا الشياطين: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾ [المائدة:١٠٢].

فالبحيرة: أنهم كانوا يقطعون آذان الأنعام لأصنامهم، البحر هو القطع.

---

(١) حيث قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ﴾ [الأنعام:١٤٨].

(٢) قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٣].

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٧٠) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَلَا سَآئِبَةٍ﴾: كانوا يتركون الإبل لأصنامهم فلا تركب ولا تحلب، ويقولون: هذه للأصنام، نسأل الله العافية.

﴿وَلَا وَصِيلَةٍ﴾: إذا انتجت الناقة، ثم انتج نتاجها حرموها، هذه الوصيلة، إذا انتجت الناقة: ولدت -مثلًا- ثم إن ولدها ولد أيضًا حرموها وسموها وصيلة.

﴿وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾: وهو الجمل إذا ضرب ضرابًا معينًا في الإبل حرموه لأصنامهم، ويقولون حمى ظهره، حَام يعني حمى ظهره.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقد ذم النبي** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ **المتنطِّعين في الدِّين)**، المتنطعون: المتشددون، والتنطع هو التشدد في الدين.

وأخبر أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ دعا عليهم بالهلاك، قال: «**هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ، قَالَهَا ثَلَاثًا**». «**هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ، هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ، هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ**»: المتشددون.

الدين- ولله الحمد- سمح، لا غلو ولا تساهل، الدين وسط -ولله الحمد- بين الغالي والجافي، فلا غلو وتشدد، ولا تساهل وضياع وانفلات، الدين وسط -ولله الحمد- هذا دين الإسلام الذي هو الحنيفية السمحة، ملة إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وأخبر بهلكَتهم حيث يقول: «أَلَا هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ، أَلَا هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ، أَلَا هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ»)**، يعني بالهلاك، أو أخبر بهلاكهم.

وقال ابن أبي شيبة: حدثنا أبو أسامة، عن مِسْعر، قال: «أخرج إليَّ مَعْنُ بن عبد الرحمن كتابًا، وحلف بالله أنه خَطُّ أبيه، فإذا فيه: قال عبد الله: والله الذي لا إله غيره، ما رأيت أحدًا كان أشد على المتنطعين من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا رأيت بعده أشدَّ خوفًا عليهم من أبي بكر، وإني لأظن عمر كان أشد أهل الأرض خوفًا عليهم»(١).

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يبغض المتعمِّقين، حتى إنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا واصل بهم ورأى الهلال قال: «لَوْ تَأَخَّرَ الهِلَالُ لَوَاصَلْتُ وِصَالًا يَدعُ المُتَعَمِّقُونَ تَعَمُّقَهُمْ»؛ كَالمُنَكِّلِ بِهِمْ»(٢).

وكان الصحابة أقل الأمة تكلفًا، اقتداءً بنبيهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص:٨٦].

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ولا رأيت بعده أشدَّ خوفًا عليهم من أبي بكر، وإني لأظن عمر كان أشد أهل الأرض خوفًا عليهم)، على المتنطعين، وهم الذين يتشددون في الدين، وهذا من دين الخوارج، من سمة الخوارج.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المسند (١/ ٢٨٤)، والدارمي (١/ ٢٥٠).

(٢) أخرجه البخاري (٧٢٤١)، ومسلم (١١٠٤) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وأخرجه البخاري (١٩٢٢)، ومسلم (١١٠٢) من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وأخرجه البخاري (٧٢٩٩)، ومسلم (١١٠٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وأخرجه البخاري (١٩٦٤)، ومسلم (١١٠٥) من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، وأخرجه البخاري (١٩٦٣، ١٩٦٧)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وكان** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **يبغض المتعمِّقين)**، المتعمقين في الدين: الذين يتشددون.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(حتى إنه** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **لمَّا واصل بهم ورأى الهلال قال: «لَوْ تَأَخَّرَ الهِلَالُ لَوَاصَلْتُ وِصَالًا يَدَعُ المُتَعَمِّقُونَ تَعَمُّقَهُمْ؛ كَالمُنَكِّلِ بِهِمْ»)**، كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يواصل، والوصال: هو ألا يفطر بين اليومين؛ يصوم الأيام متواصلة ولا يفطر بينها، فهذا خاص به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

نهى الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عن الوصال؛ رحمة بهم، لأن هذا من خواصِّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لكنهم يحبونه، فيقتدون بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فلما رآهم مُصِرِّينَ على العمل بالوصال، واصل بهم إلى أن ظهر الهلال في آخر الشهر، فواصل بهم بقية الشهر، وقال: لو زاد لزدتكم؛ تنكيلًا لهم.

الرسول يحب التسامح، يحب التسهيل على الناس، وأما الوصال فهذا خاص به؛ قال: «**إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ، إِنِّي أَبِيتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي**»(١). هذا خاص بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أما نحن فالله جَلَّ وَعَلَا قال: ﴿**أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٔـٰنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ**﴾ [البقرة:١٨٧]. وحث صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على تأخير السحور، وتعجيل الإفطار؛ روى عن ربه

(١) سبق تخريجه في الحاشية السابقة.

عَزَّوَجَلَّ أنه يقول: «**أَحَبُّ عِبَادِي إِلَيَّ، أَعْجَلُهُمْ فِطْرًا**»(١)، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى الْمُتَسَحِّرِينَ**»(٢)، وقال: «**تَسَحَّرُوا؛ فَإِنَّ فِي السُّحُورِ بَرَكَةً**»(٣). فالله جَلَّ وَعَلَا يحب لنا التيسير وعدم التشدد، وأما كون الرسول يواصل هذا من خواصه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وكان الصحابة أقل الأمة تكلفًا، اقتداءً بنبيهم** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أقل الأمة تكلفًا: يعني تشددًا، لم يكونوا يتشددون، يحرصون على التسهيل على الناس، هذا أخذوه عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾** [ص:٨٦])، المتكلفين: المتشددين.

﴿وَمَآ أَنَا۠﴾: هذا براءة، ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص:٨٦]: هذه براءة من المتكلفين، وهم المتشددون.

---

(١) أخرجه أحمد (١٢/ ١٨٢) و(١٤/ ٩٨)، والترمذي (٧٠٠)، وابن خزيمة (٣/ ٢٧٦)، وابن حبان (٨/ ٢٧٥، ٢٧٦)، والبيهقي في الكبرى (٤/ ٣٩٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (١٧/ ١٥٠، ٤٨٥) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأخرجه ابن حبان صحيح (٨/ ٢٤٥، ٢٤٦)، والطبراني في المعجم الأوسط (٦/ ٢٨٧) من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وانظر: مجمع الزوائد (٣/ ١٥٠، ١٥١).

(٣) أخرجه البخاري (١٩٢٣)، ومسلم (١٠٩٥) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «من كان منكم مُستنًّا؛ فليستنّ بمن قد مات؛ فإن الحيّ لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانوا أفضل هذه الأمة: أبرها قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلُّفًا، اختارهم الله لصحبة نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولإقامة دينه، فاعْرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم على أثرهم وسيرتهم، فإنهم كانوا على الهَدْي المستقيم»(١).

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وقال عبد الله بن مسعود** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **«من كان منكم مُستنًّا؛ فليستنّ بمن قد مات؛ فإن الحيّ لا تؤمن عليه الفتنة)**، قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من كبار الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وعلمائهم وفقهائهم.

قال: «من كان منكم مُستنًّا»: يعني مقتديًا.

«فليستنّ بمن قد مات؛ فإن الحيّ لا تؤمن عليه الفتنة»: لا تؤمن عليه الفتنة ما دام على قيد الحياة، قد يتشدد، وقد يزيغ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(أولئك أصحاب محمد)**، انتبهوا! يصف أصحاب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يصف إخوانه من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(أولئك أصحاب محمد** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **كانوا أفضل هذه الأمَّة: أبرها قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلُّفًا، اختارهم الله لصحبة نبيه** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **ولإقامة دينه)**، هذه وصية عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ووصف

---

(١) سبق تخريجه (ص١٩٠).

لصحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أنهم أقل الناس تكلفًا؛ يعني: تشددًا، لا يتشددون، بل إنهم يتساهلون في حدود الدين، لا يتساهلون ويتركون الدين، لا.

يتساهلون في حدود الدين، في حدود الرخص الشرعية التي شرعها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ يأخذون بها إذا احتاجوا إليها.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(فاعْرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم على أثرهم وسيرتهم، فإنهم كانوا على الهَدْي المستقيم)**، كلام عظيم هذا من ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في وصف الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وعدم تكلفهم وتشددهم، وتمسكهم بسُنة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كنا عند عمر، فسمعته يقول: نُهِينَا عَنِ التَّكَلُّفِ»(١).

وقال مالك: قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ: «سنّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وولاة الأمور بعده سُننًا، الأخذ بها تصديق لكتاب الله، واستكمال لطاعة الله، وقوّة على دين الله، ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها، ولا النظر فيما خالفها، من اقتدى بها فهو مهتدٍ، ومن استنصر بها فهو منصور، ومن خالفها واتَّبع غير سبيل المؤمنين ولَّاه الله ما تولَّى، وأَصْلاه جهنم، وساءت مصيرًا»(٢).

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (قال مالك: قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ: «سنّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وولاة الأمور بعده سُننًا، الأخذ بها تصديق لكتاب الله، واستكمال لطاعة الله، وقوة على دين الله، ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها، ولا النظر فيما خالفها، من اقتدى بها فهو مهتدٍ، ومن استنصر بها فهو منصور، ومن خالفها واتّبع غير سبيل المؤمنين ولّاه الله ما تولَّى، وأَصْلاه جهنم، وساءت مصيرًا)، هذا كلام عمر بن العزيز بن مروان بن الحكم، وعمر بن عبد العزيز هذا من خيار التابعين رَحِمَهُ اللَّهُ، ومن أعمق الناس علمًا وتمسكًا بالسنة.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٢٩٣).

(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد في السُّنة (١/ ٣٥٧)، والآجُرِّيُّ في الشريعة الشريعة (١/ ٤٠٨، ٤٦٠) و(٣/ ١١٢٨)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٦/ ٣٢٤).

ولي الخلافة بعد الوليد بن عبد الملك، ولي الخلافة في عهد من سليمان بن مروان بن الحكم، عَهد إليه، وشكر الناس له ذلك -لسليمانَ- حيث عهد بها إلى خير مَن هو في وقته -وهو عمر بن عبد العزيز من بني أُمية- واختاره.

وكان قدوة للناس في عمله، وفي منهجه وسلوكه، بل إن بعض العلماء يعدُّونه مكملًا لعهد الخلفاء الراشدين.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(ومن خالفها واتّبع غير سبيل المؤمنين ولَّاه الله ما تولَّى، وأَصْلاه جهنم، وساءت مصيرًا»)**، كما في قوله تعالى: ﴿**وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا**﴾ [النساء:١١٥].

قالوا: هذا دليل على حجية الإجماع، أن ما أجمع عليه علماء المسلمين لا يجوز مخالفته، فالإجماع حجة، وهو الأصل الثالث من أصول الأدلة: الكتاب والسُّنة والإجماع، أصول ثلاثة.

وقال مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بلغني أن عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كان يقول: «سُنّتْ لكم السنن، وفُرِضت لكم الفرائض؛ وتُرِكتُم على الواضحة؛ إلا أن تميلوا بالناس يمينًا وشمالًا»(١).

وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَحْمِلُ هَذَا العِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ، يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الْغَالِينَ، وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ، وَتَأْوِيلَ الجَاهِلِينَ»(٢).

فأخبر أن الغالين يُحرفون ما جاء به، والمبطلين ينتحلون أن باطلهم هو ما كان عليه، والجاهلون يتأوّلون على غير تأويله.

وفساد الإسلام من هؤلاء الطوائف الثلاثة، فلولا أن الله سبحانه يقيم لدينه من ينفي عنه ذلك، لجرى عليه ما جرى على أديان الأنبياء قبله من هؤلاء.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بلغني أن عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كان يقول: «سُنّتْ لكم السنن، وفُرِضت لكم الفرائض؛ وتُرِكتُم على الواضحة؛ إلا أن تميلوا بالناس يمينًا وشمالًا»)، هذا كلام عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أن الرسول تركنا «عَلَى الْبَيْضَاءِ، لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا، لَا يَزِيغُ عَنْهَا إِلَّا هَالِكٌ»(٣).

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ (٢/ ٨٢٤)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١١٧٨، ١١٧٩).

(٢) أخرجه الآجُرِّيُّ في الشريعة (١/ ٢٦٨، ٢٦٩)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٣٥٣)، عن إبراهيم بن عبد الرحمن العذري مرسلًا.

(٣) عن العِرْباض بن سارية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: «وَعَظَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَوْعِظَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا =

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي: كِتَابَ اللهِ، وَسُنَّتِي**»(١).

مَن أراد النجاة فليتمسك بالكتاب والسنة من غير غلو، من غير تساهل، لا غلو ولا جفاء، بل الوسط، الوسطية.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**وقال** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَحْمِلُ هَذَا العِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ، يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الْغَالِينَ، وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ، وَتَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ**»)، «**يَحْمِلُ هَذَا الْعِلْمَ**»: العلم الشرعي.

«**مِنْ كُلِّ خَلْفٍ**»: من كل جيل، من كل خلف: يعني من كل جيل.

«**عُدُولُهُ**»: العلماء هم العدول، لا يحمل هذا العِلمَ إلا من هو عدل، وأما غير العدل فلا يحمل هذا العلم، والله يختار من الأجيال علماء يقومون بهذا: «**لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ** تَبَارَكَ وَتَعَالَى»(٢)،

=الْعُيُونُ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ هَذِهِ لَمَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ، فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا؟ قَالَ: «**قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ، لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا، لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ، مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِمَا عَرَفْتُمْ مِنْ سُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَعَلَيْكُمْ بِالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا، فَإِنَّمَا الْمُؤْمِنُ كَالْجَمَلِ الْأَنِفِ، حَيْثُمَا قِيدَ انْقَادَ**». أخرجه أحمد في المسند (٢٨/ ٣٦٧)، وابن ماجه (٤٣)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٩)، والطبراني في الكبير (١٨/ ٢٤٧، ٢٥٧)، وفي مسند الشاميين (٣/ ١٧٢)، والحاكم في المستدرك (١/ ١٧٥)، والبيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (ص: ١١٥)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١١٦٣).

(١) أخرجه الدارقطني (٥/ ٤٤٠)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١٩٥)، والحاكم (١/ ١٧٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

(٢) أخرجه مسلم (١٩٢٠) من حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وورد عن جماعة من الصحابة سوى ثوبان؛ منهم معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند البخاري (٣٦٤١)، ومسلم عقب حديث (١٩٢٣) =

فالله يختار في كل عصر من العلماء من يقوم لله بحجة، ولا يضيع هذا الدين إلا أن تأتي الساعة؛ يقيض الله له من يقوم به.

وليس ذلك مخصوصًا ببلد دون بلد، قد يكونون في المشرق أحيانًا، وقد يكونون في المغرب أحيانًا، ويكونون في أي جهة شاءها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الْغَالِينَ، وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ، وَتَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ**»)، يحمونه عن انتحال المبطلين الذين يزيدون في الإسلام ما ليس منه، وهم الغلاة، انتحال المبطلين الذين يعملون بالبدع، انتحال المبطلين يعني البدع.

وَتَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ: الذين يفسرون النصوص بغير معانها، ويحولونها عن معانيها، يقيض الله لهذا الدين من يحميه ويحمله في كل وقت، ولا يضيع الله هذا الدين.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**والمبطلين ينتحلون أن باطلهم هو ما كان عليه**)، يعني يبتدعون البدع، وينسبونها للرسول والشريعة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**والجاهلون يتأوّلونه على غير تأويله**)، يفسرون الكتاب والسنة بغير تفسيرهما.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وفساد الإسلام من هؤلاء الطوائف الثلاثة**)، يقولون: يُفسِدُ الدنيا ثلاثةٌ:

=(١٧٤). ومنهم المغيرة بن شعبة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وحديثه عند البخاري (٣٦٤٠)، ومسلم (١٩٢١). وأخرجه مسلم (١٥٦، ١٩٢٣) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وأخرجه مسلم (١٩٢٤) عن عقبة بن عامر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الأول: نصف طبيب: هذا يفسد الأبدان.

الثاني: ونصف فقيه: هذا يفسد البلدان؛ لأنه يفتي بغير علم، ويقضي بغير علم، فيفسد البلدان.

الثالث: ونصف نَحْوي: هذا يفسد اللسان، يفسد اللغة العربية. هؤلاء الذين يفسدون الدنيا: نصف فقيه، نصف طبيب، ونصف نحوي.

نصف فقيه: هذا يفسد البلدان، ونصف الطبيب يفسد الأبدان، نصف النحوي يفسد اللسان.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فلولا أن الله سبحانه يقيم لدينه من ينفي عنه ذلك، لجرى عليه ما جرى على أديان الأنبياء قبله من هؤلاء)**، الأديان السابقة وُكِلَ حفظها وكتابها إلى العلماء من بني إسرائيل، فحرَّفوها وضيعوها، وخانوا الأمانة.

أمَّا هذا القرآنُ فإن الله تكفل بحفظه، ولم يَكِلْ حفظه إلى أحد؛ قال سبحانه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر:٩].

فصــل

ومن ذلك: الوسوسةُ في مخارج الحروف، والتنطُّعُ فيها.

ونحن نذكر ما ذكره العلماء بألفاظهم:

قال أبو الفرج بن الجوزي: «قد لَبّس إبليس على بعض المصلين في مخارج الحروف، فتراه يقول: الحمد، الحمد، فيخرج بإعادة الكلمة عن قانون أدب الصلاة، وتارة يُلبِّس عليه في تحقيق التشديد في إخراج ضاد ﴿ٱلْمَغْضُوبِ﴾.

قال: ولقد رأيت من يخرج بُصاقه مع إخراج الضاد لقوة تشديده، والمراد تحقيق الحرف حسْبُ، وإبليس يُخْرِج هؤلاء بالزيادة عن حد التحقيق، ويَشْغلهم بالمبالغة في الحروف عن فهم التلاوة، وكل هذه الوساوس من إبليس»(١).

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ومن ذلك: الوسوسةُ في مخارج الحروف، والتنطُّعُ فيها)، هذه المشكلة، الآن التجويد يذبحه الناس ذبحًا.

يعتنون بالألفاظ ويضيعون المعاني، ويضيعون العمل، ويصير جهدهم بالتجويد: مخارج الحروف، والغنة، والإدغام، والقلقلة... إلى آخره.

---

(١) انظر: تلبيس إبليس (ص١٢٦).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومن ذلك: الوسوسةُ في مخارج الحروف، والتنطُّعُ فيها)**، مخارج الحروف، فالله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ ﴾ [القمر:٤٠]. ميسر القرآن.

﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾ [المزمل:٤]: يعني مترسلًا في قراءته؛ لا تهذ القرآن هَذًّا، ولا تمططه وتمدده تمطيطًا، بل توسَّطْ؛ ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾ [المزمل:٤]. فغلَوْا في أحكام التجويد، وصار ليس لهم هَمٌّ إلا التجويد، وإذا سألته عن المعنى يقول: لا أدري، تسأله عن التجويد، ما شاء الله، عنده علم بالتجويد، لكن تسأله عن العلم لا يعرف، ليس هكذا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قال أبو الفرج بن الجوزي)**، الإمام أبو الفرج بن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا من أئمة الحنابلة، ومن أئمة التفسير، ومن أئمة التاريخ، ومن أئمة الحديث، وله كتاب اسمه «تلبيس إبليس»، يعني يلبس على القراء، لبس على العلماء، لبس على النحاة، لم يدعْ أحد لم يلبس عليه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وتارة يُلبِّس عليه في تحقيق التشديد في إخراج ضاد ﴿ ٱلْمَغْضُوبِ ﴾. قال: ولقد رأيت من يخرج بُصاقه مع إخراج الضاد لقوة تشديده)**، يتشددون في الضاد، الضاد يتشددون فيها ﴿ ٱلْمَغْضُوبِ ﴾، ﴿ ٱلضَّآلِّينَ ﴾، لا داعي للتشدد، الزم الوسط في هذا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والمراد تحقيق الحرف حسْبُ، وإبليس يُخْرِج هؤلاء بالزيادة عن حد التحقيق)**، إبليس يخرج هؤلاء في علم التجويد إلى التشدد

في مخارج الحروف، في الغنة، في الإدغام... في كذا، في كذا، لكن تسأله عن المعنى لا يدري عنه شيئًا!

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ويَشْغلهم بالمبالغة في الحروف عن فهم التلاوة)**، يشغلهم بالتجويد عن فَهم المعنى، والبحث في المعنى.

وقال أبو محمد بن قُتيبة في «مشكل القرآن»: «وقد كان الناس يقرؤون القرآن بلغاتهم، ثم خَلَف من بعدهم قوم من أهل الأمصار وأبناء العجم، ليس لهم طبع اللغة، ولا علمُ التكلف، فهفَوا في كثير من الحروف، وزلُّوا وأخلُّوا.

ومنهم رجل ستر الله عليه عند العوام بالصلاح، وقرّبه من القلوب بالدين، فلم أرَ فيمن تتبعت في وجوه قراءته أكثر تخليطًا ولا أشد اضطرابًا منه؛ لأنه يستعمل في الحرف ما يدعه في نظيره، ثم يؤصّل أصلًا ويخالفه إلى غيره بغير عِلَّةٍ، ويختار في كثير من الحروف ما لا مخرج له إلا على طلب الحيلة الضعيفة.

هذا إلى نَبْذِه في قراءته مذاهبَ العرب وأهل الحجاز، بإفراطه في المدّ والهمز والإشباع، وإفحاشه في الإضجاع والإدغام، وحَمَلِه المتعلِّمين على المذهب الصَّعْب، وتَعْسيره على الأمَّة ما يَسَّره الله تعالى، وتضييقه ما فَسَحه!

ومن العجب أنه يُقرِئ الناس بهذه المذاهب، ويكره الصلاة بها! ففي أيّ موضع تُستعمل هذه القراءة، إن كانت الصلاة لا تجوز بها؟!

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقد كان الناس يقرؤون القرآن بلغاتهم، ثم خَلَف من بعدهم قوم من أهل الأمصار وأبناء العجم، ليس لهم طبع اللغة، ولا علمُ التكلف، فهفَوا في كثير من الحروف، وزلُّوا وأخلُّوا)، يقيمون

حروفه ويضيعون حدوده، وفي الدعاء: «اللهم لا تجعلنا ممن يقيم حروفه، ويضيع حدوده».

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(هذا إلى نَبْذِه في قراءته مذاهب العرب وأهل الحجاز، بإفراطه في المدّ والهمز والإشباع، وإفحاشه في الإضجاع والإدغام)**، القرآن يقرأه المسلم بسهولة؛ ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: ٤٠].

أما هذا التكلف في مخارج الحروف وفي أحكام التجويد، التشدد في هذا، نعم هذا مثل الملح إذا زاد أتلف الطعام، وإذا كان بمقدار صار الطعام أحسن، خذ -يعني- قدر الحاجة فقط، ما يجود قراءتك ولا تتشدد.

وكان ابن عُيَينة يرى لمن قرأ في صلاته بحرفه، أو ائتمّ بإمام يقرأ بقراءته: أن يعيد، ووافقه على ذلك كثير من خيار المسلمين، منهم بِشر بن الحارث، وأحمد بن حنبل.

وقد شُغف بقراءته عوامُّ الناس وسُوقتُهم، وليس ذلك إلا لما يرونه من مَشقّتها وصعوبتها، وطول اختلاف المتعلم إلى المقرئ فيها.

فإذا رأوه قد اختلف في أمّ الكتاب عشرًا، وفي مئة آية شهرًا، وفي السبع الطَّول حَولًا، ورأوه عند قراءته مائِلَ الشِّدْقين، دارَّ الوَريدَيْنِ، راشحَ الجبينيَنِ: توهموا أن ذلك لفضلِه في القراءة، وحِذْقِه بها!

وليس هكذا كانت قراءة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا خِيارِ السلف ولا التابعين، ولا القُرَّاء العالِين، بل كانت سهلةً رَسْلَةً»(١).

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وكان ابن عُيَينة)، يعني سفيان بن عيينة رَحِمَهُ اللَّهُ إمام أهل الحجاز في وقته، وسفيان الثوري إمام أهل العرق، وهذا إمام أهل الحجاز.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (ورأوه عند قراءته مائِلَ الشِّدْقين، دارَّ الوَريدَيْن، راشحَ الجبينيَن)، بعض القراء إذا رأيته يحمر وجهه وتنتفخ أوداجه، ويتكلف، ليست هكذا قراءة القراء، ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر:٤٠].

(١) انظر: تأويل مشكل القرآن لابن قُتَيْبَةَ (ص٤٢، ٤٣).

وقال الخلّال في «الجامع»: عن أبي عبد الله، أنه قال: «لا أحب قراءة فلان»، يعني هذا الذي أشار إليه ابن قتيبة، وكرهها كراهية شديدة، وجعل يَعْجب من قراءته، وقال: «لا تعجبني، فإن كان رجلٌ يقبلُ منك فانْهَه».

وحُكي عن ابن المبارك، عن الرّبيع بن أنس: أنه نهاه عنها.

وقال الفضلُ بن زياد: إن رجلًا قال لأبى عبد الله: فما أتركُ من قراءته؟ قال: «الإدغام والكسر، ليس يُعرف في لغة من لغات العرب».

وسأله عبد الله ابنُه عنها، فقال: «أكره الكسر الشديد والإضجاع».

وقال في موضع آخر: «إن لم يُدْغم ولم يُضْجع ذلك الإضجاع فلا بأس».

وسأله الحسن بن محمد بن الحارث: أتكره أن يتعلم الرجل تلك القراءة؟ قال: «أكرهه أشدَّ كراهة، إنما هي قراءة مُحدَثة»؛ وكرهها شديدًا حتى غضب.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وقال الخلّال في «الجامع»**)، جامع الخلال، الخلال: من تلاميذ الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، والجامع: جامع الخلال؛ يجمع فيها فتاوى الإمام أحمد.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وحُكي عن ابن المبارك، عن الرَّبِيعَ بن أنس إن رجلًا قال لأبي عبد الله**)، أحمد بن حنبل.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وقال الفضلُ بن زياد: إن رجلًا قال لأبى عبد الله: فما أتركُ من قراءته؟ قال: «الإدغام والكسر، ليس يُعرف في لغة من لغات العرب»**)، كره أحمد قراءة حمزة والكسائي، والإدغام الكبير لأبي عمرو.

وروى عنه ابن سِنْدِي أنه سُئِلَ عنها، فقال: «أكرهها أشد الكراهية»، قيل له: ما تكره منها؟ قال: هي قراءة مُحْدَثة، ما قرأ بها أحد».

وروى جعفر بن محمد - عنه- أنه سُئِلَ عنها فكرهها، وقال: «كرهها ابن إدريس، وأُراه قال: وعبد الرحمن بن مهدي، وقال: ما أدري، أيشٍ هذه القراءة؟، ثم قال: وقراءتهم ليس تشبه كلام العرب».

قال عبد الرحمن بن مهدي: «لو صليتُ خلف من يقرأ بها لأعدتُ الصلاة».

ونص أحمد على أنه يُعيد، وعنه رواية أخرى: أنه لا يعيد.

والمقصود: أن الأئمة كرهوا التنطّع والغُلُوّ في النطق بالحرف.

ومن تأمّل هَدْي رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإقراره أهل كل لسان على قراءتهم، تبيّن له أن التنطع والتشدّق والوسوسة في إخراج الحرف ليس من سنّته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقال: كرهها ابن إدريس)، يعني: الشافعي.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (والمقصود: أن الأئمة كرهوا التنطّع والغُلُوّ)، هذا هو المهم، انتبهوا، المقصود خذوا من التجويد بالاعتدال؛ لا تهملوه، ولا تبالغوا فيه، خذوا بالاعتدال.

فصــل
في الجواب عما احتج به أهل الوسواس

أما قولهم: إن ما نفعله احتياط لا وسواس.

قلنا: سمُّوه ما شئتم، فنحن نسألكم: هل هو موافق لفعل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمره وما كان عليه أصحابه؛ أو مخالف؟

فإن زعمتم أنه موافق فبَهْتٌ وكذب صريح، فإِذَنْ لابد من الإقرار بعدم موافقته، وأنه مخالف له، فلا ينفعكم تسمية ذلك احتياطًا.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (أما قولهم: إن ما نفعله احتياط لا وسواس. قلنا: سمُّوه ما شئتم، فنحن نسألكم: هل هو موافق لفعل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمره وما كان عليه أصحابه؛ أو مخالف؟)، إذا احتج أهل الوسواس بأن ما يفعلونه من التكلف في العبادة أنه احتياط، والاحتياط يقولون: مطلوب، فنسألهم: هل فعل هذا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

فإن ما شرعه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الاحتياط، وما خالف ما شرعه الرسول فهو وسواس، فلا بد أن يعترفوا أنه لم يفعله الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ إذًا أقروا بأنه وسواس.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإن زعمتم أنه موافق فبَهْتٌ وكذب صريح، فإِذَنْ لابد من الإقرار بعدم موافقته، وأنه مخالف له، فلا ينفعكم تسمية ذلك احتياطًا)**، أنتم تسمونه احتياطًا، وهو وسواس.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أعاذ رسوله من الوسواس الخناس، أنزل في ذلك سورة من القرآن أعاذ بها رسوله من الوسواس -وهو الشيطان- الخناس؛ ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس:٥].

وهذا نظير مَن ارتكب محظورًا وسمَّاه بغير اسمه، كما تُسمَّى الخمر بغير اسمها، والربا: معاملة، والتحليل الذي لعن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاعله[(١)]: نكاحًا، ونَقْرَ الصلاة الذي أخبر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن فاعله لم يُصَلِّ[(٢)]، وأنه لا تُجزئه صلاته ولا يقبلها الله منه: تخفيفًا! فهكذا تسمية الغُلُوِّ في الدين والتنطُّع احتياطًا.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وهذا نظير مَن ارتكب محظورًا وسماه بغير اسمه)، وهذا يعني: أن من فعل فعلًا لم يفعله رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أنه مشروع وعبادة

---

(١) جاء ذلك في عدة أحاديث؛ منها حديث ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أخرجه أحمد (٧/ ٣١٤)، والترمذي (١١٢٠)، والنسائي (٢٤١٦)، وقال الترمذي (٣/ ٤٢١): (هذا حديث حسن صحيح). ومنها حديث عليِّ بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أخرجه أبو داود (٢٠٧٦)، والترمذي (١١١٩)، وابن ماجه (١٩٣٥). ومنها حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أخرجه ابن ماجه (١٩٣٤).

(٢) أخرج البخاري (٧٩٣)، ومسلم (٣٩٧)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ المَسْجِدَ، فَدَخَلَ رَجُلٌ فَصَلَّى، ثُمَّ جَاءَ فَسَلَّمَ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَرَدَّ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السَّلَامَ، قَالَ: **ارْجِعْ فَصَلِّ؛ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ**، فَرَجَعَ الرَّجُلُ فَصَلَّى كَمَا كَانَ صَلَّى، ثُمَّ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **وَعَلَيْكَ السَّلَامُ**، ثُمَّ قَالَ: **ارْجِعْ فَصَلِّ؛ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ**، حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ. فَقَالَ الرَّجُلُ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ، مَا أُحْسِنُ غَيْرَ هَذَا، عَلِّمْنِي، قَالَ: **إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَكَبِّرْ، ثُمَّ اقْرَأْ مَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِنَ القُرْآنِ، ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَعْدِلَ قَائِمًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا، ثُمَّ افْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلَاتِكَ كُلِّهَا**».

هو كمن ارتكب محرمًا، وزعم أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أباحه، لا فرق في ذلك.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(كما تُسمَّى الخمر بغير اسمها)**، كما يسمون الخمر بغير اسمها هذا لا يبيحها، هذه التسمية لا تبيحها؛ كأن يسموها شراب المسرة أو الشراب المفرح أو ما أشبه ذلك هذا لا يغيرها، هي خمر ولو سميت بغير اسمها، خبيثة.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(والربا: معاملة)**، وكما يسمى الربا بيعًا أو معاملة لا يغير هذا، هو ربا محرم.

والله جَلَّ وَعَلَا قال عنهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ﴾ [البقرة:٢٧٥] يعني: يوم القيامة من قبورهم، إذا قام الناس من قبورهم لرب العالمين يسرعون إلى المحشر، أكلة الربا يقومون ويسقطون؛ تتضخم بطونهم فيقومون ويسقطون.

السبب: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة:٢٧٥]. حتى إنهم عكسوا، جعلوا الأصل الربا والبيع مقيس عليه وهذا من انتكاس العقول.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(والتحليل الذي لعن رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **فاعله: نكاحًا)**، التحليل إذا كانت امرأة مطلقة ثلاثًا فلا تحل لمطلقها حتى تنكح زوجًا غيره، زواج رغبة لا زواج تحليل ثم يطلقها، فإذا طلقها وتمت عدتها؛ إن شاء مطلقها الأول أن يعقد عليها فلا بأس.

﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ ﴾: يعني الثالثة.

﴿ فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ ﴾ [البقرة: ٢٣٠].

وليس المراد أنه يعقد عليها فقط، فلو عقد عليها الزوج الثاني طلقها قبل الدخول لم تحل للأول حتى يطأها الثاني، بدليل أن امرأة طلقها زوجها ثلاثًا حرمت عليه، تزوجها زوج آخر فلم يَرُقْها، وجاءت إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تقول: «وَإِنَّ مَا مَعَهُ مِثْلُ هُدْبَةِ الثَّوْبِ».

«مِثْلُ هُدْبَةِ الثَّوْبِ»: يعني: أن زوجها الثاني لم يجامعها؛ لأنه ليس معه آلة، قال: «**أَتُرِيدِينَ أَنْ تَرْجِعِي إِلَى فُلَانٍ؟ لَا، حَتَّى يَذُوقَ عُسَيْلَتَكِ، وَتَذُوقِي عُسَيْلَتَهُ**»(١)، فلا يكفي العقد، لا بد من الوطء، ولا بد أن يكون ذلك نكاحَ رغبة، لا تحليل، وقد «لَعَنَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُحَلِّلَ وَالْمُحَلَّلَ لَهُ»، وسمى المحلل بالتيس المستعار(٢)، لعن الله التيس المستعار، وهو الذي يتزوج امرأة لا رغبة له فيها، وإنما يريد أن يحللها لزوجها الذي طلقها ثلاثًا.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(والتحليل الذي لعن رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **فاعله: نكاحًا)**، وهو ليس بنكاح، بل هو حيلة.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢٦٠، ٥٢٦٥، ٥٧٩٢)، ومسلم (١٤٣٣)، من حديث أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) كما في حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِالتَّيْسِ الْمُسْتَعَارِ**»، قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**هُوَ الْمُحَلِّلُ، لَعَنَ اللهُ الْمُحَلِّلَ، وَالْمُحَلَّلَ لَهُ**». أخرجه ابن ماجه (١٩٣٦).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ونَقْرَ الصلاة)**، نقر الصلاة: يعني تخفيف الصلاة الذي نهى عنه الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نقر أربعًا لا يتم ركوعها ولا سجودها ولا يذكر الله فيها إلا قليلًا.

صلاة المنافق هذه ليست صلاة المؤمن، صلاة المؤمن يطمئن في صلاته، في قيامه في ركوعه في سجوده في جلوسه، يطمئن في كل ركن، الطمأنينة في كل ركن من أركان الصلاة.

كما في قصة المسيء لصلاته؛ دخل رجل المسجد، والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جالس، فصلى الرجل، صلى ذلك الرجل وأسرع في صلاته، ثم جاء وسلم على النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ورد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال: «**صَلِّ، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ**». رجع وصلى مثل صلاته الأولى، جاء وسلم على النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، رد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال له: «**صَلِّ، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ**»، فعل ذلك ثلاث مرات، والرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**صَلِّ، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ**»، قال: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ نَبِيًّا، مَا أُحْسِنُ غَيْرَ هَذَا، فَعَلِّمْنِي». قَالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَكَبِّرْ، ثُمَّ اقْرَأْ مَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَعْتَدِلَ قَائِمًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ افْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلَاتِكَ كُلِّهَا**»(١). فجعل كل ركن يقول: «**حَتَّى تَطْمَئِنَّ، حَتَّى تَطْمَئِنَّ**».

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ونَقْرَ الصلاة الذي أخبر رسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **أن فاعله لم يُصَلِّ)**، كما في حديث المسيء في صلاته.

---

(١) سبق تخريجه (ص٤٦٣).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وأنه لا تُجزئه صلاته ولا يقبلها الله منه: تخفيفًا!)**، هذا يسمى نقر الصلاة: تخفيفًا، وليس هذا هو التخفيف المشروع الذي قال فيه الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَيُّكُمْ أَمَّ بِالنَّاسِ فَلْيُخَفِّفْ**»(١)، هذا ليس هو التخفيف المشروع، التخفيف المشروع يكون معه طمأنينة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فهكذا تسمية الغُلُوِّ في الدين والتنطُّع احتياطًا)**، يسمون الغلو في الدين -الغلو: هو الزيادة(٢)، الزيادة في الدين والعبادات التي لم يشرعها الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يسمونه احتياطًا!

لا، الاحتياط: ما فعله الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما خالف فعل الرسول فإنه ليس احتياطًا، وإنما هو بدعة، وكل بدعة ضلالة، وقد قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي**»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٣)، ومسلم (٤٦٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه البخاري (٩٠)، ومسلم (٤٦٦)، من حديث أبي مسعود الأنصاري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر معنى الغلو لغة في: العين (٤/ ٤٤٦)، وتهذيب اللغة (٨/ ١٦٧)، ومقاييس اللغة (٤/ ٣٨٨)، ولسان العرب (١٥/ ١٣٢).

(٣) أخرجه البخاري (٦٣١، ٦٠٠٨، ٧٢٤٦) من حديث مالك بن الحُوَيْرِث رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وينبغي أن يُعلم أن الاحتياط الذي ينفع صاحبه ويُثيبه الله عليه: الاحتياطُ في موافقةِ السنة، وترك مخالفتها، والاحتياط كلُّ الاحتياط في ذلك؛ وإلا فما احتاط لنفسه مَنْ خرج عن السنة، بل ترك حقيقة الاحتياط في ذلك.

وكذلك المتسرعون إلى وقوع الطلاق في موارد النزاع الذي اختلف فيه الأئمة، كطلاق المكره، وطلاق السكران، والبَتّة، وجمع الثلاث، والطلاق بمجرد النية، والطلاق المؤجل المعلوم مجيءُ أجله، واليمين بالطلاق، وغير ذلك مما تنازع فيه العلماء إذا أوقعه المفتي تقليدًا بغير برهان، وقال: ذلك احتياط للفروج؛ فقد ترك معنى الاحتياط؛ فإنه يُحرِّم الفرج على هذا، ويبيحه لغيره، فأين الاحتياط ها هنا؟

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وينبغي أن يُعلم أن الاحتياط الذي ينفع صاحبه ويُثيبه الله عليه: الاحتياطُ في موافقةِ السنة، وترك مخالفتها)، الاحتياط: هو موافقة السنة النبوية، وعدم مخالفتها، وما خالف السنة النبوية فليس احتياطًا، وليس هو من دين الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنما هو بدعة، وكل بدعة ضلالة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والاحتياط كلُّ الاحتياط في ذلك)، والاحتياط كلُّ الاحتياط في موافقة السنة، هذا هو الاحتياط: موافقة السنة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وإلا فما احتاط لنفسه مَنْ خرج عن السنة)، أما من خرج عن السنة بزيادة أو نقص، فإن هذا بدعة وليس سنة.

قولـه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(بـل تـرك حقيقـة الاحتيـاط في ذلـك)**، تـرك الاحتياط الصحيح، وهو موافقة السنة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وكذلك المتسرعون إلى وقوع الطلاق في موارد النزاع الذي اختلف فيه الأئمة)**، كذلك من الاحتياط الذي يظنونه في الطلاق الذين يتسرعون في الإفتاء بالطلاق، ويحرمون الزوجات على أزواجهن بطلاق لا يحرمهن، يقولون: هذا احتياط! هذا ليس هو الاحتياط، الاحتياط في الطلاق: الموافق للسنة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(كطلاق المكره)**، طلاق المكره: الذي أكره على الطلاق لا يقع طلاقه، لا طلاق في إغلاق يعني في إكراه.

«**لَا طَلَاقَ، وَلَا عَتَاقَ فِي إِغْلَاقٍ**»(١): يعني في إكراه، إنما الطلاق يكون بالاختيار من المطلِّق، أن يطلق باختياره؛ فإن أُكرِهَ على الطلاق لم يقع، لو أمسكته زوجته وخنقته، وقالت: إما أن تطلق وإلا أقتلك! طلَّقَها؛ لا تطلق؛ لأن هذا مُكْرَهٌ، ليس مختارًا.

أو أن جبارًا هدده إن لم يطلق زوجته سيبطش به، طلقها ليتخلص من الظلم؛ لم تطلق زوجته؛ لأنه مكره؛ ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البقرة:٢٥٦].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وطلاق السكران)**، طلاق السكران، فاقد العقل إذا -والعياذ بالله- شرب خمرًا أو تعاطى مسكرًا وغاب عقله وطلق، فهذا مثل النائم لا يقع طلاقه؛ لأنه لا يعقله.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٤/ ٨٣)، وأحمد (٤٣/ ٣٧٨)، وأبو داود (٢١٩٣)، وابن ماجه (٢٠٤٦)، والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٥٨٥) و(١٠/ ١٠٥) من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

يقولون: هذا احتياط! لا، تطلق زوجة المكره، وتطلق زوجة السكران وتقول: هذا احتياط! نقول: لا، هذا اختلاط، وليس احتياطًا! لا يجوز هذا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والبتّة)**، والبتّة: إذا جمع الثلاث في كلمة واحدة بتّها لا يقع إلا واحدة، لا يقع إلا واحدة؛ لأن هي التي شرعها الله: ﴿ **ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٍ** ﴾ [البقرة:٢٢٩].

إلى قوله: ﴿ **فَإِن طَلَّقَهَا** ﴾: يعني الثالثة؛ ﴿ **فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ** ﴾ [البقرة:٢٣٠].

الطلاق مفرق؛ إذا جمعها في كلمة واحدة لم يقع إلا واحدة؛ لأنه طلاق مخالف لما شرعه الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والطلاق بمجرد النية)**، ولو لم يتلفظ، الطلاق لا يقع إلا بالتلفظ، فلو أنه نوى طلاق زوجته في نفسه لم تطلق حتى يتلفظ بذلك مختارًا عاقلًا، حتى يتلفظ بذلك مختارًا لا مكرهًا، عاقلًا لا مجنونًا أو سكرانًا، لابد من توفر هذه الشروط.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والطلاق المؤجل المعلوم مجيءُ أجله)**، الطلاق المؤجل: إذا قال: إذا دخل شهر -مثلًا- ربيع الأول فأنت طالق، هذا مؤجل، لا يقع حتى يدخل الشهر الذي عُلِّقَ عليه الطلاق، لا تطلق حتى يدخل الشهر الذي علق الطلاق بدخوله؛ لأنه طلاق معلق لا منجز.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(واليمين بالطلاق)**، اليمين بالطلاق: كيف اليمين بالطلاق؟

أن يقصد بالطلاق: الحث أو المنع، أو التصديق أو التكذيب؛ يقول: زوجته طالق إن كانت فعلت كذا وكذا، زوجته طالق إن كان هذا الأمر كذا

وكذا، أو إن لم أفعل كذا فزوجته طالق، أو إن فعل كذا فزوجته طالق، هذا معلق.

هذا معلق وهو لا يقصد إيقاع الطلاق، يقصد تصديق خبره أو تكذيب فلا تطلق به المرأة عند المحققين، لا تطلق به المرأة عند المحققين؛ لأنه يجري مجرى اليمين فيكفر عن يمينه ولا تطلق زوجته بمثل هذا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وغير ذلك مما تنازع فيه العلماء إذا أوقعه المفتي تقليدًا بغير برهان**)، هذه المسائل اختلف فيها العلماء، وليس لأحد أن يختار قولًا إلا إذا عرف دليله، أما التقليد؛ بأن فلانًا قال كذا... ما دليله؟ يقول: لا أدري، لكنه قال كذا! نقول: لا يصح هذا، المرأة في ذمة زوجها، ولا تطلق إلا بشيء صريح لا إشكال فيه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وقال: ذلك احتياط للفروج**)، هذا ليس باحتياط للفروج، هذا تضييع، الاحتياط للفروج: أن يطبق فيها كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا أن يؤخذ بالخلاف بين العلماء.

لا يؤخذ بالخلاف من غير دليل، الاعتماد ليس على قول فلان، الاعتماد على دليله، يؤخذ إذا عُرِفَ دليله يؤخذ، أما إذا لم يعرف دليله أو ليس له دليل لا يؤخذ بقوله.

مسألة الإفتاء بالطلاق خطيرة لا يجوز أن يفتي فيها إلا عالم متضلع أو يرجع إلى الجهات الموكول إليها الإفتاء في الأمور العامة، لا يتسرع الإنسان في أمور ليست من اختصاصه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فقد ترك معنى الاحتياط)**، الاحتياط: هو موافقة الدليل، وهو قد تركه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإنه يُحرِّم الفرج على هذا، ويبيحه لغيره)**، هذه خطيرة؛ يحرم الفرج على من أباحه الله له وهو الزوج، ويبيحه لغيره يتزوجها غيره وهي في ذمة الزوج الأول؛ لأنه لم يقع عليها طلاق، هذه مسألة خطيرة جدًا، ولذلك لا يفتي في الطلاق إلا الجهات المعينة.

في المحكمة، لا يحكم بالطلاق إلا قاضي في المحكمة أو الجهات المعنية بالإفتاء للناس.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فأين الاحتياط ها هنا؟)**، الاحتياط: أن الفرج لمن له النكاح، لمن له النكاح، وليس له أن يخرجها عن عصمة زوجها ويبيحها لرجل أخر، وهي في ذمة الأول، المسألة خطيرة.

لا يقول قائل: هذه يفتي فيها فلان، هذه يفتي فيها ابن باز! لا، لا يجوز لك هذا؛ ليس هذا من شؤونك، الطلاق يرجع للمحاكم، وإلا لدار الإفتاء المعنية بهذا.

هناك بعض أئمة مساجدَ مباشرة يقولون: ابن باز يفتي بكذا وكذا! فيفتون بالطلاق، وهم لا يعرفون بفتوى ابن باز، ولا على ماذا بُنيت عليه، فقط يسمعون أن ابن باز يفتي بكذا أو فلان يفتي بكذا! لا يجوز هذا، هذا تحليل فروج، وإبطال أنكحة، لا يجوز.

بل لو أبقاه على حاله حتى تُجمع الأمة على تحريمه وإخراجه عمن هو حلال له، أو يأتي برهان من الله ورسوله على ذلك؛ لكان قد عمل بالاحتياط.

ونص على مثل ذلك الإمامُ أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في طلاق السكران؛ فقال في رواية أبي طالب: والذي لا يأمر بالطلاق فإنما أتى خَصْلة واحدة، والذي يأمر بالطلاق قد أتى خصلتين: حرمها عليه، وأحلها لغيره، فهذا خير من هذا.

فلا يمكن الاحتياط في وقوع الطلاق إلا حيث أجمعت الأمة، أو كان هناك نص عن الله ورسوله يجب المصير إليه.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (بل لو أبقاه على حاله حتى تُجمع الأمة على تحريمه وإخراجه عمن هو حلال له، أو يأتي برهان من الله ورسوله على ذلك؛ لكان قد عمل بالاحتياط)، الاحتياط باتباع الدليل، ليس كلُّ يعرف الدليل، ولا كل يعرف مباني الأحكام، فالأمور خطيرة لا يتدخل فيها إنسان بغير علم، والإنسان في عافية، الإنسان في عافية يحيلها إلى العلماء، إلى المراجع العلمية.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ونص على مثل ذلك الإمـامُ أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في طلاق السكران؛ فقال في رواية أبي طالب: والذي لا يأمر بالطلاق فإنما أتى خَصْلة واحدة، والذي يأمر بالطلاق قد أتى خصلتين: حرمها عليه، وأحلها لغيره، فهذا خير من هذا)، الذي يبقي النكاح على ما هو عليه هذا هو الاحتياط.

الاحتياط: أن يبقى النكاح على ما هو عليه حتى يتبين ويثبت أنه قد انحل هذا النكاح، وإلا فالاحتياط أن يبقى على ما هو عليه حتى يتبين أنه انحل.

وهذا -يا إخوان- يرجع فيه إلى العلماء والمعنيين في ذلك، والمحاكم الشرعية ودار الإفتاء، ولا يتعرض له كل أحد، الإنسان في عافية.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فلا يمكن الاحتياط في وقوع الطلاق إلا حيث أجمعت الأمة، أو كان هناك نص عن الله ورسوله يجب المصير إليه)**، الأدلة: بالكتاب أو السنة او الإجماع، هذه الأدلة.

قال شيخنا: والاحتياط حسن ما لم يُفْضِ بصاحبه إلى مخالفة السُّنة، فإذا أفضى إلى ذلك فالاحتياط ترك هذا الاحتياط.

وبهذا خرج الجواب عن احتجاجهم بقوله ﷺ: «مَنْ تَرَكَ الشُّبُهَاتِ، فَقَدِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ»(١).

وقوله: «دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ»(٢).

وقوله: «الْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي الصَّدْرِ»(٣)، فهذا كله من أقوى الحجج على بطلان الوسواس.

فإن الشبهات ما يشتبه فيه الحق والباطل، والحلال والحرام، على وجه لا يكون فيه دليلٌ على أحد الجانبين، أو تتعارض الأمارتان عنده، فلا تترجح في ظنه إحداها، فيشتبه عليه هذا بهذا، فأرشده النبي ﷺ إلى ترك المشتبه، والعدول إلى الواضح الجلي.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قال شيخنا)**، الذي هو شيخ الإسلام ابن تيمية.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والاحتياط حسن ما لم يُفْضِ بصاحبه إلى مخالفة السُّنة، فإذا أفضى إلى ذلك فالاحتياط ترك هذا الاحتياط)**، الاحتياط حسن، الاحتياط، لكن متى يكون الاحتياط؟ الاحتياط في موافقة الكتاب والسنة، ما خالف الكتاب والسنة فليس احتياطًا.

---

(١) سبق تخريجه (ص٢٣٣).

(٢) سبق تخريجه (ص٢٣٣).

(٣) سبق تخريجه (ص٢٣٣).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقوله: «دَعْ مَا يَرِيْبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ»)**، هذا هو الاحتياط؛ أن الشيء الذي أَشكل عليك تدعه إلى شيء لا إشكال فيه حتى يتبين لك الأول، أجِّلْه حتى يتبينَ لك، لا تبادر وتقول: هذا احتياط.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإن الشبهات ما يشتبه فيه الحق والباطل)**، **«مَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ فَقَدِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ»**.

الشبهات إذا اشتبه هل هو كذا أو كذا، هل هو حلال أو حرام.

قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ، لَا يَعْلَمُهُنَّ»**. انتبهوا! **«لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ»**[1]: ليس هناك أحد يعلمهن، يعلمهن العلماء، لكن كثير من الناس لا يعلمهن فيرجع إليهم في هذه الأمور، التزم بالشيء الواضح.

«الْحَلَالَ بَيِّنٌ»: خذ الحلال البيِّن، وتجنب الحرام البين، أمَّا ما اشتبه: هل هو حلال أو حرام؟ هذا تجنبه، هذا هو الاحتياط الصحيح.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(أو تتعارض الأمارتان عنده)**، أو يحصل تعارض بين الأدلة، يحصل فيه تعارض بين دليل يبيح ودليل يحرم، هذا لا تقدم عليه، تجنبه، هذا مشتبه، اتركه للعلماء الذين يعرفون كيف يطبقون الأدلة، وأنت في عافية.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فأرشده النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى ترك المشتبه، والعدول إلى الواضح الجلي)**، **«دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ»**.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

ومعلوم أن غاية الوسواس أن يشتبه على صاحبه: هل هو طاعة وقربة، أم معصية وبدعة؟ هذا أحسن أحواله، والواضح الجلي هو اجتماع طريق رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما سنَّهُ للأمة قولًا وعملًا.

فمن أراد ترك الشبهات عدل عن ذلك المشتبه إلى هذا الواضح، فكيف ولا شبهة بحمد الله هناك؟ إذ قد بينت بالسنة أنه تَنَطّع وغلو، فالمصير إليه تركٌ للسنة، وأخذ بالبدعة، ترك لما يحبه الله ويرضاه، وأخذٌ بما يكرهه ويبغضه، ولا يُتقَرّب به إليه البتة، فإنه لا يُتَقرّب إليه إلا بما شرع، لا بما يهواه العبد ويفعله من تلقاء نفسه، فهذا هو الذي يحيك في الصدر، ويتردد في القلب، وهو حَوَازُّ القلوب.

وأما التمرة التي ترك رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكلها، وقال: «أَخْشَى أَنْ تَكُونَ مِنَ الصَّدَقَةِ»(١)، فذلك من باب اتقاء الشبهات، وترك ما اشتبه فيه الحلال بالحرام؛ فإن التمرة كانت قد وجدها في بيته. وكان يؤتَى بتَمْر الصدقة، يقسمه على من تحل له الصدقة، ويدخل بيتَه تمرٌ يقتات منه أهله، فكان في بيته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النوعان، فلما وجد تلك التمرة لم يدرِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من أيّ النوعين هي؟ فأمسك عن أكلها. فهذا الحديث أصل في الورع واتقاء الشبهات، فما لأهل الوسواس وما لَه؟

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٥٥)، ومسلم (١٠٧١) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(فالمصير إليه تركٌ للسنة، وأخذ بالبدعة)**، الاحتياط الذي هو مبني على وسواس هذا ليس احتياطًا، الاحتياط هو المبني على دليل من الكتاب والسنة، والذي ليس عنده علم يتوقف، يتوقف في هذا.

«**دَعْ مَا يَرِيبُكَ**»: هذه قاعدة عظيمة؛ «**دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ**»: خذ الواضح، واترك الشيء المشكل.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وأما التمرة التي ترك رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **أكلها، وقال: «أَخْشَى أَنْ تَكُونَ مِنَ الصَّدَقَةِ»)**، النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بينما هو يمشي في الطريق ورأى تمرة ساقطة فأخذها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعني لا تترك النعمة تداس في الطرقات.

أخذها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال: «**لَوْلَا أَنِّي أَخْشَى أَنْ تَكُونَ مِنَ الصَّدَقَةِ لَأَكَلْتُهَا**». فتجنبها الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تجنبًا للشبهة؛ لأنها قد تكون من الصدقة التي حرمت عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الرسول حرمت عليه الصدقة، وأبيحت له الهدية، أبيحت له الهدية.

وأما قولكم: إن مالكًا أفتى فيمن طلق ولم يَدْرِ أواحدةً طلّق أم ثلاثًا؟ أنها ثلاث احتياطًا.

فنعم هذا قول مالك، فكان ماذا؟

أفحُجّةٌ هو على الشافعي، وأبي حنيفة، وأحمد، وعلى كُلّ من خالفه في هذه المسألة؟ حتى يجب عليهم أن يتركوا قولهم لقوله.

وهذا القول مما يُحتج له، لا مما يحتج به.

على أن هذا ليس من باب الوسواس في شيء، وإنما حجة هذا القول إن الطلاق يوجب تحريم الزوجة، والرّجْعَةُ ترفع ذلك التحريم.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وأما قولكم: إن مالكًا أفتى فيمن طلق ولم يَدْرِ أواحدةً طلّق أم ثلاثًا؟ أنها ثلاث احتياطًا. فنعم هذا قول مالك، فكان ماذا؟)**، هذا قول مالك في هذه المسألة، صحيح أنه قاله.

لكن الأئمة غيره يخالفونه في هذا، الأئمة: أحمد والشافعي وأبي حنيفة يخالفونه في هذا، فالاحتياط أننا نأخذ بقول الأكثر، قول الأكثر في هذا؛ لأنه أحوط.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهذا القول مما يُحتج له، لا مما يحتج به)**، كل عالم لا يحتج بقوله، وإنما يحتج له، يقال: ما دليله؟

فإن كان له دليل أُخِذَ، وإن لم يكن له دليل يترك، ولو قال به أفضل العلماء؛ كل يؤخذ من قوله ويرد إلا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال مالكٌ نفْسُه: «كُلٌّ رَادٌّ ومردودٌ عليه، إلا صاحبَ هذا القبر»[١]، يعني: رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه قاله في مسجد الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) انظر: الإحكام لابن حزم (٦/ ٣١٧)، ومنهاج السنة النبوية (٣/ ٥٠٣)، والبداية والنهاية (١٤/ ١٤٠)، والآداب الشرعية (٢/ ٢٩٣)، وإعلام الموقعين (٣/ ٢٨٤، ٢٨٥).

فهو يقول: قد تيقن سبب التحريم، وهو الطلاق، وشكّ في رَفْعِه بالرجعة، فإنه يحتمل أن يكون رجعيًّا فترفَعُهُ الرجعة، ويحتمل أن يكون ثلاثًا فلا ترفعه الرجعة، فقد تيقّن سبب التحريم، وشكَّ فيما يرفعه.

والجمهور يقولون: النكاح متيقن، والقاطع له المزيل لِحِلّ الفرج مشكوك فيه، فإنه يحتمل أن يكون المَأْتى به رجعيًا فلا يزيل النكاح، ويحتمل أن يكون بائنًا فيزيله، فقد تيقنًّا يقين النكاح، وشككنا فيما يزيله، فالأصل بقاء النكاح حتى يُتَيقّن ما يرفعه.

فإن قلتم: فقد تيقن التحريم وشكَّ في التحليل.

قلنا: الرجعية ليست بحرام عندكم، ولهذا تجوّزون وطأها، ويكون رجعةً إذا نوى به الرجعة.

فإن قلتم: بل هي حرام، والرجعة حصلت بالنية حال الوطء.

قلنا: لا ينفعكم ذلك أيضًا؛ فإنه إنما تيقن تحريما يزول بالرجعة، لم يتيقن تحريمًا لا تؤثر فيه الرجعة.

وليس المقصود تقرير هذه المسألة، والمقصود أنه لا راحة في ذلك لأهل الوسواس.

الشَّرح

هذه وجهة قول مالك، ووجهة قول الجمهور.

فصــل

وأما من حلف بالطلاق أن في هذه اللَّوْزة حَبّتين، ونحو ذلك مما لا يتيقنه الحالف، فبان كما حلف عليه: فهذا لا يحنث عند الأكثرين.

وكذلك لو لم يتبين الحال واستمر مجهولًا؛ فإن النكاح ثابت بيقين، فلا يزيله بالشك.

ولمالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ أصلٌ نازعه فيه غيره، وهو إيقاع الطلاق بالشك في الحنث، وإيقاعه بالشك في عدده كما تقدم، وإيقاعه بالشك في المطلقة، كما لو طلق واحدة من نسائه ثم أُنْسِيها، ووقف الحال مدة الإيلاء ولم يتبين، طُلِّقَ عليه الجميع.

وكما لو حلف أن هذا فلان أو حيوان، وهو غير متيقّن له، بل هو شاكٌّ حال الحَلفِ، فتبين أن الأمر كما حلف عليه؛ فإنه يحنث عنده، وتطلق امرأته.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وإيقاعه بالشك في المطلقة، كما لو طلق واحدة من نسائه ثم أُنْسِيها، ووقف الحال مدة الإيلاء ولم يتبين، طُلِّقَ عليه الجميع)، جميع نسائه يعني؛ لأنه طلق واحدة ونسيها، كل واحدة يحتمل أنها هي المطلقة، فيمنع من الجميع احتياطًا، هذا هو الاحتياط الصحيح.

فمن حلف على رجل أنه زيد، فتبيّن أنه غيره، أو لم يتبين أهو المحلوف عليه أم لا؟ حنث عنده.

وإن تبين أنه المحلوف عليه، وكان حال اليمين لا يعلم حقيقته، ولا يغلب على ظنه، ولا طريق له إلى العلم به في العادة، فإنه يحنث عنده؛ لشكِّه حال الحلف.

فالحالف يحنث بالمخالفة لما حلف عليه: أما في الطلب فبأن يفعل ما حلف على تركه، وأما في الخبر فبأن يتبين كذبه.

وعند مالك يحنث بأمر آخر، وهو الشك حال اليمين، سواءٌ تبين صدقه أم لا.

وأبلغ من هذا أنه يحنِّث من حلف بالطلاق على إنسانٍ إلى جانبه أنه إنسان أو حجرٍ أنه حجر، ونحو ذلك مما لا شك فيه.

وعمدته في الموضعين: أن الحالف هازل؛ فإن من قال: أنت طالق إن لم تكوني امرأة، أو إن لم أكن رجلًا، لا معنى لكلامه إلا الهَزْلُ، فإن هذا مما لا غرض للعقلاء فيه.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (حنث عنده)، عند مالك يعني.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فإنه يحنث عنده)، عند مالك.

قالوا: وإن لم يكن هذا هزلًا فإن الهزل لا حقيقة له.

وربما عللوا الحنث بأنه أراد أن يجزم الطلاق، ثم ندم، فوصله بما لا يفيد ليرفعه.

وأما في القسم الأول: فأصله فيه تغليب الحنث بالشك، كمن حلف ثم شك: هل حنث أم لا، فإنهم يأمرونه بفراق زوجته، وهل هو للوجوب أم للاستحباب؟ على قولين: الأول لابن القاسم، والثاني لمالك.

فمالك يراعي بقاء النكاح، وقد شككنا في زواله، والأصل البقاء.

وابن القاسم يقول: قد صار حلّ الوطء مشكوكًا فيه، فيجب عليه مفارقتها.

والأكثرون يقولون: لا يجب عليه مفارقتها، ولا يستحب له؛ فإن قاعدة الشريعة أن الشك لا يقوى على إزالة الأصل المعلوم، ولا يزول اليقين إلا بيقين أقوى منه أو مساوٍ له.

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وربما عللوا الحنث بأنه أراد أن يجزم الطلاق، ثم ندم، فوصله بما لا يفيد ليرفعه)، هذه مسائل يتناقش فيها العلماء.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وابن القاسم يقول)، ابن القاسم: من تلاميذ الإمام مالك.

فصل

وأما مَن طلّق واحدة من نسائه ثم أُنسيها، أو طلق واحدة مبهمة ولم يُعيِّنها؛ فقد اختلف الفقهاء في حكم هذه المسألة على أقوال:

فقال أبو حنيفة، والشافعي، والثوري، وحماد: يختار أيتهن شاء، فيوقع عليها الطلاق في المبهمة، وأما في المنسيّة فيُمسك عنهن، وينفق عليهن، حتى ينكشف الأمر.

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وحماد)، حماد: حماد بن سلمة، أو حماد بن زيد هذان الاثنان.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فقال أبو حنيفة، والشافعي، والثوري، وحماد: يختار أيتهن شاء، فيوقع عليها الطلاق في المبهمة)**، إذا طلق واحدة ثم أنسيها، واحدة من نسائه طلقها ثم أنسيها، فما الحل؟

بعضهم يقول: تخرج بالقرعة، ومن خرجت عليها القرعة طلقت، والقول الثاني هو الذي ذكره هنا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فقال أبو حنيفة، والشافعي، والثوري، وحماد: يختار أيتهن شاء، فيوقع عليها الطلاق في المبهمة)**، إذا طلق واحدة منهن ثم نسيها فإنه يختار، يوكل الأمر إليه؛ يختار من شاء إيقاع الطلاق عليها ويقع.

فإن مات الزوج قبل أن يُقْرِعَ:

فقال أبو حنيفة: يقسم بينهن كلهن ميراث امرأة.

وقال الشافعي: يوقف ميراث امرأة حتى يصطلحن.

وقالت المالكية: إذا طلق واحدة منهن غير معلومة عنده، بأن قال: أنت طالق، ولا يدري مَنْ هي؟ طلق الجميع.

وإن طلق واحدة معلومة، ثم أُنْسِيَهَا، وقف عنهن حتى يتذكر، فإن طال ذلك ضُرب له مدة المُولِي، فإن تذكر فيها وإلا طَلُق عليه الجميع، ولو قال: إحداكن طالق، ولم يعينها بالنية؛ طلق الجميع.

وقال الإمام أحمد: يُقرع بينهن في الصورتين، نص على ذلك في رواية جماعة من أصحابه، وحكاه عن علي، وابن عباس.

وظاهر المذهب الذي عليه جُلُّ الأصحاب: أنه لا فرق بين المبهمة والمنسية.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقالت المالكية: إذا طلق واحدة منهن غير معلومة عنده، بأن قال: أنت طالق، ولا يدري مَنْ هي؟ طلق الجميع)، كل واحدة يحتمل أنها هي المطلقة؛ فيطلق الجميع.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فإن طال ذلك ضُرب له مدة المُولِي)، مدة المُولِي: ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ [البقرة:٢٢٦]: يُضرب له أربعةُ أشهر حتى يتذكر.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال الإمام أحمد: يُقرع بينهن في الصورتين)**، عند أحمدَ تخرج بالقرعة: المبهمات، القرعة طريق لحل المبهمات.

فإذا طلق واحدة من نسائه ثم نسيها، أو قال: إحداكن طالق من غير تعيين، ماذا يعمل؟ القرعة؛ يقرع بينهن، فمن خرجت عليها القرعة طلقت.

وقال صاحب «المغني»(١): يخرج المبهمة بالقرعة؛ وأما المنسية فإنه حرم عليه الجميع حتى تتبين المطلقة، ويؤخذ بنفقة الجميع، فإن مات أقرع بينهن للميراث.

قال: وقد روى إسماعيل بن سعيد، عن أحمد ما يدل على أن القرعة لا تستعمل في المنسية لمعرفة الحِلّ، وإنما تستعمل لمعرفة الميراث.

فإنه قال: سألت أحمد عن الرجل يطلق امرأة من نسائه ولا يعلم أيتَهن طلَّق؟ قال: أكره أن أقول في الطلاق بالقرعة. قلت: أرأيت إن مات هذا؟ قال: أقول بالقرعة؛ وذلك لأنه تصير القرعة على المال.

قال: وجماعة من روى عنه القرعة في المطلقة المنسية؛ إنما هو في التوريث، وأما في الحل فلا ينبغي أن تثبت بالقرعة، قال: وهذا قول أكثر أهل العلم.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قلت: أرأيت إن مات هذا؟ قال: أقول بالقرعة؛ وذلك لأنه تصير القرعة على المال)، يعني القرعة تجوز في الأموال، أما الفروج فصعب إجراؤها.

(١) انظر: المغني (٧/ ٤٩٧).

واحتج الشيخ لصحة قوله بأنه اشتبهت عليه زوجته بأجنبية، فلم تحلّ له إحداهما بالقرعة؛ كما لو اشتبهت عليه بأجنبية لم يكن له عليها عقد، ولأن القرعة لا تزيل التحريم من المطلقة، فلا ترفع الطلاق عمن وقع عليها، ولاحتمال كون المطلقة غير من خرجت عليها القرعة.

ولهذا لو ذكر أن المطلقة غيرها حرمت عليه، ولو ارتفع التحريم أو زال بالطلاق لما عاد بالذِّكْرِ، فيجب بقاء التحريم بعد القرعة كما كان قبلها.

قال: وقد قال الخِرَقي فيمن طلق امرأته؛ فلم يَدْرِ، أواحدة طلق أم ثلاثًا؟ ومن حلف بالطلاق لا يأكل تمرة، فوقعت في تمر، فأكل منه واحدة: لا تحل له امرأته، حتى يعلم أنها ليست التي وقعت اليمين عليها فحرّمها، مع أن الأصل بقاء النكاح، ولم يعارضه يقين التحريم، فهاهنا أولى.

قال: وهكذا الحكم في كل موضع وقع الطلاق على امرأة بعينها، ثم اشتبهت بغيرها، مثل أن يرى امرأةً في رَوْزَنة، أو مُوَلِّيَةً، فيقول: أنت طالق، ولا يعلم عينها من نسائه.

وكذا إذا وقع الطلاق على امرأة من نسائه في مسألة الطائر وشبهها؛ فإنه يحرم عليه جميع نسائه حتى تتبين المطلقة، ويؤخذ بنفقة الجميع؛ لأنهن محبوسات عليه، وإن أقرع بينهن لم تُفِدِ القرعة شيئًا.

ولا يحل لمن وقعت عليها القرعة التزويج؛ لأنه يجوز أن تكون غير المطلقة، ولا يحل للزوج غيرها لاحتمال أن تكون المطلقة.

وقال أصحابنا: إذا أقرع بينهن، فخرجت القرعة على إحداهن، ثبت حكم الطلاق فيها، فحل لها النكاح بعد قضاء عدتها، وحلّ للزوج مَنْ سواها، كما لو كان الطلاق في واحدة غير معينة.

وقال شيخنا: الصحيح استعمال القرعة في الصورتين.

قلت: وهو منصوص أحمد في رواية الجماعة.

وأما رواية الشالَنْجِي فإنه توقّف، وكره أن يقول في الطلاق بالقرعة، ولم يعين المنسية ولا المبهمة، وأكثر نصوصه على القرعة في الصورتين.

قال في رواية الميموني فيمن له أربع نسوة؛ طلّق واحدة منهن، ولم يَدْرِ: يقرع بينهن، وكذلك في الأعْبُد، فإن أقرع بينهن، فوقعت القرعة على واحدة، ثم ذكر التي طلق؛ رجعت هذه التي وقعت عليها القرعة، ويقع الطلاق على التي ذكر، فإن تزوجت فذاك شيء قد مَرّ.

وكذلك نقل أبو الحارث عنه في رجل له أربع نسوة، طلق إحداهن، ولم يكن له نِيّة في واحدة بعينها: يقرع بينهن، فأيتهن أصابتها القرعة فهي المطلقة، وكذلك إن قصد إلى واحدة بعينها ونَسِيها.

فنصَّ على القرعة في الصورتين، مُسَوِّيًا بينهما.

والذي أفتى به علي هو في المنسية، وبه احتج أحمد.

قال وَكيع: سمعت عبد الله، قال: سألت أبا جعفر عن رجل كان له أربع نسوة وطلق إحداهن، لا يدري أيتهن طلق؟ قال عليٌّ: «يقرع بينهن».

والأدلة الدالة على القرعة تتناول الصورتين، والمنسية قد صارت كالمجهولة شرعًا، فلا فرق بينها وبين المبهمة المجهولة، ولأن في الإيقاف

والإمساك حتى يتذكر، وتحريم الجميع عليه، وإيجاب النفقة على الجميع: عدَّة مفاسد له وللزوجات، مندفعة شرعًا، ولأن القرعة أقرب إلى مقاصد الشرع ومصلحة الزوج والزوجات، مِنْ تركهن معلقاتٍ، لا ذوات أزواج ولا أيامَى، وتركه هو معلقًا، لا ذا زوج ولا عَزَبًا.

وليس في الشريعة نظير ذلك، بل ليس فيها وقف الأحكام، بل الفصل وقطع الخصومات بأقرب الطرق، فإذا ضاقت الطرق، ولم يَبْقَ إلا القرعة، تعينت طريقًا، كما عينها الشارع في عدة قضايا، حيث لم يكن هناك غيرها، ولم يوقف الأمر إلى وقت الانكشاف؛ فإنه إذا علم أنه لا سبيل له إلا انكشاف الحال، كان إيقاف الأمر إلى آخر العمر مِنْ أعظم المفاسد التي لا تأتي بها الشريعة.

وغاية ما يقدّر أن القرعة تصيب التي لم يقع عليها الطلاق وتخطئ المطلقة، وهذا لا يضرها هاهنا؛ فإنه لما جُهِل كونها هي التي وقع عليها الطلاق صار المجهولُ كالمعدوم، وكل ما يقدّر من المفسدة في ذلك فمثلها في العتق سواءً، وقد دلَّت سُنَّةُ رسول الله ﷺ الصحيحة الصريحة على إخراج المعتق من غيره بالقرعة(١).

وقد نص أحمد على حِلّ البُضْع بالقرعة. فقال في رواية ابن منصور وحنبل: «إذا زوّجها الوليان من رجلين، ولم يُعلم السابق منهما؛ أقرع بينهما، فمن خرجت له القرعة حُكم أنه الأول».

---

(١) أخرج مسلم (١٦٦٨) عن عِمْرانَ بن حُصَين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ رَجُلًا أَعْتَقَ سِتَّةَ مَمْلُوكِينَ لَهُ عِنْدَ مَوْتِهِ، لَمْ يَكُنْ لَهُ مَالٌ غَيْرَهُمْ، فَدَعَا بِهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَجَزَّأَهُمْ أَثْلَاثًا، ثُمَّ أَقْرَعَ بَيْنَهُمْ، فَأَعْتَقَ اثْنَيْنِ، وَأَرَقَّ أَرْبَعَةً، وَقَالَ لَهُ قَوْلًا شَدِيدًا».

فإذا قويت القرعة على تعيين الزوج في حِلِّ البُضع له، فلأن تقوى على تعيين المطلقة في تحريم بُضْعها عنه أولى، فإن الطلاق مبنيٌّ على التغليب والسّراية، وهو أسرع نفوذًا وثبوتًا من النكاح من وجوه كثيرة.

وقول الشيخ أبي محمد -قدَّس الله رُوحَه-: إنه اشتبهت عليه زوجته بأجنبية، فلم تحلَّ له إحداهما بالقرعة، كما لو اشتبهت بأجنبية لم يكن عليها عَقْدٌ.

جوابه بالفرق بين حالتي الدوام والابتداء؛ فإنه هناك شكٌّ في هذه الأجنبية، هل حصل عليها عقد أم لا؟ والأصل فيها التحريم، فإذا اشتبهت بها الزوجة لم يُقْدِمْ على واحدة منهما، وهاهنا ثبت الحل والنكاح، وحصل الشك بعده، هل نزل التحريم في هذه أوفي هذه؟ فإما أن يحرّما جميعًا، أو يحلا جميعًا، أو يقال له: اختر من ينزل عليه التحريم، أو يوقف الأمر أبدًا، أو تستعمل القرعة؟

والأقسام الأربعة الأُول باطلة، لا أصل لها في السنة، ولم يعتبرها الشارع، بخلاف القرعة.

وبالجملة فلا يصح إلحاق إحدى الصورتين بالأُخرى؛ إذ هناك تحريم متيقن، ونحن نشك في حله، وهنا حل متيقَّن، نشك في تحريمه بالنسبة إلى كل واحدة.

قوله: ولأن القرعة لا تزيل التحريم في المطلَّقة، ولا ترفع الطلاق على من وقع عليه.

فيقال: إذا جُهِلت المطلَّقة، ولم يكن له سبيل إلى تعيينها، قامت القرعة مقام الشاهد والمخبر بأنها المطلقة للضرورة، حيث تعينت طريقًا، فالمطلقة المجهولة قد صار طلاقها بعينها كالمعدوم، ولو كانت مطلقة في نفس الأمر؛ فإن الشارع لم يكلفنا بما في نفس الأمر، بل بما ظهر وبدا.

ولهذا لو نسي الطلاق بالكلية، وأقام على وطئها حتى تُوفي، كانت أحكامه أحكام الزوج، والنسب لاحقٌ به، والميراث ثابت، وهي مطلّقة في نفس الأمر، ولكن ليست مطلقة في حكم الله، كما لو طلع الهلال في نفس الأمر، ولم يَرهُ أحد من الناس، أو كان تحت الغَيم؛ فإنه لا يترتب عليه حكم الشهر، ولا يكون طالعًا في حكم الله، وإن كان طالعًا في نفس الأمر. ونظائر هذا كثيرة جدًا.

فغاية الأمر أن هذه مطلَّقة في نفس الأمر، ولا علم له بطلاقها، فلا تكون مطلَّقة في الحكم، كما لو نسي طلاقها.

قوله: ولهذا لو ذكر أن المطلقة غيرها حرمت عليه، ولو ارتفع التحريم أو زال الطلاق لما عاد بالذِّكْرِ.

جوابه: أن القرعة إنما عملت في استمرار النسيان، فإذا زال النسيان بطل عمل القرعة، كما أن المتيمم إذا قدر على استعمال الماء بطل حكم تيممه؛ فإن التراب إنما يُعمَل عند العجز عن الماء، فإذا قدر عليه بطل حكمه، ونظائر ذلك كثيرة. منها: أن الاجتهاد إنما يُعمل عند عدم النص فإذا تبين النص؛ فلا اجتهاد إلا في إبطال ما خالفه.

قوله: وقد قال الخرقي فيمن طلق امرأته ولم يَدرِ واحدةً طلَّق أم ثلاثًا: يلزمه الثلاث، ومن حلف بالطلاق أن لا يأكل تمرة، فوقعت في تمر، فأكل منه واحدة: لا تحل له امرأته حتى يعلم أنها ليست التي وقعت اليمين عليها، فحرمها، مع أن الأصل بقاء النكاح، ولم يعارضه يقين التحريم، فهاهنا أولى.

فيقال: الخِرَقي نَصَّ على المسألتين مفرِّقًا بينهما في «مختصره»، فقال: وإذا طلق واحدة من نسائه وأنْسِيها أخرجت بالقرعة، وقال ما حكاه الشيخ عنه في الموضعين.

فأما من شك هل طلق واحدة أم ثلاثًا؟ فأكثر النصوص أنه إنما يلزمه واحدة، وهو ظاهر المذهب.

والخِرَقي اختار الرواية الأخرى، وهي مذهب مالك، وقد تقدم مأخذ القولين، وبيان الراجح منهما.

وعلى القول بلزوم الثلاث؛ فالفرق بين ذلك وبين إخراج المنسيَّة بالقرعة: أن المجهول في الشرع كالمعدوم، فقد جهلنا وقوع الطلاق بأي الزوجتين، فلم يتحقق تحريم إحداهما، ولم يكن لنا سبيل إلى تحريمهما ولا إباحتهما، والوقف مفسدة ظاهرة؛ فتعينت القرعة، بخلاف من أوقع على زوجته طلاقًا وشك في عدده، فإنه قد شك: هل يرتفع ذلك الطلاق بالرجعة أو لا يرتفع بها؛ فألزمه بالثلاث، فظهر الفرق بينهما على هذا القول، وأما على المشهور من المذهب فلا إشكال.

وأما من حلف بالطلاق: لا يأكل تمرة، فوقعت في تمر، فأكل منه واحدة؛ فقد قال الخرقي: إنه يُمنع من وطء زوجته حتى يتيقن، وهذا يحتمل الكراهة والتحريم.

ومذهب الشافعي وأبي حنيفة: أنه لا يحنث، ولا يحرم عليه وطء زوجته، واختيار أبى الخطاب، وهو الصحيح.

وإن أراد به التحريم؛ فهو يشبه ما قاله هو ومالك فيمن طلَّق وشكَّ هل طلق واحدة أو ثلاثًا؟

فصل

وأما من حلف على يمين ثم نسيها، وقوله: يلزمه جميع ما يحلف به، فقول شاذ جدًّا، وليس عن مالك؛ إنما قاله بعض أصحابه، وسائر أهل العلم على خلافه، وأنه لا يلزمه شيء حتى يتيقن، كما لو شك: هل حلف أو لا؟

فإن قيل: ينبغي أن يلزمه كفارة يمين؛ لأنها الأقل.

قيل: موجَب الأيمان مختلف، فما من يمين إلا وهي مشكوك فيها، هل حلف بها أم لا؟

وعلى قول شيخنا: يلزمه كفارة يمينٍ حَسْبُ؛ لأن ذلك موجَبُ الأيمان كلها عنده.

فصـــل

وأما مَن حلف: ليفعلنّ كذا، ولم يُعَيِّن وقتًا، فعند الجمهور هو على التراخي إلى آخر عمره؛ إلا أن يعيِّن بنيّته وقتًا، فيتقيَّد به، فإن عزم على الترك بالكلية حنث حالة عَزْمه.

نصّ عليه أحمد.

وقال مالك: هو على حنثٍ حتى يفعل، فيُحالُ بينه وبين امرأته إلى أن يأتي بالمحلوف عليه.

وهذا صحيح على أصله في سدِّ الذرائع؛ فإنه إذا كان على التراخي إلى وقت الموت لم يكن لليمين فائدة، وصار لا فرق بين الحَلف وعدمه، والحملُ في ذلك على القرينة والعرف إن لم تكن نية، ولا يكاد اليمين يتجرّد عن هذه الثلاثة.

وأما تعليق الطلاق بوقت يجيء لا محالة، كرأس الشهر والسنة، وآخر النهار ونحوه؛ فللفقهاء في ذلك أربعة أقوالٍ:

أحدها: أنها لا تطلق بحال، وهذا مذهب ابن حزم، واختيار أبى عبد الرحمن الشافعي، وهو من أجَلِّ أصحاب الوجوه.

وحجتهم: أن الطلاق لا يقبل التعليق بالشرط، كما لا يقبله النكاح، والبيع، والإجارة، والإبراء.

قالوا: والطلاق لا يقع في الحال، ولا عند مجيء الوقت. أما في الحال فلأنه لم يوقعه مُنَجَّزًا، وأما عند مجيء الوقت فلأنه لم يصدر منه طلاق حينئذٍ، ولم يتجدد سوى مجيء الزمان، ومجيء الزمان لا يكون طلاقًا.

وقابل هذا القول آخرون، وقالوا: يقع الطلاق في الحال، وهذا مذهب مالك، وجماعة من التابعين.

وحجتهم: أن قالوا: لو لم يقع في الحال لحصل منه استباحة وطء موقّت، وذلك غير جائز في الشرع؛ لأن استباحة الوطء فيه لا تكون إلا مُطلقًا غير موقّت، ولهذا حَرُم نكاح المتعة؛ لدخول الأجل فيه، وكذلك وطء المكاتبة. ألا ترى أنه لو عُزي من الأجل، بأن يقول: إن جئتني بألف درهم فأنت حُرّة، لم يمنع ذلك الوطء.

قال المُوقِعون عند الأجل: لا يجوز أن يؤخذ حكم الدوام من حكم الابتداء؛ فإن الشريعة فرّقت بينهما في مواضع كثيرة؛ فإن ابتداء عقد النكاح في الإحرام فاسد دون دوامه، وابتداء عقده على المعتدة فاسد دون دوامه، وابتداء عقده على الأمة مع الطَّوْلِ وعدم خوف العَنَت فاسد دون دوامه، وابتداء عقده على الزانية فاسد -عند أحمدَ ومن وافقه- دون دوامه. ونظائر ذلك كثيرة جدًّا.

قالوا: والمعنى الذي حَرُمَ لأجله نكاح المتعة: كون العقد موقّتًا من أصله، وهذا العقد مطلق، وإنما عرض له ما يبطله ويقطعه، فلا يبطل، كما لو علّق الطلاق بشرط، وهو يعلم أنها تفعله أو يفعله هو ولا بد؛ ولكن يجوز تخلفه.

والقول الثالث: أنه إن كان الطلاق المعلق بمجيء الوقت المعلوم ثلاثًا وقع في الحال، وإن كان رجعيًّا لم يقع قبل مجيئه.

وهذا إحدى الروايتين عن الإمام أحمد، نص عليها في رواية مُهَنَا: إذا قال: أنت طالق ثلاثًا قبل موتي بشهر: هي طالقٌ الساعةَ، كان سعيد بن

المسيب والزُّهري لا يوقِّتون في الطلاق، قال مهنا: فقلت له: أفتتزوج هذه التي قال لها: أنت طالق قبل موتي بشهر؟ قال: لا؛ ولكن يمسك عن الوطء أبدًا حتى يموت، هذا لفظه.

وهو في غاية الإشكال، فإنه قد أوقع عليها الطلاق منجَّزًا، فكيف يمنعها من التزويج؟

وقوله: «يمسك عن الوطء أبدًا» يدل على أنها زوجة؛ إلا أنه لا يطؤُها، وهذا لا يكون مع وقوع الطلاق؛ فإن الطلاق إذا وقع زالت أحكام الزوجية كلها.

فقد يقال: أخذ بالاحتياط فأوقع الطلاق، ومنعها من التزويج للخلاف في ذلك، فحرَّم وطأها وهو أثر الطلاق، ومنعها من التزويج؛ لأن النكاح لم ينقطع بإجماع ولا نص.

ووجه هذا: أنه إذا كان الطلاق ثلاثًا لم يحلَّ وطؤها بعد الأجل، فيصير حِلُّ الوطء موقّتًا، وإن كان رجعيًا جاز له وطؤها بعد الأجل، فلا يصير الحِلُّ موقّتًا، وهذا أفقه من القول الأول.

والقول الرابع: أنها لا تطلق إلا عند مجيء الأجل، وهو قول الجمهور، وإنما تنازعوا: هل هو مُطَلِّق في الحال، ومجيء الوقت شرط لنفوذ الطلاق، كما لو وكّله في الحال، وقال: لا تتصرف إلى رأس الشهر، فمجيء رأس الشهر شرط لنفوذ تصرفه، لا لحصول الوكالة، بخلاف ما إذا قال: إذا جاء رأس الشهر فقد وكَّلتك، ولهذا يفرّق الشافعي بينهما، فيصحح الأولى، ويبطل الثانية.

أو يقال: ليس مطلَّقًا في الحال، وإنما هو مطلِّق عند مجيء الأجل، فيقدَّر حينئذٍ أنه قال: أنت طالق، فيكون حصول الشرط وتقدير حصول «أنت طالق» معًا.

فعلى التقدير الأول: السبب تقدم، وتأخر شرط تأثيره، وعلى التقدير الثاني: نفس السبب تأخر تقديرًا إلى مجيء الوقت، وكأنه قال: إذا جاء رأس الشهر فحينئذٍ أنا قائل لك: أنت طالق، فإذا جاء رأس الشهر قُدِّر قائلًا لذلك اللفظ المتقدم.

فمذهب الحنفية: أن الشرط يمتنع به وجود العلة، فإذا وجد الشرط وجدت العلة، فيصير وجودها مضافًا إلى الشرط، وقبل تحققه لم يكن المعلق عليه علة، بخلاف الوجوب؛ فإنه ثابت قبل مجيء الشرط، فإذا قال: إن دخلت الدار فأنت طالق، فالعلة للوقوع: التلفظ بالطلاق، والشرط الدخول، وتأثيره في امتناع وجود العلة قبله، فإذا وُجِدَ وُجِدَتْ.

وأصحاب الشافعي يقولون: أثر الشرط في تراخي الحكم، والعلة قد وُجدت، وإنما تراخى تأثيرها إلى وقت مجيء الشرط، فالمتقدم علة قد تأخر تأثيرها إلى مجيء الشرط.

فصــل

وأما ما أفتى به الحسن وإبراهيم ومالك -في إحدى الروايتين عنه-: أن من شكّ هل انتقض وضوؤه أم لا؟ وجب عليه أن يتوضأ احتياطًا، ولا يدخل في الصلاة بطهارة مشكوك فيها.

فهذه مسألة نزاع بين الفقهاء.

وقد قال الجمهور - منهم الشافعي، وأحمد، وأبو حنيفة، وأصحابهم، ومالك في الرواية الأخرى عنه-: إنه لا يجب عليه الوضوء، وله أن يصلي بذلك الوضوء الذي تيقنه، وشك في انتقاضه.

واحتجوا بما رواه مسلم في «صحيحه» عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا وَجَدَ أَحَدُكُمْ فِي بَطْنِهِ شَيْئًا، فَأَشْكَلَ عَلَيْهِ: أَخَرَجَ مِنْهُ شَيْءٌ أَمْ لَا؟ فَلَا يَخْرُجْ مِنَ الْمَسْجِدِ حَتَّى يَسْمَعَ صَوْتًا، أَوْ يَجِدَ رِيحًا»[1]، وهذا يَعُمُّ المصلي وغيره.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (واحتجوا بما رواه مسلم في «صحيحه» عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا وَجَدَ أَحَدُكُمْ فِي بَطْنِهِ شَيْئًا، فَأَشْكَلَ عَلَيْهِ: أَخَرَجَ مِنْهُ شَيْءٌ أَمْ لَا؟ فَلَا يَخْرُجْ مِنَ الْمَسْجِدِ حَتَّى يَسْمَعَ صَوْتًا،

---

(١) أخرجه مسلم (٣٦٢).

أَوْ يَجِدَ رِيحًا»، وهذا يَعُمُّ المصلي وغيره)، هذه المسألة، مسألة من تيقن الطهارة وشك في الحدث على قولين -كما ذكر-:

منهم مَن يقول: إنه يتوضأ، إذا شك في الحدث فإنه يتوضأ لتكون صلاته على طهارة متيقنة، هكذا يقولون، وهذا من باب الاحتياط.

والقول الثاني: أنه يصلي ولا ينظر إلى الشك.

ويعتمدون على حديث: إذا وجد أحدكم في بطنه شيئًا -يعني: ريحًا- وأَشكل عليه: هل خرج منه شيء أو لا، فلْيُصَلِّ، يبني على يقين الطهارة، ولا ينظر إلى الشك.

ولهذا يقولون: من تيقن الطهارة وشك في الحدث، فإن الأصل بقاء الطهارة، فلا يلتفت إلى الشك.

وأصحاب القول الأول يقولون: الصلاة ثابتة في ذمَّته بيقين، وهو يشك في براءة الذمة منها بهذا الوضوء، فإنه على تقدير بقائه هي صحيحة، وعلى تقدير انتقاضه باطلة، فلم يتيقن براءة ذمته، ولأنه شك في شرط الصلاة: هل هو ثابت أم لا؟ فلا يدخل فيها بالشك.

والآخرون يجيبون عن هذا؛ بأنها صلاة مستندة إلى طهارة معلومة قد شك في بطلانها، فلا يلتفت إلى الشك، ولا يزيل اليقين به، كما لو شكَّ: هل أصاب ثوبَه أو بدنَه نجاسة؛ فإنه لا يجب عليه غَسْلُهُ، وقد دخل في الصلاة بالشك.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وعلى تقدير انتقاضه باطلة، فلم يتيقن براءة ذمته، ولأنه شك في شرط الصلاة: هل هو ثابت أم لا؟ فلا يدخل فيها بالشك)، لكن الحديث يرد هذا، وهو فلا ينصرف حتى يتقين الحدث؛ إما بسماع صوت الحدث وإما بوجود رائحته، فمجرد الشك من غير مرجح لا يلتفت إليه، والأصل بقاء الطهارة، وهذا هو الصحيح.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والآخرون يجيبون عن هذا؛ بأنها صلاة مستندة إلى طهارة معلومة قد شك في بطلانها، فلا يلتفت إلى الشك، ولا يزيل اليقين به)؛ ولهذا يقولون: اليقين لا يزول بالشك، اليقين لا يزول إلا بيقين مثله.

ففرَّقوا بينهما بفرقين:

أحدهما: أن اجتناب النجاسة ليس بشرط، ولهذا لا يجب نيَّته، وإنما هو مانع، والأصل عدمه، بخلاف الوضوء، فإنه شرط، وقد شك في ثبوته، فأين هذا من هذا؟

الثاني: أنه قد كان قبل الوضوء مُحْدِثًا، وهو الأصل فيه، فإذا شك في بقائه كان ذلك رجوعًا إلى الأصل، وليس الأصل فيه النجاسة، حتى نقول: إذا شك في حصولها رجعنا إلى أصل النجاسة، فهنا يُرجع إلى أصل الطهارة، وهناك يُرجع إلى أصل الحدث.

قال الآخرون: أصل الحدث قد زال بيقين الطهارة، فصارت هي الأصل، فإذا شككنا في الحدث رجعنا إليه، فأين هذا من الوسواس المذموم شرعًا وعقلًا وعرفًا؟

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أحدهما: أن اجتناب النجاسة ليس بشرط، ولهذا لا يجب نيَّته، وإنما هو مانع، والأصل عدمه، بخلاف الوضوء، فإنه شرط، وقد شك في ثبوته، فأين هذا من هذا؟)، هكذا يقولون.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قال الآخرون: أصل الحدث قد زال بيقين الطهارة، فصارت هي الأصل، فإذا شككنا في الحدث رجعنا إليه، فأين هذا من الوسواس المذموم شرعًا وعقلًا وعرفًا؟)، هذه المسألة فقهية لا شك أن الخلاف فيها كما ذكر هنا.

ولكن هذا ليس مما نحن فيه، وهو ترك الوسواس، هذا ليس بوسواس، هذا تردد بيْن أمْرين، فنبني على الأصل ونترك الشك، أو نبني على يقين الطهارة، وهو لم يتقين الطهارة فيتوضأ.

أما الوسواس فهذا لا أصل له يبني عليه، إنما هو من الشيطان؛ فلا يلتفت إليه.

فصـل

وأما قولكم: إن من خفي عليه موضع النجاسة من الثوب وجب عليه غَسْلُهُ كله!

فليس هذا من باب الوسواس، وإنما ذلك من باب ما لا يتم الواجب إلا به؛ فإنه قد وجب عليه غسل جزء من ثوبه، ولا يعلمه بعينه، ولا سبيل إلى العلم بأداء هذا الواجب إلا بغسل جميعه.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وأما قولكم: إن من خفي عليه موضع النجاسة من الثوب وجب عليه غَسْلُهُ كله! فليس هذا من باب الوسواس، وإنما ذلك من باب ما لا يتم الواجب إلا به)**، كذلك إذا تيقن أن في ثوبه نجاسة ولا يدري أين موضعها، فإنه يغسل الثوب كلَّه؛ ليصلي في ثوب متيقن أنه طاهر.

فصــل

وأما مسألة الثياب التي اشتبه الطاهر منها بالنجس؛ فهذه مسألة نزاع: فذهب مالك في رواية عنه وأحمد إلى أنه يصلي في ثوب بعد ثوب، حتى يتيقن أنه صلى في ثوب طاهر.

وقال الجمهور -ومنهم أبو حنيفة، والشافعي، ومالك في الرواية الأخرى-: يتحرّى فيصلي في واحد منها صلاة واحدة، كما يتحرى في القِبلة.

وقال المُزني، وأبو ثَوْر: بل يصلي عُريانًا ولا يصلي في شيء منها؛ لأن الثوب النجس في الشرع كالمعدوم، والصلاة فيه حرام، وقد عَجَزَ عن السّتْرَة بثوب طاهر، فيسقط فرض السترة.

وهذا أضعف الأقوال.

والقول بالتحرِّي هو الراجح، سواء كثر عدد الثياب الطاهرة أو قَلَّ، وهو اختيار شيخنا.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والقول بالتحرِّي هو الراجح، سواء كثر عدد الثياب الطاهرة أو قَلَّ، وهو اختيار شيخنا)**، القول الراجح، وهو المذهب عندنا أيضًا -عند الحنابلة-: أنه إذا كان عنده عدة ثياب، وتيقن أن واحدة منها نجسة، لكنه شك أي منها، يقولون: يصلي في كل ثوب صلاة بعدد النجس، ويزيد صلاة على عدد النجس؛ ليتقينَ أنه صلى بثوب طاهر.

وابن عَقِيل يُفَصّل؛ فيقول: إن كثر عدد الثياب تحرّى دفعًا للمشقة، وإن قلّ عمل باليقين.

قال شيخنا: اجتناب النجاسة من باب المحظور، فإذا تحرّى وغلب على ظنه طهارة ثوب منها، فصلَّى فيه، لم يُحْكَم ببطلان صلاته بالشك؛ فإن الأصل عدم النجاسة، وقد شكّ فيها في هذا الثوب، فيصلي فيه، كما لو استعار ثوبًا أو اشتراه ولا يعلم حاله.

وقول أبي ثور في غاية الفساد؛ فإنه لو تَيقّن نجاسة الثوب لكانت صلاته فيه خيرًا وأحبَّ إلى الله من صلاته مُتجرِّدًا، بادِيَ السوءَة للناظرين.

وبكل حال فليس هذا من الوسواس المذموم.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وابن عقيل يُفَصّل، فيقول: إن كثر عدد الثياب تحرّى دفعًا للمشقة، وإن قلّ عمل باليقين)، ابن عقيل من أئمة الحنابلة، وله كتاب في الفقه في المذهب اسمه: «الفصول»، يقول هذا القول؛ يقول: يتحرى الثوب الطاهر ويصلي فيه، والحمد لله.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قال شيخنا: اجتناب النجاسة من باب المحظور، فإذا تحرّى وغلب على ظنه طهارة ثوب منها، فصلَّى فيه، لم يُحْكَم ببطلان صلاته بالشك)، هذا هو الراجح: أنه يتحرى، وما غلب على ظنه أنه هو الطاهر صلى فيه، وصحَّتْ صلاته وأجزأت، والحمد لله.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وقول أبي ثور في غاية الفساد؛ فإنه لو تَيقّن نجاسة الثوب لكانت صلاته فيه خيرًا وأحبَّ إلى الله من صلاته مُتجرِّدًا، بادِيَ السوءَة للناظرين**)، أما قول مَن يصلي متجردًا من الثياب، يصلي عريانًا؛ هذا قول لا وجه له؛ لأنه مأمور بستر العورة، ولو بثوب نجس، إذا لم يجد إلا ثوبًا نجسًا فإنه يصلي فيه، يستر عورته؛ لأن ستر العورة شرطٌ من شروط صحة الصلاة.

وتجنُّب النجاسة هذا إنما هو من باب الترك، ترك النجس، وقد احتاج إليه، فعند ذلك يصلي فيه ليستر عورته، ولا يصلي عريانًا باديَ العورة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وبكل حال فليس هذا من الوسواس المذموم**)، هذه من مسائل الاجتهاد، وليس من مسائل الوسواس، هذه من مسائل الاجتهاد المبنيِّ على تحرِّي الحق والصواب، وليس هو من الوساوس الذي هو من الشيطان.

فصل

وأما مسألة اشتباه الأواني؛ فكذلك ليست من باب الوسواس. وقد اختلف فيها الفقهاءُ اختلافًا متباينًا.

فقال أحمد: يتيمم ويتركها، وقال مَرّةً: يريقها ويتيمم؛ ليكون عادمًا للماء الطَّهور بيقين.

وقال أبو حنيفة: إن كان عدد الأواني الطاهرة أكثر تحرّى، وإن تساوت أو كثرت النجسة لم يتحرَّ.

وهذا اختيار أبي بكر، وابن شاقْلا، والنّجّاد من أصحاب أحمد.

وقال الشافعي، وبعض المالكية: يتحرى بكل حال.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وأما مسألة اشتباه الأواني؛ فكذلك ليست من باب الوسواس. وقد اختلف فيها الفقهاءُ اختلافًا متباينًا**)، وإذا كان عنده أوانٍ فيها ماء، كل واحد فيه ماء، ولكن بعضها نجس فلا يصح الوضوء منها.

قيل: يتحرى ويتوضأ، فما غلب على ظنه أنه هو الطاهر بني عليه وصلى والحمد لله.

وقيل: يتجنبها كلها ويتيمم؛ لأنه في حكم العادم للماء؛ والله جَلَّ وَعَلَا قال: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ﴾ [النساء:٤٣]، وهذا في حكم العادم للماء فيتيمم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وهذا اختيار أبي بكر**)، أبو بكر الخلال، من الحنابلة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وابن شاقْلا**)، يقرأ: شاقلا، ويقرأ: شاقله، كلاهما لغة.

وقال عبد الملك بن الماجِشُون: يتوضأ بكل واحد منها وضوءًا ويصلي.

وقال محمد بن مَسْلَمة من المالكية: يتوضأ من أحدها ويصلي، ثم يغسل ما أصابه منه، ثم يتوضأ من الآخر ويصلي.

وقالت طائفة - منهم شيخُنا -: يتوضأ من أيها شاء، بناءً على أن الماء لا ينجُس إلا بالتغير، فتستحيل المسألة.

وليس هذا موضع ذكر حُجج هذه الأقوال وترجيح راجحها.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال عبد الملك بن الماجِشُون)**، هذا مالكي، عبد الملك بن الماجِشُون: هذا مالكي.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(يتوضأ بكل واحد منها وضوءًا ويصلي)**، بعدد كل الأواني؛ لأنه إذا توضأ منها كلها تيقنا أنه توضأ من واحد طاهر؛ لأن منها ما هو طاهر.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال محمد بن مَسْلَمة من المالكية: يتوضأ من أحدها ويصلي، ثم يغسل ما أصابه منه، ثم يتوضأ من الآخر ويصلي)**، عدد الأواني، إناء يتوضأ منه ويصلي بعدد الأواني، وهذا صعب.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقالت طائفة -منهم شيخنا-)**، شيخ الإسلام ابن تيمية.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(يتوضأ من أيها شاء، بناءً على أن الماء لا ينجُس إلا بالتغير، فتستحيل المسألة)**، ما دام الماء لم يتغير.

فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**الْمَاءُ طَهُورٌ، لَا يُنَجِّسُهُ شَيْءٌ إِلَّا مَا غَلَبَ عَلَى لَوْنِهِ أَوْ طَعْمِهِ أَوْ رِيحِهِ**»(١)، فالأصل في الماء الطهورية والحمد لله، فيتوضأ منه ويصلي، ما لم يعلم أن هذا الماء نجس.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وليس هذا موضع ذكر حُجج هذه الأقوال وترجيح راجحها)**، وليست من الوسواس أيضًا، لا تدخل في الوسواس؛ لأنها مبنية على أدلة، يعني أدلة ليست بأدلة نصية، لكن أدلة بالتحري.

❖ ❖ ❖

---

(١) سبق تخريجه (ص٤٢٣).

فصل

وأما إذا اشتبهت عليه القِبْلة؛ فالذي عليه أهل العلم كلهم: أنه يجتهد ويصلي صلاة واحدة.

وشذّ بعض الناس، فقال: يصلي أربع صلوات إلى أربع جهات، وهذا قول شاذ مخالف للسنة، وإنما التزمه قائله في مسألة اشتباه الثياب، وهذا ونحوه من وجوه الالتزامات عند المضايق طردًا لدليل المستدل: مما لا يُلتفت إليها، ولا يُعوَّل عليها.

ونظيره التزام من التزم اشتراط النية لإزالة النجاسة، لمّا ألزمهم أصحاب أبى حنيفة بذلك، قال بعضهم: نقول به.

ونظيره إدراك الجمعة والجماعة بإدراك تكبيرة مع الإمام، لمّا ألزمت الحنفية من نازعها في ذلك بالتسوية بين الجمعة والجماعة التزمه بعضهم، وقال: نقول به.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وأما إذا اشتبهت عليه القِبْلة)، إذا اشتبهت عليه القِبْلة، انتبهوا!

إذا اشتبهت عليه القِبْلة، فإن كان في بلد إسلامي، في هذا البلد مساجد ومحاريب: فإنه ينظر إلى المساجد والمحاريب ويعرف القِبلة منها، من هذه المساجد، وإن لم يكن هناك مساجدُ وهناك مسلمون يسأل المسلمين في هذا البلد: أين القبلة؟ ويصلي.

أما إذا كان في بَرٍّ، وليس عنده مساجد، وليس عنده أحد من المسلمين يسأله: فإنه يجتهد ويصلي، وصلاته صحيحة ولو أخطأ القبلة؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة:١١٥].

قيل: هذه الآية نزلت في التهجد في السفر، وأن المتهجد يصلي على راحلته إلى أي جهة توجهت راحلته، هذا في الجهة التي يقصدها، يصلي إلى الجهة التي يقصدها، ولا يتوقف ويعطل السير، يصلي إلى الجهة التي يقصدها.

وقيل: هذه الآية نزلت في قوم في بَر اشتبهت عليهم القِبلة، فاجتهدوا وصلَّوا، فلما أصبحوا ورأوا أنهم صلَّوا إلى غير القبلة نزلت هذه الآية في تصحيح صلاتهم؛ ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١١٥].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وشذّ بعض الناس، فقال: يصلي أربع صلوات إلى أربع جهات)**، إلى الشمال والجنوب، والشرق والغرب، أربع جهات، هذا القول شاذ.

والراجح أنه يصلي إلى الجهة التي يغلب على ظنه أنها القبلة، وصلاته صحيحة؛ ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة:٢٨٦].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ونظيره التزام من التزم اشتراط النية لإزالة النجاسة، لمّا ألزمهم أصحاب أبي حنيفة بذلك، قال بعضهم: نقول به)**، إزالة النجاسة لا يشترط لها نية؛ لأنها من باب التروك، لا من باب الأفعال؛ فلا يشترط.

فلو زالت النجاسة من غير نية؛ أصابها المطر حتى غسلها، أصابها ماء حتى غسلها ولو لم يَنوِ؛ فإنها تطهر بذلك؛ لأن هذا لا يشترط له النية، من باب التروك لا من باب الأفعال؛ فلا يشترط لها النية.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ونظيره إدراك الجمعة والجماعة بإدراك تكبيرة مع الإمام، لمّا ألزمت الحنفية من نازعها في ذلك بالتسوية بين الجمعة والجماعة التزمه بعضهم، وقال: نقول به)**، كلها أقوال اجتهادية، ولكن -الحمد لله- الدِّينُ يُسْرٌ؛ من اجتهد واستدل بدليل يرى أنه دليل، فإن عمله صحيح.

يقول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِذَا اجْتَهَدَ الْحَاكِمُ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِنَّ اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ وَاحِدٌ**»[1].

---

(١) سبق تخريجه (ص٧٠).

فصل

وأما من ترك صلاةً من يومٍ لا يعلم عينَها؛ فاختلف الفقهاء في هذه المسألة على أقوال:

أحدها: أنه يلزمه خمس صلوات، نص عليه أحمد، وهو قول مالك والشافعي وأبي حنيفة وإسحاق -؛ لأنه لا سبيل له إلى العلم ببراءة ذمته يقينًا إلا بذلك.

القول الثاني: أنه يصلي رباعية، ينوي بها ما عليه، ويجلس عَقِيبَ الثانية والثالثة والرابعة، وهذا قول الأوزاعي، وزُفَر بن الهُذَيل، ومحمد بن مقاتل من الحنفية؛ بِناءً على أنه يخرج من الصلاة بدون الصلاة على النبي ﷺ، وبدون السلام، وأن نية الفرضيّة تكفي من غير تعيين، كما في الزكاة، ولا يضرّ جلوسه عَقِيبَ الثالثة إن كانت المنسية رباعية؛ لأنه زيادة من جنس الصلاة، لا على وجه التعَمْدِ.

القول الثالث: أنه يجزئه أن يصلي فجرًا ومغربًا، ورباعية ينوي ما عليه؛ وهذا قول سفيان الثوري، ومحمد بن الحسن.

ويُخَرَّج على المذهب إذا قلنا بأن نية المكتوبة تكفي من غير تعيين.

وقد قال عبد الله بن أحمدَ: سمعت أبي يُسأل: ما تقول في رجل ذكر أن عليه صلاة لم يعيِّنها، فصلى ركعتين وجلس فتشهد، ونوى بها الغَداة ولم يسلِّم، ثم قام فأتى بركعة وجلس وتشهد ونوى بها المغرب، وقام ولم يسلِّم،

وأتى برابعة ثم جلس، فتشهد ونوى بها ظهرًا أو عصرًا أو عشاء الآخرة، ثم سلَّم؟

فقال له أبي: «هذا يجزئه، ويقضي عنه على مذهب العراقيين؛ لأنهم اعتمدوا في التشهُّد على خبر ابن مسعود: «إِذَا قُلْتَ هَذَا، فَقَدْ تَمَّتْ صَلَاتُكَ»[(١)].

وأما على مذهب صاحبنا أبي عبد الله الشافعي ومذهبنا؛ لا يجزئ عنه؛ لأنا نذهب إلى قوله: «تَحْرِيمُهَا التَّكْبِيرُ، وَتَحْلِيلُهَا التَّسْلِيمُ»[(٢)]، ونذهب إلى الصلاة على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيها. هذا لفظه.

قال أبو البركات: فهذا من أحمد يبيِّن أن قضاء الواحدة لا يجزئه؛ لتعذُّر التحليل المعتبر، لا لفَوْت نية التعيين، فإذا قضى ثلاثًا -كما قال الثوري- اندفع المفسد.

وبكل حالٍ؛ فليس في هذا راحة للموسوسين.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (أحدها: أنه يلزمه خمس صلوات، نص عليه أحمد، وهو قول مالك والشافعي وأبي حنيفة وإسحاق -؛ لأنه لا سبيل له إلى العلم ببراءة ذمته يقينًا إلا بذلك)، إذا صلى خمس صلوات فإنه يقينًا صلى الصلاة التي شك فيها، وتبرأ ذمته بذلك، هذا هو قول هؤلاء.

(١) أخرجه أحمد (٧/ ١٠٩)، والدارمي (٢/ ٨٤٦، ٨٤٧)، وأبو داود (٩٧٠). وانظر: صحيح ابن حبان (٥/ ٢٩١-٢٩٤).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٢٩٢)، وأبو داود (٦١، ٦١٨)، والترمذي (٣) وابن ماجه (٢٧٥)، من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فصلى ركعتين وجلس فتشهد، ونوى بها الغَداة ولم يسلِّم، ثم قام فأتى بركعة وجلس وتشهد)**، نوى بها المغرب.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(هذا يجزئه، ويقضي عنه على مذهب العراقيين)**، العراقيين: يعني الحنفية أتباع أبي حنيفة، أو أهل الرأي عمومًا يقال لهم: العراقيون.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وأما على مذهب صاحبنا أبي عبد الله الشافعي ومذهبنا؛ لا يجزئ عنه)**، هذا كلام الإمام أحمدَ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قال أبو البركات)**، أبو البركات: المجد ابن تيميَّة، جد شيخ الإسلام.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وبكل حالٍ؛ فليس في هذا راحة للموسوسين)**، ليس هذا من باب الوسواس، إنما هذا من باب الاجتهاد وتحري الدليل، وليس هو من باب الوسواس.

❖ ❖ ❖

فصـل

وأما من شك في صلاته فإنه يبني على اليقين؛ لأنه لا تبرأ ذمته منه بالشك.

وأما تحريم أكل الصيد إذا شك صاحبه: هل مات بالجرح أو بالماء؟ وتحريم أكله إذا خالطت كلابه كلبًا من غيره؛ فهو الذي أمر به رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(١)؛ لأنه قد شك في سبب الحلّ.

والأصلُ في الحيوان التحريم، فلا يُستباح بالشك في شرط حله، بخلاف ما إذا كان الأصل فيه الحل؛ فإنه لا يحرم بالشك في سبب تحريمه.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**وأما من شك في صلاته فإنه يبني على اليقين؛ لأنه لا تبرأ ذمته منه بالشك**)، إذا شك المصلي: هل صلى ثلاثًا أو أربعًا فإنه يبني على اليقين؛ يجعلها ثلاثًا؛ لأنها هي المتيقن.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**وأما تحريم أكل الصيد إذا شك صاحبه: هل مات بالجرح أو بالماء؟ وتحريم أكله إذا خالطت كلابه كلبًا من غيره**)، إذا رمى طائرًا وأصابه فوقع في الماء، فلا يدري: هل مات بالماء غرقًا أو مات بالإصابة؟ لا يدرى إن كان مات بالماء فهو محرم؛ لأنه ميتة، وإن كان مات بالإصابة فهو حلال؛ لأنه صيد.

---

(١) سبق تخريج الحديث الوارد في ذلك (ص٢٤٣).

إذا شك في ذلك ماذا يعمل؟ يترك هذا الصيد؛ لأنه مشكوك في حله، وكذلك إذا صاد كلبه صيدًا، لكن وجد معه كلبًا آخَرَ، كلب صيد آخر لغيره، ولا يدرى أي الكلبين أصابه: هل هو كلبه أو كلب غيره؟ فإنه يتركه أيضًا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فهو الذي أمر به رسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**؛ لأنه قد شك في سبب الحلّ، والأصلُ في الحيوان التحريم)**، هذا فيه حديث: «**إِذَا أَرْسَلْتَ كَلْبَكَ الْمُعَلَّمَ، وَذَكَرْتَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ؛ فَكُلْ، مَا لَمْ تَجِدْ مَعَهُ كَلْبًا غَيْرَ كَلْبِكَ**»[(١)]، فيصير مشكوكًا فيه فيتركه؛ لأن الحرام لا يستباح بالشك.

(١) أخرجه البخاري (١٧٥)، ومسلم (١٩٢٩)، وقد سبق (ص٢٤٣).

كما لو اشترى ماءً أو طعامًا أو ثوبًا لا يعلم حاله جاز شربه وأكله ولبسه.

وإن شك هل ينجس أم لا؟ فإن الشرط متى شقّ اعتباره، أو كان الأصل عدم المانع، لم يُلتفت إلى ذلك.

فالأول: كما إذا أُتي بلحم لا يعلم هل سَمّى عليه ذابحه أم لا؟ وهل ذكّاه في الحلق واللَّبّة، واستوفى شروط الذكاة أم لا؟ لم يحرم أكله؛ لمشقة التفتيش عن ذلك.

وقد قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «يا رسول الله، إن ناسًا من الأعراب يأتوننا باللحم، لا ندري أذكروا اسم الله عليه أم لا؟ فقال: «سَمُّوا أَنْتُمْ وَكُلُوا»»[1]، مع أنه قد نُهي عن أكل ما لم يُذكر عليه اسم الله.

والثاني: كما ذكرنا من الماء والطعام واللباس؛ فإن الأصل فيها الطهارة، وقد شك في وجود المنجِّس، فلا يلتفت إليه.

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (كما لو اشترى ماءً أو طعامًا أو ثوبًا لا يعلم حاله جاز شربه وأكله ولبسه)، لأن الأصل: الحل.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فالأول: كما إذا أُتي بلحم لا يعلم هل سَمّى عليه ذابحه أم لا؟ وهل ذكّاه في الحلق واللَّبّة، واستوفى شروط الذكاة أم لا؟ لم يحرم أكله؛

(١) أخرجه البخاري (٢٠٥٧).

لمشقة التفتيش عن ذلك)، إذا كان هذا اللحم في بلاد المسلمين، وشك هل ذكر اسم الله عليه أو لا؟ فإنه حلال؛ لأن الأصل أن المسلمين يذبحون على اسم الله عَزَّوَجَلَّ.

أما إذا كان لحمًا مستوردًا مثل وقتنا الحاضر، هذه اللحوم المستوردة من بلاد كتابية، لكنهم يذبحونها بالجملة بالماء الحار أو بأشياءَ تقطع أعناقها جميعًا، فهذه مشتبهة، الواقع أنها مشتبهة.

لكن إن نظرنا إلى الأصل، وهو قوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ [المائدة:٥]، قلنا: يجوز أكلها بِناءً على الأصل، والله أباح لنا ذبائح أهل الكتاب؛ لأن ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾: يعني ذبائحهم، وإلا الطعام غير الذبائح هذا حلال، حتى من الملاحدة ومن الكفار؛ لأن الأصل أن هذا الطعام لا يحتاج إلى ذكاة، حلال من أصله.

لكن الذي يحتاج إلى ذكاة إن جاء من بلاد شيوعية أو وثنية فإنه لا يحل، أما إن جاء من بلاد كتابية -كاليهود والنصارى- فإننا نأكله؛ لأن الله أباح لنا ذبائحهم، ولم يشترط أن نتيقن كيف ذبحوها، الأصل في طعامهم: الحل.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقد قالت عائشة** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: **يا رسول الله، إن ناسًا من الأعراب يأتوننا باللحم)**، انتبهوا هذه المسألة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقد قالت عائشة** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: **«يا رسول الله! إن ناسًا من الأعراب يأتوننا باللحم، لا ندري أذكروا اسم الله عليه أم لا؟ فقال: «سَمُّوا أَنْتُم وَكُلُوا»، مع أنه قد نُهي عن أكل ما لم يُذكر عليه اسم الله)**، «سَمُّوا أَنْتُمْ»:

يعني تسمية الأكل، ليس بتسمية الذبح، فتسمية الذبح أن ما ذُبِح في بلاد المسلمين، فإن الأصل فيه الحل، والحمد لله.

وأما ما جاءنا من بلاد الكفار إن كانوا كتابيين نبني على الأصل، وهو حل طعامهم، وإن كانوا غير كتابيين فلا، لا نأكله.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**والثاني: كما ذكرنا من الماء والطعام واللباس؛ فإن الأصل فيها الطهارة، وقد شك في وجود المنجِّس، فلا يلتفت إليه**)، ولذلك نلبس ما نسجه الكفار أو ما خاطوه أو ما لبسوه.

كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في الغزوات يلبسون من ثياب الكفار إذا غنموها، ولا يغسلونها، ويأكلون في أوانيهم ولا يغسلونها ما لم يروا أن فيها نجاسة فإنها تغسل.

فصل

وأما ما ذكرتموه عن ابن عمر وأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: فشيء تفرَّدا به، دون الصحابة، ولم يوافق ابنَ عمر على ذلك أحدٌ منهم، وكان ابن عمر يقول: «إن بي وسواسًا؛ فلا تقتدوا بي»(١).

وظاهر مذهب الشافعي وأحمد: أن غسل داخل العينين في الوضوء لا يُستحب، وإن أَمِنَ الضررَ؛ لأنه لم يُنقل عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه فعله قط، ولا أمر به، وقد نقل وضوءه جماعة كعثمانَ، وعليٍّ، وعبد الله بن زيد، والرُّبَيِّع بنت مُعَوِّذ(٢)، وغيرهم، فلم يقل أحد منهم: إنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غسل داخل عينيه.

وفى وجوبه في الجنابة روايتان عن أحمد، أصحهما أنه لا يجب، وهو قول الجمهور. وعلى هذا فلا يجب غسلهما من النجاسة وأولى؛ لأن المضرَّة به أغلب؛ لزيادة التكرار والمعالجة. وقالت الشافعية والحنفية: يجب؛ لأن إصابة النجاسة لهما تَنْدُر، فلا يشق غسلهما منها. وغلا بعض الفقهاء من

---

(١) أخرجه ابن المنذر في الأوسط في السنن والإجماع والاختلاف (١/ ٤٤٠)، بلفظ: «إِنِّي لَمُولَعٌ بِغَسْلِ قَدَمَيَّ؛ فَلَا تَقْتَدُوا بِي».

(٢) أما حديث عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فأخرجه البخاري (١٥٩)، ومسلم (٢٢٦).
وأما حديث عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فأخرجه البخاري (٥٦١٦).
وأما حديث عبد الله بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فأخرجه البخاري (١٨٥)، ومسلم (٢٣٥).
وأما حديث الرُّبَيِّع بنت معوذ ابن عَفْراءَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فأخرجه أبو داود (١٢٦)، والترمذي (٣٣)، وابن ماجه (٣٩٠).

أصحاب أحمد، فأوجبوا غسلهما في الوضوء، وهو قولٌ لا يُلتفت إليه، ولا يُعرَّج عليه.

والصحيح أنه لا يجب غسلهما في وضوء، ولا جنابة، ولا نجاسة.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وأما ما ذكرتموه عن ابن عمر وأبي هريرة** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ: **فشيء تفرَّدا به، دون الصحابة، ولم يوافق ابنَ عمر على ذلك أحدٌ منهم**)، ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا مشهور بالتحري والورع، فإذا خالف غيره من الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ فإننا نأخذ ما عليه الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ولا نأخذ بما هو عليه؛ لأنه مبني على تحريه ومبالغته رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في التحري.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وكان ابن عمر يقول: «إن بي وسواسًا فلا تقتدوا بي»**)، يعني عنده شدة في التحري، ليس بوسواس، لكنها شدة في التحري حتى يبالغ في ذلك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وظاهر مذهب الشافعي وأحمد: أن غسل داخل العينين في الوضوء لا يُستحب، وإن أَمِنَ الضررَ**)، كان ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا يبالغ في غسل العينين؛ يُدخل الماء في عينيه؛ حتى عمي في آخر حياته رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ من شدة مبالغته في إدخال الماء في عينيه، الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ لم يكونوا يعملون هذا، يتوضأ الإنسان ويغسل ظاهر وجهه ويكفي هذا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**والصحيح أنه لا يجب غسلهما في وضوء، ولا جنابة، ولا نجاسة**)، يعني داخل العينين لا يجب غسلهما، إنما يغسل الظاهر فقط، وهذا أيضًا يؤثر على العينين.

وأما فعل أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فهو شيء تأوّله، وخالفه فيه غيره، وكانوا ينكرونه عليه، وهذه المسألة تُلقّب بمسألة «إطالة الغرة»، وإن كانت الغُرَّة في الوجه خاصة.

وقد اختلف الفقهاء في ذلك، وفيها روايتان عن الإمام أحمد:

إحداهما: تُستحب إطالتها، وبها قال أبو حنيفة، والشافعي، واختارها أبو البركات ابن تيمية وغيره.

والثانية: لا تُستحب، وهي مذهب مالك، وهي اختيار شيخنا أبي العباس.

والمستحبون يحتجون بحديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنْتُمُ الْغُرُّ الْمُحَجَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ أَثَرِ الْوُضُوءِ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ فَلْيُطِلْ غُرَّتَهُ وَتَحْجِيلَهُ»(١). متفق عليه، ولأن الحِلْية تبلغ من المؤمن حيث يبلغ الوضوء(٢).

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وأما فعل أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فهو شيء تأوّله، وخالفه فيه غيره، وكانوا ينكرونه عليه، وهذه المسألة تُلقّب بمسألة «إطالة الغرة»)، قول

(١) أخرجه البخاري (١٣٦)، ومسلم (٢٤٦).

(٢) أخرج مسلم (٢٥٠) عَنْ أَبِي حَازِمٍ، قَالَ: «كُنْتُ خَلْفَ أَبِي هُرَيْرَةَ وَهُوَ يَتَوَضَّأُ لِلصَّلَاةِ، فَكَانَ يَمُدُّ يَدَهُ حَتَّى تَبْلُغَ إِبْطَهُ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا هَذَا الْوُضُوءُ؟ فَقَالَ: يَا بَنِي فَرُّوخَ، أَنْتُمْ هَاهُنَا؟ لَوْ عَلِمْتُ أَنَّكُمْ هَاهُنَا مَا تَوَضَّأْتُ هَذَا الْوُضُوءَ؛ سَمِعْتُ خَلِيلِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «تَبْلُغُ الْحِلْيَةُ مِنَ الْمُؤْمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الْوَضُوءُ»».

أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حديث: «**إِنَّ أُمَّتِي يُدْعَوْنَ يَوْمَ القِيَامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الوُضُوءِ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يُطِيلَ غُرَّتَهُ فَلْيَفْعَلْ**»، قالوا: هذا من كلام أبي هريرة، مُدْرَجٌ في الحديث، يقتصر على ما جاء في الحديث ولا يُنظر إلى قول أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لا نطيل الغرة؛ لأنه يريد أن نغسل شيئًا من الرأس لإطالة الغرة، هذا اجتهاد منه، فحد الرأس هو منابت الشعر، منابت شعر الرأس هذا هو حد الوجه من أعلى.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**وإن كانت الغُرَّة في الوجه خاصة**)، يقول: «**فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ فَلْيُطِلْ غُرَّتَهُ وَتَحْجِيلَهُ**» هذا من كلام أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وليس من كلام الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ولهذا تركه العلماء.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**والثانية: لا تُستحب، وهي مذهب مالك، وهي اختيار شيخنا أبي العباس**)، ابن تيميَّة.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**والمستحبون يحتجون بحديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنْتُمُ الْغُرُّ الْمُحَجَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ أَثَرِ الْوُضُوءِ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ فَلْيُطِلْ غُرَّتَهُ وَتَحْجِيلَهُ»**)، «فمن استطاع منكم»: هذا حد الحديث، هذا من كلام أبي هريرة، ليس من كلام الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**ولأن الحِلْية تبلغ من المؤمن حيث يبلغ الوضوء**)، لكنه الوضوء الشرعي، ليس الوضوء المجتهد فيه من أقوال العلماء.

قال النافون للاستحباب: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ حَدَّ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا»(١)، والله سبحانه قد حدّ المرفقين والكعبين، فلا ينبغي تعدِّيهما.

ولأن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يَنقُل مَنْ نقل عنه وضوءه أنه تعدّاهما، ولأن ذلك أصل الوسواس ومادّته، ولأن فاعله إنما يفعله قُربةً وعبادةً، والعبادات مبناها على الاتباع.

ولأن ذلك ذريعة إلى الغَسْلِ إلى الفخذ، وإلى الكتف، وهذا مما يُعلم أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابَه لم يفعلوه ولا مرة واحدة.

ولأن هذا من الغلُوِّ، وقد قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِيَّاكُمْ وَالغُلُوَّ فِي الدِّينِ»(٢)، ولأنه تعمُّق، وهو منهيٌّ عنه، ولأنه عضو من أعضاء الطهارة؛ فكُرِهَ مجاوزته كالوجه.

وأما الحديث فراويه عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: نُعَيْمٌ المُجْمِرُ، وقد قال: «لا أدري؛ قوله: «فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يُطِيلَ غُرَّتَهُ فَلْيَفْعَلْ» من قول رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو من قول أبي هريرة؟». روى ذلك عنه الإمام أحمدُ في «المسند»(٣).

---

(١) أخرجه الدارقطني في سننه (٥/ ٣٢٥، ٣٢٦)، والحاكم في المستدرك (٤/ ١٢٩)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٩/ ١٧)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٢١)، من حديث أبي ثعلبة الخُشَني رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) سبق تخريجه (ص٢١٧).

(٣) انظر: مسند الإمام أحمد (١٤/ ١٣٦-١٣٨) و(١٦/ ٤٥٤).

وأما حديث الحلية، فالحلية المزيِّنة ما كان في مَحَلِّهِ، فإذا جاوز محلَّه لم يكن زينة.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والله سبحانه قد حدّ المرفقين والكعبين، فلا ينبغي تعدِّيهما)**، يعني في التحجيل، يزاد من أجل التحجيل.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولأن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يَنقُل مَنْ نقل عنه وضوءه أنه تعدّاهما)**، تعدى الكعبين والمرفقين.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولأن ذلك أصل الوسواس ومادّته)**، لأنه إذا فتحنا هذا الباب دخل علينا الوسواس.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولأن ذلك ذريعة إلى الغَسْلِ إلى الفخذ، وإلى الكتف، وهذا مما يُعلم أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابَه لم يفعلوه ولا مرة واحدة)**، لأنك إذا فتحت هذا الباب بعض المتشددين يمكن أن يطيل الغسل، يغسل الفخذين لا يقتصر على الكعبين وهذا من فتح باب للوسواس، وفتح باب للزيادة على المشروع.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولأن هذا من الغلُوِّ، وقد قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إياكم والغلوّ في الدين»، ولأنه تعمُّق، وهو منهي عنه)**، التعمق: هو التنطع والتشدد.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وأما الحديث فراويه عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ نُعَيْمُ المُجْمِرُ، وقد قال: «لا أدري؛ قوله: «فمن استطاع منكم أن يطيل غرَّته فليفعل» من قول رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو من قول أبي هريرة؟»)**، يقولون: هو من قول أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فصل

وأما قولكم: إن الوسواس خير مما عليه أهل التفريط والاسترسال، وتمشية الأمر كيف اتفق، إلى آخره.

فلعمر الله إنهما لطرفا إفراطٍ وتفريطٍ، وغلو وتقصير، وزيادة ونقصان، وقد نهى الله سبحانه عن الأمرين في غير موضع؛ كقوله: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ [الإسراء:٢٩]، وقوله: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ [الإسراء:٢٦]، وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان:٦٧]، وقوله: ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف:٣١].

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وأما قولكم: إن الوسواس خير مما عليه أهل التفريط والاسترسال، وتمشية الأمر كيف اتفق، إلى آخره)**، يقولون: إن الوسواس خير من التقصير، فنقول: الوسواس لا خير فيه، والخير هو في الاقتصار على المشروع، هذا هو الخير.

هذا ليس فيه تفريط، الاقتصار على المشروع ليس بتفريط، التفريط في ترك المشروع، وهذا ليس فيه ترك للمشروع، بل هو عمل بالمشروع.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**كقوله**: ﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ ﴾ [الإسراء:٢٩])، ﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾: لا تبخل، هذا كناية عن البخل كأنك مغلول اليد.

﴿وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ ﴾: فتسرف في الإنفاق والتبرعات، هذا إسراف بالبسط، الاعتدال هو الخير، والاعتدال والوسط هو الخير بين البخل وبين الإسراف؛ ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان:٦٧].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وقوله**: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ﴾ [الإسراء:٢٦])، هذا من التبذير، الزيادة على المشروع من التبذير.

فدين الله بين الغالي فيه والجافي عنه، وخير الناس النّمَط الأوسط، الذين ارتفعوا عن تقصير المفرِّطين، ولم يلحقوا بغُلُوّ المعتدين.

وقد جعل الله سبحانه هذه الأمة وَسَطًا، وهي الخيار العدل، لتوسطها بين الطرفين المذمومين، والعدلُ هو الوسط بين طرفي الجَوْرِ والتفريط، والآفاتُ إنما تتطرّق إلى الأطراف، والأوساط مَحْميَّة بأطرافها، فخيار الأمور أوساطها.

قال الشاعر:

كانَتْ هِيَ الوَسَط المَحْمِيَّ فَاكْتَنَفَتْ
بِهَا الحَـوَادِثُ حَتَّى أَصبَحَتْ طَرَفَا(١)

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فدين الله بين الغالي فيه والجافي عنه)، بين الغالي فيه: وهو المسرف، وبين الجافي عنه والمقصر.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وخير الناس النّمَط الأوسط، الذين ارتفعوا عن تقصير المفرِّطين، ولم يلحقوا بغُلُوّ المعتدين)، خير الأمور الوسط في كل شيء.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقد جعل الله سبحانه هذه الأمة وَسَطًا)، ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة:١٤٣]: أي عدولًا خيارًا، لستم مع الغالينَ، ولا مع الجافين، بل وسَط.

---

(١) البيت لأبي تمام في ديوانه (ص١٩٢)، بلفظ:

كانت هي الوسَطَ الممنوعَ فاستلبَتْ ... ما حولها الخيلُ حتى أصبحَتْ طَرَفَا

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والآفاتُ إنما تتطرّق إلى الأطراف، والأوساط مَحْمِيَّة بأطرافها، فخيار الأمور أوساطها)**، الوسط يسلم، والأطراف معرضة للأخطار، الغالي والجافي معرضان للأخطار، أما الوسط فهو يسلم من الآفات.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

كانَتْ هِيَ الوَسَط المَحْمِيَّ فَاكْتَنَفَتْ

بِهَا الحَوَادِثُ حَتَّى أَصبَحَتْ طَرَفَا

الوسط المحمي، فالوسط محمي بطرفيه.

فصـل

ومن أعظم مكايده التي كاد بها أكثر الناس، وما نجا منها إلا من لم يُرد الله فتنته: ما أوحاه قديمًا وحديثًا إلى حزبه وأوليائه من الفتنة بالقبور، حتى آل الأمر فيها إلى أن عبد أربابُها من دون الله، وعُبِدتْ قبورهم، واتُّخِذت أوثانا، وبُنيت عليها الهياكل، وصُوِّرت صُوَرُ أربابها فيها، ثم جُعلت تلك الصور أجسادًا لها ظِلٌّ، ثم جُعلت أصنامًا، وعُبدت مع الله.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومن أعظم مكايده التي كاد بها أكثر الناس، وما نجا منها إلا من لم يُرد الله فتنته: ما أوحاه قديمًا وحديثًا إلى حزبه وأوليائه من الفتنة بالقبور)**، هذه الفتنة، وهي الافتتان بالقبور، وتعلق الأحياء بالأموات يرجون منهم قضاء حوائجهم، وكشف شدائدهم؛ هذه من أعظم ما كاد به الشيطان بني آدم.

فهي فتنة عظيمة هلك فيها أمم لا سيما بعد القرون المفضلة، انبثت هذه الفتنة في الناس إلا من رحم الله، وظهر المجددون من العلماء ينوهون على هذه الفتنة، ويحذرون منها- ولله الحمد- ولكنها فتنة عظيمة؛ حيث زين لهم التعلق بالأموات واللجوء إلى القبور لطلب الحوائج.

وليس لهم شبهة؛ لأنهم يقولون: هؤلاء أولياء ونحن مقصرون، وهؤلاء يشفعون لنا عند الله كما قال أسلافهم فيما ذكره الله عنهم في قوله:

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس:١٨]. وفي قوله تعالى: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر:٣]: اتخذوهم وسائط بينهم وبين الله. وزيَّن لهم الشيطان هذه الفرية، فعُبدت القبور بسبب هذه الشبهة الشيطانية، فهلك فيها أمم ممن ينتسبون إلى الإسلام، فبنوا على القبور الأضرحة، ورتبوا لها السَّدَنة، وصناديق النذور وغير ذلك، وليس هناك عندهم وليٌّ لله إلا من بُنِيَ على قبره قبة، هذا هو الولي عندهم!

وقد يكون كثير من أهل هذه القبور يتبرؤون منهم وقت حياتهم وينهونهم، لم يرضوا بهذا، بل كانوا ينهون عنه ويجاهدون أصحابه، ولكن الشيطان تغلب على عقول هؤلاء، واستعظمت هذه الفتنة.

وإذا نُصحوا يقولون: أنتم تبغضون الصالحين! فنحن لا نبغض الصالحين، بل نحب الصالحين ونقتدي بهم، ولكننا نقول: إنهم ليسوا شركاءَ لله في العبادة، أنت تعبدونهم من دون الله، تتقربون إليهم بالطاعات والقربات.

الحجة في أنهم يشفعون لكم عند الله، وليس هذا هي محبة الصالحين، هذه محبة الشيطان، هو الذي سوَّل هذه الفتنة.

وقد قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَالَّذِينَ يَبْنُونَ الْمَشَاهِدَ عَلَى الْقُبُورِ**»[1]، هؤلاء هم شرار الناس.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣/ ٣٠) وفي المسند (١/ ١٨٦)، وأحمد الرسالة (٦/ ٣٩٤) و(٧/ ٢٠٩)، وابن خزيمة (٢/ ٦)، وابن حبان (١٥/ ٢٦٠، ٢٦١)، =

قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَلَا وَأَنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ؛ فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ**»(١). قال هذا قبل موته بخمس ليال أو خمس سنين -الله أعلم-، لكن كان يحذر من هذه الفتنة العظيمة.

فبُنيت المشاهد على القبور في كثيرٍ مِن الأمصار إلا مَن استنار بنور الدعوة، واستفاد من المجددين والدعاة إلى الله، وإلا فهي فتنة عظيمة تعج بها كثير من بلاد المسلمين.

عندهم المسجد الذي ليس فيه قبر هذا لا يلتفتون إليه، وأما المسجد الذي فيه قبر فهذا يتسابقون إليه؛ لأن الشيطان زين لهم هذه الفتنة العظيمة، وتعلقوا بالأموات، وتركوا التعلق بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويقولون: هؤلاء يشفعون لنا عند الله! كما قال الأولون: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس:١٨].

قال تعالى: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ [الزمر:٣]: يعني الخالص من الشرك.

=والطبراني في المعجم الكبير (١٠/ ١٨٨) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. وعلّق البخاري شطره الأول جازمًا به بعد حديث رقْم (٧٠٦٧).

(١) أخرجه مسلم (٥٣٢) عن جُنْدَب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ، وَهُوَ يَقُولُ: «**إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا، كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، إِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ**».

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ﴾: انظر! أقروا أنهم يعبدونهم، ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر:٣]. اعترفوا أنهم يعبدونهم -والعياذ بالله -، هذا أشد الفتنة.

أما الذي يتوسل بالصالحين، ولا يتقرب إليهم بشيء من العبادة؛ فهذه بدعة، لكنها لا تصل إلى حد الشرك، لكنها تفضي إلى الشرك، وسيلة إلى الشرك.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(حتى آل الأمر فيها إلى أن عبد أربابُها من دون الله، وعُبِدتْ قبورهم، واتُخِذت أوثانا، وبُنيت عليها الهياكل)**، هم يقولون، يعترفون بهذا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾: أقروا أنهم يعبدونهم، ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر:٣]. هذه المصيبة العظيمة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(واتُخِذت أوثانا، وبُنيت عليها الهياكل)**، أوثانًا: كل ما عُبِدَ من دون الله على غير صورة إنسان فهو وثن، وما عُبِدَ على صورة حيوان أو إنسان فهو صنم؛ ولهذا قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ**»(١).

ودعا ربه أن يحمي قبره من أن يتخذ وثنًا يعبد من دون الله، واستجاب رب العالمين كما قال ابن القيم:

فَأَجَابَ رَبُّ الْعَالَمِينَ دُعَاءَهُ ... وَأَحَاطَهُ بِثَلَاثَةِ الْجُدْرَانِ
حَتَّى غَدَتْ أَرْجَاؤُهُ بِدُعَائِهِ ... فِي عِزَّةٍ وَحِمَايَةٍ وَصِيَانِ(٢)

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ (١/ ١٧٢) عن عطاء بن يسار مرسلًا: «**اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ. اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**». وأخرجه أحمد (١٢/ ٣١٤)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٧/ ٣١٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: النونية مع شرحها لابن عيسى (٢/ ٣٥٢).

فبدعاء الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لئلا يجعل قبره وثنًا حماه الله من ذلك، ودُفِنَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حجرة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في البيت الذي مات فيه، ولم يبرز قبره كأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في البقيع، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «وَلَوْلَا ذَلِكَ لَأُبْرِزَ قَبْرُهُ، غَيْرَ أَنَّهُ خَشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا»[(١)]، فدفن في بيته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وصار في حماية -ولله الحمد-، لا يصلون إليه، ولا يرونه.

فَأَجَابَ رَبُّ الْعَالَمِينَ دُعَاءَهُ وَأَحَاطَهُ بِثَلَاثَةِ الْجُدْرَانِ

(حَتَّى غَدَتْ أَرْجَاؤُهُ بِدُعَائِهِ) -يعني: بسبب دعائه- **(فِي عِزَّةٍ وَحِمَايَةٍ وَصِيَانِ)**.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وصُوّرت صوَرُ أربابها فيها، ثم جعلت تلك الصور أجسادًا لها ظلٌّ، ثم جُعلت أصنامًا، وعُبدت مع الله)**، صُوِّرَتْ صوَرُهم على شكل هياكلَ وصوَرٍ مجسَّمة، حتى عبدت من دون الله، هذه الهياكل وهذه الصور المجسمة. وهذا كثير في بلاد المسلمين -مع الأسف- إلا مَن حماها الله بوجود الدعاة إلى الله عَزَّوَجَلَّ المخلصين، الذين حذروا الناس من ذلك، ولكنها قليل في البلاد.

◆◆◆

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٥، ٤٣٦، ١٣٣٠، ١٣٩٠، ٣٤٥٣، ٤٤٤١، ٥٨١٥)، ومسلم (٥٣١) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: «لَمَّا نُزِلَ بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا عَنْ وَجْهِهِ، فَقَالَ وَهُوَ كَذَلِكَ: **لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى؛ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**. يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا، وَلَوْلَا ذَلِكَ أُبْرِزَ قَبْرُهُ، غَيْرَ أَنَّهُ خَشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا».

وكان أول هذا الداء العظيم في قوم نوح، كما أخبر سبحانه عنهم في كتابه، حيث يقول: ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ﴾ [نوح:٢١-٢٤].

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وكان أول هذا الداء العظيم في قوم نوح)**، أول هذا الداء الذي هو عبادة القبور في قوم نوح.

كان الناس على التوحيد، ألف سنة بعد آدم على التوحيد، كانوا على التوحيد على دين أبيهم آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فلما كان في عهد قوم نوح كان فيهم رجال صالحون وعلماء، فماتوا هؤلاء الصالحون في عام واحد فحزن عليهم الناس حزنًا شديدًا. فجاءهم الشيطان -لعنه الله- وقال لهم: صوروا صورهم -صور الصالحين- وانصبوها على مجالسهم حتى تتذكروا عبادتهم.

انظر! الشيطان -من أين يأتي لهم- يزعم أنه يدعوهم إلى عبادة الله، حتى تتذكروا عبادتهم فتنشطوا على العبادة، ففعلوا وصوروا صورهم ونصبت على مجالسهم، ولكن الجيل الذي فيه هؤلاء لم تعبد هذه الصور؛ لأن فيهم علماء وفيهم ناسًا يعرفون الحق من الباطل فلم تعبد، نصبت ولم تعبد.

الشيطان غرضه أن يغرس الفتنة ولو لم تثمر في وقتها ولو بعد حين؛ لأن الوسيلة إذا وجدت -ولو بعد حين- توجد نتيجتها، فرضي الشيطان أول الأمر بأن تنصب الصور فقط؛ قال: لأجل أن تتذكروا أحوالهم وتنشطوا

على العبادة، جاءهم بهذا الطريق بصورة ناصح، فنصبت هذه الصور ولم تعبد.

فلما مات هذا الجيل الذي فيهم العلماء وفيهم الصالحون، جاءهم الشيطان، وقال: إن آباءكم لم ينصبوا هذه الصور إلا ليعبدوها، وبها كانوا يسقون المطر؛ ولما في الناس من الجهل صدقوا هذه الفرية، فعبدت بعد ذلك.

فلما وقع الشرك في الأرض، هذا أول شرك وقع في الأرض بعد آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، أول شرك وقع في الأرض في قوم نوح بسبب هذه الفتنة: عبادة قبور الصالحين.

فبعث الله نبيه نوحًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يدعوهم إلى التوحيد وإلى الرجوع إلى دين أبيهم آدم وترك عبادة غير الله.

لكنهم أصروا وأبوا أن يتركوها: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح:٢٣]. هذه أسماء الصالحين الذين صوروا صورهم وآل بهم الأمر إلى أن عبدوهم من دون الله.

﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [نوح:٢٣]: لما دعاهم نوح إلى إفراد الله بالعبادة؛ قال الشيطان لهم: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا﴾ [نوح:٢٣]: هذه أسماء الصالحين؛ ﴿وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَـٰلًا﴾ [نوح:٢٣-٢٤].

دعا عليهم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لما يأس من قبولهم الهداية دعا عليهم؛ ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح:٢٦-٢٧].

استجاب الله دعوته وأرسل عليهم الطوفان، أمطرت السماء ونبعت الأرض، والتقى الماء وغطى الجبال فهلكوا بالطوفان.

﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت:١٤] -نسأل الله العافية- هذا سبب فتنة القبور.

قال ابن جرير: «وكان من خبر هؤلاء فيما بلغنا: ما حدثنا به ابن حُميد، حدثنا مِهران، عن سفيان، عن موسى، عن محمد بن قيس: أن يَغوثَ ويَعوق ونسرًا كانوا قومًا صالحين من بني آدم، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا، قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صوّرناهم كان أشوقَ لنا إلى العبادة إذا ذكرْناهم، فصوّروهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دبَّ إليهم إبليس، فقال: إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يُسقَون المطرَ، فعبدوهم»(١).

قال سفيان، عن أبيه، عن عِكْرمة قال: «كان بين آدم ونوح عَلَيْهِمَا السَّلَامُ عشرة قرون، كلُّهم على الإسلام»(٢).

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فلما ماتوا وجاء آخرون دبَّ إليهم إبليس، فقال: إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يُسقَون المطرَ، فعبدوهم)، هذا غرض الشيطان.

وهذا فيه التحذير من نصب الصور لا سيما صور المعظمين من العلماء والملوك وغير ذلك، لا تنصب الصور المجسمة، ولا حتى الصور الفوتوغرافية، لا تعلق؛ خشية من هذه الفتنة التي كاد بها الشيطان قوم نوح.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (عن عِكْرمة)، عكرمة البربري مولى ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قال: «كان بين آدم ونوح عَلَيْهِمَا السَّلَامُ عشرة قرون، كلُّهم على الإسلام»)، يعني: ألْفَ سَنةٍ.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٣/ ٣٠٣).

(٢) أخرجه الطبري في التفسير (٢٣/ ٣٠٣).

حدثنا ابن عبد الأعلى، قال: حدثنا عبد الرزاق، عن مَعْمر، عن قتادة؛ في هذه الآية، قال: «كانت آلهةً يعبدها قوم نوح، ثم عبدتها العرب بعد ذلك، فكانت وَدٌّ لكلبٍ بدُوْمَة الجَنْدَل، وكانت سُواعٌ لهُذَيل، وكانت يَغوث لبني غُطَيف من مُراد، وكانت يَعوقُ لهَمْدَان، وكانت نَسر لذي الكَلاع من حِمْيَر»(١).

وقال الوالِبي، عن ابن عباس: «هذه أصنام كانت تُعْبَدُ في زمان نوح»(٢).

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (كانت آلهةً يعبدها قوم نوح، ثم عبدتها العرب بعد ذلك)، لما أهلك الله قوم نوح بالطوفان دفنت هذه الأصنام، دفنها الطوفان وخفيت، فكان في العرب ملك يقال له عمر بن لحي، وكان ناسكًا عابدًا فذهب إلى الشام فوجدهم يعبدون الأصنام، فساغ له ذلك واستحسنه وانفتن به.

ثم عاد إلى بلاده، جاءه الشيطان ودله على هذه الصور المدفونة في الأرض، دله عليها فنبشها ووزعها على أحياء العرب وحينذاك حدث الشرك في العرب مرة ثانية بعد قوم نوح.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فكانت وَدٌّ لكلبٍ بدُوْمَة الجَنْدَل)، كلب: يعني قبيلة كلب.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٣/ ٣٠٤).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٣/ ٣٠٤).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال الوالِبي، عن ابن عباس: «هذه أصنام كانت تُعْبَدُ في زمان نوح»)**، هذا في البخاري، هذا الحديث عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في هذه الأسماء.

وقال البخاري: حدثنا إبراهيم بن موسى: حدثنا هشام، عن ابن جُريج قال: قال عطاء، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بَعْدُ، أما وَدٌّ فكانت لكَلْبٍ بدومة الجندل، وأما سُواع فكانت لهُذَيل، وأما يَغُوث فكانت لمراد، ثم لبني غُطيف بالجُرْف عند سبأ، وأما يعوق فكانت لهَمْدان، وأما نَسْر فكانت لحِمْيَر لآل ذي الكَلاع؛ أسماء رجال صالحين من قوم نوح. فلما هلكوا أوحى الشيطانُ إلى قومهم: أن انصبُوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابًا، وسمُّوها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تُعبَد، حتى إذا هلك أولئك ونُسي العلمُ، عُبِدت»(١).

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (أما وَدٌّ فكانت لكَلْبٍ بدومة الجندل)، دومة الجندل: التي تسمى الآن في شمال الجزيرة بهذا الاسم.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (ثم لبني غُطيف بالجُرْف عند سبأ)، أهل اليمن، سبأ في اليمن.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (حتى إذا هلك أولئك ونُسي العلمُ عُبِدت)، نسي العلم: يعني مات العلماء، وجاء أناس جهال استغلهم الشيطان.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٢٠).

وقال غير واحد من السلف: «كان هؤلاء قومًا صالحين في قوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوَّروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأَمَدُ فعبدوهم».

فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين: فتنة القبور، وفتنة التماثيل، وهما الفتنتان اللتان أشار إليهما رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث المتفق على صحته عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أن أمّ سَلَمَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ذكرت لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَنِيسة رأتها بأرضِ الحبشة يقال لها: ماريةُ، فذكرتْ له ما رأت فيها من الصور، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أُولَئِكِ قَوْمٌ إِذَا مَاتَ فِيهِمُ العَبْدُ الصَّالِحُ، أَوِ الرَّجُلُ الصَّالِحُ، بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ، أُولَئِكَ شِرَارُ الخَلْقِ عِنْدَ اللهِ»[(١)].

وفي لفظ آخر في «الصحيحين»: «أن أم حبيبة وأم سَلمة ذكرتا كنيسة رأينها»[(٢)]. فجمع في هذا الحديث بين التماثيل والقبور.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين: فتنة القبور، وفتنة التماثيل)، هكذا يقول الشيخ محمد رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب التوحيد: «فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين: فتنة القبور، وفتنة التماثيل»[(٣)].

(١) أخرجه البخاري (٤٣٤).
(٢) أخرجه (٣٨٧٣)، ومسلم (٥٢٨).
(٣) انظر: تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد (ص٢٦٧).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين: فتنة القبور، وفتنة التماثيل)**، فتنة تعظيم القبور وهذه فتنة عظيمة، وفتنة تعظيم التماثيل المنصوبة على المجالس.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(عن عائشة** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: **أن أمّ سَلَمَة** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا **ذكرت لرسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **كَنِيسة رأتها بأرضِ الحبشة يقال لها: ماريةُ)**؛ لأن أم سلمة ممن هاجروا إلى الحبشة إلى النجاشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ لما اشتد عليهم المشركون في مكة أذِن لهم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالهجرة إلى الحبشة، وقال: «**إِنَّ فِيهَا رَجُلًا لَا يُظْلَمُ أَحَدٌ عِنْدَهُ**» يعني: النجاشي.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فقال رسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أُولَئِكَ قَوْمٌ إِذَا مَاتَ فِيهِمُ العَبْدُ الصَّالِحُ، أَوِ الرَّجُلُ الصَّالِحُ، بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ، أُولَئِكَ شِرَارُ الخَلْقِ عِنْدَ اللهِ**»**)**، كما في الحديث: «**إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَالَّذِينَ يَبْنُونَ الْمَشَاهِدَ عَلَى الْقُبُورِ**»[(١)]، فهم شرار الناس هؤلاء.

❖ ❖ ❖

(١) سبق تخريجه (ص٥٣٥).

وهذا كان سبب عبادة اللات. فروى ابن جرير بإسناده عن سفيان، عن منصور، عن مجاهد: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴾ [النجم:١٩]، قال: «كان يَلُتّ لهم السّويق، فمات، فعكفوا على قبره»[١].

وكذلك قال أبو الجَوْزاء عن ابن عباس: «كان يلتّ السويق للحاجّ»[٢].

فقد رأيتَ أن سبب عبادة يغوث ويعوق ونَسْر واللات إنما كانت من تعظيم قبورهم، ثم اتخذوا لها التماثيل وعبدوها كما أشار إليه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وهذا كان سبب عبادة اللات)، اللَّاتَ: بالتشديد، إذا قُرِي بالتشديد فهو اسم رجل كان يلُت السويق للحجاج في الطائف، فلما عكفوا على قبره. ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴾ [النجم:١٩].

وأما قراءة التخفيف: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ ﴾: المراد بها صخرة كانوا يعظمونها في الطائف كان يلت عليها السويق هذا الرجل، يلت عليها السويق للحجاج.

---

(١) أخرجه الطبري (٢٢/ ٤٧، ٤٨).

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٥٩)، والطبري (٢٢/ ٤٨).

قال شيخنا[١]: وهذه العلة التي لأجلها نهى الشارع عن اتخاذ المساجد على القبور؛ هي التي أوقعت كثيرًا من الأُمم إما في الشرك الأكبر، أو فيما دونه من الشرك؛ فإن النفوس قد أشركت بتماثيل القوم الصالحين، وتماثيل يزعمون أنه طلاسم للكواكب ونحو ذلك، فإن الشّرك بقبر الرجل الذي يُعتقد صلاحه أقربُ إلى النفوس من الشرك بخشَبة أو حَجَر.

ولهذا تجَد أهل الشرك كثيرًا يتضرعون عندها، ويخشعون ويخضعون، ويعبدونهم بقلوبهم عبادةً لا يفعلونها في بيوت الله، ولا وقت السَّحَر، ومنهم من يسجد لها، وأكثرهم يرجون من بركة الصلاة عندها والدعاء ما لا يرجونه في المساجد.

فلأجل هذه المفسدة حَسَم النبي ﷺ مادتها، حتى نهى عن الصلاة في المقبرة مطلقًا، وإن لم يقصد المصلي بَرَكة البقعة بصلاته، كما يقصد بصلاته بَرَكة المساجد.

كما نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس وغروبها؛ لأنها أوقات يقصد المشركون الصلاة فيها للشمس، فنهى أمته عن الصلاة حينئذٍ، وإن لم يقصد المصلي ما قصده المشركون، سدًّا للذريعة.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قال شيخنا)، شيخ الإسلام ابن تيميَّة. ابن القيم إذا قال: «قال شيخنا» يعني: ابن تيميَّة.

---

(١) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (٢/ ١٩٢).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهذه العلة التي لأجلها نهى الشارع عن اتخاذ المساجد على القبور؛ هي التي أوقعت كثيرًا من الأُمم إما في الشرك الأكبر، أو فيما دونه من الشرك)**، فلا يتساهل في هذا، يقال: من حقهم علينا أن نعظم قبورهم، وأن نبني عليها، هكذا يكيد الشيطان، من حقهم علينا، هل الميت له حقٌّ عليك؟ الحق لله عَزَّوَجَلَّ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإن الشّرك بقبر الرجل الذي يُعتقد صلاحه أقربُ إلى النفوس من الشرك بخشَبة أو حَجَر)**، الشيطان يوسوس لهم يقول: هؤلاء شفعاؤنا عند الله، هؤلاء صالحون يشفعون لنا عند الله.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولهذا تجد أهل الشرك كثيرًا يتضرعون عندها، ويخشعون ويخضعون، ويعبدونهم بقلوبهم عبادةً لا يفعلونها في بيوت الله، ولا وقت السَّحَر)**، هذا كلام شيخ الإسلام ابن تيمية.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فلأجل هذه المفسدة حَسَم النبي** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **مادتها، حتى نهى عن الصلاة في المقبرة مطلقًا، وإن لم يقصد المصلي بَرَكة البقعة بصلاته، كما يقصد بصلاته بَرَكة المساجد)**، لكنها وسيلة، لما كانت وسيلة منعها الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا يصلى في المقبرة إلا صلاة الجنازة فقط.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(كما نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس وغروبها)**، لأن المشركين كانوا يسجدون للشمس والقمر عند طلوعها تعظيمًا لهم.

ولأن الشيطان كان يعظم الشمس والقمر عند هذا الوقت؛ «**تَطْلُعُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ**»[١] كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، «**وَتَغْرُبُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ**». ولهذا نهينا عن الصلاة عند طلوع الشمس، والصلاة عند غروب الشمس.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(فنهى أمته عن الصلاة حينئذٍ، وإن لم يقصد المصلي ما قصده المشركون، سدًّا للذريعة)**، لو فاتتك الصلاة لا تصلي وقت طلوع الشمس ولا وقت غروب الشمس، انتظر حتى تنتقل الشمس من هذا المكان، وإن كنت لا تقصد الشمس، ولكن هذا تشبه بالمشركين الذين يعبدون الشمس في هذا الوقت.

❖ ❖ ❖

(١) أخرجه البخاري (٣٢٧٣)، ومسلم (٨٢٨) من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قال: وأما إذا قصد الرجل الصلاة عند القبور، متبرِّكًا بالصلاة في تلك البُقعة، فهذا عين المحادّة لله ورسوله، والمخالفةِ لدينه، وابتداع دينٍ لم يأذن به الله؛ فإن المسلمين قد أجمعوا على ما علموه بالاضطرار من دين رسول الله ﷺ: أن الصلاة عند القبور منهيّ عنها، وأنه لَعن من اتخذها مساجد.

فمِنْ أعظم المحدثات وأسباب الشّرك: الصلاةُ عندها، واتخاذها مساجد، وبناء المساجد عليها، فقد تواترت النصوص عن النبي ﷺ بالنهي عن ذلك والتغليظ فيه، فقد صرّح عامة الطوائف بالنهي عن بناء المساجد عليها، متابعةً منهم للسنة الصحيحة الصريحة.

وصرَّح أصحاب أحمد وغيرهم من أصحاب مالك والشافعي بتحريم ذلك، وطائفة أطلقت الكراهة.

والذي ينبغي أن يحمل على كراهة التحريم؛ إحسانًا للظن بالعلماء، وأن لا يُظَنّ بهم أن يجُوّزوا فعل ما تواتر عن رسول الله ﷺ لعنُ فاعله، والنهي عنه.

الشّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فمِنْ أعظم المحدثات وأسباب الشّرك: **الصلاةُ عندها**، واتخاذها مساجد، وبناء المساجد عليها، فقد تواترت النصوص عن النبي ﷺ بالنهي عن ذلك والتغليظ فيه)، هذا من كلام شيخ الإسلام ابن تيميَّة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وصرَّح أصحاب أحمد وغيرهم من أصحاب مالك والشافعي بتحريم ذلك، وطائفة أطلقت الكراهة، والذي ينبغي أن يحمل على كراهة التحريم)**، لأن الكراهة يراد بها التحريم؛ لأن الله لما ذكر في سورة الإسراء، لما ذكر منهيات كثيرة قال: ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ [الإسراء:٣٨]: يعني محرمًا؛ ﴿ مَكْرُوهًا ﴾: يعني محرمًا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والذي ينبغي أن يحمل على كراهة التحريم؛ إحسانًا للظن بالعلماء، وأن لا يُظَنّ بهم أن يجُوِّزوا فعل ما تواتر عن رسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **لعنُ فاعله، والنهي عنه)**، لأن الكراهة على نوعين: كراهة تحريم وكراهة تنزيه، والمقصود في قوله تعالى: ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ [الإسراء:٣٨]: كراهة تحريم.

﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [الإسراء:٢٢-٢٣].

إلى قوله: ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ [الإسراء:٣٨]: يعني محرمًا، كراهة تحريم.

ففي «صحيح مسلم» عن جُندَب بن عبد الله البَجلي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «سمعت النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قبل أن يموت بخمس وهو يقول: إنِّي أبْرَأُ إلَى اللهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ؛ فَإِنَّ اللهَ قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا، كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا. أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ؛ فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ»[(١)].

الشَّرح

قوله رَحِمَهُٱللَّهُ: (أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ؛ فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ)، «أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»: من الأمم الكافرة.

«كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ؛ فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ»: فأخبر أن هذا من سنة المشركين قبلنا.

ثم نهى وقال: «أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ». ثم أكد ذلك بقوله: «إِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ»، هذا قبل أن يموت بخمس؛ يعني: بخمس ليالٍ، وقيل: بخمس سنين.

(١) أخرجه مسلم (٥٣٢).

وعن عائشة وعبد الله بن عباس، قالا: «لَمَّا نَزَلَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَإِذَا اغْتَمَّ كَشَفَهَا، فَقَالَ وَهُوَ كَذَلِكَ: «لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»؛ يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا». متفق عليه(١).

وفي «الصحيحين» أيضًا عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ قال: «قَاتَلَ اللهُ الْيَهُودَ؛ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»(٢).

وفي رواية مسلم: «لَعَنَ اللهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى؛ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»(٣).

فقد نهى عن اتخاذ القبور مساجد في آخر حياته، ثم إنه لعن وهو في السياق مَنْ فعل ذلك من أهل الكتاب؛ ليُحذِّر أمته أن يفعلوا ذلك.

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وعن عائشة وعبد الله بن عباس، قالا: لما نُزِل)، لما نُزِلَ: يعني حضره الموت.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فقال وهو كذلك: «لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»؛ يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا)، يحذر ما صنعوا: ما صنع اليهود والنصارى من اتخذا قبور الأنبياء مساجد.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٥)، ومسلم (٥٣١).
(٢) أخرجه البخاري (٤٣٧)، ومسلم (٢٠) (٥٣٠).
(٣) أخرجه مسلم (٢١) (٥٣٠).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(عن أبي هريرة** رَضِيَٱللَّهُعَنهُ: **أن رسول الله** صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ **قال: «قَاتَلَ اللهُ اليَهُودَ؛ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»)، قاتل الله: لعن الله.**

قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَرَضِهِ الَّذِي لَمْ يَقُمْ مِنْهُ: «لَعَنَ اللهُ اليَهُودَ وَالنَّصَارَى؛ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَأُبْرِزَ قَبْرُهُ، غَيْرَ أَنَّهُ خُشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا». متفق عليه[(١)].

وقولها: «خُشِيَ» هو بضم الخاء؛ تعليلًا لمنع إبراز قبره.

وروى الإمام أحمد في «مسنده» بإسناد جيد عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَالَّذِينَ يَتَّخِذُونَ القُبُورَ مَسَاجِدَ»[(٢)].

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَلَوْلَا ذَلِكَ لَأُبْرِزَ قَبْرُهُ، غَيْرَ أَنَّهُ خُشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا)، ولولا ذلك: لو لا أنه خشي على قبره أن يفعل به ما فُعِلَ بقبور الأنبياء من قبله لأبرز ودفن في البقيع مع أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

لكنه خَشي، يقرأ خَشي: الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو خُشيَ: يعني خَشي أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أن يتخذ قبره مسجدًا، فلذلك دفن في بيته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَالَّذِينَ يَتَّخِذُونَ

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٣٠)، ومسلم (٥٢٩).

(٢) سبق تخريجه (ص٥٣٥).

القُبُورَ مَسَاجِدَ»)، قال النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا عَلَى شِرَارِ الخَلْقِ**»(١).

وفي هذا الحديث: «**إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ**»، هذا صنف.

والصنف الثاني: الذين يتخذون المساجد على القبور.

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٢٤).

وعن زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **أن رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قال: «لَعَنَ اللهُ اليَهُودَ؛ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»**(١). **رواه الإمام أحمد.**

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، **قال: «لَعَنَ رَسُولُ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **زَائِرَاتِ القُبُورِ، وَالمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا المَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ»**(٢). رواه الإمام أحمد، وأهل «السنن».

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وعن ابن عباس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، **قال: لَعَنَ رَسُولُ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **زَائِرَاتِ القُبُورِ)**، ولذلك يحرم على النساء أن تزور القبور، زائرات، وفي رواية: «زُوَّارَاتِ»، والمعنى واحد، فالمرأة لا تزور القبور، إنما هي للرجال خاصة.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وَالمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا المَسَاجِدَ)**، هذا الشاهد: والمتخذين عليها المساجد: يعني يبنون عليها مساجد، أو يصلون عندها ولو لم يبنَ عليها مسجد؛ لأن المكان الذي تصلي فيه يعتبر مسجدًا، كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**جُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا**»(٣). فالمكان الذي تصلي فيه يعتبر مسجدًا.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وَالسُّرُجَ)**: يعني أنهم يضيئون القبور وهذا محرم، المقابر لا تضاء، لا يجعل فيها مصابيح أو كهرباء؛ لأن هذا وسيلة إلى الشرك.

وإذا أرادوا أن يدفنوا ميتًا في الليل جاءوا ومعهم بكشاف أو بسراج ودفنوه وذهبوا بما معهم، ولا يبقى في المقبرة إضاءة أبدًا.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣٥/ ٤٨٢).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٤٧١، ٤/ ٣٦٣، ٥/ ١٢٨، ٢٢٧)، وأبو داود (٣٢٣٦)، والترمذي (٣٢٠)، وابن ماجه (١٥٧٥)، والنسائي (٢١٨١).

(٣) سبق تخريجه (ص٢٠٧).

وفي «صحيح البخاري»: أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رأى أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يصلي عند قبر، فقال: القبرَ، القبرَ[١]. وهذا يدل على أنه كان من المُسْتَقرِّ عند الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: ما نهاهم عنه نبيهم من الصلاة عند القبور، وفعلُ أنس لا يدل على اعتقاد جوازه؛ فإنه لعله لم يَرَهُ، أو لم يعلم أنه قبر، أو ذَهل عنه، فلما نبَّهه عمر تنبَّه.

وقال أبو سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدٌ، إِلَّا المَقْبَرَةَ وَالحَمَّامَ». رواه الإمام أحمد، وأهل «السنن الأربعة»، وصححه أبو حاتم بن حبان[٢].

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وفي «صحيح البخاري»: أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رأى أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يصلي عند قبر، فقال: القبرَ، القبرَ)، يحذره، كان أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يعلم بالقبر، فحذره عمر.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقال أبو سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدٌ»)، الأرض كلها يصلى فيها، كلها مسجد بخلاف الأمم السابقة، فإنها لا تصلي إلا في كنائسها محل عباداتها.

أما هذه الأمة فقد وسع الله عليها؛ «أي رجل أدركته الصلاة فعنده طهوره ومسجد». يتيمم بالصعيد ويصلي في أي مكان، والحمد لله.

---

(١) ذكره البخاري (١/ ٩٣) معلقًا، ووصله عبد الرزاق في المصنف (١/ ٤٠٤)، وابن حجر في تغليق التعليق (٢/ ٢٢٩).

(٢) سبق تخريجه (ص ٣٨٠).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(إِلَّا المَقْبَرَةَ، وَالحَمَّامَ)**، هناك سبعة مواضع لا يصلى فيها، أعظمها: «المقبرة»، فلا يصلى فيها.

والحمام: وهو محل البخار والاغتسال الذي يقصدون به الاستشفاء من الأمراض، ليس الحمام الذي هو محل قضاء الحاجة، لا، المحل الذي يعد فيه ماء حار ويدخلونه للتنظف ولأجل استشفاء الأعصاب فيه، لا يصلى فيه؛ لايصلى في المقبرة، لا يصلى في الحمام، ولا يصلى في قارعة الطريق.

وأبلغ من هذا: أنه نهى عن الصلاة إلى القبر، فلا يكون القبر بين المصلي وبين القِبلة. فروى مسلم في «صحيحه» عن أبي مَرْثَد الغَنَوِيِّ، أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لَا تَجْلِسُوا عَلَى القُبُورِ، وَلَا تُصَلُّوا إِلَيْهَا»[1]. وفي هذا إبطالُ قول من زعم أن النهي عن الصلاة فيها لأجل النجاسة، فهذا أبعد شيء عن مقاصد الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: **(وأبلغ من هذا: أنه نهى عن الصلاة إلى القبر، فلا يكون القبر بين المصلي وبين القِبلة)**، لا تجعل القبر أمامك وأنت تصلي، لا يكون القبر أمامك، لا تجعله سترة لك؛ لأن هذا تشبه بعباد القبور.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: **(عن أبي مَرْثَد الغَنَوِيّ، أن رسول الله** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قال: «لَا تَجْلِسُوا عَلَى القُبُورِ، وَلَا تُصَلُّوا إِلَيْهَا»)**، لا تجلسوا على القبور: القبور لا تمتهن فتداس ويمشى عليها، وتلقى عليها القاذورات والقمامات كما يفعله بعض الجهال.

ولا يغلى فيها: يعني الوسط فيها؛ تصان ويزال عنها الأذى، فلا غلو فيها، ولا إهانة لها أيضًا.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: **(وفي هذا إبطالُ قول من زعم أن النهي عن الصلاة فيها لأجل النجاسة)**، ليس النهي عن الصلاة في القبور من أجل النجاسة، من أين النجاسة؟ ليس فيها نجاسة القبور، وإنما النهي عنها من أجل صيانة التوحيد؛ لئلا يزيد الأمر حتى تعبد القبور من دون الله.

---

(١) أخرجه مسلم (٩٧٢).

وهو باطل من عِدّة أوجه:

منها: أن الأحاديث كلَّها ليس فيها فرق بين المقبرة الحديثة والمنبوشة، كما يقوله المعلِّلون بالنجاسة.

ومنها: أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعن اليهود والنصارى على اتخاذ قبور أنبيائهم مساجدَ، ومعلوم قطعًا أن هذا ليس لأجل النجاسة؛ فإن ذلك لا يختص بقبور الأنبياء، ولأن قبور الأنبياء من أطهر البقاع، ليس للنجاسة عليها طريق البتة، فإن الله حرَّم على الأرض أن تأكل أجسادهم، فهم في قبورهم طرِيُّون.

منها: أنه نهى عن الصلاة إليها.

ومنها: أنه أخبر أن الأرض كلها مسجد إلا المقبرةَ والحمامَ، ولو كان ذلك لأجل النجاسة لكان ذكر الحُشوش والمجازر ونحوها أولى من ذكر القبور.

ومنها: أن موضع مسجده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان مقبرة للمشركين، فنَبَش قبورَهم وسَوّاها واتخذه مسجدًا، ولم ينقل ذلك الترابَ، بل سوى الأرض ومهّدها وصلى فيه.

كما ثبت في «الصحيحين» عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «لَمَّا قَدِمَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدِينَة فَنزَلَ بأَعْلَى المدِينَةِ فى حَيٍّ يُقَالُ لَهُمْ: بَنُو عَمْرو بْنِ عَوْفٍ، فأَقَامَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيهِمْ أَرْبَعَ عَشَرَةَ لَيْلَةً، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلى مَلاء بَنيي النَّجَّارِ، فَجَاءُوا مُتَقَلِدِي السُّيُوفَ، وَكَأَني أَنْظُرُ إِلى النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى رَاحِلَتِهِ، وأبو بكر رِدفَهُ، ومَلأُ بَنِي النَّجَّارِ حَوْلَهُ، حتى أَلْقَى بِفناءِ أبي أَيُّوبَ. وكان يُحِبُّ أَنْ

يُصَلِّي حَيْثُ أَدْرَكَتْهُ الصَّلاةُ، وَيُصَلِّي فِي مَرَابِضِ الْغَنَمِ، وَأَنَّهُ أَمَرَ بِبِنَاءِ الْمَسْجِدِ، فَأَرْسَلَ إِلَى مَلإٍ بَنِي النَّجَّارِ، فَقَالَ: يَا بَنِي النَّجَّارِ، ثَامِنُونِي بِحَائِطِكُمْ هَذَا. قَالُوا: لا واللهِ، مَا نَطْلُبُ ثَمَنَهُ إِلا إِلَى اللهِ. فَكَانَ فِيهِ مَا أَقُولُ لَكُمْ: قُبُورُ الْمُشْرِكِينَ. وفيه خَرِبٌ. وفيه نخل. فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِقُبُورِ الْمُشْرِكِينَ فَنُبِشَتْ، ثُمَّ بِالْخِرَبِ فَسُوِّيَتْ. وَبِالنَّخْلِ فَقُطِعَ. فَصَفُّوا النَّخْلَ قِبْلَةَ الْمَسْجِدِ، وَجَعَلُوا عِضَادَتَيْهِ الْحِجَارَةَ. وَجَعَلُوا يَنْقُلُونَ الصَّخْرَ. وهم يَرْتَجِزُونَ. وذكر الحديث[1].

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (ومنها: أنه أخبر أن الأرض كلها مسجد إلا المقبرةَ والحمامَ، ولو كان ذلك لأجل النجاسة لكان ذكر الحُشوش والمجازر ونحوها أولى من ذكر القبور)، إنما هذا خشية الغلو فيها.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (ومنها: أن موضع مسجده ﷺ كان مقبرة للمشركين)، لما قدم المدينة عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وركب ناقته، وذهب يدخل المدينة، وكل يأخذ بخطام الناقة ويقول: انزل عندنا يا رسول الله. فيقول: دعوها فإنها مأمورة.

فتركوها حتى جاءت إلى مكان مسجده فبركت في موضع مسجده، وكان فيه قبور للمشركين، فأمر بها فنبشت، وبُنِيَ المسجد في المكان الذي بركت فيه ناقة الرسول ﷺ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فنبش قبورَهم وسَوَّاها واتخذه مسجدًا، ولم ينقل ذلك الترابَ، بل سوى الأرض)، ولو كان نجسًا لنقل التراب.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢٨)، ومسلم (٥٢٤).

ومنها: أن فتنة الشرك بالصلاة في القبور ومشابهة عُبّاد الأوثان أعظم بكثير من مفسدة الصلاة بعد العصر والفجر.

فإذا نهى عن ذلك سدًّا لذريعة التشبه الذي لا يكاد يخطر ببال المصلي؛ فكيف بهذه الذريعة القريبة التي كثيرًا ما تدعو صاحبها إلى الشرك، ودعاء الموتى، واستيجابهم، وطلب الحوائج منهم، واعتقاد أن الصلاة عند قبورهم أفضل منها في المساجد، وغير ذلك، مما هو محادّة ظاهرة لله ورسوله؟

فأين التعليل بنجاسة البقعة من هذه المفسدة مما يدل على أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قصد منع الأمة من الفتنة بالقبور؛ كما افتتن بها قوم نوح ومن بعدهم؟

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومنها: أن فتنة الشرك بالصلاة في القبور ومشابهة عُبّاد الأوثان أعظم بكثير من مفسدة الصلاة بعد العصر والفجر)**، نجاسة الشرك أشد من النجاسة الحكمية التي هي البول والعذرة، هذه نجاسة حكمية تزول، لكن نجاسة الشرك لا تزول إلا بالتوحيد.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فأين التعليل بنجاسة البقعة من هذه المفسدة مما يدل على أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قصد منع الأمة من الفتنة بالقبور؛ كما افتتن بها قوم نوح ومن بعدهم؟)**، هؤلاء الجهال أو المخرفون يقولون: النهي عن الصلاة عند القبور خشية النجاسة.

وأما أهل الحق فيقولون: لا، العلة هي خشية الشرك، تعظيم القبور، القبور ليس فيها نجاسة.

ومنها: أنه لعن المتخذين عليها المساجد، ولو كان ذلك لأجل النجاسة لأمكن أن يتخذ عليها المسجد مع تطيينها بطين طاهر، فتزول اللعنة، وهو باطل قطعًا.

ومنها: أنه قرن في اللعنة بين متخذي المساجد عليها، وموقدي السُّرُج عليها، فهما في اللعنة قرينان، وفي ارتكاب الكبيرة صِنوان؛ فإن كل ما لَعَن عليه رسول الله ﷺ فهو من الكبائر.

ومعلوم أن إيقاد السُّرج عليها إنما لُعن فاعله لكونه وسيلة إلى تعظيمها، وجعلها نُصُبًا يُوفِضُ إليه المشركون، كما هو الواقع، فهكذا اتخاذ المساجد عليها.

ولهذا قرن بينهما؛ فإن اتخاذ المساجد عليها تعظيم لها، وتعريض للفتنة بها، ولهذا حكى الله سبحانه عن المتغلِّبين على أمر أصحاب الكهف، أنهم قالوا: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف:٢١].

ومنها: أنه ﷺ قال: «اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ، اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»(١).

فذِكْرُهُ ذلك عَقِيبَ قوله: «اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ»، تنبيه منه على سبب لحوق اللعن بهم، وهو توسُّلهم بذلك إلى أن تصير أوثانًا تُعبد.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فإن كل ما لَعَن عليه رسول الله ﷺ فهو من الكبائر)، من ضوابط الكبائر: ما خُتِمَ بلعنة أو غضب أو نار، فهو كبيرة.

---

(١) سبق تخريجه (ص٥٣٧).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**ولهذا حكى الله سبحانه عن المتغلِّبين على أمر أصحاب الكهف، أنهم قالوا:** ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف:٢١])، لما وجدوا أصحاب الكهف ميتين، اختلفوا ماذا يصنعون بأجسادهم؟

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ﴾: يعني الذين لهم سلطة؛ ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف:٢١]. وهذا يدل على الذم؛ لأن الذين قالوا هذا الذين غلبوا على أمرهم وهم أصحاب السلطة، ليسوا أصحاب الحق.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**ومنها: أنه** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قال: «اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ، اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»**)، مما اصطاد به الشيطان هؤلاء الذين يتعلقون بالقبور: أنه زين لهم أن هؤلاء الأموات ينفعونهم ويشفعون لهم عند الله.

لذلك عكفوا على قبورهم وصرفوا لهم أنواعًا من أنواع العبادة والتضرع؛ يريدون بذلك أن يشفعوا لهم عند الله.

وهذا كقول المشركين الأولين: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨].

الله سبحانه لم يجعل بيننا وبينه وسائط، ولم يأمرنا أن نتخذ له شفعاء، بل أمرنا أن ندعوه بيننا وبينه بدون وسائط.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [غافر:١٤]. ولم يقل: ادعو الله بواسطة فلان أو علان.

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾ [البقرة:١٨٦]. الله قريب لايحتاج إلى من يبلغه عن حوائج عباده، لكنهم قاسوا الله جَلَّوَعَلَا على ملوك الدنيا الذين لا يطلعون على أحوال الرعية إلا بمن يخبرهم من الوسائط بينهم وبينه، أما الله فإنه يعلم أحوال عباده ولا يحتاج إلى من يبلغه عنهم.

وأيضًا ملوك الدنيا لا يريدون أن ينفعوا شعوبهم إلا بواسطة الشفعاء الذين يشفعون للشعوب عنده ويذكرونه بأحوال الرعية.

فالشفعاء يؤثرون على الملوك، أما الله جَلَّوَعَلَا فليس بحاجة إلى من يؤثر عليه، وليس بحاجة إلى من يبلغه أحوال عباده، وهو يريد الخير لعباده.

وإنما إن جاء حائل بينهم وبين الله فهو من قِبَل أنفسهم، هم الذين أغلقوا الباب بينهم وبين الله، وإلا فالله لم يأمرنا أن نتخذ إليه شفعاء ولا وسطاء.

وأما قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ [المائدة:٣٥].

فالوسيلة: هي العمل الصالح، ليست الوسيلة أن نتخذ واسطة بيننا وبينه كما يفسرها هؤلاء، هذا تفسير باطل، الوسيلة هي الطاعة سميت وسيلة؛ لأنها تقرب إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى؛ فمن أطاع الله تقرب إليه.

وفي الحديث القدسي: «**إِذَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَإِذَا أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً**»(١)؛ لا يحتاج إلى واسطة بينه وبين خلقه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

---

(١) سبق تخريجه (١/ ٤٤٤).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فذِكْرُه ذلك عَقِيبَ قوله: «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ»، تنبيه منه على سبب لحوق اللعن بهم، وهو توسُّلهم بذلك إلى أن تصير أوثانًا تُعبد)**، **«اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ»**. دعا الله سبحانه أن يحمي قبره من أن يفعل به ما فعل بقبور الأنبياء من قبله؛ لأنها صارت أوثانًا تعبد من دون الله، تصرف لها أنواع العبادات والنذور والقربات فصارت أوثانًا، فدل على أن من تعلق بقبر ودعاه من دون الله أنه اتخذه وثنًا.

والوثن: هو ما عُبِدَ مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإن كان على صورة إنسان أو حيوان فإنه يسمى صنمًا، وعبادة الصور والتماثيل هذه أصنام، وأما عبادة القبور والأشجار والأحجار وغير ذلك فهذه تسمى أوثانًا.

والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعا ربه ألا يجعل قبره وثنًا يعبد[1]، وقد استجاب الله دعاء رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فحماه مِن أن يُتَّخَذَ وثنًا.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فَأَجَابَ رَبُّ الْعَالَمِينَ دُعَاءَهُ ... وَأَحَاطَهُ بِثَلَاثَةِ الْجُدْرَانِ
حَتَّى غَدَتْ أَرْجَاؤُهُ بِدُعَائِهِ ... فِي عِزَّةٍ وَحِمَايَةٍ وَصِيَانِ[2]

بركة دعوة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولذلك دُفِنَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حجرته التي توفي فيها وهي حجرة عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، ولم يبرز قبره في البقيع كقبور أصحابه خشية أن يتخذ وثنًا.

---

(١) سبق تخريجه (ص٥٣٧).
(٢) انظر: النونية مع شرحها لابن عيسى (٢/ ٣٥٢).

قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «وَلَوْلا ذلِكَ لأبْرِزَ قَبْرُهُ، غَيْرَ أَنَّهُ خُشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا»[١]. فحماه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالجدران، حتى مَن أراد أن يستقبله يجعله بينه وبين القبلة بنوا عليه جدارًا مثلثًا من جهة الشمال؛ لأن قبلة أهل المدينة هي الجنوب فالذي يريد أن يستقبل قبر الرسول يكون عنه من جهة الشمال، جعلوه ثلاثة جدران، والذي يقابل المصلي إنما هو منحرف الثلاثة جدران ولا يستقبل شيئًا حائطًا من حوائط القبر، ليس أمامه إلا ملتقى الجدران، ليس أمامه حائط معترض أبدًا، وهذا من صيانة الله لقبر رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ إجابة لدعوته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ**»[٢].

---

(١) سبق تخريجه (ص٥٣٨).

(٢) سبق تخريجه (ص٥٣٧).

وبالجملة؛ فمن له معرفة بالشرك وأسبابه وذرائعه، وفَهِمَ عن الرسول ﷺ مقاصده، جزم جزمًا لا يحتمل النقيض أن هذه المبالغة منه واللعن والنهي بصيغتيه - صيغة «لا تفعلوا»، وصيغة «إني أنهاكم» - ليس لأجل النجاسة، بل هو لأجل نجاسة الشرك اللاحقة بمن عصاه، وارتكب ما عنه نهاه، واتبع هواه، ولم يخش ربَّه ومولاه، وقلّ نصيبه أو عُدِمَ من تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله؛ فإن هذا وأمثاله من النبي ﷺ صيانةٌ لِحِمَى التوحيد أن يلحقه الشرك ويغشاه، وتجريدٌ له وغضب لربِّه أن يُعدَل به سواه.

فأبى المشركون إلا معصية لأمره، وارتكابًا لنهيه، وغرّهم الشيطان بأن هذا تعظيم لقبور المشايخ والصالحين، وكلما كنتم أشدَّ لها تعظيمًا، وأشدَّ فيهم غلوًّا كنتم بقربهم أسعد، ومن أعدائهم أبعد.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وبالجملة؛ فمن له معرفة بالشرك وأسبابه وذرائعه، وفَهِمَ عن الرسول ﷺ مقاصده، جزم جزمًا لا يحتمل النقيض أن هذه المبالغة منه واللعن والنهي بصيغتيه - صيغة «لا تفعلوا»، وصيغة «إني أنهاكم» - ليس لأجل النجاسة)، قال ﷺ: «إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ»[1]. هذا نهي. ثم قال: «فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ»؛ مرتين: مرة بصيغة النهي، ومرة بصيغة «أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ».

---

(١) سبق تخريجه (ص٥٣٨).

كل هذا من باب التأكيد عن الغلو في القبور، لا قبور الأنبياء ولا قبور الأولياء والصالحين ولا قبور غيرهم، «إنما هلكت الأمم بالغلو في القبور». السابقة هلكت بسبب غلوها في قبور الأنبياء والصالحين.

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من كمال نصحه لنا قال: **«أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ»** يعني: مصلياتٍ تصلون عندها رجاء بركتها، **«فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ»**.

ولذلك لا تجوز الصلاة عند القبر، ولا إلى القبر؛ خشية أن يتعلق القلب بالميت، وهذا من سد الذرائع المفضية إلى الشرك.

ولا تجوز الصلاة في المقابر، من المواطن التي لا تصح الصلاة فيها: المقابر، ولا تقام الصلاة فيها خشية الشرك، حمايةً للتوحيد.

وأما من يقول: إن النهي عن الصلاة عند القبور من أجل النجاسة! فهذا كلام باطل؛ لأنه ليس فيه نجاسة، الأموات داخل القبور، داخل القبور ليسوا على وجه الأرض وليس على وجه الأرض منهم شيء، فالأرض التي فوقهم طاهرة ليس فيها نجاسة، وإنما نهى عن ذلك؛ سدًّا لذريعة الشرك، لا من أجل أنها نجسة.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(ليس لأجل النجاسة، بل هو لأجل نجاسة الشرك)**، خوفًا على أمته من الشرك لا من النجاسة، ليس فيها نجاسة، المقابر ليس فيها نجاسة، طاهرة.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(فإن هذا وأمثاله من النبي** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **صيانةٌ لحِمَى التوحيد أن يلحقه الشرك ويغشاه، وتجريدٌ له وغضب لربِّه أن يُعدَل به سواه)**،

النهي عن الصلاة عند القبور لا لأجل تجنب النجاسة؛ وإنما لأن ذلك وسيلة إلى الشرك، نجاسة الشرك؛ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة:٢٨].

لا النجاسة الطارئة، وإنما نجاسة الشرك، حذر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الصلاة عند القبور لأجل منع نجاسة الشرك عندها.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فأبى المشركون إلا معصية لأمره، وارتكابًا لنهيه، وغرّهم الشيطان بأن هذا تعظيم لقبور المشايخ والصالحين)**، يقولون هذه قبور مشايخ ورجال صالحين لهم حرمة ولهم مكانة عند الله، فنحن نريد أن نتخذهم شفعاء عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بيننا وبينه لصلاحهم ولدينهم، نحن لا نعبدهم هم، نعبد الله، لكن اتخذناهم وسائط بيننا وبين الله، هكذا يقولون.

الله قال في المشركين: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس:١٨].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وغَرّهم الشيطان بأن هذا تعظيم لقبور المشايخ والصالحين، وكلما كنتم أشدَّ لها تعظيمًا، وأشدَّ فيهم غلوًّا كنتم بقربهم أسعد، ومن أعدائهم أبعد)**، هذا كلام الشيطان لهم ووسوسته لهم أن هذا من حقهم علينا وهم صالحون، ونحن نقدرهم ولهم جاه عند الله، نطلب من الله بجاههم وبشفاعتهم، كل هذا من الشيطان. فالرسول حذرك من هذا فقال: «**لَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ**»، يعني: لا تُصلُّوا عندها.

«**لَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ؛ فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ**». نهى مرتين في قوله: «**لَا تَتَّخِذُوا**»، وبقوله: «**أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ**».

ولعَمْرُ الله مِنْ هذا الباب بعينه دُخِلَ على عُبَّاد يغوث ويعوق ونسر، ومنه دُخِلَ على عبَّاد الأصنام منذ كانوا إلى يوم القيامة، فجمع المشركون بين الغلو فيهم والطعن في طريقتهم.

وهَدَى الله أهل التوحيد لسلوك طريقهم، وإنزالهمْ منازَلُهمْ التي أنزلهم الله إياها، من العبودية وسلب خصائص الإلهية عنهم، وهذا غاية تعظيمهم وطاعتهم، وأمّا المشركون فعصوا أمرهم، وتنقَّصوهم في صورة التعظيم لهم.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ولعَمْرُ الله مِنْ هذا الباب بعينه دُخِلَ على عُبَّاد يغوث ويعوق ونسر، ومنه دُخِلَ على عبَّاد الأصنام منذ كانوا إلى يوم القيامة)، قوم نوح لما نهاهم نوح عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عن الغلو في الصالحين أبوا: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ [نوح:٢٣]. سموهم آلهة. ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا﴾ [نوح:٢٣]. هذه أسماء رجال صالحين كانوا في قوم نوح، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم يتوسطون بهم عند الله عَزَّوَجَلَّ، وحدث الشرك من هذا الوقت في الأرض، فجاءهم نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ينهاهم عن هذا الشرك. عند ذلك قالوا: لا، ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا﴾ [نوح:٢٣]. لما ماتوا غلوا فيهم، وتبركوا بقبورهم، وتوسلوا بها إلى الله، وتواصوا هم ألا يتركوا هذا الشرك، وألا يطيعوا نوحًا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ولعَمْرُ الله مِنْ هذا الباب بعينه دُخِلَ على عُبَّاد يغوث ويعوق ونسر)، اندرست هذه الأصنام وهذه الصور وطمرها الطوفان

في الأرض وخفيت إلى أن جاء عمرو بن لحي الخزاعي من ملوك العرب كان واليًا على الحجاز، وكان ناسكًا عابدًا في أول الأمر ثم ذهب إلى الشام ووجدهم يعبدون الأصنام، فلما جاء إلى الحجاز أمر الناس بعبادة الأصنام، وجاءه الشيطان وأرشده إلى الأماكن التي دفنت فيها هذه الصور الموروثة بعد قوم نوح فحفروها، استخرجوها ونصبوها في الأقاليم، وعبدوها من دون الله عَزَّوَجَلَّ. إلى أن بعث الله نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأبطل عبادة هذه القبور وهذه الأصنام، ودعا إلى الله وإلى عبادة الله وحْدَه لا شريك له. ولهذا أخبر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه رأى عمرو بن لُحَيٍّ الخُزَاعيَّ يَجُرُّ قُصْبَهُ في النار؛ لأنه أول من سيب السوائب، وغَيَّر دين إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ[١].

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وأمّا المشركون فعصوا أمرهم، وتنقَّصوهم في صورة التعظيم لهم)**، هؤلاء يزعمون ويقولون: إن هؤلاء صالحون، ولهم حق علينا أن نبني على قبورهم وأن نجعل عليها أضرحة؛ حتى لا ينسوا، ولا تندرس قبورهم، وما أشبهَ ذلك. وهذا في الحقيقة عكس المطلوب، هذا ليس من حق الأموات، هذا من حق الله، وليس من حق الأموات أن تعظم قبورهم وأن يبنى عليها، وأن يصلى عندها، جاؤوا هذا بقالب التعظيم والتقدير لهم، زين لهم الشيطان ذلك، وهو في الحقيقة شرك بالله عَزَّوَجَلَّ، وكفر بالله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٢٣)، ومسلم (٢٨٥٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال الشافعي رحمة الله عليه: «أكره أن يُعظَّم مخلوق حتى يُجعَل قبره مسجدًا، مخافة الفتنة عليه وعلى من بعده من الناس»(١).

وممَّن علل بالشرك ومشابهة اليهود والنصارى: الأثرَم في كتاب «ناسخ الحديث ومنسوخه»؛ فقال بعد أن ذكر حديث أبي سعيد: أن النبي ﷺ قال: «جُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا، إِلَّا المَقْبَرَةَ وَالحَمَّامَ»(٢)، وحديثَ زيد بن جَبِيرَة، عن داود بن الحُصين، عن نافع، عن ابن عمر: أن النبي ﷺ نهى عن الصلاة في سبع مواطن، وذكر منها المقبرة(٣)؛ قال الأثرم: «إنما كُرِهت الصلاة في المقبرة للتشبه بأهل الكتاب؛ لأنهم يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد».

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (قال الشافعي رحمة الله عليه: «أكره أن يُعظَّم مخلوق حتى يُجعَل قبره مسجدًا، مخافة الفتنة عليه وعلى من بعده من الناس»)، الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ يقول هذه المقالة: أنه يُكره أن يعظم الإنسان حتى يؤول ذلك إلى عبادته من دون الله، ويكون ذلك دينًا يتبعه الناس من بعده.

---

(١) أورده الشيرازي في المهذب في فقه الإمام الشافعي (١/ ٢٥٩).

(٢) سبق تخريجه (ص٣٨٠).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٤٦، ٣٤٧)، وابن ماجه (٧٤٦)، عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ نَهَى أَنْ يُصَلَّى فِي سَبْعَةِ مَوَاطِنَ: فِي المَزْبَلَةِ، وَالمَجْزَرَةِ، وَالمَقْبَرَةِ، وَقَارِعَةِ الطَّرِيقِ، وَفِي الحَمَّامِ، وَفِي مَعَاطِنِ الإِبِلِ، وَفَوْقَ ظَهْرِ بَيْتِ اللهِ». قال الترمذي (٢/ ١٧٩): (حديث ابن عمر إسناده ليس بذاك القوي، وقد تُكُلِّم في زيد بن جبيرة مِن قِبَلِ حِفظِه).

ويكره يعني يحرم؛ لأن الكراهية تطلق ويراد بها التحريم، لا كراهة التنزيه، وإنما كراهة التحريم.

﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴾ [الإسراء:٢٢]. إلى قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴾ [الإسراء:٣٩]. إلى قوله: ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ ﴾، ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ ﴾: المذكور ﴿كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ [الإسراء:٣٨]. يعني محرمًا، مكروهًا بمعنى محرمًا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(مخافة الفتنة عليه وعلى من بعده من الناس)**، مخافة الفتنة في الغلو بالمخلوق أنه هو يعجب بنفسه إذا كان حيًّا وعظمه الناس وغلوا فيه يعجب بنفسه، وكذلك بعد موته يتخذون قبره معبودًا من دون الله عَزَّوَجَلَّ، فالغلو لا خير فيه.

ولهذا قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَإِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ؛ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ**»(١).

الله جَلَّ وَعَلَا قال: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ﴾ [المائدة:٧٧]، وقال سبحانه: ﴿لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ

(١) سبق تخريجه (ص٢١٧).

عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء:١٧١-١٧٢].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وممَّن علل بالشرك ومشابهة اليهود والنصارى: الأثرَم في كتاب «ناسخ الحديث ومنسوخه»)**، أبو بكر الأثرم من أصحاب الإمام أحمد، ومن أصحاب الحديث، وله مؤلف في الحديث.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قال الأثرم: «إنما كُرِهت الصلاة في المقبرة للتشبه بأهل الكتاب؛ لأنهم يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد»)**، لهذه العلة، مخافة الشرك كما حصل للأمم السابقة، وليس هذا لأجل النجاسة، المقبرة ليس فيها نجاسة، يقولون: لا، هذا من أجل النجاسة، ليس فيها نجاسة، لكن خشية الشرك.

فصــل

ومن ذلك اتخاذها عيدًا.

والعيد ما يُعتاد مجيئه وقصده من زمان ومكان:

فأما الزمان فكقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَوْمُ عَرَفَةَ وَيَوْمُ النَّحْرِ وَأَيَّامُ مِنًى، عِيدُنا أَهْلَ الإِسْلَامِ». رواه أبو داودَ وغيره(١).

وأما المكان فكما روى أبو داود في «سننه»: «أن رجلًا قال: يا رسول الله، إني نذرت أن أنْحر بِبُوانَةَ؟ فقال: أَبِهَا وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ المُشْرِكِينَ، أَوْ عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ؟، قَالَ: لَا، قَالَ: فَأَوْفِ بِنَذْرِكَ»(٢). وكقوله: «لَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا»(٣).

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**ومن ذلك اتخاذها عيدًا**)، ومن ذلك: اتخاذ القبور عيدًا، يعني مكانًا يجتمعون فيه عند القبر ويعكفون عنده؛ لأن العيد على قسمين: عيد زماني، وعيد مكاني.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٨/ ٦٠٥)، وأبو داود (٢٤١٩)، والترمذي (٧٧٣)، والنسائي (٣٠٠٤)، من حديث عُقْبَةَ بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أبو داود (٣٣١٣).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٢/ ٦٠)، وأحمد (١٤/ ٤٠٣)، وأبو داود (٢٠٤٢)، والطبراني في الأوسط (٨/ ٨١)، والبيهقي في شُعَب الإيمان (٦/ ٥٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «**لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ؛ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ**».

فالعيد الزماني: كعيد الأضحى وعيد الفطر.

والعيد المكاني: المكان الذي يجتمعون فيه لأجل العبادة، وهناك أعياد شرعية مكانية، ويوجد أعياد بدعية.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والعيد ما يُعتاد مجيئه وقصده من زمان ومكان)**، أعياد زمانية، وأعياد مكانية.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فأما الزمان فكقوله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«يومُ عرفة ويوم النحر وأيامُ منًى عيدنا أهل الإسلام»)**، عيدنا، هذه أعياد زمانية.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وأما المكان فكما روى أبو داود في «سننه»: «أن رجلًا قال: يا رسول الله، إني نذرت أن أنْحر بِبُوانَةَ؟ فقال: أَبِها وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الْمُشْرِكِينَ، أَوْ عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ؟، قَالَ: لَا، قَالَ: فَأَوْفِ بِنَذْرِكَ»)**، عيد مكان.

«أَبِهَا وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الْمُشْرِكِينَ؟ قَالَ: لَا» يعني: لماذا خصصت هذا المكان؟ هل فيه شيء من أمور الجاهلية من أعيادهم؟ قال: لا، قال: أوفِ بنذرك، لزوال المحظور.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وكقوله: «لَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا»)**، لا تجعلوا قبري عيدًا: تترددون عليه، كلما دخل المسجد النبوي يذهب إلى القبر، لا يجوز هذا، إنما القادم من سفر إلى المدينة أول ما يأتي لمسجد الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصلي ركعتين تحية المسجد، ثم يذهب إلى القبر ويسلم على الرسول، وعلى صاحبيه وينصرف.

أما الساكن في المدينة والمقيم فيها فلا يتردد على القبر، كلما دخل يذهب يصلي على الرسول لا يجوز هذا؛ هذا من اتخاذه عيدًا، أو يجتمعون عنده.

والعيد: مأخوذ من المعاودة والاعتياد.

فإذا كان اسمًا للمكان فهو المكان الذي يُقصد الاجتماع فيه وانْتِيابُه للعبادة أو لغيرها، كما أن المسجد الحرام ومنًى ومُزْدلِفَة وعرفة والمشاعِرَ جعلها الله عيدًا للحُنفاء ومثابةً، كما جعل أيام التعبُّد فيها عيدًا.

وكان للمشركين أعياد زمانية ومكانية، فلما جاء الله بالإسلام أبطلها، وعوّض الحنفاء منها: عيد الفطر، وعيد النحر، وأيام منًى، كما عوّضهم عن أعياد المشركين المكانية: بالكعبة البيت الحرام، وعرفة، ومنى، والمشاعر.

فاتخاذ القبور عيدًا هو من أعياد المشركين التي كانوا عليها قبل الإسلام، وقد نهى عنه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سَيّدِ القبور، منبِّهًا به على غيره.

فقال أبو داود: حدثنا أحمد بن صالح قال: قرأت على عبد الله بن نافع، أخبرني ابن أبي ذِئْب، عن سعيد المقبريِّ، عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ؛ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ»[١] صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وهذا إسناد حسن، رواته كلهم ثقات مشاهير.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (كما أن المسجد الحرام ومنًى ومُزْدلِفَة وعرفة والمشاعِرَ جعلها الله عيدًا للحُنفاء ومثابةً)، يعني يجتمعون فيها في أيام المناسك، يجتمعون في هذه المشاعر، فهي أعياد مكانية.

---

(١) سبق تخريجه (ص٥٧٩).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقد نهى عنه رسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **في سَيِّدِ القبور، منبِّهًا به على غيره)**، وهو قبر الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **«لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا»**: تجتمعون عنده، تجلسون.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا»)**، يعني: تُخْلُونها من الصلاة، بل اجعلوا لها نصيبًا من صلاتكم في الليل، ولا تجعلوها قبورًا لا تصلون فيها ولا تذكرن الله فيها.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(«وَصَلُّوا عَلَيَّ؛ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ»)**، الصلاة على الرسول مشروعة، ولكن لا يحتاج إنك تذهب إلى القبر وتصلي عنده وتسلم على الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتصلي عليه وتسلم عليه لا يحتاج هذا.

صلِّ على الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أي مكان وتبلغه صلاتك عليه من المشرق أو من المغرب تبلغه، يوكل الله بها ملائكة يبلغونها للرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: **«فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ»**: في المشرق أو في المغرب.

ولما رأى الحسن بن علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ رجلًا، أو الحسن بن الحسين، الحسن بن علي بن الحسين رأى رجلًا ينتاب القبر النبوي ناداه قال: تعالَ، أنت ماذا تريد وأنت تتردد على القبر؟ قال: أصلي وأسلم على الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

قال له: الرسول يقول: «**صَلُّوا عَلَيَّ حَيْثُ كُنْتُمْ؛ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي**»[1]، ما أنت ومن بالأندلس إلا سواء. يقول لهذا الرجل: ما أنت -حين تكون عند قبر الرسول- ومن بالأندلس إلا سواء.

❖ ❖ ❖

(١) سيأتي تخريجه (ص٥٨٤).

وقال أبو يَعْلى المَوْصِليُّ في «مسنده»: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا زيد بن الحُباب، حدثنا جعفر بن إبراهيم من ولَد ذي الجَناحين، قال: حدثنا علي بن عمر، عن أبيه، عن علي بن الحسين: «أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا يَجِيءُ إِلَى فُرْجَةٍ كَانَتْ عِنْدَ قَبْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَدْخُلُ فِيهَا، فَيَدْعُو، فَنَهَاهُ، وَقَالَ: أَلَا أُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ أَبِي، عَنْ جَدِّي، عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَ: «لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا، وَلَا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا؛ فَإِنَّ تَسْلِيمَكُمْ يَبْلُغُنِي أَيْنَمَا كُنْتُمْ». رواه أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي في «مختارته»[1].

وقال سعيد بن منصور في «السنن»: حدثنا حِبّان بن علي، قال: حدثني محمد بن عجلان، عن أبي سعيد مولى المَهْري، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا، وَلَا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ حَيْثُمَا كُنْتُمْ؛ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي».

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (حدثنا جعفر بن إبراهيم من ولَد ذي الجَناحين)، مِن ولد ذي الجناحين: الذي هو جعفر بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ لأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبر أن له جناحين في الجنة يطير بهما.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٢/ ١٥٠)، وعنه أبو يعلى المَوْصلي في مسنده (١/ ٣٦١)، ومن طريقه الضياء في المختارة (٢/ ٤٩).

وقال سعيد: حدثنا عبد العزيز بن محمد، قال: أخبرنا سهيل بن أبي سهيل، قال: «رآني الحسن بن الحسن بن على بن أبي طالب عند القبر، فناداني وهو في بيت فاطمة يتعشّى، فقال: هَلُمّ إلى العشاء، فقلت: لا أريده، فقال: ما لي رأيتك عند القبر؟ فقلت: سلمت على النبي ﷺ، فقال: إذا دخلت المسجد فسلِّمْ، ثم قال: إن رسول الله ﷺ قال: لَا تَتَّخِذُوا بَيْتِي عِيدًا، وَلَا تَتَّخِذُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ، لَعَنَ اللهُ اليَهُودَ؛ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ، وَصَلُّوا عَلَيَّ؛ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُمَا كُنْتُمْ»، ما أنتم ومَن بالأندلس إلا سواءٌ»[1].

فهذان المرسلان - من هذين الوجهين المختلفين - يدلّان على ثبوت الحديث؛ لا سيما وقد احتج من أرسله به، وذلك يقتضي ثبوته عنده، هذا لو لم يكن رُويَ من وجوه مسندة غير هذين، فكيف وقد تقدّم مسندًا؟

قال شيخ الإسلام -قدَّس الله رُوحَه-[2]: ووجه الدلالة: أن قبر رسول الله ﷺ أفضل قبر على وجه الأرض، وقد نهَى عن اتخاذه عيدًا؛ فقبر غيره أولى بالنهي، كائنًا من كان.

ثم إنه قرن ذلك بقوله: «وَلَا تَتَّخِذُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا» أي: لا تعطلوها من الصلاة فيها والدعاء والقراءة، فتكون بمنزلة القبور، فأمر بتحرّي النافلة في البيوت، ونهى عن تحرّي العبادة عند القبور، وهذا ضد ما عليه المشركون من النصارى وأشباههم.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٣/ ٥٧٦، ٥٧٧)، وابن أبي شيبة (٢/ ١٥٠) و(٣/ ٣٠)، وإسماعيل القاضي في فضل الصلاة على النبي ﷺ (ص٤٠، ٤١).
(٢) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (٢/ ١٧٢).

ثم إنه عقّب النهي عن اتخاذه عيدًا بقوله: «وَصَلُّوا عَلَيَّ؛ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُمَا كُنْتُمْ»، يشير بذلك إلى أن ما ينالني منكم من الصلاة والسلام، يحصل مع قربكم من قبري وبُعدكم، فلا حاجة بكم إلى اتخاذه عيدًا.

وقد حرَّف هذه الأحاديثَ بعضُ مَن أخذ شبهًا من النصارى بالشرك، وشبهًا من اليهود بالتحريف، فقال: هذا أمرٌ بملازمة قبره، والعُكوف عنده، واعتياد قصده وانتيابه، ونهي أن يُجعل كالعيد الذي إنما يكون في العام مرةً أو مرتين.

فكأنه قال: لا تجعلوه بمنزلة العيد الذي يكون من الحوْل إلى الحول، واقصدوه كلّ ساعة وكلّ وقت!

وهذا مراغمة ومحادّة لله، ومناقضة لما قصده الرسول ﷺ، وقَلْبٌ للحقائق، ونسبة الرسول ﷺ إلى التدليس والتلبيس بعد التناقض، فقاتل الله أهلَ الباطل أنّى يُؤفكون!

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ثم إنه قرن ذلك بقوله: «وَلَا تَتَّخِذُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا» أي: لا تعطلوها من الصلاة فيها والدعاء والقراءة)، يعني صلاة الليل وصلاة النافلة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقد حرّف هذه الأحاديث بعضُ من أخذ شبهًا من النصارى بالشرك، وشبهًا من اليهود بالتحريف، فقال: هذا أمرٌ بملازمة

قبره، والعُكوف عنده، واعتياد قصده وانتيابه، ونهي أن يُجعل كالعيد الذي إنما يكون في العام مرةً أو مرتين)، انظر التحريف - والعياذ بالله -.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فكأنه قال: لا تجعلوه بمنزلة العيد الذي يكون من الحوْل إلى الحول، واقصدوه كلّ ساعة وكلّ وقت!)، قبحهم الله.

ولا ريب أن مَنْ أمَرَ الناسَ باعتياد أمرٍ وملازمته وكثرة انتيابه بقوله: «لا تجعلوا عيدًا»؛ فهو إلى التلبيس وضدِّ البيان أقربُ منه إلى الدلالة والبيان، فإذا لم يكن هذا تنقيصًا فليس للتنقيص حقيقة فينا، كمن يرمي أنصار الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحزبه بدائِه ومُصابه ويَنْسَلُّ كأنه بريء.

ولا ريب أن ارتكاب كل كبيرة بعد الشرك أسهل إثمًا، وأخف عقوبةً من تعاطي مثل ذلك في دينه وسنته.

وهكذا غُيِّرت دياناتُ الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، ولولا أن الله أقام لدينه الأنصارَ والأعوان الذابّين عنه لجَرى عليه ما جرى على الأديان قبله.

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ولولا أن الله أقام لدينه الأنصارَ والأعوان الذابّين عنه لجَرى عليه ما جرى على الأديان قبله)، هذا الدين محفوظ -ولله الحمد- بحفظ الله له؛ كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر:٩]. ولم يجرِ عليه ما جرى على ما سبق من التحريف والتبديل والتغيير.

ولو أراد رسول الله ﷺ ما قاله هؤلاء الضُّلّال لم يَنْه عن اتخاذ قبور الأنبياء مساجد، ويلعنْ فاعلَ ذلك؛ فإنه إذا لعن من اتخذها مساجد يُعبدُ الله فيها، فكيف يأمر بملازمتها والعكوف عندها، وأن يُعتاد قصدُها وانتيابها، ولا تُجعل كالعيد الذي يجيء من الحَوْل إلى الحول؟

وكيف يسأل ربَّه سبحانه أن لا يجعل قبره وثنًا يعبد؟ وكيف يقول أعلم الخلق بذلك: ولولا ذلك لَأُبرز قبرُه، ولكن خُشي أن يُتخذ مسجدًا؟

وكيف يقول: «لَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ حَيْثُمَا كُنْتُمْ»؟ وكيف لم يفهم أصحابه وأهل بيته من ذلك ما فهمه هؤلاء الضُّلال، الذين جمعوا بين الشرك والتحريف؟

وهذا أفضل التابعين من أهل بيته علي بن الحسين رضي الله عنهما نهى ذلك الرجلَ أن يتحرّى الدعاء عند قبره ﷺ، واستدل بالحديث، وهو الذي رواه وسمعه من أبيه الحسين، عن جده علي رضي الله عنه، وهو أعلم بمعناه من هؤلاء الضلال.

وكذلك ابن عمه الحسن بن الحسن شيخُ أهل بيته، كَرِه أن يقصد الرجلُ القبرَ إذا لم يكن يريد المسجد، ورأى أن ذلك من اتخاذه عيدًا.

قال شيخنا[1]: فانظر هذه السُّنَّة، كيف مخرجُها من أهل المدينة وأهل البيت، الذين لهم من رسول الله ﷺ قُربُ النسب، وقرب الدار؛ لأنهم إلى ذلك أحوج من غيرهم، وكانوا له أضبطَ.

---

(١) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ١٧٦).

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قال شيخنا: فانظر هذه السنّة، كيف مخرجُها من أهل المدينة وأهل البيت، الذين هم من رسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قُربُ النسب، وقرب الدار! لأنهم إلى ذلك أحوج من غيرهم، وكانوا له أضبط)**، هذا النهي وهذا التحريم جاء من قبل أهل بيت الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ذرية الحسن والحسين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا من ذرية الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حذروا من هذا.

فصل

ثم إن في اتخاذ القبور أعيادًا من المفاسد العظيمة التي لا يعلمها إلا الله ما يغضبُ لأجله كلُّ مَنْ في قلبه وقارٌ لله، وغَيْرة على التوحيد، وتهجين وتقبيح للشرك، ولكن:

.... مَـا لِجُـرْحٍ بِمَـيِّـتٍ إِيـلَامُ[1]

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**ثم إن في اتخاذ القبور أعيادًا من المفاسد العظيمة التي لا يعلمها إلا الله ما يغضبُ لأجله كلُّ مَنْ في قلبه وقارٌ لله**)، اتخاذ القبور أعيادًا: يعني يعتادون التردد عليها، أعيادًا مكانية يعتادون التردد عليها والجلوس عندها.

وهذا يسبب محاذير أعظمها الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ؛ فإنهم يأتيهم الشيطان، فيقول لهم: إن هذا القبر صاحبه ولي من أولياء الله، وإن له تصرفًا، فاطلبوا منه حوائجكم وما أشبه ذلك من الوساوس الشيطانية حتى يتخذوه وثنًا، ولهذا قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ**»[2]، دعا ربه أن يحمي قبره؛ فدل على أن الفتنة بالقبور ستقع، وأنها تُتخذ أوثانًا تعبد من دون الله.

---

(١) هذا عجز بيت للمتنبي، انظر ديوانه (ص١٦٤)، والبيت على التمام:

مَـنْ يَـهُـنْ يَـسْـهُـلِ الْهَـوَانُ عَـلَـيْـهِ ۝ وَمَـا لِجُـرْحٍ بِمَـيِّـتٍ إِيـلَامُ

(٢) سبق تخريجه (ص٥٣٧).

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تَتَّخِذُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَلَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا**»[١]، يعني عيدًا مكانيًّا يترددون عليه ويجتمعون عنده؛ لأن هذا وسيلة إلى الشرك، ثم ينتشر هذا في سائر القبور، من قبر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى سائر القبور كما حصل في هذه الأمة بعد القرون المفضلة انتشر فيها هذا.

إلى أن جاء شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ وتلميذه ابن القيم، والأئمة المجددون والدعاة إلى الله فخلصوا الأمة من هذا الشر، ودعوهم إلى ترك الغلو في القبور، وإلى عبادة الله وحده، وأن القبور لا تتخذ لأجل التبرك وطلب الحوائج، ولا يغلى في القبور، الغلو في القبور يصيرها أوثانًا تعبد من دون الله، يصيرها أوثانًا، كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا**»، يصيرها أوثانًا تعبد من دون الله، والشيطان حاضر، والجهل كثير، لولا أن قيض الله لهذه الأمة من الدعاة المصلحين الذين بينوا للناس مفاسد التعلق بالقبور.

ولكن لا يزال الكثير في الأمصار الأخرى التي لم تصل إليها دعوة الدعاة لا يزال الشر فيها يستشري في القبور؛ يبنى عليها أضرحة ويوضع لها صناديق النذور، ويوضع لها سدنة، يوظف لها سدنة يجمعون هذه النذور وهذه الصدقات حتى إن دولهم تتخذها موردًا من موارد الدولة تستثمرها.

وهذا من الفتنة -والعياذ بالله- ومن فشو الجهل، ومن سكوت العلماء عن البيان والتذكير والتحذير من الفتنة في القبور، الفتن كثيرة، لكن أشدها الفتنة في القبور وما يسمونه قبور الأولياء والصالحين.

---

(١) سبق تخريجه (ص٥٨٤).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ثم إن في اتخاذ القبور أعيادًا من المفاسد العظيمة التي لا يعلمها إلا الله ما يغضبُ لأجله كلُّ مَنْ في قلبه وقارٌ لله، وغَيْرة على التوحيد، وتهجين وتقبيح للشرك، ولكن ما لجُرْحٍ بميِّتٍ إيلامُ)، إذا فشا هذا الغلو في القبور فإن التذكير يقل نفعه مثل الميت، في الجسم الميت الذي لو جرحته لم يتأثر بهذا، ما لجُرْحٍ بميِّتٍ إيلامُ.

فعلى علماء المسلمين أن يتنبهوا لهذا الأمر، وأن ينقذوا الأمة من هذه الفتنة العظيمة.

لكن مع الأسف كثير من هؤلاء العلماء يدعون الناس إلى التعلق بالقبور، وعلى الأقل الذي لا يدعو إلى هذا لا ينكر هذا الأمر، يسكت، وهذا حرام على العالم أنه يسكت، يرى الناس على الشرك وعلى الجهل ويسكت، لا يسعه هذا، هذا من كتمان العلم.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة:١٥٩-١٦٠].

فيجب أن يتنبه لهذا، ويجب عليكم -أنتم- إذا رجعتم إلى تلك البلاد أن تقوموا بالدعوة إلى الله والتذكير والتحذير، ولا يحقرن أحدٌ منكم نفسه أن يقدم نصحًا وموعظة على حسَب استطاعته.

فمن مفاسد اتخاذها أعيادًا: الصلاة إليها، والطواف بها، وتقبيلها واستلامها، وتعفير الخدود على تُرابها، وعبادة أصحابها، والاستعانة بهم، وسؤالُهم النصر والرزق والعافية، وقضاء الديون، وتفريج الكربات، وإغاثة اللهفات، وغير ذلك من أنواع الطلبات، التي كان عُبّاد الأوثان يسألونها أوثانهم.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فمن مفاسد اتخاذها أعيادًا: الصلاة إليها)**، الصلاة إليها: يعني في استقبالها بالصلاة، وقد نهى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الصلاة إلى القبور، والصلاة عندها؛ سدًّا لوسائل الشرك، ومنعًا للغلو في القبور.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والطواف بها)**، والطواف بها كما يطاف بالكعبة.

ليس على وجه الأرض شيء يطاف به لا جبل ولا قبر ولا بنية ولا مقام من المقامات إلا الكعبة المشرفة، إلا بيت الله العتيق.

﴿وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج:٢٩]، فالبيت العتيق هو الذي يطاف به تقربًا على الله سبحانه وليس تقربًا إلى البيت، تقربًا لله لأن الله أمره بهذا.

﴿وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾: الذي هو الكعبة المشرفة.

وسمي بالعتيق؛ قيل: لأنه قديم من عهد إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، أو قبل عهد إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

وقيل العتيق: الذي أعتقه الله من الجبابرة فلم يتسلطوا عليه، ولهذا لما جاء ملك الحبشة بالفيل ليهدم الكعبة، ووصل إلى المُغَمِّس حول الحرم برك الفيل، جعلوا يزجرونه فإذا وجهوه إلى غير الكعبة قام وهرول، وإذا وجهوه على الكعبة برك، حبسه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فباء هذا الملك الظالم الكافر بالخسران، وأرسل الله عليهم الطير الأبابيل، وهي طيور الخطاطيف، كل طائر معه ثلاثة أحجار: حجر بمنقاره، وحجران في رجليه، فتوسطت القوم وأمطرتهم بهذه الحجارة، يدخل الحجر من رأسه ويخرج من دبره؛ حتى أصبحوا كلهم هلكى في مكانهم.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾: يعني جماعات.

﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾: يعني من النار.

﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ﴾ [الفيل:١-٥]: العصف: هو التبن، مأكول أي أكلته البهائم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وتقبيلها واستلامها)**، كما يفعل مع الكعبة المشرفة، ليس هناك ما يطاف به على وجه الأرض إلا الكعبة المشرفة، ولا شيء يقبل ويستلم إلا الحجر الأسود والركن اليماني.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وتعفير الخدود على تُرابها)**، يتمرغون على القبر، ويمرغون خدودهم على القبر -نسأل الله العافية- فتنة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وعبادة أصحابها، والاستعانة بهم)**، يعبدونهم من دون الله بالدعاء والتضرع وطلب الحوائج منهم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وسؤالُهم النصر والرزق والعافية، وقضاء الديون، وتفريج الكربات، وإغاثة اللهفات)**، هذا موجود عند القبور التي اتخذت أوثانًا تعبد من دون الله عَزَّوَجَلَّ في كثيرٍ من بلاد المسلمين -ولا حول ولا قوة إلا بالله- لعدم الإنكار عليهم وعدم البيان؛ لأنهم جهال؛ لم يأتهم مَن يبين لهم ويرشدهم ويدعوهم إلى الله.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وغير ذلك من أنواع الطلبات التي كان عُبّاد الأوثان يسألونها أوثانهم)**، شابهوا عباد الأوثان، ما هو الفرق بين القبر وبين الوثن؟! إذا دعي من دون الله صار وثنًا.

فلو رأيت غلاة المتخذين لها عيدًا، وقد نزلوا عن الأكوار والدواب إذا رأوها من مكان بعيد، فوضعوا لها الجِباه، وقَبّلوا الأرض، وكشفوا الرؤوس، وارتفعت أصواتهم بالضجيج، وتباكَوْا حتى يُسمع لهم النشيج، ورأوا أنهم قد أربوْا في الربح على الحجيج، فاستغاثوا بمن لا يُبدئ ولا يُعيد، ونادَوا ولكن من مكان بعيد.

حتى إذا دنَوا منها صلَّوا عند القبر ركعتين، ورأوا أنهم قد أحرزوا من الأجر، ولا أجر من صلى إلى القبلتين، فتراهم حول القبر رُكّعًا سُجّدًا يبتغون فضلًا من الميت ورضوانًا، وقد ملؤوا أكُفَّهم خيبة وخسرانًا!

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فلو رأيت غلاة المتخذين لها عيدًا، وقد نزلوا عن الأكوار والدواب)، إذا أقبلوا عليها راكبين على دوابهم نزلوا؛ احترامًا للقبر وصاروا يمشون.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إذا رأوها من مكان بعيد، فوضعوا لها الجِباه، وقَبّلوا الأرض، وكشفوا الرؤوس، وارتفعت أصواتهم بالضجيج، وتباكَوْا حتى يُسمع لهم النشيج، ورأوا أنهم قد أربوْا في الربح على الحجيج)، صاروا أشد من الحجاج إلى بيت الله الحرام إذا رأوا البيت العتيق، وطافوا به وتضرعوا إلى الله، اتخذوا القبور بدلًا من البيت العتيق الذي جعله الله مثابة للناس وأمنًا.

صاروا يحجون إليها كما يحج إلى البيت العتيق، وألفوا مناسك لحج القبور والدعاء الذي يقال عند القبور، ألفوا مناسك مثلما تؤلف المناسك بالكعبة والحج إلى بيت الله.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(ونادوا ولكن من مكان بعيد)،** ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [سبأ:٥٢]. لا يسمعونهم.

الأموات لا يسمعونهم؛ لأنهم بعيدون عنهم، لأن الأموات في الدار الآخرة، في البرزخ، وهؤلاء في الدنيا لا يسمعونهم؛ ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ [فاطر:١٤]. أموات، ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ [النحل:٢١].

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(حتى إذا دنَوا منها صلَّوا عند القبر ركعتين، ورأوا أنهم قد أحرزوا من الأجر ولا أجر من صلى إلى القبلتين)**، حتى إنهم وصلوا إلى القبر صلوا عنده ركعتين، عند القبر صلوا عنده ركعتين.

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى عن اتخاذ القبور مساجد، فلا يصلى عندها خوفًا من الشرك. «**إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ؛ فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ**»(١)، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**»(٢).

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(حتى إذا دنَوا منها صلَّوا عند القبر ركعتين)**، تقربًا إلى القبر، يصلون تقربًا إلى القبر كما يصلي من يدخل بيت الله ركعتي تحية المسجد.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(ورأوا أنهم قد أحرزوا من الأجر، ولا أجر من صلى إلى القبلتين)**، من صلى إلى القبلتين: يعني أول المسلمين الذين صلوا إلى بيت

---

(١) سبق تخريجه (ص٥٣٦).

(٢) سبق تخريجه (ص٥٣٧).

المقدس ثم لما حولت القبلة صلوا إلى الكعبة، فحازوا الأجرين: أجر الصلاة إلى بيت المقدس، والصلاة إلى البيت العتيق.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**فتراهم حول القبر رُكّعًا سُجّدًا يبتغون فضلًا من الميت ورضوانًا**)، فبدل من أن يبتغوا فضلًا من الله ورضوانًا يبتغون من الميت!

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**وقد ملؤوا أكُفَّهم خيبة وخسرانًا**)، بدل ما أملوه حصل لهم عكس ما أملوه، فحصلوا على الخيبة والخسران!

فَلِغَيْر الله بل للشيطان ما يُراق هناك من العَبَرات، ويرتفع من الأصوات، ويُطلب من الميت من الحاجات، ويُسأل من تفريج الكُربات، وإغناء ذوي الفاقات، ومعافاة أولي العاهات والبليّات.

ثم انثنوا بعد ذلك حول القبر طائفين، تشبيهًا له بالبيت الحرام الذي جعله الله مباركًا وهُدًى للعالمين، ثم أخذوا في التقبيل والاستلام، أرأيت الحجر الأسود وما يفعل به وفْدُ البيت الحرام؟

ثم عَفّروا لَدَيْه تلك الجباه والخدود، التي يعلم الله أنها لم تُعفَّر كذلك بين يديه في السجود، ثم كمّلوا مناسك حج القبر بالتقصير هناك والحِلاق، واستمتعوا بخَلاقهم من ذلك الوثن؛ إذ لم يكن لهم عند الله من خَلاق، وقربوا لذلك الوثن القرابين، وكانت صلاتهم ونُسكهم وقُربانهم لغير الله رب العالمين.

فلو رأيتهم يهُنِّئ بعضهم بعضًا، ويقول: أجزل الله لنا ولكم أجرًا وافرًا وحظًّا، فإذا رجعوا سألهم غلاة المتخلّفين أن يبيع أحدهم ثواب حجة القبر بحجة المتخلف إلى البيت الحرام، فيقول: لا، ولو بحجِّك كل عام.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فَلِغَيْر الله بل للشيطان ما يُراق هناك من العَبَرات)، يبكون بكاءً شديدًا عند القبور، وإذا دخلوا المساجد لا تقع منهم قطرة دمع إلى بيوت الله عَزَّوَجَلَّ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ويُطلب من الميت من الحاجات، ويُسأل من تفريج الكُربات، وإغناء ذوي الفاقات، ومعافاة أولي العاهات والبليَّات)**، كل هذا يطلبونه من الأموات بدلًا من أن يطلبوه من رب العالمين الذي خلقهم لعبادته وأمرهم بدعائه وأمرهم بطلب الحوائج منه عدلوا عن ذلك إلى القبور والعياذ بالله.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ثم انثنوا بعد ذلك حول القبر طائفين)**، يطوفون به، يطوفون بالقبور يشبهونه بالكعبة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ثم أخذوا في التقبيل والاستلام، أرأيت الحجر الأسود وما يفعل به وفْدُ البيت الحرام؟)**، الحجر الأسود الذي أمر الله جَلَّ وَعَلَا باستلامه وتقبيله في الطواف، يشبهون القبور بالحجر الأسود الذي هو شعيرة من شعائر الله عَزَّ وَجَلَّ!

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ثم عفّروا لَدَيْه تلك الجباه والخدود، التي يعلم الله أنها لم تُعفَّر كذلك بين يديه في السجود)**، يخشعون للقبور ما لا يخشعون لله عَزَّ وَجَلَّ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ثم كمّلوا مناسك حج القبر بالتقصير هناك والحِلاق)**، يحلقون رؤوسهم ويقصرون للقبر، نسأل الله العافية.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(واستمتعوا بخَلاقهم من ذلك الوثن؛ إذ لم يكن لهم عند الله من خَلاق)**، ﴿فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ﴾ [التوبة:٦٩]: يعني نصيبهم من القبر، والقبر لا ينفعهم، وتركوا الاستمتاع بنصيبهم من الجنة، بنصيبهم من الجنة؛ ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ [البقرة:٢٠٠]: يعني نصيب.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقربوا لذلك الوثن القرابين)**، يذبحون لها كما يذبح الحجاج الهدي في منى.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فلو رأيتهم يهَنِّئ بعضهم بعضًا، ويقول: أجزل الله لنا ولكم أجرًا وافرًا وحظًّا)**، يهنئ بعضهم بعضًا بهذا العمل الفظيع والشرك الشنيع -والعياذ بالله-، هل يهنئه بالشرك، هل يهنئه بالخسران؟! نسأل الله العافية، هل هذا يهنأ به؟!

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإذا رجعوا سألهم غلاة المتخلِّفين أن يبيع أحدهم ثواب حجة القبر بحجة المتخلف إلى البيت الحرام، فيقول: لا، ولو بحجِّك كل عام)**، إذا رجعوا إلى بلادهم سألهم أشباههم من المقيمين هناك أن يعطوهم هذه الحجة إلى القبر، ولهم كل حجاتهم التي حجوها إلى الكعبة المشرفة! هل بعد هذا الخسران من خسران؟!! ثم يرفضون، يقولون: لا، لا نعطيكم ولا حجة واحدة من حجنا إلى القبور!

هذا؛ ولم نتجاوز فيما حكينا عنهم، ولا استقصينا جميع بِدَعهم وضلالهم؛ إذ هي فوق ما يخطر بالبال، أو يدور في الخيال، وهذا كان مبدأ عبادة الأصنام في قوم نوح كما تقدم.

وكل من شَمَّ أدنى رائحة من العلم والفقه يعلم أن من أهمّ الأمور: سَدّ الذريعة إلى هذا المحظور، وأن صاحب الشرع أعلم بعاقبة ما نهى عنه وما يؤول إليه، وأحكمُ في نهْيه عنه وتوعُّده عليه، وأن الخير والهُدَى في اتباعه وطاعته، والشرّ والضلال في معصيته ومخالفته.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**هذا؛ ولم نتجاوز فيما حكينا عنهم، ولا استقصينا جميع بِدَعهم وضلالهم؛ إذ هي فوق ما يخطر بالبال، أو يدور في الخيال**)، الشيخ لا يقول هذا من عنده أو من تخيله، إنما هذا بعض الواقع، الذي ذكره بعض الواقع من فعل هؤلاء، ولم يذكره إلا من أجل التحذير من هذا الشيء.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وهذا كان مبدأ عبادة الأصنام في قوم نوح كما تقدم**)، قوم نوح كانوا على دين آدم، وكان فيهم رجال صالحون، ماتوا في عام واحد ففقدوهم وصاروا يبكون عليهم ويدعون لهم، فقدوهم.

جاءهم الشيطان وقال: انصبوا تصاويرهم على مجالسهم؛ لأجل أن تتذكروا عبادتهم فتجتهدوا في العبادة، ففعلوا هذا -والعياذ بالله-، لكن كان هناك علماء، لم يقع الشرك من أول ما نُصبت الصور؛ لأن العلماء يَنْهَوْنَهم.

ولما مات العلماء جاءهم الشيطان وقال لهم: إن آباءكم لم ينصبوا هذه الصور إلا ليعبدوها، وبها كانوا يسقون المطر، فعبدوها من دون الله، ومن ذلك حدث الشرك في الأرض.

جاءهم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، بعثه الله عَزَّ وَجَلَّ يدعوهم إلى التوحيد، يريد منهم الرجوع إلى دين التوحيد، فأبوا، ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح:٢٣]. فهذه أسماء الصالحين الذين عبدوهم من دون الله بسبب دعوة الشيطان.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وكل من شَمَّ أدنى رائحة من العلم والفقه يعلم أن من أهمّ الأمور: سَدّ الذريعة إلى هذا المحظور)**، ليس هناك شك في أن سد الذرائع أمر مطلوب التي تفضي إلى الشرك، تفضي إلى الحرام، الوسيلة لها حكم الغاية، كل شيء يفضي إلى حرام أو إلى شرك فإنه يجب سده ولا يتساهل فيه، ومن ذلك: سد الغلو في القبور.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وأن صاحب الشرع أعلم بعاقبة ما نهى عنه وما يؤول إليه)**، الشرع جاء بسد الذرائع، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام:١٠٨]. هذا من سد الذرائع.

وأمثال هذا في السنة، سد الذرائع أمر معلوم من الدين، كل ما يفضي إلى شر، إلى الشرك أو إلى معصية أو إلى حرام فإنه يجب سد الطريق إليه.

هناك الآن من دعاة الضلال من يستنكر سد الذرائع ويستهزئ بسد الذرائع، مع أن هذا موجود في القرآن والسنة وهدي السلف الصالح، يستهزئون بسد الذرائع!!

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وأن الخير والهُدَى في اتباعه وطاعته، والشرّ والضلال في معصيته ومخالفته)**، اتباعه وطاعته: يعني اتباع الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وطاعته الرسول، والشر في مخالفته ومعصيته؛ لأنه مبلغ عن الله عَزَّوَجَلَّ؛ ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر:٧].

ورأيتُ لأبي الوفاء بن عَقِيل في ذلك فصْلًا حسنًا، فذكرته بلفظه، قال:

لما صعُبت التكاليف على الجهّال والطَّغام عدلوا عن أوضاع الشرع إلى تعظيم أوضاعٍ وضعوها لأنفسهم، فسهلت عليهم، إذ لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم.

قال: وهم عندي كفار بهذه الأوضاع، مثل تعظيم القبور وإكرامها بما نهى عنه الشرع، من إيقاد النيران وتقبيلها وتخليقها، وخطاب الموتى بالحوائج، وكَتْب الرّقاع فيها: يا مولاي، افعل بي كذا وكذا! وأخذ تربتها تبرُّكًا، وإفاضة الطِّيب على القبور، وشد الرحال إليها، وإلقاء الخِرَق على الشجر، اقتداءً بمن عبد اللّات والعزّى.

والويلُ عندهم لمن لم يُقَبِّل مَشهد الكفّ، ولم يتمسّح بآجُرّة مسجد الملموسة يوم الأربعاء، ولم يقل الحمالون على جنازته: الصديق أبو بكر أو محمد أو علي، أو لم يعقد على قبر أبيه أزجًا بالجِصّ والآجُرِّ، ولم يخرق ثيابه إلى الذيل، ولم يُرِق ماء الورد على القبر». انتهى[(١)].

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (لأبي الوفاء بن عَقيل)، ابن عقيل الحنبلي إمام جليل من فقهاء الحنابلة، ومن قدمائهم، له كتاب في الفقه اسمه: «الفصول» في الفقه الحنبلي.

(١) يعني كلام ابن عَقِيل، وقد أورده ابن الجوزي في تلبيس إبليس (ص٣٥٤).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(لما صعُبت التكاليف على الجهّال والطَّغام عدلوا عن أوضاع الشرع إلى تعظيم أوضاعٍ وضعوها لأنفسهم)**، لما ثقلت عليهم أوامر الشرع وواجبات الشرع عدلوا إلى البدع فابتدعوا أشياء من عند أنفسهم استحسنوها بديلًا عن أحكام الشرع.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فسهلت عليهم، إذ لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم)**، استسهلوها؛ لأنها من صنيعهم ولم يدخلوا تحت أمر غيرهم، وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وكَتْب الرّقاع فيها: يا مولاي، افعل بي كذا وكذا!)**، يقدمون لهم أوراقًا بها طلبات للقبور، يقدمون لهم أوراقًا ويضعونها على أضرحتهم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وأخذ تربتها تبرُّكًا)**، يأخذون من تراب القبر الذي فوق القبر يأخذونه ويتبركون به.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وإفاضة الطِّيب على القبور)**، يطيبون القبور؛ يصبون عليها العطور، يأتون لها بالبخور، شيء لا يصنعونه في المساجد في بيوت الله عَزَّوَجَلَّ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وشد الرحال إليها)**، يسافرون إليها كما يسافر إلى البيت العتيق وإلى المسجد النبوي وإلى بيت المقدس.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وإلقاء الخِرَق على الشجر، اقتداءً بمن عبد اللّات والعزّى)**، يربطون الخرق على الشجر تبركًا بذلك.

يفعل في جبل عرفات شيء من هذا الآن: يعقدون على الشجر، ويكتبون رسائل، يأخذون الحجارة، ويأخذون من تراب الجبل يتبركون به معهم! كل الجبال ما الذي فيها؟!

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والويلُ عندهم لمن لم يُقَبِّل مَشهد الكفّ، ولم يتمسّح بآجُرّة مسجد الملموسة يوم الأربعاء)**، هذه قبور عندهم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(أو لم يعقد على قبر أبيه أزجًا بالجِصّ والآجرّ)**، الأزج: يعني قبة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(انتهى)**، كلام ابن عقيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ومن جمع بين سُنة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في القبور، وما أمر به ونهى عنه، وما كان عليه أصحابه، وبين ما عليه أكثر الناس اليوم: رأى أحدهما مضادًّا للآخر، مناقضًا له، بحيث لا يجتمعان أبدًا.

فنهى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الصلاة إلى القبور، وهؤلاء يصلون عندها.

ونهى عن اتخاذها مساجدَ، وهؤلاء يبنون عليها المساجد، ويسمونها مَشاهدَ؛ مضاهاةً لبيوت الله.

ونهى عن إيقاد السُّرج عليها، وهؤلاء يوقفون الوقوف على إيقاد القناديل عليها.

ونهى أن تُتخذ عيدًا، وهؤلاء يتخذونها أعيادًا ومناسك، ويجتمعون لها كاجتماعهم للعيد أو أكثر.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ومن جمع بين سُنة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في القبور، وما أمر به ونهى عنه، وما كان عليه أصحابه، وبين ما عليه أكثر الناس اليوم)، يعني القبور، القبور يتوسط فيها فلا تهان؛ ولا تداس ويجلس عليها، يوطأ عليها، لا تلقى عليها القاذورات والقمامات كما يفعله بعض الجهال، ولا يغلى فيها؛ يعني وسط، يتوسط في أمر القبور من غير غلو ومن غير تطرف وإهانة.

القبور لها حرمة تحترم، وتصان عن التطرف وعن وضع الأشياء عليها، وعن المشيء عليها، وعن الجلوس عليها، تحترم، لكن لا يغلى فيها، يطلب

منها ما يطلب من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من قضاء الحوائج وتفريج الكربات وغير ذلك، فالدين وسط -ولله الحمد- بين الغالي والجافي.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومن جمع بين سُنة رسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **في القبور، وما أمر به ونهى عنه، وما كان عليه أصحابه، وبين ما عليه أكثر الناس اليوم: رأى أحدهما مضادًّا للآخر، مناقضًا له، بحيث لا يجتمعان أبدًا)**، أفعال هؤلاء لا تتفق مع سنة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في القبور.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فنهى رسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **عن الصلاة إلى القبور، وهؤلاء يصلون عندها)**، نهى عن الصلاة إلى القبور، استقبال القبور؛ لأن هذه وسيلة إلى الشرك، وتشبه بعباد الأصنام.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ونهى عن اتخاذها مساجد، وهؤلاء يبنون عليها المساجد، ويسمونها مَشاهد؛ مضاهاةً لبيوت الله)**، نهى عن البناء على القبور، بناء المساجد على القبور، وهؤلاء يبنون عليها ويسمونها المشاهد: مشهد فلان، ومشهد فلان!

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(نهى عن إيقاد السُّرج عليها)**، القبور لا تضاء، لا يجعل فيها كهرباء، ولا ويجعل فيها إنارة، حرام هذا، لا يجوز؛ لأن هذا وسيلة إلى الشرك والتعظيم.

أما إذا احتاجوا إلى دفن الميت في الليل فلا بأس أن يأخذوا معهم سراجًا أو يأخذوا معهم مصباحًا كهربائيًّا بقدر الحاجة، ثم يرجعون به ولا يتركونه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهؤلاء يوقفون الوقوف على إيقاد القناديل عليها)**، يوقفون الأوقاف على إضاءة القبور، عكس سنة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ونهى أن تُتخذ عيدًا)**، يتخذها عيدًا: يعني اجتماعات عندها، يجتمعون عندها، يترددون عليها.

وأمر بتسويتها، كما روى مسلم في «صحيحه» عن أبي الهَيّاج الأَسَدي، قال: قال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَلَا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ أَنْ لَا أَدَعَ تِمْثَالًا إِلَّا طَمَسْتُهُ، وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتُهُ»(١).

وفي «صحيحه» أيضًا عن ثُمامةَ بن شُفَيٍّ، قال: «كُنَّا مَعَ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ بِأَرْضِ الرُّومِ بِرُودِسَ، فَتُوُفِّيَ صَاحِبٌ لَنَا، فَأَمَرَ فَضَالَةُ بِقَبْرِهِ فَسُوِّيَ، ثُمَّ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْمُرُ بِتَسْوِيَتِهَا»(٢).

وهؤلاء يبالغون في مخالفة هذين الحديثين، ويرفعونها من الأرض كالبيت، ويعقدون عليها القِباب.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وأمر بتسويتها)، بتسويتها: يعني عدم رفعها، لا يرفع القبر عن الأرض إلا قدر شبر؛ حتى يُعلم أنه قبر، يوضع عليه نصائب حتى يعلم أنه قبر؛ فلا يُمتهن، ولا يزاد على شبر.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (عن أبي الهَيّاج الأسدي)، أبو الهياج الأسدي تابعيٌّ، يروي عن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (قال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَلَا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ أَنْ لَا أَدَعَ تِمْثَالًا إِلَّا طَمَسْتُهُ)، تمثالًا: يعني صورة مجسَّمة، هذا التمثال: الصورة المجسمة.

---

(١) أخرجه مسلم (٩٦٩).

(٢) أخرجه مسلم (٩٦٨).

ويطلق التمثال أيضًا على الصورة الرسم، ولو كانت غير مجسمة، فتسمى تمثالًا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتُهُ)**، مشرفًا: يعني مرتفعًا أكثر من العادة؛ لأنه إذا كان مرتفعًا التفت إليه العوامُّ، وتعلقوا به.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(عن ثُمامةَ بن شُفَيٍّ، قال: كُنَّا مَعَ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ بِأَرْضِ الرُّومِ بِرُودِسَ، فَتُوُفِّيَ صَاحِبٌ لَنَا، فَأَمَرَ فَضَالَةُ بِقَبْرِهِ فَسُوِّيَ، ثُمَّ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **يَأْمُرُ بِتَسْوِيَتِهَا)**؛ بالقبور، يعني عدم رفعها.

ونهى عن تجْصيص القبر والبناء عليه، كما روى مسلم في «صحيحه» عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «نَهَى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ تَجْصِيصِ الْقَبْرِ، وَأَنْ يُقْعَدَ عَلَيْهِ، وَأَنْ يُبْنَى عَلَيْهِ»[(١)].

ونهى عن الكتابة عليها، كما روى أبو داود في «سننه»، عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى أَنْ تُجَصَّصَ الْقُبُورُ، وَأَنْ يُكْتَبَ عَلَيْهَا»[(٢)]. قال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

وهؤلاء يتخذون عليها الألواح، ويكتبون عليها القرآن وغيره.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(ونهى عن تجْصيص القبر والبناء عليه)**، تجصيص القبر: تلوينه بالألوان والأصباغ من الجص وغيره، فلا يلون ولا يوضع عليه أصباغ ولا يوضع عليه شيء يلفت النظر.

أما أن الذي يريد السلام عليه وزيارته الشرعية يضع عليه علامة لا يعرفها غيره لا بأس، يضع عنده حجر، يضع عنده خط لا بأس، العلامة التي لا يعرفها غير من وضعها.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(عن جابر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **قال: «نَهَى رَسُولُ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **عَنْ تَجْصِيصِ الْقَبْرِ، وَأَنْ يُقْعَدَ عَلَيْهِ، وَأَنْ يُبْنَى عَلَيْهِ»)**، عن تجصيص القبر، وأن يقعد عليه.

---

(١) أخرجه مسلم (٩٧٠).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٢٢٥)، والترمذي (١٠٥٢)، والنسائي (٢٠٢٧)، وابن ماجه (١٥٦٢، ١٥٦٣).

انظر! نهى عن الأمرين: عن الغلو وعن التساهل، القعود عليه هذا إهانة للقبر هذا لا يجوز، كذلك الغلو فيه ورفعه نهى عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أمر بالوسط.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(ونهى عن الكتابة عليها، كما روى أبو داود في «سننه»، عن جابر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **«أَنَّ رَسُولَ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **نَهَى أَنْ تُجَصَّصَ القُبُورُ، وَأَنْ يُكْتَبَ عَلَيْهَا»)**، الآن يضعون لوحات من الرخام ومكتوب عليها اسمه، وتاريخ وفاته، وترجمته! هذا عصيان للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ونهى أن يُزاد عليها غير ترابها، كما روى أبو داود من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أيضًا: «أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى أَنْ يُجَصَّصَ القَبْرُ، أَوْ يُكْتَبَ عَلَيْهِ، أَوْ يُزَادَ عَلَيْهِ»(١).

وهؤلاء يزيدون عليه - سوى التراب - الآجُرَّ والأحجار والجصّ.

ونهى عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يُبنى القبر بآجر، وأوصى أن لا يُفعل ذلك بقبره. وأوصى الأسود بن يزيد أن لا تجعلوا على قبري آجُرًّا. وقال إبراهيم النَّخَعي: كانوا يكرهون الآجُرّ على قبورهم. وأوصى أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين حضرته الوفاةُ: أن لا تضربوا عليّ فسطاطًا.

كره الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ أن يُضرب على القبر فسطاط.

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**ونهى أن يُزاد عليها غير ترابها**)، تراب القبر يكفيه، الذي يخرج من القبر يرد إليه ويكفيه سد القبر، ويرفع قدر شبر.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**ونهى عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يُبنى القبر بآجر، وأوصى أن لا يُفعل ذلك بقبره**)، عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ أمير المدينة في عهد عبد الملك بن مروان، الخليفة العادل العابد نهى أن يغلى في قبره وأن يوضع عليه شيء يخالف ما عليه قبور المسلمين.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٢٢٦).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال إبراهيم النخَعي: كانوا يكرهون الآجُرّ على قبورهم)**، الآجُر: هو الطين المطبوخ الذي يسمى الفخارَ، طين قوي.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وأوصى أبو هريرة** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **حين حضرته الوفاةُ: أن لا تضربوا عليّ فسطاطًا)**، الفسطاط: يعني خيمة.

والمقصود أن هؤلاء المعظمين للقبور، والمتخذينها أعيادًا، الموقدين عليها السرج، الذين يبنون عليها المساجد والقباب: مناقضون لما أمر به رسول الله ﷺ، محادُّون لما جاء به.

وأعظم ذلك اتخاذها مساجد، وإيقاد السرج عليها، وهو من الكبائر، وقد صرّح الفقهاء من أصحاب أحمد وغيرهم بتحريمه.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والمقصود أن هؤلاء المعظمين للقبور، والمتخذينها أعيادًا، الموقدين عليها السرج، الذين يبنون عليها المساجد والقباب: مناقضون لما أمر به رسول الله** ﷺ، **محادُّون لما جاء به)**، الرسول ﷺ أمر باحترام القبور وعدم امتهانها، والإساءة إلى الأموات بإلقاء القمامات على قبورهم أو الوقوف عليها أو المشي عليها أو القعود عليها، كل ذلك نهى عنه الرسول ﷺ؛ لأن فيه إهانة لأموات المسلمين.

كما أنه نهى عن الغلو فيها، الطرف الثاني هذا طرف تفريط والتهاون بها، والطرف الثاني طرف الغلو والتشدد في تعظيمها، طرفا نقيض، والعياذ بالله.

فنهى عن البناء عليها والكتابة عليها وتجصيصها وإيقاد السرج عليها، فخالف القبوريون ذلك كله وعصوا الرسول ﷺ حتى صارت القبور أوثانًا تعبد من دون الله بسبب غلو هؤلاء فيها، وإظهارها بالمظهر الذي يلفت أنظار الجهلة والعوامِّ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وأعظم ذلك اتخاذها مساجد)**، اتخاذها مساجد، مصليات يصلى عندها سواء بني عليها أو لم يُبنَ عليها، لكن إذا بُني عليها فهذا أشد.

وقد كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحذر من هذا، وقال قبل أن يتوفاه الله وهو في مرض موته: «**لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**»(١): يعني يصلون عندها ويبنون عليها.

«**اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**»: دل هذا على أن هذا العمل موجب للعنة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، «**لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**»، قالت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا»، ليس يخبر عنهم فقط، وإنما يحذرنا نحن أن نفعل مثل فعلهم.

قالت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «وَلَوْلَا ذَلِكَ»: يعني لولا خشية الغلو في قبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

«لَأُبْرِزَ قَبْرُهُ»: ودفن في البقع مع أصحابه، «وَلَكِنَّهُ خَشِيَ - أو خُشِيَ - أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا»(٢). فَدُفِنَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بيته في حجرة عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا؛ حفاظًا عليه من الغلو، وحفاظًا عليه من أن يفعل عنده كما فُعِلَ عند قبور الأنبياء والصالحين من قبله. فالله جَلَّ وَعَلَا حماه، وقد دعا ربه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ**»(٣).

---

(١) سبق تخريجه (ص٥٣٨).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٢٢٦).

(٣) سبق تخريجه (ص٥٣٧).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ(١):

فَـأَجَـابَ رَبُّ الْـعَـالَمِـينَ دُعَــاءَهُ وَأَحَــاطَــهُ بِـثَـلَاثَـةِ الْجُــدْرَانِ

جُعِلَ عليه جدران ولا يراه أحد، وإنما يقف المسلم تجاه وجهه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويسلم عليه، بينهما جدار وبينهم شبابيك، ولا يرى قبره أحد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فَـأَجَـابَ رَبُّ الْـعَـالَمِـينَ دُعَــاءَهُ وَأَحَــاطَــهُ بِـثَـلَاثَـةِ الْجُــدْرَانِ
حَـتَّـى غَـدَتْ أَرْجَــاؤُهُ بِـدُعَـائِـهِ فِي عِــزَّةٍ وَحِمَــايَــةٍ وَصِـيَــانِ

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وأعظم ذلك اتخاذها مساجد، وإيقاد السرج عليها، وهو من الكبائر)**، وهذا العمل من الكبائر، وإذا وصل إلى دعاء الأموات فهو من الشرك.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وقد صرّح الفقهاء من أصحاب أحمد وغيرهم بتحريمه)**، الفقهاء الكبار، الأئمة وأتباعهم خصوصًا أصحاب المذاهب الأربعة ومن قبلهم ينهون عن ذلك، ويحرمونه.

(١) سبق عزوه (ص٥٣٧).

قال أبو محمد المقدسي: ولو أبيح اتخاذ السرج عليها لم يُلْعَن مَنْ فعله، ولأن فيه تضييعًا للمال في غير فائدة، وإفراطًا في تعظيم القبور أشبَه تعظيمَ الأصنام.

قال: ولا يجوز اتخاذ المساجد على القبور لهذا الخبر؛ لأن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لَعَنَ اللهُ اليَهُودَ؛ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»؛ يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا». متفق عليه(١).

ولأن تخصيص القبور بالصلاة عندها يشبه تعظيم الأصنام بالسجود لها، والتقرب إليها، وقد رُوِّينا أن ابتداء عبادة الأصنام تعظيمُ الأموات باتخاذ صورهم، والتمسح بها، والصلاة عندها». انتهى.

الشـرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قال أبو محمد المقدسي)، الذي هو الموفق ابن قدامة صاحب المغني رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ولو أبيح اتخاذ السرج عليها لم يُلْعَن مَنْ فعله)، لو كان إيقاد السرج على المقابر مباحًا لما لعن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من فعله، فدل على أنه كبيرة من كبائر الذنوب؛ لأن اللعن لا يكون إلا على كبيرة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ولأن فيه تضييعًا للمال في غير فائدة)، لأن الإضاءة هذه تحتاج إلى مؤنة ومتابعة فتضيع الأموال بغير فائدة، بل في مضرة.

---

(١) سبق تخريجه (ص٥٣٨).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وإفراطًا في تعظيم القبور أشبَه تعظيمَ الأصنام)**، وفيه هذا أشد، فيه إفراط يعني غلو تعظيم القبور.

وهذا يشبه تعظيم الأصنام؛ لأن الأصنام هي أحجار وأشجار لكن عبدت لما صاروا يعظمونها ويغلون فيها عبدت، كذلك القبور إذا غلا فيها الناس عبدت، آل ذلك إلى عبادتها.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قال: ولا يجوز اتخاذ المساجد على القبور لهذا الخبر؛ لأن النبي** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قال: «لَعَنَ اللهُ اليَهُودَ؛ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»؛ يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا»)**، «**لَعَنَ اللهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**»: فدل على أن موجب اللعنة هم ملعونون على أمور كثيرة.

لكن منها هذا: «**اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**».

يحذر صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه الأمة عما صنعوه اليهود والنصارى في قبور الأنبياء أن يصنعوا في قبره مثلما فعلوا في قبور أنبيائهم، وهذا من كمال نصحه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأمته، وحمايته لجناب التوحيد وسد الطرق الموصلة إلى الشرك.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولأن تخصيص القبور بالصلاة عندها يشبه تعظيم الأصنام بالسجود لها، والتقرب إليها)**، وإن كان المصلي لا يصلي إلا لله عندها، فالصلاة محرمة وباطلة عند القبور؛ لأنها صلاة منهي عنها أشد النهي، فهي صلاة محرمة وباطلة، لو صلى الفريضة عندها لم تصح صلاته؛ لأنها صلاة منهي عنها، والنهي يقتضي الفساد.

وهذا سدًّا لذريعة الشرك، الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ، هذا إذا كان يصلي لله لكن صلى عند القبر، أما لو كان يصلي تعظيمًا للقبر ورجاء بركة القبر فهذا شرك، شرك بالله عَزَّوَجَلَّ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولأن تخصيص القبور بالصلاة عندها يشبه تعظيم الأصنام بالسجود لها، والتقرب إليها)**؛ لأن الوثنيين من العرب وغيرهم كانوا يسجدون للقبر، وكانوا يصلون عنده رجاء بركته ومدده، هذا في الجاهلية.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقد رُوِّينا أن ابتداء عبادة الأصنام تعظيمُ الأموات باتخاذ صورهم)**، كما حصل لقوم نوح، أول ما حدث الشرك في الأرض بعد آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان قوم نوح لما غلوا في الصالحين وصوروا صورهم، نصبوها على مجالسهم، ثم بعد ذلك عكفوا على قبورهم.

فحدث الشرك في الأرض بسبب ذلك، فأرسل الله نوحًا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ينهاهم عن ذلك، لكنهم أبوا، ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا﴾ [نوح:٢٣]. هذه أسماء رجال صالحين في قوم نوح.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والتمسح بها، والصلاة عندها». انتهى)**، هذا كلام الموفق ابن قدامة.

وقد آل الأمر بهؤلاء الضُّلال المشركين إلى أن شرعوا للقبور حَجًّا، ووضعوا له مناسك، حتى صنّف بعض غُلاتهم في ذلك كتابًا وسماه «مناسك حج المشاهد»؛ مضاهاةً منه بالقبور للبيت الحرام، ولا يخفى أن هذا مفارقة لدين الإسلام، ودخول في دين عُبّاد الأصنام.

فانظر إلى هذا التباين العظيم بين ما شرعه رسول الله ﷺ وقصده من النهي عمّا تقدم ذكره في القبور، وبين ما شرعه هؤلاء وقصدوه.

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقد آل الأمر بهؤلاء الضُّلال المشركين إلى أن شرعوا للقبور حَجًّا)**، غلوا فيها حتى شرعوا لها حجًّا وكتبوا لها مناسك، مناسك حج المشاهد يضاهون بذلك الكعبة المشرفة بيت الله الذي يحج إليه ويطاف به، ويصلى إليه شبهوها -والعياذ بالله- بالكعبة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ووضعوا له مناسك، حتى صنّف بعض غُلاتهم في ذلك كتابًا وسماه «مناسك حج المشاهد»)**، نسأل الله العافية، مناسك حج المشاهد، مثل: مناسك الحج إلى بيت الله الحرام.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولا يخفى أن هذا مفارقة لدين الإسلام، ودخول في دين عُبّاد الأصنام)**، لا يخفي هذا أن هذا العمل -وهو: الغلو في القبور والحج إليها وتعظيمها التعظيم الذي يؤول إلى الغلو- مبدأ عبادة الأصنام.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فانظر إلى هذا التباين العظيم بين ما شرعه رسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **وقصده من النهي عمَّا تقدم ذكره في القبور، وبين ما شرعه هؤلاء وقصدوه)**، يقول ابن القيم هذا، يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(فانظر إلى هذا التباين العظيم بين ما شرعه رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **وقصده من النهي عمَّا تقدم ذكره في القبور، وبين ما شرعه هؤلاء وقصدوه)**، الرسول نهى عن الغلو في القبور، نهى عن إسراجها، نهى عن الصلاة عندها، نهى عن الطواف بها، نهى عن الدعاء عندها، كل ذلك نهى عنه الرسول، وإن كان ذلك يقصد به الله، يدعو الله، يصلي لله.

لكن لما كان عند القبر فإن هذا وسيلة إلى الغلو في القبر فيتحول من كونه لله إلى كونه للميت، فيكون هذا شركًا أكبر، في الأول بدعة والبدعة بريد الشرك كما يقول العلماء: البدعة الشرك، بريد الكفر توصل إلى الكفر.

ولا ريب أن في ذلك من المفاسد ما يعجز العبد عن حَصْره:

فمنها: تعظيمها المُوقِع في الافتتان بها.

ومنها: اتخاذها عيدًا.

ومنها: السفر إليها.

ومنها: مشابهة عبادة الأصنام بما يفعل عندها من العكوف عليها، والمجاورة عندها، وتعليق الستور عليها وسدانتها، وعُبّادُها يُرجّحون المجاورة عندها على المجاورة عند المسجد الحرام، ويرون سدانتها أفضلَ من خدمة المساجد، والويل عندهم لقيّمها ليلة يُطفأ القنديلَ المعلَّق عليها.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فمنها: تعظيمها المُوقِع في الافتتان بها)، تعظيمها: يعني الغلو فيها، أما احترامها وعدم إهانتها والحفاظ عليها من الإهانة وتسوير المقابر هذه أمور مشروعة إكرامًا لقبور المسلمين.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ومنها: اتخاذها عيدًا)، اتخاذها عيدًا: يعني يجتمع عندها، يجتمعون عندها رجاء بركتها، عيد مكاني يعني.

ولهذا قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا»[(١)]: لا تجتمعوا عنده كما كان في الجاهلية يجتمعون، وكما كان اليهود والنصارى يجتمعون عند القبور تعظيمًا لها ورجاء بركتها.

(١) سبق تخريجه (ص٥٨٤).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**ومنها: السفر إليها**)، السفر إليها: لا يجوز شد الرحال لزيارة القبور؛ لأن هذا وسيلة إلى الشرك، لا قبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا قبر غيره.

وإنما الزائر للمدينة النبوية يقدِّم الصلاة في مسجد الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي الصلاة فيه خير من ألف صلاة فيما سواه كما أخبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإذا وصل إلى المدينة وصلى في المسجد النبوي فإنه يذهب إلى قبر الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويسلم عليه تبعًا لا قصدًا للسفر، السفر للصلاة في المسجد، فإذا صلى فيه يسلم على النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تبعًا لذلك.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**ومنها: مشابهة عبادة الأصنام بما يفعل عندها من العكوف عليها**)، مشابهة الأصنام بما يُفعل عند الأصنام، فيفعله المشركون عند الأصنام الذين يغلون في القبور، ويبكون عندها، ويتضرعون عندها، هؤلاء يشبهون عباد الأصنام، ما الفرق بينهم؟!

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**والمجاورة عندها، وتعليق الستور عليها وسدانتها**)، يبنون على القبور، ويجعلون عليها ستائر، هذا موجود في غير هذه البلاد التي طهرها الله بالدعوة للتوحيد، موجود تعظيم القبور والبناء عليها، وجعل عليها ستائر، وعندها سدنة عند القبور، كسدنة بيت الله العتيق.

وهؤلاء السدنة يجلبون من الزائرين الأموال، والدولة تأخذ منهم، تتخذ هذه القبور موارد للدولة- والعياذ بالله- يتخذوها موارد للدولة ولبيت المال.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وعُبّادُها يُرجّحون المجاورة عندها على المجاورة عند المسجد الحرام)**، يرجحون المجاورة عندها، والنزول عندها على المجاورة عند المسجد الحرام، عند الكعبة المشرفة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ويرون سدانتها أفضلَ من خدمة المساجد)**، يرون سدنة هذه القبور أفضلَ من خدمة المساجد التي أمر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتنظفيها وتطهيرها وتطييبها، أمر صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالعناية بالمساجد، هؤلاء عكسوا الأمر صاروا يعتنون بالقبور بدلًا من المساجد.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والويل عندهم لقيّمها ليلة يُطفأ القنديلَ المعلّق عليها)**، السادن الذي عند القبر لابد أن يجعله مسرجًا ليلًا ونهارًا، لا ينطفئ، إذا انطفئ فإنهم يهددونهم بالعقوبة.

ومنها: النذر لها ولسدنتها.

ومنها: اعتقاد المشركين أن بها يُكشف البلاء، ويُنصر على الأعداء، ويُستنزل غيث السماء، وتُفرج الكرب، وتُقضى الحوائج، ويُنصر المظلوم، ويُجار الخائف، إلى غير ذلك.

ومنها: الدخول في لعنة الله تعالى ورسوله باتخاذ المساجد عليها، وإيقاد السُّرج عليها.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ومنها: النذر لها ولسدنتها)، النذور هذه مقصودهم، النذور التي يصرف لها، ويوضع لها صناديق للنذور تجبى فيها النذور تقربًا إلى الأموات، وتأخذ الدولة من هذه النذور لبيت المال تستثمرها – والعياذ بالله- هذا من المحادة لله ولرسوله.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ومنها: اعتقاد المشركين أن بها يُكشف البلاء، ويُنصر على الأعداء)، ولهذا يستنصرون بالقبر عندما تصيبهم شدة، أو يحاصرهم عدو لا يلجئون إلى الله ويتضرعون إلى الله، وإنما يلجئون إلى القبر ويستنصرون به.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ويُستنزل غيث السماء)، إذا اجدبوا لا يذهبون للمصلى ويصلون صلاة الاستقساء، ويدعون الله كما فعل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنما يذهبون إلى القبر، ويطلبون منه إنزال المطر، سواء سألوا إنزال المطر منه مباشرة، أو من الله بواسطته وبشفاعته -كما يقولون-!

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وتُفرج الكرب، وتُقضى الحوائج ويُنصر المظلوم، ويُجار الخائف، إلى غير ذلك)**، من المقاصد الخبيثة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومنها: الدخول في لعنة الله تعالى ورسوله باتخاذ المساجد عليها، وإيقاد السُّرج عليها)**، قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَعَنَ زَوَّارَاتِ القُبُورِ**»(١)؛ النساء التي تزور القبور، فزيارة القبور خاصة بالرجال، ولا تجوز للنساء؛ لأن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «لَعَنَ زَوَّارَاتِ القُبُورِ، وَالْمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا المَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ»، لعنهم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم ينتهوا عن ذلك؛ اتخذوا عليها مساجدَ وأسرجوها!

ومنها: الشرك الأكبر الذي يُفعل عندها.

ومنها: إيذاء أصحابها بما يفعله المشركون بقبورهم؛ فإنهم يؤذيهم ما يُفعل عند قبورهم، ويكرهونه غاية الكراهة، كما أن المسيح يكره ما يفعل النصارى عند قبورهم، وكذلك غيره من الأنبياء والأولياء والمشايخ؛ يؤذيهم ما يفعله أشباه النصارى عند قبورهم، ويوم القيامة يتبرؤون منهم؛ كما قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴾ [الفرقان:١٧-١٨].

قال الله للمشركين: ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ ﴾ [الفرقان:١٩] الآية.

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ﴾ الآية [المائدة:١١٦].

وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ [سبأ:٤٠-٤١].

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومنها: الشرك الأكبر الذي يُفعل عندها)**، الشرك الأكبر بدعائها والاستغاثة بها والاستنصار بها، بالأموات، هذا شرك أكبر.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومنها: إيذاء أصحابها بما يفعله المشركون بقبورهم؛ فإنهم يؤذيهم ما يُفعل عند قبورهم)**، الصالحون والأنبياء وأولياء الله لا يرضون أن يفعل عند قبورهم هذا الشيء، ويتأذَّون به، فهم لا يرضيهم هذا؛ لأنهم كانوا في الحياة يوم أن كانوا أحياءً ينكرون هذا، ويجاهدون أصحابه، فلما ماتوا عكسوا الأمر، خالفوهم -والعياذ بالله-!

هم لا يرضون بهذا، وفي يوم القيامة يتبرؤون منهم؛ ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص:٦٣]: الملائكة يتبرؤون ممن عبدهم، والأنبياء يتبرؤون ممن عبدهم.

وأنتم تقرؤون ما يقوله عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إذا سأله رب العالمين: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ الآية [المائدة:١١٦].

فهو يتبرأ من هذا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يوم القيامة على رؤوس الأشهاد، ويفتضحون في هذا الموقف المخزي، والعياذ بالله.

وكذلك عباد العباد سيحصل لهم هذا يوم القيامة؛ فيتبرأ منهم الصالحون والأولياء.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ويكرهونه غاية الكراهة)**، لكنهم لا يستطيعون منعه، لكن يوم أن كانوا أحياء كانوا يمنعون هذا، ويقاتلون عليه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(كما أن المسيح يكره ما يفعل النصارى عند قبورهم)**، دعوة الرسل واحدة، هي: الأمر بالتوحيد، والنهي عن الشرك، من أولهم إلى آخرهم، كلهم دعوتهم واحدة، كل رسول يقول، أول ما يقول: يا قومي، ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف:٨٥].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(يوم القيامة يتبرؤون منهم، كما قال تعالى:** ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا﴾ [الفرقان:١٧-١٨])، ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾ [الفرقان:١٩]: هذا في يوم القيامة، الرسل والصالحون يُكَذِّبون هؤلاء الذين تعلقوا بهم بعد موتهم ودعَوْهم من دون الله، يتبرؤون منهم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال تعالى:** ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾ **الآية** [المائدة:١١٦])، لأن العبادة حقٌّ لله عَزَّوَجَلَّ، الألوهية حقٌّ لله، ليست لمخلوق؛ لا لنبي، ولا غيره.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال تعالى:** ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ:٤٠-٤١])، هؤلاء الذين

كانوا يعبدون الملائكة في الدنيا، يوم القيامة الملائكة تتبرأ منهم حينما يسأل الله الملائكة عليهم الصلاة والسلام.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ﴾)، يعني يعبدون الشياطين؛ لأن الشياطين هم الذين أمروهم بهذا، أما نحن فلم نأمرهم بهذا، بل كنا ننهاهم ونجاهدهم عليه، إنما هذا الشيطان هو الذي أمرهم فأطاعوه، فهم يعبدون الشياطين ولا يعبدون عيسى ولا غيره من الأنبياء والصالحين، بل يعبدون من أمرهم بذلك، وهو الشيطان.

ومنها: مشابهة اليهود والنصارى في اتخاذ المساجد والسرج عليها.

ومنها: محادة الله ورسوله، ومناقضة ما شرعه فيها.

ومنها: التعب العظيم مع الوزر الكثير، والإثم العظيم.

ومنها: إماتة السنن، وإحياء البدع.

ومنها: تفضيلها على خير البقاع وأحبِّها إلى الله؛ فإن عُبّاد القبور يقصدونها من التعظيم والاحترام والخشوع ورِقَّة القلب والعكوف بالهمة على الموتى ما لا يفعلونه في المساجد، ولا يحصل لهم فيها نظيره، ولا قريب منه.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومنها: مشابهة اليهود والنصارى في اتخاذ المساجد والسرج عليها)**، وقد نهينا عن التشبه باليهود والنصارى، وهذا ما يؤول إليه التشبه، التشبه مذموم، التشبه باليهود والنصارى يؤول إلى الشرك.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومنها: محادة الله ورسوله، ومناقضة ما شرعه فيها)**، محادة الله ورسوله؛ بأن يخالف مع أمره الله به ورسوله، هذه محادة، الله حدد لك حدًّا، وأنت تعديت حدود الله عَزَّوَجَلَّ، فصرت محادًّا لله ورسوله، تنتهك حدوده.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومنها: التعب العظيم مع الوزر الكثير، والإثم العظيم)**، يتعبون والعياذ بالله. فعباد القبور يتعبون تعبًا عظيمًا، ويبكون ويسافرون إلى القبور وينفقون الأموال، ويجاورن عندها مدة طويلة ويتركون مصالحهم، وكل ذلك خسار ووبال عليهم، والعياذ بالله.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومنها: إماتة السنن، وإحياء البدع)**، السنن هي اتباع الرسول صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والاقتداء به، هذا هو الذي أمرنا به، ونهينا عن مخالفة السنة، واتباع الهوى واتباع المضلين ودعاة الضلال، نهينا عن ذلك.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومنها: تفضيلها على خير البقاع وأحبِّها إلى الله؛ فإن عُبّاد القبور يقصدونها من التعظيم والاحترام والخشوع ورِقَّة القلب والعكوف بالهمة على الموتى ما لا يفعلونه في المساجد)**، يخشعون عند القبور ويتضرعون ويبكون، ولكنهم في مساجد الله تقسو قلوبهم، ولا يجدون لها احترامًا، ولا يجدون لها مكانة في قلوبهم، فلا يعظمون إلا المسجد المبني على قبر، أما المسجد المبني على التوحيد والخالي من القبر؛ فهذا لا يلتفتون إليه!

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولا يحصل لهم فيها نظيره، ولا قريب منه)**، في بيوت الله.

يحصل منهم عند القبور من التضرع والخوف والبكاء، ما لا يحصل منهم عند المساجد التي هي بيوت الله عَزَّ وَجَلَّ.

ومنها: أن ذلك يتضمن عمارة المشاهد وخراب المساجد، ودينُ الله الذي بعث به رسوله ﷺ بضد ذلك، ولهذا لما كانت الرافضة من أبعد الناس عن العلم والدين عَمروا المشاهد، وأخربوا المساجد.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومنها: أن ذلك يتضمن عمارة المشاهد وخراب المساجد)**، إذا اعتنوا بالمشاهد والمساجد المبنية على القبور فلم يعتنوا بمساجد الله الخالية المبنية على التوحيد، وهذا شيء مشاهد، المسجد الذي ليس فيه قبر ليس له قيمة عندهم ولا يذهبون إليه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ودينُ الله الذي بعث به رسوله ﷺ بضد ذلك)**، بضد ذلك، وهو تعظيم المساجد التي هي بيوت الله؛ ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة:١٨]، فالمساجد بيوت الله، ﴿مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾: أضافها إلى نفسه إضافة تشريف، تكريم، ﴿مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾، ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولهذا لما كانت الرافضة من أبعد الناس عن العلم والدين عَمروا المشاهد، وأخربوا المساجد)**، الرافضة: الشيعة الذين يغلون في أهل البيوت ويعظمونهم، ويبغضون الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ويسبونهم، هؤلاء هم الرافضة، والعياذ بالله، فالروافض شر من وَطِئ الحصى، يقول القحطاني:

إِنَّ الرَّوَافِضَ شَرُّ مَنْ وَطِئَ الحَصَى ... مِنْ كُلِّ إِنْسٍ نَاطِقٍ أَوْ جَانِ[1]

فهم شر الخليقة؛ لأنهم يعظمون قبور الأولياء وقبور آل البيت، ولا يعمرون المساجد، ولا يعتنون بها، مساجد التوحيد لا يعتنون بها.

(١) انظر: نونية القحطاني (ص٢٦).

ومنها: أن الذي شرعه الرسول ﷺ عند زيارة القبور إنما هو تذكر الآخرة، والإحسان إلى المَزُورِ بالدعاء له، والترحّم عليه، والاستغفار له، وسؤال العافية له، فيكون الزائر محسنًا إلى نفسه وإلى الميت.

فقلَبَ هؤلاء المشركون الأمر، وعكسوا الدين، وجعلوا المقصود بالزيارة الشرك بالميت، ودعاءه والدعاء به، وسؤاله حوائجهم، واستنزال البركات منه، ونصره لهم على الأعداء، ونحو ذلك، فصاروا مسيئين إلى نفوسهم وإلى الميت، ولو لم يكن إلا بحرمانه بَركة ما شرعه الله من الدعاء له والترحم عليه والاستغفار له.

فاسمع الآن زيارة أهل الإيمان، التي شرعها الله على لسان رسوله ﷺ، ثم وازِنْ بينها وبين زيارة أهل الإشراك، التي شرعها لهم الشيطان، واختر لنفسك.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومنها: أن الذي شرعه الرسول** ﷺ **عند زيارة القبور إنما هو تذكر الآخرة، والإحسان إلى المَزُورِ بالدعاء له، والترحّم عليه، والاستغفار له)**، هذا المقصود من زيارة القبور: السلام على الميت، والدعاء له بالمغفرة والرحمة، هذا المشروع عند زيارة القبور، فيحصل للميت مصلحة من زيارته من زيارة الحي له بالدعاء له والترحم عليه، والسلام عليه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فيكون الزائر محسنًا إلى نفسه وإلى الميت)**، فزيارة القبور فيها مصلحتان:

المصلحة الأولى: تذكر الآخرة؛ إذا رأيت الأموات تحت التراب، ورأيت القبور تذكرت الآخرة وعلمت أنك عما قريب ستكون إلى جوارهم فتتوب إلى الله عَزَّوَجَلَّ ويرق قلبك، تتوب إلى الله عَزَّوَجَلَّ، هذه مصلحة.

المصلحة الثانية: السلام على الميت والدعاء له والترحم عليه.

أما زيارة القبور لأجل طلب الشفاعة وطلب الحوائج، فهذه زيارة شركية، فزيارة القبور على نوعين:

زيارة شركية: وهي التي يقصد بها تعظيم القبور، والتماس البركة منها، وقضاء الحاجات هذه شركية.

وزيارة سُنِّيَّة: وهي التي يقصد بها تذكر الآخرة، والسلام على الميت، هذه هي السنية.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فقلَبَ هؤلاء المشركون الأمر، وعكسوا الدين، وجعلوا المقصود بالزيارة الشرك بالميت، ودعاءه والدعاء به، وسؤاله حوائجهم، واستنزال البركات منه، ونصره لهم على الأعداء، ونحو ذلك)**، هذا قصد المشركين: أنهم لا يقصدون الزيارة الشرعية، وإنما يقصدون الزيارة الشركية، والعياذ بالله.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فاسمع الآن زيارة أهل الإيمان)**، الآن سمعت زيارة المشركين ومقاصد المشركين، الآن اسمع زيارة الحنفاء، وزيارة الموحدين، وهي الزيارة الشرعية.

قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا كان ليلتي منه؛ يخرج من آخر الليل إلى البَقيع، فيقول: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دارَ قومٍ مُؤْمِنِينَ، وأتاكم ما تُوعَدُونَ، غدًا مُؤَجَّلُونَ، وإنَّا إنْ شاءَ اللهُ بِكُمْ لاحِقُونَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لأَهْلِ بَقِيعِ الْغَرْقَدِ». رواه مسلم[1].

وفي «صحيحه» عنها أيضًا: أن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ أتاه، فقال: «إِنَّ رَبَّكَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَأْتِيَ أَهْلَ الْبَقِيعِ، فَتَسْتَغْفِرَ لَهُمْ، قَالَتْ: قُلْتُ: كَيْفَ أَقُولُ لَهُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: قُولِي: السَّلَامُ عَلَى أَهْلِ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَيَرْحَمُ اللهُ الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنَّا وَالْمُسْتَأْخِرِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَلَاحِقُونَ»[2].

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا كان ليلتي منه؛ يخرج من آخر الليل إلى البقيع، فيقول: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ، وَأَتَاكُمْ مَا تُوعَدُونَ، غَدًا مُؤَجَّلُونَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأَهْلِ بَقِيعِ الْغَرْقَدِ»)، هذا في آخر الليل، كان إذا قام من الليل يتهجد خرج على البقيع فسلم على الأموات.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (أن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ أتاه، فقال: «إِنَّ رَبَّكَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَأْتِيَ أَهْلَ الْبَقِيعِ، فَتَسْتَغْفِرَ لَهُمْ، قَالَتْ: قُلْتُ: كَيْفَ أَقُولُ لَهُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ قُولِي: السَّلَامُ عَلَى أَهْلِ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَيَرْحَمُ اللهُ الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنَّا

(١) أخرجه مسلم (١٠٢) (٩٧٤).
(٢) أخرجه مسلم (١٠٣) (٩٧٤).

وَالْمُسْتَأْخِرِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَلَاحِقُونَ»)، هذا إذا مر بالمقابر في طريقه فإنه يسلم عليهم عمومًا على جميع الأموات بهذا الدعاء، وهذا الدعاء الذي ورد عن الرسول ﷺ: «**السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ، وَأَتَاكُمْ مَا تُوعَدُونَ، غَدًا مُؤَجَّلُونَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ، يَرْحَمُ اللهُ الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنَّا وَمِنْكُمْ وَالْمُسْتَأْخِرِينَ، اللَّهُمَّ لَا تَحْرِمْنَا أَجْرَهُمْ، وَلَا تُضِلَّنَا بَعْدَهُمْ، وَاغْفِرْ لَنَا وَلَهُم**».

وفي «صحيحه» أيضًا عن سليمان بن بُريدة، عن أبيه، قال: «كان رسول الله ﷺ يُعلِّمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقولوا: السَّلَامُ عَلَى أَهْلِ الدِّيَارِ، -وَفِي لَفْظٍ-: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَلَاحِقُونَ، نَسْأَلُ اللهَ لَنَا وَلَكُمُ الْعَافِيَةَ»(١).

وعن بُريدة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ، فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَزُورَ فَلْيَزُرْ، وَلَا تَقُولُوا هُجْرًا». رواه أحمد، والنسائي(٢).

وكان رسول الله ﷺ قد نهى الرجال عن زيارة القبور، سدًّا للذريعة، فلما تمكّن التوحيدُ في قلوبهم أذن لهم في زيارتها على الوجه الذي شرعه، ونهاهم أن يقولوا هُجْرًا.

فمن زارها على غير الوجه المشروع الذي يحبه الله ورسوله ﷺ فإن زيارته غير مأذون فيها.

ومن أعظم الهُجْر: الشرك عندها قولًا وفعلًا.

الشَّرح

قوله رحمه الله: (وعن بُريدة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ، فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَزُورَ فَلْيَزُرْ»)، في الأول: النبي ﷺ لما كان الناس قريبًا عهدُهم بالشرك وعبادة القبور نهى عن

---

(١) أخرجه مسلم (٩٧٥).

(٢) أخرجه أحمد (٣٨/ ١٥٦)، والنسائي (٢٠٣٣).

زيارتها الرجال والنساء، ثم بعد ذلك أمر بزيارتها، فنسخ النهي السابق لما استقر التوحيد في قلوبهم وعرَفوه، وزال المحظور أمر بزيارة القبور.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَلَا تَقُولُوا هُجْرًا**)، ولا تقولوا هُجْرًا: يعني كلامًا سيئًا من الشرك والبدع.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وكان رسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قد نهى الرجال عن زيارة القبور، سدًّا للذريعة**)، هذا في الأول.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**فلما تمكّن التوحيدُ في قلوبهم أذن لهم في زيارتها على الوجه الذي شرعه، ونهاهم أن يقولوا هُجْرًا**)، نهاهم أن يقولوا هجرًا: يعني كلامًا مهجورًا متروكًا، وهو الشرك؛ ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ [المدثر:٥]: يعني اتركه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**فمن زارها على غير الوجه المشروع الذي يحبه الله ورسوله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **فإن زيارته غير مأذون فيها**)، بل هي ممنوعة.

وفي «صحيح مسلم»، عن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «زُورُوا القُبُورَ؛ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ المَوْتَ»(١).

وعن علي بن أبي طالب - رضي الله تعالى عنه -، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنِّي كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ القُبُورِ، فَزُورُوهَا؛ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُكُمُ الآخِرَةَ». رواه الإمام أحمدُ(٢).

وعن ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما - قال: «مَرَّ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقُبُورِ المَدِينَةِ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِمْ بِوَجْهِهِ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ القُبُورِ، يَغْفِرُ اللهُ لَنَا وَلَكُمْ، وَنَحْنُ بِالأَثَرِ». رواه أحمد، والترمذيُّ وحسَّنه(٣).

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وفي «صحيح مسلم»، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «زُورُوا القُبُورَ؛ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ المَوْتَ»)، «زُورُوا الْقُبُورَ»: هذا خطاب للرجال.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الْمَوْتَ»: إذا رأيت الأموات، ورأيت القبور، وعرفت أنك ستصير معهم عما قريب، تتوب إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، وترجع تائبًا إلى الله.

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٨) (٩٧٦).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٣٩٨).

(٣) أخرجه الترمذي (١٠٥٣).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وعن ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما - قال: «مَرَّ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقُبُورِ المَدِينَةِ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِمْ بِوَجْهِهِ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ القُبُورِ، يَغْفِرُ اللهُ لَنَا وَلَكُمْ، وَنَحْنُ بِالْأَثَرِ»)، إذا مر بالمقبرة، فإنه يستقبلهم بوجهه، ويسلم عليهم ويدعو لهم، وهو ماشٍ في طريقه.

وعن ابن مسعود- رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ، فَزُورُوا الْقُبُورَ؛ فَإِنَّهَا تُزَهِّدُ فِي الدُّنْيَا، وَتُذَكِّرُ الْآخِرَةَ». رواه ابن ماجه[1].

وروى الإمام أحمد، عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ، فَزُورُوهَا؛ فَإِنَّ فِيهَا عِبْرَةً»[2].

فهذه الزيارة التي شرعها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأُمَّته، وعلَّمهم إياها، هل تجد فيها شيئًا مما يعتمده أهل الشرك والبدع؟ أم تجدها مُضادّة لما هم عليه من كل وجه؟ وما أحسَنَ ما قال مالكُ بن أنس رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَنْ يُصلِحَ آخِرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ إِلَّا مَا أَصْلَحَ أَوَّلَهَا»[3]. ولكن كلما ضعُف تمسُّك الأمم بعهود أنبيائهم، ونقص إيمانهم، عُوّضوا عن ذلك بما أحدثوه من البدع والشرك.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وما أحسَنَ ما قال مالكُ بن أنس رَحِمَهُ اللَّهُ: «لن يُصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أوّلها»)، الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ قال هذه الكلمة

(١) أخرجه ابن ماجه (١٥٧١).

(٢) أخرجه أحمد (١٧/ ٤٢٩).

(٣) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد (٢٣/ ١٠) عن مالك، قال: «كَانَ وَهْبُ بْنُ كَيْسَانَ يَقْعُدُ إِلَيْنَا وَلَا يَقُومُ أَبَدًا حَتَّى يَقُولَ لَنَا: اعْلَمُوا أَنَّهُ لَا يُصْلِحُ آخِرَ هَذَا الْأَمْرِ إِلَّا مَا أَصْلَحَ أَوَّلَهُ»، انظر: تنقيح تحقيق أحاديث التعليق لابن عبد الهادي (٢/ ٤٢٣). وأخرج الخطيب البغدادي نحوه من كلام علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في خطبة له، في موضح أوهام الجمع والتفريق (١/ ٢٦٣)، قال: «إن هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله»، وعند ابن عساكر من كلام أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في تاريخ دمشق (٤٤/ ٢٥٦)، قال: «إن هذا الأمر الذي هو أملك بنا، لا يصلح آخره إلا بما صلح به أوله».

العظيمة: «لن يُصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أوّلها». ما الذي أصلح أولها؟ هو الإسلام، الكتاب والسنة.

وكذلك آخر الأمة لا يصلحها إلا ما أصلح أولها: اتباع الكتاب والسنة، التمسك بالكتاب والسنة هذا طريق النجاة في زيارة القبور وغيرها.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولكن كلما ضعُف تمسُّك الأمم بعهود أنبيائهم، ونقص إيمانهم، عُوّضوا عن ذلك بما أحدثوه من البدع والشرك)**، كلما نقص في القلوب اتِّباع الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتعظيم السنة حدث في القلوب، أو يتلاعب الشيطان بقلوب المسلمين، فيَدخلها شيء مما يفعله الناس والمشركون.

ولقد جرّد السلف الصالحُ التوحيدَ، وحَمَوْا جانبه، حتى كان أحدُهم إذا سلّم على النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم أراد الدعاء، استقبل القبلة، وجعل ظهره إلى جدار القبر، ثم دعا.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ولقد جرّد السلف الصالحُ التوحيدَ، وحَمَوْا جانبه)، السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن جاء بعدهم ممن سار على منهجهم لا يغلون في النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند السلام عليه في قبره، وإنما يسلمون عليه وعلى صاحبيه، ثم ينصرفون.

وإذا أرادوا الدعاء فإنهم يدْعون الله مستقبلي القبلةِ في المسجد النبوي لا عند القبر، كل هذا محافظة على التوحيد، ابتعادًا عن الغلو في النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولم يكونوا يسلمون على النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلما دخلوا المسجد، إنما كانوا يسلمون عليه إذا قَدِموا من سفر، وأما في بقية الصلوات في المسجد النبوي فكانوا يصلون ثم ينصرفون، ولا يذهبون إلى القبر كلما دخلوا يسلمون عليه؛ لأن هذا من الغلو، وهذا خلاف السُّنَّة.

فقال سلمة بن وَرْدان: رأيتُ أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُسلّم على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم يُسندُ ظهره إلى جِدار القبر، ثم يدعو.

ونص على ذلك الأئمةُ الأربعةُ: أنه يستقبل القِبْلة وقت الدعاء، حتى لايدعو عند القبر؛ فإن الدعاء عبادة.

وفي «الترمذي» وغيره مرفوعًا: «الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ»(١).

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(فقال سلمة بن وَرْدان: رأيتُ أنس بن مالك** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **يُسلّم على النبي** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **ثم يُسندُ ظهره إلى جِدار القبر، ثم يدعو)**، هذا أنس بن مالك خادم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يسلم على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإذا أراد الدعاء، فإنه يستقبل القبلة، ويستدبر القبر.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(ونص على ذلك الأئمةُ الأربعةُ: أنه يستقبل القِبْلة وقت الدعاء، حتى لا يدعو عند القبر)**، هذا موجود في كتب الفقه، في كتب المذاهب الأربعة: الحنفية، والمالكية، والشافعية، والحنابلة أنهم ما كانوا يدعون عند القبر، ويستقبل القبر، وإنما إذا أراد أحدهم الدعاء، فإنه يتوجه إلى القبلة ويستدبر القبر؛ لأن قبلة الدعاء هي الكعبة، وليس غير الكعبة.

---

(١) أخرجه أحمد (٣٠/ ٢٩٧)، وأبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩،٣٢٤٧،٣٣٧٢)، والنسائي في الكبرى (١١٤٠٠)، وابن ماجه (٣٨٢٨)، والحاكم في المستدرك (١/ ٦٦٧)، وابن حبان في صحيحه (٣/ ١٧٢)، من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. قال الترمذي: (هذا حديث حسن صحيح). وقال الحاكم: (هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه). وقال الحافظ في الفتح (١/ ٤٩): (أخرجه أصحاب السنن بسند جيد).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**فإن الدعاء عبادة**)، والعبادة مبناها على الإتباع، الدعاء عبادة، بل هو أعظم أنواع العبادة، والعبادة مبناها على الإتباع، وما كانوا يأتون إلى القبر ويدعون يستقبلون القبر.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وفي «الترمذي» وغيره مرفوعًا: «الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ»**)، الدعاء هو العبادة. أي: هو أعظم أنواع العبادة، كما قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الْحَجُّ عَرَفَةُ**»[1]؛ أي أعظم أركان الحج: الوقوف بعرفة.

(١) أخرجه أبو داود (١٩٤٩)، والترمذي (٨٨٩، ٨٩٠)، وابن ماجه (٣٠١٥)، والنسائي في الكبرى (٣٩٩٧)، وأحمد (٣١/ ٦٣)، من حديث عبد الرحمن بن يَعْمَرَ الدِّيلي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فجرَّد السلفُ العبادة لله، ولم يفعلوا عند القبور منها إلا ما أَذِن فيه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من السلام على أصحابها، والاستغفار لهم، والترحّم عليهم.

وبالجملة فالميت قد انقطع عمله، فهو محتاج إلى من يدعو له ويشفع له، ولهذا شُرع في الصلاة عليه من الدعاء له وجوبًا واستحبابًا ما لم يشرع مثله في الدعاء للحي.

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(فجرَّد السلفُ العبادة لله، ولم يفعلوا عند القبور منها إلا ما أَذِن فيه رسول الله** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**)**، جردوا العبادة لله عَزَّ وَجَلَّ على ما وفق ما جاء في الكتاب والسنة؛ لأن العبادة توقيفية ليست محل اجتهاد، توقيفية على الدليل، ولم يرد أن الداعي يستقبل قبر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنما يستقبله عند السلام فقط، وأما عند الدعاء يستقبل الكعبة، فهي قبلة المسلمين في صلاتهم، وفي دعائهم.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(يفعلوا عند القبور منها إلا ما أَذِن فيه رسول الله** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **من السلام على أصحابها، والاستغفار لهم، والترحّم عليهم)**، هذا ما شرعه الله عند القبور: أنها تزار للسلام على أهلها، والدعاء لهم بالمغفرة والرحمة، ثم ينصرفون، لم يكونوا يدعون عند القبر يرجون بذلك قبول الدعاء، إنما كانوا يدعون في المساجد مستقبل القبلة.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وبالجملة فالميت قد انقطع عمله)**، الميت انقطع عمله.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ**»[1]، وهي الوقف الذي يستمر نفعه.

«**أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ**»: بأن يكون ألف كتبًا نافعة فينتفع بها من جاء بعده، أو له تلاميذ تتلمذوا عليه، والتلاميذ نشروا العلم من بعده فهذا علم ينتفع به.

«**وَلَدٍ صَالِحٍ**»: يدعو لوالده الميت، خير ما يقدمه الولد لوالده الميت الدعاء له والاستغفار له.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**فهو محتاج إلى من يدعو له ويشفع له**)، فهو محتاج إلى من يدعو له ويشفع له عند الله أن يغفر له، فليس الميت بقادر على شيء، مرتهن، فهو بحاجة إلى نفع الحي له بالدعاء والصدقة والحج والعمرة، بحاجة إلى ذلك؛ لأن عمله انقطع، فالحي يصله بهذه الأمور المشروعة.

أما أن ينعكس الأمر ويصير الحي؛ يذهب إلى الميت للتبرك بتربته، أو بطلب الحوائج منه، فهذا عكس ما شرعه الله، وهذا وسيلة إلى الشرك، وإن صرف شيئًا للميت من العبادة، فهذا شرك أكبر.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**ولهذا شُرع في الصلاة عليه**)، الصلاة على الميت شفاعة، «**مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ، فَيَقُومُ عَلَى جَنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا، لَا يُشْرِكُونَ بِاللهِ شَيْئًا، إِلَّا شَفَّعَهُمُ اللهُ فِيهِ**»[2].

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٣١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «**إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**».

(٢) أخرجه مسلم (٥٩) (٩٤٨)عَنْ كُرَيْبٍ، مَوْلَى ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ، =

الصلاة على الميت شفاعة من الأحياء بدعائهم له واستغفارهم له، شفاعة عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**ولهذا شُرِع في الصلاة عليه من الدعاء له وجوبًا واستحبابًا ما لم يشرع مثله في الدعاء للحي**)، صفة الصلاة على الميت: التكبير واستقبال القبلة، وقراءة الفاتحة، والصلاة على النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والدعاء للميت كل هذا لايكون في سائر الصلوات، إنما هذا خاص بالصلاة على الميت؛ لأن الميت بحاجة إلى مَن يدعو له، ويصلي على جنازته، ويشفع له عند الله.

❖ ❖ ❖

=«أَنَّهُ مَاتَ ابْنٌ لَهُ بِقُدَيْدٍ - أَوْ بِعُسْفَانَ - فَقَالَ: يَا كُرَيْبُ، انْظُرْ مَا اجْتَمَعَ لَهُ مِنَ النَّاسِ، قَالَ: فَخَرَجْتُ، فَإِذَا نَاسٌ قَدِ اجْتَمَعُوا لَهُ، فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: تَقُولُ هُمْ أَرْبَعُونَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: أَخْرِجُوهُ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: **مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ، فَيَقُومُ عَلَى جَنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا، لَا يُشْرِكُونَ بِاللهِ شَيْئًا، إِلَّا شَفَّعَهُمُ اللهُ فِيهِ**».

قال عوف بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «صَلَّى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى جَنَازَةٍ، فَحَفِظْتُ مِنْ دُعَائِهِ وَهُوَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ وَارْحَمْهُ، وَعَافِهِ وَاعْفُ عَنْهُ، وَأَكْرِمْ نُزُلَهُ، وَوَسِّعْ مُدْخَلَهُ، وَاغْسِلْهُ بِالْمَاءِ وَالثَّلْجِ وَالْبَرَدِ، وَنَقِّهِ مِنَ الْخَطَايَا كَمَا نَقَّيْتَ الثَّوْبَ الْأَبْيَضَ مِنَ الدَّنَسِ، وَأَبْدِلْهُ دَارًا خَيْرًا مِنْ دَارِهِ، وَأَهْلًا خَيْرًا مِنْ أَهْلِهِ، وَزَوْجًا خَيْرًا مِنْ زَوْجِهِ، وَأَدْخِلْهُ الْجَنَّةَ، وَأَعِذْهُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ -أَوْ مِنْ عَذَابِ النَّارِ-»، حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنْ أَكُونَ أَنَا الْمَيِّتَ»؛ لدعاء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ذلك الميت. رواه مسلم(١).

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (قال عوف بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: صَلَّى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى جَنَازَةٍ، فَحَفِظْتُ مِنْ دُعَائِهِ وَهُوَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ وَارْحَمْهُ، وَعَافِهِ وَاعْفُ عَنْهُ، وَأَكْرِمْ نُزُلَهُ)، هذا عوف بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يروي عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما يقوله في صلاته على الميت، أنه يقول: «اللهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، وَارْحَمْهُ، وَعَافِهِ وَاعْفُ عَنْهُ». وهذا بعد التكبيرة الثالثة.

أولًا: يكبر تكبيرة الإحرام، ثم يقرأ بعدها الفاتحة، ثم يكبر ويصلي على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصلاة الإبراهيمية، ثم يكبر الثالثة فيدعو للميت، ثم يكبر الرابعة ويسلم عن يمينه.

---

(١) أخرجه مسلم (٩٦٣).

هذه صفة الصلاة على الجنازة، وهي شفاعة للميت عند الله سبحانه، يقومون ويشفعون لأخيهم عند الله في الصلاة عليه، والدعاء له، حتى تمنى عوف بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يكون هو الميت الذي دعا له الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذه الدعوات العظيمة.

وقال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول في صلاته على الجنازة: «اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبُّهَا، وَأَنْتَ خَلَقْتَهَا، وَأَنْتَ هَدَيْتَهَا لِلْإِسْلَامِ، وَأَنْتَ قَبَضْتَ رُوحَهَا، وَأَنْتَ أَعْلَمُ بِسِرِّهَا وَعَلَانِيَتِهَا، جِئْنَا شُفَعَاءَ؛ فَاغْفِرْ لَهُ». رواه الإمام أحمد(١).

وفي «سنن أبي داود» عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِذَا صَلَّيْتُمْ عَلَى المَيِّتِ، فَأَخْلِصُوا لَهُ الدُّعَاءَ»(٢).

وقالت عائشة وأنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنْ مَيِّتٍ يُصَلِّي عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَبْلُغُونَ مِئَةً، كُلُّهُمْ يَشْفَعُونَ لَهُ؛ إِلَّا شُفِّعُوا فِيهِ». رواه مسلم(٣).

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول في صلاته على الجنازة: «اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبُّهَا، وَأَنْتَ خَلَقْتَهَا، وَأَنْتَ هَدَيْتَهَا لِلْإِسْلَامِ، وَأَنْتَ قَبَضْتَ رُوحَهَا، وَأَنْتَ أَعْلَمُ بِسِرِّهَا وَعَلَانِيَتِهَا، جِئْنَا شُفَعَاءَ؛ فَاغْفِرْ لَهُ»)، وهذا نوع آخر من الدعاء في الصلاة على الميت، فأي الدعاءين قال، فقد أتى بالمشروع، ولكن الحاصل أن هذه الصلاة نفع للميت، ودعاء له، وشفاعة له عند الله.

---

(١) أخرجه أحمد (١٢/ ٤٤٥) و(١٤/ ٢٢٢، ٣٦٢)، وأبو داود (٣٢٠٠).

(٢) أخرجه أبو داود (٣١٩٩)، وابن ماجه (١٤٩٧).

(٣) أخرجه مسلم (٩٤٧).

وهذا فيه رد على من يتعلقون بالأموات، ويطلبون منهم الحوائج، الأموات بحاجة إلى من يدعو لهم وإلى من يستغفر لهم؛ لأنهم انقطعت أعمالهم، هم بحاجة إلى من يجري عليهم أعمالًا صالحة تنفعهم عند الله عَزَّوَجَلَّ، فكيف يطلب منهم قضاء الحاجات وتفريج الكربات وإغاثة اللهفات؟!

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وفي «سنن أبي داود» عن أبي هريرة** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ**، أن رسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قال: «إِذَا صَلَّيْتُمْ عَلَى المَيِّتِ، فَأَخْلِصُوا لَهُ الدُّعَاءَ»)**، أخصلوا له الدعاء يعني: ادعوا له بالدعاء الخالص الخالي من البدعة، والخالي من الشرك، الموافق للكتاب والسنة، أخلصوا له الدعاء، لا يدعى له بأي دعاء، دعاء المبتدعة ودعاء الجهال.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقالت عائشة وأنس** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا**، عن النبي** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَا مِنْ مَيِّتٍ يُصَلِّي عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ المُسْلِمِينَ يَبْلُغُونَ مِئَةً، كُلُّهُمْ يَشْفَعُونَ لَهُ؛ إِلَّا شُفِّعُوا فِيهِ»)**، وهذا فيه استحباب تكثير المصلين على الميت، كل ما كثروا فهو أفضل.

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، **قال: سمِعتُ رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **يقول: «مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ، فَيَقُومُ عَلَى جَنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا، لَا يُشْرِكُونَ بِاللهِ شَيْئًا؛ إِلَّا شَفَّعَهُمُ اللهُ فِيهِ». رواه مسلم(١).**

فهذا مقصود الصلاة على الميت، وهو الدعاء له، والاستغفار، والشفاعة فيه. ومعلوم أنه في قبره أشدّ حاجة منه على نَعْشِه؛ فإنه حينئذٍ مُعرَّض للسؤال وغيره.

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وعن ابن عباس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، **قال: سمِعتُ رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **يقول: «مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ، فَيَقُومُ عَلَى جَنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا، لَا يُشْرِكُونَ بِاللهِ شَيْئًا؛ إِلَّا شَفَّعَهُمُ اللهُ فِيهِ»)**، وهذا فيه أن من قام على جنازته أربعون، يدْعون له، ويشفعون له؛ إلا شفعهم الله فيه، يعني: قَبِلَ شفاعتهم فيه.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(فهذا مقصود الصلاة على الميت)**، فهذا مقصود الصلاة على الميت، المقصود نفع الميت؛ لأنه انقطع عمله وانتقل إلى الدار الآخرة.

ومن محاسن الإسلام: أنه يعتني بأموات المسلمين ولا يقطع الصلة بهم، بل يشرع الصلاة عليهم والقيام على قبورهم بعد الدفن والاستغفار لهم، ثم يشرع زيارتهم بعد ذلك والسلام عليهم والدعاء لهم، فالمسلمون لا ينسون أمواتهم وهذا من محاسن الإسلام.

---

(١) أخرجه مسلم (٩٤٨).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومعلوم أنه في قبره أشدّ حاجة منه على نَعْشِه؛ فإنه حينئذٍ مُعرَّض للسؤال وغيره)**، هو في قبره إذا دُفِنَ وسد عليه اللحد، وأهيل عليه التراب هو أحوج ما يكون من كونه على النعش قبل الدفن؛ لأنه واجه الملَكين، يأتيه ملَكان في قبره بعد الدفن ويقعدانه، تُرَدُّ رُوحه في جسده، ويسألانه عن ثلاث مسائلَ: مَن ربُّك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟

فإن أجاب بإجابات صحيحة نجا، ووُسِّع عليه قبرُه، وفُتح له بابٌ إلى الجنة، وإن لم يوفق في الجواب إن كان يعيش على الشك وعلى النفاق قبل موته فإنه ينغلق عليه الجواب، ويقول: ها ها لا أدري! كلما سئل يقول: ها ها لا أدري![1] ينغلق عليه الجواب. قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم:٢٧].

❖ ❖ ❖

---

(١) سبق تخريجه (١/ ٥٠٠).

وقد كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقف على القبر بعد الدفن، فيقول: «سَلُوا لَهُ التَّثْبِيتَ؛ فَإِنَّهُ الْآنَ يُسْأَلُ»(١).

فعُلم أنه أحوج إلى الدعاء له بعد الدفن، فإذا كنا على جنازته ندعو له، لا نَدعو به، ونشفع له، لا نستشفع به، فبَعد الدفن أولى وأحرى.

فبدّل أهل البدع والشرك قولًا غير الذي قيل لهم، بدَّلوا الدعاءَ له بدعائه نفسه، والشفاعةَ له بالاستشفاع به.

وقصدوا بالزيارة - التي شرعها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إحسانًا إلى الميت وإحسانًا إلى الزائر، وتذكيرًا بالآخرة - سؤال الميت، والإقسام به على الله.

وتخصيص تلك البقعة بالدعاء الذي هو مُخّ العبادة وحضور القلب عندها وخشوعه أعظم منه في المساجد، وأوقات الأسحار.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقد كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقف على القبر بعد الدفن، فيقول: «سَلُوا لَهُ التَّثْبِيتَ؛ فَإِنَّهُ الْآنَ يُسْأَلُ»)، إذا فرغوا من دفن الميت وقف صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على قبره ووقف معه أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فقال لهم: «اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ وَاسْأَلُوا لَهُ التَّثْبِيتَ؛ فَإِنَّهُ الْآنَ يُسْأَلُ»، فيستحب الوقوف على قبر

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٢٢١) عن عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا فَرَغَ مِنْ دَفْنِ الْمَيِّتِ وَقَفَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: «اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ، وَسَلُوا لَهُ بِالتَّثْبِيتِ؛ فَإِنَّهُ الْآنَ يُسْأَلُ».

الميت بعد دفنه والدعاء له بالتثبيت، «اللهم اغفر له، اللهم ثبته»، يدعى له بالتثبيت وقت السؤال.

ولهذا قال جَلَّ وَعَلَا في المنافقين: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾ [التوبة:٨٤]. يعني بعد الدفن تدعو له، فدل على أنه يقف على قبور المؤمنين ويدعو لهم بعد الدفن.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فعُلم أنه أحوج إلى الدعاء له بعد الدفن، فإذا كنا على جنازته ندعو له)**، هذا محل البحث، هذا الرد على القبوريين.

إذا كان الميت بحاجة إلينا ندعو له ونشفع له، فكيف نحن نطلب منه حوائجنا ونتضرع إليه؟ هذا من الانتكاس.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(لا نَدعو به)**، لا ندعو به يعني: لا نتوسل به إلى الله؛ لأنه لا يجوز التوسل إلى الله بالمخلوق، الله لم يأمرنا بالتوسل بالمخلوق بالدعاء.

﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ ﴾ [الأعراف:٥٥].

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠]، فلم يقل: ادعوني بواسطة شخص أو بواسطة نبي أو ولي! لم يأمرنا بهذا، ادعُ الله مباشرة، والله قريب مجيب.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإذا كنا على جنازته ندعو له، لا نَدعو به، ونشفع له، لا نستشفع به، فبَعد الدفن أولى وأحرى)**، إذا كان وهو قبل الدفن لا يُدْعى به، يعني لا يتوسل به، ولا يستشفع به وهو لا يزال على وجه الأرض، فكيف إذا دُفن وغيب في القبر يستشفع به ويدعى من دون الله عَزَّوَجَلَّ؟! هذا فيه رد على القبوريين.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فبدّل أهل البدع والشرك قولًا غير الذي قيل لهم)**، ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ﴾ من بني إسرائيل، ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ ﴾ [البقرة:٥٩]. فالله قال لهم: ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ ﴾: يعني حط عنا ذنوبنا.

﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا ﴾: باب بيت المقدس.

﴿ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ ﴾ [البقرة:٥٨]: أي حط عنا ذنوبنا، فبدلوا بدل السجود لله دخلوا يزحفون على أَسْتَاهُم، بدلوا السجود، وبدل أن يقولوا: ﴿ حِطَّةٌ ﴾: حط عنا ذنوبنا، قالوا: حنطة، حنطة بالنون، حنطة يعني يريدون أكل، يطلبون من الله حنطة أكل، لم يطلبوا منه المغفرة وأن يحط عنهم ذنوبهم؛ ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ ﴾ [البقرة:٥٩].

فكذلك هؤلاء القبوريون بدلوا قولًا غير الذي قيل لهم؛ قيل لهم: ادعو للميت، صلوا عليه، ولكنهم دعوا الميت، بدل من أن يدعوا له دعوه من دون الله عَزَّوَجَلَّ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فبدّل أهل البدع والشرك قولًا غير الذي قيل لهم، بدّلوا الدعاءَ له بدعائه نفسه)**، بدلوا الدعاء له بدعائه من دون الله وطلب الحوائج منه!

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والشفاعةَ له بالاستشفاع به)**، وبدلوا الشفاعة له عند الله بالاستشفاع به؛ اتخاذه شفيعًا عند الله؛ ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس:١٨].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقصدوا بالزيارة - التي شرعها رسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **إحسانًا إلى الميت وإحسانًا إلى الزائر، وتذكيرًا بالآخرة - سؤال الميت)**، زيارة

القبور المقصود منها: نفع الميت بالدعاء، السلام عليه والدعاء له، وانتفاع الحي بحصول الأجر له، والاعتبار بالأموات، وتذكر الآخرة، عكسوا الأمر وجعلوا زيارة القبور للشرك بالله عَزَّوَجَلَّ، ودعاء الأموات، وطلب الحوائج من الأموات الفقراء العاجزين.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والإقسام به على الله)**، الإقسام به على الله: يقول: أسألك بفلان، يقول لله: أقسم عليك بفلان؛ لأن الباء للقسم، أسألك بفلان، يعني: أقسم بفلان عليك أن تقضي حاجتي!

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وتخصيص تلك البقعة بالدعاء الذي هو مُخّ العبادة)**، تخصيص البقعة التي هي القبر أو المقابر بالدعاء الذي هو مخ العبادة.

الدعاء هو العبادة أو هو مخ العبادة، أفضل أنواع العبادة: الدعاء، صرفوه لغير الله، صرفوا أحسن العبادة صرفوها لغير الله، فدعوا الأموات، وطلبوا منهم الحوائج بدل أن يدعوا الله!

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وحضور القلب عندها وخشوعه أعظم منه في المساجد، وأوقات الأسحار)**، يعني إذا جاؤوا إلى القبور حضرت قلوبهم وتضرعوا وبكوا، ولا يحصل منهم هذا في المساجد التي هي بيوت الله عَزَّوَجَلَّ، والتي هي موطن الدعاء والتضرع إلى الله، لا يتلذذون بالمساجد، وإنما يتلذذون بالمقابر! نسأل الله العافية.

ومن المُحال أن يكون دعاء الموتى أو الدعاء بهم أو الدعاء عندهم مشروعًا وعملًا صالحًا، ويُـصرف عنه القرون الثلاثة المفضّلة بنص رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم يُرْزَقَه الخُلوف الذين يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(ومن المُحال أن يكون دعاء الموتى أو الدعاء بهم أو الدعاء عندهم مشروعًا وعملًا صالحًا، ويُصرف عنه القرون الثلاثة المفضّلة)**، ومن المحال أن يكون دعاء الأموات أنفسهم أو الدعاء بهم؛ بأن يتخذوا وسائط بين الداعي وبين الله، أو أن الدعاء عندهم أفضل من الدعاء في المساجد، كل هذا من التغيير المنكر -والعياذ بالله- نحو المقابر والغلو فيها.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(أو الدعاء عندهم مشروعًا وعملًا صالحًا)**، أو الدعاء عندهم؛ يدعو الله لكن عند القبر، يظن أن الدعاء عند القبر أنه أقرب على الإجابة، وهذا كذب على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، الله لم يجعل القبور يُدعى عندها إلا الدعاء للميت فقط.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(ويُصرف عنه القرونُ الثلاثة المفضّلة)**، القرون الثلاثة المفضلة التي هي أفضل الأمة: قرن الصحابة، ثم قرن التابعين، ثم قرن أتباع التابعين، هذه الثلاثة، أو القرون الأربعة؛ لأن الراوي يقول: لأنه ذكر بعد قرني قرنين أو ثلاثة، فالقرون المفضلة: قيل: ثلاثة قرون، وقيل: أربعة قرون.

كيف تصرف القرون المفضلة عن هذا الذي يحصل عند القبور من الغلو والاستنجاد بالأموات ويوفق له هؤلاء الخلف المبتدعة؟! القدوة هم السلف وليس القدوة هم الخلف الضلال المبتدعة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(بنص رسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**)**، حيث قال: «**خَيْرُكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**»[1]. قال الراوي: «لاَ أَدْرِي أَذْكَرَ بَعْدَ قَرْنِهِ قَرْنَيْنِ، أَوْ ثَلَاثَةً». فالقرون المفضلة قيل ثلاثة، وقيل أربعة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ثم يُرْزَقَه الخُلوف الذين يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون)**، الخلوف: جمع خلف، جمع خلف؛ ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ﴾ [مريم:٥٩].

﴿خَلۡفٌ﴾، خَلْفٌ، لم يقل: خَلَف، قال: ﴿خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ [مريم:٥٩]. أما الخَلَف فهم محمودون، الخَلَف: الذين على الحق محمودون، أما الخلف فهذا مذموم؛ ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(الذين يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون)**، يقولون ما لا يفعلون: يعني يمدحون دعاء الله، لكنهم لا يفعلون هذا.

ويفعلون ما لا يؤمرون: يدعون الأموات ويتوسلون بهم، وهذا لم يأمر الله به ولا رسوله.

---

(١) سبق تخريجه (ص١٩١).

فهذه سُنة رسول الله ﷺ في أهل القبور بِضْعًا وعشرين سَنةً، حتى توفاه الله، وهذه سُنّة خلفائه الراشدين، وهذه طريقة جميع الصحابة والتابعين لهم بإحسان.

هل يُمكنُ بَشرًا على وجه الأرض أن يأتي عن أحد منهم بنقل صحيح، أو حسن، أو ضعيف، أو منقطع: أنهم كانوا إذا كان لهم حاجة قصدوا القبور فَدَعَوْا عندها، وتمسّحوا بها، فضلًا أن يُصلّوا عندها، أو يسألوا الله بأصحابها، أو يسألوهم حوائجهم؟ فَلْيُوقِفونا على أثر واحد، أو حرف واحد في ذلك.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(هل يُمكنُ بَشرًا على وجه الأرض أن يأتي عن أحد منهم بنقل صحيح، أو حسن، أو ضعيف، أو منقطع: أنهم كانوا إذا كان لهم حاجة قصدوا القبور فَدَعَوْا عندها، وتمسّحوا بها)**، أبدًا، ليس هناك نقل، لا صحيح، ولا حتى ضعيف، ولا منقطع السند، ليس هناك نقل، ليس هناك نقل أنهم كانوا يذهبون للقبور إذا احتاجوا للدعاء، ليس هناك دليل على هذا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(أنهم كانوا إذا كان لهم حاجة قصدوا القبور فَدَعَوْا عندها، وتمسّحوا بها)**، كما يفعله القبوريون.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فَلْيُوقِفونا على أثر واحد، أو حرف واحد في ذلك)**، يوقِفونا: هذا تحدي من الشيخ لهؤلاء.

يقول: إن كان عندهم علم يوقِفونا عليه، علم صحيح في هذا، ليس عندهم شيء.

بلى؛ يمكنهم أن يأتوا عن الخُلوف التي خلفت بعدهم بكثير من ذلك، وكلما تأخر الزمان وطال العهد كان ذلك أكثر، حتى لقد وُجِد في ذلك عدَّة مصنَّفات ليس فيها عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا عن خلفائه الراشدين ولا عن أصحابه حرف واحد من ذلك، بلى؛ فيها من خلاف ذلك كثير، كما قدمناه من الأحاديث المرفوعة.

وأما آثار الصحابة فأكثر من أن يُحاط بها، وقد ذكرنا إنكار عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صلاته عند القبر، وقوله له: «القَبْرَ القَبْرَ»(١).

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (بلى؛ يمكنهم أن يأتوا عن الخُلوف التي خلفت بعدهم بكثير من ذلك)، من الممكن أن يأتوا عن الخلوف والمبتدعة بأشياء يستدلون بها، وهي باطلة وليست بينة، أما السلف الصالح، فلا يمكنهم أن يأتوا بحرف واحد عنهم في هذا الموضوع.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وكلما تأخر الزمان وطال العهد كان ذلك أكثر)، كلما تأخر الزمان يفشو الجهل ويكثر الضلال والفتن- نسأل الله العافية- ويقل العلم، إلا أنه لا تزال طائفة كما أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري معلقًا في كتاب الصلاة (١/ ٩٣).

(٢) سبق تخريجه (ص٤٤٩).

قولـه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(حتـى لقد وُجِـد في ذلك عـدَّة مصنَّفات ليـس فيها عن رسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **ولا عن خلفائه الراشدين ولا عن أصحابه حرف واحد من ذلك)**، وُجِد عند الخلوف مصنفات في التعلق بالقبور والأضرحة ودعاء الأموات، مصنفات صنفوها ليس فيها حديث عن رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقبـل ذلـك ليس فيها آية قرآنيـة تدل على ما يقولون، كلهـا قال فلان، وقال علان، النقل عن أمثالهم من المبتدعة والضلال ليس فيها رسول الله، ولا عن أصحابه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(بلى؛ فيها من خلاف ذلك كثير، كما قدمناه من الأحاديث المرفوعة)**، فيها مما يخالف السلف الصالح الكثير، كلها مخالفة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وأما آثار الصحابة فأكثر من أن يُحاط بها، وقد ذكرنا إنكار عمر** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **على أنس** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **صلاته عند القبر، وقوله له: «القبر القبر»)**، عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حذر أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لما رآه يصلي عند قبر، قد لا يكون أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فطن له، ولم يدر عنه، ولكن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بحذره وشدة انتباهه، ناداه وقال له: «القَبْرَ القَبْرَ»، يحذره من الصلاة عند القبر.

وقد ذكر محمد بن إسحاق في «مغازيه» من زيادات يونس بن بكير، عن أبي خَلدة خالد بن دينار، قال: حدثنا أبو العالية، قال: لما فتحنا تُسْتَر وجدنا في بيتِ مال الهُرْمُزان سريرًا عليه رجل ميت، عند رأسه مصحف له، فأخذنا المصحف، فحملناه إلى عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فدعا له كَعبًا، فنسخه بالعربية، فأنا أول رجل من العرب قرأه، قرأته مثل ما أقرأ القرآن.

فقلت لأبي العالية: ما كان فيه؟ قال: سيرتُكم وأموركم ولُحون كلامكم، وما هو كائن بعدُ، قلت: فما صنعتم بالرجل؟ قال: حفرنا بالنهار ثلاثة عشر قبرًا متفرقة، فلما كان الليلُ دفنّاه وسوينا القبور كلها، لنُعَمِّيَه على الناس لا يَنْبشونه.

فقلت: وما يرجون منه؟ قال: كانت السماء إذا حُبست عنهم أبرزوا السرير فيُمْطَرون، فقلت: من كنتم تظنون الرجل؟ قال: رجل يقال له: دانيال، فقلت: مُنذْ كَمْ وجدتموه مات؟ قال: منذ ثلاث مئة سنة.

قلت: ما كان تغير منه شيء؟ قال: لا؛ إلا شُعيرات من قَفاه، إن لحوم الأنبياء لا تُبليها الأرض، ولا تأكلها السباع[1].

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (قال: لما فتحنا تُسْتَر)، تُسْتَر: في بلاد المشرق.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وجدنا في بيتِ مال الهُرْمُزان)، الهرمزان: هو ملك الفرس.

---

(١) انظر: سيرة ابن إسحاق (ص٦٦، ٦٧)، ودلائل النبوة للبيهقي (١/ ٣٨١، ٣٨٢).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**فدعا له كَعبًا**)، كعب: يعني كعب الأحبار؛ لأنه من أحبار اليهود منَّ الله عليه بالإسلام فأسلم وصار من التابعين.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**فقلت لأبي العالية: ما كان فيه؟ قال: سيرتُكم وأموركم ولُحون كلامكم، وما هو كائن بعدُ**)، دانيال: هذا نبي، وعنده أخبار جاءته بالوحي من الله في فضل هذه الأمة وسيرتها، الأمة المحمدية.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**قلت: فما صنعتم بالرجل؟ قال: حفرنا بالنهار ثلاثة عشر قبرًا متفرقة**)، الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أخذوا هذه الجنازة -جنازة دانيال- أخذوها من على السري الذي هو عليه، وحفروا ثلاثة عشر قبرًا من أجل أن يعموا على الناس معرفة قبره الخاص، فسووها كلها ودفنوها. وفي واحدة منها ثانية، لكنه لا يعرف أيها، فلم يعرفوه، فهذا فيه حرص الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ على البعد عن الغلو في الأموات، وإن كانوا من الأنبياء.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**فلما كان الليلُ دفنّاه**)، دفناه: يعني في واحدة من هذه القبور الثلاثة عشر، ولا يدرى أيها.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**فقلت: وما يرجون منه؟ قال: كانت السماء إذا حُبست عنهم أبرزوا السرير فيُمْطَرون**)، كانوا إذا قحط المطر يخرجون سرير دانيال ويسقون المطر.

ففي هذه القصة ما فعله المهاجرون والأنصار من تعمية قبره؛ لئلا يفتتن به الناس، ولم يُبْرزوه للدعاء عنده والتبرك به.

ولو ظفر به المتأخرون لجالدوا عليه بالسيوف، ولعبدوه من دون الله، فهم قد اتخذوا من القبور أوثانًا مَنْ لا يُداني هذا ولا يقاربه، وأقاموا لها سَدنَة، وجعلوها معابد أعظم من المساجد.

فلو كان الدعاء عند القبور، والصلاة عندها، والتبرك بها فضيلةً أو سنة أو مباحًا، لنصب المهاجرون والأنصار هذا القبر عَلَمًا لذلك، ودعوا عنده، وسنُّوا ذلك لمن بعدهم، ولكن كانوا أعلم بالله ورسوله ودينه من الخُلوف التي خلفت بعدهم.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ففي هذه القصة ما فعله المهاجرون والأنصار من تعمية قبره؛ لئلا يفتتن به الناس)، في فعل المهاجرين والأنصار رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ بدانيال، وأنهم عموا قبره على الناس لا يعرفونه قطعًا لوسيلة الشرك.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (لئلا يفتتن به الناس، ولم يُبْرزوه للدعاء عنده والتبرك به)، عموا قبره لا يدرى في أي القبور دفن من أجل ألا يعبد من دون الله، هذا ما عليه السلف الصالح من المحافظة على التوحيد، وقطع وسائل الشرك حتى مع الأنبياء، فكيف بغيرهم؟!

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ولو ظفر به المتأخرون لجالدوا عليه بالسيوف، ولعبدوه من دون الله، فهم قد اتخذوا من القبور أوثانًا مَنْ لا يُداني هذا ولا يقاربه)،

أخذوا من القبور أوثانًا لمن لا يداني دانيال في الفضل، ولا قريبًا منه وعبدوهم من دون الله بزعمهم أنه رجل صالح، وأنه يشفع لهم عند الله، هكذا زين لهم شياطين الإنس والجن.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وأقاموا لها سَدنَة، وجعلوها معابد أعظم من المساجد)**، هذا موجود الآن في كثير من البلاد إلا هذه البلاد حماها الله سبحانه بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب المجدد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وإلا كان فيها في الأول مثلما كان في البلاد الأخرى، ولكن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مع سلطة آل سعود لما بايعوه أزالوا هذه المعالم الشركية، ولا تزال البلاد طاهرة ولله الحمد، ونسأل الله أن تستمر على هذا، ونسأل الله أن يصلح أحوال المسلمين في كل مكان.

يجعلون على القبور أضرحة، ويجعلون لها سدنة مثل سدنة الكعبة، ويجعلون لها أوقافًا تصرف عليها.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فلو كان الدعاء عند القبور، والصلاة عندها، والتبرك بها فضيلةً أو سنة أو مباحًا، لنصب المهاجرون والأنصار هذا القبر عَلَمًا لذلك)**، لو كانت الصلاة عند القبور أو التوسل بها أو طلب الشفاعة منها مشروعًا لنصب المهاجرون والأنصار هذا الرجل الذي هو دانيال، نصبوه لهم يستشفعون به ويدعونه، ويطلبون منه حوائجهم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولكن كانوا أعلم بالله ورسوله ودينه من الخُلوف التي خلفت بعدهم)**، ولذلك أخفوا قبر دانيال، حفروا ثلاثة عشرة قبرًا ودفنوه في واحد منها حتى لا يعرف أي القبور؛ من أجل الحفاظ على التوحيد والعقيدة الصحيحة.

وكذلك التابعون لهم بإحسان راحوا على هذا السبيل، وقد كان عندهم من قبور أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالأمصار عدد كثير، وهم متوافرون، فما منهم من استغاث عند قبر صاحب، ولا دعاه، ولا دعا به، ولا دعا عنده، ولا استسقى به، ولا استنصر به، ومن المعلوم أن مثل هذا مما تتوفَّر الهمم والدّواعي على نقله، بل على نقل ما هو دونه.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وكذلك التابعون لهم بإحسان)**، التابعون لهم بإحسان.

التابعون: هم الجيل الذي جاء بعد الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، هؤلاء هم التابعون، ومن بعد التابعين يقال لهم أتباع التابعين.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وقد كان عندهم من قبور أصحاب رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **بالأمصار عدد كثير، وهم متوافرون، فما منهم من استغاث عند قبر صاحب، ولا دعاه، ولا دعا به، ولا دعا عنده، ولا استسقى به، ولا استنصر به)**، الصحابة بعد وفاة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ انتشروا في البلاد مجاهدين في سبيل الله، ومعلمين، ودعاة إلى الله، وتوفوا في أماكن متفرقة من البلاد الإسلامية، ودفنوا في مواطن موتهم، ولم يحصل غلو في قبورهم، وهم صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: المهاجرين والأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لم يحصل هذا عند قبورهم.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(ومن المعلوم أن مثل هذا مما تتوفَّر الهمم والدّواعي على نقله، بل على نقل ما هو دونه)**، لو كان التوسل بالقبور وطلب الحوائج منها مشروعًا لتوفرت الدواعي على نقل هذا عن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ والتابعين، في حين لم ينقل عنهم ولو حرف واحد في هذا؛ فدل على أنه غير مشروع.

وحينئذٍ فلا يخلو: إما أن يكون الدعاء عندها والدعاء بأربابها أفضل منه في غير تلك البقعة، أو لا يكون:

فإن كان أفضل فكيف خفي علمًا وعملًا على الصحابة والتابعين وتابعيهم؟ فتكون القرون الثلاثة الفاضلة جاهلةً بهذا الفضل العظيم، وتظفر به الخُلوف علمًا وعملًا؟

ولا يجوز أن يعلموه ويزهدوا فيه، مع حرصهم على كل خير، لا سيما الدعاء؛ فإن المضطر يتشبّثُ بكل سبب، وإن كان فيه كراهةٌ ما، فكيف يكونون مضطرين في كثير من الدعاء، وهم يعلمون فضل الدعاء عند القبور، ثم لا يقصدونه؟ هذا محال طبعًا وشرعًا.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإن كان أفضل فكيف خفي علمًا وعملًا على الصحابة والتابعين وتابعيهم؟)**، لو كان الدعاء عند القبور أفضل من الدعاء في مكان آخَرَ لكان الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، والتابعون، والقرون المفضلة أعلَمَ بهذا وأعرَفَ به، فلماذا تركوه وفيه هذا الفضل الذي يزعمه المتأخرون؟!!

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فتكون القرون الثلاثة الفاضلة جاهلةً بهذا الفضل العظيم، وتظفر به الخُلوف علمًا وعملًا؟)**، كيف يخفى هذا العلم على صحابة رسول الله وأتباعهم من القرون المفضلة، ويظفر بهذا المتخلفون الذين جاؤوا من بعدهم بعد فُشُوِّ الجهل والبدع والشركيات؟!!

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**ولا يجوز أن يعلموه ويزهدوا فيه، مع حرصهم على كل خير، لا سيما الدعاء**)، إما أنهم لم يعلموه وهذا بعيد؛ لأنه كيف يخفى على الصحابة والتابعين هذا الشيء أنهم لم يعلموه! وإما أنهم علموه وكتموه، وهذا أشد؛ لأن هذا من كتمان الحق، فكيف يكتمونه عن الناس!!

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**فإن المضطر يتشبّثُ بكل سبب، وإن كان فيه كراهةٌ ما، فكيف يكونون مضطرين في كثير من الدعاء، وهم يعلمون فضل الدعاء عند القبور، ثم لا يقصدونه؟**)، تصيبهم الشدائد والضرورات والنكبات، ولم يذكر أنهم يذهبون إلى القبور ويدعون عندها لكشف الضر، وكشف الغمة، وإنما يلجئون إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فدل على أن هذا غير مشروع، وأن القبور ليس عندها حل ولا عقد.

❖ ❖ ❖

فتعيَّن القسم الآخر، وهو أنه لا فضل للدعاء عندها، ولا هو مشروع، ولا مأذون فيه بقصد الخصوص، بل تخصيصها بالدعاء عندها ذَريعة إلى ما تقدم من المفاسد.

ومثل هذا مما لا يشرعه الله ورسوله البتة، بل استحبابُ الدعاء عندها شرعُ عبادةٍ لم يشرعها الله، ولم يُنزّل بها سلطانًا.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فتعيّن القسم الآخر، وهو أنه لا فضل للدعاء عندها ولا هو مشروع، ولا مأذون فيه بقصد الخصوص)، الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠].

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦]. في أي مكان، في أي وقت، ارفع يديك وادعو الله، والله قريب مجيب، هذا الذي أمرك الله به.

لم يقل: اذهب إلى القبر الفلاني أو إلى الولي الفلاني، وادعو عنده استجيب دعائك، هذا كذب على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وعلى رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (ومثل هذا مما لا يشرعه الله ورسوله البتة، بل استحبابُ الدعاء عندها شرعُ عبادةٍ لم يشرعها الله)، الله لم يشرع لنا الدعاء عند القبور، أئتوا بحرف واحد في أن الدعاء عند القبور مطلوب ومشروع؟ ليس هناك شيء.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (ولم يُنزّل بها سلطانًا)، سلطانًا: حجة، السلطان: هو الحجة.

وقد أنكر الصحابة ما هو دون هذا بكثير.

فروى غير واحد عن المَعْرُور بن سُوَيد، قال: «صليتُ مع عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في طريق مكة صلاة الصبح، فقرأ فيها: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ [الفيل:١]، و﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ [قريش:١]. ثم رأى الناس يذهبون مذاهب. فقال: أين يذهب هؤلاء؟ فقيل: يا أمير المؤمنين! مسجدٌ صلى فيه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهم يصلّون فيه. فقال: إنما هَلَك مَنْ كان قبلكم بمثل هذا، كانوا يتّبعون آثار أنبيائهم، ويتخذونها كنائس وبِيَعًا. فمن أدْرَكته الصلاة منكم في هذه المساجد فليُصَلِّ، ومَنْ لا فَليَمْضِ وَلا يتعمّدها»(١).

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (ثم رأى الناس يذهبون مذاهب، فقال: أين يذهب هؤلاء؟ فقيل: يا أمير المؤمنين! مسجدٌ صلى فيه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهم يصلّون فيه)، الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان في أسفاره يصلي إذا حضرته الصلاة، صلى في أمكنة كثيرة، ولم يتخذ شيء منها مسجدًا بعده يعتاده الناس يترددون عليه، مع أنه صلى في طريقه في أسفاره في أمكنة كثيرة، لم يتخذ منها شيء مسجد بعده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فقال: إنما هَلَكَ مَنْ كان قبلكم بمثل هذا، كانوا يتّبعون آثار أنبيائهم، ويتخذونها كنائس وبِيَعًا)، والعجيب أنهم يتركون آثار الرسول

(١) انظر: مصنف عبد الرزاق (٢/ ١١٨)، ومصنف ابن أبي شيبة (٢/ ١٥١).

التي هي سنة الرسول، وما ورد عنه في الكتاب والسنة، يتركون الاستدلال بهذا، ويأتون بقصص وحكايات باطلة لا أصل لها مكذوبة، ويتخذونها براهين يستدلون بها على باطلهم.

وكذلك أرسل عمر -رضي الله تعالى عنه- أيضًا؛ فقطَع الشجرة التي بايع تحتها أصحابُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(١)].

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**وكذلك أرسل عمر -رضي الله تعالى عنه- أيضًا؛ فقطَع الشجرة التي بايع تحتها أصحابُ النبي** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما مر بالحديبية التي حصل عندها صلح الحديبية، فقبل الصلح أرسل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى أهل مكة يتفاوض معهم، فأشيع أن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قُتِلَ، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طلب من أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أن يبايعوه على الموت، فبايعوه على الموت تحت الشجرة التي تسمى بيعة الرضوان[(٢)]؛ ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح:١٨]. الشجرة التي وقعت تحتها بيعة الرِّضوان[(٣)]. فلما رأى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ناس من الجهلة يذهبون إلى الشجرة، سأل أين يذهبون؟ قالوا: يذهبون إلى الشجرة التي وقعت تحتها البيعة، فأمر بها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقطعت؛ لأجل سد الذرائع التي تفضي إلى الشرك.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٢/ ١٥٠)، عن نافع، قال: «بَلَغَ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ أَنَّ نَاسًا يَأْتُونَ الشَّجَرَةَ الَّتِي بُويِعَ تَحْتَهَا، قَالَ: فَأَمَرَ بِهَا فَقُطِعَتْ».

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٢٩٦٠، ٤١٦٩، ٧٢٠٦، ٧٢٠٨)، ومسلم (١٨٦٠): عَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي عُبَيْدٍ، مَوْلَى سَلَمَةَ بْنِ الأَكْوَعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «قُلْتُ لِسَلَمَةَ: عَلَى أَيِّ شَيْءٍ بَايَعْتُمْ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الحُدَيْبِيَةِ؟ قَالَ: عَلَى المَوْتِ».

(٣) انظر قصة صلح الحديبية في: سيرة ابن هشام (٢/ ٣٠٨-٣٢٣)، والروض الأنف (٧/ ٧٦)، وتاريخ الطبري (٣/ ٧١)، والسيرة النبوية لابن كثير (٣/ ٣١٢-٣٣٧).

بل قد أنكر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الصحابة لمّا سألوه أن يجعل لهم شَجَرة يُعلّقون عليها أسلحتهم ومتاعَهم بخصوصها.

فروى البخاري في «صحيحه» عن أبي واقِد اللَّيثي، قال: «خَرَجْنا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قِبَلَ حُنَيْنٍ، وَنَحْنُ حديثُو عَهْدٍ بِكُفْرٍ، ولِلْمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ يَعْكُفُونَ حولها، ويَنُوطُونَ بها أَسْلِحَتَهُمْ، يُقَالُ لها: ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فَمَرَرْنَا بِالسِّدْرَةِ، فَقُلْنَا: يا رَسُولَ اللهِ، اجْعَلْ لنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَما لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فَقَالَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اللهُ أَكْبَرُ! هَذَا كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف:١٣٨]! لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»(١).

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (بل قد أنكر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الصحابة لمّا سألوه أن يجعل لهم شَجَرة يُعلّقون عليها أسلحتهم ومتاعَهم بخصوصها)، هذا في غزوة حنين؛ لما خرج معه ناس من أهل مكة حديثي عهد بالإسلام، ولم يعرفوا التوحيد تمام المعرفة؛ لأنهم حديثو عهد بالإسلام، وهم على الجاهلية.

فلما مروا على قوم يعلقون أسلحتهم بشجرة يقال لها: ذات أنواط، يتبركون بها، ويناطون بها أسلحتهم. قالوا: «يَا رَسُولَ اللهِ، اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ. قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قُلْتُمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ كَمَا

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ٤٧٩)، وأحمد (٣٦/ ٢٢٥)، والترمذي (٢١٨٠)، وقال: (حديث حسنٌ صحيح).

قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف:١٣٨]». فهذا فيه التحذير من التشبه بالكفار، ولا سيما في أمور العقيدة وأمور الدين، وفيه قطع الوسائل التي تفضي إلى الشرك.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فقال النبي** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **اللهُ أَكْبَرُ! هَذَا كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾** [الأعراف:١٣٨]**! لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ)**، هذا الحديث فيه فائدة عظيمة، وهي خطر التشبه بالكفار، وفيه خطر الجهل بالتوحيد؛ فإن هذين الخطرين يجران إلى عواقب وخيمة.

فالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما فتح الله عليه مكة، وتمكّن من أهلها وعفا عنهم، وقال: «**اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ**»(١)، بعد ما تمكن منهم، وقد آذوه وضايقوه وأخرجوه من مكة، ومع هذا عفا عنهم، قال: «**اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ**»، وأسلم منهم ناس في هذه الأيام، ومنهم أبو واقد هذا، أسلم أيام فتح مكة.

لما بلغ هوازن وهي قبيلة كبيرة حوالي مكة، وفي داخل مكة أيضًا، هوازن هم الذين يقال لهم عتيبة الآن، فلما بلغهم أن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فتح مكة خافوا على أنفسهم أن يخرج إليهم فتجمعوا، جمعوا كيدهم ليحاربوا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يريدون أن يأتوا إليه في مكة، فالرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما علِم بادرهم، وخرج إليهم في جمع معه كبير من المسلمين من المهاجرين والأنصار رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ومن أسلم من أهل مكة، خرج باثنَيْ عشَرَ ألْفَ مجاهد

---

(١) أخرجه ابن إسحاق عن بعض أهل العلم كما سيرة ابن هشام (٢/ ٤١٢).

مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، خرج إلى حنين، وحُنَيْنٌ وادٍ قريب من مكة عند الجِعْرَانة، أو ما يقرب منها[1]، خرج إليهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفيهم أناس أسلموا حديثًا، ولم يتعلموا التوحيد مثل أبي واقد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فلما مرُّوا بشجرة للمشركين يعكفون عندها: يعني يتبركون بها، يعكفون عندها ويعلقون بها أسلحتهم تبركًا بها، تسمى ذات أنواط؛ لأنهم ينوطون أي: يعلقون، أسلحتهم بها.

فقال الذين أسلموا حديثًا ولم يتعلموا التوحيد، حدثاء عهد بالإسلام أو بكفر، حدثاء عهد بكفر، قالوا: «يَا رَسُولَ اللهِ، اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ»: اجعل لنا شجرة نعلق بها أسلحتنا ونتبرك بها، كما لهم ذات أنواط، فتعجَّب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من هذه المقالة وقال مستنكرًا لها: «**اللهُ أَكْبَرُ!**»، وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أعجبه شيء، أو استنكر شيئًا كبر، أو يسبح الله، يقول سبحان الله، أو يقول الله أكبر.

قال: «**اللهُ أَكْبَرُ! إِنَّهَا السُّنَنُ**»: أي الطرق المتبعة، طرق المقلدين المتشبهين من قبلكم.

«**إِنَّهَا السُّنَنُ، قُلْتُمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى:** ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف:١٣٨]» قال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف:١٣٨]. هذا السبب أنهم يجهلون.

﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ [الأعراف:١٣٩]: يعني: باطل.

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٤٤٤)، وطبقات ابن سعد (٢/ ١١٤)، والروض الأنف (٧/ ٢٨٦)، وتفسير الطبري (١١/ ٣٨٩).

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾: متبر يعني: مدمر، والتتبير هو التدمير. ﴿ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف:١٣٩].

ثم قال: «**لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ**»: هذا التشبه.

«**لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ**»: أي: طُرُق.

«**مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ**»: قذة السهم بقذته الأخرى؛ بأن يجعل له ريش حتى يتعادل إذا أرسل، كل جانب يسمى القذة من الريش.

«**حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ**»: مع أن جحر الضب معروف بأنه عسِر وضيق.

لكن التشبه حتى في الأمور التافهة يحصل من بعض الجهلاء، وهي أمور تافهة، أما التشبه بالخير والتشبه بالأعمال الصالحة هذا طيب، أما التشبه بالأمور التافهة أو الأمور المحرمة وهي أشد.

فبيَّن صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن سبب هذه المقالة: التشبه، وأن التشبه يجر إلى الشرك أحيانًا؛ لأنهم يستحسنون ما عليه الغير حتى ولو كان شركًا.

ولم يقع عبَّاد القبور اليوم في الشرك إلا بالتشبُّه، يتشبهون بمن قبلهم ويتعلقون بالقبور، ويشركون بالله عَزَّوَجَلَّ، فالتشبه خطير جدًّا.

ولذلك شيخ الإسلام ابن تيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ بنى كتابه» اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم:» على التحذير من التشبه، كل الكتاب في هذا الموضوع: التحذير من التشبه بالكفار والتشبه بالعصاة، التشبه المذموم.

«**قُلْتُمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ**»: أقسم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من باب التأكيد، وهو الصادق المصدوق.

«**كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ**»: بنو إسرائيل لما خرجوا من مصر مع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وعلم فرعون بخروجهم خرج بجموعه وبقضه وقضيضه في أثرهم، حتى توافوا عند البحر. قالوا: البحر أمامنا والعدو من خلفنا: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء:٦١]، قال موسى: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء:٦١]، فأوحى الله إليه: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾ [الشعراء:٦٣]: فضرب البحر فتجمد وصار طرقًا على عدد بني إسرائيل، أسباط بني إسرائيل، فسلكوه طريقًا يبسًا وهو بحر يبسه الله وصار طرقًا على عدد بني إسرائيل، فلما تكاملوا خارجين دخل فرعون وقومه في أثرهم، فلما تكاملوا داخلين أطبقه الله عليهم فغرقوا عن أخرهم، ونجَّى الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وقومه وأهلك فرعون وقومه، ومع هذا لما مرُّوا على قوم يعكفون على أصنام لهم، قالوا: ﴿يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف:١٣٨]: تشبه.

﴿وَجَـٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَـٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [الأعراف:١٣٨-١٤١]. إلى آخر الآيات. هذا الذي حصل من بني إسرائيل مع موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

حصل مثله لهؤلاء الذين خرجوا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوة حنين وهم جديدو عهد بالإسلام، لم يتمكن الإيمان من قلوبهم، ولم يتعلموا.

ولما مروا على شجرة عندها المشركون يعكفون ويتبركون بها ويعلقون بها أسلحتهم، قالوا: «يَا رَسُولَ اللهِ، اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ».

فتعجَّب الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكبَّرَ الله: «**اللهُ أَكْبَرُ، إِنَّهَا السُّنَنُ**»: أي الطرق، طرق التشبه.

«**قُلْتُمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾** [الأعراف:١٣٨]». التبرك بالأشجار والأحجار يجعلها آلهة تعبد من دون الله، ولم تعبد القبور والاشجار والأضرحة إلا من باب التبرك بها، طلب البركة منها، فهذه قضية خطيرة جدًّا، فالتشبه خطير، ولا يجوز التشبه؛ ولهذا قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ**»(١)؛ فلا يجوز التشبه بالكفار، ويقال هذه الحضارة وهؤلاء أهل تقدم وهؤلاء، وهؤلاء، ويعظمون ويقتدى بهم، هم أهل الحضارة، وهم الذين عندهم المعرفة وعندهم... فيعظمون ويقتدى بهم.

لا، نحن عندنا الإسلام لا يعادله شيء، الإسلام لا تعادله الدنيا بحذافيرها إن تمسكنا به، هم معهم زهرة الحياة الدنيا، لكن نحن معنا الإسلام الذي لا يعادله شيء، مع أن الإسلام لا يمنع من الانتفاع بخواص الأشياء ومنافعها، بل يحث على هذا.

لكن الشأن أننا لا نتشبه بالكفار ولا نعظم الكفار، ونعجب بما هم فيه من زهرة الحياة الدنيا؛ فإنه استدراج لهم، ولا نستحقر أحوال المسلمين، وإن

---

(١) أخرجه أحمد (٩/ ١٢٦)، وأبو داود (٤٠٣١)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

كان المسلمون ضعفاء، وإن كان ليس بيدهم مادَّة وليس عندهم حضارة، معهم الإسلام الذي لا يعادله شيء.

فنحن على نعمة ولله الحمد؛ عندنا الدين، وعندنا الإسلام، وهم ماذا معهم؟ معهم زهرة الحياة الدنيا، وليس عندهم دين أصلًا، كفار، وهل تنفعهم زهرة الدنيا إذا استُدرجوا بها؟ لا تنفعهم.

فنحن معنا الإسلام والحمد لله، ومن معه الإسلام لم يفته شيء، بل معه كل شيء، والحمد لله.

فإذا كان اتِّخاذُ هذه الشجرة لتعليق الأسلحة والعكوف حولها اتخاذَ إله مع الله، مع أنهم لا يعبدونها، ولا يسألونها.

فما الظن بالعكوف حول القبر، والدعاء به ودعائه، والدعاء عنده؟ فأيّ نِسبةٍ للفتنة بشجرة إلى الفتنة بالقبر؟ لو كان أهل الشرك والبدعة يعلمون!

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإذا كان اتخاذُ هذه الشجرة لتعليق الأسلحة والعكوف حولها اتخاذَ إله مع الله، مع أنهم لا يعبدونها)**، إذا كان اتخاذ هذه الشجرة مع أنهم لا يسجدون لها ولا يركعون لها، ولا يدعونها أيضًا، وإنما يتبركون بها، إذا كان هذا اتخاذ آلهة، فما هو أشد، لمجرد التبرك يصل إلى هذه الدرجة، فكيف بمن يركع ويسجد للقبور، وينحر لها ويذبح لها، وهو من أهل الإسلام، يدعي الإسلام؟!

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإذا كان اتخاذُ هذه الشجرة لتعليق الأسلحة والعكوف حولها اتخاذَ إله مع الله)**، العكوف حولها، العكوف حولها تبركًا بها.

والاعتكاف: هو المكث عند الشيء والعكوف عنده، ومنه الاعتكاف في المساجد، وهو المكث في المساجد لعبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فما الظن بالعكوف حول القبر، والدعاء به ودعائه، والدعاء عنده؟)**، العكوف عند القبر: يعكفون عند القبور ويحجون لها حجًّا، ويقيمون عندها أيامًا، ويذبحون عندها أنواعًا من بهيمة الأنعام يتقربون إليها كما هو عند البدوي وغيره.

فهذا شيء معلوم مما يقع منهم الآن، وهم يدَّعون الإسلام، يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، لكن يبطلونها، يبطلون الشهادة بالشرك -والعياذ بالله-.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فما الظن بالعكوف حول القبر)**، العكوف عند القبر تبركًا به، وهو أن ينزل عنده أيامًا يتبرك به، العكوف.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والدعاء به)**، والدعاء به: أتوسل إليك بمحمد، بالولي الفلاني.

التوسل إلى الله بالأشخاص لا يجوز؛ وسيلة إلى الشرك، لا الأنبياء ولا غيرهم ودعائه، لا تتوسل بالأشخاص، توسل بالأعمال الصالحة لا بالأشخاص، توسل باتباعك للرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا تتوسل بالرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والدعاء به، ودعائه)**، الدعاء به: يعني يجعله واسطة بينه وبين الله.

وأشد من ذلك دعائه؛ يدعون الميت؛ يا فلان انقذنا، يا فلان فرج لنا، حتى إنهم إذا وقعوا في الشدائد يهتفون بمعبوداتهم.

المشركون الأولون إذا وقعوا في الشدة أخلصوا الدعاء لله، وهؤلاء إذا وقعوا في الشدة زاد شركهم؛ ينادون الأولياء والصالحين والموتى لينقذوهم من الشدة، والعياذ بالله.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والدعاء عنده؟)**، والدعاء عنده: يعني يظن أنه إذا دعا عند القبر يستجاب دعاؤه، هو لا يدعو القبر، إنما يدعو الله، لكن عند القبر، ليس الدعاء عند القبر مشروعًا؛ لأنه وسيلة إلى الشرك، فإذا أردت أن تدعو الله ادعُ الله بعيدًا عن القبر.

ولهذا المسلمون إذا سلَّموا على الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ تنحوا ووقفوا في المسجد واستقبلوا القبلة ودعوا الله عَزَّ وَجَلَّ، لا يدْعون القبر، ولا يتوجهون إليه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فأيّ نِسبَةٍ للفتنة بشجرة إلى الفتنة بالقبر؟ لو كان أهل الشرك والبدعة يعلمون!)**، أي فتنة أشد من الفتنة بالقبر أشد من الفتنة بالشجرة.

قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قُلْتُمْ: كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾** [الأعراف:١٣٨]، قالوا للرسول: اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ».

قال بعض أهل العلم من أصحاب مالك: فانظروا -رحمكم الله- أينما وجدتم سِدْرة أو شجرة يقصدها الناس، ويعظمونها، ويَرجُون البُرءَ والشفاء من قِبَلها، ويَضْربُون بها المسامير والخِرَق؛ فهي ذاتُ أنواط، فاقطعوها[1].

ومن له خِبرة بما بعث الله به رسوله، وبما عليه أهل الشرك والبدع اليوم في هذا الباب وغيره، عَلِمَ أن بين السلف وبين هؤلاء الخُلوف من البُعْد أبعد ما بين المشرق والمغرب، وأنهم على شيء والسلف على شيء، كما قيل:

سَارَتْ مُشَرِّقَةً وَسِرْتَ مُغَرِّبًا   شَتَّانَ بَيْنَ مُشَرِّقٍ ومُغَرِّبِ

والأمر والله أعظم مما ذكرنا.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (قال بعض أهل العلم من أصحاب مالك: فانظروا -رحمكم الله- أينما وجدتم سِدْرة أو شجرة يقصدها الناس، ويعظمونها، ويَرجُون البُرءَ والشفاء من قِبَلها، ويَضْربُون بها المسامير والخِرَق؛ فهي ذاتُ أنواط، فاقطعوها)، اقطعوها؛ إزالة للشرك.

والقطع وإزالة الأشياء هذه للسلطان، ليس كل واحد يهدم القبر أو يقطع الشجرة، لكن السلطان ولي أمر المسلمين هو الذي يقطعها، هو الذي يقطعها.

---

(١) الكلام لأبي بكر الطرطوشي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه الحوادث والبدع (ص٣٨، ٣٩)، وسيصرح المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ باسمه بعدُ.

عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما مر بالحديبية التي وقع فيها الصلح بين الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبين المشركين عام الحديبية، رأى الناس يذهبون إليها، قال: أين يذهب هؤلاء؟ قالوا: يذهبون إلى شجرة بيعة الرضوان، التي وقعت تحتها البيعة؛ ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح:١٨]. شجرة في الحديبية، بايعوا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تحتها على الجهاد في سبيل الله عَزَّ وَجَلَّ؛ ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح:١٨].

فلما قيل لعمر: إنهم يذهبون إلى شجرة البيعة، أمر بها فقطعت، قطعت شجرة البيعة التي في الحديبية؛ حماية للتوحيد، وقطعًا لوسيلة الشرك.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(عَلِمَ أن بين السلف)**، السلف يراد بهم: الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ والتابعون ومن اقتدى بهم من القرون المفضلة ومن جاء بعدهم ممن سار على منهجهم، هؤلاء هم السلف، سلف الأمة، وكانوا على التوحيد الخالص: عبادة الله وحده لا شريك له.

أولئك يقال لهم: السلف، وأما هؤلاء يقال لهم الخلوف يعني جمع خلْف؛ ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾ [مريم:٥٩].

فالخَلْف يقال للمذموم، وأما الخَلَف فيقال للمحمود، ولهذا يقال لمن اتبع السلف، يقال لهم: الخَلَف، الخَلَف.

أما الخَلْف فهو مذموم يقال لمن أساء العمل والاقتداء بمن قبله؛ ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾ [مريم:٥٩]. خَلْفٌ، ولم يقل: خَلَفٌ؛ لأن خَلَف كلمة محمودة، أما خَلْف كلمة مذمومة يجمع على خلوف.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (سَارَتْ مُشَرِّقَةً وَسِرْتَ مُغَرِّبًا* شَتَّانَ بَيْنَ مُشَرِّقٍ ومُغَرِّبِ)، بين السلف وبين هؤلاء خلاف بعيد، كمن ذهب إلى المشرق مع من ذهب إلى المغرب:

سَارَتْ مُشَرِّقَةً وَسِرْتَ مُغَرِّبًا ... شَتَّانَ بَيْنَ مُشَرِّقٍ ومُغَرِّبِ

وقد ذكر البخاري في «الصحيح» عن أمّ الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: «دخل عليَّ أبو الدرداء مُغضَبًا، فقلت له: ما لَك؟ فقال: والله ما أعرف فيهم شيئًا من أمر محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا أنهم يصلون جميعًا»(١)!

وروى مالك في «الموطأ» عن عمه أبي سُهيل بن مالك، عن أبيه، أنه قال: «ما أعرف شيئًا مما أدركتُ عليه الناس إلا النِّداء بالصلاة»(٢)، يعني: الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(عن أمّ الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: دخل عليَّ أبو الدرداء مُغضَبًا، فقلت له: ما لَك؟ فقال: والله ما أعرف فيهم شيئًا من أمر محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا أنهم يصلون جميعًا!)**، أبو الدرداء من أصحاب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من متأخري الصحابة، حصل تغير في عهده وهو في عهد الصحابة، حصل تغير في عهده وأنكر ذلك في الناس، قال: والله لا أعرف مما كان عليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهم إلا أنهم يصلون جميعًا.

حدث تغير، كلما تغير الزمان يحدث التغير، ويفشو الجهل، ولهذا يحذر المسلمون من الفتن ومن الشرور.

ومن الذين يأتون وهم لا يعرفون التوحيد ولا يعرفون الشرك، ولايعرفون ما كان عليه السلف، وينظرون إلى ما عليه الغرب وأتباع الغرب وأذنابهم فيعظمون الغرب، ويأمرون بأخذ حضارتهم وأخذ ما هم عليه.

---

(١) أخرجه الإمام البخاري (٦٥٠).

(٢) أخرجه الإمام مالك في الموطأ (١/ ٧٢).

وليتهم يأخذون عن الغرب الأشياء المفيدة كالصناعة والاختراعات وعلوم الطب، لكنهم يأخذون القشور التي لا فائدة فيها، ويتركون الشيء المفيد.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وروى مالك في «الموطأ» عن عمه أبي سُهيل بن مالك، عن أبيه، أنه قال: ما أعرف شيئًا مما أدركتُ عليه الناس إلا النّداء بالصلاة؛ يعني الصحابة** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ**)**، إذا كان هذا حدث في متأخِّري الصحابة من التغير، فكيف بمن جاء بعدهم في القرن الرابع أو الخامسَ عشَرَ أو الآن؟!

وقال الزهريّ: «دخلت على أنس بن مالك بدمشق، وهو يبكي، فقلت له: ما يُبكيك؟ فقال: ما أعرف شيئًا مما أدركتُ إلا هذه الصلاة، وهذه الصلاة قد ضُيّعت»، ذكره البخاري(١).

وفي لفظ آخر: «ما كنت أعرف شيئًا على عهد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا قد أنكرته اليوم».

قال الحسن البصري: «سأل رجل أبا الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فقال: رحمك الله! لو أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين أظهرنا هل كان ينكر شيئًا مما نحن عليه؟ فغضب، واشتد غضبه، وقال: وهل كان يعرف شيئًا مما أنتم عليه؟».

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال الزهريّ: دخلت على أنس بن مالك بدمشق، وهو يبكي، فقلت له: ما يُبكيك؟ فقال: ما أعرف شيئًا مما أدركتُ إلا هذه الصلاة، وهذه الصلاة قد ضُيّعت)، ضيعت الصلاة، ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [مريم:٥٩].

تخلف كثير في عهد الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، متأخري الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أنكروا على أهل زمانهم وما هم فيه من التغير عمن سبقهم، فكيف بمن جاء بعدهم؟!

---

(١) أخرجه البخاري (٥٣٠).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قال الحسن البصري: سأل رجل أبا الدرداء** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **فقال: رحمك الله! لو أن رسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **بين أظهرنا هل كان ينكر شيئًا مما نحن عليه؟ فغضب، واشتد غضبه، وقال: وهل كان يعرف شيئًا مما أنتم عليه؟)**، هذا من أبي الدرداء بيان لاختلاف الناس عما كان عليه رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذاك الزمان في وقت أبي الدرداء، فكيف بما نحن فيه الآن؟!

وقال المبارك بن فَضَالة: «صلى الحسنُ الجمعة وجلس، فبكى، فقيل له: ما يبكيك يا أبا سعيد؟ فقال: تلومونني على البكاء، ولو أن رجلًا من المهاجرين اطّلع من باب مسجدكم ما عرف شيئًا مما كان عليه على عهد رسول الله صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنتم اليوم عليه؛ إلا قِبْلَتكم هذه!».

وهذه هي الفتنة العظمى التي قال فيها عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «كيف أنتم إذا لَبِستكم فتنة، يَهْرَم فيها الكبير، وينشأ فيها الصغير، تجري على الناس، يتخذونها سُنة؛ إذا غُيّرت قيل: غُيّرت السنة، أو هذا منكر»[1].

الشَّرح

قوله رَحِمَهُٱللَّهُ: (وقال المبارك بن فَضَالة: صلى الحسنُ الجمعة وجلس، فبكى، فقيل له: ما يبكيك يا أبا سعيد؟ فقال: تلومونني على البكاء، ولو أن رجلًا من المهاجرين اطّلع من باب مسجدكم ما عرف شيئًا مما كان عليه على عهد رسول الله صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنتم اليوم عليه؛ إلا قِبْلَتكم هذه!)، تغير كثير.

قوله رَحِمَهُٱللَّهُ: («كيف أنتم إذا لَبِستكم فتنة، يَهْرَم فيها الكبير، وينشأ فيها الصغير، تجري على الناس، يتخذونها سُنة؛ إذا غُيّرت قيل: غُيّرت السنة، أو هذا منكر»)، هذا ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يقول: يتخذ الناس أمورًا تُعَدُّ من السُّنَّة، وهي ليست من السنة، فإذا غيرت قيل: غيرت السنة؛ لأنهم يعتقدون أنها من السنة، وهي ليست من السنة، السنة: ما كان عليه الرسولُ صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأصحابُه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، هذه هي السنة.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ٤٥٢)، والدارمي (١/ ٢٧٨).

وإذا كان هذا في عهد ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فكيف بالعهد المتأخر، والمتأخر جدًّا؟! يكثر التغير والجهل، ويكثر الجهال، والمتعالمون وأدعياء العلم؛ فيحصل التغير الكثير؛ يفتون بغير علم، فيَضِلُّون ويُضلون.

وهذا مما يدل على أن العمل إذا جرى على خلاف السنة فلا عبرة به، ولا التفات إليه؛ فإن العمل قد جرى على خلاف السنة منذ زمن أبي الدرداء، وأنس، كما تقدم.

وذكر أبو العباس أحمد بن يحيى: حدثني محمد بن عُبيد بن ميمون، حدثني عبد الله بن إسحاق الجعفري، قال: «كان عبد الله بن الحسن يُكْثِرُ الجلوس إلى ربيعة. قال: فتذاكروا يومًا السّنن، فقال رجل كان في المجلس: ليس العمل على هذا، فقال عبد الله: أرأيت إن كثر الجهّال، حتى يكونوا هم الحكّام، فهم الحجة على السنة؟ فقال ربيعة: أشهد أن هذا كلام أبناء الأنبياء»(١).

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهذا مما يدل على أن العمل إذا جرى على خلاف السنة فلا عبرة به)**، مقياس العمل الصحيح: ما كان موافقًا لسنة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما كان مخالفًا لسنة الرسول فلا عبرة به وإن كان عليه أكثر الناس أو عليه من يدعي العلم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإن العمل قد جرى على خلاف السنة منذ زمن أبي الدرداء، وأنس، كما تقدم)**، الآن الأمصار التي فيها عبادة القبور والأضرحة فيها علماء، فيها علماء ولكنهم لا يغيرون شيئًا؛ إما أنهم يجارون الناس على ما هم عليه ويشاركونهم، وما أنهم لا يجارونهم ولا يشاركونهم، ولكنهم

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه (١/ ٣٨٠).

لاينكرون الشيء هذا، وإذا لم ينكروه فإن هذا خطر عظيم، إذا الناس رأوا المنكر ولم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**يُكْثِرُ الجلوس إلى ربيعة**)، ربيعة: شيخ الإمام مالك، ربيعة بن فَرُّوخَ، يقال: ربيعة الراي، هذا شيخ الإمام مالك، ربيعة بن عبد الرحمن.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**قال: فتذاكروا يومًا السّنن، فقال رجل كان في المجلس: ليس العمل على هذا، فقال عبد الله: أرأيت إن كثر الجهّال، حتى يكونوا هم الحكّام، فهم الحجة على السنة؟ فقال ربيعة: أشهد أن هذا كلام أبناء الأنبياء**)، ليست العبرة بكثرة مَن على المخالفة، العبرة بمَن كان على السنة ولو كان واحدًا، وأما المخالفون وإن كانوا بالمئات والآلاف فلا عبرة بهم.

فصـــل

ومن أعظم مكايده: ما نصبَهُ للناس من الأنصاب والأزلام التي هي مِنْ عمله، وقد أمر الله تعالى باجتناب ذلك، وعَلّق الفلاح باجتنابه، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة:٩٠].

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومن أعظم مكايده: ما نصبَهُ للناس من الأنصاب والأزلام التي هي مِنْ عمله)**، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ﴾ [المائدة:٩٠]، الأنصاب هي الأصنام، الحجارة المنصوبة تعبد ويذبح عليها لغير الله.

﴿وَالْأَزْلَامُ﴾: القداح التي يستقسمون بها؛ ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾ [المائدة:٣]. محل القرعة؛ إذا أرادوا شيئًا وأشكل عليهم الصواب فيه يدخل فيه ويخرج واحد من الرقاع التي في داخل الجراب، يقرأ الكتابة التي عليها: امْضِ أو لا تمضِ، فيمضي إذا كان عليها امْضِ، وإذا كان لا تمضِ جلس!

﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾ [المائدة:٣]. هذا لا يجوز، الله شرع لنا الاستخارة بدل الأزلام؛ إذا هممت بأمر وأشكل عليك: هل هو أمرٌ مفيد أو غير مفيد، هل هو من صالحك أو لا؟

تصلي ركعتين وادعو بدعاء الاستخارة، أردت أن تسافر، أردت أن تتزوج، أردت أن تشارك رجلًا، ولم تعرف حاله واشكل عليك هل تشاركه أو لا؟ صلِّ صلاة الاستخارة وادعُ بعدها وستوفق بإذن الله.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقد أمر الله تعالى باجتناب ذلك، وعَلّق الفلاح باجتنابه، فقال:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٌ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[المائدة:٩٠])، الخمر معروف. والميسر هو القمار.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [المائدة:٩٠])، ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾: يعني فمن لم يجتنب فليس بمفلح.

فالأنصاب: كل ما نُصِب يُعْبد من دون الله من حجر، أو شجر، أو وثنٍ، أو قبرٍ، وهي جمع، واحدها نُصْب، كطنْب وأطناب.

قال مجاهد وقتادة، وابن جريج: «كانت حول البيت أحجار كان أهل الجاهلية يذبحون عليها، وُيشرِّحون اللحم عليها، وكانوا يعظمون هذه الحجارة ويعبدونها، قالوا: وليست بأصنام، إنما الصنم ما يُصَوَّر ويُنقش»(١).

وقال ابن عباس: «هي الأصنام التي تُعَبد من دون الله».

وقال الزّجاج: «حجارة كانت لهم يعبدونها، وهي الأوثان».

وقال الفرّاء: «هي الآلهة التي كانت تُعَبد، من أحجار وغيرها».

وأصل اللفظة: الشيء المنصوب الذي يقصده من رآه؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ [المعارج:٤٣].

قال ابن عباس: إلى غاية أو عَلَمٍ يُسرعون.

وهو قول أكثر المفسرين.

وقال الحسن: يعني: إلى أنصابهم، أيُّهم يستلمها أولًا.

قال الزجاج: وهذا على قراءة من قرأ ﴿ نُصُبٍ ﴾ بضمتين، كقوله: ﴿ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ ﴾ [المائدة:٣]، قال: ومعناه: أصنام لهم.

والمقصود أن النُصُب كل شيء نُصِبَ، من خشبة أو حجر أو عَلَم.

والإيفاض: الإسراع.

---

(١) انظر: التفسير البسيط للواحدي (٧/ ٢٤٨ – ٢٥٣)، وقد أخذ المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أكثر مادة التفسير منه.

وأما الأزلام: فقال ابن عباس: هي قداح كانوا يَستقسمون بها في الأُمور؛ أي يطلبون بها عِلْمَ ما قُسِم لهم.

وقال سعيد بن جُبَير: كانت لهم حَصَيات، إذا أراد أحدهم أن يغزو أو يجلس استقسم بها.

وقال أيضًا: هي القِدْحان اللذان كان يستقسم بهما أهل الجاهلية في أمورهم، أحدهما: عليه مكتوب أمرني ربي، والآخر: نهاني ربي، فإذا أرادوا أمرًا ضربوا بها، فإن خرج الذي عليه «أمرني» فعلوا ما همّوا به، وإن خرج الذي عليه: «نهاني» تركوه.

قال أبو عُبيد: الاستقسام: طلبُ القسمة.

وقال المبرد: الاستقسام: أخذُ كلِّ واحدٍ قَسْمَه.

وقيل: الاستقسام: إلزام أنفسهم بما تأمرهم به القداح، كقسم اليمين.

وقال الأزهري: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَـٰمِ﴾ [المائدة:٣]؛ أي: تطلبوا من جهة الأزلام ما قُسِم لكم من أحد الأمرين.

وقال أبو إسحاق الزّجاج وغيره: الاستقسام بالأزلام حرام، ولا فرق بين ذلك وبين قول المنجِّم: لا تخرجْ من أجل نجم كذا، واخرُجْ من أجل طلوع نجم كذا؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ [لقمان:٣٤]، وذلك دخول في علم الله عَزَّوَجَلَّ الذي هو غيب عنا، فهو حرام كالأزلام التي ذكرها الله.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فالأنصاب: كل ما نُصِب يُعْبد من دون الله)**، هذه الأنصاب.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال أيضًا: هي القِدْحان اللذان كان يستقسم بهما أهل الجاهلية في أمورهم، أحدهما: عليه مكتوب أمرني ربي، والآخر: نهاني ربي، فإذا أرادوا أمرًا ضربوا بها، فإن خرج الذي عليه «أمرني» فعلوا ما همّوا به، وإن خرج الذي عليه: «نهاني» تركوه)**، يجعلونها في كيس، يدخل يده ويخرج واحدًا، وينظر ما المكتوب عليه، ويعمل به: أمرني ربي؛ يمضي، نهاني ربي؛ لا يمضي!

والمقصود أن الناس قد ابتُلوا بالأنصاب والأزلام، فالأنصاب للشرك والعبادة، والأزلام للتكهُّن، وطلب عِلْم ما استأثر الله به، هذه للعلم، وتلك للعمل، ودين الله سبحانه مضادّ لهذا وهذا، والذي جاء به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إبطالهما، وكسرُ الأنصاب والأزلام.

فمن الأنصاب ما قد نصبه الشيطان للمشركين، من شجرة، أو عمود، أو وثن، أو قبر، أو خشبة، أو غير ذلك.

والواجب هدم ذلك كله، ومَحْوُ أثره، كما أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بهدم القبور المشرفة وتسويتها بالأرض؛ كما روى مسلم في «صحيحه» عن أبي الهَيّاج الأسدي، قال: قال لي علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ أَنْ لَا أَدَعَ تِمْثَالًا إِلَّا طَمَسْتُهُ، وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتُهُ»(١).

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (والأزلام للتكهُّن، وطلب عِلْم ما استأثر الله به)، طلب علم الغيب.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (والواجب هدم ذلك كله، ومَحْوُ أثره، كما أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بهدم القبور المشرفة وتسويتها بالأرض)، الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: «لَا تَدَعْ قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ، لَا تَدَعْ قَبْرًا مُشْرِفًا -يعني مرتفعًا- إِلَّا سَوَّيْتَهُ، وَلَا صُورَةً إِلَّا طَمَسْتَهَا».

---

(١) سبق تخريجه (ص٦١٢).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(عن أبي الهَيّاج الأسـدي، قال: قال لي علي** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: **ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**؟ أَنْ لَا أَدَعَ تِمْثَالًا إِلَّا طَمَسْتُهُ، وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتُهُ)**، والذي لا يستطيع أن يغير بيده يرفع لولاة الأمور، يرفع للعلماء، يرفع للأمراء، يرفع إذا كان البلد فيه هيئة للأمر بالمعروف يرفع لها.

وعمَّى الصحابة بأمر عمر بن الخطاب قبرَ دانيال، وأخفاه عن الناس[١].

ولما بلغه أن الناس ينتابون الشجرة التي بايع تحتها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه أرسل فقطعها[٢]. رواه ابن وضَّاح في كتابه، فقال: سمعت عيسى ابن يونس يقول: أمر عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقطع الشجرة التي بُويعَ تحتها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقطعها؛ لأن الناس كانوا يذهبون فيصلُّون تحتها، فخاف عليهم الفتنة.

قال عيسى بن يونس: وهو عندنا من حديث ابن عون، عن نافع: أن الناس كانوا يأتون الشجرة، فقطعها عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣].

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وعمّى الصحابة بأمر عمر بن الخطاب قبرَ دانيال، وأخفاه عن الناس)، كما سبق قبر دانيال أنه نبي من الأنبياء، موضوع على سرير، ولم يتغير؛ لأنه نبي، والأرض لا تأكل أجساد الأنبياء، وكانوا إذا أجدبوا يخرجونه إلى الصحراء فيسقون المطر، فلما فتح الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ تُستر -البلد التي هو فيها- أخذوا دانيال، وحفروا له بمشورة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أمير المؤمنين، حفروا له ثلاثة قبور، ودفنوه في واحد منها؛ من أجل ألا يعرف في أي منها، وانتهى الأمر.

---

(١) سبق تخريجه (ص٦٧٣).

(٢) سبق الكلام على ذلك (ص٦٨٠).

(٣) كلام ابن وضاح هو في كتابه البدع والنهي عنها (٢/ ٨٨).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولما بلغه أن الناس ينتابون الشجرة)**، عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يعني.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(رواه ابن وضّاح في كتابه)**، ابن وضّاح هذا له كتاب: «الباعث على إنكار البدع والحوادث».

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(أمر عمر بن الخطاب** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **بقطع الشجرة التي بُويعَ تحتها النبي** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **فقطعها)**، ولم يقل هذه بايع تحتها الرسول، لما كانوا يفتتنون بها ويعظمونها قطعها عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(لأن الناس كانوا يذهبون فيصلُّون تحتها، فخاف عليهم الفتنة)**، يصلون تحتها، وهل هو مشروع أنهم يصلون تحتها؟! ليس عليها دليل لا من الكتاب ولا من السنة؛ ولذلك عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أزالها.

فإذا كان هذا فعل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالشجرة التي ذكرها الله في القرآن، وبايع تحتها الصحابةُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فما حكمه فيما عداها من هذه الأنصاب والأوثان، التي قد عظمت الفتنة بها، واشتدت البَلِيّة بها؟

وأبلغ من ذلك: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَدَم مسجد الضِّرار، ففي هذا دليل على هدم ما هو أعظم فسادًا منه، كالمساجد المبنية على القبور؛ فإن حكم الإسلام فيها أن تُهدَم كلُّها، حتى تُسوَّى بالأرض، وهي أولى بالهدم من مسجد الضّرار.

وكذلك القباب التي على القبور يجب هدمها كلها؛ لأنها أُسِّست على معصية الرسول، لأنه قد نهى عن البناء على القبور كما تقدم؛ فبناءٌ أُسِّس على معصيته ومخالفته بناءٌ محرّمٌ، وهو أولى بالهدم من بناء الغاصب قطعًا.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وأبلغ من ذلك: أن رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **هَدَم مسجد الضِّرار)**، مسجد الضرار لما كان أهل قباء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أول مسجد أسس على التقوى، كانوا يصلون فيه، فأراد المنافقون أن يزيلوا ما فيه قلوب المسلمين من تعظيم هذا المسجد والصلاة فيه، وأقاموا مسجدًا، وقالوا: هذا نريده للكبير ولليلة المطيرة إلى آخره، وهم قصدهم الإضرار بمسجد قباء، يريدون أن يصرفوا الناس عن مسجد قباء، أول مسجد أسس على التقوى.

فطلبوا من الرسول أن يصلي فيه؛ من أجل أنه إذا صلى فيه الرسول أقره، فالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان على وشك السير إلى تبوك، يتجهز لغزو

تبوك، قال: إن شاء الله، إذا رجعنا نصلي فيه، فذهب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى تبوك ورجع منها، فلما قرب من المدينة جاءه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ عن ربه عَزَّوَجَلَّ بالوحي: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾: يقولون: لم نبنه إلا للصلاة ولأجل العاجز والرجل الهرم والليلة المطيرة وما اشبه ذلك.

﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [التوبة:١٠٧].

ثم قال لنبيه: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ﴾: لأنه كان قد وعدهم.

﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًاۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ١٠٨ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التوبة:١٠٨-١٠٩].

فعند ذلك أرسل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى مسجد الضرار من هدمه وأحرقه، أرسل من هدمه وأحرقه، وصار يزور مسجد قباء كل يوم سبت، ويصلي فيه، يخرج يمشي من المدينة إلى قباء، ويصلي فيه كل سبت(١).

---

(١) انظر قصة مسجد الضرار في: سيرة ابن هشام (٢/ ٥٢٩- ٥٣٠)، وتفسير الطبري (١١/ ٦٧٣)، وتفسير القرطبي (٨/ ٥٣).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ففي هذا دليل على هدم ما هو أعظم فسادًا منه، كالمساجد المبنية على القبور)**، أعظم من مسجد الضرار، المساجد المبينة أعظم من مسجد الضرار ومع هذا الرسول هدم مسجد الضرار، إذًا يجب هدم هذه المساجد.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإن حكم الإسلام فيها أن تُهدَم كلُّها، حتى تُسوَّى بالأرض)**، لكن يهدمها أهل السلطة وولاة الأمور؛ كفًّا للفتنة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وكذلك القباب التي على القبور يجب هدمها كلها)**، لكن على ولاة الأمور، ليس كل يهدم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهو أولى بالهدم من بناء الغاصب قطعًا)**، الغاصب: الذي بنى مسجدًا في أرض مغصوبة، يهدم المسجد وتخلى الأرض لصاحبها، ولا يقال هذا مسجد، ولا تصح الصلاة فيه؛ لأنها أرض مغصوبة، لا تصح الصلاة فيه، فيهدم المسجد المبني في أرض مغصوبة، ومسجد الشرك أولى من المسجد الذي في أرض مغصوبة.

وقد أمر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهدم القبور المشرفة كما تقدم. فهدم القباب والبناء والمساجد التي بُنيتْ عليها أولى وأحرى؛ لأنه لَعَن مُتخذي المساجد عليها، ونهى عن البناء عليها.

فيجب المبادرة والمساعدة إلى هدم ما لعن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاعله، ونهى عنه، والله يُقيم لدينه وسُنّة رسوله من ينصرهما، ويَذُبّ عنهما، فهو أشد غيرةً وأسرع تغييرًا.

وكذلك يجب إزالة كل قنديل أو سراج على قبر وطَفْيُه؛ فإن فاعل ذلك ملعون بلعنة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا يصحُّ هذا الوقف، ولا يحل إثباته وتنفيذه.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقد أمر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهدم القبور المشرفة كما تقدم)، القبور المشرفة: يعني المرتفعة.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (والله يُقيم لدينه وسُنّة رسوله من ينصرهما، ويَذُبّ عنهما، فهو أشد غيرةً وأسرع تغييرًا)، ولذلك يبعث الله المجددين في كل فترة؛ يجددون للناس أمر دينهم، ويقومون بالدعوة إلى الله والبيان للناس، وينصحون لولاة الأمور حتى يبايعوهم ويؤيدوهم.

فإذا سعوا في ذلك يسر الله لهم، وهيَّأ الله لهم، أما أن يقول: أنا -والله- لا أستطيع على الناس، لن أفعل شيئًا، ولن أذهب للمساجد هذه، لكن لن

أهدمها ولن أسعى في هدمها، أنت لا تهدمها، لكن ناصح ولاة الأمور في هدمها، بيِّن لهم هذا.

هذا الشيخ محمد بن عبد الوهاب يمر على قبر زيد بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عليه قبة مبنية، وهم يطوفون بها، ويقول: الله خيرٌ من زيد، الله خيرٌ من زيد؛ لأنه لا يملك أكثر من هذا، فلما بايع الأمير جاء الأمير وهدمها بحضرة الشيخ، ولم يستطع أحد أن يعارض(١).

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وكذلك يجب إزالة كل قنديل أو سراج على قبر وطَفْيُه)**، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَعَنَ اللهُ زَوَّارَاتِ الْقُبُورِ، وَالْمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ**»(٢).

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(ولا يصحُّ هذا الوقف)**، هذا الوقف، إذا وُقِفَ وقفًا لإسراج القبور أو للبناء عليها فهو وقفٌ باطل لا يجوز تنفيذه.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(ولا يحل إثباته وتنفيذه)**، لا يحل للقاضي أن يثبته، بل يبطله.

(١) انظر: الدرر السنية (١/ ٢١١).

(٢) سبق تخريجه (ص٥٥٩).

قال الإمام أبو بكر الطُّرْطُوشي: انظروا -رحمكم الله- أينما وجدتم سدرة أو شجرة يقصدها الناس ويعظمونها، ويرجون البُرْءَ والشفاء مِن قِبَلها، ويضربون بها المسامير والخِرَق؛ فهي ذات أنواط؛ فاقطعوها[(١)].

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قال الإمام أبو بكر الطرطوشي: انظروا- رحمكم الله- أينما وجدتم سدرة أو شجرة يقصدها الناس ويعظمونها، ويرجون البُرْءَ والشفاء من قِبَلها، ويضربون بها المسامير والخِرَق؛ فهي ذات أنواط، فاقطعوها)**، أبو بكر الطرطوشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ له رسالة أو كتاب صغير في إنكار التبرك بالأضرحة والأبنية والأشجار وغير ذلك، وهو من علماء الشام، وهذه الرسالة موجودة ومطبوعة، ومنها هذا الكلام.

لما ذكر ما يحصل عند الأشجار والأحجار من التبرك والتمسح بها، وأنها تشبه ذات أنواط التي كان المشركون يتبركون بها، وينوطون بها أسلحتهم.

قال: انظروا كل شجرة أو كل حجر أو حصاة يصنع به مثلما يصنع بذات أنواط التي أنكر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عند المرور بها، أنكر على من طلب أن يجعل لهم ذات أنواط مثل ما للمشركين ذات أنواط.

قال: فإنها ذات أنواط؛ في تشابه المقصود في الشجرتين كما أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أمر بقطع ذات أنواط فإن هذه الشجرة التي توجد في الشام أو في غيرها يجب قطعها.

---

(١) الحوادث والبدع للطرطوشي (ص٣٨، ٣٩).

وقال الحافظ أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامة في كتاب «الحوادث والبدع»(١): ومن هذا القسم أيضًا: ما قد عَمَّ به الابتلاء، من تزيين الشيطان للعامّة تخليق الحيطان والعُمُد، وسرج مواضع مخصوصة من كل بلد، يحكي لهم حاكٍ أنه رأى في منامه بها أحدًا ممن شُهِرَ بالصلاح والولاية، فيفعلون ذلك، ويحافظون عليه، مع تضييعهم فرائض الله وسننه، ويظنون أنهم متقربون بذلك، ثم يتجاوزون هذا إلى أن يعظم وقع تلك الأماكن في قلوبهم فيعظمونها، ويرجون الشفاء لمرضاهم، وقضاء حوائجهم بالنذر لها، وهي من بين عيون، وشجر، وحائط، وحجر.

وفي مدينة دمشق من ذلك مواضع متعددة، كعُوينة الحمى خارج باب تُوماء، والعمود المخلّق داخل باب الصغير، والشجرة الملعونة اليابسة خارج باب النصر، في نفس قارعة الطريق، سهّل الله تعالى قطْعها واجتثاثَها من أصلها! فما أشبهها بذات أنواط التي في الحديث.

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال الحافظ أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامة)، أبو شامة: أيضًا من علماء الشام، وهو ممن ينكر هذه المظاهر الشركية مع الأشجار والأحجار. وله رسالة مطبوعة في هذا الموضوع، وفيها إنكار لما يفعله الذين يتبركون بالأشجار والأحجار أيًّا كانت وفي أي بلد كانت؛ لأن التبرك، وطلب البركة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلا يطلب من أحد

(١) انظر: الباعث على إنكار البدع والحوادث (ص٢٥) وما بعدها.

البركة، إنما تطلب من الله، ولا يتبرك بشيء إلا ما جعله الله مباركًا وشرع التبرك به كالكعبة المشرفة أو الحجر الأسود ومشاعر الحج، هذه مشاعر جعل الله التبرك بها، وليس التبرك مطلوب منها هي، إنما مطلوب من الله، وإنما هي شعائر من شعائر الله؛ ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٥٨]: يعني من أعلام دينه وأعلام شرعه.

فلا يتبرك بشيء لا من الآدميين ولا من الأشجار ولا من الأحجار إلا بما شرع الله التبرك به كالحجر الأسود والكعبة، ومشاعر الحج التي يقف بها الحجاج ويطلبون الله، ويؤدون المناسك؛ لأن الدين إنما يتلقى عن الله وعن رسوله من الكتاب والسنة لا من عادات الناس، تقاليد الناس أو قول: إن هذا الشيء مجرب، وإن فلانًا ذهب إلى القبر الفلاني وحصل له مطلوبه، لا يجوز هذا.

حصول المطلوب لا يدل على الجواز؛ لأنه قد يكون صادف قضاءً وقدرًا، لا مِن أجل هذه الشجرة أو هذا الحجر؛ أو أن هذا من باب الاستدراج بالإنسان -الاستدراج له، والعياذ بالله؛ ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم:٤٤-٤٥]. فالله قد يبتلي بعض الناس بالتعلق بغير الله، فلا يغتر بهذا.

فالدين إنما هو توقيفي، ولا يؤخذ من العادات والتقاليد، أو يؤخذ من كون فلان فعل كذا وحصل له كذا، هذا من أفعال الجاهلية التي جاء النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإنكارها، ولا يتبرك بالأشخاص، ولو كانوا من الصالحين.

إنما يتبرك بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ما انفصل من جسمه الشريف كالشعر والظفر والريق والملابس التي يلبسها هذا خاص بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا يتبرك بأحد غيره أو بآثاره، وهذه الآثار النبوية انقطعت بموت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلم يبق لها بقية، فنيت، ذهبت.

فلا يقال: إن هذا شعر الرسول، أو هذا أثر من آثار الرسول، أو هذا ثوب الرسول، أو بردة الرسول، هذا تلبيس على العوام وعلى الجهال، لم يبقَ للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آثار بدنية ولا ثياب، إنما فنيت، ويبقى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذو الجلال والإكرام.

فالمسلم يعلِّق قلبه بالله، ويتبع سنة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذا كان يريد النجاة، ولا يمشى مع عادات الناس أو مع الإشاعات التي تروج حول الآثار، لا يجوز هذا.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(في كتاب «الحوادث والبدع»)**، هي رسالة مطبوعة، الحوادث والبدع.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(ومن هذا القسم أيضًا: ما قد عَمَّ به الابتلاء)**، يقول أبو شامة.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(من تزيين الشيطان للعامّة تخليق الحيطان والعُمُد)**، تخليق الحيطان والعُمُد: بالطيب، تخليقها يعني تلطيخها بالطيب والزعفران؛ لأجل أن الناس يتبركون بها.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وسرج مواضع مخصوصة من كل بلد، يحكي لهم حاكٍ أنه رأى في منامه بها أحدًا ممن شُهِرَ بالصلاح والولاية، فيفعلون ذلك)**، والأحلام لا يبنى عليها حكم شرعي ولا تؤخذ منها عقيدة.

الأحلام إذا كانت صادقة فهي من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولكن لا يبنى عليها حكم شرعي، أو تقول: رأيت عمرًا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في محل كذا، فيتبركون بهذا المكان، أو رأى أبا بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أو رأى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا المكان، لا يجوز هذا، لا يبنى على الأحلام والرؤى لا يبنى عليها أحكام شرعية، إنما الأحكام الشرعية تؤخذ من الكتاب والسنة فقط

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(مع تضييعهم فرائض الله وسننه)**، هذا من المعلوم أن من تمسك بالخرافات اضاع السنن، هذا شيء معلوم.

الله جَلَّ وَعَلَا ذكر عن اليهود أنهم لما تركوا كتاب الله- التوراة- ابتُلوا باتباع السحر، ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾: يعني التوراة.

﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ [البقرة:١٠١-١٠٢]: الشياطين التي كان سليمان يستخدمها، سخَّرها الله له، كانت تتداول السحر بينها.

فلما وجدوا هذا نسبوه إلى سليمان، وهذا كذب؛ فإن نبي الله لا يستعمل السحر، ولم تسخر له العفاريت والشياطين لأنه يسحر، إنما الله هو الذي سخرها له كما سخر له الريح تحمله من مكان إلى مكان، هذه من معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

ولهذا قال جَلَّوَعَلَا عن اليهود: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾: الذي هو التوراة.

﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾: أي على عهد ملك سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾: لم يقل: ما سحر، قال: ﴿وَمَا كَفَرَ﴾: لأن السحر كفر، عبر عن السحر بالكفر.

﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ [البقرة:١٠١-١٠٢].

فالشياطين هم الذين كفروا، وهم الذين يتعلمون السحر ويعلمونه للناس، وأما سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فهو نبي من أنبياء الله سخر الله له الجن تعمل له؛ ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣].

فسليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ سُخرت له الجن بأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولم يكن يستعمل السحر يسخرها به، وإنما الله سخرها له، يستخدمها في شئون ملكه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ﴾: مصليات.

﴿وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ﴾: الجفنة: هي التي يجفى فيها الطعام للأكل؛ ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ﴾: كبيرة.

﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ﴾ [سبأ:١٣]: كبيرة يطبخ بها الأطعمة للناس، فهذا من معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، التي سخرها الله لسليمان، لم يسخرها سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ بالسحر -كما يقولون- لأن هذا كفر، والكفر لا يليق بالأنبياء.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(ويظنون أنهم متقربون بذلك)**، معلوم أن من ضيع شرع الله ابتلي بالخرافات والكذب، والاعتماد على القصص والإشاعات، أما الذي يتمسك بكتاب الله وسنة رسوله فلا يلتفت إلى هذه الأشياء.

ولهذا يذكر عن عبد القادر الجيلاني رَحِمَهُ اللَّهُ أنه كان يمشي في الطريق فأظلته ظلة من فوقه تقيه حر الشمس، فرفع رأسه إليها، فقال: يا عبد القادر، أنا ربك، وقد أبحت لك ما حرمت عليك! قال له: كذبت، أنت شيطان، فإنه بعد وفاة الرسول محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا ينزل تحريم ولا تحليل، إنما أنت شيطان، فذهب وتمزق في الجو واختفى، لما قال له رَحِمَهُ اللَّهُ هذه المقالة.

انظر للإيمان والعلم، لا يضر الإنسان الشائعات والأشياء لا تضره الذي عند علم، علم صحيح.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(ثم يتجاوزون هذا إلى أن يعظم وقع تلك الأماكن في قلوبهم فيعظمونها)**، الأماكن التي يزعمون أن فيها بركة، وأنها تزار، وهذه يتمسح بها ويؤخذ من ترابها إلى غير ذلك، كل هذا خرافات.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(ويرجون الشفاء لمرضاهم)**، إذًا اين الله سبحانه الذي يشفي؟! ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء:٨٠]. كما قال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فالذي يُمرض ويشفي هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ليست هذه الخرافات والخزعبلات هي التي تمرض أو تشفي وتتصرف في الكون، أبدًا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقضاء حوائجهم بالنذر لها)**، ينذرون لها، والنذر عبادة لا تجوز لغير الله، لا يجوز أن ينذر لقبر، أن ينذر لجن، لا يجوز هذا، النذر لله سبحانه؛ لأنه عبادة، والعبادة إنما تكون لله.

والله جَلَّ وَعَلَا أثنى على الأبرار، قال: ﴿**يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ**﴾ [الإنسان:٧]، والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللهَ فَلَا يَعْصِهِ**»(١)، والله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿**وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ**﴾ [البقرة:٢٧٠]. قرنه مع النفقة، والنفقة، الصدقة عبادة.

كذلك النذر عبادة فلا يجوز أن ينذر لغير الله عَزَّ وَجَلَّ، هذا شرك بالله عَزَّ وَجَلَّ، النذور للقبور والنذور للشجر والحجر شرك، شرك أكبر يخرج من الملة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهي من بين عيون)**، عيون: يعني منابع مياه، مخلوقة لسقي الناس وزروعهم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وحائط، وحجر)**، مخلوقات.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وفي مدينة دمشق من ذلك مواضع متعددة)**، يقول أبو شامة: في دمشق: يعني في وقته، وزاد الشر بعده، الشر زاد بعده لم ينقص.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والشجرة الملعونة اليابسة خارج باب النصر، في نفس قارعة الطريق، سهّل الله تعالى قطعها واجتثاثَها من أصلها! فما أشبهها بذات أنواط التي في الحديث)**، وقد يسر الله من قطعها وأزالها، ولله الحمد.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٩٦) من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

ثم ساق حديث أبي واقدٍ: أنهم مَرّوا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشجرة عظيمة خضراء، يقال لها: ذات أنواط، وأنهم قالوا لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اجعلْ لنا ذاتَ أنواط كما لهم ذاتُ أنواط. فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللهُ أَكْبَرُ! هَذَا كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف:١٣٨]. لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»، قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح»(١).

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(ثم ساق حديث أبي واقدٍ)**، أبي واقد الليثي: من مسلمة الفتح؛ أسلم عام الفتح، وخرج مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى غزوة حنين هو وإخوانه ممن أسلموا عام الفتح، ولم يتعلموا التعلم الذي يعرفون به العقيدة الصحيحة من غيرها؛ لأنهم حديثو عهد بالإسلام.

خرجوا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى حنين، غزوة حنين؛ لأن قبيلة هوازن لما سمعوا بانتصار الرسول على أهل مكة وفتح مكة خافوا على أنفسهم فجمعوا أمرهم ليغزوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مكة، الرسول بادرهم، خرج إليهم في غزوة حنين بعد فتح مكة بأيام خرج إليهم ومعه مسلمة الفتح ومنهم أبو واقد الليثي. فلما مروا بشجرة للمشركين ينوطون بها أسلحتهم ويتبركون بها، قالوا: «يَا رَسُولَ اللهِ، اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ»: تقليد، ولأنهم يجهلون؛ لم يتعلموا لحداثة إسلامهم، فهذا فيه آفة الجهل.

---

(١) سبق تخريجه (ص٦٨١).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**فقال النبي** صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **اللهُ أَكْبَرُ!**)، **النبي** صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا تعجب من شيء فإنه يكبِّر: الله أكبر، أو يسبِّح: سبحان الله، إذا تعجب من شيء، أو استنكر شيئًا فإنه يبادر بالتسبيح أو التكبير؛ تعظيمًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**هَذَا كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى:** ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾)، قوم موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، لَمَّا أغرق الله فرعون وقومه وأنجى موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وقومه ساروا في طريقهم خارجين من مصر، وخرج فرعون في أثرهم ليقضيَ عليهم، انتهوا إلى البحر، الله جمد البحر لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وقومه وعبروه؛ ﴿طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَـٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [طه:٧٧]، فلما تكامل موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وقومه خارجين وتكامل فرعون وقومه داخلين؛ أطبق الله عليهم البحر وعاد البحر كما كان فأغرقهم جميعًا. وبعد ما نجوا ساروا في طريقهم إلى بيت المقدس، سار بهم موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى بيت المقدس. فلما نجوا من البحر وأغرق الله عدوهم، ومروا على قوم يعكفون على أصنام لهم؛ ﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف:١٣٨]. سبحان الله! أين العبرة وأين الاتعاظ؟ لكن الجهل يوقع صاحبه في مثل هذا، والتقليد الأعمى يوقع صاحبه في مثل هذا والتشبه بمن يرى أنه خير منه أو أرفع منه يوقع مثل هذا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿**قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ**﴾ [الأعراف:١٣٨])، قال موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف:١٣٨]، يعني الذي حملكم على هذا: الجهل، فبهذا آفة الجهل وشرف العلم.

﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ [الأعراف:١٣٨-١٣٩] أي: باطل. ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [الأعراف:١٣٩-١٤١]، إلى آخر الآيات.

هذا ما حصل من بني إسرائيل مع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، طلبوا منه أن يجعل لهم إلهًا يعبدونه كما للمشركين الذين مروا بهم آلهة! فأنكر عليهم موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ غاية الإنكار.

الذي حصل من هؤلاء الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الذين أسلموا قريبًا ولم يتعلموا مثلما حصل لبني إسرائيل، قال: «قُلْتُمْ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف:١٣٨]».

فالذي يتبرك بالشجر هذا إله، اتخذه إلهًا؛ لأنه صرف له شيئًا مِن أنواع العبادة، وهو التبرك.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح»)**، حسن صحيح، إذا قال الترمذي: (حسن صحيح)، معلوم أن الصحيح أعلى من الحسن؛ فكيف جمع بينهما؟ قالوا: لأنه بلغه من طريقين: من طريق صحيح، ومن طريق حسن فقال: (حسن) يعني: من طريق، و(صحيح) من طريق آخَر.

ثم ذكر ما صنعه بعض أهل العلم ببلاد إفريقية، أنه كان إلى جانبه عين تُسمى عين العافية، كان العامة قد افتتنوا بها، يأتونها من الآفاق، فمن تعذّر عليه نكاحٌ أو ولد قال: امضُوا بي إلى العافية، فتعرف فيها الفتنة، فخرج في السَّحَر فهدمها، وأذّن للصبح عليها، ثم قال: اللهم إني هدمتها لك، فلا ترفع لها رأسًا، قال: فما رفع لها رأس إلى الآن.

وقد كان بدمشق كثير من هذه الأنصاب، فيسّر الله سبحانه كسرها على يد شيخ الإسلام وحزب الله الموحِّدين، كالعامود المخَلّق، والنُّصْب الذي كان بمسجد النارنج عند المصلى يعبده الجهال، والنُّصْب الذي كان تحت الطاحون، الذي عند مقابر النصارى، ينتابه الناس للتبرك به، وكان صورة صنم في نهر القَلّوط ينذرون له ويتبركون به، وقطع الله سبحانه النُصْب الذي كان عند الرّحَبة يُسْرَج عنده، ويتبرك به المشركون، وكان عمودًا طويلًا على رأسه حجر كالكُرة، وعند مسجد درب الحجر نُصْب قد بُني عليه مسجد صغير، يعبده المشركون، يسَّر الله كَسْرَهُ.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قال: امضُوا بي إلى العافية، فتعرف فيها الفتنة)**، انظر، يعرضون عن الله ولا يسألونه ولا يدعونه، يذهبون إلى عين العافية - نسأل الله العافية-، يعرضون عن الله القريب المجيب ويذهبون إلى مخلوقات ضعيفة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فخرج في السَّحَر فهدمها)**، هدم هذه العين يعني بعض أهل العلم من أتباع الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قال: فما رفع لها رأس إلى الآن)**، والحمد لله، لا يزال الكلام لأبي شامة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وعند مسجد درب الحجر نُصْب قد بُني عليه مسجد صغير، يعبده المشركون، يسَّر الله كَسْرَهُ)**، شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ له جهود عظيمة في نشر العلم والعقيدة الصحيحة، والنهي عن البدع والخرافات والمحْدَثات.

وله مقام في الجهاد في سبيل الله، وحمل السيف على التتار، وله جهود عظيمة جعل الله آثارها باقية في سوريا والشام، وانتشرت ووصلت إلى بلاد نجد -والحمد لله-، ووصلت إلى الهند، وإلى أفريقيا -الحمد لله-.

فما أسرَعَ أهلَ الشرك إلى اتخاذ الأوثان من دون الله، ولو كانت ما كانت! ويقولون: إن هذا الحجر، وهذه الشجرة، وهذه العين تقبل النذر؛ أي: تقبل العبادة من دون الله تعالى، فإن النذر عبادة وقربة يتقرب بها الناذر إلى المنذور له، ويتمسُحون بذلك النُّصُب، ويستلمونه.

ولقد أنكر السَّلف التمسُّح بحجر المقام الذي أمر الله أن يُتخذ منه مُصلًّى، كما ذكر الأَزْرَقي في كتاب مكة عن قتادة، في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة:١٢٥]، قال: «إنما أمروا أن يصلوا عنده، ولم يؤمروا بمسحه، ولقد تكلفت هذه الأمة شيئًا ما تكلفته الأمم قبلها؛ ذُكر لنا من رأى أثره وأصابعه، فما زالت هذه الأمة تمسحه حتى اخْلَوْلَق».

وأعظم الفتنة بهذه الأنصاب: فتنة أنصاب القبور، وهي أصل فتنة عبادة الأصنام، كما قاله السلف من الصحابة والتابعين، وقد تقدم.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فإن النذر عبادة وقربة يتقرب بها الناذر إلى المنذور له، ويتمسُحون بذلك النُّصُب، ويستلمونه)، لو نذروا لله ودعوا الله لحصل لهم ما أرادوا، ولحصل لهم الأجر من الله، والثواب من الله، والنصر من الله، لكن صرفهم الشيطان إلى التعلق بالمخلوقات والأشجار والأحجار.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ولقد أنكر السَّلف التمسُّح بحجر المقام الذي أمر الله أن يُتخذ منه مُصلًّى)، حجر المَقام: الذي قام عليه إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ والذي فيه أثر قدميه باقية إلى الآن لا يتمسح به، وإن كان فيه آثار إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ

والله جَلَّ وَعَلَا قال: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة:١٢٥]. يعني صلوا عنده لله ليس للمقام، صلوا لله عند مقام إبراهيم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(كما ذكر الأزرقي في كتاب مكة عن قتادة)**، الأزرقي هذا من مؤرخي مكة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قال: «إنما أمروا أن يصلوا عنده، ولم يؤمروا بمسحه)**، إنما أمروا أن يصلوا عنده مصلى، ولم يقل اتخذوا منه مكانًا يُمسح أو يتبرك به، إنما قال: ﴿مُصَلًّى﴾.

فالصلاة لله عَزَّوَجَلَّ، إنما هذا مكان للعبادة، مكان للعبادة، والمعبود هو الله جَلَّ وَعَلَا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولقد تكلفت هذه الأمة شيئًا ما تكلفته الأمم قبلها؛ ذُكر لنا من رأى أثره وأصابعه، فما زالت هذه الأمة تمسحه حتى اخْلَوْلَق»)**.

مقام إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، صخرة ترونها الآن من وراء الزجاج صخرة فيها آثار قدمي إبراهيم لما كان يبني الكعبة ويرتفع به هذا الحجر وينزل حتى يبني الكعبة.

الله جَلَّ وَعَلَا أمر أن يتخذ هذا المكان مصلى لله، يصلى عنده لله عَزَّوَجَلَّ، ميقات من مواقيت العبادة لله عَزَّوَجَلَّ، ولا تزال آثار قدميه وأصابعه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ واضحة في هذا الحجر.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وأعظم الفتنة بهذه الأنصاب: فتنة أنصاب القبور)**، أعظم فتنة وقعت في الإسلام فتنة القبور -والعياذ بالله-، التبرك بها، والنذر لها، والزيارة الشركية لها، حتى الحج؛ يحجون لها، وينذرون لها!

ومن أعظم كيد الشيطان: أنه يَنْصِب لأهل الشرك قبر معظَّمٍ يُعظِّمه الناس، ثم يجعله وثنًا يُعبد من دون الله، ثم يُوحِي إلى أوليائه: أن مَنْ نهى عن عبادته واتخاذه عيدًا وجَعْلِه وثنًا؛ فقد تنقّصَه، وهضمه حقّه، فيسعى الجاهلون المشركون في قَتْله وعقوبته ويكفِّرونه؛ وذَنْبُه عند أهل الإشراك: أَمْرُهُ بما أمر الله به ورسوله، ونهيُه عما نهى الله عنه ورسوله، مِن جَعْلِه وثنًا وعيدًا، وإيقاد السُّرُج عليه، وبناء المساجد والقباب عليه، وتجصيصه، وإشادته، وتقبيله، واستلامه، ودعائه، أو الدعاء به، أو السفر إليه، أو الاستغاثة به من دون الله، مما قد عُلِم بالاضطرار من دين الإسلام أنه مضادٌّ لما بعث الله به رسوله من تجريد التوحيد لله، وأن لا يُعبدَ إلا الله.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ومن أعظم كيد الشيطان: أنه يَنْصِب لأهل الشرك قبر معظَّمٍ يُعظِّمه الناس، ثم يجعله وثنًا يُعبد من دون الله)، الأولياء والصالحون لهم حق: أننا نقتدي بهم في الطاعة والعبادة، ونترحم عليهم وندعو لهم؛ ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحشر:١٠].

هذا ما أمرنا الله به، ولم يأمرنا أن نتبرك بآثارهم وقبورهم، لم يأمرنا بذلك، نعم نزورها للسلام عليهم والدعاء لهم، الزيارة الشرعية لا الزيارة الشركية والبدعية، نزورها للسلام عليهم والدعاء لهم والاعتبار والاتعاظ بالموت.

هذا ما شرعت زيارة القبور من أجله: أن فيها نفعًا للزائر؛ بحيث إنه يدعو ربه ويسلم على الأموات ويحصل له الأجر، ونفع للمزور وهو الميت الذي هو بحاجة إلى الدعاء أن يدعى له وأن يستغفر له.

فزيارة القبور الشرعية فيها مصلحة للأحياء والأموات إذا كانت زيارة شرعية، أما إذا كانت زيارة شركية فيها تبرك، فيها دعاء لغير الله فهذه فيها مضرة على الأحياء والأموات.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ثم يُوحِي إلى أوليائه: أن مَنْ نهى عن عبادته واتخاذه عيدًا وجَعْلِه وثنًا؛ فقد تنقّصَه)**، يقولون: هذا متشدد، هذا يجحد حق الصالحين ولا يعظم الصالحين، ويهين الصالحين، وهذا من الكذب.

ليس من إكرام الصالحين جعل قبورهم أوثانًا تعبد من دون الله أو تدعى من دون الله ليس هذا من حقهم، هذا حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، إنما حق الصالحين أننا ندعو لهم ونترحم عليهم ونقتدي بهم، هذا حقهم علينا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فقد تنقّصَه، وهضمه حقّه)**، ليس هذا حقًّا له، ليس من حقه أنه يعبد وأنه يدعى وأنه ينذر له، هذا حق لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فكيف تجعل حق الخالق للمخلوق؟!

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فيسعى الجاهلون المشركون في قَتْله وعقوبته ويكفِّرونه)**، إما أن يقتلوا من يدعوهم إلى الله ويبين لهم، وإما إذا عجزوا عن قتله يكونون ضده ويبثون الشائعات للتنفير منه ومن دعوته، هذا الشيء معلوم.

ولكن هذا لا يضر الحق أبدًا، ولا يضر الصالحين المخلصين لله عَزَّوَجَلَّ، بل هذا مما يرفعهم الله به.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وذَنْبُه عند أهل الإشراك: أمْرُهُ بما أمر الله به ورسوله، ونهيُه عما نهى الله عنه ورسوله)**، هذا ذنبه عندهم: أنه يأمر بما أمر الله به ورسوله من إخلاص العبادة لله وترك عبادة ما سواه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(أو الدعاء به)**، الدعاء به: يعني التوسل إلى الله به.

فإذا نهى الموحّدُ عن ذلك غضب المشركون، واشمأزّت قلوبهم، وقالوا: قد تنقَّص أهلَ الرُّتَب العالية، وزعم أنهم لا حُرمة لهم ولا قَدْر، وسَرَى ذلك في نفوس الجهال والطّغام، وكثيرٍ ممن يُنسَب إلى العلم والدّين؛ حتى عادَوا أهلَ التوحيد، ورَمَوْهم بالعظائم، ونفّروا الناس عنهم، ووَالَوا أهل الشركِ وعظَّموهم، وزعموا أنهم هم أولياء الله، وأنصارُ دينه ورسوله!

ويأبى الله ذلك، فما كانوا أولياءَه، إنْ أولياؤُه إلا المتقون، المتبعون له، الموافقون له، العارفون بما جاء به، الدَّاعون إليه، لا المتشبّعون بما لم يُعْطَوا، لابِسُو ثياب الزّور، الذين يصدّون الناس عن سُنة نبيهم، ويَبْغُونهم عِوَجًا، وهم يَحْسبون أنهم يُحسِنون صُنْعًا!

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إنْ أولياؤهُ إلا المتقون، المتبعون له، الموافقون له، العارفون بما جاء به، الدَّاعون إليه، لا المتشبّعون بما لم يُعْطَوا، لابِسُو ثياب الزّور)، الذي يدعو إلى الله على بصيرة وعلى علم يصبر على ما يصيبه، ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ﴾ [لقمان:١٧].

﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [العصر:٣].

الذي يدعو إلى الله يحتاج إلى صبر؛ لأنه سيلقى من المخالفين عنتًا وتعبًا، وسيقومون في وجهه، ويحذِّرون منه، ولكن يصبر على هذا، وهذا شيء واقع الآن.

العجيب أنهم يتنقصون الله ولا يبالون، وإذا زعموا أن المخلوق قد تُنقص غضبوا، فهم يغضبون للمخلوق ولا يغضبون للخالق.

فصــل

ولا تحسبْ -أيُّها المُنْعَمُ عليه باتِّباع صراط الله المستقيم، صراطِ أهل نعمته ورحمته وكرامته- أن النهي عن اتخاذ القبور أوثانًا وأعيادًا وأنصابًا، والنهي عن اتخاذها مساجدَ، أو بناء المساجد عليها، وإيقاد السُّرج عليها، والسفر إليها، والنذر إليها، واستلامها، وتقبيلها، وتعْفِير الجِباه في عَرَصاتها غَضٌّ من أصحابها ولا تنقيصٌ لهم، كما يحسبه أهل الإشراك والضلال؛ بل ذلك من إكرامهم، وتعظيمهم، واحترامهم، ومتابعتهم فيما يُحبونه، وتجنُّب ما يكرهونه.

فأنت- والله- وليُّهم ومُحِبّهم، وناصر طريقتهم وسنتهم، وعلى هَدْيهم ومنهاجهم، وهؤلاء المشركون أعصَى الناس لهم، وأبعدهم من هَدْيهم ومتابعتهم، كالنصارى مع المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، واليهود مع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، والرافضة مع علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (ولا تحسبْ -أيُّها المُنْعَمُ عليه باتباع صراط الله المستقيم، صراط أهل نعمته ورحمته وكرامته- أن النهي عن اتخاذ القبور أوثانًا وأعيادًا وأنصابًا، والنهي عن اتخاذها مساجد، أو بناء المساجد عليها، وإيقاد السُّرج عليها، والسفر إليها، والنذر إليها، واستلامها، وتقبيلها، وتعْفِير الجِباه في عَرَصاتها غَضٌّ من أصحابها ولا تنقيصٌ لهم، كما يحسبه أهل الإشراك

والضلال)، المتعلقون بالقبور والأضرحة يقولون: هذا من تقدير الصالحين ومعرفة قدرهم وحقهم، كذا زين لهم الشيطان هذه الغواية وهذه الضلالة أنها محبة للصالحين، وأنها تقدير لهم، وأنها إكرام لهم إلى غير ذلك.

وفي الحقيقة أن الصالحين يغضبهم ذلك ولا يرضون ذلك، ويوم أن كانوا على قيد الحياة وهم يجاهدون هؤلاء ويقاتلونهم على الشرك فهم لم يرضوا بهذا. وإنما لما ماتوا وصاروا لا يستطيعون الجهاد ولا يستطيعون إنكار المنكر، قالوا: إنا نقدرهم ونحبهم، وأن الذين لا يعبدونهم ولا يتبركون بقبورهم هؤلاء يتنقصون الصالحين.

يا سبحان الله! هل هذا من حق الصالحين أو من حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟! أنتم الذين تنقصتم الله جَلَّ وَعَلَا، وأنتم أشركتم به، وأعطيتم حقه لغيره وتنقصتم الصالحين؛ لأن الصالحين ينكرون هذا، ولا يرضون به ويجاهدون أهله يوم أن كانوا على قيد الحياة، فليس هذا إكرامًا للصالحين.

الصالحين لهم حق الدعاء والاقتداء بهم ومحبتهم، لهم حق ذلك، أما أن يصرف لهم حق الله جَلَّ وَعَلَا فهم لا يرضون بها وليس من حقهم، وينكرون هذا ويجاهدون أهله.

فالواجب بيان هذا لهم؛ لئلا يلبسوا على العوام والجهال هذه الفرية أنها محبة للصالحين وأنها إكرام للصالحين، وأن الذي لا يعبدهم ولا يتبرك بقبورهم أنه متنقص لهم، حاشا وكلا، هذا تنقص لله جَلَّ وَعَلَا؛ لأنكم أشركتم به، والصالحون لا يرضون بأن تشركوا بالله ولا أن تعطوهم حق الله، لا يرضون بهذا وينكرونه ويبغضونه ويبغضون أهله.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهؤلاء المشركون أعصى الناس لهم، وأبعدهم من هَدْيهم ومتابعتهم، كالنصارى مع المسيح** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، **واليهود مع موسى** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، **والرافضة مع علي** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ**)**، لله حق، يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في النونية(١):

للهِ حَـقٌّ لَا يَـكُـونُ لِـغَـيْرِهِ ... وَلِـعَـبْـدِهِ حَـقٌّ هُـمَـا حَـقَّـانِ

لَا تَجْعَلُوا الحَقَّيْنِ حَقًّا وَاحِدًا ... مِـنْ غَـيْرِ تَمْـيِيـزٍ وَلَا فُـرْقَـانِ

فحق الصالحين هو محبتهم والاقتداء بهم والدعاء لهم، هذا حق الصالحين علينا، ليس حقهم أننا ندعوهم ونتبرك بهم ونستغيث بهم، هذا حق لله جَلَّ وَعَلَا، فكيف تزعمون أننا تنقصنا الصالحين وأنتم تنقصتم الله جَلَّ وَعَلَا؟! أنتم تنقصتم الله، أشركتم به ما لم ينزل به سلطانًا، نهاكم عن الشرك وحذركم ثم عصيتموه، أينا المتنقص للصالحين؟

المتنقص للصالحين: هو الذي عصاهم وخالفهم، الله جَلَّ وَعَلَا يقول في سورة الفاتحة في آخرها: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة:٦-٧].

هناك صراطان: صراط الله، وصراط المغضوب عليهم والضالين، فأنت تدعو الله أن يهديك إلى صراطه المستقيم وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وموالاة أولياء الله ومعاداة أعداء الله، هذا هو الصراط المستقيم.

أما دعاء الصالحين والإشراك بهم فهذا طريق المغضوب عليهم من اليهود والنصارى الذين غلوا في الصالحين.

---

(١) انظر النونية مع شرحها لابن عيسى (٢/ ٣٤٧).

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ أي: لعنهم الله. ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [التوبة:٣٠]. من أين جاءهم هذا؟ بأي دليل ارتكبوا هذا؟

﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: لعنهم الله. ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [التوبة:٣٠]. من أي طريق جاءهم هذا الضلال؟ من طريق الشيطان، أما طريق الله وصراط الله المستقيم فهو خلاف هذا.

فأهل الحق أَوْلَىٰ بأهل الحق من أهل الباطل، ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة:٧١]، و﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾ [التوبة:٦٧].

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**فأهل الحق أَوْلَىٰ بأهل الحق من أهل الباطل**)، نحن الذين نتولى الصالحين ونحبهم ونقتدي بهم، أما أنتم فإنكم لا تحبون الصالحين؛ لأنكم أنزلتموهم منزلة ليست لهم، أنزلتموهم مع الله جَلَّ وَعَلَا، وهم لا يرضون بهذا ويغضبون ويجاهدون على هذا يوم أن كانوا أحياء.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة:٧١])، ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة:٧١].

المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض، ينصر بعضهم بعضًا، ويحب بعضهم بعضًا. ﴿ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾: يعني يحب، من الولاية وهي الحب، يتحابون في الله عَزَّ وَجَلَّ ويتناصرون على الحق، هذه صفات المؤمنين الصادقين.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (و﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾ [التوبة:٦٧])، انظر! ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾ [التوبة:٦٧].

لم يقل: أولياء بعض، بل قال: ﴿ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾ أي: يشبه بعضهم بعضًا في الكفر والضلال والشرك بالله عَزَّ وَجَلَّ.

فاعلم أن القلوب إذا اشتغلت بالبدع أعرضَتْ عن السّنَن، فتجد أكثر هؤلاء العاكفين على القبور مُعرضين عن طريقة مَنْ فيهَا وهَدْيِه وسُنته، مشتغلين بقبره عمّا أمرَ به ودَعا إليه!

وتعظيمُ الأنبياء والصالحين ومحبّتُهم إنما هو باتباع ما دَعوا إليه من العلم النافع والعمل الصالح، واقتفاء آثارهم، وسلوك طريقتهم، دون عبادة قبورهم، والعكوف عليها، واتخاذها أعيادًا.

فإن من اقتفى آثارهم كان متسبِّبًا إلى تكثير أجورهم؛ باتباعه لهم، ودعوته الناس إلى اتّباعهم، فإذا أعرض عمَّا دعوا إليه، واشتغل بضدّه، حَرَمَ نفسَه وحَرَمَهم ذلك الأجرَ، فأيّ تعظيم لهم واحترام في هذا؟

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فاعلم أن القلوب إذا اشتغلت بالبدع أعرضَتْ عن السّنَن)، البدعة طريق إلى الشرك، وهي بريد الشرك كما يقول العلماء: البدعة بريد الشرك توصل إلى الشرك تتطور، ولم يصل هؤلاء في شركهم إلا عن طريق البدعة، وإلا لو كانوا على الصراط المستقيم وعلى سنة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما صاروا في هذه المنزلة القبيحة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فاعلم أن القلوب إذا اشتغلت بالبدع أعرضَتْ عن السّنَن)، لا يجتمع بدعة وسنة أبدًا، لا يجتمع بدعة وسنة إلا يخرج أحدهما الآخر إما السنة تخرج البدعة، وإما البدعة تخرج السنة، لا يجتمعان أبدًا، فعلى المسلم أن يلزم طريق السنة وأهل السنة ويسير على هذا المنهاج.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فتجد أكثر هؤلاء العاكفين على القبور مُعرضين عن طريقة مَنْ فيهَا وهَدْيِه وسُنته)**، هؤلاء الذين يعكفون على القبور فهم أعداء لأهل هذه القبور؛ لأن أهل هذه القبور من الصالحين والأولياء لا يرضون بهذه الطريقة الشركية، ويعادون أهلها ويجاهدونهم يوم أن كانوا على قيد الحياة، فهم لا يحبون هؤلاء الأموات، بل يبغضونهم وإن زعموا أنهم يحبونهم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فتجد أكثر هؤلاء العاكفين على القبور مُعرضين عن طريقة مَنْ فيهَا وهَدْيِه وسُنته)**، العاكفين على هذه القبور، وهي إما قبور صحابة، وإما قبور التابعين، وإما قبور من جاء بعدهم ممن سار على منهجهم فهم أعداء لهم، وهم يزعمون أنهم يحبونهم وأنهم يقدرونهم وأن هذا حقهم علينا، يقولون: من حقهم علينا أن نبني على قبورهم مشاهد ولا يُنسوا.

يا سبحان الله! هذا من حقهم علينا؟! هذا حق لله جَلَّ وَعَلَا، العبادة حق لله، وليست للصالحين ولا للرسل ولا للصحابة، هي حق لله عَزَّ وَجَلَّ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(مشتغلين بقبره عمّا أمرَ به ودَعا إليه!)**، هم يزعمون أنهم يحبونهم ولذا يقولون: نحن نتبرك بهم، هذه محبة لهم.

فنقول: هذه ليست محبة، هم لا يرضون بهذا، كانوا يجاهدون على هذا في حياتهم ولا يرضون بالشرك بالله عَزَّ وَجَلَّ، فكيف تقولون هذه محبة للصالحين؟! الذي يحب الصالحين يقتدي بهم ويسير على منهجهم ولا يخالفهم ويزعم أنه يحبهم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وتعظيمُ الأنبياء والصالحين ومحبَّتُهم إنما هو باتباع ما دَعوا إليه من العلم النافع والعمل الصالح)**، هذه المحبة الصحيحة، محبة الأنبياء والصالحين إنما هي بإتباعهم والدعوة إلى ما هم عليه من الحق، هذه محبة الصالحين.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وتعظيمُ الأنبياء والصالحين ومحبَّتُهم إنما هو باتباع ما دَعوا إليه من العلم النافع والعمل الصالح، واقتفاء آثارهم، وسلوك طريقتهم، دون عبادة قبورهم، والعكوف عليها، واتخاذها أعيادًا)**، محبة الصالحين هي الاقتداء بهم في العلم والعمل، والدعوة إلى ما دعوا إليه من التوحيد والنهي عن الشرك، هذه محبة الصالحين الصحيحة.

ليست محبة الصالحين بالعكوف على قبورهم والتبرك بأضرحتهم، هذا الصالحون على الحقيقة لا يرضون به، ولو كانوا أحياء لقاتلوكم عليه، فكيف تقولون إن هذا من محبة الصالحين؟!

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإن من اقتفى آثارهم كان متسببًا إلى تكثير أجورهم؛ باتباعه لهم، ودعوته الناس إلى اتّباعهم، فإذا أعرض عمَّا دعوا إليه، واشتغل بضدّه، حَرَمَ نفسَه وحَرَمَهم ذلك الأجرَ، فأيّ تعظيم لهم واحترام في هذا؟)**، والذي يقتدي بالصالحين ويدعو إلى ما كانوا عليه من الحق، ويبصر الناس بإتباعهم والسير على منهجهم هذا فيه أجر لهم، أجر للصالحين والأموات؛ لأنهم قدوة حسنة، لمن يأتي بعدهم فيحصلون على الأجر بذلك.

أما الذي يدعو إلى عكس ذلك من البناء على قبورهم، والتبرك بأضرحتهم؛ فهذا عدو للصالحين، وليس محبًّا لهم، هل تحبهم بما يبغضونه وينكرونه؟! هذا غلط.

وإنما اشتغل كثير من الناس بأنواع من العبادات المُبتدَعَة، التي يكرهها الله ورسوله؛ لإعراضهم عن المشروع أو بعضه، وإن قاموا بصورته الظاهرة فقد هَجروا حقيقته المقصودة منه؛ وإلا فَمَن أَقْبَلَ على الصلوات الخمس بوجهه وقلبه، عارفًا بما اشتملت عليه من الكلِم الطيب والعمل الصالح، مُهتمًّا بها كل الاهتمام، أغْنَتْه عن الشرك، وكلُّ من قَصّر فيها أو في بعضها تجد فيه من الشرك بحسَب ذلك.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وإنما اشتغل كثير من الناس بأنواع من العبادات المُبتدَعَة، التي يكرهها الله ورسوله؛ لإعراضهم عن المشروع أو بعضه**)، من أعرض عن السنة ابتلي بالبدعة؛ لأن الإنسان سيعمل، لن يبقى جامدًا لا يتحرك، سيعمل إما أن يعمل بالخير، وإما أن يعمل بالشر.

فإن اتبع السنة ولزم الصراط المستقيم صار على منهج سليم وصار عمله صالحًا، وإن صار على منهج الضالين فإنه يكون عمله وبالًا عليه وخسارةً عليه ويوم القيامة الذين تعلق بهم يتبرؤون منه.

﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾ [البقرة:١٦٦]. يتبرأ المتبوع من التابع يوم القيامة.

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر:١٤]. ينكرونه، يقولون: أبدًا، نحن لم نأمركم بهذا ولا نرضى بهذا، ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف:٦].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وإنما اشتغل كثير من الناس بأنواع من العبادات المُبتدَعَة، التي يكرهها الله ورسوله؛ لإعراضهم عن المشروع أو بعضه، وإن قاموا بصورته الظاهرة)**، من اشتغل بالبدع ترك السنن، بل يبغض السنن، المبتدع يبغض السنن ويعاديها، كما أن السني يعادي البدع ويعادي أهلها، ولا تجتمع سنة وبدعة أبدًا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وإلا فَمَن أَقْبَلَ على الصلوات الخمس بوجهه وقلبه، عارفًا بما اشتملت عليه من الكلِم الطيب والعمل الصالح، مُهتمًّا بها كل الاهتمام، أغْنَتْه عن الشرك)**، الله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾ [العنكبوت:٤٥]. فالصلاة تنهى عن الشرك، تنهى عن الفحشاء والمنكر، وأعظم الفحشاء وأعظم المنكر هو الشرك وما دونه، فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر.

فالذي يصلي ويحافظ على الصلاة ينتهي عن الفحشاء والمنكر، لا تجده يحافظ على الصلاة ولزوم المساجد والتردد عليها، لا تجده يذهب إلى الأضرحة وإلى القبور؛ لأن قلبه تعلق بالمساجد بدل ما يتعلق بالمقابر.

﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾: ليس المراد بالعمارة بالطين والزخارف لا، العمارة بالطاعة.

﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ

ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [التوبة:١٨]. هذه عمارة المساجد في الحقيقة، بطاعة الله، بتنويرها بالعبادة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وكلٌّ من قَصّر فيها أو في بعضها تجد فيه من الشرك بحسب ذلك)**، كل مَن قصَّر في عبادة الله دخل عليه الشرك بحسَب ما نقص عنده من التوحيد والعبادة.

ومن أصغى إلى كلام الله بقلبه، وتدبّره وتفهّمه، أغناه عن السّماع الشيطاني الذي يصُدّ عن ذكر الله وعن الصلاة، ويُنبت النفاق في القلب.

وكذلك من أصغى إليه وإلى حديث الرسول ﷺ بكلّيته، وحدّث نفسه باقتباس الهدَى والعلم منه لا من غيره، أغناه عن البدع والآراء والتخرّصات والشطَحات والخيالات، التي هي وساوس النفوس وتخيلاتها.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومن أصغى إلى كلام الله بقلبه، وتدبّره وتفهّمه، أغناه عن السّماع الشيطاني)**، كما أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، فكذلك القرآن ينهى عن الفحشاء والمنكر، وينهى عن البدع، وينهى عن المزامير والغناء، ينهى عن ذلك القرآن الكريم.

ولا تجد من يتعلق قلبه بالقرآن ويتعلق قلبه بالأغاني والمزامير أبدًا، لا يجتمعان.

حُبُّ الكِتَابِ وَحُبُّ أَلْحَانِ الغِنَا ... فِي قَلْبِ عَبْدٍ لَيْسَ يَجْتَمِعَانِ[1]

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(أغناه عن السّماع الشيطاني)**، السماع الشيطاني: هو الأغاني.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(أغناه عن السّماع الشيطاني الذي يصُدّ عن ذكر الله وعن الصلاة)**، وفي هذا رد على الصوفية؛ لأن من شعارهم الغناء الذي يزعمون أنه ذكر لله عَزَّوَجَلَّ، يغنون، بل يضربون الطبول ويزعمون أن هذا عبادة لله

(١) انظر: النونية مع شرحها لابن عيسى (٢/ ٥٢١).

عَزَّوَجَلَّ، وهو دين الشيطان، الغناء والمزامير والطبول هذا دين الشيطان ليس من دين الله في شيء.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وكذلك من أصغى إليه وإلى حديث الرسول** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **بكلّيته، وحدّث نفسه باقتباس الهدَى والعلم منه لا من غيره، أغناه عن البدع والآراء والتخرّصات والشطَحات والخيالات، التي هي وساوس النفوس وتخيلاتها)**، ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه:١٢٣]، لا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه:١٢٤-١٢٦]. الجزاء من جنس العمل.

ومن بَعُدَ عن ذلك فلا بدّ له أن يتعوض عنه بما لا ينفعه، كما أن من عَمَرَ قلبه بمحبّة الله وذِكْرِه، وخشيته، والتوكل عليه، والإنابة إليه، أغناه ذلك عن محبة غيره وخشيته والتوكل عليه، وأغناه أيضًا عن عِشْق الصور، وإذا خلا من ذلك صار عبد هواه، أيُّ شيء استحسنه ملكه واستعبده.

فالمُعْرِض عن التوحيد مشركٌ شاء أم أبى، والمُعْرض عن السنة مبتدع ضالٌّ شاء أم أبى، والمُعْرِض عن محبة الله وذكره عبد الصّورِ شاء أم أبى، والله المستعان، وعليه التُّكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**كما أن من عَمَرَ قلبه بمحبّة الله وذِكْرِه، وخشيته، والتوكل عليه، والإنابة إليه، أغناه ذلك عن محبة غيره وخشيته والتوكل عليه**)، ليس هناك شك، في الله غنى عما سواه، وفي القرآن غنى عما سواه، وفي السنة غنى عما سواها.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وأغناه أيضًا عن عِشْق الصور**)، لأن العشق والغرام والأشياء هذه من مصطلحات الصوفية.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وإذا خلا من ذلك صار عبد هواه**)، إذا خلا من تعظيم كتاب الله وسنة رسول الله فإنه حينئذ يصير عبدًا لكل شيطان مريد من شياطين الإنس والجن.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وإذا خلا من ذلك صار عبد هواه، أيُّ شيء استحسنه ملكه واستعبده)، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص:٥٠]. اتباع الهوى.

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية:٢٣]. فالواجب أن يكون هوى الإنسان مع كتاب الله وسنة رسوله، لا يكون هواه مع الأغاني والأصوات والمطربات والأشياء هذه، والشهوات.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فالمُعرِض عن التوحيد مشركٌ شاء أم أبى)، المعرض عن التوحيد يقع في الشرك؛ لأن من أعرض عن شيء وقع في ضده ولابد.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والمُعْرِض عن السنة مبتدع ضالٌّ شاء أم أبى)، والمعرض عن اتباع السنة مبتلى بالبدعة عقوبةً له.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والمُعرِض عن محبة الله وذكره عبد الصّورِ شاء أم أبى)، والمعرض عن محبة الله ورسوله يبتلى بحب الصور والعشق والغرام.

فصل

فإن قيل: فما الذي أوقع عُبّاد القبور في الافتتان بها، مع العلم بأن ساكنيها أموات، لا يملكون لهم ضرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا؟

قيل: أوقعهم في ذلك أمور:

منها: الجهل بحقيقة ما بعث اللهُ به رسولَه بل جميعَ الرسل- عليهم الصلاة والسلام- من تحقيق التوحيد، وقَطْع أسباب الشرك، فقلّ نصيبُهم جدًّا من ذلك، ودعاهم الشيطانُ إلى الفتنة، ولم يكن عندهم من العلم ما يُبطل دعوته، فاستجابوا له بحسَب ما عندهم من الجهل، وعُصموا بقدر ما معهم من العلم.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فإن قيل: فما الذي أوقع عُبّاد القبور في الافتتان بها، مع العلم بأن ساكنيها أموات، لا يملكون لهم ضرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا؟)، هم يعلمون هذا ومع هذا يتعلقون بهم، فما هو الجواب؟

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (منها: الجهل بحقيقة ما بعث اللهُ به رسولَه بل جميعَ الرسل -عليهم الصلاة والسلام-)، والجهل داء قاتل، فالذي لا يتعلم كتاب الله وسنة رسوله فإنه يقع في هذه الأمور؛ لأنه ترك النور والهدى، ومن ترك النور وقع في الظلام.

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٢٥٧].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولم يكن عندهم من العلم ما يُبطل دعوته، فاستجابوا له بحسب ما عندهم من الجهل، وعُصموا بقدر ما معهم من العلم)**، لا يعصم من الضلال ومن الشيطان إلا العلم النافع والعمل الصالح، فمن ضيع العلم النافع والعمل الصالح وقع في ضدهما، وقع في الجهل، ووقع في العمل الضارِّ والضلال - والعياذ بالله -.

ليس هناك شيء ثالث أبدًا: إما هدى وإما ضلال، إما كفر وإما إيمان، إما جنة وإما نار.

مما أوقعهم أولًا: الجهل، مما أوقعهم في عبادة القبور:

أولًا: الجهل بما أنزل الله على رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الدعوة إلى التوحيد والابتعاد عن الشرك، هم أعرضوا عن ذلك، لم يتعلموا كتاب الله ولا سنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنما يعيشون مع العوائد ومع التقليد الأعمى ومع دعاة الضلال، هذا الذي أوقعهم، هذا الشيء الأول.

ومنها: أحاديثُ مكذوبة مُختلَقة، وضعها أشباه عُباد الأصنام من المقابرية على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تُناقض دينَه وما جاء به، كحديث: «إذا أعْيَتكُم الأمور، فعليكم بأصحاب القبور»(١).

وحديث: «لو أحسَنَ أحدُكم ظنَّه بحجرٍ نفعه»(٢).

وأمثال هذه الأحاديث التي هي مناقِضةٌ لدين الإسلام، وضعَها المشركون، وراجت على أشباههم من الجهال الضُّلال، والله بعث رسوله بقتل من حَسَّن ظنَّه بالأحجار، وجَنّب أُمّتَه الفتنةَ بالقبور، بكل طريق كما تقدم.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (ومنها: أحاديث مكذوبة مُختلَقة)، ومما أوقعهم في الضلال: أخذهم بأحاديث منسوبة إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهي كذب واختلاق، الأحاديث التي فيها الدعوة إلى عبادة القبور والتبرك بها هذه كلها مكذوبة وهي التي بأيديهم، لا يأخذون صحيح البخاري وصحيح مسلم والسنن والمسانيد الثابتة عن الرسول لا يأخذونها، إنما يأخذون أحاديث مكذوبة مردودة عند أهل العلم.

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة في مجموع الفتاوى (١/ ٣٥٦): (هذا الحديث كذِبٌ مُفتَرى على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإجماع العارفين بحديثه، لم يروه أحد من العلماء بذلك، ولا يوجد في شيء من كتب الحديث المعتمدة). وقال أيضًا (١١/ ٢٩٣): (هو كذب باتفاق أهل المعرفة... وإنما هذا وضع من فتح باب الشرك).

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة في مجموع الفتاوى (٢٤/ ٣٣٥): (هذا أيضًا من المكذوبات).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وضعها أشباه عُباد الأصنام من المقابرية على رسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**)**، وضعوها على رسول الله، نسبوها إليه وهي كذب.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وضعها أشباه عُباد الأصنام من المقابرية)**، المقابرية: الذين يدعون إلى عبادة القبور.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(كحديث: «إذا أعْيَتكُم الأمور، فعليكم بأصحاب القبور»)**، هذا حديث ينسبونه إلى الرسول أنه قال: «إذا أعيتكم الأمور» يعني: أعجزتكم الأمور، «فعليكم بأصحاب القبور».

هل الرسول يقول هذا، وهو الذي جاء بالدعوة إلى التوحيد والنهي عن الشرك وجاهد في ذلك؟! انظروا الكذب على رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذا واحد.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وحديث: «لو حسَنَ أحدُكم ظنَّه بحجرٍ نفعه»)**، «لو حسَنَ أحدكم ظنه بحجر نفعه»هذا كذب وافتراء، تحسن ظنك بحجر أصم لا يملك ضرًّا ولا نفعًا؟!

ومنها: حكايات حُكِيَتْ لهم عن تلك القبور: أن فلانًا استغاث بالقبر الفلاني في شِدة، فخلص منها، وفلان دعاه أو دعا به في حاجة، فقُضِيَتْ له، وفلان نزل به ضُرٌّ فاسترجى صاحبَ ذلك القبر، فكُشِفَ ضرُّه.

وعند السّدنة والمقابرية من ذلك شيء كثير يطول ذكره، وهم من أكذب خلق الله على الأحياء والأموات، والنفوسُ مُولَعةٌ بقضاء حوائجها، وإزالة ضروراتها، ويُسمع بأن قبر فلان تِريْاق مُجرّب.

والشيطان له تلطُّفٌ في الدعوة، فيدعوهم أولًا إلى الدعاء عنده، فيدعو العبدُ عنده بحُرْقَةٍ وانكسار وذِلّة، فيجيب الله دعوته لما قام بقلبه لا لأجل القبر، فإنه لو دعاه كذلك في الحانة والخمارة والحمام والسوق أجابه، فيظن الجاهل أن للقبر تأثيرًا في إجابة تلك الدعوة، والله سبحانه يجيب دعوة المضطرِّ ولو كان كافرًا.

وقد قال تعالى: ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء:٢٠].

وقد قال الخليل: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾، فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة:١٢٦].

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ومنها: حكايات حُكِيَتْ لهم عن تلك القبور)، الثالث من الأمور التي أوقعتهم في الشرك بالقبور: حكايات حكيت عن الميت الفلاني

أنه عمِل كذا، وأن فلانًا جاء عند القبر ودعا صاحبه وحصلت له حاجته، وغير ذلك، أو أن الميت كلمه وقال: أنا أقضي حاجتك، وهو الشيطان.

الشيطان يتصور بصورة الميت ويظهر إلى عبَّاد القبور، ويقول لهم: أنا فلان وأنا أقضي حوائجكم وأنا، وأنا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وفلان دعاه أو دعا به في حاجة، فقُضِيَتْ له)**، هذا لو صح وقضيت حاجته فهذا لا يدل على الجواز، حصول المقصود لا يدل على الجواز؛ لأنه قد يكون استدراجًا من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أو يكون صادف قضاءً وقَدَرًا لا بسبب دعاء الميت، وإنما صادف قضاء وقدرًا من الله، أو أن الله أعطاه هذا استدراجًا له، نسأل الله العافية، فحصول المطلوب لا يدل على الجواز.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وفلان نزل به ضُرٌّ فاسترجى صاحبَ ذلك القبر، فكُشِفَ ضرُّه)**، مشحونة كتبهم من هذه الأشياء.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وعند السّدنة والمقابرية من ذلك شيء كثير يطول ذكره)**، مدوَّن عندهم ويطبعونه ويوزعونه الآن وينشرونه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهم من أكذب خلق الله على الأحياء والأموات)**، بلا شكٍّ، مَن كذب على الله، أو كذب على رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنه أضل الناس -والعياذ بالله- وأكفر الناس.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ويسمع بأن قبر فلان تِرياق)**، ترياق: بمعنى أنه دواء، الترياق يعني الدواء.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والشيطان له تلطُّفٌ في الدعوة، فيدعوهم أولًا إلى الدعاء عنده)**، عند القبر.

أولًا: يدعوه إلى دعاء الله عند القبر؛ لأن الدعاء عند القبور وإن كان يدعو الله دعاؤه عند القبر هذه بدعة، والبدعة تجره إلى الشرك.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فيدعوهم أولًا إلى الدعاء عنده)**، عند القبر، دعاء الله يعني، لا يدعو القبر، دعاء الله عند القبر فتقضى حاجته فيظن أنه بسبب وجوده عند القبر.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإنه لو دعاه كذلك في الحانة والخمارة والحمام والسوق أجابه)**، ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾ [النمل:٦٢]، ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء:٦٧]، فالله يجيب المضطر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ولو كان كافرًا؛ لأنهم يخلصون الدعاء إذا وقعوا في الشدة أخلصوا لله الدعاء، فاستجاب الله لهم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والله سبحانه يجيب دعوة المضطرِّ ولو كان كافرًا)**، يجيب دعوة المضطر ولو كان كافرًا، ويجيب دعوة المظلوم ولو كان كافرًا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقد قال تعالى: ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء:٢٠])**، ﴿ كُلًّا ﴾ يعني من الكفار والمسلمين.

الكفار الله يطعمهم ويرزقهم ويكسوهم ويُؤْويهم وهم كفار أعداء لله، ومع هذا من رحمته بخلقه أنه يطعمهم ويسقيهم ويكسوهم ويؤويهم، هذا من رحمته سبحانه بعباده.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وقد قال الخليل**: ﴿ وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ ﴾)، الخليل لما دعا لمكة: ﴿ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ ﴾ [البقرة:١٢٦].

قال الله: ﴿ وَمَن كَفَرَ ﴾: يعني: ومن كفر فأنا أعطيه أيضًا.

﴿ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [البقرة:١٢٦]؛ فالله يعطي المسلم ويعطي الكافر.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وقد قال تعالى**: ﴿ كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَ ﴾)، يعني المؤمنين والكفار، هؤلاء وهؤلاء.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ﴾ [الإسراء:٢٠])، ﴿ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ﴾ [الإسراء:٢٠]: يعني ممنوعًا، لا أحد يمنع عطاء الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وقد قال الخليل**: ﴿ وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ ﴾)، الخليل خص من آمن بالله واليوم الآخر من أهل مكة، الله عمم قال: ﴿ وَمَن كَفَرَ ﴾ [البقرة:١٢٦] يعني: فأرزقه أيضًا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**فقال الله** سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [البقرة:١٢٦])، فالله يرزق الكافر، ويجيب دعوة الكافر المضطر.

❖ ❖ ❖

فليس كلُّ من أجاب الله دعاءه يكون راضيًا عنه، ولا محبًّا له، ولا راضيًا بفعله، فإنه يجيب البرَّ والفاجر، والمؤمن والكافر.

وكثير من الناس يدعو دعاءً يَعْتدي فيه، أو يُشرك في دعائه، أو يكون مما لا يجوز أن يُسأل، فيحصل له ذلك أو بعضه، فيظن أن عمله صالح مُرضٍ لله، ويكون بمنزلة من أُمْلِيَ له، وأُمِدّ بالمال والبنين، وهو يظن أن الله يُسارع له في الخيرات، وقد قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٤٤].

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فليس كلُّ من أجاب الله دعاءه يكون راضيًا عنه، ولا محبًّا له)، وإنما يكون هذا في حال الضرورة أو في حال الاستدراج له من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فيحصل له ذلك أو بعضه، فيظن أن عمله صالح مُرضٍ لله)، حصول المطلوب لا يدل على الجواز؛ لأنه قد يكون أن الله أجابه؛ لأنه مضطر، والله يجيب المضطر ولو كان كافرًا أو مشركًا، وإما أن يكون استدراجًا من الله له، وهذا لا حجة فيه، ولا يُغتر به.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ويكون بمنزلة من أُمْلِيَ له، وأُمِدّ بالمال والبنين، وهو يظن أن الله يُسارع له في الخيرات)، ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون:٥٥-٥٦].

﴿ أَيَحْسَبُونَ ﴾: يعني الكفار، ﴿أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾: أننا نستدرجهم بذلك.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقد قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام:٤٤])**، ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ ﴾: الأنبياء جاءت هذه الأمم بالدعوة إلى الله، وأمروهم بعبادة الله، وبدعاء الله، ولكنهم عصوا بعد الدعوة وبعد العلم، فالله استدرجهم وأنعم عليهم لمضرتهم، ثم أخذهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على غفلة.

فالدعاء قد يكون عبادة، فيثاب عليه الداعي، وقد يكون دعاءَ مسألةٍ تُقضى به حاجته، ويكون مضرةً عليه، إما أن يعاقب بما يحصل له، أو تنقص به درجته، فتُقضى حاجتُه، ويعاقبه على ما جرى عليه من إضاعة حقوقه، وارتكاب حدوده.

والمقصود أن الشيطان بلُطف كيده يُحسِّن الدعاء عند القبر، وأنه أرجح منه في بيته ومسجده وأوقات الأسحار.

فإذا تقرر ذلك عنده نقله درجةً أخرى، من الدعاء عنده إلى الدعاء به، والإقسام على الله به، وهذا أعظم من الذي قبله؛ فإن شأن الله أعظم من أن يُقسَم عليه، أو يُسألَ بأحدٍ من خلقه، وقد أنكر أئمة الإسلام ذلك.

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**والمقصود أن الشيطان بلُطف كيده يُحسِّن الدعاء عند القبر، وأنه أرجح منه في بيته ومسجده وأوقات الأسحار**)، ولذلك يدْعون عند القبور ويبكون ويتضرعون، وإذا جاؤوا إلي المساجد لا يتضرعون، ولا يحصل منهم خشوع ولا خشية، أو قد لا يأتون إلى المساجد، وإنما يذهبون إلى القبور ولا يريدون المساجد!

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**فإذا تقرر ذلك عنده نقله درجةً أخرى، من الدعاء عنده إلى الدعاء به**)، يعني أول شيء يُحسن للإنسان الدعاء عند القبر، ويقول: إن الدعاء عند القبر يستجاب، فإذا فعل العبد ذلك واستجاب للشيطان نقله إلى أن يدعو الميت، ويدعوَ القبر.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(من الدعاء عنده إلى الدعاء به)**، الدعاء به: بالتوسل به؛ أسألك بفلان، أسألك بفلان... التوسل بالشخص، وهذا لا يجوز.

﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [غافر:١٤]، ادْعُهُ مباشرة، ولا تتوسل إليه بأحد، الله لم يأمرك بهذا، أمرك أن تدعوه مباشرة بدون واسطة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والإقسام على الله به)**، الإقسام على الله: أسألك بفلان، الباء باء القسم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهذا أعظم من الذي قبله)**، أعظم من الدعاء عنده.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقد أنكر أئمة الإسلام ذلك)**، أنكروا التوسل إلى الله بالصالحين أو بالأشخاص، إنما يتوسل إلى الله بأسمائه وصفاته.

﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠]: توسلوا إلى الله بأسمائه، فقُلْ: يا رحمنُ ارحمني، يا رزاقُ ارزقني، يا غفورُ اغفر لي... وهكذا.

فقال أبو الحسين القُدُوري في شرح «كتاب الكَرْخي»[(١)]: قال بشر بن الوليد: سمعت أبا يوسف يقول: قال أبو حنيفة: «لا ينبغي لأحد أن يدعو الله إلا به، قال: وأكره أن يقول: أسألك بمَعْقِد العزِّ من عرشك، وأكره أن يقول: بحق فلان، وبحق أنبيائك ورسلك، وبحق البيت الحرام»[(٢)].

قال أبو الحسين: أما المسألة بغير الله فمنكرة في قولهم؛ لأنه لا حقَّ لغير الله عليه، وإنما الحق لله على خلقه.

وأما قوله: «بمعْقد العِزِّ من عرشك» فكرهه أبو حنيفة، ورخّص فيه أبو يوسف. قال: وروي أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعا بذلك[(٣)].

قال: ولأن مَعْقد العزّ من العرش إنما يراد به القدرة التي خلق الله بها العرش، مع عظمته، فكأنه سأله بأوصافه.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فقال أبو الحسين القُدُوري في شرح «كتاب الكَرْخي»)، من فقهاء الحنفية، القدوري، وهذا المتن الذي ألفه من مراجع الحنفية.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قال بشر بن الوليد: سمعت أبا يوسف يقول: قال أبو حنيفة: «لا ينبغي لأحد أن يدعو الله إلا به»)، إلا بالله أو بأسمائه، لا يدعو بشخص؛ أسألك بفلان.

---

(١) نقله عنه شيخ الإسلام ابن تيميَّة في مجموع الفتاوى (١/ ٣٤٥).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١/ ٢٠٢، ٢٠٣، ٣٤٥، ٢٤/ ٣٣٦).

(٣) أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (٢/ ١٤٢)، وقال: (هذا حديث موضوع بلا شك).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قال: وأكره أن يقول: أسألك بمَعْقِد العزِّ من عرشك)**، هذا يقوله أبو يوسف صاحب أبي حنيفة؛ لأن أصحاب أبي حنيفة هم محمد بن الحسن، وأبو يوسف، والثالث زفر بن الهذيل، هؤلاء أصحاب أبو حنيفة الذين تلقوا مذهبه عنه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قال: وأكره أن يقول: أسألك بمَعْقِد العزِّ من عرشك)**، لأن معقد العز من العرش مخلوق، ولا يسأل الله بمخلوق

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وأكره أن يقول: بحق فلان، وبحق أنبيائك ورسلك)**، لا يقسم على الله بحق أحد من خلقه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وأكره أن يقول: بحق فلان، وبحق أنبيائك ورسلك، وبحق البيت الحرام)**، لا بحق مخلوق.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قال أبو الحسين: أما المسألة بغير الله فمنكرة في قولهم؛ لأنه لا حقَّ لغير الله عليه، وإنما الحق لله على خلقه)**، ليس لأحد على الله حق واجب.

مَا للعباد عَلَيْهِ حق وَاجِب ... كلا وَلَا عمل لَدَيْهِ ضائع
إن عذبُوا فبعدله أوْ نعموا ... فبفضله وهو الكريم الواسع[(١)]

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وأما قوله: «بمعْقد العِزِّ من عرشك» فكرهه أبو حنيفة، ورخّص فيه أبو يوسف)**، أبو يوسف: من أصحاب أبي حنيفة.

---

(١) انظر: الوابل الصيِّب (ص٦٣)، وبدائع الفوائد (٢/ ١٦٣)، وطريق الهجرتين (ص٣١٨)، ومدارج السالكين (٢/ ٣٢٣).

محمد بن الحسن، وأبو يوسف، وزُفَرُ بن الهذيل، هؤلاء الذين تلقوا مذهب أبي حنيفة عنه.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**قال: ولأن مَعْقد العزّ من العرش إنما يراد به القدرة التي خلق الله بها العرش، مع عظمته، فكأنه سأله بأوصافه**)، بهذا المعنى صحيح، لكن هل هذا هو المعنى؟!

وقال ابن بَلْدَجِيٍّ في «شرح المختار»: ويُكره أن يدعو الله تعالى إلا به، فلايقول: أسألك بفلان، أو بملائكتك، أو بأنبيائك ونحو ذلك؛ لأنه لا حقَّ للمخلوق على خالقه، أو يقول في دعائه: أسألك بمعقد العزّ من عرشك. وعن أبي يوسف جوازه[1].

وما يقول فيه أبو حنيفة وأصحابه: «أكره كذا»، هو عند محمد حرام، وعند أبي حنيفة وأبي يوسف هو إلى الحرام أقرب، وجانب التحريم عليه أغلب.

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وما يقول فيه أبو حنيفة وأصحابه: «أكره كذا»، هو عند محمد حرام)، الكراهة يريدون بها الحرام؛ مثل قوله تعالى: ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ [الإسراء:٣٨]: يعني محرمًا أولها: الشرك.

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [الإسراء:٢٣]. ثم ذكر أشياء نهى عنها، ثم قال: ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ [الإسراء:٣٨]: يعني محرمًا، فالكراهية عند الأقدمين يريدون بها الحرام، أما عند المتأخرين يريدون بها كراهة التنزيه.

---

(١) انظر: الاختيار لتعليل المختار (٤/ ١٦٤).

وفي «فتاوى أبي محمد بن عبد السلام»: أنه لا يجوز سؤال الله سبحانه بشيء من مخلوقاته: لا الأنبياء، ولا غيرهم، وتوقف في نبينا ﷺ، لاعتقاده أن ذلك جاء في حديث، وإنه لم يعرف صحة الحديث.

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**وفي «فتاوى أبي محمد بن عبد السلام»**)، في فتاوى الشيخ العز بن عبد السلام الملقب بسلطان العلماء؛ لقوته وصرامته رَحِمَهُ اللَّهُ حول مسألة القبور والتوسل بأصحابها.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**أنه لا يجوز سؤال الله سبحانه بشيء من مخلوقاته**)، لا يجوز سؤال الله بشيء من مخلوقاته؛ لأن هذا لم يرد في الكتاب ولا في السنة.

والله جَلَّ وَعَلَا قال: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر:٦٠]، فلم يقل: ادعوني بواسطة فلان أو بواسطة نبي أو ملك من الملائكة، بل قال: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر:٦٠].

قال سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ﴾ [البقرة:١٨٦].

سأل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ رسول الله ﷺ، قالوا: «يا رسول الله، أبعيد ربنا فنناديه أم قريب فنناجيه؟ فنزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ [البقرة:١٨٦]»[1]، فهو

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٣/ ٢٢٢)، وزاد المسير (١/ ١٤٥)، وابن كثير (١/ ٥٠٥-٥٠٦).

قريب من عباده مع عُلُوِّه -سبحانه- على عرشه، قريب في علوه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مع أنه مستوٍ على عرشه فوق سمواته، هذا قرب خاصٌّ بالرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(أنه لا يجوز سؤال الله سبحانه بشيء من مخلوقاته: لا الأنبياء، ولا غيرهم)**، لأن هذا شيء لم يأمر الله به، لم يقل: ادعوني بواسطة نبي أو ملك. بل قال: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ [غافر:٦٠]، وقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦]، فهو يرى ويسمع ويعلم سبحانه، ليس بحاجة إلى أن يبلغه أحدٌ عن حوائج خلقه كالملوك من بني آدم الذين تخفى عليهم أحوال الرعية وأحوال العباد فيحتاجون إلى من يبلغهم وإلى من يشفع عندهم لحصول المطلوب، الله جَلَّ وَعَلَا ليس كذلك، فهو قريب من عباده وقريب من إجابة الدعاء.

ولكن الشأن من قبل العباد يصلح أمرهم فيصلح الله شأنهم، ﴿فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ﴾ [البقرة:١٨٦].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وتوقف في نبينا** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ**، لاعتقاده أن ذلك جاء في حديث، وإنه لم يعرف صحة الحديث)**، توقف في شأن سؤال الله بنبينا؛ لأنه جاء في حديث لم يعرف صحته حتى يقول به، أو يعرف أنه لا يصح الاحتجاج به حتى يقول به.

وهذا شأن العلماء: إذا أَشكل عليهم شيءٌ توقفوا حتى يتبينَ لهم الصوابُ، ولا يستعجلون في الأمور.

فإذا قرّر الشيطان عنده أن الإقسام على الله به، والدعاء به أبلغ في تعظيمه واحترامه، وأنجَعُ في قضاء حاجته، نقله درجة أخرى إلى دعائه نفسه من دون الله.

ثم ينقله بعد ذلك درجة أخرى إلى أن يتخذ قبرَه وثنًا، يعكُف عليه، ويوقد عليه القنديل، ويعلّق عليه الستور، ويبني عليه المسجد، ويعبده بالسجود له، والطواف به، وتقبيله، واستلامه، والحج إليه، والذّبح عنده.

ثم ينقله درجة أخرى إلى دعاء الناس إلى عبادته، واتخاذه عيدًا ومَنْسكًا، وأن ذلك أنفع لهم في دنياهم وآخرتهم.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإذا قرّر الشيطان عنده أن الإقسام على الله به، والدعاء به أبلغ في تعظيمه واحترامه، وأنجَعُ في قضاء حاجته، نقله درجة أخرى إلى دعائه نفسه من دون الله)**، الشيطان يقول له: أنت لن يصل دعاؤك إلى الله، أنت عبد مذنب وأنت، وأنت ولن يصل دعاؤك إلى الله، احضر واسطة بينك وبين الله من الأنبياء أو من الملائكة أو من الصالحين حتى يبلغوا طلبك إلى الله ويشفعوا لك! يقول الشيطان كذا.

فإذا أوقعهم في هذا ودعوا الله بخلقه وتوسلوا إليه بخلقه انتقل بهم إلى أن يدعوا نفْس المخلوق، أن يتركوا دعاء الله ويدعوا نفس المخلوق، فيحصل الشرك بذلك، والله جَلَّوَعَلَا يقول: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [البقرة:٢٠٨]. فالشيطان يأتي شيئًا فشيئًا، يتنقل ببني آدم فيجب الحذر منه،

وأمامك -الحمد لله- الكتاب والسنة لست بحاجة إلى قول فلان أو علان، أمامك الكتاب والسنة لاسيما في مسائل العقيدة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**ثم ينقله بعد ذلك درجة أخرى إلى أن يتخذ قبرَه وثنًا، يعكُف عليه، ويوقد عليه القنديل، ويعلّق عليه الستور، ويبني عليه المسجد، ويعبده**)، انظر! يتنقل معه.

أولًا يقول: اسأل الله بشفاعة فلان، دَعْهُ يتوسط لك، ثم يقول له: ادعُ فلانًا؛ فإنه يستطيع أن ينجدك وأن يغيثك؛ لأنه ولي من أولياء الله، ثم ينتقل به إلى أن يقول: اذهب إلى قبره بعد موته، قبور الصالحين.

وهذا الذي أوقع القبوريين فيما وقعوا فيه من الشرك بالله وعبادة القبور، هو تدرج الشيطان بهم إلى أن أوقعهم في هذا، ونسُوا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وتعلقوا بالقبور.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**ويوقد عليه القنديل، ويعلّق عليه الستور، ويبني عليه المسجد**)، الناس -ولا سيما العوام والجهال- إذا رأوا هذا القبر أنه مبني، وأنه معلق عليه قناديلُ أي: سُرُج، وعنده حراس، وعنده سَدَنة؛ تعلقت قلوبهم به من دون الله عَزَّوَجَلَّ؛ ولهذا نُهِيَ عن تعظيم القبور، وعن الإسراج عليها وعن البناء عليها، كله حماية للتوحيد.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**ويبني عليه المسجد، ويعبده بالسجود له، والطواف به، وتقبيله، واستلامه، والحج إليه، والذّبح عنده**)، كما هو الحاصل الآن عند قبور الصالحين ممن يعبدونهم كقبر البدوي في مصر وقبر فلان وفلان، يأتون

إليها بالقرابين والذبائح ويذبحونها عنده ويقيمون عندها؛ لأن هذا من تدريج الشيطان لهم.

ولو أنهم ذهبوا إلى المساجد وإلى بيوت الله صلوا فيها، ورفعوا أيديهم إلى الله بقلوب حاضرة، وتضرعوا إلى الله استجاب دعاءهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولكن صدهم الشيطان.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ثم ينقله درجة أخرى إلى دعاء الناس إلى عبادته، واتخاذه عيدًا ومَنْسكًا)**، تدرج الشيطان، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة:٢٠٨].

الشيطان سيتدرج بني آدم فيجب الحذر منه، عندك الكتاب والسنة، لماذا تذهب للأمور هذه؟ الكتاب والسنة واضحان مثل النهار، تمشي مثلما تمشي في النهار على ضياء وعلى نور وعلى جادة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وأن ذلك أنفع لهم في دنياهم وآخرتهم)**، ولذلك شيدت القبور في كثير من البلاد، ودعيت من دون الله وصاروا يطوفون بها كما يطوفون بالكعبة بل أشد، إلا هذه البلاد.

هذه البلاد كان فيها قبور كذلك يطاف بها، وفيها غيران يذهبون إليها ونخيل يتعلقون بها حتى جاء الله بهذا الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فدعا الناس إلى توحيد عَزَّوَجَلَّ، وبيَّن لهم التوحيد الخالص الذي جاء به رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلم يأتِ بشيء من عنده، جاءهم بالكتاب والسنة، لم يأتهم بشيء من عنده أو دعاهم إلى تعظيم رجل من الرجال أو ولي أو ملك،

بل دعاهم إلى ما دعا به الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**اعْبُدُوا اللهَ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**». هكذا دعوة هذا الإمام، نفع الله بها، وأضاءت هذه البلاد، ولا تزال -ولله الحمد- خالية من عبادة القبور ومن الأضرحة.

قال شيخنا -قدَّس الله رُوحَه-: وهذه الأمور المبتدعة عند القبور مراتب: أبعدها عن الشرع: أن يسأل الميت حاجته، ويستغيث به فيها، كما يفعله كثير من الناس.

قال: وهؤلاء من جنس عُبّاد الأصنام، ولهذا قد يمتثل لهم الشيطان في صورة الميت أو الغائب، كما يتمثل لعبّاد الأصنام.

وهذا يحصل للكفار من المشركين وأهل الكتاب، يدعو أحدُهم مَنْ يعظِّمه، فيتمثّل له الشيطان أحيانًا، وقد يخاطبهم ببعض الأمور الغائبة.

وكذلك السجود للقبر، والتمسح به وتقبيله.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قال شيخنا قدَّس الله روحه)**، الشيخ محمد، لا، شيخنا شيخ الإسلام؛ لأن المتكلم الآن ابن القيم، وشيخه هو شيخ الإسلام.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهذه الأمور المبتدعة عند القبور مراتب: أبعدها عن الشرع: أن يسأل الميت حاجته)**، هذا شرك صريح، إذا سأل الميت أن يقضي حاجته فهذا شرك صريح.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قال: وهؤلاء من جنس عُبّاد الأصنام)**، لا فرق بين عبادة الأصنام وعبادة القبور، كلها عبادة لغير الله فلا فرق بينها.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولهذا قد يمتثل لهم الشيطان في صورة الميت أو الغائب)**، قد يتمثل الشيطان لمن يدعون الأضرحة والقبور في صورة الميت، ويقول: أنا سمعت شكواكم وأنا قضيت حوائجكم وأنا، وأنا؛ ليضلهم عن

سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، وهو شيطان، ليس هو الميت، هذا شيطان تمثل بالميت ليضلهم وليغريهم بهذا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(كما يتمثل لعبّاد الأصنام)**، كما أن الأصنام في الجاهلية يأتي الشيطان عبادها، ويقول: أنا فلان، أنا الملك، أنا قضيت حوائجكم، أبشروا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهذا يحصل للكفار من المشركين وأهل الكتاب، يدعو أحدُهم مَنْ يعظِّمه، فيتمثّل له الشيطان أحيانًا، وقد يخاطبهم ببعض الأمور الغائبة)**، يتمثل لهم الشيطان بصورة الميت، ويقول لهم: أنا قضيت حوائجكم وأنا سمعت شكواكم، ائتوا إليَّ إذا احتجتم، أنا مستعد لكم... وهكذا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وكذلك السجود للقبر، والتمسح به وتقبيله)**، مثل الأصنام، كذلك يعني هو مثل الأصنام في الجاهلية بمسألة القبور لا فرق، كله عبادة لغير الله سواء عبد شجرة أو حجرًا أو عبد قبرًا، المعنى واحد.

المرتبة الثانية: أن يسأل اللهَ به، وهذا يفعله كثير من المتأخرين، وهو بدعة باتفاق المسلمين.

الثالثة: أن يسأله نفسه.

الرابعة: أن يظن أن الدعاء عند قبره مستجاب، أو أنه أفضل من الدعاء في المسجد، فيقصد زيارته والصلاة عنده؛ لأجل طلب حوائجه.

فهذا أيضًا من المنكرات المبتدعة باتفاق المسلمين، وهي محرمة، وما علمتُ في ذلك نزاعًا بين أئمة الدين، وإن كان كثير من المتأخرين يفعل ذلك، ويقول بعضهم: قبرُ فلان تِرْياقٌ مجُرَّب.

والحكاية المنقولة عن الشافعي -أنه كان يقصد الدعاء عند قبر أبى حنيفة- من الكذب الظاهر.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(المرتبة الثانية: أن يسأل اللهَ به)**، المرتبة الثانية: أن يسأل الله به يعني: بالميت، أسألك بفلان، يتوسط بالميت إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهذا يفعله كثير من المتأخرين، وهو بدعة باتفاق المسلمين)**، الأول شرك، إذا سأل الميت نفسه فهذا شرك صريح.

إذا سأل الله بالميت؛ أسألك بفلان أن تقضي حاجتي، هذا بدعة ووسيلة إلى الشرك.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(الرابعة: أن يظن أن الدعاء عند قبره مستجاب، أو أنه أفضل من الدعاء في المسجد)**، يزين الشيطان أن الدعاء عند القبر أقرب إلى

الإجابة من الدعاء في المسجد ويذهبون إلى القبور ويدعون الله عندها ويتركون المساجد، بل عندهم أن المسجد الذي ليس فيه قبر لا قيمة له ولا يذهبون إليه، إنما يذهبون إلى المساجد المبنية على القبور، نسأل الله العافية.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فيقصد زيارته والصلاة عنده؛ لأجل طلب حوائجه)**، ولذلك يبكون عند القبور بكاءً لا يبكونه في المساجد التي هي بيوت الله عَزَّوَجَلَّ!

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وما علمتُ في ذلك نزاعًا بين أئمة الدين)**، يقول شيخ الإسلام: ما علمت نزاعًا في تحريم هذا، تحريم أن يسأل الله بفلان، بشفاعة فلان.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وما علمتُ في ذلك نزاعًا بين أئمة الدين، وإن كان كثير من المتأخرين يفعل ذلك)**، العبرة بـأئمة الدين، لا العبرة بالمتأخرين ممن يتساهلون، أو أنهم نشأوا على عبادة القبور وألفوها وصاروا يفتون بها، هؤلاء لا عبرة بهم، العبرة بالأئمة الموثوق بهم كالأئمة الأربعة، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وكابن القيم، وككل الأئمة من مختلف المذاهب، كل الأئمة المعتبرين كلهم على خلاف هذا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ويقول بعضهم: قبرُ فلان تِرْياقٌ مجُرَّب)**، يدعون إليه، يقولون: قبر فلان ترياق، والترياق: وهو ما يوضع على المريض من الأوراق والورد وما أشبه ذلك من الأوراق التي تكتب للميت وتعلق عليه، يقولون: هذا ترياق، أو الترياق أيضًا ما يعمل لمضاد سم الحية، يسمونه ترياقًا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والحكاية المنقولة عن الشافعي -أنه كان يقصد الدعاء عند قبر أبي حنيفة- من الكذب الظاهر)**، هذا كذب ظاهر، الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يذهب إلى القبر ويدعو عنده! هذا من الكذب على الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

فصــل
في الفرق بين زيارة الموحِّدين للقبور، وزيارة المشركين

أما زيارة الموحدين فمقصودها ثلاثة أشياء:

أحدها: تذكّر الآخرة، والاعتبار والاتِّعاظ، وقد أشار النبي ﷺ إلى ذلك بقوله: «زُورُوا الْقُبُورَ؛ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُكُمُ الْآخِرَةَ»[1].

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (في الفرق بين زيارة الموحِّدين للقبور، وزيارة المشركين)، الفرق بين زيارة الموحدين، زيارة القبور مشروعة وفيها فضل ومأمور بها شرعًا، لكن لمن يزورها للسلام على أصحابها والدعاء لهم والاعتبار بحال الأموات، فزيارة القبور لغرضين:

الغرض الأول: الاعتبار بحالة القبور، يقول ﷺ: «**زُورُوا الْقُبُورَ؛ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ بِالْآخِرَةِ**»، هذا واحد، الاعتبار بأحوال الأموات.

الأمر الثاني: مصلحة الميت، يُسلم عليه، ويدعى له ويستغفر له؛ لأنه بحاجة إلى هذا، انقطع عمله فهو بحاجة إلى من يدعو له، إلى من يتصدق عنه، إلى من يحج أو يعتمر عنه، بحاجة إلى هذا، بحاجة إلى إهداء الثواب إليه.

وليس الحي بحاجة إلى الميت هذا من الانتكاس، ليس الحي بمحتاج إلى الميت بالعكس، الميت هو المحتاج؛ لأن الحي يستطيع أن يعبد ربه ويستطيع

---

(١) سبق تخريجه (ص٦٤٥).

أن يصلي ويصوم ويستطيع أن يتهجد بالليل، خلاف الميت منقطع عمله مرتهن.

«إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ»، وهي الوقف.

«أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ»: يعني له تلاميذ علَّمهم، أو له كتب ألَّفها، هذا يصل ثوابها إليه وهو ميت.

«أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»(١).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(أحدها: تذكّر الآخرة)**، هذا واحد، **«زُورُوا الْقُبُورَ؛ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ بِالْآخِرَةِ»**.

أنت تعلم أنك عقب أيام، والله أعلم قليلة أو كثيرة ستصير معهم بلا شك في هذا، فتتذكر هذا، وتب إلى الله واستدرك.

---

(١) سبق تخريجه (ص٦٥٣).

الثاني: الإحسان إلى الميت، وأن لا يطول عَهْده به، فيهجره، ويتناساه، كما إذا ترك زيارة الحيّ مدة طويلةً تناساه، فإذا زار الحيّ فرح بزيارته وسُرَّ بذلك، فالميت أولى؛ لأنه قد صار في دار قد هَجر أهلَها إخوانهُم وأهلُهم ومعارفُهم.

فإذا زاره وأهدى إليه هديةً من دعاءٍ، أو صدقة، أو أهدى قربةً، ازداد بذلك سروره وفرحه، كما يُسرّ الحيُّ بمن يزوره ويهدي له.

ولهذا شرع النبي ﷺ للزائر أن يدعو لأهل القبور بالرحمة والمغفرة، وسؤال العافية فقط، ولم يشرع أن يدعوهم، ولا يدعو بهم، ولا يُصليِّ عندهم.

الثالث: إحسان الزائر إلى نفسه باتّباع السنة، والوقوف عند ما شرعه الرسول ﷺ، فيحسن إلى نفسه وإلى المزور.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (الثاني: الإحسان إلى الميت)، الثاني: الإحسان إلى الميت؛ بالدعاء له والاستغفار له والسلام عليه؛ لأنه يأنس بمن يزوره من المؤمنين، ويدعو له، ويسلم عليه، يأنس بذلك.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وأن لا يطول عَهْده به، فيهجره، ويتناساه، كما إذا ترك زيارة الحيّ مدة طويلةً تناساه)، فالمشروع أن الإنسان لا ينقطع عن زيارة أقاربه الأموات؛ لأنهم يتطلعون إليه أن يزورهم ويسلم عليهم ويدعو لهم، فلا ينقطع عنهم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولهذا شرع النبي** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **للزائر أن يدعو لأهل القبور بالرحمة والمغفرة، وسؤال العافية فقط)**، كان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا مر بالقبور يقول: «**السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الدِّيَارِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ، يَرْحَمُ اللهُ الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنَّا وَمِنْكُمْ وَالْمُسْتَأْخِرِينَ، اللَّهُمَّ لَا تَحْرِمْنَا أَجْرَهُمْ، وَلَا تَفْتِنَّا بَعْدَهُمْ، وَاغْفِرْ لَنَا وَلَهُمْ**»[1]، فيحصل الحي على الأجر، ويحصل الميت أيضًا على دعاء الحي له، والسلام عليه وإهداء الثواب له.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولم يشرع أن يدعوهم، ولا يدعو بهم، ولا يُصليِّ عندهم)**، النبي لم يشرع أن تزار القبور لأجل التوسل بأصحابها، لأجل طلب الحوائج من الأموات، هذا عكس المشروع لم يأمر به الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(الثالث: إحسان الزائر إلى نفسه باتّباع السنة، والوقوف عند ما شرعه الرسول** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **فيحسن إلى نفسه وإلى المزور)**، يحسن إلى نفسه إذا زار القبور واعتبر بأحوالها ورق قلبه يحسن إلى نفسه بذلك فإنها تذكر بالآخرة، فيحسن إلى نفسه، ويحسن إلى الميت يسلم عليه ويدعو له.

---

(١) سبق تخريجه (ص٦٤٣).

وأما الزيارة الشركية: فأصلها مأخوذ عن عُبّاد الأصنام.

قالوا: الميت المعظّم الذي لروحه قربٌ ومزيَّة عند الله، لا تزال تأتيه الألطاف من الله، وتفيض على روحه الخيرات، فإذا علّق الزائرُ روحه به، وأدناها منه، فاضَ من روح المزور على روح الزائر من تلك الألطاف بواسطتها، كما ينعكس الشعاع من المرآة الصافية والماء ونحوه على الجسم المقابل له.

قالوا: فتمامُ الزيارة: أن يتوجّه الزائر بروحه وقلْبه إلى الميت، ويعكُف بهمَّته عليه، ويُوجِّه قصده كله وإقباله عليه، بحيث لا يبقى فيه التفاتٌ إلى غيره، وكلما كان جمعُ الهمة والقلب عليه أعظم كان أقرب إلى انتفاعه به.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (قالوا: الميت المعظّم الذي لروحه قربٌ ومزيَّة عند الله، لا تزال تأتيه الألطاف من الله، وتفيض على روحه الخيرات، فإذا علّق الزائرُ روحه به، وأدناها منه، فاضَ من روح المزور على روح الزائر من تلك الألطاف بواسطتها)، يقولون روح الميت تذهب وتأتي، وتحضر له ما يطلب فهي ليست محبوسة، يقولون: رُوحه ليست محبوسة، تذهب وتأتي وتحضر له مطلوباته وهكذا، فإذا جاءه الحي تعلقت روح الحي بروح الميت، وانتفعت روح الحي بذلك! هكذا يقولون ليروجوا الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ.

تقول: الميت هذا هامدة عظامه وميت مُنْتِهٍ، يقولون: لا، رُوحه، أنت تذهب تزوره وتزور روحه، وروحه تذهب إلى العرش وتأتي وتحضر أشياء،

أنت إذا زرته تعلقت روحك بروحه فحصل لك من الفوائد الشيء العظيم، هكذا يقول عباد القبور.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فاضَ من روح المزور على روح الزائر من تلك الألطاف بواسطتها، كما ينعكس الشعاع من المرآة الصافية والماء ونحوه على الجسم المقابل له)**، هذه فلسفة، هذه تقابل النصوص من القرآن والسنة؟ هذه الفلسفة لا قيمة لها.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قالوا: فتمامُ الزيارة)**، قالوا: يعني القبوريين.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قالوا: فتمامُ الزيارة: أن يتوجّه الزائر بروحه وقلْبه إلى الميت)**، وينسى الله! نسأل الله العافية.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ويعكُف بهمَّته عليه، ويُوجِّه قصده كله وإقباله عليه، بحيث لا يبقى فيه التفاتٌ إلى غيره)**، إلى غير الميت، لا يبقى فيه التفات إلى غير الميت، يعني: ينسى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ!

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وكلما كان جمعُ الهمة والقلب عليه أعظم كان أقرب إلى انتفاعه به)**، لا تنفعك، يقولون: لا تنفعك زيارة الميت إلا إذا علقت رُوحك برُوحه، ولم تلتفت إلى غيره، لا تلتفت إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لا تدعو الله... هكذا!

وقد ذكر هذه الزيارة على هذا الوجه: ابن سينا[١]، والفارابي[٢] وغيرهما.

وصرح بها عُبّاد الكواكب في عبادتها، وقالوا: إذا تعلقت النفس الناطقة بالأرواح العلوية فاض عليها منها النور.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقد ذكر هذه الزيارة على هذا الوجه: ابن سينا)**، ابن سينا: هذا طبيب مشهور بالطب، لكنه في العقيدة ملحد -والعياذ بالله-، وهو ينسب إلى المسلمين، وأبوه كان يهوديًّا، فهو من سلالة اليهود، لكنه

(١) هو الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا، صاحب التصانيف في الفلسفة والطب، مولده سنة سبعين وثلاثمائة، كان يقول بقدم العالم، ونفى المعاد الجسماني، وأثبت المعاد النفساني، قال عنه الذهبي: (هو رأس الفلاسفة الإسلامية، لم يأت بعد الفارابي مثله، فالحمد لله على الإسلام والسنة، وله كتاب الشفاء وغيره، وأشياء لا تحتمل، وقد كفره الغزالي في كتاب المنقذ من الضلال) ا.هـ. وقيل: إنه تاب ورجع عن أقواله قبل الممات، فالله أعلم بخاتمته، توفي سنة ثمان وعشرين وأربعمائة. انظر: وفيات الأعيان (٢/ ١٥٧)، والوافي بالوفيات (١٢/ ٢٤٢ - ٢٥٠)، وعيون الأنباء في طبقات الأطباء (ص٤٣٧)، وسير الأعلام (١٧/ ٥٣٥)، والعبر (٣/ ١٦٧)، وشذرات الذهب (٣/ ٢٣٤).

(٢) هو محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ التركي، ولد حوالي سنة تسع وخمسين ومائتين، وتوفي سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة، قال عنه ابن كثير: (كان حاذقا في الفلسفة، ومن كتبه تفقه ابن سينا، وكان يقول بالمعاد الروحاني لا الجثماني، ويخصص بالمعاد الأرواح العالمة لا الجاهلة، وله مذاهب في ذلك يخالف المسلمين والفلاسفة من سلفه الأقدمين، فعليه إن كان مات على ذلك لعنة رب العالمين، مات بدمشق فيما قاله ابن الأثير في كامله، ولم أر الحافظ ابن عساكر ذكره في تاريخه لنتنه وقباحته، فالله أعلم) ا.هـ. انظر: وفيات الأعيان (٥/ ١٥٤)، والوافي بالوفيات (١/ ١٠٢)، وسير الأعلام (١٥/ ٤١٨)، والبداية والنهاية (١١/ ٢٢٤)، وشذرات الذهب (٢/ ٣٥٠).

ادَّعى الإسلام، فصار بعض الجهال يعظمه، وهو في الحقيقة على دين اليهود، ولم يسلم الإسلام الصحيح، وإنما هو انتساب فقط(١).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**والفارابي وغيرهما**)، والفارابي هذا من نفس الطبقة، من نفس طبقة ابن سينا، يسمونه الإمام الفارابي أو المعلم الثاني، معلم للفلسفة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وقالوا: إذا تعلقت النفس الناطقة بالأرواح العلوية فاض عليها منها النور**)، إذا تعلقت أرواح الأحياء بأرواح الأموات، وتعلقت

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وابْنُ سِينَا تَكَلَّمَ فِي أَشْيَاءَ مِنْ الْإِلَهِيَّاتِ وَالنُّبُوَّاتِ وَالمَعَادِ وَالشَّرَائِعِ لَمْ يَتَكَلَّمْ فِيهَا سَلَفُهُ وَلَا وَصَلَتْ إلَيْهَا عُقُولُهُمْ وَلَا بَلَغَتْهَا عُلُومُهُمْ فَإِنَّهُ اسْتَفَادَهَا مِنْ الْمُسْلِمِينَ وَإِنْ كَانَ إنَّمَا أَخَذَ عَنْ المَلَاحِدَةِ المُنْتَسِبِينَ إلَى المُسْلِمِينَ كَالْإِسْمَاعِيلِيَّةِ. وَكَانَ هُوَ وَأَهْلُ بَيْتِهِ وَأَتْبَاعُهُمْ مَعْرُوفِينَ عِنْدَ المُسْلِمِينَ بِالْإِلْحَادِ وَأَحْسَنُ مَا يُظْهِرُونَ دِينَ الرَّفْضِ وَهُمْ فِي الْبَاطِنِ يُبْطِنُونَ الْكُفْرَ المَحْضَ...)، ثم قال: (وَالمَقْصُودُ هُنَا أَنَّ ابْنَ سِينَا أَخْبَرَ عَنْ نَفْسِهِ أَنَّ أَهْلَ بَيْتِهِ وَأَبَاهُ وَأَخَاهُ كَانُوا مِنْ هَؤُلَاءِ المَلَاحِدَةِ وَأَنَّهُ إنَّمَا اشْتَغَلَ بِالْفَلْسَفَةِ بِسَبَبِ ذَلِكَ). انظر: مجموع الفتاوى (٩/ ١٣٣، ١٣٤).

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ -أيضًا-: (وَكَذَلِكَ ابْنُ سِينَا وَغَيْرُهُ يَذْكُرُ مِنْ التَّنَقُّصِ بِالصَّحَابَةِ مَا وَرِثَهُ مِنْ أَبِيهِ وَشِيعَتِهِ الْقَرَامِطَةِ؛ حَتَّى تَجِدَهُمْ إذَا ذَكَرُوا فِي آخِرِ الْفَلْسَفَةِ حَاجَةَ النَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ إلَى الْإِمَامَةِ عَرَّضُوا بِقَوْلِ الرَّافِضَةِ الضُّلَّالِ لَكِنَّ أُولَئِكَ يُصَرِّحُونَ مِنْ السَّبِّ بِأَكْثَرَ مِمَّا يُصَرِّحُ بِهِ هَؤُلَاءِ). انظر: مجموع الفتاوى (٤/ ١٠٣).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وأما هذا الذى يوجد فى كتب المتأخرين من حكاية مذهبه، فإنما هو من وضع ابن سينا. فإنه قرب مذهب سلفه الملاحدة من دين الإسلام بجهده، وغاية ما أمكنه أن قربه من أقوال الجهمية الغالين فى التجهم، فهم فى غلوهم فى تعطيلهم ونفيهم أشد مذهبا وأصح قولا من هؤلاء). انظر: إغاثة اللهفان (٢/ ٢٦١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ -أيضا- عن ابن سينا: (والرجل معطل مشرك، جاحد للنبوات والمعاد، لا مبدأ عنده ولا معاد، ولا رسول ولا كتاب والرازى وفروخه لا يعرفون مذهب الفلاسفة غير طريقه). انظر: إغاثة اللهفان (٢/ ٢٦٣).

بالكواكب والنجوم فاضَ عليها من نور هذه المخلوقات، فاض على هذه القبور من هذه المخلوقات الفيض، يسمونه الفيضَ! هذا مذهب ابن سينا والفارابي وأمثالهم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(إذا تعلقت النفس الناطقة بالأرواح العلوية فاض عليها منها النور)**، الأرواح العلوية! انظر! مع أن أراوح الكفار في سِجِّين، وليست في العلو، هذه أرواح المؤمنين؛ ﴿إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين:١٨]، وأما الفجار ففي سجين -والعياذ بالله-، وهم يقولون: لا، أرواح علوية!

وبهذا السر عُبدت الكواكب، واتُّخذت لها الهياكل، وصُنّفت لها الدعوات، واتخذت الأصنام المجسدة لها.

وهذا بعينه هو الذي أوجب لعبّاد القبور اتخاذها أعيادًا، وتعليق الستور عليها، وإيقاد السّرج عليها، وبناء المساجد عليها.

وهو الذي قصد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إبطاله ومحوه بالكُلّيّة، وسدّ الذرائع المفْضية إليه، فوقف المشركون في طريقه، وناقضُوه في قصده، وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في شِقٍّ، وهؤلاء في شِقٍّ.

وهذا الذي ذكره هؤلاء المشركون في زيارة القبور هو الشفاعة التي ظنُوا أن آلهتهم تنفعهم بها، وتشفع لهم عند الله.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وهذا بعينه هو الذي أوجب لعبّاد القبور اتخاذها أعيادًا، وتعليق الستور عليها، وإيقاد السّرج عليها، وبناء المساجد عليها)، بنَوا على القبور المعظَّمة، كما يُبنى على الكعبة المشرفة، وعلَّقوا عليه الستور، كما تُستر الكعبة المشرفة التي هي بيت الله عَزَّ وَجَلَّ، والتي هي بناء إبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بأمر الله: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ [الحج:٢٦]. الله هو الذي أمره بذلك عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فهو بيت الحنفاء الموحِّدينَ، أما القبور فهي قبور المشركين.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وهو الذي قصد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إبطاله)، الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى عن إسراج القبور، نهى عن البناء على القبور وتعليق الستور

عليها، نهى عن كل ما هو من باب الغلو في القبور، نهى عن ذلك؛ سدًّا لذريعة الشرك.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهو الذي قصد رسول الله** صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ **إبطاله)**، ووصى عليًّا رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، أوصى الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ علي بن أبي طالب، فقال: «**لَا تَدَعْ قَبْرًا مُشْرِفًا**» يعني: مبنيًّا عليه، «**إِلَّا سَوَّيْتَهُ**».

«**لَا تَدَعْ قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ، وَلَا صُورَةً إِلَّا طَمَسْتَهَا**»[1]، هذا الذي أوصى به رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عليَّ بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، وعليُّ بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ أوصى بها تلميذه التابعي أبا الهياج الأسدي، فبلَّغها أبو الهياج إلى غيره عن عليٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ عن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: هدم القبور المشرفة -يعني المرتفعة- وطمس الصور التي تُعظَّمُ وتُزار.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فوقف المشركون في طريقه، وناقضُوه في قصده)**، وقف المشركون في طريق الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وأبطلوا كل ما أوصى به حول القبور وعملوا ما نهى عنه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ولا تظن أنه يعني بالمشركين مشركي الجاهلية، يعني، عباد القبور من هذه الأمة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وكان** صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ **في شِقٍّ، وهؤلاء في شِقٍّ)**، في شقاق؛ ﴿**وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا**﴾ [النساء:١١٥].

(١) سبق تخريجه (ص٦١٢).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهذا الذي ذكره هؤلاء المشركون في زيارة القبور هو الشفاعة التي ظنُوا أن آلهتهم تنفعهم بها، وتشفع لهم عند الله)**، المشركون قالوا عن الأشجار والأحجار: أنها تشفع لهم عند الله، وهؤلاء جعلوا القبور تشفع لهم عند الله، فتشابهوا في قولهم وقصدهم، لا فرق بيْنهم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(التي ظنُوا أن آلهتهم تنفعهم بها، وتشفع لهم عند الله)**، الله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥]، هذا شرط.

الشرط الثاني: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨]؛ من أهل التوحيد. أما أهل الشرك؛ ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر:٤٨].

قالوا: فإن العبد إذا تعلَّقت روحه بروح الوجيه المقرّب عند الله، وتوجَّه بهمَّته إليه، وعكف بقلبه عليه؛ صار بينه وبينه اتصال، يفيض به عليه منه نصيب مما يحصل له من الله، وشبَّهوا ذلك بمن يخدُم ذا جاهٍ وحظوة وقُرْبٍ من السلطان، فهو شديد التعلق به، فما يحصل لذلك من السلطان من الإنعام والإفضال، ينال ذلك المتعلق به بحسب تعلُّقه به.

فهذا سرُّ عبادة الأصنام، وهو الذي بعث الله رسله وأنزل كتبه بإبطاله، وتكفير أصحابه، ولعنهم، وأباح دماءهم وأموالهم، وسَبَى ذراريهم، وأوجب لهم النار.

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**قالوا: فإن العبد إذا تعلَّقت روحه بروح الوجيه المقرّب عند الله، وتوجَّه بهمَّته إليه، وعكف بقلبه عليه؛ صار بينه وبينه اتصال، يفيض به عليه منه نصيب مما يحصل له من الله**)، هذا قول المشركين: أن تعلق قلب الإنسان برُوح ولي من الأولياء، إذا تعلق قلبه به وتأثرت رُوحه برُوح الميت حصل على المطلوب من الله عَزَّ وَجَلَّ، ليس عن طريق محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنما عن طريق هؤلاء الفلاسفة والمشركين!

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وشبَّهوا ذلك بمن يخدُم ذا جاهٍ وحظوة وقُرْبٍ من السلطان، فهو شديد التعلق به**)، يقيسون الخالق على المخلوق، المخلوق بحاجة إلى الوزراء، بحاجة إلى من يعينه، بحاجة إلى من يبلغه الشيء الذي لايدري عنه.

أما الله جَلَّوَعَلَا فإنه يعلم كل شيء، ولا يخفى عليه شيء، وليس بحاجة إلى واسطة تتخذها بينك وبينه؛ فارفع يديك إليه، وادْعُهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى بحوائجك، وهو: ﴿يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل:٦٢].

فهم يقيسون الله جَلَّوَعَلَا على الملوك وعلى السلاطين الذين لا يصل الناس إليهم إلا بالواسطة التي تتوسَّط لهم عند السلطان في قضاء حوائجهم! والله جَلَّوَعَلَا يقول: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦].

ليس هناك حاجةٌ إلى اتخاذ هذه الوسائط وهذا التطويل، ارفع يديك إلى الله وادْعُ مباشرة، وهو يسمع دعاءك، ويقضي حوائجك، ولا يشق عليه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، بل يفرح بذلك، يفرح بدعاء عباده، ويفرح بقضاء حوائجهم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فما يحصل لذلك من السلطان من الإنعام والإفضال، ينال ذلك المتعلق به بحسب تعلُّقه به)**، سلاطين بني آدم يحتاجون إلى الواسطة وإلى وزرائهم وشفعائهم، أنك تذهب إلى الوزير، لا تذهب للملك مباشرة، تذهب إلى الوزير أو تذهب إلى المكتب الموكلِ إليه تقبُّلُ الشكاوى وترفع إلى الملك أو المسؤول.

هم يقيسون الله على هذا -والعياذ بالله-! يقولون: لا تذهب إلى الله مباشرة، اجعل بينك وبينه واسطة توصل حوائجك وشكواك إليه!

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهو الذي بعث الله رسله وأنزل كتبه بإبطاله)**، بإجماع الرسل هذا، كل رسول يقول لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ

غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف:٥٩]، كل رسول يدعو بهذا، كل رسول أول ما يبدأ: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف:٥٩].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وتكفير أصحابه، ولعنهم، وأباح دماءهم وأموالهم، وسَبَى ذراريهم، وأوجب لهم النار)**، المشركون إذا دُعوا إلى الله ولم يقبلوا يتعيَّن جهادهم، إذا كان في المسلمين قوَّةٌ على جهادهم يجب على المسلمين جهادهم؛ حتى يكون الدينُ لله وحْدَه؛ ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال:٣٩]، أي: شركٌ، ويكون الدين لله وحْدَه.

والقرآن من أوله إلى آخره مملوء من الرد على أهله، وإبطال مذهبهم.

قال تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الزمر:٤٣-٤٤]. فأخبر أن الشفاعة لمن له ملك السموات والأرض، وهو الله وحْدَه، فهو الذي يَشْفَع بنفسه إلى نفسه، ليرحم عبده، فيأذن هو لمن يشاء أن يشفع فيه.

فصارت الشفاعة في الحقيقة إنما هي له، والذي يشفع عنده إنما يشفع بإذنه له وأمره، بعد شفاعته سبحانه إلى نفسه، وهي إرادته من نفسه أن يرحم عبده.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**والقرآن من أوله إلى آخره مملوء من الرد على أهله، وإبطال مذهبهم**)، لكن لا يلتفتون إلى القرآن، إنما يلتفتون إلى أقوال سلفهم وعلمائهم الضُّلَّال، وشياطين الإنس والجن.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**قال تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾** [الزمر:٤٣-٤٤])، الشفاعة ملكٌ لله، ولا يأذن الله بها إلا بشرطين:

الشرط الأول: إذنه للشافع أن يشفع.

الشرط الثاني: رضاهُ عن المشفوع فيه؛ بأن يكون من أهل الإيمان، لكن عنده معاصٍ استوجب بها دخول النار، فيحتاج إلى مَن يشفع له أن ينقذه الله من النار.

وهذا ضد الشفاعة الشركية التي أثبتها هؤلاء المشركون ومَنْ وافقهم، وهي التي أبطلها الله سبحانه في كتابه، بقوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمًا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ ﴾ [البقرة:١٢٣].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞ ﴾ [البقرة:٢٥٤].

وقال تعالى: ﴿ وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام:٥١].

وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا شَفِيعٍ ﴾ [السجدة:٤].

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وهذا ضد الشفاعة الشركية التي أثبتها هؤلاء المشركون ومَنْ وافقهم)، ﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس:١٨]. ﴿ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾ [الزمر:٣]. هكذا يقول المشركون.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وهي التي أبطلها الله سبحانه في كتابه، بقوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمًا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ ﴾ [البقرة:١٢٣])، لا تنفع الشفاعة إلا بإذن الله، والله لا يأذن للمشرك أن يشفع، ولا يأذن في المشرك أن يشفع له، لا يقبل هذا سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال تعالى:** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞ ﴾ [البقرة:٢٥٤])، ﴿لَّا بَيۡعٞ فِيهِ﴾: لا تقدر أن تشتري حوائجك، ليس هناك بيع.

﴿وَلَا خُلَّةٞ ﴾ أي: صاحب يعطيك مثلما هو في الدنيا، يعطيك صاحبك حاجتك أو يعينك عليها، ليس هناك خلة. بقيت الشفاعة وهي الوساطة، ﴿وَلَا شَفَٰعَةٞ ﴾ أيضًا، إذًا أين يذهب الإنسان إلا إلى الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ؟

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال تعالى:** ﴿ وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:٥١])، ﴿ وَأَنذِرۡ بِهِ ﴾ أي: القرآن.

﴿لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيّٞ ﴾ ينقذهم، ﴿وَلَا شَفِيعٞ ﴾ يشفع لهم، لا ولاية ولا شفاعة، ليس لك إلا عملك عند الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

صلاح جدِّك أو خالك أو عملك لا ينفعك، لا ينفعك إلا عملك، لاتعتمد على المخلوق وعلى صلاح قريبك أو عمك، لا تعتمد على ذلك.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال تعالى:** ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا شَفِيعٍ﴾ [السجدة:٤])، ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ﴾: يتولى أمركم غير الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

﴿وَلَا شَفِيعٍ﴾: يشفع عنده إلا بإذنه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

فأخبر سبحانه أنه ليس للعباد شفيعٌ من دونه، بل إذا أراد الله سبحانه رحمة عبده أذِنَ هو لمن يشفعُ فيه.

كما قال تعالى: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦ﴾ [يونس:٣].

وقال: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥].

فالشفاعة بإذنه ليست شفاعة من دونه، ولا الشافع شفيع من دونه، بل شفيع بإذنه.

والفرق بين الشفيعين كالفرق بين الشريك والعبد المأمور.

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فأخبر سبحانه أنه ليس للعباد شفيعٌ من دونه)**، من دون الله، هو الذي يأذن بالشفاعة، يأذن للشافع أن يشفع.

سيد الخلق نبينا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أراد أن يشفع لأهل الموقف بأن يخلصهم الله من الموقف للحساب لا يذهب ويشفع على الفور، يسجد بين يدي ربه، يسجد حتى يقال له: «**يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ**»(١).

---

(١) كما في حديث الشفاعة الذي ورد بعدة ألفاظ؛ منها: ما أخرجه البخاري (٧٥١٠)، ومسلم (٣٢٢) (١٩٣)، و (٣٢٦) (١٩٢) بلفظ أتمَّ، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (٣٢٧) (١٩٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (٣٠٢) (١٨٣)، من حديث أبي سعيد الخُدْري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**كما قال تعالى:** ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦ﴾ [يونس:٣])، ﴿مَا مِن شَفِيعٍ﴾ «مِنْ» هذه تأكيد للنفي، «مَا» هذه نافية، و «مِنْ» بعدها هذه تأكيد للنفي، ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦ﴾ [يونس:٣]، فنفى الشفاعة إلا بإذنه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

فالشفاعة التي أبطلها شفاعة الشريك؛ فإنه لا شريك له، والتي أثبتها شفاعة العبد المأمور، الذي لا يشفع ولا يتقدم بين يدي مالكه حتى يأذن له، ويقول: اشفع في فلان.

ولهذا كان أسعدُ الناس بشفاعة سيد الشفعاء يوم القيامة أهل التوحيد، الذين جرّدُوا التوحيد وخلّصوه من تعلّقات الشرك وشوائبه، وهم الذين ارتضى الله سبحانه. قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ [طه:١٠٩].

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ولهذا كان أسعدُ الناس بشفاعة سيد الشفعاء يوم القيامة أهل التوحيد، الذين جرّدُوا التوحيد وخلّصوه من تعلّقات الشرك وشوائبه، وهم الذين ارتضى الله سبحانه)، كما قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، لما قال له أبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِك يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ**»[1]، فلا يقولها بلسانه فقط، بل يقولها بلسانه، ويخلص في قلبه، النية والقصد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨])، هذا الشرط الثاني.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٧٠).

الأول: لا يشفعون إلا بإذنه.

الشرط الثاني: من ارتضى، وهم المؤمنون الذين استحقوا العذاب يشفع لهم بإذن الله فينجون من العذاب، أما الكفار فلا تقبل فيهم شفاعة، ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر:٤٨].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال تعالى:** ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ [طه:١٠٩])، هذان الشرطان في هذه الآية: ﴿مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، هذا الشرط الأول.

الشرط الثاني: ﴿وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾: يعني من أهل التوحيد.

﴿مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾: هذا الشافع.

﴿وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾: هذا المشفوع فيه؛ بأن يكون من أهل التوحيد.

فأخبر أنه لا يحصل يومئذٍ شفاعة تنفع؛ إلا بعد رضاهُ قول المشفوع له، وإذنه للشافع.

فأما المشرك فإنه لا يرتضيه، ولا يرضى قوله، فلا يأذن للشفعاء أن يشفعوا فيه؛ فإنه سبحانه علَّقها بأمرين: رضاه عن المشفوع له، وإذنه للشافع، فما لم يوجد مجموع الأمرين لم توجد الشفاعة.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فأخبر أنه لا يحصل يومئذٍ شفاعة تنفع؛ إلا بعد رضاهُ قول المشفوع له، وإذنه للشافع)**، إذا رضي قول المشفوع فيه، وهو أن يكون من أهل التوحيد، لكن يكون عنده ذنوب دون الشرك، هذا تنفعه الشفاعة بإذن الله.

الشرط الثاني: أن يكون الشافعُ مأذونًا له بذلك من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فأما المشرك فإنه لا يرتضيه، ولا يرضى قوله، فلا يأذن للشفعاء أن يشفعوا فيه)**، ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ [طه:١٠٩]. المشرك لا يرضى الله قوله ولا عمله، فلا نصيب له في الشفاعة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإنه سبحانه علّقها بأمرين: رضاه عن المشفوع له، وإذنه للشافع، فما لم يوجد مجموع الأمرين لم توجد الشفاعة)**؛ لأن المعلَّق على أمْرين لا يحصل بحصول أحدهما، بل لا بد من حصولهما جميعًا.

وسرُّ ذلك أن الأمر كله لله وحْدَه، فليس لأحد معه من الأمر شيء، وأعلى الخلق وأفضلهم وأكرمهم عنده هم الرسل والملائكة المقربون، وهم عبيد محضٌ، لا يسبقونه بالقول، ولا يتقدمون بين يديه، ولا يفعلون شيئًا إلا بعد إذنه لهم وأمرهم، ولاسيما يوم لا تملك نفس لنفس شيئًا، فهم مملوكون مربوبون، أفعالهم مقيدة بأمره وإذنه.

فإذا أشرك بهم المشرك، واتخذهم شفعاء من دونه، ظنّا منه أنه إذا فعل ذلك تقدَّموا وشفعوا له عند الله؛ فهو من أجهل الناس بحق الرب سبحانه، وما يجب له، ويمتنع عليه، فإن هذا محال ممتنع، سببُه قياس الرب تعالى على الملوك والكبراء، حيث يتخذ الرجل من خواصهم وأوليائهم من يشفع له عندهم في الحوائج، وبهذا القياس الفاسد عُبدت الأصنام، واتخذ المشركون من دون الله الشفيعَ والوليَّ.

والفرق بينهما هو الفرق بين الخالق والمخلوق، والرب والعبد، والمالك والمملوك، والغني والفقير، والذي لا حاجة به إلى أحد قط، والمحتاج من كل وجه إلى غيره.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (حيث يتخذ الرجل من خواصهم وأوليائهم من يشفع له عندهم في الحوائج، وبهذا القياس الفاسد عُبدت الأصنام)، زعموا أنها تشفع لهم عند الله، ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ

وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَٰؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس:١٨]. ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾ [الزمر:٣].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والفرق بينهما هو الفرق بين الخالق والمخلوق، والرب والعبد، والمالك والمملوك)**، قضية الشفاعة قضية خطيرة، لم يفهمها كثير من الناس، فقضية الشفاعة قضية خطيرة ينبغي معرفتها وقيودها وشروطها؛ ولذلك وقع المشركون فيما وقعوا فيه؛ لأنهم يجهلون أمر الشفاعة، ومتى تكون؟ ولمن تكون؟

فالشفعاء عند المخلوقين هم شركاؤهم؛ فإن قيام مصالحهم بهم، وهم أعوانهم وأنصارهم، الذين قيام أمر الملوك والكبراء بهم، ولولاهم لما انبسطت أيديهم وألسنتهم في الناس، فلِحاجتهم إليهم يحتاجون إلى قَبول شفاعتهم، وإن لم يأذنوا فيها ولم يرضوا عن الشافع؛ لأنهم يخافون أن يردّوا شفاعتهم، فتنتقض طاعتهم لهم، ويذهبون إلى غيرهم، فلا يجدون بُدًّا من قبول شفاعتهم على الكره والرضا.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فلِحاجتهم إليهم يحتاجون إلى قَبول شفاعتهم، وإن لم يأذنوا فيها ولم يرضوا عن الشافع؛ لأنهم يخافون أن يردّوا شفاعتهم، فتنتقض طاعتهم لهم، ويذهبون إلى غيرهم، فلا يجدون بُدًّا من قبول شفاعتهم على الكره والرضا)، يتألفونهم ليبقوا عندهم، إذا لم يقبلوا شفاعتهم ذهبوا عند ملوك آخرينَ وتركوهم.

❖ ❖ ❖

فأما الغنيّ الذي غناه من لوازم ذاته، وكل ما سواه فقير إليه بذاته، وكل من في السموات والأرض عبيدٌ له، مقهورون بقهره، مصرَّفون بمشيئته، لو أهلكهم جميعًا لم ينقص من عِزّه وسلطانه ومُلكه وربوبيته وإلهيته مثقال ذرةٍ.

قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة:١٧].

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة:١٧])، ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓا۟﴾: هؤلاء من النصارى، غلوا في المسيح؛ فقالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾، نسأل الله العافية.

وقوم قالوا: ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة:٣٠]، وليس هو الله، وإنما هو ابن الله! وهذا قول باطل؛ لأن الله ليس له ابن ولا ولد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والطائفة الثالثة قالوا: المسيح عبد الله ورسوله، وهؤلاء هم أهل الحق من النصارى وأتباع المسيح، ليس كل النصارى على ضلال، لا، منهم ناس اهتدوا وأخلصوا العبادة لله عَزَّوَجَلَّ، قالوا: المسيح عبد الله ورسوله، ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء:١٧١].

وقال سبحانه في سيدة آي القرآن آية الكرسي: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وقال سبحانه: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر:٤٤]. فأخبر أن حال ملكه للسموات والأرض يوجب أن تكون الشفاعة كلها له وحده، وأن أحدًا لا يشفع عنده إلا بإذنه، فإنه ليس بشريك، بل مملوك محض، بخلاف شفاعة أهل الدنيا بعضهم عند بعض.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال سبحانه في سيدة آي القرآن آية الكرسي: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥])**، قال الله جَلَّ وَعَلَا في آية الكرسي التي هي أعظم آية في القرآن في موضوع الشفاعة: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ﴾ أي: عند الله.

لا أحد، ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى﴾: هذا استفهام إنكار، أي: لا أحد، استفهام إنكار معناه النفي؛ أي: لا أحد يشفع عند الله جَلَّ وَعَلَا إلا بإذنه، بخلاف غيره؛ فإن الشفعاء يشفعون عند الملوك والرؤساء ولو لم يأذنوا، ويضطرون إلى قَبول شفاعتهم؛ تألفًا لهم ليخدموهم، وليقوموا بمساعدته.

أما الله فإنه غنيٌّ عن عباده، ليس بحاجة إلى من يعينه؛ ولهذا لا أحد يشفع عنده إلا بإذنه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال سبحانه: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر:٤٤])**، ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟

لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٤٣-٤٤]. ملك لله، هذا معنى الآية، معنى هذا أنه لا أحد يملك الشفاعة إلا من أذن الله له.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فأخبر أن حال ملكه للسموات والأرض يوجب أن تكون الشفاعة كلها له وحده، وأن أحدًا لا يشفع عنده إلا بإذنه)**؛ لأن التصرف في هذا الكون لا يكون إلا لله جَلَّ وَعَلَا، لا يشاركه فيه أحد، ومن ذلك الشفاعة ملك لله، لا أحد يشاركه فيها إلا بإذنه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإنه ليس بشريك، بل مملوك محض)**؛ فإن الشافع ليس بشريك لله، وإنما هو مملوك محض ليس بشريك لله؛ لأن الشفاعة لله جَلَّ وَعَلَا، لا يشاركه فيها أحد.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(بخلاف شفاعة أهل الدنيا بعضهم عند بعض)**؛ فإن أهل الدنيا بعضهم عند بعض يشفع بعضهم لمن يريد، ولو لم يأذن المشفوع عنده، ولو لم يرضَ أيضًا، ولكن يُضْطَرُّ إلى قَبول شفاعته؛ ليتألفه وليستخدمه فيما يريد؛ لأنه بحاجة إلى الأعوان، وأما الله فإنه غنيٌّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن الأعوان.

❖ ❖ ❖

فتبيَّن أن الشفاعة التي نفاها الله سبحانه في القرآن هي هذه الشفاعة الشركية التي يعرفها الناس، ويفعلها بعضهم مع بعض.

ولهذا يُطلق نفيها تارة بناءً على أنها هي المعروفة المتعاهدة عند الناس، ويُقيِّدُها تارة بأنها لا تنفع إلا بعد إذنه.

وهذه الشفاعة في الحقيقة هي منه؛ فإنه الذي أَذِنَ، والذي قَبِل، والذي رضي عن المشفوع، والذي وفّقه لفعل ما يستحق به الشفاعة وقوله.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فتبين أن الشفاعة التي نفاها الله سبحانه في القرآن هي هذه الشفاعة الشركية التي يعرفها الناس، ويفعلها بعضهم مع بعض)، الشفاعة الشركية هي التي يكون معها عبادةً للشفيع، فهم يعبدون القبور والأضرحة؛ ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨].

أما الله فهو غني عن أن يشاركه أحد في ملكه، ومنه الشفاعة لا يشاركه فيها أحد إنما تكون بإذنه؛ ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨].

أيضًا، خلاف ملوك الدنيا؛ فقد يشفع عندهم في أناس لا يحبونهم، بل يكرهونهم، ويُضطرون إلى قَبول الشفاعة فيهم؛ تألُّفًا للشافع.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ولهذا يُطلق نفيها تارة بناءً على أنها هي المعروفة المتعاهدة عند الناس، ويُقيِّدُها تارة بأنها لا تنفع إلا بعد إذنه)، مسألة الشفاعة ضل فيها كثير من الخلق، يظنون أنها ملك للمخلوق إذا كان رجلًا صالحًا وكانت له مكانة عند الله بزعمهم، فيظنون أن المخلوق يملكها ويقدر عليها!

والأمر بالعكس: الشفاعة لله، ملكٌ لله، لا يشاركه فيها أحد، الشفاعة عنده، أما شفاعة الخلق بعضهم عند بعض فهذه شيء آخر، لكن الشفاعة عند الله هذه لا أحد يملكها إلا بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ففي هذا بطلت عبادة القبور والأضرحة والأولياء والصالحين بحجة أنهم يشفعون عند الله لمن عبدهم، قال الله جَلَّ وَعَلَا عن أولهم: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨].

يقولون: نحن نعلم أنهم لا ينفعون ولا يضرون، ولا يملكون النفع والضر، لكن هم أولياء ومقرَّبون عنده، ونحن نطلب منهم الشفاعة! الشفاعة ليست لهم تطلبونها منهم، الشفاعة لله، اطلبوها من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإنه الذي أَذِنَ، والذي قَبِل، والذي رضي عن المشفوع)**، الشفاعة عند الله هي من الله سبحانه، وملكٌ له، يعطيها من يشاء، ويأذن فيها لمن يشاء، ولا أحد يشفع عنده إلا بإذنه.

سبق حديث إتيان أهل المحشر إلى الأنبياء، إلى أهل العزم من الرسل وكلهم يعتذرون حتى ينتهوا إلى محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيقول: **«أَنَا لَهَا، أَنَا لَهَا»**، لكن لا يشفع عند الله ابتداءً، بل يذهب ويخر ساجدًا بين يدي الله، يدعوه ويتضرع إليه، حتى يقال له: **«يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ»**(١).

---

(١) كما في حديث الشفاعة الذي ورد بعدة ألفاظ؛ منها: ما رواه البخاري (٧٥١٠)، ومسلم (٣٢٢) (١٩٣)، و(٣٢٦) (١٩٢) بلفظ أتمَّ، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. ورواه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (٣٢٧) (١٩٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. ورواه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (٣٠٢) (١٨٣)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

أَذِن الله له فيها، لم يذهب محمد صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يطلبها من الله مباشرة، بل سجد بين يدي الله وتضرع إليه، ولم يتقدم بالشفاعة إلا بعد أن أُذِنَ له فيها.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والذي وفّقه لفعل ما يستحق به الشفاعة وقوله)**، ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٤٤]. هو الذي يأذن فيها لمن يشاء فيمن يشاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

أهل القبور وعباد الأولياء والصالحين يقولون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨]، يعني: يملكون الشفاعة عند الله، ولذلك يدْعونهم ويتقربون إليهم، وهذا باطل.

الشفاعة ملكٌ لله، تُطلب من الله، لا تطلب من المخلوق، هو الذي يأذن فيها للشافع أن يشفع، وإذا لم يأذن فإنها لا تكون الشفاعة أبدًا، مغلق الباب. فكل شيء له أبواب، إذا أتيت منها دخلت، أما إذا تسوَّرت وجئت من غير فتح الباب وغير الطريق الصحيح لا تدخل، تُمنع.

فمتخذ الشفيع مشركٌ لا تنفعه شفاعته، ولا يُشَفَّع فيه، ومتخذُ الرب وحده إلهه ومعبوده، ومحبوبه، ومرجُوَّه، ومخوفه، الذي يتقرب إليه وحْدَه، ويطلب رضاه، ويتباعد من سَخَطه: هو الذي يأذن الله سبحانه للشفيع أن يشفع فيه.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فمتخذ الشفيع مشركٌ لا تنفعه شفاعته)**، متخذ الشفيع الذين يدْعون القبور والأضرحة والأموات، حتى الأنبياء والملائكة يطلبون منهم الشفاعة، وهم لا يرضون بهذا، الأنبياء لم يرضوا بهذا، الأولياء والصالحون -على الحقيقة- لم يرضوا بهذا؛ لأنهم لا يملكون هذا الشيء، وإنما يُطلب هذا من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فالشفاعة ضل فيها خلائقُ كثيرون، وهي سبب الشرك؛ لأنهم زعموا أن كُلًّا يملك الشفاعة، وأن كلًّا تطلب منه الشفاعة! وهذا ضلال.

الشفاعة مِلك لله، ولا تطلب إلا منه، ولا يأذن إلا لمن هو أهل لها من أهل التوحيد، أما المشرك فالله جَلَّ وَعَلَا قال: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر:٤٨].

قال تعالى: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ يعني: المشركين. ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾ أي: صديق، ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر:١٨].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومتخذُ الرب وحده إلهه ومعبوده)**، أما الذي يتخذ الرب وحده إلهه ومعبوده، ويطلب منه أن يأذن بالشفاعة لرسوله فيه أو لغيره من الأنبياء هذا جاء من الباب الصحيح، من الطريق الصحيح لطلب الشفاعة.

أما الذي ذهب يطلبها من المخلوق ومن الأموات، فهذا جاء من غير الطريق، الباب مغلق أمامه مهما عمِل، ومهما طلب.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(الذي يتقرب إليه وحده، ويطلب رضاه، ويتباعد من سَخَطه: هو الذي يأذن الله سبحانه للشفيع أن يشفع فيه)**، من أخلص العبادة لله، عبد الله؛ فإن الله هو الذي يأذن للشفيع أن يشفع فيه إذا حصل عليه مؤاخذة، إذا حصل عليه مؤاخذة دون الشرك فإن الله يقبل الشفاعة فيه بعد إذنه بها.

قال تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ [الزمر:٤٣-٤٤].

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قال تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ [الزمر:٤٣-٤٤])، ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ ﴾: هذا إنكار، أم اتخذ المشركون ﴿ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ﴾: أي غير الله.

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗا ﴾ [الزمر:٤٣-٤٤]، لا يملك الذين طلبتموها منهم. ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ [الزمر:٤٤]. كما أنه له الشفاعة، له ملك السموات والأرض، هو المالك سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، فلا يؤتى من طريق لا يوصل إليه من طريق لم يشرعه سبحانه، لا يوصل إلى الله إلا بالطريق التي شرعها الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

فهذا ضلال من المشركين وتعب بلا فائدة، ويوم القيامة يتبرأ منهم هؤلاء الذين يتشفعون فيهم، يتبرؤون منهم عند الحاجة وعند المصيبة، يقولون: نحن لم نَرْضَ بهذا، ونحن لا نملك هذا الذي تطلبونه منَّا.

فيخسرون خسارةً لا تُعوَّض، حياتهم الدنيا خسِروها وهم في ضلال يَعْمَهون، لم يتبعوا الطريق الصحيح الذي شرعه الله.

والأمور لها أسباب لا بد من اتخاذها، وإلا لا تصل إلى المطلوب، والشفاعة عند الله لا تُطلب من غيره، تطلب من الله: «اللَّهمَّ شفِّعْ فيَّ رسولَك، اللهم شفِّعْ فيَّ ملائكتك وعبادك الصالحين»، هذا مشروع لا بأس، طلبتَ من الله ما يملكه الله جَلَّ وَعَلَا.

أما أن تقول: يا زيد، يا فلان اشفعْ لي! هو لا يملك هذا، يوم القيامة يتبرأ الوالد من الولد، ويتبرأ الأخ من أخيه: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس:٣٤-٣٦].

﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾: يعني: قبيلته، ﴿ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ﴾ [المعارج:١٣].

ما السبب؟ السبب: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس:٣٧]، يغنيه عن غيره، شأن يحصل له ويخاف على نفسه من الهلاك ويطلب الخلاص، حتى إن عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يقول: «لا أسألك مريم التي هي أمي، نفسي، نفسي، لا أسألك مريم».

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [الزمر:٤٣])**، ﴿وَلَا يَعْقِلُونَ﴾: حتى ليس عندهم عقل؛ مثل الجمادات والأشجار والأحجار والقبور، ليس عندها عقول، هذه جمادات.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزمر:٤٤])**، ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

وَٱلْأَرْضِۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ترجعون إليه، ليس لكم مفرٌّ من الله، فلا ترضون الله إلا بعبادته وشرعه، لا ترضون الله بالتوسل بفلان والتشفع بفلان والاعتماد على علان، أو على القرابة: أنك من أهل البيت، لا ينفعك هذا.

الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**يَا عَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **لَا أَمْلِكُ لَكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مِنْ مَالِي، لَا أَمْلِكُ لَكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا**»(١). هكذا قال الرسول لقومه لما دعاهم وصاح على الصفا واجتمعوا عليه، لما أنزل الله عليه قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء:٢١٤]، صعِد الصفا وصاح حتى سمِعوا صوته، من عادة الاستفزاع أنهم يصيحون على مرتفع أو على شيء ثم يرون ما الواقع، لَمَّا جاؤوا قال لهم: «**اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ اللهِ، لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا**».

(١) أخرجه البخاري (٢٧٥٣، ٣٥٢٧)، ومسلم (٢٠٤، ٢٠٦).

وقال تعالى: ﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [يونس:١٨].

فبيَّن سبحانه أن المتخذين شفعاءَ مشركون، وأن الشفاعة لا تحصل باتخاذهم هم، وإنما تحصل بإذنه للشافع، ورضاه عن المشفوع له.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال تعالى: ﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [يونس:١٨])، يحتاج إلى الشفيع المخلوق الذي لا يعلم أحوال رعيته ولا أحوال مملكته، فهو بحاجة إليهم يبلغونه ويعينونه فيَقبل شفاعتهم وإن كان لم يرضَ بها؛ لأجل أن يستجلبهم ويتألفهم.

أما الله فغنيٌّ عن خلقه سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وليس بحاجة إلى أحد، فكيف تتخذ عنده واسطة وشفيعًا لم يأذن الله له؟! كأنك تريد أن تفرض على الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شيئًا لم يَشْرَعْهُ ولم يَرْضَ به!

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال تعالى: ﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا

﴿لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [يونس:١٨])، هذا في سورة يونس، ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ﴾ [يونس:١٨]: يعني لا يملك لهم ضرًّا ولا نفعًا.

ولكن يقولون: نحن نعلم أنه لا يضر ولا ينفع، لكن النبي يشفع لنا عند الله، قال الله: الشفاعة لله جَلَّوَعَلَا، لا يملكونها أيضًا؛ فأنتم على غير طريق صحيح.

﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ﴾ تخبرون الله، ﴿بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: يعني: مثل ملوك الدنيا الذين لا يعلمون عن أحوال الرعية حتى يبلغهم من يأتيهم من الأكابر ومن الموظفين ويخبرونه، وإلا فهو لا يحيط بمملكته، فهو بحاجة إليهم، أما الله فهو غني، يعلم ما في السموات وما في الأرض، ليس بحاجة، فقياسهم الخالق على المخلوق هذا قياس معكوس.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨])، ﴿عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾: سمى هذا شركًا، وهم يسمونه شفاعة، سماه الله شركًا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فبين سبحانه أن المتخذين شفعاءَ مشركون)**، ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [يونس:١٨]. سماهم مشركين، وهم يزعمون أنهم يعبدون الله ويتشفعون عنده بالمخلوقين من الرسل والملائكة.

طريق لم يشرعه الله، لن تصل إلى الله، أنت على ضلال، لن تصل إلى الله إلا إذا جئت مع الطريق الذي رسمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:١٥٣].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وأن الشفاعة لا تحصل باتخاذهم هم، وإنما تحصل بإذنه للشافع، ورضاه عن المشفوع له)**، لا تحصل الشفاعة بطلبك إياها ممن لا يملكها وهو المخلوق، مهما بلغ من التقى والعبادة هو ضعيف مملوك، محتاج إلى الله، لا يملك شيئًا.

وفي الآية الأخرى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر:٣] يعني: الخالص من الشرك، أما الدين الذي فيه هذا لا يقبله الله: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ﴾ يعني: هذه الشفاعة، ﴿لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر:٣].

فكذَّبهم وكفَّرهم بهذا الصنيع، وهم يحسبون أنهم على طريق صحيح باتِّخاذ الأولياء والصالحين شفعاءَ عند الله!

وسر الفرق بين الشفاعتين: أن شفاعة المخلوق للمخلوق، وسؤاله للمشفوع عنده، لا يفتقر فيها إلى المشفوع عنده، لا خَلْقًا ولا أمرًا ولا إذنًا، بل هو سبب مُحَرِّكٌ له من خارج، كسائر الأسباب التي تُحرّك الأسباب.

وهذا السبب المحرك قد يكون عند المتحرك لأجله ما يوافقه، كمن شُفِع عنده في أمر يُحبه ويرضاه، وقد يكون عنده ما يُخالفه، كمن يُشْفَعُ إليه في أمر يكرهه، ثم قد يكون سؤاله وشفاعتُه أقوَى من المعارض، فيقبل شفاعة الشافع، وقد يكون المعارض الذي عنده أقوى من شفاعة الشافع، فيردها ولا يقبلها، وقد يتعارض عنده الأمران، فيبقى مترددًا بين ذلك المعارض الذي يوجب الرد، وبين الشفاعة التي تقتضي القبول، فيتوقف إلى أن يترجح عنده أحدُ الأمرين بمرجِّح.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وسر الفرق بين الشفاعتين: أن شفاعة المخلوق للمخلوق، وسؤاله للمشفوع عنده، لا يفتقر فيها إلى المشفوع عنده)، يعني أنهم قاسوا الخالق على المخلوق في أنه لا بد أن يقبل شفاعة الشفعاء فيمن غضِب عليه، أو أراد الانتقام منه، يقبل شفاعتهم؛ لأنه محتاج إلى الشفعاء، محتاج إليهم ليخدموه، ولو أنه لم يقبل شفاعتهم لنفروا منه، فهو بحاجة إلى أن يقبل شفاعة الشفعاء عنده، أما الله جَلَّ وَعَلَا فإنه غنيٌّ عن خلقه، ليس بحاجة إلى أحد، هذا من ناحية.

الناحية الثانية: أنه يعلم كل شيء، كل ما في السموات والأرض يعلمه بدون أن يبلغه أحد عن حاجة فلان وعلان، يعلم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ما في السموات وما في الأرض، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزمر:٤٤]: يوم القيامة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وسر الفرق بين الشفاعتين: أن شفاعة المخلوق للمخلوق، وسؤاله للمشفوع عنده، لا يفتقر فيها إلى المشفوع عنده، لا خَلْقًا ولا أمرًا ولا إذنًا)**، من الله، الشفاعة عند الخالق ليست مثل الشفاعة عند المخلوق؛ الله يعلم وليس بحاجة إلى من يبلغه، والمخلوق بحاجة إلى من يبلغه عن أحوال رعيته وحاجتهم، وما يخل بملكه، يحتاج إلى أعوان، وإلى ناس يقومون بسد الثغرات التي تحصل، فهو بحاجة وضرورة أن يقبل شفاعة الشفعاء ولو لم يرغب فيها، ولو لم يَرْضَ عنها.

أما الله جَلَّ وَعَلَا فإنه ليس كذلك؛ ﴿هُوَ ٱلْغَنِيُّ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، لا يحتاج إلى المخلوقين، ولا إلى شيء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهو لا يقبل الشفاعة إلا بما أذن له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، الشفاعة ملك له لا يقبلها إلا بإذنه إذا أَذِن فيها.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقد يتعارض عنده الأمران، فيبقى مترددًا بين ذلك المعارض الذي يوجب الرد، وبين الشفاعة التي تقتضي القبول، فيتوقف إلى أن يترجح عنده أحدُ الأمرين بمرجِّح)**، هذا في حق المخلوق.

فشفاعة الإنسان عند المخلوق مِثْلِه هي سعيٌ في سبب منفصل عن المشفوع إليه، يُحرِّكه به، ولو على كُرْهٍ منه، فمنزلة الشفاعة عنده منزلة من يأمر غيره أو يُكْرِهه على الفعل، إما بقوةٍ وسلطان، وإما بما يرغِّبه، فلا بد أن يحصل للمشفوع إليه من الشافع: إما رغبة ينتفع بها، وإما رهبة منه تندفع عنه بشفاعته.

وهذا بخلاف الشفاعة عند الرب سبحانه؛ فإنه ما لم يخلق شفاعة الشافع، ويأذن له فيها، ويحبها منه، ويَرْضَ عن الشافع، لم يمكن أن توجد.

والشافع لا يشفع عنده لحاجة الربّ إليه، ولا لرهبته منه، ولا لرغبته فيما لديه، وإنما يشفع عنده مُجرَّد امتثالٍ لأمره وطاعةٍ له، فهو مأمور بالشفاعة، مطيع بامتثال الأمر؛ فإن أحدًا من الأنبياء والملائكة وجميع المخلوقات لا يتحرك بشفاعةٍ ولا غيرها إلا بمشيئة الله وخَلْقه، فالرب تعالى هو الذي يحرِّك الشفيع حتى يشفع.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ويَرْضَ عن الشافع) يعني يكون الشافع مقبولًا عنده، يرضى عنه، أما المخلوق فقد يقبل الشفاعة مِن عدوه وهو يكرهها؛ حفاظًا على ملكه، وحفاظًا على تألُّف الناس بخدمته.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فإن أحدًا من الأنبياء والملائكة وجميع المخلوقات لا يتحرك بشفاعةٍ ولا غيرها إلا بمشيئة الله وخَلْقه، فالرب تعالى هو الذي يحرِّك الشفيع حتى يشفع)، هو الذي يدبر الشفيع ويقبل شفاعته برضاهُ، أما المخلوق فقد يقبل شفاعة الشفيع وهو يكرهها؛ لأنه مُضْطَرٌّ إلى تألف الناس.

والشفيع عند المخلوق هو الذي يحرك المشفوع إليه حتى يقبل، والشافع عند المخلوق مستغنٍ عنه في أكثر أموره، وهو في الحقيقة شريكه، ولو كان مملوكه وعبده، فالمشفوع عنده محتاج إليه فيما يناله منه من النفع بالنصر والمعاونة وغير ذلك، كما أن الشافع محتاج إليه فيما يناله منه من رزق أو نصر أو غيره، فكلٌّ منهما محتاج إلى الآخر.

ومَن وفَّقه الله لفَهم هذا الموضع ومعرفته، تبيَّن له حقيقة التوحيد والشرك، والفرق بين ما أثبته الله من الشفاعة وبين ما نفاه وأبطله، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومَن وفَّقه الله لفَهم هذا الموضع ومعرفته، تبيَّن له حقيقة التوحيد والشرك)**، لكن أكثر ضلال العالَم وشرك المشركين سببه طلبه الشفاعة من غير ضوابطَ شرعيةٍ، هو الذي أهلك كثيرًا من الناس.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومَن وفَّقه الله لفَهم هذا الموضع ومعرفته، تبيَّن له حقيقة التوحيد والشرك)**، يعني مَن فَهِم الشفاعةَ الصحيحة، الشفاعةَ المثبتة، والشفاعةَ غيرَ الصحيحةِ المنفيةَ، وفرَّق بينهما؛ هذا هو الذي حصل على ما يرشده ويدله إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وما ضل مَن ضل مِن العالَم إلا بسبب عدم فَهمِ الشفاعة على الوجه المطلوب.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والفرق بين ما أثبته الله من الشفاعة وبين ما نفاه وأبطله، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠])**، لا بد أن يدرس الإنسان

الشفاعة وأسبابها ومقتضياتها، ويعرف الشفاعة الصحيحة، ويعرف الشفاعة غير الصحيحة، يجب أن يدرس هذا؛ لأن الشفاعة ضل بها خَلْقٌ كثير، ولا يزالون يضلون الآن في عبادة القبور، وإذا نُهوا عن ذلك قالوا: نحن نعلم أنهم لا يضرون ولا ينفعون، ولكن نريد منهم الشفاعة عند الله فقط! يقولون: لا نريد منهم إلا الشفاعة والوساطة عند الله عَزَّوَجَلَّ!

فهرس الموضوعات

الباب الثالث عشر: في مكايد الشيطان التي يكيد بها ابنَ آدمَ..........٥
تفسير قوله تعالى: ﴿ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾..........٥
تفسير قوله تعالى: ﴿ إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا ﴾ الآيات........٢٧
قوله تعالى: ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ﴾..........................٣١
تغيير الفطرة..٣٩
قوله تعالى: ﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ ﴾الآية....٤٣
فصل: الشيطان يزين للإنسان المعصية ثم يتبرأ منه..................٤٧
معنى قول إبليس لعنه الله: ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾..........٥٢
فصل: من مكايد الشيطان تخويف المومنين من جنده وأوليائه..........٥٨
فصل: كيده لآدم وحوَّاء..................................٧٥
معنى الوسوسة..٧٨
الطريقة التي دخل بها الشيطان على آدم وحواء....................٧٨
كيف أطمع عدوُّ الله إبليسُ آدمَ أن يكون بأكله من الشجرة من الملائكة..٨٣
تسمية الأمور المحرَّمة بالأسماء التي تحب النفوس مسمياتها..........٨٦

معنى قوله تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾........................٩١
فصل: من مكايد الشيطان: الغلو والتقصير.......................٩٥
صوَر من التقصير والغلو الذي أوقع الشيطان فيه الناسَ..........٩٩
فصل: من كيده: الاعتماد على الآراء والأهواء........................١٤٣
فصل: من كيده: تزيين الأدلة العقلية..................................١٤٧
فصل: من كيده: شطحات الصوفية.....................................١٤٩
فصل: من أنواع كيده: تحسين المنكر وتقبيح الحسن...............١٥٥
فصل: من مكايده ما يكون من طريق عزة النفس...................١٦٠
فصل: من كيده: الدعوة إلى عزلة الناس والتكبُّر عليهم..........١٦٤
فصل: من كيده: إغراء الإنسان بالتعزز والتكبر....................١٧٤
فصل: من كيده: أنه يحسِّن إلى أرباب التخلي والزهد والرياضة العملَ بهاجسهم وواقعهم دون تحكيم أمر الشارع.......................١٧٧
مَن ظن أنه يستغني عمَّا جاء به الرسول ﷺ بما يلقى في قلبه من الخواطر والهواجس فهو من أعظم الناس كفرًا.........................١٨٥
فصل: من كيده بهم: إلزامهم أشياءَ لم يُلزمهم الشرع بها.........٢٠٥
فصل: من كيده: الوسواس في الطهارة.............................٢١٥
سُنة النبي ﷺ في الوضوء والاغتسال...............................٢١٩
بعض شبهات أهل الوسواس...٢٣٣
رد أهل السُّنة على هذه الشبهات.....................................٢٥٢
الميزان الذي يُعرف به الاستقامةُ على الطريق والجَورُ عنه........٢٥٦

كلام الإمام ابن قُدامة المقدسي في ذم الموسوسين........................٢٧٧
فصل: طاعة الموسوسين للشيطان..٢٨٥
تحقق طاعة الموسوسين للشيطان..٢٩١
ما يلقاه الموسوس من الأذى والعنت..٢٩٣
علاج الموسوس باستشعار أن الحق في اتِّباع السُّنة........................٣٠٢
صوَر من أحوال السلف في متابعتهم لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ........................٣٠٥
النية: قصد فعل الشيء..٣١١
إنْ شك في حصول نيته فهو نوع جنون..٣١٣
البِدَع العشر التي أحدثها الموسوسون في النية عند الصلاة............٣١٧
مِن الوساوس ما يفسد الصلاة..٣٢١
الوسوسة إما جهل بالشرع، وإما خبل في العقل........................٣٢٣
فصل: الإسراف في الماء..٣٢٩
فصل: الوسواس في انتقاض الطهارة..٣٤٦
فصل: وسوسة ما بعد البول، وهي عشرة أشياءَ........................٣٥٢
فصل: تشدد الموسوسين..٣٥٩
فصل: طهارة الخف والنعل..٣٦٥
فصل: طهارة ثوب المرأة..٣٧٠
فصل: الصلاة في النعال..٣٧٢
فصل: الصلاة حيث كان وفي أي مكان إلا المقبرة والحمام وأعطان الإبل..٣٧٦

فصل: الصلاة بأثر الطين وغيره على القدمين........................٣٨٧
فصل: حكم المذي الذي يصيب الثوب........................٣٩٣
فصل: الاستجمار بالأحجار........................٣٩٥
فصل: حمل الأطفال في الصلاة........................٤٠٤
فصل: أثواب المشركين........................٤٠٩
فصل: ما أفضلت السباع........................٤١٢
فصل: يسير الدم........................٤١٦
سُؤْر الهرة........................٤١٨
الماء لا ينجس إلا بالتغيُّر بنجاسة........................٤٢٢
فصل: طعام أهل الكتاب........................٤٢٨
لُعاب الصبيان وبولهم........................٤٣٢
بُعِث النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالحنيفية السمحة........................٤٣٥
الشرك وتحريم الحلال قرينانِ........................٤٣٧
هلاك المتنطعين........................٤٣٩
فساد هذا الدين من تحريف الغالي، وانتحال المبطل، وتأويل الجاهل....٤٤٨
فصل: الوسوسة في مخارج الحروف........................٤٥٢
فصل: في الجواب عمَّا احتج به الموسوسون........................٤٦١
قولهم: بأن فعلهم من باب الاحتياط........................٤٦١
الاحتياط ينفع صاحبه إذا كان في موافقة السُّنَّة........................٤٦٨
الشبهات: ما يشتبه فيه الحق بالباطل، والحلال بالحرام........................٤٧٥

لا يتقرب إلى الله إلا بما شرع ٤٧٧
استدلال الموسوسين بترك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَكْلَ التمرة خشيةَ أن تكون من الصدقة، والرد على ذلك ٤٧٧
الرد على استدلالهم بفتوى الإمام مالك فيمن طلَّق ولم يَدْرِ أَوَاحدةً أَمْ ثلاثًا، أنها ثلاثٌ احتياطًا ٤٧٩
فصل: من حلف بالطلاق على شيء، ثم تبيَّن كما قال، أو خلافه ٤٨٢
فصل: من طلق واحدة فنسيها، أو واحدة مبهمة ٤٨٥
فصل: من حلف على يمين ثم نسيها ٤٩٦
فصل: من حلف بالطلاق على شيء ولم يعيِّن له وقتًا ٤٩٧
فصل: حكم تعليق الطلاق بوقت يجيء لا محالة ٤٩٧
فصل: الرد على استدلال الموسوسين بأن من شك هل انتقض وضوؤه أمْ لا أنه وجب عليه الوضوء احتياطًا ٥٠١
فصل: مَن خفي عليه موضع النجاسة ٥٠٦
فصل: مَن اشتبه عليه الثياب الطاهرة بالنجسة ٥٠٧
فصل: اشتباه الأواني النجسة بالطاهرة ٥١٠
فصل: إذا اشتبهت القِبْلة على المصلي ٥١٣
فصل: مَن نسي صلاة لا يعلم عينها ٥١٦
فصل: مَن شك في صلاته، ومَن شك في حِل صيده ٥١٩
فصل: الرد على ما استدل به الموسوسون مِن غسل ابن عمر وأبي هريرة داخل العينين ٥٢٤

ذكر الخلاف في الغُرَّة والتحجيل........................ ٥٢٦

فصل: الرد على قول الموسوسين: الوسواس خير من تمشية الأمر والحال........................ ٥٣٠

فصل: من مكايد الشيطان: الفتنة بالقبور وأهلها........................ ٥٣٤

أول ما وقع الشرك في الأرض في قوم نوح........................ ٥٣٩

أصل الشرك: الغلوُّ في الصالحين وآثارهم وقبورهم........................ ٥٤٦

نهي النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن اتِّخاذ القبور مساجدَ، وذكر الأحاديث في ذلك........................ ٥٤٦

الحكمة من نهي النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن اتخاذ القبور مساجدَ والصلاة فيها وعندها........................ ٥٤٩

كل ما لَعَن رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهو من الكبائر........................ ٥٦٦

فصل: فتنة اتخاذ القبور أعيادًا وموالدَ........................ ٥٧٩

فصل: المفاسد الناشئة عن اتخاذ القبور أعيادًا........................ ٥٩١

ما يفعله غلاة المتخذين لأعياد القبور عندها........................ ٥٩٧

كلام ابن عَقِيل رَحِمَهُ اللهُ في القبوريين........................ ٦٠٦

بيان سُنة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في القبور، ومخالفة القبوريين لها........................ ٦٠٩

الحكمة التي شُرعت لأجلها زيارة القبور، ومخالفة القبوريين لذلك........................ ٦٣٩

زيارة القبور المشروعة، وصفتها........................ ٦٤١

مَن زار القبور على غير الوجه المشروع فإن زيارته غيرُ مأذون فيها........................ ٦٤٣

لن يُصلِح آخِرَ هذه الأمَّة إلا ما أصلح أوَّلَها........................ ٦٤٧

كان الصحابة ومَن بعدهم يستقبلون القِبلة عند الدعاء، ويجعلون ظهورهم إلى القبر........................ ٦٤٩
الميت محتاج إلى مَن يدعو له ويشفع له........................ ٦٥٢
مِن المحال أن يكون دعاء الموتى أو الدعاء بهم أو عندهم مشروعًا وعملًا صالحًا ثم يُصرَف عنه القرون الثلاثة المفضَّلة........... ٦٦٥
ذكر ما فعله الصحابة بدانيال، والعبرة من ذلك........................ ٦٧٠
الدعاء عند القبور إما أن يكون أفضل منه في غير ذلك الموضع أو لا.... ٦٧٥
إنكار الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لِمَا هو أدنى من دعاء القبور........................ ٦٧٨
حديث ذات أنواط، والعبرة منه........................ ٦٨١
بيان الفرق الشاسع بين منهج السلف ومنهج الخلوف الذين جاؤوا بعدهم، وذكر أقوالهم في ذلك........................ ٦٩٤
فصل: من أعظم مكايد الشيطان: الأنصاب والأزلام........................ ٧٠٢
معنى الأنصاب........................ ٧٠٢
معنى الأزلام........................ ٧٠٢
قول العرَّافين والمنجمين: افعل كذا لأجل كذا، والعكس، من الاستقسام بالأزلام........................ ٧٠٥
حكم المساجد والقباب المبنية على القبور........................ ٧١١
ذكر بعض ما في مدينة دمشق من المواضع التي صارت أنصابًا........ ٧١٧
مِن كيد الشيطان: ما يزينه لأهل القبور مِن أنَّ مَن نهى عن عبادته واتِّخاذه عيدًا فقد تنقَّصه وهضم حقه، فيَسْعَون لقتله وعقوبته.......... ٧٣١

فصل: هدم المساجد والقباب التي على القبور تعظيم وإكرام لأهلها.... ٧٣٤
فصل: الأسباب التي دعتْ إلى عبادة القبور.................... ٧٤٩
إنكار أئمة الإسلام للدعاء عند القبور والدعاء به.................. ٧٥٩
الأمور المبتدعة عند القبور مراتبُ.......................... ٧٧١
حكاية الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه كان يقصد قبر أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ للدعاء عنده
كذبٌ ظاهر.. ٧٧٣
فصل: الفرق بين زيارة الموحِّدين للقبور وزيارة المشركين............ ٧٧٦
السر الذي لأجله عُبدت الكواكبُ واتُّخِذت لها الهياكل............... ٧٨٢
القرآن مملوءٌ بالرد على هؤلاء، وذكر بعض الآيات في ذلك.......... ٧٩١
الشفاعة الحقيقيَّة، والشفاعة الشِّركية.......................... ٧٩١
فهرس الموضوعات.................................... ٨٢٣

تم بحمد الله المجلد الثاني، ويليه المجلد الثالث، وأوله:

«فصل: ومن مكايد عدوِّ الله ومصايده...»